المجلد الثاني عشر

الجزء ١ و ٢

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

كانون الثاني ـ شباط

١٩٣٢

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً

في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الرابعة	كل سنة منها
»	٣٠٠	» الخامسة الى العاشرة	» »
في الخارج	٦٠٠	» الاولى الى الرابعة	» »
»	٣٥٠	» الخامسة الى العاشرة	» »

المجلد الثاني عشر

ج ١

١٩٣٢

١٣٣، ١٣٤

اعضاء المجمع العلمي

« في سنة ١٩٣١ »

الرئيس : السيد محمد كرد علي

« الاعضاء »

	السادة	محل الاقامة
١	الدكتور اسعد الحكيم	دمشق
٢	الشيخ محمد بهجة البيطار	«
٣	السيد جميل العظم	«
٤	السيد خليل مردم بك	«
٥	السيد رشيد بقدونس	«
٦	السيد سليم الجندي	«
٧	السيد سليم عنحوري	«
٨	السيد شفيق جبري	«
٩	السيد عارف النكدي	«
١٠	الشيخ عبد القادر المبارك	«
١١	الشيخ عبد القادر المغربي	«
١٢	السيد عبد الله رعد	«
١٣	السيد عز الدين التنوخي	«
١٤	السيد فارس الخوري	«
١٥	الدكتور مرشد خاطر	«
١٦	السيد معروف الارناؤوط	«
١٧	الامير مصطفى الشهابي	«
١٨	الشيخ ابراهيم منذر	بيروت
١٩	السيد امين الريحاني	بيروت
٢٠	السيد بولس الخولي	«
٢١	الشيخ عبد الرحمن سلام	«
٢٢	السيد عمر فاخوري	«
٢٣	الدكتور فيليب حتي	«
٢٤	الفيكونت فيليب دي طرازي	«
٢٥	الشيخ مصطفى الغلاييني	«
٢٦	الدكتور نقولا فياض	«
٢٧	السيد عيسى اسكندر المعلوف	زحلة
٢٨	الشيخ احمد رضا	النبطية
٢٩	الشيخ سليمان ظاهر	«
٣٠	السيد جرجي يني	طرابلس الشام
٣١	الشيخ سليمان احمد	اللاذقية
٣٢	السيد ادوارد مرقص	«
٣٣	الشيخ محمد زين العابدين	انطاكية
٣٤	الشيخ بدر الدين النعساني	حلب
٣٥	السيد جبرائيل رباط	«
٣٦	الشيخ راغب الطباخ	«

« الاعضاء »

السادة	محل الاقامة
٣٧ الشيخ عبدالحميد الجابري	حلب
٣٨ السيد عبدالحميد الكيالي	«
٣٩ السيد قسطاكي الحمصي	«
٤٠ الشيخ كامل الغزي	«
٤١ السيد ميخائيل الصقال	«
٤٢ السيد اسعاف النشاشيبي	القدس
٤٣ الشيخ خليل الخالدي	«
٤٤ السيد عبدالله مخلص	حيفا
٤٥ الشيخ سعيد الكرمي	طول كرم
٤٦ الشيخ رضا الشبيبي	النجف الاشرف
٤٧ الدكتور امين المعلوف	بغداد
٤٨ الاب انستاس الكرملي	«
٤٩ السيد جميل صدقي الزهاوي	«
٥٠ السيد كاظم الدجيلي	«
٥١ الشيخ محمد بهجة الاثري	«
٥٢ السيد معروف الرصافي	«
٥٣ الشيخ احمد الاسكندري	القاهرة
٥٤ السيد احمد امين	«
٥٥ السيد احمد حسن الزيات	«
٥٦ احمد زكي باشا	«
٥٧ احمد شوقي بك	«
٥٨ الدكتور احمد عيسى	«
٥٩ احمد لطفي بك السيد	«
٦٠ السيد اسعد خليل داغر	القاهرة
٦١ حافظ ابراهيم بك	«
٦٢ السيد خيرالدين الزركلي	«
٦٣ خليل بك مطران	«
٦٤ داود بك بركات	«
٦٥ السيد عباس محمود العقاد	«
٦٦ السيد عبد العزيز البشري	«
٦٧ الشيخ محمد الخضر حسين	«
٦٨ الشيخ محمد رشيد رضا	«
٦٩ محمد لطفي بك جمعة	«
٧٠ الشيخ مصطفى عبد الرازق	«
٧١ السيد مصطفى صادق الرافعي	طنطا
٧٢ السيد زكي مغامز	الاستانة
٧٣ السيد حسن حسني عبدالوهاب	تونس
٧٤ السيد عبدالحي الكتاني	فاس
٧٥ السيد محمد الحجوي	رباط الفتح
٧٦ الامير شكيب أرسلان	جنيف
٧٧ السيد عبدالعزيز الميمني الراجكوتي	طليكرة (الهند)
٧٨ السيد عبدالحق حيدرآباد الدكن	«
٧٩ السيد عبدالرحمن دلهي	«
٨٠ الشيخ ابو عبدالله الزنجاني	فارس
٨١ السيد عباس اقبال	«
٨٢ الدكتور سعيد ابوجمرة	برازيل

« الاعضاء »

السادة		محل الاقامة
٨٣ السيد مارسيه	Marçais	تونس
٨٤ « ماسه	Massé	الجزائر
٨٥ « كي	Guy	فاس
٨٦ « فرّان	Ferrand	باريز
٨٧ « دوسو	Dussaud	«
٨٨ « ماسينيون	Massignon	«
٨٩ « بوفا	Bouvat	«
٩٠ « كولان	Colin	«
٩١ « جويدي	Guidi	ايطاليا
٩٢ « نلينو	Nallino	«
٩٣ الاب آسين	Asin	اسبانيا
٩٤ السيد لوبس	Lopès	البرتقال
٩٥ « مونته	Montet	سويسرا
٩٦ « هيس	Hess	«
٩٧ « سنوك هورغرنيه	Snouck-Hurgronje	هولاندة
٩٨ « هوتسما	Houtsma	«
٩٩ « ارانددونك	Arendonk	«
١٠٠ « مرجليوث	Margoliouth	انكلترا
١٠١ « بفن	Bevan	«
١٠٢ « كرنكو	Krinkow	«
١٠٣ « هومل	Hommel	المانيا
١٠٤ « بروكلمن	Brockelmann	«
١٠٥ « هرزفلد	Herzfeld	«

«الاعضاء»

السادة		محل الاقامة
١٠٦ السيد هارتمان	Hartmann	المانيا
١٠٧ « ميتفوخ	Mittwoch	«
١٠٨ « ستترستين	Zetterstéen	السويد
١٠٩ « اوستروب	Œustrup	الدانيمارك
١١٠ « بول	Buhl	«
١١١ « پدرسن	Pedersen	«
١١٢ « موجيك	Mzik	النمسا
١١٣ « ماهلر	Mahler	المجر
١١٤ « كوفالسكي	Kowalski	بولونيا
١١٥ « كراتشقوفسكي	Kratchkovsky	روسيا
١١٦ « موزل	Musil	تشكيوسلوفاكيا
١١٧ « ماكدونالد	Macdonald	اميركا
١١٨ « كرسيكو	Karsikko	فنلاندا

اعضاء المجمع الراحلون

١ الشيخ طاهر الجزائري (دمشق)
٢ السيد نخلة زربق (القدس)
٣ » اغناطيوس غولدصيهر (بودابست)
٤ » مرتين هارتمان (برلين)
٥ » رنيه باسه (الجزائر)
٦ احمد كمال باشا (القاهرة)
٧ السيد مصطفى لطفي المنفلوطي »
٨ الدكتور يعقوب صروف »
٩ السيد اوجنيو غريفيني »
١٠ » رفيق العظم »
١١ » محمود شكري الالوسي (بغداد)
١٢ » حسن بيهم (بيروت)
١٣ الاب لويس شيخو »
١٤ الدكتور صالح قنباز (حماة)
١٥ السيد مالنجو (دمشق)
١٦ » الياس القدسي »
١٧ السيد براون (كمبريدج)
١٨ » كليمان هوار (باريز)
١٩ الاب جرجس شلحت (حلب)
٢٠ الحكيم محمد اجمل خان (الهند)
٢١ الشيخ سليم البخاري (دمشق)
٢٢ » محمد بن ابي شنب (الجزائر)
٢٣ » عبدالله البستاني (بيروت)
٢٤ السيد جبر ضومط »
٢٥ الشيخ مسعود الكواكبي (دمشق)
٢٦ احمد تيمور باشا (القاهرة)
٢٧ السيد ميشو بللير (طنجة)
٢٨ » عبدالباسط فتح الله (بيروت)
٢٩ المنسنيور جرجس منش (حلب)
٣٠ السيد ساخاو (برلين)
٣١ » هوروايتز (فرنكفورت)
٣٢ » انيس سلوم (دمشق)

الكوكائين (١)

—«×»—

تكلمت في محاضراتي السابقة عن المسكرات الغولية ومضارها الجسمية والنفسية والاجتماعية . وقد يظن بان الاسكار خاص بالمشروبات الغولية فقط ، فاذا قيل فلان سكران يفهم من ذلك انه ثمل من تعاطي الخمرة او الغول ، بينما السكر حالة نفسية مرضية ارادية تنشأ عن مؤثرات وعوامل كثيرة من جملتها المشروبات الغولية . ولعل السبب في تخصيص السكر عرفا بالخمر والغول ناشئ عن كون الخمر أقدم العناصر المسكرة التي عرفها الانسان وسكر بها ، ولان العناصر الاخرى حديثة العهد بالاستعمال بالنسبة اليها ، فمن الخطإ والحالة هذه تخصيص السكر بالخمر والغول لا سيما وان الخمر في اللغة ما خامر العقل ، وفي الحديث كل مسكر خمر . وان العلة التي بها عدت الخمر مسكراً وهي الاسكار قائمة بعينها في غيرها من المواد الكيماوية والنباتية ، فسبيل هذه المواد والحالة هذه سبيل الخمر في الحكم في الدليل الواضح والقياس الصحيح .

وقد اهتدى الانسان بسائق المصادفة قديماً وبفضل العلم حديثاً الى مواد كثيرة مسكرة لا تختلف من حيث تأثيرها على العقل عن الغول . وولع بها وتفنن بعدها . اهمها الأفيون وعناصره والقنب او الحشيش والكوكايين الذي هو غرض هذه المحاضرة ونبدأ بدرسه لصلته بالغول من حيث المصدر والعدوى فأقول :

« الكوكا »

في اميركا الجنوبية (في البيرو) مملكة الذهب والفضة الغنية ، في تلك الجبال

---

(١) محاضرة للاستاذ الدكتور اسعد بك الحكيم القاها في المجمع العلمي في ٤ حزيران سنة ١٩٣١ .

الشاهقة المطلة على البحر المادي ، ينبت شجر صغير يدعى الكوكا ذو أوراق خضراء قاتمة اللون رقيقة متينة بيضية الشكل ذات تعرّق خاص ورائحة عطرية خفيفة وطعم مرّ ، وكأن الطبيعة التي حرمت سكان تلك الاصقاع الاصليين سعادة الحضارة والمدنية فباتوا في ظلمات من الجهل قبائل متوحشة يغزو بعضهم بعضاً عرضةً للقرّ والحرّ والعطش والجوع ومشاق الغزو والحروب المستمرة ، كأن الطبيعة التي قضت عليهم بهذا الحرمان المؤلم لم تشأ الا ان تخفف من آلامهم فأودعت ورق تلك الشجرة المباركة شجرة الكوكا ، والكوكا في لغتهم معناها الشجرة خاصة من شأنها اذا مضغ الورق ان تبطل حس العطش والجوع والتعب مدة طويلة مما حمل الانكاسيين وهم سكان بيرو الاصليين على الاعتقاد بان هذه الخاصة منحة أنزلت عليهم من السماء وان شجرة الكوكا مقدسة مباركة طيبة تجب حرمتها ورعايتها فجعلوا زهرتها رمزاً تحلى به تروس أسرتهم المالكة وورقها لازماً من لوازم حياتهم يصطحبونه في اقاماتهم ورحلاتهم كما تلازم علبة الدخان جيب المدخنين في العصر الحاضر . فيضعونه في جراب من الجلد يسمونه الشوسبا يعلقونه على جوانبهم . اما المضغة فهي معجون من رماد الكوكا ومسحوق بعض الأصداف المحيونه في قرعة مجوفة جافة تسمى بالبوبورو وهي مباركة في عرفهم يعلقونها على جوانبهم مع الشوسبا ، وبالنظر لما للخيل من الاعزاز الشديد عند الانكاسيين لاحتياجهم اليها في الاسفار والحروب فهم لا يضنون عليها بورق الكوكا فتشد في عضدها و يساعدها على تحمل المشاق كما يساعد الرجال على تحمل اعباء المعارك الطويلة وشدائدها .

هكذا كان حال الانسان الهمجي مع الكوكا في ذلك العهد الغابر ، اما بعد الفتح والاستيلاء فلقد اخذ ذلك العنصر الاصلي بالانقراض بسعي العنصر المدني الفاتح الذي حل محله لجمل من تلك الجبال الحاوية مناجم لتبت الذهب والفضة ومد يده الى الكوكا فاستهوته خمرتها وأعجبته نشوتها فعني بزراعتها وصناعتها فكانت له منها ثروة عظمى وتجارة لا تبور .

بيد ان هذه الشجرة المباركة التي كانت عوناً للانسان الانكاسي على تحمل المشاق والشدائد وآلام الجوع والعطش لم تلبث ان انقلبت في عهد الانسان المدني الفاتح خمرة تلعب بالعقول وتعبث بالاجسام تستهوي النفوس وتعيث بالابدان تثير الشهوة وتخمد القوة تشعشع كالبرق في الظلمات فتبصرها العيون الضالة فتسير اليها ، وتلمع كالسراب في

الفلوات فتلحظها القلوب الظمآنة فتتهافت عليها فتخطف تلك بنورها وتحرق هذه بنارها ، فكأنها وقد أغضبها عبث الفاتح بحرمتها لم تشأ الا ان تثأر لمقدسها . فياله من ثأر تبدد فيه العقول وتفلج الأعضاء وتسلب فيه الأموال وتثلم الأعراض . ثأر مؤلم تضاهي فيه ضحايا الكوكايين قتلى الفاتح من الانكاسيين بل هو أشد وانكى . وها نحن نقص عليكم كلمة العلم الحاضر في الكوكا والكوكايين وفي هذه الكلمة ذكرى وعبرة .

« تأثير الكوكا الفسيولوجي »

ظن الاطباء بادئ بدء ان في ورق الكوكا مادة غذائية وذلك لابطالها حس العطش والجوع والتعب فأخذوا يستعملونها في الحالات المرضية التي تترافق بالضعف والوهن وسوء التغذية ، وصنفوها مع الادوية المقوية يصفونهـا بصورة خلاصة او صبغ او ممزوجة مع الخمر او الغول ، غير ان هذه العقيدة لم تلبث حتى ظهر فسادها فقد تبين ان منع الكوكا الجوع والعطش ليس ناشئاً عن كونها مغذية بل لانهـا مخدرة مبطلة للحس ، وذلك لان التجارب أثبتت ان الحيوانات التي تمنع من المواد المغذية وتعطى الكوكا فقط تموت في الزمن نفسه الذي تهلك فيه الحيوانات التي لاتعطى الكوكا ، وتبين ايضاً ان النشاط العضلي الذي يشعر به المرء عند مضغ ورق الكوكا ليس منبعثاً عن حرارة غذائية بل عن خاصة في الكوكا هي ان القليل منها يحدث اثارة في الجهاز العصبي المركزي وفي العضلات فيستر هذا النشاط العصبي التعب مدة ، ويفسح للمرء مجالاً الى اتمام العمل الشاق دون ان يشعر بالتعب ولكن هذا التعب لابد له من الوقوع غب انتهاء تأثير الكوكا في الجسم .

« الكوكايين »

تاريخ اكتشافه — وقد ظل ورق الكوكا مستعملاً في الطب كعلاج منبه بالكيفيات الآنفة الذكر حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث توصل الكيماوي الالماني (Niemann) نيمان سنة ١٨٥٩ الى اكتشاف العامل المؤثر الموجود في ورق الكوكا وسماه الكوكايين .

وقد كان لهذا الاكتشاف الخطير أهمية كبرى في عالم الطب لا سيما في الجراحة وأمراض العيون والحلق والحنجرة ، لما سهل لها من الأعمال التي كانت ممتنعة عليها قبل هذا الاكتشاف الذي بقيت فيه ضالة منشودة منذ العصور القديمة وهي التخدير الموضعي .

لتهافت عليه الاطباء والجراحون يطرو. منافعه و يستنكرون مضاره يصفونه لمرضاهم باسراف يسكنون به آلامهم و يبطلون بذلك حواسهم ولم يكن يخطر لاحدهم على بال بان هذا البلسم النافع الكريم سيكون بعد حين لصاً خائناً يتسرب الى عقل لامسه فيسرقه والى جسمه فيضنيه والى أخلاقه فيفسدها ٠

صفاته الطبيعية — ماهوالكوكايين ؟ الكوكايين مسحوق ناعم أبيض قليل الذوبان في الماء ولذلك لايستعمل في حالته الطبيعية ، بل يستعمل بصورة كلورمائية الكوكايين ، وهو مسحوق ابيض مؤلف من بلورات لطيفة شديدة الذوبان في الماء ، وللكوكايين عملان مختلفان في الجسم احدهما موضعي والآخر عمومي ٠

تأثيره الموضعي — اما العمل الموضعي فان طلي البشرة ولا سيما الأغشية المخاطية بالكوكايين يحدث تخديراً في نهايات الاعصاب السطحية ايبطل فيها الحس ٠ ويقل ورودالدم اليها ، ويكون هذا الفعل شديداً بنسبة رقة الغشاء ووفرة عصبه ٠

العمل العمومي — ويتعدى الكوكايين هذاالحد من التأثير فيتسرب الى العصب الودي فيثيره فتتوسع الحدقة ، والى البصلة الدماغية حيث نقطة الحياة فيهدد صاحبه بالسكتة الصدرية والقلبية ، والى القشرة الدماغيـة حيث مراكز العقل وادراك الحس والحركات الارادية فيسممهـا فتعتري مدمنه الأوهام والتخيلات والعته والجنون ، وينساب الى موارد الأعصاب وألياف العضلات فيحدث فيها عندما تكون الكمية الممتصة قليلة نشاطاً وخفة فيتوقد الذهن وتنتبـه الحواس وتسكن الآلام وتنشط العضلات ، و يشعر المرء بحاجة للحركة وبمقدرة على العمل ، وتشتد الانعكاسات الوترية وتزداد ضربات القلب وتنقبض الأوعية ويرتفع الضغط الدموي وتتصاعد الحرارة ٠ اما اذا كانت الكمية كبيرة فان هذا النشاط يشتد لدرجة الاختلاج ثم لايلبث ان يعقبه الخدر والفالج وضياع الحس العمومي فتضطرب ضربات القلب وتنقطع وتفقـد نظامهـا ، ويعسر التنفس و يضعف وتزرق الاطراف ثم ينقطع النفس و يقف القلب فيقع الموت ٠

ومن هذه الكلمة الفسيولوجية يتبين لنا ان للكوكايين خاصتين مختلفتين : احداهما موضعية وهي تخدير نهايات الاعصاب السطحية وابطال الحس ٠ والثانيـة دماغية عضلية

عمومية وهي إثارة الدماغ في بادئ الامر ثم التخدير العمومي ·

استعماله في الطب — و بالنظر لما لهاتين الخاصتين من الأهمية الكبرى في الجراحة فقد لقي الكوكايين منذ اكتشافه رواجاً عظيماً في الطب الخارجي فاستعمل بادئ بدء مخدراً عاماً غير انه لم يلبث طويلاً حتى أعرض عنه الجراحون لامرين : احدهما حصول الاحتداد الشديد قبل دور الخدر · وثانيهما كون المقدار اللازم لابطال الحس العضلي العام يقرب من المقدار القتال · واكتفوا باستعماله مخدراً موضعياً في العمليات الجراحية التي لا تتطلب ابطال الحس العام ·

التسمم بالكوكايين — إن الكوكايين سم قاتل يبدأ فعله بالسكر وبالتخيلات البصرية والسمعية وبهذيان شديد العربدة وبالدوار ثم الرعشة والاختلاج الذي يعقبه هبوط القوى والخدر العمومي ثم الموت · وقد يؤثر الكوكايين فوراً على بصلة الدماغ حيث مراكز الحياة فيحدث السكتة القلبية فيصفر الوجه ويكمد ويغشاه العرق البارد ثم يقف القلب و يقع الموت ·

ويختلف المقدار الباعث للموت حسب كيفية اخذ الكوكايين و كميته وبنية الانسان فقد ذكر ان ولداً عمره ٤ سنوات أعطي فتيلة فيها ٠،٢٥ من الكوكايين فمات وان مثل هذا الحادث وقع عند انسان تناول ٠،٣٠ من الكوكايين وعند آخر عقب تخدير سن بحقن ٠،٠٥ من الكوكايين في اللثة مما صرف الاطباء عن استعماله الى غيره من المخدرات الموضعية التي لها ما للكوكايين من الفعل بينما أضرارها في الجسم أخف بكثير ·

كيفية استعماله — اما كيفية استعمال الكوكايين في الطب الخارجي فمختلفة فهو يستعمل طلياً وتقطيراً وحقناً تحت الجلد ·

اما طريقة الطلي فتستعمل في بعض أمراض الجلد وفي أمراض الاذن والأنف والحنجرة والفم · واما طريقة التقطير فيلجأ اليها في أمراض العين وعملياتها الجراحية ·

طريقة حقنه تحت الجلد — هذا وبما ان البشرة الصحيحة السالمة تمنع الكوكايين اذا طليت به من التسرب لما تحتها من النسج فيظل حساساً — اضطر الجراحون لابطال الحس في الطبقات الجلدية العميقة الى إدخال الكوكايين اليها بطريقة الحقن تحت الجلد ·

استعماله في الطب الداخلي — اما استعمال الكوكايين في الطب الداخلي فيرجع تاريخه الى زمن اكتشافه ، فقد اخذ الاطباء في أواخر القرن الماضي يصفون الكوكايين لمرضاهم في جل الآفات المؤلمة وحالات الخمول العصبي جاهلين مايخبئه هذا الافعى من السم الناقع تحت طيات ملامسه الناعمة وما هي الا سنون قليلة حتى ظهر للاطبـاء والجراحين خطر استعمال الكوكايين ومضاره العقلية فأعرضوا عنه لان كثيراً من المرضى الذين كان يوصف لهم الكوكايين بمقادير قليلة لتسكين آلامهم اخذوا يعتادون استعماله فيكررون تناوله مرات متعددة في اليوم حتى اذا أدمنوه تمكن من نفوسهم وتعذر عليهم تركه وأصبح من لوازم حياتهم فتظهر عليهم ثمة علائم التسمم المزمن اوالكوكائينية التي انتشرت خاصة عام ١٨٧٨ عندما قام (Bentley) بمداواة المورفينية بالكوكايين وراجت طريقته هذه لا سيا في انكلترا واميركا ولكنها لم تلبث طويلاً حتى ظهر فسادها فأهملت بتاتاً وذلك لان المبتلين بالمورفين الذين عولجوا بالكوكايين الفوا استعمال هذا السم ايضاً دون ان يتركوا المورفين فأصيبوا بالدائين معاً .

الكوكائينية — واول من وصف التسمم الكوكائيني المزمن اوالكوكائينية (Shaw) طبيب مستشفى سان لويس في لويزيان من الممالك المتحدة سنة ١٨٥٩ ثم في سنة ١٨٨٦ نشر (Erlenmeyer) بحثاً عمقاً جمع فيه كثيراً من المشاهدات والاسانيد العلمية في الاختلالات النفسية الناتجة عن الكوكايين وفي سنة ١٨٨٩ عرض مانيان ومعاونه سوري على جمعيـة العلوم الحيوية بياناً مسهباً استقصيا فيه وصف جميع الاعراض النفسية التي تنتج عن استعمال الكوكايين المزمن مؤيدين آراءهما بالمشاهدات الكثيرة والتجارب العلمية الصادقة فأقر المجمع هذا البيان وعده حقيقة علمية لاتقبل الريب ولا الجدل .

ومما تقدم ذكره يتضح لنا ان استعمال الكوكايين حتى أواخر القرن التاسع عشر كان منحصراً بالطب والصيدلة وان التسمم الكوكاييني المزمن كان فردياً عرضياً ولم يكن اجتماعياً ارادياً . وان التجارب والمشاهدات اطلعت الاطباء على ما كانوا يجهلونه من فعل الكوكايين وعلى مضاره النفسية فأخذوا يحددون منطقة استعماله و يحذرون مرضاهم اعتيـاده . ولكن ما الحيلة وقد سبق السيف العذل . فان النفوس التي كانت تستعمل الكوكايين

لاخماد آلامها الثائرة اخذت تلجأ اليه لاثارة شهواتها وغرائزها الخامدة فخرج الكوكايين من الصيدلية الى الحانة ومن مخدر الى مسكر ومن يد الاطباء الى تجار النفوس والاعراض ، وما بزغت شمس سنة ١٩١٤ على العالم الا والكوكايين يظلل بسلطانه عواصم الامم المتمدنة ويعلن على البشرية حرباً ضروساً لو انها استمرت لأربت ضحاياها على ضحايا الحرب العالمية الكبرى بكثير .

قال الدكتور (Maier) ماير : أستاذ سريريات الطب النفسي في زوريخ في كتابه الكوكائينية ، المطبوع عام ١٩٢٦ ان التسمم المزمن بالكوكايين قد ازداد في السنين الاخيرة زيادة عظيمة ، فما من مملكة متمدنة الا وقد شملتها أضراره ، وقد شاهدت سويسرة هذا الوباء الاجتماعي يتأصل في تربتها في الحرب العالمية الاخيرة ويملأ بضحاياه دور الأمراض النفسية .

وقال كورتوا سوفيت وجيرو (Courtois - Suffit و R. Giroux) في وصفهما تجارة الكوكو في حانات مونمارتر في باريز ما نصه :

« في سنة ١٩١٤ يكفي المرء ان يدخل احدى هذه الحانات في الساعة المسماة ساعة المشهيات ليشاهد فريقاً من النساء المبتذلات رواد هذه المواطن يضطربن ويتململن ثم يذهبن زمراً مؤلفة من اثنتين او ثلاثة الى المراحيض حيث يتعاطين شم الكوكايين ولا يلبثن حتى يخرجن منها براقات الاعين ، على ان الشائع هو عدم التستر ، فكثيراً ماتكون العلبة المعمولة من الكرتون او من المعادن كالفضة اوالذهب معروضة على (الطاولة) منضدة مقاهي الرقص وعليها مغرفتها الصغيرة التي تكال بها كمية الشمة .

اما بين الساعة الخامسة والتاسعة مساء فان تجارة الكوكو تروج في الغالب في مقاهي الطرب وفي المطاعم . وتحتدم سوق هذه التجارة بعد الساعة الواحدة من نصف الليل لاسيما في الرابعة والخامسة صباحاً في المؤسسات الليلية ، فهي ساعات عرض السم بالمزاد العلني ساعات بيعه بابخس الأثمان وقد استمرت هذه الحالة المؤلمة حتى صدور قانون سنة ١٩١٦ فاستترت ثمة تجارة الكوكايين ولكنها لم تفقد تأثيرها في الخفاء فانه يوجد محلات ملاقاة خاصة يجتمع فيها مدمنو الكوكايين مع تجاره لتناول هذا السم الزعاف .

اما في البلاد العربية فقد شاع استعمال الكوكايين في بدء الحرب العامة في مصر

بسرعة غريبة حتى بات خطره يهدد أبناء ذاك القطر الشقيق باشد الآفات واسوإ العواقب ، وانتقلت العدوي الى سورية بعد الحرب العامة فدخلها الكوكايين فاتحاً مع جيوش الاحتلال محمولاً على أنامل عشاقه الغيد الحسان من الراقصات الغربيات يغرين به روادهن حتى ان منهن من جعلته مهراً لوصالهن ونجوى يتقرب به اليهن ، ولا غرو فهو المحبوب الممنوع عزيز مطلبه ، صعب مناله ، غال وصاله ، محرق هجره ، مميت منعه . ولولا صرامة في القانون وقساوة في تطبيقه وتوقف دخول الراقصات الفرنسيات البلاد السورية وضعف الوراثة السكيرة عند السوريين وفداحة ثمن الكوكايين لانتشر داؤه فيهم انتشاراً مريعاً لا تحمد عقباه .

أسباب انتشاره — اما الاسباب الداعية لانتشار الكوكايين فكثيرة أهمها :

(اولاً) الاستعمال الطبي — وهذا بطل في أوائل القرن الحاضر ولم يعد له من قيمة عملية .

(ثانياً) العدوى الاخلاقية — وتفعل هذه في الغالب في الفريق المتخنث محب الحشمة (اي الموضة) والظهور والتقليد الفاسد وفي ذوي السذاجة العقليـة التي تدفع صاحبها الى تحبيذ كل ماهو رائج ولذلك نشاهد الكوكائينية منتشرة في الغالب في الغرب عند النساء ، وبعكس ذلك في الشرق لما في نفس الضعيف من حب التقليد والسلوك مسلك القوي .

(ثالثاً) الوراثة — الوراثة أيها السادة أقوى العوامل على انتشار السموم النفسية في الامم وقد أوضحنا هذه الحقيقة في المحاضرة السابقة عندما شاهدنا ابن السكير يولد مستعداً لتعاطي المسكر كما ان ابن المدخن يولد مستعداً للتدخين . وقد شاهدنا ان السوريين ضعيفو الاستعداد لادمان السموم النفسية لضعف هذه الوراثة فيهم وذلك لانهم حديثو العهد بالانغماس بالملذات وشرب المسكرات ، لاسيما وان أمهاتهم على الاطلاق نقيات بفضل العامل الديني والتربية الصالحة الموروثة ؛ ومن المؤلم ان فريقاً من الشابات اخذن يختلطن بالنساء الغربيات في أعيادهن وأفراحهن فيقدمن اليهن شيئاً من المشروبات السكرية الروحية المسمات بالمنعشة فيأخذنه مجاملة كي لا يرمين بالتعصب او بعبارة أوضح

كي يظهرن بمظهر المجددات على زعمهن جاهلات بأن في عملهن هذا حطة أخلاقية واساءة لتقاليدهن . ودلالة على ضعف الجرأة الادبية فيهن ، لان بوسعهن رفض هذه الكأس باسم الصحة والعلم اذا لم يكن باسم العادة والدين فيبرهن بعملهن هذا على علم صحيح وارادة حرة يكتسبن بها إعجاب الغريبة وحرمتها .

(رابعاً) ومن العوامل على انتشار الكوكايين الاضطراب الروحي وعدم التوازن النفسي وفساد الميول والغرائز . في الناس أيها السادة فريق شاذ بميوله وشهواته لا يلذ له العيش ضمن الأوضاع الاجتماعية فيلجأ الى الملذات المرضية بواسطة السموم النفسية ليسكن بفعلها شهواته فيكون بعمله هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

(خامساً) الحماقة وضعف الارادة وقابلية التلقين — وذلك لأن صاحبها قريب المأخذ سريع الاغواء يستغله تجار الاعراض والمواد الممنوعة لمنافعهم فيتدحرجون اليه بضاعتهم حتى اذا ذاق طعمها وقع في شركها وظل فيه الى ان يهلك ، ولهذا قيل : الادب يذهب عن العاقل السكر ويزيد الأحمق سكراً .

(سادساً) إثارة الحس الشهواني — وتلك من أعظم اسباب انتشار الكوكايين لا سيما في دور الفحش والبغاء . قال الاستاذ بروراردل : (يدخل المرء الكوكائينية من باب الملذات الشهوانية) غير ان هذه الاثارة موقوتة لا تطول كثيراً حتى يعقبها الاسترخاء والعقم .

(سابعاً) ومن الاسباب المروجة استعمال الكوكايين كيفية اخذه وسهولة تناوله واستصحابه ، فهو لا يتطلب زجاجة ولا قدحاً ولا يشكل حجماً ولا وزناً ولا يحتاج صاحبه لحقنة يحقنها وابرة يوخز بها جلده ، بل جل ما يتطلبه علبة صغيرة لا تحجبها الجيب ولا تستثقلها وقد يستغني عن العلبة ويعتاض عنها بقصاصة ورق صغيرة يصر بها هذا المسكر العجيب الذي لا يدخل الجسم من باب الذوق بل بواسطة الشم والحقن ، فيستعطه المرء على مرأى من الناس دون ان يستنكر احد فعلته وما هي الا دقائق معدودات حتى يشعر بدبيبه يدب الى نفسه فيطربها والى موضع الاسرار فيهتكها .

* * *

« السكر الكوكايني »

تأثيره لاول مرة — ويختلف امل الكوكايين عند الناس حسب مزاجهم ودرجة إدمانهم إياه والكمية الممتصة ، فيشعر المرء الحديث العهد به عند تسعطه الكوكايين بخدر وبفقد الحس التام في غشاء أنفه وبرودة في الوجه لاسيما حول الانف والفم يصحبها شحوب اللون لتقبض الأوعية وفاقة الدم ، ولذلك تعد السعطة الاولى مزعجة غير لذيذة ، وتترافق أحياناً بالغثيان وهبوط القوى وخفقان القلب والأرق .

النشوة — اما مدمنو الكوكايين فانهم يشعرون غب تنـاول هذا السم ببضع دقائق بانشراح في الصدر وبنشاط عظيم في الجسم والذهن وبمقدرة على العمل غير منتظرة وبخفة في الروح والحركة غير مألوفة ، و بسرور تتلاشى فيه الآلام والأحزان وسعادة ينسى صاحبها عندها البؤس والشقاء ، وتسمى هذه الحالة النشوة الكوكائينية ، وتحصل عندما تكون الكمية الممتصة قليلة .

السكر الكوكائيني — اما عند تزايدها فيحدث السكر الكوكائيني وهو يتألف من عناصر او حوادث نفسية مختلفة تشتد وتضعف حسب تكرر تناول الكوكايين والكمية والكيفية ، وذلك لان تناول الكوكايين سعوطاً أخف من أخذه حقناً تحت الجلد ، وتسعطه بكميات صغيرة غير متكررة أخف عملاً من امتصاصه بكميات كبيرة ، واهم هذه الاعراض النفسية ، حدة الذهن ، ونشاط الحركة ، وخدر الحس بالالم ، وفلج القوة المراقبة والناقدة الذاتية ، وإثارة الشعور الغامض ، وفساد الافعال العقلية .

حدة الذهن — وتتجلى حدة الذهن بتوقـد الذاكرة والمخيلة وسرعة تداعي الافكار وتواردها على الخاطر وسهولة التكلم وكثرته والضحك والقهقهـة والمزاح ورفع الصوت والخطابة .

نشاط الحركة — وتترافق حدة الذهن هذه بحس دافع للحركة والعمل فلا يستطيع سكير الكوكايين الاستقرار والسكون فتراه ذاهباً آيباً كثير التلفت والاشارات سريع الحركات خفيفها يبتكر الاعمال و يباشرها ويكثر الزيارات والدعوات . ويتجلى هـذا

النشاط خاصة في الحس الشهواني فانه يزداد بادئ بدء زيادة شديدة ولكنه لا يلبث ان يسترخي ، ولهذا نرى مدمني الكوكايين جميعهم يشكون العنة .

خدر الحس بالألم — وبالنظر لبطلان الحس بالالم تراه لا يشعر بالتعب ولا يعتريه ملل ويتناسى جميع أحزانه ومكدراته .

شلل القوة المراقبة والناقدة الذاتية — ويتطرق بطلان الحس هذا الى القوة الناقدة والمراقبة فيفلجها فيثور الشعور النفساني الغامض وتنطلق الأهواء الكامنة والشهوات المحصورة فيسعى لتحقيقها .

تبدل طباع المرء واخلاقه — وتتبدل طباع المرء واخلاقه فيصبح صعب المراس سريع الغضب شرس الخلق سهل الاندفاع كثير المفاجآت والتعدي ، لا يحتمل الاذى يحنق لاقل سبب ويقترف الأجرام لدى ادنى حادث .

فساد الافعال العقلية — وقد يقف السكر او التسمم الكوكاييني عند هذا الحد من الفعل اذا لم يكرر المرء تناوله اما اذا تكررت السعطات ولا سيما اذا كان تناوله بواسطة الحقن الجلدية ، فتظهر ثمة أعراض فساد الافعال العقلية فيختلط الذهن ويتغير الادراك والشعور وتستولي على السكير الأوهام والتخيلات لتسمم الحواس فيبصر الاشياء على غير ما هي عليه فيرى العصا ثعباناً والثياب المعلقة شياطين او لصوصاً والاشخاص مشوهي الاشكال ، ويسمع صريراً ودوياً لاوجود لها في الخارج ، وتارة يخيل اليه انه في جو من الغبار لامع الذرات ، او وسط سرب نحل يتطاير أمام عينيه الى غير ذلك من الأوهام البصرية والسمعية المزعجة التي تشاهد في سائر حالات السكر المزمن على اختلاف مسبباته .

التخيلات الحسية الجسدية — اما العرض الوهمي الخاص بالكوكائينية فهي التخيلات الحسية الجلدية فان مدمن الكوكايين يشعر بحشرات تدب وتركض وتقفز تحت جلد جسده فتخرشه كالبق والبراغيث والقمل والجرب والذباب والعراتيل والديدان وأحياناً هي بلورات الكوكايين نفسها تهتز في جلده فيعمل على مطاردتها ونزعها بالحك وسحج الجلد .

وقد تشترك الحواس بضلالها فيرى الكوكائيني الحشرات تسير على جسده و يشعر بانهـا تلدغه وتنغمس في الجلد فينتزعها منه و يتناولها بيده و يضعها في وعاء فيه ماء بجانبه ، او انه يلقيها على الارض ويسحقها بظفره . ومنهم من يتناول أبرة و يأخذ باستقراء هذه الحشرات مابين الجلد والعضلات ليخرجها ، فيدمي بعمله هذا جسده و يعرضه للالتهابات والآفات الوبيلة .

ثقب حاجز الأنف — وتنشأ هذه الأوهام الجلدية عن تأثير الكوكايين في الاعصاب السطحية بتخديرها وعن تقبض الاوعية الشعرية فيتوقف ورود الدم الى الجلد فيتمل وتهبط حرارته ويتوقف فعل التغذية فيه فينفسخ واكثر ما يشاهد تلف الجلد في حاجز الانف فانه ينثقب عند مدمني الكوكايين .

الهذيان الكوكاييني — وقد لا يحصر هذا الوهم والتخيل في الحواس فقط بل يتطرق الى الفكر ايضاً فيتصور الكوكاييني اموراً لا صحة لها ويدخل عليه الغرور والعجب والغيرة والشك بالناس فيميل على الانتقام ويقترف أفظع الاجرام وينتهي هذا الدور بالخبل والخدر العمومي والسبات .

دور الصحو — ويستمر السكر الكوكاييني المعتدل ثلاث ساعات والى اربع ، ثم يأخذ المرء بالافاقة فيشعر بهبوط في قواه وثقل مزعج في حركاته وكسل شديد في اعضائه وخمول عظيم في عقله مع خبل ووهن في اعصابه وبضيق في صدره مع انقباض وكدورة في المزاج . وتعود اليه آلامه السابقة مضاعفة فهو لا يقوى على المشي لان ساقيه لا تحملانه ولا يقدر على الاضطجاع لانه يزيد في سآمته وكآبته ، وعندما يعيل صبره وتخور عزيمته ولا يجد له ملجأ يلجأ اليه للخروج من هذا الضيق المختنق يتجه الى الكوكايين مرغماً وهو يعلم بانه بيت الداء ومصدر البلاء ولكن ما الحيلة وهو وحده المسكن لهذه الآلام فيتناوله كرهاً لا ليسعد به سعادته الاولى بل ليخدر به آلاماً هو مسببها ، وهكذا دواليك دور متسلسل من صحو يرافقه خمول وضجر ، يداوى بسم يصحبه سكر وخدر وفي ذلك لعمري منتهى البؤس وأقسى درجات الشقاء .

هذا اذا كان المرء ذا سعة وقدرة على الحصول على الكوكايين اما اذا كان معوزاً

فهنالك الطامة الكبرى فهو لا يستنكف عن بذل ماء وجهه والتدني لافظع الرذائل وارتكاب كل محرم الى ان يظفر بضالته وقد يستحوذ عليه الضجر واليأس فيعمد الى الانتحار .

الكوكائينية المزمنة — وقد لا يمضي زمن طويل على الكوكاييني المدمن حتى تضمحل قواه وتتلاشى مواهبه وعواطفه ويقل فعل التغذية في الجسم فيهزل ويكمد لونه وينقص وزنه و يعسر هضمه الطعام و يتعاقب عنده الامساك والاسهال وتغور عيناه و ينتابه الارق ويصبح كالجماد لا يكترث ولا يبالي بشيء ، ضعيف العقل متدرجاً نحو العته والجنون .

ذلك مصير الكوكائينية ايها السادة وهي كما ترون : شعلة من نور الحياة تبهج الابصار تبزغ وهلة في حلك الدماغ فتلهب بحرارتها كل ما فيه من قوى شريفة في آن واحد ، حتى اذا نضب ذلك المعين الذي هو ذخيرة العمر في حين من الزمن قصير تخمد تلك الشعلة ، و يظلم ذلك النور ، ويصبح ذلك الهيكل الانساني كالسراج الذي نضب زيته حيواناً وحشياً يقترف أنواع الاذى ، مصيره السجن حيناً ثم ملاجئ المرضى ثم دور المجانين .

قال كورتوا سوفي وجيرو « ان أضرار الكوكايين هائلة ، فان الاسراف باستعماله خلافاً لسائر السموم المسكرة يقود رويداً رويداً الى الاستحالة الجسمية والهذيان والجنون والتلاشي ، ويهيئ الجسم لقبول السل » .

وقال لوجرن « ان الوباء الكوكاييني على الرغم من كونه محدوداً لذو شأن بين العوامل في انحطاط الجماعات ، وذلك لان المشاهدات اطلعتنا على ان نسل الكوكاييني المدمن يأتي مصاباً بالبلاهة — على ان ذلك نادر — لان إدمان الكوكايين يحدث عند صاحبه العنة فيصاب بالعقم وما العقم الا انتحار الجنس » .

الوقاية — وما كادت المشاهدات الطبية تفضح هذه النتائج المؤلمة الناشئة من إدمان الكوكايين حتى اضطربت لهولها فرائص أساتذة العلم في أنحاء العالم المتمدن فأخذوا يصيحون بأعلى أصواتهم ومن فوق منابر الارشاد والتدريس على ألسنة الكتب والجرائد تارة ، وبأفواه الخطباء والوعاظ والنواب والمجامع العلمية والمعلمين تارة أخرى ينادون بحكوماتهم وأكرم به من نداء : الكوكايين هو الخطر الاجتماعي المدام فحاربوه) .

وقد لبت حكومات العالم هذا النداء ولاسيما فرنسة التي شاهدت هذا الوباء ينتشر في عاصمتها انتشاراً سريعاً فأصدرت القوانين الصارمة بمنع دخول الكوكايين بلادها ، ففي ١٢ حزيران سنة ١٩١٦ سنت الحكومة الفرنسية قانون منع المخدرات ووضعته موضع التنفيذ في الحال وهو يقضي بالحبس من ثلاثة أشهر الى سنتين وبدفع جزاء نقدي يتراوح مابين مائة الفرنك والالف منه على كل من يتناول الكوكايين او يحمله او يسهل ادخاله البلاد اواستعماله ، و يقضي بالجزاء نفسه على الاطباء والصيادلة الذين يساعدون المبتلى بالكوكايين على الحصول عليه او يصفونه لغير ضرورة طبية ، ولا كثر من سبعة ايام ، على ان يكتبوا بالحروف المقدار الموصوف وكيفية استعماله و يوقعون على الوصفة بوضوح ، وعلى الرغم من صرامة هذا القانون والقساوة التي استعملتها الحكومة الفرنسية في تطبيقه فان تجارة الكوكايين ظلت رائجة في الخفاء لسهولة امكان الحصول على هذا السم خارج البلاد وامكان ادخاله الحدود بالحيل وبيعه خفية باثمان باهظة تتناسب مع الصعوبات القائمة في وجه الحصول عليه ، وقد كان لهذا الغلاء الفاحش فائدة في توقيف انتشار الكوكايين أعظم من فائدة المراقبة نفسها .

قال لوغر (Logre) « ان كثيراً من التجار يسافرون الى سويسرا وهولاندة والمانيا و يعودون منها بعدد كبير من كيلو غرامات الكوكايين المصنوع في مانهايم او دارمستاد ، وان الالمان لغايات قد لاتكون تجارية محضة يروجون دخول هذا السم البلاد الفرنسية » .

وقال كورتوا سوفي وجيرو « ان الالمان استفادوا من الاحتلال الفرنسي البلجيكي بلاد الرين فأغروا الجنود المعسكرة فيها واستخدموهم واسطة لتهريب الكوكايين » وقد ساعدت الطيارات كثيراً على تهريب الكوكايين لعدم مراقبتها المكسية .

ويلجأ مهربو الكوكايين لاخفائه عن أعين المراقبة بطرق من الحيل والخديعة كثيرة يبدلونها كل يوم خشية افتضاحها ، فنهم من يحمله في عصاه او داخل أعمدة الاسرة المجوفة ، او في كعب الحذاء ، او بطانة الثياب ، ومنهم من يجعل للوعاء طبقتين يخفيه بينهما . وذكر كورتوا سوفي وجيرو ان احد مبتوري الساق كان يخفيه في قناة ساقه الصنعية .

وعندما يدخل الكوكايين البلاد يباع فيها خلسة ضمن أوراق صغيرة تتضمن مقادير

زهيدة ويكون الكوكايين فيها مغشوشاً باضافة بعض الاجسام الشبيهة به اليه كحامض البوريك اوالفناسيتين اوسكر الحليب. و يُطلع غواته بعضهم بعضاً على باعته ، وهم لعمري الطبقة المنحطة من الامة المجردة عن الشرف والوجدان . ولا غرو فعملهم هذا عدا انه سلب وسرقة ، فهو جناية فظيعة فيها قتل النفوس وهتك الاعراض ويتم الاولاد واستحالة الامة .

فيا أيتها اليد الأثيمة التي تمد السم لاخيها لقتله به لقاء بعض دريهمات ، ارجعي الى ربك نادمة مستغفرة ، واعلمي ان تجارة السحت لا تثمر ، وان قتل النفوس التي حرم الله بالسيف او الكوكايين سواء .

ولما كانت طرق المنع الداخلي والمراقبة الشديدة لم تحل تماماً دون تسرب السم داخل المدن طلبت الحكومات الاوربية الى جمعية الامم وضع قانون دولي عام يقضي بتحديد كمية صنع الكوكايين في المعامل ومراقبتها مراقبة دولية شديدة .

على أن هذه التدابير وحدها لا تكفي لايقاف تيار المسكرات الجارف دون ان تدعم بارادة الفرد بواسطة التربية الصحية الصحيحة . قال كورنواسوفي وجيرو « يجب على المدارس عند انتهاء الدروس الرسمية في السن التي تستيقظ فيها الشهوات وتسيطر الاهواء على النفوس ان يعلّم الشبان بطرق بسيطة واضحة أخطار بعض الأمراض وبعض المساوي » الى ان قالا « اذا كان الضغط من شأن القانون فان الوقاية وصيانة الاخلاق من واجبات التربية وحفظ الصحة » .

اهل المعارف وهي المسيطرة على التربية في هذه البلاد ان تنهج هذا المنهج الصالح في التعليم المدرسي فتسدي بعملها هذا خيراً الى الامة والى العنصر وتنال به رضا الله والناس .

وقد أدركت مديرية الصحة العامة السورية ما للدعاية الصحية من الشأن العظيم في وقاية الصحة والأخلاق فأقامت في معهدها الصحي معرضاً تمثل فيه الامراض الاجتماعية الناتجة عن الزهري والمسكرات بشكلها الحقيقي مصحوبة بالشروح الوافية والنصائح القويمة ، وسيفتح هذا المعرض أبوابه للشبيبة السورية في القريب العاجل .

اسعد الحكيم

حروف التاج

وعلامات الترقيم

— «» —

« ١ — حروف التاج »

ما كادت نماذج حروف التاج تُعلن وتذاع حتى تناولتها أقلام الكتّاب ، البعض بالمدح والبعض بالنقد والذم . وينحصر نقد هذه الحروف في وجهين : (الاول) في أشكالها فقال المنتقدون انها لا تأتلف مع الحروف العادية وليس فيها من الانسجام والمجانسة ما يطابق الذوق الفني . (الثاني) في فائدتها واستعمالها ، فذهبوا الى انه لا حاجة لنا بها في الكتابة العربية وانه باستعمالها تزداد حروف الطباعة وهذا يخالف قواعد الاقتصاد .

فالوجه الاول ليس من شأننا البحث فيه لعلاقته بقواعد الخط وأنواعه وأوضاعه ونحو ذلك مما اختص به ارباب هذا الفن . وبالنظر في الوجه الثاني اي في فائدة هذه الحروف واستعمالها نرى انها لم توضع لمجرد الزُخرف والزينة او محاكاة الاصطلاحات الافرنجية حباً في التقليد والتجديد وانما الغرض من وضع حروف تختلف شكلاً او حجماً عن الحروف العادية هو تنبيه القارئ الى أوائل الكلام وتمييز الأعلام ، فهي من قبيل الترقيم [1] الذي يراد به الايضاح والابانة كما شهد بذلك احد النقّاد (الاستاذ محمد وهبي الخطاط الشهير والخبير بمحكمة الاستئناف بمصر) فقد قال : « ان الفكرة في حدّ ذاتها سامية » وأهم مزايا هذه الحروف الدلالة على الاعلام من أسماء وكُنى والقاب وتمييزها مما يشبهها من المسميات اوالصفات . ولو لم تكن هناك حاجة الى ما يميز الاسم العَلَم لما وضعه اكثر الكتّاب بين أقواس دفعاً للالتباس . وقد عرف الاتراك هذه المزايا

(١) رقَم الكتاب اي أعجمه وبينه .

فوضعوا لذلك حروفاً تمتاز عن الحروف العادية وهي مقتبسة من الخط الكوفي المشجّر واستعملوها في بعض مطبوعاتهم قبل استعمال الحروف اللاتينيه بزمن بعيد ·

وعلى ذكر الاعلام لا بأس من التنبيه الى امر جدير بالاهتمام وهو ضبط الاعلام الافرنجية المكتوبة بالحروف العربية اذ لا يتأتى النطق بهـا نطقاً صحيحاً لخلوّ الابجدية العربية من حروف تؤدي في اللفظ مانؤديه الحروف المعروفة بالمحركة في اللغات الاوربية مثل e. i. o. u. eu. ou وليس عندنا مايقوم مقامها في الكتابة غير الواو والياء على ان الافرنج يلفظون كلاً منها بشكل خاص · فلا بد اذاً من علامات تؤدي مخارج هذه الحروف وبغيرها يتعذر ضبط الاعلام الافرنجيـة وبعض الاسماء المعربة ولذلك نرى المجلات العربية تكتبها بالحروف اللاتينية وممن تنبه الى هذا النقص الشيخ ابراهيم اليازجي (رحمه الله) فوضع علامات تكتب فوق حروف العلة وتدل على طريقة النطق بها بحسب مخارج الحروف المحركة في اللغات الاوربية ، ولكن هذه العلامات لم يعمّ استعمالها وأصبحت في طي الخفاء بعد احتجاب (الضياء) · وللاتراك فضل السبق في وضع مثل هذه العلامات لضبط النطق بالحروف التي يختلف لفظهـا في بعض الكلمات مثل الضاد والطاء والكاف والواو والياء وقد استعملوها في الطبـاعة قبل استعمال الحروف اللاتينية بنحو نصف قرن · ومن الكتب المطبوعة بهذه العلامات القاموس التركي المسمى (لهجهٔ عثمانيه) تأليف اللغوي الكبير احمد وفيق باشا ·

ولنعد الى الكلام على حروف التاج فنقول ان مايتسبب عن استعمالها من الزيادة في حروف الطباعة لا يعدّ شيئاً يذكر بالنسبة الى عدد الاشكال المستعملة الآن فان لكل حرف من حروف الهجاء أشكالاً متعددة بحسب موقعه في الكلمة وضرورة تراكب بعض الحروف وغير ذلك ·

واذا نظرنا الى كثرة هذه الأشكال وما في جمعها وتفريقها من العناء وضياع الوقت نرى ان أحسن طريقة وُضعت لتقليل عددها مع المحافظة على رونق الخط انما هي الطريقة التي وضعتها لجنة إصلاح وتحسين الحروف العربية بمطبعة بولاق الاهلية في سنة ١٩٠٣ اما الطرق الاخرى التي اقترحها بعضهم لاختزال الحروف فما يذهب برونقهـا و يشوه محاسنها على ان الخط العربي بجميع أنواعه يُعدّ من الآثار الجليلة والذخائر النفيسة بل

امر من مفاخر اللغة العربية لما امتاز به من الروعة والجمال ، ومن الواجب على أبنـاء هذه اللغة المحافظة عليه والحرص على استبقائه خالصاً من الشوائب .

وقد اقترح بعضهم كتابة الحروف منفصلة كالطريقة المتبعة في الطباعة الافرنجية وهو اقتراح سخيف اذ يتعذر تنسيق الحروف العربية المفردة تنسيقاً هندسياً في السطور والطامة الكبرى ما ارتآه بعض المستشرقين من كتابة اللغة العربيـة بالحروف اللاتينية . وقد بينتُ فساد هذا الرأي وما يحول دون العمل به من الموانع في مقالين نشر احدهما في (المقطم) بتاريخ ١٩ ابريل سنة ١٩٢٤ والثاني في (السياسةاليومية) في ١٤ فبراير سنة ١٩٢٩ .

« ٢ — علامات الترقيم »

لم يكن للعرب علامات للدلالة على اصل الجُمل والتعجب والاستفهام ونحو ذلك مما اقتبسناه من اللغات الاوربيـة بل كانوا يكتبون الكلام متصلاً معتمدين على سياق المعنى على ان لهذه العلامات من الفوائد ما لا يحتاج الى بيان لانها تعين القارئ على تفهم الكلام وايضاح ما قد يستبهم من وجوه المعاني ، فهي من قبيل الشكل والاعجام . ومعلوم ان الكتابة كانت في اول عهدها غُفلاً منهما وقد وضعهما فيها بعد أئمة اللغـة لما رأوا ما يقع في القراءة من الخطإ والتصحيف . قال المسعودي : « الخطوط المُعجمة كالبرود المُعلمة » وقيل : « إعجام الخط يمنع من استعجامه وشكله يؤمن من اشكاله » و « ربّ علم لم تُعجم فصوله فاستعجمَ محصوله » فاذا جاز لنـا إدخال الاعجام والشكل في الكتابة لا حرج علينـا في اقتباس بعض العلامات التي تُعين على تفهم الكلام وتوضيح المعاني .

وليس من غرضي في الكلام على علامات الترقيم ان أُبين فوائدها وانما أردت بهذه العُجالة التنبيه الى ما يقع من الخطإ في وضعها والاسراف في استعمالها . فمن العلامات التي يضعها بعض الكتاب في غير مواضعها او يسرفون في استعمالها (الفصلة) وهذه علامتها (،) فيستعملونها لفصل المفردات المعطوفة مثال ذلك انهم يكتبون : فصول السنة أربعة : الصيف ، والخريف ، والشتاء ، والربيع . وأقسام الكلام ثلاثة : اسمٌ ،

وفعلٌ ، وحرفٌ . على انه لا محل للفصلة مع واو العطف . اما الافرنج فانهم لا يستعملون أداة العطف بين المفردات المعطوفة و يستعيضون عنها في الكتابة بهذه العلامة ، بيان ذلك اننا اذا ترجمنا البيت الآتي الى لغة اوربية :

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فيُكتب هكذا :

الخيل الليل البيداء تعرفني   السيف الرمح القرطاس والقلم

فتوضع أداة العطف قبل الكلمة الأخيرة أي أنها لا تتكرر كما في اللغة العربية .

وهذا يشبه عندنا قول الشاعر :

مكرٍّ مفرٍّ مُقبل مدبر معاً   كجلمود صخر حطه السيل من علِ

على انه يجوز وضع الفصلة بين الجمل المعطوفة ولو كانت صغيرة مثاله :

الطير يقرأ ، والغدير صحيفة ، والسحاب يكتب ، والندى ينقط[1]

ومن الخطإ وضعها بين الموصوف والصفة ولو كانت جملة مثل : صادر من قلب ، تجرّد من غواشي الغرض . ونفسٍ ، سمت عن كل غاية . كما انه لا حاجة لوضعها بين المبتدإ وخبره مثل : افضل المعروف ، إغاثة الملهوف . الاَّ اذا حالت بينهما جملة معترضة مثل : كل ذنب ، وان عظم ، صغير في جنب عفوك . وكل زللٍ ، وان جلَّ ، حقير عند صفحك . ولا ينبغي وضعها بين الشرط وجوابه مثل : من سلك السداد ، بلغ المراد . او بعد المنادى مثل : يا علي ، ناولني الكتاب . او بعد فاء السببية مثل : محمد فاق أقرانه في الامتحان ، فاستحق الجائزة الاولى .

وأقول بالاجمال ان هذه العلامة لا توضع الاَّ بين الجمل المعترضة والجمل التي يتركب منها كلام تام الفائدة ، ومن الخطإ استعمالها في غير هذين الموضعين .

ومن الكتاب من يضع علامة الاستفهام او علامة التعجب والانفعال مكررةً مثنى وثلاث على انه لا حاجة لهذا التكرار وبعضهم يضع العلامتين معاً . اما الفصلة المنقوطة وهذه علامتها (؛) فيحسن إغفالها اكتفاءً بالفصلة .

(١) (الجمع) لعل الكاتب أراد في هذا الكلام نثره لا نظمه .

وخلاصة القول انه لا ينبغي الاسراف في علامات الترقيم فان الغرض منها انما هو الايضاح والابانة ، اما الاسراف في استعمالها او وضعها في غير مواضعها فما ينشأ عنه الخلط والارتباك ·

هذا ما عنّ لي من البيان والملاحظات على حروف التاج وعلامات الترقيم اعرضه على أنظار اولي الشأن لعله يعود بالفائدة التي نتوخاها من البحث · ولو كان لنا مجمع لغوي وهو الأمنية التي طالما عللنا النفس بادراكها ، لأغنانا عن البحث والنقد · فهو المرجع الذي يعوّل عليه في كل ما له علاقة باللغة وآدابها وكتابتها والنظر في أي اقتراح يراد به التجديد او الاصلاح ·

حبيب غزالة

ابن خفاجة الاندلسي

- ٢ -

« لفظ شعره وأسلوبه »

يمكن قارئ ديوان ابن خفاجة الناظر فيه بعين النقد والتأمل — ان يصفه بما يأتي :

(١) — جزالة اللفظ

فان ابن خفاجة وان تخلف به زمنه عن أمثال احمد بن عبد ربه كثيراً وتأخر عصره عن أمثال ابن زيدون قليلاً يقل عنهما في الرقة وسهولة اللفظ فتغلب عليه جزالة اللفظ وفخامته في كثير من قصائده ومقطعاته سالكاً طريقة المتقدمين من اهل الاندلس ، كابن هانئ والرمادي وابن دراج القسطلي بالرغم من وصفه هو شعر نفسه باللين والمدونة في قوله :

وحسبك من شعر يكاد لدونة — تغني به النبت الهشيم فيورق

ولا ننكر ان له من المقطعات والقصائد مايكاد يذوب رقة وسهولة الا انه قليل بالاضافة الى سائر شعره .

فمن جزل قوله من قصيدة يصف جبلاً :

وليل اذا ما قلت قد باد، وانقضى، — تكشف عن وعد من الظن كاذب
سحبت الدياجي فيه سود ذوائب — لاعتنق الآمال بيض ترائب
فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس — تطلّع وضاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعاً من الفجر أغبشا — تأمل عن نجم توقّد ثاقب
وأرعن طماح الذؤابة باذخ — يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة — ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب

وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالي مفكر في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت اليه وهو أخرس صامت ... فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أوّاب تبتّل تائب
وكم مرّ بي من مدلج ومؤوب ... وقال بظلي من مطيٍّ وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي ... وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان الا ان طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفقُ أيكي غير رجفة أضلع ... ولا نوحُ ورقي غير صرخة نادب
وما غيّض السلوان دمعي وانما ... نزفت دموعي في فراق الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحبٌ ... أودع منه راحلاً غير آيب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً ... فمن طالع أخرى الليالي وغارب
فأسمعني من وعظه كلّ عبرة ... يترجمها عنه لسان التجارب
فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجا ... وكان على عهد السرى خير صاحب
وقلت وقد نكبت عنه لطية ، ... سلام فانا من مقيم وذاهب

ومن سهله قوله في صفة بطاح وظلال :

سقياً لها من بطاح أنس ... ودوح حسن بها مطل
فما ترى غير وجه شمس ... أظل فيه عذار ظل

وقوله في غلام بقل عذاره :

أيها التائه مهلاً ... ساءني ان تهت جهلا
هل ترى اليا ترى ... الا شباباً قد تولى
وغراماً قد تسرى ... وفؤاداً قد تسلى
أين دمع فيك يجري ... اين جنب بالقلى
اين نفس فيك تهدى ... وضلوع فيك تصلى
اي الملك كان الا ... عارض وافي فولى
وتخلى عنك الا ... أسفاً لا يتخلى

وانطوى الحسن اهلا أجمل الحسن وهلا

(٢) — ايجاز أسلوبه لكثرة مايزحم لفظه بالمعاني والاستعارات او التشبيهات المتعددة في البيت الواحد كما سيأتي بعد .

(٣) — محاكاته في كثير من قصائده لفحول المتقدمين معارضاً لهم في وزنهم ورويهم كأبي نواس وابي تمام والبحتري وابن هانئ والمتنبي ، فمن ذلك قصيدته الرائية التي يمدح بها الوزير اباعامر ، يعارض بها ابن هانئ الاندلسي في رائيته التي اولها :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر
وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الاخضر

فيقول ابن خفاجة في مطلع قصيدته متغزلاً :

حدر القناع عن الصباح المسفر ولوى القضيب على الكثيب الأعفر
وتملكته هزة في عزة فارتج في ورق الشباب الأخضر
متنفساً عن مثل نفحة مسكة متبسماً عن مثل سمطي جوهر
سلت علي سيوفها أجفانه فلقيتهن من المشيب بمغفر
متجلداً أربا بنفسي ان يرى هذا الهزبر قتيل ذاك الجؤذر

وقوله في ميمية يعارض بها ابا نواس في قصيدته التي اولها :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم

فان ابن خفاجة يقول في ميميته هذه وأغار عليه في بعضها :

قل لمسرى الريح من إضم وليالينا بذي سلم
طال ليلي في هوى قمر نام عن ليلي ولم أنم

وهي طويلة جميلة .

وقوله في بائية يعارض بها ابا الطيب المتنبي في قوله (وأغار عليه) :

كفى بك داء ان ترى الموت شافياً وحسب المنايا ان يكن امانيا

فان ابن خفاجة يقول في بائيته :

كفاني شكوى ان أرى المجد شاكياً وحسب الرزايا ان تراني باكيا

وهي طويلة جيدة .

(٤) — كثرة استعماله للمجاز والاستعارات والتشبيهات ، و كثيراً ما يزحم بها البيت الواحد حتى تغمض معانيه ، ويزيدها غموضاً خفاء علاقاتها ببعد لوازمها فمن الاول قوله يصف متفرجاً :

وصقيلة الأنوار تلوي عطفها ... ريح تلف فروعها معطار
عاطى بها الصهباء أحوى أحور ... سحاب أذيال السرى سحار
والنور عقد والغصون سوالف ... والجذع زند والخليج سوار
بحديقة ظل اللمى ظلا بها ... وتطلعت شنبا بها الأنوار
رقص القضيب بها وقد شرب الثرى ... وشدا الحمام وصفق التيار
غناء ألحف عطفها الورق الندي ... والتف في جنباتها النوار
فتطلعت في كل موقع لحظة ... من كل غصن صفحة وعذار

ومن الثاني قوله في وصف فرس أشهب بعد موقعة :

وأشهب ناصع القرطاس مؤتلق ... كأنما خاض ماء الصبح فاغتسلا
ترى به ماء نصل السيف منسكباً ... يجري وجاحم نار البأس مشتعلا
فغادر الطعن أجفان الجراح به ... رُمداً وصيّر أطراف القنا كُحُلا
وأشرق الدم في خد الثرى خجلاً ... وأظلم النقع في جفن الوغى كَحَلا

معاني شعره

وابن خفاجة من المجوّدين للمعاني المؤثرين جانبها على جانب اللفظ ، وكأنه أحس ذلك من نفسه فحاول جبره بكثرة الجناس والطباق كما فعل ابو تمام ، فاذا سلم له اللفظ من معرة التكلف مع تجويد المعنى جاء شعره غاية الغايات ، والا فقد أتعب الذهن واستوقف النظر في تفهمه واستجلاء غامضه .

ويمكن القارئ لديوانه إجمال الامور الغالبة على معانيه فيما يأتي :

(١) — غلبة ازدحام المعاني على أكثر شعره فيحمل اللفظ القليل اما معنى متشعب المناحي والعلائق واما معاني متعددة : مما أورث بعض شعره تعقيداً وغموضاً . وفي ذلك يقول ابن خلدون في باب انقسام الكلام الى فني النظم والنثر مما يجب على الشاعر ان يراعيه

في شعره « ولا يكون الشعر سهلاً الا اذا كانت معانيه تسابق الفاظه الى الذهن ولهذا كان شيوخنـا رحمهم الله يعيبون شعر ابي بكر بن خفاجة شاعر شرقي الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر » يريد ابن خلدون بالاساليب انحاء منحى العرب في جعل مادة الشعر الخيال والوجدان لا القضايا الفلسفية . اما مايعيبه على ابن خفاجة فهوازدحام البيت من أبياته بخيال منتزع الصورة من متعدد كثير او بعدة أخيلة ، فيكون فيه جملة استعارات ومجازات في اللفظ والاسناد ، متداخل بعضها في بعض ، او جملة تشبيهات كذلك ، وقد كنى ابن خلدون ابن خفاجة بابي بكر مع اشتهاره بكنية ابي اسحاق ولا يعرف شاعر مسمى بابن خفاجة مشهور بانه شاعر شرقي الاندلس الا شاعرنا هذا فتكنيته بابي بكر سهو من ابن خلدون او أن له كنيتين فمن ذلك قول ابن خفاجة في المدح :

فار كض الدهر سابحاً ، وانتض الاقـ ـدار سيفاً ، واستصحب السعد لامه

وقوله :

وغمامة نشرت جنـاح حمامة والبرق قد نسج الظلام نهارا
متألق صدع الدجى وسقى الثرى فأبيض ذا نوراً وذا نوّارا
في أجرع خلّف الربيع به ابنه كرماً ، فأخصب ربوةً وقرارا
هفت الصبا منه بسري ديمه هطلاء قرّبهـا العجاج وقارا
وكفت فسالت فضة ولربما طبعت بكل قرارة دينـارا
نثلت به زرق النطاف سوابغاً زرقاً وجردت الشعاب شفارا
فكأنما فلت هناك كتيبة فرمت به عنها السلاح فرارا
ارض هبطت بها سماء طلقة وخبطت من صدف بها أنوارا

وقوله :

فالروض مهتز المعاطف نعمة نشوانـ يعطفه الصبا فيميل
ريان فضضه الندى ثم انجلى عنه فذهّب صفحتيـه أصيل
وارتد ينظر في اقاب غمامة طرف بمرضه النعاس كليل
ساج كما يرنو الى عواده شاك وبلتمح العزيز ذليل

وقوله في الكأس :

والكأس طرف أشقر فدجال في عرق عليه من الحباب يسيل

وقوله :

ولوى الخليج هناك صفحة معرض لثمت سوالفها ثغور أقاح

ومثل ذلك كثير في شعره :

(٢) — كثرة توليده معاني فنون الشعر غير وصف الطبيعة كالمدح والرثاء والغزل من معاني وصف الطبيعة ويضيق بنا المقام عن كثير من الشواهد الممثلة لما نقول كل التمثيل فحيل القاريء الى ديوانه (طبعة جمعية المعارف المصرية) في صحائف ١٢ و١٣ و١٥ و١٦ و١٧ و٣٦ و٤٠ و٤٦ و٦٩ و٩١ و٩٤ و١٠٢ و١١٠ ألخ .

ونشير الى ذلك بابيات من ذلك قوله في رثاء وزير من قصيدة :

في كل ناد منك روض ثناء وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندي غب البكاء ورنة المكاء
يا مطلع الانوار ان بمقلتي أسفاً عليك لمنشإ الانواء

ومنها :

جالت بطرفي للصبابة عبرة كالغيم رق فخال دون سماء

ومنها :

فلطالما كنا نريح بظله فنريح منه بسرحة غناء
فنفث على حكم البشاشة نورها ونفست في أوجه الجلساء

وقوله في المدح و يدعو على نفسه :

فان انا لم أشكرك والدار قربة فلا جادني غاد من المزن رائح
ولا استشرفت يوماً الي به الربا جلالاً ولا هشت الي الأباطح

(٣) — توليد بعض معانيه من بعض بل ربما كرر اللفظ مع المعنى ناحياً بذلك منحى ابن الرومي ، كان اذا اخترع معنى اواستحسنه لا يزال يلح عليه بالاستعمال ، ويستقصي في استخراج صور متعددة منه ، وذلك كثير في شعره . وفي قليل ماذكره شبه مما لم نذكر . فمن ذلك قوله من قصيدة زهرية :

وقد ارتدت غصن النقا وتقلدت — حلي الحباب سوالفُ الانهار

ويقول في قصيدة أخرى :

وبجر ذيل غمـامة لبست به — وشي الحباب معاطف الانهار

وقوله في القصيدة الاولى :

نثرت بحجر الارض فيه يد الصبا — درر الندى ودراهم النوار

ويقول في الثانية :

نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا — درر الندى ودراهم الأنوار

(٤) — كثرة اختراعاته للمعاني الرائعة وحسن تصرفه في معاني غيره حتى تصبح ناصيتها في ملك يمينه واكثر ما يكون ذلك منه في التشبيهات والاستعارات كقوله في وصف فرس :

وأدهم لولا انه راق صورةً — لما عرفته العين من ليلة الهجر

وقوله في وصف معركة يصف السيوف والنقع :

والبيض تخفى في الطلى فكأنما — لويت عُرًا منهـا على أزرار

والنقع يكسر من سنى شمس الضحا — فكأنه صدأ على دينـار

وقوله في حسن التعليل :

وما أرغت الكاس في كفه — ولكنها ضحكت عن سرور

وقوله :

وجه به من بدّع الحسن ما — يقيم للعـاشق أعذارا

قـد طبع الحسن به درهمًا — تسبك منه العين دينـارا

(أي من الخجل)

وقوله في وصف دمية مخلية :

الا بكى الدر فوق حالية — حلى بها العقدُ شرّ ماحلى

يرى بهـا ما يمر من حاق — مخبـأ تحت منظر الجلى

قد راق مرأى وساء مختبرا — فهل ترى اثمرت به دفلى

والدفلى هي شجرة ورد الحمار جميلة الزهر سامة .

وقوله في وصف فرس أشقر عليه حلية من فضة :

بسام ثغر الحلي تحسب انه كأس أثار بها المزاج حبابا

وقوله في وصف ساق :

وأهيف قام يسقي والسكر يعطف قده
وقد ترنح غصناً واحمرت الكاس ورده
وألهب السكر خداً أورى به الوجد زنده
فكاد يشرب نفسي وكدت أشرب خده

وقوله في السرى :

ورفلت في خلع علي من الدجى عقدت لها من أنجم ازرار

وقوله :

صح الهوى منك ولكنني أعجب من بين لنا يقدر
كأننا سيف الملك دائر فأنت تخفى وانا أظهر

(٥) — إكثاره من الاغارة على معاني غيره ، بالرغم من ثروة شعره بالمعاني المخترعة والأخيلة الرائعة ، ولكن هذه فطرة البشر بأخذ الآخر عن الاول مايحسن .

فمن ذلك قوله يصف الصباح في بيتين أبدع الاول وسرق الثاني :

وفي مصطلى الآفاق جمر كواكب علاها من الفجر المطل رماد
ولما تفرى من دجى الليل طحلب وأعرض من ماء الصباح ثماد
حننت وقد ناح الحمام صبابة وشق من الليل البهيم حداد

سرق الثاني من قول البحتري .

حتى تبدى الصبح في جنباته كالماء يلمع من خلال الطحلب

وقوله :

فلو انهم خلدوا خلود ثنائهم لم تنفصم عنهم عرا الأعمار

اخذه من قول المتنبي .

كفل الثناء له برد حياته لما انقضى فكأنه منشور

وقوله في مليح :

اذا رنا يجرحني طرفه لحظتُه أجرحه ثارا
فيصبغ الدرّ عقيقاً به وأصبح النوار أزهارا

اخذه من قول احمد بن عبد ربه صاحب العقد وزاد عليه ·

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله دراً يعود من الحياء عقيقا

وقوله :

وكل حياة الى منتهى اجل وكل حمام الى اجل

اخذ كل الشطر الاول من بيت ابن هاني الاندلسي من مطلع مرثية له مقصورة وهي :

مدى كل آت قريب المدى وكل حياة الى منتهى

وربما كان هذا من اتفاق الخواطر لانه معنى مبتذل · وقوله :

فما هو في السن السلامُ تأخرا وفي المجد عنوانُ الكتاب تقدّما

وله من قول المتنبي في رائيته يمدح عضد الدولة وابن العميد :

من مبلغ الأعراب اني بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا

الى ان يقول :

ورأيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والاعصرا
نسقوا كما نسق الحساب مقدماً وأتى فذلك اذ اتيت مؤخرا

لان لفظ (فذلك) كانت تذكر في الحساب عند نهايته فيقال فذلك كذا وكذا ولفظ (السلام) يوضع في آخر الخطاب ·

وقوله يمدح :

جدير باحراز العلا غير راكض مغـذّ وادراك السعى غير قائم

اخذه من قول اسحق الموصلي يفخر بولائه لخزيمة بن خازم ·

اذا مضر الحمراء كانت ارومتي وقام بنصري خازم وابن خازم
عطست بانف شامخ وتناولت يداي الثريا قاعداً غير قائم

ويقول ابن خفاجة في هذا المعنى ايضاً من قصيدة :

من منزل قد شبّ من نار القرى ما شعاب عنه تمزقُ الظلماء
لو شئتُ طلت به الثريا قاعداً ونثرت عقد كواكب الجوزاء

« ما يؤخذ عليه »

يؤخذ على ابن خفاجة عدة امور : منها مداخلة بعض معانيه في بعض وازدحامها في البيت ، ومنها افراطه في استعمال المجاز وإيثاره على الحقيقة والحق انه لا يصار الى المجاز الا اذا قصرت الحقيقة عن أداء المعنى وتجميله ، ومنها خفاء بعض معانيه لخفاء لوازم المجاز او التجريد كقوله :

ولقد جريت مع الصبا جري الصبا   وشربتها من كف احوى احور
ناجيت منه عطارداً ولربما   قبلته فلثمت وجه المشتري
لندى بفيه أقاحة لنفاحة   شربت على ظمأ بماء الكوثر

فقد يخفى مايريد في البيت الثاني ، فان قيل انه أراد المريخ لأنه احمر اللون فغلط بذكر المشتري كما غلط امرؤ القيس في قوله : « اذا ما الثريا في السماء تعرضت » يريد الجوزاء لان الثريا لاتجري عرضاً – فهو يريد ان وجهه احمرّ بالتقبيل .

قلت : فلا يظهر بسهولة تخصيص التشبيه بعطارد عند المناجاة فان أراد انه في بدء المناجاة كان ابيض الوجه كعطارد ثم احمرّ بعد التقبيل كالمشتري ، فلمَ خصّ عطارداً ؟ مع ان اكثر النجوم بيض على ان من سيارات الشمس ما هو ابيض ايضاً كالزهرة .

ومنها بعض الخطاء في اللغة اواحكام القافية فالاول كاستعمال لفظ (اقاحة) في البيت الثالث المتقدم على انه مفرد اقاح بدون ياء مع ان (الاقاح) هذا اصله الاقاحي بياء مشددة وقد يخفف ويستعمل استعمال قاض وداع وعلى كل حال فالمفرد ليس الا الاقحوانة ويقع في هذا الخطإ كثير من الشعراء والكتاب . والثاني كوقوع الايطاء في القافية دون مرور سبعة ابيات على الاشهر في معنى القصيدة فانه يقول :

ومسرى يطير به عقاب كاسر   أمسي بلاعب من عنان ارقما

ثم قال بعد اربعة ابيات :

ومرسل الهلال يدب فيها عقرباً   وانساب منعطف المجرة ارقما

ومنها برود بعض تشبيهاته وخروجها عن مألوف الذوق العام في كل زمان كقوله في مطلع قصيدة يمدح بها اكبر امير من الملثمين في الاندلس :

ألا هل أطلّ الامير الاجل   ام الشمس حلت ببرج الحمل

ولايخفى علينا انه شبه وجه الامير بالشمس في اول الربيع ولكن يرد في جعل هذا الوجه حالاً في حمل — وقوله منها :

يشد اللثـام على صفحـة ترى البدر منها بارق زحل

فانه يريد مع خفاء المعنى ان فلك البدر ادنى فلك الى الارض مع انه عنـد تشبيه الامير به تراه ابعد الكواكب في ارتفاع المنزلة وانت تعلم ان جميع اصحاب الطوالع والقرانات ويتابعهم الادباء ان طالع زحل نحس — ومن ذلك قوله يتغزل في مليح ويصفه :

من يلق من لاعج وجد به ريحاً فقد لاقيت إعصارا

تخفق احشـائي به دوحة وتنثر الأعين نوارا

تخفق الاحشاء هنا الشاملة للامعاء قبيح واستعمالها مع الريح والاعصار ابيح . وغير ذلك كثير .

« الموازنة بينه وبين غيره »

اذا وازنا ابن خفاجة بكل شاعر من شعراء الاندلس وصاف الطبيعة وجدناه يبذهم جميعاً في هذا الباب واقرب الناس شبهاً به من شعراء المغاربة ابن حمديس الصقلي فانه أجاد وصف الطبيعة بما يقارب وصف ابن خفاجة او يساويه ولكنه زاد عليه وصف امور كثيرة كوصف القلاع والحصون والمصانع والقصور والتماثيل وكثيراً من أنواع الحيوان وزاد عليه في أغراض أخرى غير الوصف ، فانه يجيد الهجاء ، وابن خفاجة ليس له في هذا الباب قليل ولا كثير ويجيد المدح وهو صناعته التي يتكسب بها ، وفي ذلك يجيء ابن خفاجة معه مصلياً لامجلياً ، ويجيد الخمريات وله فيها الكثير الجليل .

وامتاز عن ابن خفاجة بشكوى الزمان والمرض والغربة عن الأوطان والشيخوخة والتنقل في البلاد والفخر الجيد والتحريض على الجهاد وطول القصائد غالباً ، ولقد يرجح ابن حمديس على ابن خفاجة في جملته . واقرب الناس شبهاً به من المشارقة الصنوبري فانه وصاف طبيعة مثله حتى يقايسه أدباء المغرب والمشرق به فيقولون في ابن خفاجة (صنوبري المغرب) غير ان الصنوبري أرق شعراً وأسهل ، وابن خفاجة اجزل لفظاً وادق معنى ، ومن شبهه بابي الفتح كشاجم فقد ابعد به عن حلبته ، لان كشاجم وصاف لكل شيء ، ومقل في وصف الطبيعة عن ابن خفاجة .

اما مقايسته بابن المعتز وابن الرومي والبحتري فكل هؤلاء يفضلونه بمجموع مزاياهم ، فابن المعتز يفضله بالرقة وجمال الخيال واجادة الطرديات ووصف مجالس الانس، والبحتري وابن الرومي يفضلانه بالتبريز في كل غرض من أغراض الشعر حتى وصف الطبيعة نفسها وان قل شعرهما فيه عنه .

اما الموازنة بينه وبين غيره في قطعة من الشعر قالها وقطعة قالها غيره فقد يفوق ابن خفاجة وقد يتخلف. ومن ذلك ماروا المقري عنه قال : « قال ابن خفاجة في ديوانه .... وخرجت يوماً بشاطبة الى باب السمار بن ابتغاء الفرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية وذلك سنة ٤٨٠ واذا بالفقيه ابي عمران بن ابي تليد رحمه الله تعالى قد سبقني الى ذلك فألفيته جالساً على دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن فسلمت عليه وجلست مستأنساً به فجرى اثناء ماتناشدناه ذكر قول ابن رشيق :

يا من يمر ولا تمر   به القلوب من الفرق
بعمامة من خده   او خده منها استرق
فكأنه وكأنها   قمر تعمم بالشفق
فاذا بدا واذا انثنى   واذا شدا واذا نطق
شغل الخواطر والجوا   نح والمسامع والحدق

فقلت وقد أعجب بها جداً وأثنى عليها كثيراً ، احسن ما في القطعة سياقة الاعداد والا فانت تراه قد استرسل فلم يقابل بين الفاظ البيت الاخير والبيت الذي قبله فينزل بازاء كل واحدة منها مايلائمها وهل ينزل بازاء قوله (واذا نطق) قوله (شغل الحدق) وكأنه نازعني القول في هذا غاية الجهد فقلت بديهاً :

ومهفهف طاوي الحشا   خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة   تليت محاسنها سور
فاذا رنا واذا مشى   واذا شدا واذا سفر
فضح الغزالة والغما   مة والحمامة والقمر

فجن بها استحساناً » اه . قال ابن ظافر : « والقطعة القافية ليست لابن رشيق بل هي لابي الحسين علي بن بشر الكاتب احد شعراء اليتيمة » .

ونحن نوافق ابن خفاجة في تفضيل قطعته على الاخرى الا انه لا يغيب عليك ان السابق هو الذي فتح الباب ، وطرق لابن خفاجة سرد النظم على ما في استعمال لفظ الغزالة مؤنثاً للغزال من خلاف بين اللغويين وانها الشمس عند اكثرهم ·

ومن هذه القصة تعرف ان ديوانه المطبوع ليس هو النسخة التي جمعها بنفسه لانها لا توجد فيه كما انه وجدت اشعار له خارجة عنه وشهرة ابن خفاجة تستدعي ان له ديواناً اكبر منه وتجد في ديوانه بعض موازنات بين مقطعات له ومقطعات لغيره فراجعه ان شئت ·

« كتابته »

وابن خفاجة كاتب جيد على طريقة الاندلسيين الجارين على طريقة ابن العميد واكثر كتابته خيالات شعرية ·

ولم نتعرض للكلام على كتابته هنا بنوع تفصيل لاننا نترجم له شاعراً لا كاتباً ولان كتابته لا تمتاز عن كتابة غيره بفضل بلاغة او رقة او ميزة لفظية ·

« مختارات من شعره »

ومن شعره يصف علماء السوء من المسلمين والقساوسة من النصارى :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم ... فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة ... في اخذ مال مساجد وكنائس

وقال :

احسنُ المدامة والنسيم عليل ... والظل خفاق الرواق ظليل
والنور طرف قد تنبه دامع ... والماء مبتسم يروق صقيل
وتطلعت من برق كل غمامة ... في كل أفق راية ورعيل
حتى تهادى كل خوطة أيكة ... ريا وغصت تلعة ومسيل
عطف الاراكة فانثنت شكر آله ... طرباً ورجع في الغصون هديل
فالروض مهتز المعاطف نعمة ... نشوان يعطفه الصبا فيميل
ريان فضضه الندى ثم انجلى ... عنه فذهب صفحتيه أصيل
وارتد ينظر في نقاب غمامة ... طرف يمرضه النعاس كليل
ساج كما يرنو الى عواده ... شاك وبلحظ العزيز ذليل

وقال يبدي رأيه في تربية الطفل :

نبه وليدك من صباه بزجرة ولربما أغضى هنـاك زكاؤه
وانهره حتى تستهلّ دموعه في وجنتيه وتلتظي احشاؤه
فالسيف لاتذكو بكفك ناره حتى يسيل بصفحتيه ماؤه

وقال في طيف الخيال :

ورداء ليل بات فيه معانقي طيف ألمّ لظبيـة الوعساء
فجمعت بين رضـابه وشرابه وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة شفقاً هنـاك لوجنـة حمراء
والليل مشمط الذوائب كبرة خرف يدب على عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه ويجر من طرب فضول رداء

القاهرة : احمد الاسكندري

—((*✿*))—

تهكم الجاحظ(1)

- ١ -

« أساليب التهكم عند الافرنجة »

الى جنب هذا المذهب الذي ذهبه الجاحظ في الضحك والاضحاك مذهب آخر وهو التهكم ، واعل بين المذهبين بعض الصلة وان كان كل منهما يختلف عن الآخر ، فصاحبها يحتاج الى شيء من خفة الروح ولكن هذه الخفة في الاضحاك بريئة من الهمز واللمز وانما غايتها التنشيط والاستجمام ، اما في التهكم فقد يمازجها الخبث سواء أكان هذا الخبث ظاهراً أم كان باطناً .—

وقد كان التهكم من جملة أساليب سقراط في تقرير فلسفته فكان سقراط في تهكمه يرمي الى مناقضة خصمه فيسأله مسائل من باب تجاهل العارف فكان في بدء الامر يقرّ مذهب خصمه ثم يتلطف في سؤاله فلا يزال به من سؤال الى سؤال حتى يفضي به الى المناقضة في القول .—

أصل الأمر في التهكم ان تقول قولاً وانت تريد ضده ، فلما قال النظّام لابراهيم ابن هانئ : مابعد هذا الكلام كلام ، لم يقصد في هذه العبارة الا ضدّها ، فظاهر كلامه الاعتراف بعلم ابراهيم ولكن باطنه تعريض بجهله .—

لست في حاجة الى الكلام على خصائص التهكم فان هذا الكلام داخل في البديع وانما أقتصر في مثل هذا المقام على الاشارة الى ان التهكم اكثر ما يستعمل في الخطاب فهو يغلب في الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس ، وقد يكون هذا التهكم

---

(1) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الآداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

لباس فكرة فيها فرح وسرور او صيغة مزح روحاني ، او قالباً يفرغ فيه غضب او حقد او يأس او غير ذلك من هوائج النفس .

واذا أردنا ان نعرف رأي متهكم من حذّاق المتهكمين في هذا المذهب فلنسمع ما قاله أناتول فرانس :

« لا أزداد تفكيراً في حياة البشر الا ازددت اعتقاداً ان من الواجب علينا ان نجعل شهود هذه الحياة وقضاتها التهكم والشفقة .—

التهكم والشفقة ناصحان صالحان .—

فالتهكم بابتسامه يحبب الينا الحياة ، والشفقة بدموعها تقدّس هذه الحياة ، والتهكم الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة ، انه لا يستهزئ بالحب والجمال ، فهو رقيق وفيه عطف ، فضحكه يكظم من الغيظ ، وهذا التهكم هو الذي يعلّمنا ان نسخر من الأشرار والحمق ولولاه لأفضى بنا الضعف الى كراهيتهم .— »

ان هذا الكلام على وجازته يصوّر لنا قيمة التهكم ، فاذا اشتمل هذا المذهب على تحبيب الحياة وتقديسها ، واذا درّبنا على السُخْر بكل شرّير وبكل أحمق بدلاً من ان نعبأ بهذا الشرير او بهذا الأحمق ، فما أعظم شأنه وما أهنأ بال الذين يعرفون كيف يتصرفون فيه .

أفعلم الجاحظ ان يسخر من الاشرار والحمق ، وقبل ان انظر في هذا كله لا أرى محذوراً في ذكر أنماط من تهكم الافرنجة على سبيل المقايسة والموازنة .—

إمام المتهكمين في فرنسة انما هو (ڤولتير) وهذا نمط من لسعه :

أنشأ جان جاك روسو رسالة موضوعها : اصل تفاوت الناس ولد كانت اكاديمية ديجون اقترحت هذا الموضوع وطلبت التسابق فيه ولكن روسو لم يجلّ في هذا الميدان فلم يحرز قصب السباق الذي أحرزه سنة ١٧٤٩ في رسالة جعل فيها الآداب والعلوم مصدر الفساد .—

اتصلت هذه الرسالة بفولتير فكتب اليه كتاباً يردّ فيه عليه وقد جاء في جملة هذا الكتاب ما يلي :

لم يجترم الجرائم الكبيرة الاّ مشاهير الجهلاء فان الذي يجعل من هذا العالم وادي دموع انما هو جشع الرجال الذي لا سبيل الى ذمّ غليله وعنجهيتهم التي لا سلطان عليها فان

الآداب تغذي الروح وتصلحها وتسليها وانها لتخدمك في الوقت الذي تمترض فيه عليها . —

ثم ختم رسالته بهذا الكلام :

أعلمي السيد . . . ان صحتك رديئة فينبغي لك ان تجود هاهنا بشميم هواء وطنك وان تقنع بالحرية وان تشرب معي حليب بقرنا ، وترعى من عشبنا . — »

فالهمز يتخلل هذا التهكم المصقول الحواشي . —

فكأن فولتير يقول لروسو : ان جسمك معتل واعتلال الجسم يؤديه عادةً الى اعتلال العقل فكأن فولتير يقول لروسو : ان عقلك لا يخلو من اعتلال . —

واليكم نمطاً آخر في التهكم وهو قول (لابرويير) في المؤسسين في حب الكتابة :

« يأخذ فلان ورقة وقلماً فجأةً من دون ان يفكر في ذلك من قبل فيقول في نفسه : أريد ان أؤلف كتاباً على انه ليس له استعداد للكتابة ولكنه في حاجة الى خمسين (بستولاً) فأصيح به من غير جدوى : خذ المنشار يا (ديوسكور) وانشر ، او اصنع دائرة دولاب فتحصل على اجرتك ولكنه لم يتعلم هذه الحرف كلها فأقول له : انسخ إذن او صحح في المطبعة ، لا تكتب ، بيد انه يريد ان يكتب وان يطبع كتاباته ، ولما كانت المطبعة لا يرسل اليها دفتر ابيض فانه يسوده بما يرويه فيكتب مثلاً : ان نهر السين يجري في باريز وان الاسبوع فيه سبعة ايام او ان السماء ماطرة ، ولما كان هذا الكلام لا يخالف الدين ولا الحكومة ولا يؤدي نشره بين العامة الا الى افساد الذوق وتعويد العامة الاشياء التي لا طعم لها يعرض على المراقبة ثم يطبع فيعاد طبعه مع ما في ذلك من العار على الأجيال وعلى كبار المؤلفين . — »

فهذا الكلام كله تهكم ، فان قول (لابرويير) ان نهر السين يجري في باريز ، او ان هذا الكلام لا يخالف الدين ولا الحكومة ، ان هذا القول كله انما هو همز ولمز . —

مالنا ولهذا كله فلنعجل الى استهزاء الجاحظ !

اذا كان التهكم على نحو ماقال (اناتول فرانس) يعلمنا ان نهزأ بالأشرار وبالحمق فقد علم هذا التهكم الجاحظ ان يهزأ بطائفة من الناس فيهم الحمق ، وقد اجتمعت له أسباب التهكم ومهدت له السبيل اليه .

ألم تلده أمٌ مطبوعة على التهكم فانت محيثها بطبق الكراريس التي علمتم امرها في

كلامنا على حياته استهزاء بولد يقضي ايامه في طلب العلم وهو عالة على امرأة تمونه !

ألم يخرّجه في الأدب والعلم رجال لا يضيعون فرص التهكم اذا سنحت هذه الفرص فعبارات ابي عبيدة والنظّام التي مرّت بنا في كلامنا على ثقافة الجاحظ أشباه: لا عليك فان مرقك لا يؤذي وامثال : مابعد هذا الكلام كلام ، انما هي عبارات يتخللها التهكم . —

ولقد ظهر ميل الجاحظ الى الاستهزاء من صغر امره وحداثة سنه والبكم القصة التي تناهت الينا وهي من آثار هذه الحداثة . قال الجاحظ[1] : « وبينما انا جالس يوماً في المسجد مع فتيان من المسجديين مما يلي أبواب بني سليم وانا يومئذ حدث السن اذ أقبل ابو سيف الممرور وكان لا يؤذي احداً وكان كثير الظرف من قوم سراة حتى وقف علينا ونحن نرى سيف وجهه اثر الجد ثم قال مجتهداً : والله الذي لا إله الا هو ان الخرء حلو ثم والله الذي لا إله الا هو يميناً ثانية يسألني الله عنها يوم القيامة ، فقلت له أشهد انك لا تأكله ولا تذوقه فمن أين علمت ذلك ؟ فان كنت علمت امراً فعلمنا مما علمك الله ، قال : رأيت الذبّان يسقط على النبيذ الحلو ولا يسقط على الحامض و يقع على العسل ولا يقع على الخل وأراه على الخرء اكثر منه على التمر ، أفتريدون حجة أبين من هذه ، فقلت : يا ابا سيف بهذا او شبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب ! »

واشتدّ فيه هذا الميل الى الاستهزاء بالحمقى كل حياته فمن استهزائه بامثال هذه الطبقة من الناس قوله في اثناء كلام له على المكي[2] :

« وكان المكي طيباً طيب الحجج ظريف الحيل عجيب العلل وكان يدعي كل شيء على غاية الاحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجلايل ولا من الدقيق واذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه وأخبرك عن بعض علله لتلهى بها ساعة ثم نعود الى ذكر الذبان :

ادّعى هذا المكي البصر بالبراذين ونظر الى برذون واقف قدالقى صاحبه فيه الجام ، فرأى فاس اللجام واين بلغ منه فقال لي : العجب كيف لا يذرّعه القيء وانا لو ادخلت إصبعي في حلقي لما بقي في جوفي شيء الا خرج ، قلت : الآن علمت انك تبصر ، ثم مكث

(١) الحيوان الجزء الثالث (ص ١١٢) .

(٢) « « « (ص ١٠١) .

البرذون ساعة يلوك لجامه فأقبل عليّ فقال لي : كيف لا يبرد اسنانه ، قلت انما يكون عند البصراء مثلك ، ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة سال لعابه على الارض فقال لي : ان البرذون افسد الخلق عقلاً ولولا ذلك لكان ذهنه قد صفي ، قلت له : قد كنت اشك في بصرك بالدواب فأما بعد هذا فلست اشك فيه .—

وقلت له مرةً ونحن في طريق بغداد : مابال الفرسخ يكون في هذا الطريق فرسخين والفرسخ يكون اقل من مقدار نصف فرسخ ففكر طويلاً ثم قال : كان كسرى يقطع للناس الفراسخ فاذا صانع صاحب القطيعة زادوه واذا لم يصانع نقصوه .—

وقلت له مرةً : ثمامة بن الاشرس حدثني ان المخلوع بعث الى المأمون بجراب فيه سمسم كأنه يخبره ان عنده من الجند بعدد ذلك ، وان المأمون بعث اليه بديك اعور يريد ان طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب ، قال : فان هذا الحديث انا ولدته ، ولكن انظر كيف سار في الآفاق ، واحاديثه واعاجيبه كثيرة .— »

—

تهكم الجاحظ

- ٢ -

ظهر ميله الى الاستهزاء من فضاضة عوده واستحكم فيه هذا الميل بعد ان تهيأت له اسباب التهكم بجذافيرها ، فقد خلق مطبوعاً على هذا التهكم ، وقوّت فيه ثقافته هذا الطبع ، وعاش في عصر احتاج فيه الى السخرية ، عاش في عصر ترك فيه الجمهور الاكبر والسواد الاعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة وعزل الحق فيه جانباً ومات ذكرالحلال والحرام ورفض ذكرالقبيح والحسن . والخلاصة عاش في عصر استفاضت فيه الزندقة وشاعت فيه طائفة من الخرافات في طبقات العامة وبعض العلماء والمؤلفين فلم يجد الجاحظ بدآً له من التنبيه على هذه الخرافات ، وعلى هذا الضلال وهو الرجل الذي وقف نفسه على نصرة الحق عمره كله ، وخاصة فقد امكن القول في عصره وصلح الدهر ، فلم يبق للجاحظ الا اظهار ما اعتقده والقيام بما يلزمه من نصرة الحق ومجدة على الباطل ولا سيما بعد ان كثرت خصومه وحسّاده ومتعقبوه فلم يجد له امضى سلاحاً من التهكم ، هذا التهكم الذي قال فيه فولتير : اذا أردت ان تقتل خصمك فاجعله هزأة . —

فاجتهد الجاحظ في جعل خصمه هزأة كل حياته ولئن عابه ابن قتيبة باستهزائه من الحديث استهزاء لايخفى على اهل العلم ذكره فلم يستهزئ الجاحظ بالصحيح من الاحاديث وانما استهزأ ببعض تأويلات وتفسيرات لا يقرّها عقل عالم اشتغل بالتحقيق والتمحيص قرناً متكاملاً . —

فلنجتهد في بيان بعض مواطن من هذا الاستهزاء . —

للجاحظ أسلوب في التهكم على بعض اهل التفسير والتأويل بسيط جداً وقد بلغ من بساطته انه لا يكاد يظهر عليه اثر الاستهزاء والسخرية فهو يدس هذا التهكم دساً دون ان

يظهر على بيانه فبدلاً من ان يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضاً ويجادلهم جدالاً يكتفي في اكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم والاشارة الى مذاهبهم ، ولكن هذه الاشارة مهما كانت خفية ومهما كانت رمزاً لا تخلو من روح التهكم فبينا الجاحظ مثلاً يمضي قوله في باب من ابواب العلم كباب ما يعتري الانسان بعد الخصاء وكيف كان قبل الخصاء وبينا يفيض في هذا الباب في أمور علمية اذ يعرض له رأي من الآراء التي لا يؤيدها العلم فيكتفي بالتنبيه عليها كقوله مثلاً وقد تقدموه (١) :

« وزعم بعض المفسرين واصحاب الاخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه شيء بالاسد وسلح الفيل زوج خنازير فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل .

ثم يردف هذا القول كلامه الآتي :

قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير وتلك السنورة حواءها وضحك القوم . — »

ان مجرّد ذكره لأشباه هذه الآراء في اثناء بحثه عن أمور مبنيـة على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته باصحابها فكأنه يغمز بعينيه غمزاً فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء والمذاهب وانما يكفي نفسه مؤنة هذا الطعن بتركه القـارئ حق الحكم على مثل هذه الآراء وهذا الاسلوب على نزاهته الظاهرة لا يخلو من مهارة وحذق ولم لا نقول لا يخلو من خبث ، فان الجاحظ لا يتولى فيه التشنيع والتهجين وانما يجرّ القارئ جراً الى هذا التشنيع والى هذا التهجين ثم ينسحب انسحاباً فيخرج بعد ايقاظه الفتنة كابن اللبون لا ظهراً ولا ضرعاً . —

ونظائر هذا التهكم مستفيضة في كتاباته ومن هذا القبيل قوله : مثلاً (٢) :

ويزعم زرادشت وهو مذهب المجوس ان الفارة من خلق الله ، وان السنور من خلق الشيطان وهو ابليس وهرمن ، فاذا قيل له : كيف تقول ذلك ، والفأرة مفسدة تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والقبـائل الكثيرة والمدن العظام والارباض الواسعة

(١) الحيوان الجزء الاول (ص٦٧) .
(٢) « « الرابع (ص٩٩) .

بما فيها من النـاس والحيوان والاموال وتعترض دفاتر العلم وكتب الله ودقائق الحساب والصكاك والشروط وتعترض الثياب وربما طلبت القطن لتأكل بزره فتدع الحاف غربالاً وتعترض الجُرُب واوكية الاسقية والازقاق والقِرَب فتخرج جميع مافيها وتقع في الآنية وفي البئر فتموت فيه ، وتحوج الناس الى مؤن عظام وربما عضت رجل النائم وربما قتلت الانسان بعضتها ، والفار بخراسان ربما قطعت أذن الرجل وجرذان انطاكية تعجز عنها السنانير ، وقد جلا عنها قوم وكرهها آخرون لمكان جرذانها وهي التي فجّرت المُسنّاة حتى كان ذلك سبب الخُسر بارض سبأ وهي المضروب بها المثل وسيل العرم مما تؤرخ بزمانه العرب ، والعرم المسنّاة ، وانما كان جرذاً ولتقتل النخل والفسيل وتخرب الضيعة وتأتي على أقرحة الركاب والخضر وغير ذلك من الاموال والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفار ، فكيف صار خلق الضار المفسد من الله ، وخلق النافع من خلق الشيطان ، والسنور يهدي به على كل شيء خلقه الشيطان من الحيات والعقارب والجعلان وبنات وردان والفأرة لانفع لها ومؤنها عظيمة . قال : لان السنور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة ، فهل سمعت بحجة قط او بحيلة او بأضحوكة او بكلام ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال ، فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم . — »

على انه هذه المرة لم يكتم استهزاءه فقد دلّ عليه بقوله : فهل سمعت قط بحجة او بحيلة .... بيد انه وان أفصح عن سخريته بهذه العبارة الاخيرة كان في مندوحة عنها فان تدوينه لمثل هذه الاقوال كاف للاعراب عن هذا التهكم الكامن في ذهنه . —

ومثل هذا الاستهزاء كثير في كلامه لا أجد بي حاجة الى الاستزادة منه وانما ضربت لكم مثلاً حتى تستأنسوا به . —

وقد يخرج في بعض الاحايين في رده على من يعيب كتبه عن البساطة التي لجأ اليها فيرهف قلمه ويحشد طبعه ، فبدلاً من ان يلجأ الى رباطة جأش المتهكمين والى هدوئهم وسكونهم يثور ثورته فيقول لهذا العائب الذي عابه بأكثر كتبه[1] :

« بهرك ماسمعت ، وملأ صدرك الذي قرأت وأبطرك فلم تجد للحجة وهي

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول (ص٦) .

لا معوضة ، ولم تعرف المقاتل[1] وهي لا بادية ، ولم تعرف باب المخرج اذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد ، رأيتُ ان سبَّ الاولياء أشفى لدائك وأبلغ في شفاء سقمك ، ورأيت ان ارسال اللسان أحضر لذة وأبعد من النصب ومن إطالة الفكرة ومن الاختلاف الى ارباب هـذه الصناعة ولو كنت فطنت لعجزك وصلتَ نقصك بتمام غيرك واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك وحبيس على تقويم اشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمثوبة في الآجل ، وكنت ان اخطأتك الغنيمة لم تخطئك السلامة ، وقد سلم عليك المخالف بقدر ما ابتلي منك الموافق ، وعلى انه لم يبتل منك الاّ بقدر ما الزمته من مؤنة تثقيفك والتشاغل بتقويمك وهل كنت في ذلك الاّ كما قال العربي : هل يضرّ السحاب نبح الكلاب والاّ كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زاخراً أنْ رمى فيه غلام بحجر

وهل حالنا في ذلك الاّ كما قال الشاعر :

ما ضرّ تغلب وائل أهجوتها ام بلت حيث تناطح البحران

وكما قال حسان بن ثابت :

ما أبالي أنبّ بالحزن تيس ام لحاني بظهر غيب لئيم

وما اشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حلمنا عنك الى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم ير حق الصفح فجعل العفو سبباً الى سوء القول

فان عدت والله الذي فوق عرشه منحتك مصقول الغرار بن ازرقا

فان من الجهل ان تضرب الطلى وان تلمس العريض حتى يفرقا وقال الاول

وضغائن داويتها بضغائن حتى شفيت و بالحقود حقودا

وقال الآخر

وما نفى عنك قوماً انت خائفهم كمثل رقمك جهالاً بجهال

فاقعس اذا حربوا واحرب اذا قعسوا ووازن الشر مثقالاً بمثقال

الى آخر هذا الكلام ....

(١) في الاصل : المقابل .

غير ان هذه الاساليب كلها في التهكم قد لاتكون شيئاً ماداماً الى تهكمه في كتابه التربيع والتدوير ، لهذا الكتاب انما هو المثل الأعلى في التهكم والحجة القاطعة فقد كان استهزاؤه فيه على أساليب فنية ، يخرج في السخرية بالرجل من باب الى باب ومن شكل الى شكل حتى يمزقه تمزيقاً فيصغره في عيون الناس اولاً ثم يصغر هذا الرجل في نفسه فيتمنى لو ان الارض خسفت به خوفاً من ان تقع عليه عين ، وهل يبلغ الاوخاش في القول من رجل مايبلغه منه تصويره في صور شتى كل صورة منها معرض تعرض علينا فيه ناحية من نواحيه ، وفي كل معرضٍ من هذه المعارض صورة هزلية .

فمرة يعرض علينا طائفة من آداب نفسه وصفات عقله في معرض هزلي فيقول [1]

« وانا أبقـاك الله اعشق انصافك كما أُعشق المرأة الحسناء واتعلم خضوعك للحق كما اتعلم التفقه في الدين ولربما ظننت ان جورك انصاف قوم آخرين وانك يقنعك سماع رجال منصفين ومااظنك صرت الى معارضة الحجة بالشبهة ومقابلة الاختيار بالاضطرار واليقين بالشك واليقظة بالحلم الا بالذي خصصت به من إيثار الحق وألهمته من فضيلة الانصاف حتى صرت احوج ما تكون الى الانكار أذعن ما تكون بالاقرار واشد ماتكون الى الحيلة فقراً اشد ماتكون للحجة طلباً .— »

ثم لا يكتفي بهذا المعرض حتى يضيف اليه هذه الصورة [2]

« غير ان ذلك بطرف ساكن وصوت خاضع وقلب جامع وجأش رابط ونية جسور وارادة تامة مع غفلة كريم وفطنة عليم ان انقطع خصمك تغافلت وان خرق توقفت غير مغلوب ولا متشعب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حسود ولا منـافس ولا متغالب ولا متعاقب يفل الحد ، و يصيب المفصل و يقرب البعيد و يظهر الخفي ويميز الملتبس ويخص المشكل و يعطي المعنى حقه من اللفظ كما يعطي اللفظ حظه من المعنى و يحب المعنى اذا كان حياً يلوح وظاهراً يصيح و يبغضه مستهلكاً بالتعقيد ومستوراً بالتقريب .— »

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد (الجزء الاول ص ٤٦) .
(٢) « « « « « ص ٤٧

واذا فرغ من هذا المعرض عرض علينا محاسن علمه فيقول [١]

« تخبرني ماجرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ، وعن سماعك من افلاطون ومادار بينك وبين ارسطاطاليس واي نوع اعتقدت واي شيء اخترت فقد ابت نفسي غيرك وابت ان تشفي الا بخبرك ولولاني كلف برواية الاوفاويل ومغرم بمعرفة الاختلاف واني استجيز مسألتك عن كل شيء وابتذالك في كل امر لما سمعت من احد سواك وما انقطعت الى احد غيرك ٠ — »

واذا انتهى من محاسن علمه انتقل الى محاسن اخلاقه فيقول [٢]

« واعلم اني واياك متى تحاكمنا الى كرمك قضى لي عليك ومتى ارتفعنا الى عدلك حسن العفو عني عندك وفصل مابيننا وبينك وفرق مابين اقدارنا وقدرك انا نسيء ونغفر ونذنب وتستر ونعوج ولقوم ونجهل وتعلم وان عليك الانعام وعلينا الشكر ٠ — »

واذا فرغ من الاستهزاء بآداب نفسه وصفات عقله بمحاسن علمه ومكارم اخلاقه لم يبق له الا الاستهزاء بجماله الفاتن فيعرض علينا هذا الجمال فيقول [٣]

وهل تقع الأبصار الا عليك ، وهل تصرف الاشارة الا اليك ، واي امرك ليس بغاية ، واي شيء منك ليس في النهاية ، وهل فيك شيء يفوق شيئاً او يفوقه شيء او يقال لو لم يكن كذا لكان او لو كان كذا لكان أتم واين الحسن الخالص والجمال الفائق والملح المحض والحلاوة التي لا تستحيل والتمام الذي لا يحل الا فيك اوعندك او لك او معك لا بل اين الحسن المصمت والجمال المفرد والقد العجيب والملح المنثور والفضل المشهور الا لك وفيك وهل على ظهرها جميل حسيب وعالم اديب الا وظلك اكبر من شخصه وظلك اكثر من علمه واسمك افضل من معناه ، وحلمك اثبت من نجواه ٠— »

وقد تفنن في هذا الاستهزاء التفنن كله فلا تغني هذه الانماط التي ذكرتها عن الرجوع الى اصل الكتاب ٠

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد (الجزء الاول ص٥٧) ٠
(٢) 〃 〃 〃 〃 〃 ص ٦٢
(٣) 〃 〃 〃 〃 〃 ص ٦٨

هذا آخر ما خطر على البال من تهكم رجل هزأ باشياء كثيرة في هذا العالم ، هزأ بالخرافات والأباطيل وبالحمق وربما كان خروجه من ديوان الخليفة هزءاً بالعظمة نفسها ، بل ربما سخر بشيء اعظم من العظمة فاذا كان الجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد الذي وصف فيه الشيء وضده على السن مختلفة يرمي الى حقيقة فلسفية فيصوّر لنا طبقة من الناس يستحسنون طائفة من الامور ثم يصوّر لنا طبقة غيرهم يستقبحون ما استحسن غيرهم اذا كان غرض الجاحظ من هذا الكتاب تقرير هذه الحقيقة فكأنه يريد ان يقول لنا لا حقيقة مطلقة في الدنيا واذا كان هذا قوله فكأنما الجاحظ هزأ بالحياة كلها . —

دمشق : في ٥ كانون الاول سنة ١٩٣١

آراء وافكار

—«»—

حول مقالة الشاعر الصنوبري

قرأت في الجزء الثامن من المجلد الحادي عشر (ص ٤٨٤) من مجلة المجمع مقالة للصديق الاستاذ الشيخ كامل الغزي مقالة عنوانها (الشاعر الصنوبري) ذكر في مطلعها انه جمع نبذة من اخباره وجمع زهاء اربعمائة بيت من شعره وان اول سفر عثر فيه على كلمات في هذا الشاعر مجموع قديم مخطوط ثم قال : اذا أمعنا النظر في ترجمة الصنوبري التي اتى بها كل واحد من صاحب المجموع المخطوط وفوات الوفيات ومعجم البلدان وابن عساكر وابن جني فاننا لأول وهلة يظهر لنا اختلاف عظيم في اسم الصنوبري واسم ابيه وجده وجد ابيه ووصفه مرة بالصبغي وأخرى بالضبي وتسمية ياقوت لجده بمروان وتسمية ابن عساكر لجد أبيه بمرار وتفرد ابن جني باسمه واسم ابيه دون جميع من ذكرناهم ممن ترجموا له ·

ثم ذكر انه اتبع باسمه واسم ابيه ونسبه الاكثرية وانه احمد بن محمد الصبغي الصنوبري الحلبي · وان كلمة الضبي الواردة فيما ترجم له ابن عساكر محرفة عن الصبغي ثم قال :

اما تاريخ وفاته فلم ار من صرح به سوى صاحب المجموع فزعم انها كانت في سنة ٣٣٤ وهذا بلا ريب تاريخ مغلوط اذا سلمنا بصحة الحكاية التي أوردها صاحب اليتيمة عن ابن جني فانها كادت تفيدنا صراحة ان الصنوبري كان في سنة ٣٤٦ حياً يرزق · نستفيد هذا من قول ابن جني وانشدت ابا علي ليلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها (واحر قلباه ممن قلبه شبم) الخ فان هذه القصيدة آخر مانظمه ابوالطيب في حلب اي انه نظمها حين فارق سيف الدولة وذلك في السنة المذكورة · وعلى كل حال فان تاريخ وفاة الصنوبري لا يخلو من إبهام فهو يحتاج الى تدقيق عميق اه ·

اقول واني ايضاً ممن عني منذ مدة بجمع اخبار الصنوبري وشعره وقد اودعت ترجمته ونبذة من شعره المجلد الرابع من تاريخي (اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) (ص ٢٣) ناقلاً معظم ذلك عن تاريخ ابن عساكر المحفوظ بظاهرية دمشق وقد سميت هذه المجموعة (الروضيات) وفي نيتي طبعها ان شاء الله تعالى . وقد اربى ما جمعته من شعره الى الآن على ٦٠٠ بيت .

اما قول الاستاذ الغزي ان اسمه واسم ابيه احمد بن محمد فهو صواب لا ريب فيه لاجتماع كلمة من ذكرهم من المؤرخين وغيرهم على ذلك اما اسم جده فهو الحسن (لا الحسين كما جاء في المجموع المخطوط وهو تحريف من الناسخ) وهكذا سماه (الحسنَ) ابنُ عساكر وياقوت والذهبي في تاريخه الكبير الموجود منه خمسة أجزاء في المكتبة الاحمدية بحلب وفي تاريخه (العبر في اسماء من غبر الموجود في هذه المكتبة بخط الحافظ ابن حجر) . واما اسم ابي جده فهو مرار لا مروان كما جاء في المعجم لياقوت فانه هكذا في ابن عساكر وفي تاريخ الذهبي ايضاً وما في المعجم تحريف .

واما قول الاستاذ ان كلمة الضبي الواردة فيما ترجمه له ابن عساكر محرفة عن الصبغي وجزمه بانه الصبغي فهو بعيد عن الصواب وخطأ محض والصواب انه الضبي كما قال ابن عساكر وهكذا في تاريخ الذهبي الكبير وفي العبر ايضاً وهو نسبة لبني ضبة قبيلة من قبائل العرب ويغلب على الظن انه لو كان الصبغي لذكره ياقوت في كلامه على الصين كما هو شأنه في نسبة المشاهير ويدعونا الى الجزم بانه الضبي ان جد الصنوبري كان قاطناً في بغداد وهو صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون كما قاله ابن عساكر في اول ترجمته فهو عراقي . وبنو ضبة نزلت بلاد العراق كما ذكر ذلك القلقشندي في صبح الاعشى حيث قال (ج ١ ص ٣٤٨) ومن قبائل طابخة بنو ضبة قال في العبر وكانت بالناحية الشمالية من نجد بجوار بني تميم ثم انتقلوا في الاسلام الى العراق وهم الذين قتلوا المتنبي الشاعر اه .

وقول الاستاذ انه لم ير من صرح بتاريخ وفاته سوى صاحب المجموع فزعم انها كانت في سنة ٣٣٤ وهذا بلا ريب تاريخ مغلوط الخ .

أقول وممن صرح بوفاته في هذه السنة الحافظ الذهبي في تاريخه المتقدم في وفيات هذه السنة وأورد له من نظمه (لا النوم ادري به ولا القلق) وذكره ايضاً في تاريخه العبر في

حوادث سنة ٣٣٤ ونص عبارته وفيها (اي توفي) الصنوبري الشاعر ابو بكر احمد بن محمد ابن الحسن الضبي الحلبي وشعره في الذروة العليا اه ٠

وصاحب المجموع الذي هو من مخطوطات مكتبة الاوقاف في حلب المحفوظة في المدرسة الشرفية — عين لنا الشهر الذي توفي فيه وهو شهر رجب فيكون نقله لتاريخ وفاته عن غير الذهبي والذهبي لم يعين الشهر لا في تاريخه الكبير ولا في العبر فيكون الذهبي وصاحب المجموع قد اتفقت كلمتهما على ان وفاته في هذه السنة ٠ وعلى هذا فيكون الصنوبري قد بقي مدة وجيزة بعد مجيء سيف الدولة الى حلب هي سنة واربعة اشهر لان سيف الدولة دخلها في ثمان خلون من شهر ربيع الاول سنة ٣٣٣ ٠

واما استدلاله بقول ابن جني انشدت اباعلي ليلاً الخ وانها كادت تفيد صراحة ان الصنوبري كان حياً في سنة ٣٤٦ الخ فهو غلط منه وسهو في النقل فان العكبري شارح ديوان المتنبي لم يذكر في شرحه لهذه القصيدة انها آخر ما نظمه المتنبي في سيف الدولة وانه فارقه بعد ذلك بل آخر قصيدة قالها فيه في حلب هي قصيدته التي اولها (عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم) الخ فقد ذكر العكبري هنا (ج ٢ ص ٢٨٧) انه قالها سنة خمس واربعين وثلاثمائة وانها آخر قصيدة قالها بحضرة سيف الدولة ٠

فعلى هذا تكون وفاة الصنوبري في سنة ٣٣٤ امراً محققاً لا ريب فيه ٠ هذا ما ظهر لنا وفوق كل ذي علم عليم ٠

محمد راغب الطباخ

رجاء

عثرت على جزء من تاريخ حلب للصاحب كمال الدين ابي القاسم عمر بن احمد الشهير بابن العديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ المسمى (بغية الطلب في تاريخ حلب) في المدرسة الحسنية في الموصل وقد ارسلت فاستنسخته وهو في نحو ٤٠٠ صفحة كبيرة اوله زهدم بن الحارث كان بدابق الخ وآخره سعيد بن سلام المغربي والفضل في ذلك يرجع للدكتور داود الچلبي مؤلف كتاب مخطوطات الموصل ٠

· ويوجد من هذا التاريخ الحافل الذي تجد فيه مالا تجده في غيره من الاخبار والتراجم مجلد في مكتبة الأمة في باريز · ومجلد في مكتبة أياصوفيا في الآستانة · ومجلد في مكتبة لندن ·

فنرجو ممن وقف على شيء من هذا التاريخ غير المجلدات التي ذكرتها في المكاتب العامة او الخاصة ان يتفضل بافادتي مع وصف الكتاب من الخط وعدد الاوراق وتاريخ الكتابة وما هو اوله وما هو آخره وله مزيد الشكر · حلب: محمد راغب الطباخ

مخطوطات نفيسة(١)

واما كتاب (تكملة القاموس) فهي المستدركات في شرح مؤلفها (الزبيدي) على القاموس وانما بدا له بعد فراغه منه ان يجردها في تأليف على حدتها كما ذكره في خطبتها ففعل مع تنقيح واختصار يسير لبعض الجمل وطبعها منفردة لاانكر فائدته وعندي نصفها الاول اقربيا بخط مشرقي صحيح واني أود توجيه عنايتكم الى الاهتمام بطبع حاشية القاموس المسماة: (باضاءة الراموس، واافاضة الناموس، على اضاءة القاموس) تأليف سيدي محمد بن الطيب الشرقي الفاسي شيخ سيدي مرتضى وعمدته في هذا الفن حسبما أفصح بذلك في ديباجة شرحه (تاج العروس) بقوله: ومن أجمع ما كتب عليه مما سمعت ورأيت شرح شيخنا الامام اللغوي ابي عبدالله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي المتولد بفاس سنة ١١١٠ والمتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ وهو عمدة في هذا الفن والمقلد جيدي العاطل بحلي تقريره المستحسن وشرحه هذا عندي في مجلدين ضخمين اه وهو مراده بشيخنا عند الاطلاق في تاج العروس ومع كون هذه الحاشية او الشرح على ما عبر به سيدي مرتضى كانت عنده واستمد منها كثيراً في تاجه بل هي عمدته كمؤلفها فقد ثنى عنانه عن نقل كثير من عيونها ومباحثها النفيسة التي لا توجد في غيرها كما يعلم بالوقوف عليها واولها بعد البسملة:

سبحان من القاموس المحيط رشحة من آثار أياته والقابوس الوسيط لمحة من أنوار آياته فله الحمد على ماقلدنا من عقد صحاح جوهر آلائه وأولانا من باب محكم ولائه أنطقنا جاث

(١) [المجمع] من كتاب جاءنا من حضرة الاستاذ صاحب التوقيع ·

حكمته ومنطقنا جلت بالنعم السوابغ نعمته وأذاقنا من حلاوة بارع لسان العرب . ما دونه الفائق المهذب وقطر الندا وارتشاف الضرب . وقرب لنا جمهرة خلاصة التنقيح والتهذيب وغاية التقريب وأتاحنا من صراح المجد اللغوي مانهاية الفصيح المختار المنتخب ان يستضيء بنور مصباحه المزهر ففيه الكفاية عن كل مصنف ضريب . والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على من امام أساس مجد الدين ابي الطاهر محمد بن الطيب ابي الطيب الطاهر بن الاطايب الاطاهر المعرب عن كل مغرب من الآي الظواهر الخ .

ولصاحبها ترجمة حفيلة في الجزء الرابع ص ٩١ - ٩٤ من سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لابي الفضل المرادي مفتي دمشق وبالجملة فهي حاشية نفيسة في بابها وعندي نسخة منها في مجلدين ضخمين بخط مغربي .

واوجه عنايتكم ايضاً الى كتاب تهذيب الاسماء والافعال لابي القاسم بن القطاع فانه من أنفس المؤلفات التي اعتمدها سيدي مرتضى ايضاً وذكر في شرحه انه في مجلدين بيد ان كتاب ابن القطاع الذي ذكر في ديباجته انه لخصه وخلصه من كتاب ابنية الافعال لابن القوطية هو في مجلد واحد وعندي نسخة منه بخط مغربي ولا أدري هل هو احد قسمي الكتاب الذي أشار اليه سيدي مرتضى او غيره .

- والى كتاب المثلث لابن السيد البطليوسي فانه مع صغر حجمه مفيد في بابه وعندي نسخة منه ايضاً بخط مغربي ولا أظن يغني عنه مثلث ابن مالك المطبوع فانه نظم والاول نثر وفرق بينهما .

- والى مختصر الزبيدي لكتاب العين اول من صنف في جمع اللغة المنسوب للخليل بن احمد وهذا وان أطبق الجمهور على القدح فيه ونسبته الى الليث بن نصر بن سيار الخراساني قال صاحب المزهر بعد ذلك فداهج الناس كثيراً بمختصر العين للزبيدي فاستعملوه وفضلوه على كتاب العين لكونه حذف ماأورده مؤلف كتاب العين من الشواهد المختلفة والحروف المصحفة والابنية المختلفة وفضلوه ايضاً على سائر ماألف على حروف المعجم من كتب اللغة مثل جمهرة ابن دريد وكتاب كراع لاجل صغر حجمه الخ كلامه وعندي نسخة منه عتيقة بخط اندلسي كتبت اثناء القرن السابع غير انها لا تخلو من خرق الارضة مع تجديد نحو العشرين ورقة منه بنساخة قديمة ايضاً .

طنجة : عبد الهادي بن محمد السلاوي

مطبوعات حديثة

—(()—

آداب الحسبة

« لابي عبدالله محمد بن ابي محمد السقطي المالقي الاندلسي نشره السيدان كولين »
« وليفي بروفانسال مع مقدمة له بالفرنسية وتعليقات لغوية وتفسير بعض »
« المفردات طبع في باريز سنة ١٩٣١ ص ٧٢ النص العربي ومثلها بالفرنسية »
« وهو من مطبوعات معهد العلوم المغربية »

الحسبة أشبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات لهذا العهد ، لم تبطل على الأغلب من الديار الاسلامية الا بظهور نظام البلديات المنقول عن أوضاع الغرب في القرن الماضي . وقد كتب لنا ان عثرنا على اربعة مخطوطات في الحسبة وصفناها في ص ٥٣٧ و ٦٠٩ من المجلد الثالث من مجلة المقتبس منذ اربع وعشرين سنة الاول منها « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » استنسخناه سنة ١٣٣٢ هـ عن نسخة جلبت من حلب والثاني كتاب الحسبة لمحمد بن محمد بن احمد المعروف بابن الاخوة القرشي وهو من مخطوطات الخزانة الزكية بالقاهرة . والثالث نصاب الاحتساب لعمر بن محمد بن عوض الشامي (النسامي اوالسنامي ؟) من مخطوطات الخزانة التيمورية بالقاهرة . والرابع « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » لعبدالرحمن ابن نصر بن عبدالله بن محمد الشيزري (اوالشيرازي) من مخطوطات دار الكتب المصرية . وهذه الكتب الاربعة من تأليف علماء من المشارقة ، اما كتاب السقطي المالقي فهو من تأليف رجل من المغاربة الاندلسيين ولذلك وقعت له مصطلحات غير مألوفة في لغة المشرق ومنها الاسباني الاصل او ما دخل في اللغة القشتالية من العربية ، وقد حل معانيها الاستاذان الناشران لنفعا بعلمها كالا مؤرخي المدنية الاسلامية في الغرب ومؤرخي اللغة العربية .

ونظن هذا المنشور بالطبع هو قطعة من كتاب المالقي الاندلسي يعثر فيها المطالع على أوضاع تخالف بعض الشيء ماجاء من نوعها في التآليف الاربعة التي ذكرنا (خطط الشام م ٥ ص١٣٥) . وأصناف الصنائع في الكتب التي اطلعنا عليها أوسع مادة وعدداً ولا يعقل ان تكون الاندلس حتى في عهد انحطاطها اقل صنائع من بلدان المشرق . والمالقي كان محتسباً ولذلك جاء كلامه معززاً بالشواهد والوقائع التي خبرها بنفسه فجاء في تضاعيف سطوره بامور اختص بها . وكان طبع كتاب الحسبة في الاسلام لشيخ الاسلام ابن تيمية في القاهرة وطبع كتاب آخر يدخل من بعض الوجوه في باب الحسبة بمدينة دمشق سنة ١٣٠٢ هـ وهو كتاب « المختار في كشف الأسرار » للعلامة زين الدين عبد الرحيم ابن عمر الدمشقي المعروف بالجوبري من اهل القرن السابع وفي هذا من كشف أسرار من يدعون النبوة والمشيخة وكذبة الوعاظ والرهبان والاحبار وبني ساسان واهل الحراب والفكارين وأصحاب السير والرمل والمعزمين والدجاجلة من الاطباء ومن يلعبون بالنار ويعملون الطعام والمشعبذين والجوهريين الى مايتعلق بذلك من الامور الغريبة في بابها تخدم بها صاحبها الحاجة من طريق غير مباشر . وعسى ان تنصرف همة احد الطابعين فيطبع جميع هذه الرسائل في مجلدة طبعة علمية متقنة فانها تفيد من عدة وجوه لانها تصور المدنية القديمة وتأتينا بالفاظ ضاعت من الاستعمال والمجتمع في حاجة اليها .

محمد كرد علي

اعلام السريان

« ترجمة مار سويريوس يعقوب البرطلي المتوفى سنة ١٢٤١ بقلم السيد »
« مار سويريوس أفرام برصوم طبعت في دير مارمرقس للسريان »
« بالقدس سنة ١٩٣١ ص١٢ »

هذا علم من أعلام السريان من اهل القرن الثالث عشر للمسيح وهو من جملة من تخرج بكمال الدين بن يونس الفيلسوف الموصلي المشهور وكان اهل الذمة يقرأون عليه التوراة والانجيل (راجع ترجمته في طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة وفي تاريخ ابن

خلكان) . وذكر الاستاذ واضع ترجمة البرطلي ان هذا كان « ينعي على السريان إهمالهم لسانهم اذ لم يضعوا له الضوابط والقوانين كما فعل اليونان والعرب حتى انهم لم يعتنوا بالتكلم به بل فضلوا عليه اللغات الأعجمية اليونانية والفارسية ثم العربية بعد انتشارها بينهم ومن ثم أدخلوا فيه الفاظاً حوشية وأهملوا الفاظهم الاصلية التي حفظت بعضها اللغة العربية وضاعت من السريانية على طول عهدها مع وجودها في لغة كتبة السريان الاقدمين » اه ولعل هذا كان من العوامل في دثور لغة السريان من الجزيرة والشام الا قليلاً .

م . ك

مجموعة الرقم العربية

« نشر بادارة السادة كومب وسوفاجيه وفييت في القاهرة سنة ١٩٣١ »
« المجلد الاول منه في ٣١٢ ص وهو من مطبوعات المعهد العلمي الاثري »
« الفرنسي في مصر »

يقوم بنشر هذا الكتاب تسعة عشر عالماً من علماء الآثار من الفرنسيس والالمان والانكليز والعرب وغيرهم و ينشرون الرقم العربية كما وجدت و يعزونها الى ناشرها او ناشريها مع بيان المصادر التي وردت فيها وقد وضعوا بجانبها ترجمتها بالفرنسية . وفي هذا الجزء اربعمائة رقم وسيكون في كل جزء من الاجزاء التالية مثلها . وقد جعلوا هذا السفر المحتم تذكاراً لواضع علم الرقم العربية العلامة المرحوم فان برشم الاثري السويسري . واكثر الرقم في هذا الجزء مما وجد في مصر وقد بدأه واضعوه باقدم رقم عربي وجد في الارض حتى الآن وهو الرقم النبطي الذي وجد في النمرة من ارض الشام وصورته :
« تي نفس امرء القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج وملك الاسدين ونزارو وملوكهم وهرّب مذحج عكدي وجاء يزجاي في حج نجران مدينت شمر وملك معدو وبيّن بنيه الشعوب ووكلهن فارسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدي هلك سنت ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بالسعد ذو ولده » . ومعنى ذلك بمصطلحنا ان هذا قبر امرئ القيس ملك العرب كلهم الذي لبس التاج وأخضع لسلطانه قبائل اسد ونزار واصرائهم وفرق

مذحج الى ذاك اليوم وظفر في حصار نجران مدينة شمر وأخضع قبيلة معد ووكل الى بنيه أمر القبائل وأرسلهم على الفرس والرومان ولم يبلغ احد من الامراء مبلغه في المجد. وقد هلك سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من بكسلول (٧ كانون الاول ٣٢٨ م) كان السعد لعقبه . واسم هذا الكتاب بالفرنسية Répertoire chronologique d' épigraphie arabe . فأعظم بهمة هؤلاء العلماء الذين يحيون آثارنا ونحن عنها غافلون .

م . ك

المقصد

« تأليف عبد الحق الباديسي نشره بالفرنسية وعلق عليه السيد كولين »

« ص ٢٥٤ طبع في باريز سنة ١٩٢٦ »

اسم هذا التأليف كما قال ناشره « المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف » تأليف ابي محمد عبد الحق بن اسماعيل بن احمد بن محمد بن الخضر بن قيس بن سعد ابن عبادة الباديسي الغرناطي الخزرجي ألفه سنة ٧١١ (١٣١١—١٢ م) نسج فيه على منوال كتاب التصوف للتادلي المصنف (سنة ٦١٧ — ١٢٢٠ — ٢١ م) وفيه تراجم صلحاء الريف ريف المغرب الاقصى منهم المعروف بآثاره ومنهم الذي لم يشتهر عند الباحثين وفي التعليقات اللطيفة التي اتبعها به ناشره الاستاذ كولين فوائد جغرافية واجتماعية ومدنية تفيد الباحث في تاريخ الريف خاصة والمغرب الاقصى عامة وتدل دلالة واضحة على مبلغ عناية علماء المشرقيات بالتدقيق والتوسع في البحث والدرس في موضوعات استرحنا نحن اهلها من تعهدها وأتعبوا أنفسهم باحيائها وهم غرباء عنها . وحبذا لو طبع الاصل مع الترجمة اذاً لزدنا منة للناشر المحقق .

م . ك

المنتخب
— من —
« أدب العرب »

[طبع بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٥٠ — ١٩٣١ جزآن]
[في ٢٨٨ ص و٥٦٧ ص ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر]

تقدمت وزارة المعارف في مصر الى الاساتيذ : طه حسين واحمد الاسكندري واحمد امين وعلي الجارم وعبد العزيز البشري واحمد ضيف في جمع أنماط من قول العرب منظومه ومنثوره في مختلف الأغراض ، على متباين الأزمان .—

جمع هؤلاء الاساتيذ شملهم لتضافروا على انتخاب طائفة من ادب العرب ذكروا انهم حرصوا فيها على امرين : الامر الاول ان يكون منتخبهم من الادب مرآة الحياة الادبية في العصر الذي استفاض فيه وصورة اهل هذا الادب . والامر الثاني ان يكون في مختارهم مايبعث في قلوب الشباب حب اللغة والادب .

* * *

لقد كثر تفرغ الأدباء من حين الى آخر لانتخاب نماذج من ادب العرب ، فريق يذكر الغاية التي يرمي اليها في منتخبه وفريق لا يذكر شيئاً من ذلك .—

لاريب في ان ادبنا مبعثر يفتقر الى كثير من الترتيب حتى يكون سلسلةً مطردة اذا قلّبنا النظر فيها شهدنا تسلسل ما تشتمل عليه في العصور فانتقلنا فيها من طور الى طور وتراءى لنا مختلف هذه الأطوار .—

الكلام على انتقال الأدب من طور الى طور يرجع الى مؤرخي الادب أنفسهم فليس للذين يجمعون طائفة من منظوم القول ومنثوره لغرض من الاغراض او لغير غرض متعلق بهذا الكلام .—

غير انه قد ذهب بعض أدباء الافرنجة في كتبهم التي يختارون فيها جملة من شعر شعرائهم او كتابة كتّابهم مذهباً لا نرى فيه محذوراً ، فبدلاً من ان يستخرجوا منتخبهم من مدائنه ويحشروه في كتبهم حشراً فانهم يسلكون في ذلك مسالك : بعضهم يصدّرون

آثار كل عصر من العصور بكلام وجيز يصوّر الحياة الأدبية في هذا العصر ، وبعضهم يشرحون منتخبهم شرحاً غير هذا الشرح الذي ألفناه ٠ —

اننا تعودنا حتى اليوم ان نقتصر في الشرح على توضيح معاني الألفاظ وهذا امر قد يستطيع الطالب سبيلاً اليه فلا يفتقر في البحث عن معنى لفظ من الالفاظ في معجم من المعجمات الى كثير من العناء وقد يجد في هذا البحث لذةً في بعض الاوقات ٠ —

فاذا كنا نتوخى ان نبعث في قلب الطالب حب لغته وأدبه فالسبيل الى هذا ان نعدل عن هذه الاصول الجافة التي نبني عليها في الشرح ٠ —

من القواعد التي تحبّب الى الطالب لغته وأدبه قاعدة مدارها على توضيح امور كثيرة في الشرح ، من جملتها : الكلام على معاني القطعة المنتخبة وتأليفها والكلام على لغتها ويدخل في الكلام على لغتها الكلام على أسلوبها وعلى خصائص الفاظها ثم يتبع هذا كله رأي في القطعة على صورة مجملة ٠ —

أظن ان هذه القواعد قد تمهد للطالب سبيلاً الى الإحاطة بعبقرية ادبه ولغته وقد تغرس في صدره محبة هذه العبقرية ، اما الاقتصار على شرح الألفاظ فهذا امر يلهو به الطالب نفسه ٠ —

واذا كانت هذا العمل انما هو من أعمال معلمي المدارس الثانوية فهل ضعف ذوق هؤلاء المعلمين ضعفاً احتاجوا فيه الى من ينتخب لهم طائفة من أدب العرب ٠ —

شفيق جبري

الأعلام العربية والفارسية

« عند السريان »

للسريان علاقات وثيقة بالعرب وأواصر أرخى عراها كرّ الايام وتقلب الحكام وتفشي الجهل ولكن دون ان تفصمها . فمن السريان الاقدمين علماء اعلام مستعربون اتقنوا العربية والفوا فيها وترجموا تصانيف ذاع صيتها واستفاضت شهرتهـا كما ان من العرب عدداً دان بمذهب السريان قبل الاسلام خاصةً واختلط بافراد هذه الملة حتى عُد منهم . واللغة العربيـة في ايامنا هذه تحتاج الى من يتقن العربية والسريانية ويكشف لنا عما بقته الايام من آثار السريان الجيدة وعما خدموا به اللغة العربية في مختلف العصور الاسلامية . وقد قيض الله لهذا العمل المفيد العلامة السيد سويريوس أفرام مطران السريان في سورية ولبنان فنشر حتى اليوم بضع رسائل تدل على تضلعه بهذه الموضوعات وتمكنه منهـا . والرسالة التي نتكلم عليها هي من جملة هذه الرسائل وهي بحث ممتع عن الاعلام العربيـة التي شاعت بين السريان بعد الاسلام ولاسيما الأسماء العربيـة لبعض البطاركة والمطارنة والرهبان والرواهب والقسوس وغيرهم مثالهم البطريرك الانطاكي ديونيسيوس يحيى والبطريرك عزيز ابو المعاني وجمال الدين ابو الفرج غريغوريوس ابن العبري المشهور الى عشرات من امثال هذه الاعلام العربية .

مصطفى الشهابي

رياحين الارواح

« الطبعة الثانية سنة ١٩٣١ »

السيد ابو الفضل الوليد شاعر مبدع وكاتب مجيد . وكتابه هذا « الرقيم الاول » من قصائده ديوانٌ نفيس على صغر حجمه فيه ما يلذ الشعراء ويطرب اصحاب الشعور الرقيق . وقد جمع بين الغزل والجد واللهو والزهد والخمر والرشد كما تجمع طاقة الزهور بين أصناف الورود والرياحين . وكله منظوم بابداع ممزوج بفكاهة وقد صدره بمقدمة طويلة دعاها (بالتلويحات) وهي نثرٌ نثَر فيه من الالفاظ والمعاني درراً جميلة غير قليلة . ولقد كنا نعيب في مثل هذا الديوان الجميل طبعه على ورق عادي يشبه ورق الجرائد

السيارة جنساً وكان حقه ان يطبع على ورق صقيل ويجلد بجلد فاخر ليكون له مقامه الرفيع في خزائن الادب والادباء — لولا ان المؤلف رغب في إفادة الشبيبة وخدمة الامة ببيع كتبه بثمن رخيص على علاتها قدراً وغلائها وضعاً وهي والحق يقال فكرة صائبة .

عبد الله رعد

الصابون

« تأليف السيد عبد الله عمر عدرة

هو كتاب صناعي فيه يحث اصحاب الصنائع على تجديد طرائقهم القديمة واكثار انتاجهم فيحيوا بذلك ما اندثر اوكاد مما كان له في عهد سبق قيمة في بلادنا وشهرة وتجارة حلّ بها الاضمحلال الا قليلاً وذلك من جملة الاسباب التي جرّت ولا تزال تجر وطننا الى الفقر .

عالج الاستاذ عدرة موضوع كتابه بنظام حسن وأسلوب تحاشى فيه قدر الاستطاعة استعمال الكلمات الفنية الثقيلة وتعابير الكيمياء التي لا يفهمها الا الكيمياوي وذلك ليقرب به الى افهام اصحاب المصابن وهم ليسوا على الغالب في بلادنا اصحاب فن بل ممن تعلموا صنع الصابون عن اسلافهم دون ان يلموا بكيف ولا بكم مما يطبخ في الخلقين . فاستقرأ الزيوت والمواد الاولية وطرق الطبخ المعول عليها في شرقنا ، وقابلها بالطرق الفنية الغربية ، ودلّ على الفرق بينهما من حيث اجناس المحصول وزيادة الفائدة ، ومدّ اصحاب المصابن الشرقية بنصائح فنية ان هم عملوا بها نهضوا ببضاعتهم ان لم يكن الى مستوى معامل البلاد الاوربية ، فالى تجديد حياة الصناعات الوطنية يعيد اليها شيئاً من رواجها القديم .

عبد الله رعد

الرسالة النباتية

[في بعض نباتات زراعية لم ترد في معجم اسماء النبات للدكتور احمد عيسى]
[ومعجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد شرف]

المعاجم العربية الحديثة التي يقام لها وزن في ابحاث النباتات واسمائها العربية والمعربة اثنان : معجم اسماء النبات للدكتور احمد عيسى ومعجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد شرف . وقد نقل كلاهما عن أهم المؤلفين في النبات قديماً وحديثاً كابن البيطار وابن العوام والأصمعي وفيجري واحمد ندا وفورسكال وشوينفورث وبوست وغيرهم . وطبعا المؤلفين بالمطبعة الاميرية في القاهرة فجاآ فريدين في بابهما . وهما اليوم أصلح المعاجم في هذا الصدد ، يوفران كثيراً من وقت القارئ الذي يفتش عن اسم نبتة من النبتات ولا سيما معجم الدكتور احمد عيسى فانه يمتاز بسهولة مراجعة الالفاظ في اي لغة من اللغات الاربع وهي العربية واللاتينية والفرنسية والانكليزية .

ومن البديهي ان المعجمين المذكورين لم يتناولا سوى بعض المهم من النباتات مما جاء في الكتب التي مر ذكرها او في بعض المعاجم الاجنبية . وهما ابعد من ان يتناولا كل مانراه في كتب النبات الواسعة من مختلف الاسماء اللاتينية لنباتات شتى مفيدة او غير مفيدة تُنبتها الطبيعة في انحاء العالم ولا يوجد لكثير منها أسماء حتى في اللغات الاوربية المشهورة . ومن البديهي ايضاً اني لاابغي في هذا البحث الموجز التعرض لتلك النباتات وعددها عظيم وانا أجهل معظمها الا في الكتب ، بل غايتي ذكر بعض نباتات زراعية لم يوردها شرف ولا عيسى في معجميهما كبعض الأزهار والرياحين واشجار التزيين وجنباتها واشجار الحراج والفواكه ، وهي نباتات زرعتها او رأيتها في حدائق النبات وقليل منها لم أزرعه ولم أره لكن قرأت عنه في الكتب والمجلات الفرنسية . ولا

نعرف لهذه النباتات اسماء عربية (لان أجدادنا كانوا يجهلونهـا) لكن لاسمائها العلمية (ومعظمها مأخوذ عن اليونانية) معاني وصفوا بها بعض اعضاء النباتات او بعض مميزاتها فيسهل علينا ترجمة تلك الاسماء بمدلولاتها . ثم انهم ينسبون بعض النباتات الى العلماء الذين كشفوها فيسمونها باسمائهم او يطلقون عليها اسم احد الملوك او الامراء او آلهة الأقدمين وجميع هذه الاسماء تترك على حالها عند تعريبها او تجعل بصيغة النسبة . ولم أذكر لكل نبات سوى اسم جنسه . ولو عمدت الى ذكر انواعه وذكر اصنافه خاصةً لطال الكلام دون كبير فائدة من حيث الغاية التي نتوخاها في هذا البحث . ومن المعلوم انه لا يجوز ان اكتب في هذه الرسالة ماهو خاص بكتب الأزهار والأشجار ، اذ ليست الغاية هنا تحلية انواع تلك النباتات واصنافها وذكر منابتها وفوائدها وغير ذلك من المعلومات التي لا تستوعبها غير الكتب ، بل الغاية بيان أصلح اسم عربي او معرب او مترجم لجنسها . اما الالفاظ المختصة بالانواع فمعناها يكون سهل الترجمة في الغالب وكذا الألفاظ الدالة على الأصناف ولذلك لم أر لزوماً للتعرض لها في هذا المقال . (الا بعض انواع كما في زهرة القبس وزهرة زينيا) مثال ذلك اني لم أتعرض للجنس المسمى (Campanula) البتة لان كلاً من الدكتور عيسى والدكتور شرف ذكره وذكر له اربعة انواع ، مع ان لدي منه عشرين نوعاً لم يورداها وهي كلها تزرع وكلها يعرفها ارباب الأزهار وهاك بعضها :

Campanula grandiflora	الجريس الكبير الورق
» nobilis	« النبيل
» sibirica	جريس سبريا
» barbata	الجريس الملتحي
» glomerata	« المجتمع الزهر
» latifolia	« العريض الورق
» rotundifolia	« المستدير الورق
» turbinata	« الخذروفي
» boloniensis	« البولوني

الجريس القزم	Campanula cœspitosa
〃 الهرمي	» pyramidalis

الخ ...

ومما لاريب فيه انني لو اردت ذكر أهم الأنواع لكل جنس من الاجناس التي سقتها في رسالتي هذه لأربت اسماؤها على الف لفظة .

ولم أذكر ايضاً اسماء الاجنـاس المترادفة بل اكتفيت بالاسم الأشهر ورأيت من العبث في هذه الرسالة الصغيرة وضع اسم صاحب النبات بجانب اسم الجنس لشهرة الاجناس المذكورة ووجودها في كتب الازهار والاشجار المهمة . ولم أر حاجة الى ذكر الفصيلة التي ينتسب اليها كل جنس لان ذلك من متناول معاجم النباتات وكتبها . ولا بد لي من التنبيه الى ان النباتات التي ذكرتهـا في هذه الرسالة لم أجد منها شيئاً في كتاب النبات لشوينفورث . اما بوست فقد اورد منها عدداً صغيراً في كتابه « نباتات سورية وفلسطين ومصر وبواديها » دون ذكر اسماء عربية لهذا العدد الصغير ، والسبب في ذلك ان النباتات التي نحن بصددها لاتنبتها الطبيعة في بلادنا بل منابتها بلاد اجنبية مختلفة ومع هذا فهي اليوم شائعة في جميع العالم وما من حديقة او شـارع او منبت الا فيه عدد منها . واعتمدت في تحري اشتقاق الاسماء العلمية على اهم موسوعات الازهار والاشجار الفرنسية .

ويجب ان اعترف بان ضيق الوقت وقلة الوسائل حالا دون البحث عن عـدد كبير من اشجار التزيين المستعملة في البلاد الحارة خاصةً كأشجار الفصيلة النخلية التي شاهدت منها في حدائق مصر مجموعة بديعة . فلعل العلماء المصريين يسدون هذا الخلل .

ولست ادعي العصمة فيما ترجمته او عربته من الاسماء . ورب عالم بالنباتات الزراعية متمكن من اللغـة يغلّطني في بعض الالفاظ فأشكر له يده . وارجو من المؤلفين الذين يقتبسون الفاظ هذه الرسالة في مؤلفـاتهم ان يذكروا النبع الذي استقوا منه وهو مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق فهذا اقل مايتطلبه من ربما لبث ساعات يتحرى لفظة واحدة وهو لا يبتغي على عمله جزاءً ولا شكورا .

ولقد قسمت البحث قسمين واحداً بالازهار وآخر بالاشجار وسقت الالفاظ في كل منهما مرتبة على حروف المعجم .

القسم الاول في الأزهار

A

Abronia	الرشيقة (من اليونانية لرشاقة ازهارها)
Acœna	الشائكة (من اليونانية للشوك الدقيق في الكأس والثمرة)
Achimenes	المقرورة (〃 لشدة تأثرها بالبرد)
Acroclinium	المخنية الرأس (لانحناء ازهارها الانتهائية قبل تفتحها)
Agapanthus	زهرة الحب
Ageratum	الدائمة الشباب (من اليونانية لطول عمر ازهارها)
Alonsoa	الألنصوا او الألنصيّة (منسوبة الى Alonso zanoni وهو نباتي من بيرو)
Alstrœmeria	الألصطروميريا (منسوبة الى Cl. Alstrœmer وهو نباتي وزراعي سويدي
Arctotis	اذن الدب (ايماء الى ما في ثمارها الفقيرة من نتوءات)
Arenaria	زهرة الرمال (لم يذكرها شرف وذكر عيسى لها نوعاً واحداً وهي لها عدة انواع منها الانواع الآتية المعروفة :
Arenaria Laricifolia	زهرة الرمال اللارقسية الورق
〃 Montana	زهرة الرمال الجبلية
〃 balearica	زهرة رمال جزائر باليار
〃 Cespitosa	زهرة الرمال المفرخة
Asperella	الجُويسئة (تصغير جاسئة)
Astilbe	المكمدة
Astrantia	النجمية (لشكل النور في نباتات هذا الجنس)
Aubrietia	أبرياسيا (منسوبة الى الرسام الفرنسي Aubriet)

B

Bartonia	برطونيا (منسوبة الى النباتي الدكتور برطون الأميركي)
Bocconia	بكّونيا او بكّونية (منسوبة الى Boccone النباتي الصقلي)
Boltonia	بلطونيا (باسم J. Bolton النباتي الانكليزي)
Boussingaultia	بوسنغلطيا (احياء لذكر بوسنغلط العالم الفرنسي المشهور بابحاثه الزراعية والكيمياء الزراعية)
Brachycome	الزهرة الكثّاء (من اليونانية لقصر زغب البزور)
Briza	الحنية السنيبلات (سميت بهذا الاسم لانحناء سنيبلاتها وهي مبذولة في بلدتنا تخاصبيا حيث تنبتها الطبيعة فيقطعونها ويضعونها في الزهريات)
Browallia	بروفاليا (منسوبة الى المطران السويدي Browallius)

C

Calandrinia	قلندرينيا (منسوبة الى Calandrini وهو نباتي سويسري
Callirhœ	زهرة السبيل (باسم احدى آلهات الجمال اليونانية)
Callistephus	زهرة الملكة مرغريتا (هكذا يسمونها بالفرنسية اما اللفظة العلمية فهي من اليونانية بمعنى الجميلة الاكليل . ولهذه الزهرة عدة اصناف جميلة تؤلف بها رسالة . وسماها لينيوس Aster sinensis اي الأسطر الصيني)
Centauridium	الشبيهة بالأرجيقن او اخت الأرجيقن
Centrosema	الملفوفة العلم (لشكل العلم في زهرتها الفراشية)
Cerastium	زهرة القرون (لطول السنفات في بعض انواعها)
Chionodoxa	فخر الثلوج (من اليونانية بهذا المعنى لكشفها في ذائب الثلج)
Clarkia	إقلاركيا (باسم القبطان Clark)
Clianthus	زهرة المجد (لجمال تويجها)
Clintonia	إقلنطونيا (باسم Witt Clinton الاميركي)
Cobœa	قوبيا (باسم Cobo وهو نباتي يسوعي من الاندلس)

Collinsia	قلّنسيا (باسم Collins معاون رئيس المجمع العلمي في فيلادلفيا)
Collomia	زهرة الغراء (لبزورها المخاطية)
Coreopsis	زهرة البق (معناها باليونانية الشبيهة بالبق لشكل ثمارها)
Corydalis	زهرة القبرة (لم يذكرها عيسى . وذكرها شرف فسماها حب القنبر والاصلع زهرته . وهي من اليونانية لان شكل زهرتها كرجل القبرة لها عدة انواع واصناف)
Cosmidium	اخت الزينة (الشبيهة بزهرة الزينة)
Cosmos	زهرة الزينة (لجمال ازهارها)
Cuphea	المنحنية (لشكل كأسها)
D	
Diascia	زهرة التزويق (لرشاقة ازهارها)
Dicentra	ذات الجناحين (لتويجها الذي له جناحان)
Dracocephalum	رأس الغول (لشكل ازهارها)
E	
Eccremocarpus	زهرة الثمار المتدلية
Echeveria	أشوريا (باسم رسام نباتي من المكسيك)
Echinocystis	زهرة المثانة الشائكة (لشكل ثمرها الشوكي)
Eranthis	زهرة الربيع (من اليونانية بهذا المعنى)
Eremurus	زهرة الأذناب الوحيدة (لازهارها المجتمعة عناقيد طويلة سنبلية)
Eutoca	زهرة الخصب (لكثرة ازهارها)
F	
Fuchsia	فوشيا (منسوبة الى نباتي من بافاريا اسمه Leonard Fuchs)
G	
Galega	الزهرة المُدِرّة
Gamolepis	المتحدة الحراشف (لاتحاد الحراشف في قنابة الزهرة)

Gaura زهرة البهاء (لجمال الزهر في بعض انواعها)
Gerardia جيرارديا (منسوبة الى John Gérard)
Gerbera جربارا (منسوبة الى النباتي الالماني Gerber)
Gilia جيليا (منسوبة الى النباتي الاسباني Salvador gil)
Gloxinia غلُقسينيا (باسم الكاتب النباتي Gloxin من كولمار)
Godetia غداسيا (باسم النباتي Godet من نوشاتل)
Gymnothrix زهرة الحرير العاري (لشبه الحرير في سنيبلاتها)
Gynerium زهرة المدقة الزغبية

H

Helichrysum زهرة الشمس الذهبية (لشكل حراشف الرؤيس ولونها)
Hugelia هوجاليا (باسم البارون Hugel من ويانا)
Humia هوميا (باسم قرينة Sir Abraham Hume)

I

Iberia (Thlaspi) زهرة الأندلس
Ionopsidium اخت البنفسج (لنباتها الشبيه بنبات البنفسج)
Ixia زهرة الدبق (للزوجة العصارة في بصلاتها)

L

Lagurus ذيل الارنب (سماها شرف شعر الارنب والاصح ماذكرناه)
Lamarckia لامارکيا (باسم لامارك العالم الفرنسي المشهور)
Lathyrus odoratus (pois de senteur) زهرة الجلبان العطر
Layia ليّا (منسوبة الى توما لَيْ العالم بالمواليد)
Leptosiphon زهرة الانبوب الرقيق (لرقة انبوب تويجها)
Leptosyne النحيلة (لمنظر بعض انواعها النحيلة)
Limnanthes زهرة المناقع (لانها تعيش في الارض الكثيرة الرطوبة)
Loasa لوازا (اسم لامعنى له ركبه أدنسون من حروف وردت على خاطره عفواً)

Lophospermum	العرفية الحب [لشكل حبوبها]

M

Maurandia	موراندیا [باسم الدكتور النباتي Maurandy]
Melica	العسلية اللب [من الايطالية]
Mimulus	المقنعة [لان تويجها يشبه قناع الممثلين]
Mina	مينا [باسم وزير من المكسيك]
Morina	مورينا [باسم النباتي الفرنسي L. Morin]

N

Nœgelia	نوجيليا [باسم الاستاذ Nœgeli مدير حديقة النباتات في مونيخ]
Nemophila	زهرة الحراج [لانها تجود في الحرجات]
Nolana	زهرة الجريس [لشكل ازهارها الجرسية]
Nycterinia	زهرة الليل [لتفتح ازهارها في الليل]

O

Oxyura	الحادة الذيل [لشكل السمات في ازهارها]

P

Pentstemon	زهرة خمس الأسدية [لوجود خمس اسدية منها واحدة عقيمة]
Petunia	اخت التبغ [لصلاتها النباتية بالتبغ]
Phacelia	زهرة الجمّة [لشكل ازهارها]
Phlox	زهرة القبس [لشكل الازهرار في احد انواعها وهو القبس الهرمي]

وهذا الجنس من اشهر الازهار له عدة انواع وعشرات من الاصناف زرعنا كثيراً منها فمن انواعه المعروفة :

Phlox Drummondii	قبس أدروموند
» Pyramidalis	القبس الهرمي
» Paniculata	« العثكولي

القبس المؤنف[1]	Phlox acuminata
〃 البغلي	» hybridœ
〃 البيضي	» ovata
〃 الربيعي او قبس الربيع	» verna
〃 المخرزي	» subulata
بوداليريا [باسم الطبيب بوداليرابن اسقلاب]	Podalyria
	R
اخت الورد [للون زهرتها]	Rhodanthe
	S
لسان المزمار [لشكل مدقات زهرتها]	Salpiglossis
الزهرة المحزوزة [لوجود حز في زهرها]	Schisanthus
زهرة القعالات المحزوزة [للحز في القعالات اي البتلات]	Schisopetalum
زهرة الثمار الحلزونية [لان ثمارها تستدير حلزونياً عندما تنضج]	Streptocarpus
سرخس النعامة [لان اوراقها تشبه ريش النعام]	Struthiopteris
	T
زهرة النمر [للبقع الجميلة في لفافة الزهرة]	Tigridia
زهرة العنق [لطول انبوب التويج]	Trachelium
الزهرة الشعرية [لتحزيز دقيق في تويجها]	Trichosanthes
الزهرة الثلاثية الكاملة [لوضع اجزاء زهرتها الثلاثية المنتظمة]	Triteleia
الزهرة الثلاثية	Tritoma
الزهرة المستديرة [من الالمانية Trol بهذا المعنى]	Trollius
	V
زهرة العرق [للعروق البارزة في الساق]	Venidium

(١) لفظة المؤنف من وضع العلامة الدكتور امين باشا المعلوف . انظر مجلة المجمع العلمي مجلد ٨ ص ٣٢٨ .

اخت الدبق [للزوجة ام انواعها] Viscaria

W

وطصونيا [باسم الاستاذ النباتي الانكليزي Watson] Watsonia

X

الزهرة الندية [اي الزهرة التي إن جفت لا تذبل] Xeranthemum

Z

زينيا [باسم الاستاذ النباتي الالماني Zinn وهذا النبات من اشهر الأزهار له انواع معروفة منها : Zinnia

الزينيا الرشيقة Zinnia elegans

〃 الكثيرة الزهر » multiflora

〃 المكسيكية » mexicana

وفي كل من هذه الأنواع اصناف مشهورة لدى غواة الأزهار لا مجال لذكرها في هذه الرسالة ·

* * *

القسم الثاني في الشجر والجنبة (١)

A

آبليا [منسوبة الى الدكتور Abel Clark] Abelia

جنبة الغدد الحادة [الماعًا الى غدد المئبر الحادة] Acmadenia

جنبة الغدد الذكرية [اشارة الى الغدد التي في المئبر] Adenandra

جنبة الرائحة الزكية Agathosma

عقبية [هكذا تسمى في اليابان وهي معرشة] Akebia

الجنبة الناقصة [لنقص في تركيب نورها] Amorpha

(١) الجنبة هي النباتات التي صغرت عن الشجر ونبلت عن البقول وقد اتخذناها لما يسمى بالفرنسية Arbrisseau و Arbuste على السواء واول من استعملها حديثًا امين باشا المعلوف

Ampelopsis	اخت الكرمة [لانها تشبه الكرمة . ذكرها شرف بلفظتها العلمية ولم يترجمها]
Aotus	العديمة الاذن [لفقد الزوائد في الكأس]
Araucaria	أروكاريا [من Araucanus وهواسمها في بلاد شيلي . ويسمونها في دمشق الشمسية اي المظلة]
Argyrolobium	جنبة السنفة الفضية [للون سنفتها الفضي]
Aucuba	أكوبا [هكذا تسمى في اليابان . شاهدناها في غرينيون وفي غيرها . وهي اليوم مبذولة]
Azara	عزارة [باسم العالم الاسباني J. N. Azara]
B	
Baccharis	شجرة الخمر [يقال ان السبب في اطلاق هذا الاسم عليها رائحة جذورها . ذكرها عيسى وشرف بلفظتها العلمية ولم يترجماها]
Biota	شجرة الحياة [من اليونانية بهذا المعنى اشارة الى اسمها القديم]
Boronia	بورونيا [باسم النباتي Boroni]
Brachysema	القصيرة العلم [لقصر العلم في زهرها]
C	
Callistemon	الجميلة الاسدية [من اليونانية لجمال أسديتها]
Calodendron	شجرة البهاء [من اليونانية بهذا المعنى]
Carpinus	شجرة النير [من القوطية بمعنى خشب الرأس اي الخشب الصالح لصنع الانيار التي توضع وراء رأس الثيران . وهي من اشجار الحراج المنتشرة في اوربة ومنها نوع في جبل اللكام شمالي الشام]
Carya	اخت الجوز [من اليونانية بمعنى الجوز . وهي مبذولة في اميركة وتصلح لتزيين الشوارع]
Caryopteris	الجوزة المجنحة [لثمارها المجنحة]

كوزرينا [باسم الطائر Cazuarius لان اغصانها الطوال المتدلية تشبه ريشه]	Cazuarina
جنبة الازهار الرأسية [لان نورها انتهائي على شكل رؤيس . ذكرها شرف باللفظة العلمية ولم يترجمها]	Cephalanthus
جنبة البهاء [لها اكثر من ١٥٠ نوعاً]	Cestrum Syn. Habrothamnus
شجرة السرو الصغير [الماعاً الى انها تشبه السرو]	Chamœcyparis
اخت الحور الابيض [لان ساقها تشبه ساق الحور الابيض]	Chamœlaucium
المنشقة السنفات [لان سنفتها تنقسم قسمين متفرقين]	Chorizema
النحيلة الاغصان	Cladrastris
شجرة الرهبان [لان كهان الهند يستعملونها في صلاتهم . لها اكثر من ثمانين نوعاً]	Clerodendron
كولسيا [باسم Collet وهو كاتب نباتي فرنسي]	Colletia
جنس الأكيليل [لشكل ازهارها . لم يذكرها عيسى وذكرها شرف باسمها العلمي]	Coronilla
اخت البندق [لانها تشبه البندق اي الجلوز]	Corylopsis
شبيه السفرجل [لان اوراقه زغبية كاوراق السفرجل . له عدة انواع منها نوع في لبنان]	Cotoneaster
جنس الزعرور [لم يذكره شرف وذكر عيسى له ثلاثة انواع مع ان له اكثر من اربعين نوعاً كثير منها معروف يزرع او تنبته الطبيعة في مختلف البلاد]	Cratœgus

D

الدارونية [منسوبة الى داروين الشهير]	Darwinia
الشجرة العشرية [اشارة الى اجزاء الزهرة العشرة]	Decumaria
ديارڤيلا [منسوبة الى الجراح الفرنسي Dierville وهي من اشهر جنبات التزيين]	Diervilla
دلاّنيا او الدلّنيّة [منسوبة الى Dillenius وهو معلم نبات في اكسفورد]	Dillenia

Diosma — الجنبة العطرة [لرائحة اوراقها الغددية ٠ ذكرها شرف بلفظتها العلمية ولم يترجمها

Diplolœna — المزدوجة اللفافة [لان لفافة زهرتها مزدوجة]

E

Empetrum — جنبة الصخور [الماعًا الى مكان نباتها]

Eriostemon — جنبة الاسدية الزغبية

Erytrochiton — شجرة الكأس الحمراء

Eutaxia — شجرة الحشمة [لشكل الشجرة النحيل إبان ازهرارها]

Evonymus — لم يذكر عيسى وشرف لهذا الجنس سوى نوع واحد مع ان له عدةانواع زراعية اهمها E. japonicus وهو مبذول في حدائق بيوت دمشق حيث يسمى المرجان]

G

Gastrolobium — البطنية السنفات [لشكل السنفة البطني]

Gleditschia — غلاديشيا [منسوبة الى النباتي الالماني Gleditsch وهي من اشجار التزيين المعروفة

Gompholobium — المنتفخة السنفات [لانتفاخ سنفتها وكون السنفة تكون كروية في رأسها]

Grevillea — غريفيليا [منسوبة الى C. F. Greville لها اكثر من ١٥٠ نوعًا]

Gymnocladus — العريانة الاغصان [لمنظر اغصانها في الشتاء ٠ لم يذكر عيسى هذا الجنس وذكره شرف فسماه شيكو وهوالاسم الفرنسي]

H

Hakea — هكيا [منسوبة الى البارون Hake لها اكثر من مئة نوع كثير منها معروف]

Hamamelis — الجنبة المشتركة [لانها تحمل نوراً وثمراً سوية ٠ ذكرها شرف بلفظتها العلمية ولم يترجمها]

Hibbertia — هبرسيا [تنسب الى النباتي الانكليزي Hibbert]

شجرة الكوب [لثمارها التي تشبه كوب الماء ٠ ذكرها شرف بلفظتها الاجنبية ولم يترجمها]	Hydrangea
	I
ايديزيا [باسم Ides وهو من الرواد الهولانديين]	Idesia
اخت الصفصاف	Itea
	K
كنديا [باسم Kennedy الانكليزي احد اصحاب المنابت]	Kennedia
	L
لاجرستروميا [باسم النباتي السويدي لاجرستروم]	Lagerstrœmia
لرديزبلة [هكذا تسمى في بلاد بيرو ٠ وهي جنبة معرشة]	Lardizabala
شجرة القنينة [لان الثمار تشبه القناني]	Lecythis
شجرة البزور الرقيقة [لشكل بزورها]	Leptospermum
	M
مكلورا [منسوبة الى W. Maclure وهو اميركي عالم بالمواليد]	Maclura
ماهونيا اوماهونيّة [منسوبة الى Mac Mahon النباتي الاميركي]	Mahonia
شجرة الثمار اللؤلؤية [لثمرتها التي تشبه اللؤلؤ]	Margyricarpus
الشجرة العسلية [لوجود اربعة اعضاء عسلية في قاعدة المبيض]	Melicope
شجرة القلب الحديدي [لصلابة خشبها]	Metrosideros
الشجرة الرقطاء [لوجود نقط شفافة في اوراقها]	Myoporum
	N
الندينة [من Nandin وهو اسمها في اليابان]	Nandina
جنبة الساحل [لان انواعها تنبت في السواحل]	Nesœa
	O
اخت الزيتون [لان اوراق بعض انواعها تشبه اوراق الزيتون]	Olearia
شجرة العَقد [تستعمل في صنع العقود]	ormosia

Osmanthus	الزهرة العبقة [الماعاً الى رائحة زهرها]
Ostrya	شجرة الحراشف [الماعاً الى حراشف الزهرة . وهي من اشجار الحراج المنتشرة في اوربة . وتوجد في جبل اللكام شمالي الشام]
Oxydendron	الشجرة الحامضة [لحموضة اوراقها]
P	
Paulownia	بولوفنيا [منسوبة الى Paulownia ملكة هولاندة]
Phebalium	اخت الآس [لانها تشبه الآس]
Phellodendron	الشجرة الفلينية [لقشرتها الفلينية]
Photinia	الشجرة اللامعة [للمعان ورقها . لم يذكرها عيسى وذكر شرف نوعاً قال انه مرادف لاسم الثمرة «ايكدنيا» المعروفة في دمشق ؟ ولهذا الجنس انواع للتزيين جميلة]
Pilocarpus	الكُمِيّة الثمار [لان ثمارها تشبه الكمة . ذكرها شرف بلفظتها العلمية ولم يترجمها]
Piptanthus	البكورة الأغبال [لان اجزاء زهرتها تبكر في سقوطها
Platilobium	العريضة السنفات
Poinciana	ابوانسيانا [منسوبة الى M. Poinci ذكر عيسى نوعاً عن فورسكال ولم يذكر شرف شيئاً . وفي هذا الجنس انواع للتزيين جميلة ومشهورة]
Pseudotsuga	إتسوغة كاذبة [لانها تشبه الأتسوغة]
Ptelea	الشجرة المجنحة [من اليونانية جناح لثمرتها المجنحة . سماها شرف درداراً وهي غيره]
Pterocarya	اخت الجوز المجنحة [اشارة الى ثمارها الجوزية المجنحة]
Pultenœa	بلتنيا [باسم الطبيب الانكليزي Pulteney]
Pyracantha	شوك النار [لثماره الحمر الساطعة]
R	
Rhynchospermum	جنبة البزور المنقارية [الماعاً الى شكل بزورها]

S

Schizandra	المشقوقة الأسدية
Sequoia	الشجرة الجبارة [سميت سكويا لانها هكذا تدعى في كليفورنيا . وأسميتها الجبارة لانها تعلو حتى تبلغ ١٣٠ متراً في بلادها . وهي من جبابرة الشجر ومن الفصيلة الصنوبرية] .
Sphœrolobium	الكروية السنفات [لشكل سنفتها الكروية]
Spiranthera	اللولبية المآبر [لشكل مآبرها اللولبية]
Spirœa	جنبة الاكاليل [لان اليونان اطلقوا هذه اللفظة على جنبة كانوا يصنعون الاكاليل من اغصانها . وفي هذا الجنس نحو ٥٠ نوعاً . لم يذكر شرف منها سوى نوع واحد سماه ملكة المروج
Swietenia	شجرة الأبنوس [اللفظة العلمية منسوبة الى نباتي هولاندي . اهم انواعها S. Mahagoni وهو بالفرنسية Acajou]
Symphoricarpos	شجرة الثمار المتحدة [لاجتماع غدة ثمار في إبط الاوراق]

T

Thuya	شجرة العفص [هكذا تسمى في دمشق . ولم يذكرها شرف . وسماها عيسى شجرة الحياة مع ان شجرة الحياة هي Biota التي تشبه هذه الشجرة]
Triphasia	الشجرة الثلاثية [لعدد الوريقات في الكأس والتويج]
Tsuga	إتسوغة [هكذا تسمى في اليابان . وهي من اشجار الفصيلة الصنوبرية الشهيرة]

U

Ulex	جنبة الأدغال [ذكرها شرف ولم يترجم اللفظة العلمية]

Z

Zanthorhiza	الصفراء الجذور
Zinobia	زينوبيا [باسم الزبّاء]

مصطفى الشهابي

—((*⇌*))—

تصحيح نهاية الارب

« أغلاط الجزء الثامن »

سبق لي ان تتبعت أغلاط سبعة الاجزاء التي طُبعت من كتاب [نهاية الأرب في فنون الأدب] للعلاّمة النويري . وقد نشرت ذلك تباعاً في مجلدات السنة [٦٧و٩٦] من هذه المجلة . ثم اطلعت اخيراً على الجزء الثامن وهو آخر ماطبع من أجزاء ذلك السفر النفيس في مطبعة دارالكتب المصرية مصححاً بقلم الاستاذ [احمدالزين] ولم يكتف حضرته بالتصحيح فقط بل علق عليه في ذيل الصفحات تعاليق بلغ فيها الغاية من [إصلاح المحرّف والمصحّف . وتكميل الناقص . وتحقيق الاعلام . وضبط الملتبس . وتفسير الغريب . وايضاح الغامض . وشرح ماأشكل من الابيات . وأسماء البلاد والامكنة . والتنبيه الى الكلمات العامية والالفاظ الاصطلاحية] الخ — كل هذا أخذه المصحح الفاضل على عاتقه . فقام حق القيام به . واستوفى الاجادة فيه . واستحق الثناء عليه . غير أني — وانا أتصفحه — وقع نظري على اشياء أحببت التنبيه اليها . وبيان رأيي في ماهو الصواب فيها . مشايعةً للاستاذ المصحح في ماهو بصدده من خدمة هذا الكتاب الثمين . وتكميلاً للعمل الذي بدأت به منذ سنين . والله وليّ المحسنين :

فمن هذه الاغلاط ما في :

ص ١ س ٩ — قال المؤلف يصف القاضي الفاضل [ورافع علم البيان لامحالة . والفاصل بغير إطالة] في السجعة الاخيرة قِصَر يشبه ان يكون صوابها [والفاصل بين الحق والباطل بغير إطالة]

وص ٢ س ١٠ — قوله [والخيال الزائر . بالحبيب العاذر] لعل صوابه الغادر : فان الحبيب أجدر بان يوصف بالغدر من ان يوصف بالعذر .

وص٦ س٢ — [والنصرة خاصة بسلطانكم . والكفاية مكتنفة بجماعتكم] و[مكتنِفة] ضبطت بكسر النون . ولا يصح هذا لأن [اكتنف] يتعدى بنفسه كما قال المصحح فالصواب فتح نون [مكتنَفة] أو هي محرفة عن [مكتفية] .

وص١٩ س٩ — [ونسأل الله ان يمن بقربه ورحاب الآمال فسائغ .... والزمن المناظر بالقرب مسامح] قوله [المناظر] فسره المصحح بالمجادل . وعندي انه محرف عن [المناجز] وهو بمعنى المبارز المقاتل .

وص٢٠ س١ — [وحاشى جلاله من الاخلال بعهود الوفاء] هذه الجملة من إنشاء القاضي الفاضل وقوله [جلاله] بالجيم حسن بالجملة . ولكن احسن منه ان يكون محرفاً عن [خلاله] بالخاء المعجمة ويكون فيه من جناس الاشتقاق ما القاضي الفاضل حريص عليه . وقد عاش عمره يغذ السير اليه .

وص٢٠ س١٣ — [سقى الله ارض الغوطتين مدامعي] قال المصحح [انما ذكر الغوطة بالتثنية جرياً على عادتهم من ذكر الواحد بلفظ المثنى] أقول : غوطة دمشق مشهورة وتذكر تارة بالافراد مراداً بها مجموع بساتين دمشق وتارة بالتثنية ويراد بهما حينئذ الغوطة الكبرى المنبسطة في السهل الواقع شرقي دمشق — والغوطة الغربية الواقعة بين ضفتي الوادي وتسمى احياناً غوطة وادي بردى . ومثل ذلك [النيرب] فانه يذكر بالافراد مراداً به مجموع بساتينه ويذكر بالتثنية باعتبار قسميه اوجانبيه .

وص٢١ س٣ — [وماضر اليد الكريمة التي أياديها بيض في ظلمات الايام . وأفعالها لا يقوم بمدحها إلا الألسنة الأسنة والاقلام] لا معنى لكون ألسنة أسنة الرماح تقوم بمدح افعال اليد . وانما صواب العبارة [الاأسنة الألسنة والاقلام] ويكون [الأسنة] جمع سن واحد الأسنان يقال : سن وأسنان وأسنة كما يقال : كن وأكنان وأكنة . وفي الحديث الشريف [وأعطوا الركب أسنتها] اي مكنوا الركائب من ان تعمل أسنانها في الرعي . والمعنى هنا ان تلك الافعال لا يقوم بمدحها إلا اسنان اي اطراف الألسنة والاقلام . ويقال في فصيح الكلام [هذه الكلمة — مثلاً — مما يدور على سن القلم . اي طرفه . وعلى أسنة الاقلام — اي أسنانها . اي اطرافها . كما يقولون : أسلات الألسنة وأسلات الاقلام وهي جمع أسلة مستدق اللسان .

وص ٢١س ١١ — [يكتب فلايجاب · ويستكشف الهم بالجواب فلا يجاب] اذا لم يوجد [استكشف] في كتب اللغة كما قال المصحح فيكون صوابه [ويستكف الهم] اي يطلب منه ان يكف عن الهم · ومع هذا فان قوله [فلا يجاب] يناسبه [فعل الاستكشاف لا [الاستكفاف] · فعسى ان يُصدر أئمة اللغة في هذا العصر فتوى بجواز فعل [استكشف] وامثاله مما يؤيده القياس · وان لم تذكره المعاجم التي في ايدي الناس ·

وص ٢٢س ١ — [وحُوشي المولى ان يكون عوناً على قلبه · وان يرحل إثره الري على سربه] قال المصحح لعل صوابه [عن شربه وهم الجماعة يشربون] ولا حاجة الى هذا فان السرب بمعنى الطريق وقد مهّد له بقوله قبله [وان يرحل إثره] اي عقبه فالارتواء يرحل في إثره قائماً على سربه اي طريقه : يقال قام على طريقه واستقام على طريقته اي دام وثبت على المضي فيها ·

وص ٣١س٧ — لم أقف منه على كتاب يخلف سواد سطوره ماغسل الدمع من سواد ناظري · ويقدم ببياض منظومه ومنثوره ماوزّعه البين من سواد خاطري] قوله [ويقدم ببياض] صوابه [وينظم ببيان] فيلتئم حينئذ مع قوله [منظومه] ومع قوله [ماوزعه] اي فرّقه وبدده · اما قوله : [سواد خاطري] فصوابه [شتات خاطري] اي المتشتت المنتشر من خاطري وهواجس نفسي · ولا وجه لأن يراد [بسواد خاطري] العدد الكثير من خاطري · فان [السواد] قد يكون بمعنى العدد الكثير ولكن يجب حينئذ ان يضاف الى متعدد فيقال [سواد القوم] وسواد الناس و [كثّرت سوادهم بسوادي] اي جماعتهم بشخصي · هذا هو موضع استعمالها ·

وص ٣٣س٩ — [ولقد استغرب وصول الرفاق · وقد صفرت من كتابهم الكريم عيابهم] هذا من كلام القاضي الفاضل · والتزامه والتزام كتّاب زمانه السجع امر معروف فلعل في الجملة الاولى نقصاً يتم به السجع مع الجملة الثانية هكذا [ولقد استغرب وصول الرفاق بعد ان طال غيابهم · وقد صفرت من كتابهم الكريم عيابهم] ·

وص ٤٥س ١٠ — [كتاب اشتمل على بديع المعاني وباهرها ··· فكأنه طرف طرف صوبه مدرار · وعَلَم عِلْم منصوب في رأسه نار] قال المصحح صواب [طرف طرف] [قطر قطر] الاولى مصدر قطَر بمعنى سال والثانية بمعنى المطر كما تدل على ذلك بقية الجملة اه

ويعني ببقية الجملة قوله [صوبه مدرار] فان الصوب المدرار يناسب [قطر القطر] ولا يناسب [طرف الطرف] اه . وارى ان [طرف طرف] صواب بعد تصحيح الثانية بطرف بفتح الطاء المعجمة بمعنى الظرافة اي الكياسة و [طرف] الاولى بكسر الطاء وهو الكريم من الخيل وكثيراً ماسمعنا شيوخنا يقولون في تقريظ الكتب [ولقد سرحت طرف الطرف في هذا الكتاب] يجعلون للطرف اي العين طرفاً اي جواداً يسرّح . وهنا جعل القاضي الفاضل لظرافة ذلك الكتاب الوارد اليه جواداً وصفه بما توصف به كرائم الخيل فقال [صوبه مدرار] ووصفُ الجواد بان جريه كالصَّوْب المدرار معهود في بليغ كلامهم ومن ثم يسمون أفراسهم [سكاب] من انسكاب المطر ويصفونه بانه [يعبوب] من عبَّ البحر ارتفع وتتابع موجه . و [الدفقة] الفرس الكريمة تتدفق في مشيها . ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وسلم في صفة فرس ابي طلحة : [إن وجدناه لبحرا] .

وص ٤٩ س ١٤ —

[كتابٌ به ماء الحياة ونقعة الـ ــ حَيا فكأَني اذ ظفرت به الخضر]

قوله [الحيا] مقصوراً لاشيْ من معانيه — واشهرها المطر — يناسب هنا فصوابه [نقعة الظما] يقال شرب حتى نقع اي شفى غليله وروّى ظمأه .

وص ٦٩ س ٣ — [وكل مطّهم إن رَكَض ألق السماطُ لركضه] ليس في إزعاج ركض الجواد للسماط [اي صف الجنود في الميدان] — كبير امر ولا مبالغة في شدة ركض ذلك الجواد . فان اي جواد ركض أزعج صفوف الناس . وانما المبالغة الشعرية هي في ان يزعج الجواد بركضه كواكب السماء . وهذا ما أراده الشاعر مذ قال [ألق السماك] فحرفه الناسخ الى [السماط] والسماك كوكب مشهور وهما سماكان .

وص ٧٣ س ٨ — [وسيدنا مصمي الهمم وهذا ابن قيس رقيّاته . ومهلبي الشيم وهذا حبيب أبنائه . ووائلي الاحسان وهذا في الجلالة ابن ابي دواده وفي الادب ابن زيّاته] قال المصحح الفاضل قوله [وهذا حبيب أبنائه] في الاصل [حبيب أبياته] وهو تصحيف فان الذي وقفنا عليه ان حبيباً هذا من أبناء المهلب لامن شعرائه الذين مدحوه اه . ولكن اهتمام اولئك الكتّاب بمراعاة السجع وتفريطهم بالمعنى لاجله أحياناً — امر معروف : [فرقيّاته] و [زياته] يكون بينهما [أبنائه] — بعيد عن طبيعة انشاء ذلك العصر . فلامندوحة عن القول بصحة

[أبياته] الواردة في الاصل . ويكون المراد بحبيب ابياته هو [ابو تمام حبيب الطائي] لا [حبيب ابن المهلب] ولا سيما ان المؤلف قال [مهلبي] ولم يقل [مهلب] وبينهما فرق : فالمهلبي احد ابناء المهلب المنسوبين اليه وهم كثيرون ولم يمدح ابو تمام احداً منهم واشهرهم الوزير ابو محمد المهلبي وكان بعد ابي تمام بنحو مئة سنة . فلا بد ان تكون كلمة مهلبي محرفة عن اسم آخر من ممدوحي ابي تمام . ولأن نقول بوقوع التحريف في مهلبي خير من ان نقول بوقوعه في الكلمة التي تنتهي بها السجعة ومنزلة السجعة في نفوس القوم منزلتها . اما ممدوحو حبيب الطائي فكثيرون ومن أشهرهم الحسن ابن وهب واخوه سليمان بن وهب وله في الحسن ثلاث عشرة قصيدة فقوله [ومهلبي الشيم] صوابه إذن [ووهبي الشيم وهذا حبيب ابياته] وبهذه الصورة تتناسق السجعات . وتبقى كلمات [ابيات] على حالها كما وردت في الاصل . و [آل وهب] ليسوا باقل من [آل المهلب] منزلة في تاريخ الاسلام والخلفاء : فقد كان آباؤهم كتاباً من عهد الأمويين وكان الحسن بن وهب ممدوح ابي تمام متولياً لديوان الرسائل وكتب لابن الزيات . واخوه سليمان ولي الوزارة للمهتدي ثم للمعتمد . وارى ان الذي جعل الكاتب يقول [وهبي الشيم] ثم يقول [حبيب ابياته] فيجعل اباتمام ذا ابيات يضرب بها المثل في كل وهبي — هو قول حبيب في الوهبيين :

[كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب]
[إن قلبي لكم لكالكبد الحرّى وقلبي لغيركم كالقلوب]

وقد سمع هذا بعض الصالحين فقال لو كانت هذه الابيات في آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أليق إذ لا يستحق هذا القول الا هم رضي الله عنهم .

وص ٧٥ س ١١ — [جواباً عن كتاب شفاعة يوصي على اخيه نجم الدين] قوله [يوصي] سواء كان من الإفعال او التفعيل إنما يتعدى في مثل هذا المقام بالباء لا بعلى الا على سبيل التضمين .

وص ٧٥ س ١٧ — [واحلّه كنف قلبه . واودعه بين شغاف القلب وخلبه . واعاده الى معهود ولائه وحسبه] قوله [وحسبه] ربما كان صوابه وحبه . لان الحب وهو الذي يزول ثم يعود لا الحسب . وكذلك هو الذي يلائم الولاء بمعنى المحبة او القرب .

وص ٧٧ س ٣ — [ان الله . . . . أعدّ داري ثوابه وعقابه . وحذّر أولي العقوبة من أليم

عذابه] قوله [العقوبة] محرف عن مثل [الحُوْبة] والحوبة هي الاثم .
وص٨٢س٩ — [وأمضى عزائم آرائه التي .... وأرضى همته التي اذاهمّت اغنت عن الابيض المرهف والاسمر الخطار .... وأرهف اقلامه التي الخ] قوله [وارضى همته] لعلها محرفة عن مثل [وامضى همته] من امضى الامر أنفذه ومنه مضاء السيف .أو [وارصن همته] اي احكمها وثبّتها . أما ان الله يرضي همته فلا معنى له .
وص٨٣س٧ — [ولازال ربعه مربعًا للجلال ومصيفا .... ومشرعًا وارد الظلال وريفا] قوله [وارد] بالدال ان ناسب [المشرع] فانه لا يناسب [الظلال] ولذا كان صوابه [وارف الظلال] من ورف الظل اتسع وطال وامتد . وقوله [وريفا] ليس صفة كوارف إذ لا يقال ظل وريف كما يقال ظل وارف وانما واو [وريفا] للعطف وهو معطوف على [مشرعًا] ومعنى الريف الخصب وسعة الرزق ومنه ريف مصر .
وص٨٤س١ — [والجناب الذي .... فاضت مواهبه . وجاءت مذانبه . وجادت سحائبه] المذانب جداول الماء تسيل عن الروضة الى غيرها كما قال المصحح . ولكن قوله [جاءت المذانب] لا يتسق مع [فاضت] قبله و[جادت] بعده فهو محرف عن مثل [مارت] من مار الماء ماج واضطرب وجرى على وجه الارض .
وص٨٦س٥ — [ورأيته والناس مومثون من ليث عليه مهابة فكانوا كالكروان أبصرن بازيا] قوله [مومثون] بالهمز لا معنى له فلعله محرف عن مثل [موجسون] من الوجس وهو فزعة القلب او [موجبون] بفتح الجيم اي تخفق قلوبهم من اوجب الله قلبه أخفقه وأرجفه .
وص٨٧س٨ — [فهو غاب العلم وهم اغصانه وشجره] قال المصحح [في الاصل (باغ العلم) وفي حروفه قلب لا يظهر به المعنى] اقول بل يظهر المعنى بالباغ اكثر مما يظهر بالغاب . والباغ البستان قال في شفاء الغليل : هو فارسي عربه المولدون وادخلوا عليه اللام قال البستي:

[لا تنكرن اذا أهديت نحوك من   علومك الغرّ او آدابك النُتفا]
[فقيم الباغ قد يُهدي لصاحبه   برسم خدمته من باغه التُحفا]

وص١١٠س١٠ — مما كتبه الملك المنصور قلاوون في اثناء الحروب الصليبية الى ملك اليمن قوله : [والرغبة الى الله في كذا وفي ألاّ تُقصَف رماحنا ... وألاّ تُشَقّ

لدينا إلاّ أكباد أكناد ، ولا تجزُّ غير شعور ملوك التتار الخ] قال المصحح أراد [بالا كناد] الجاحدين ، ثم استشكل [اي المصحح] ان يجمع [كُنُد] وصفاً على أفعال ، اقول والحق في ذلك ان [اكناد] ليست لفظاً عربياً من الكنود اي الجحود وانما هو جمع [كُنْد] على وزن فُعل لقب افرنجي يطلق على امراء الافرنج واشتهر منهم في الحروب الصليبية كثيرون ذكرهم كتاب العرب ومؤرخوهم كأبي الفداء وابن الاثير ، وأشهر هؤلاء الامراء [كندهري] و [كندصنجيل] واصل كند [كونت] [Conte] بمعنى امير فعربوه الى [كُنْد] على وزن قفل — وقفل يجمع على افعال قياساً — فقالوا [اكناد] وقرنُ ملوك التتار بالاكناد يدل على انه أراد بالاكناد امراء الصليبيين ، وقد كان هؤلاء واولئك من اشدّ اعداء ملوك مصر والشام في ذلك العهد .

وص ١٤٦ س ٨ — ذكر المؤلف مقدمة غزلية ركيكة لبعض كتاب زمانه جاء فيها هذا البيت :

[هل مخبر عنكم يعيش بقربه ميت الرجا والصبر بعد الياس]

فقوله [بقربه] ضميره يرجع الى المخبر ، وكون الرجاء يعيش او ينتعش بقرب المبشر المخبر عن الاحباب — ليس بطائل ، فلعل صوابه [بقوله] اي ببشارته ، على ما في هذا التعبير من اللين والركاكة ، ومعظم تعابير المقامة من هذا القبيل .

وص ١٥٤ س ٤ — على لسان الخليفة العباسي [المستكفي] نزيل مصر الى امام اليمن لاثماً مهدداً [واتخذنا مصر دار مقامنا ، لما كانت في هذا العصر قبة الاسلام ، وفيئة الامام ، وثانية دار السلام] قال المصحح [فيئة الامام] اي محل فيئته اي محل رجوعه يريد ان مصر هي التي رجعت اليها الامامة العباسية اه ، وعندي ان صوابه [فيئة الانام] اي ان الناس يرجعون اليها في امور دينهم لمكان الخلافة فيها — ودنياهم لمكان السلطان منها ، اما كونها محل رجوع الامامة العباسية فليس ذكره في هذا المقام مما يشرف بل مما يؤلم وينغص .

وص ١٥٦ س ١٠ — من كتاب الخليفة المذكور الى امام اليمن [رسمنابها « اي بالرسالة التي ارسلناها اليك » والسيف يود لو سبق القلم حدُّه ، والعَلَم المنصور يحب لو فات القلم واهتز بتلك الروابي قدُّه] [القلم] تكرر في الجملة فلعل الاولي محرفة عن [العلم] ويكون المعنى : ان السيف يتمنى لو يسبق الراية الى العدو لان الراية عادةً تحمل أمام الجيش ، كما ان الراية نفسها

تتدنى لو سبقت القلم : إذ ان القلم يباشر تهديد العدو ومحاربته قبل تسيير الرايات اليه ٠

وص١٨٦ س١٤ — من كلام سيدنا علي رضي الله عنه [ومن يتكبر على الناس زل] هكذا بالزاي من الزلل بمعنى العثار وهو حسن ولكن الاحسن ان يكون بالذال من الذل ليكون نقيض ماحاوله المتكبر من الكبر على الناس مذ يؤدي عمله الى عكس ماأراده ٠

وص ٢٠٢ س ٨ — [ومتحصل البلد لثلاث سنين : مبقلة ومتوسطة ومجدبة] قوله [مبقلة] قال المصحح إنها في الاصل [مقبلة] وفيه قلب وصوابه [مبقلة] كما يرشد اليه عطف المتوسطة والمجدبة عليه و [المبقلة التي كثر بقلها اه] ماقاله المصحح وهو حسن ولكن إبقاء [مقبلة] بتقديم القاف على ماجاءت في الاصل أحسن لان الاقبال في المواسم أعم من ان يكون من جهة خصب بقولها اوثمارها اوقطانيها : يقال أقبلت الارض بالنبات جاءت به ٠ ونقول اليوم كثيراً : السنة سنة إقبال اي خصب ٠ فلا داعي للعدول عن مقبلة الى مُبقلة على ان المصحح [في ص٢٩٥ س٣] صحح هو نفسه عبارة [المتآة والمتوسطة والمجدبة] بقوله [المتآة] تحريف صوابه [المقبلة] كما يقتضيه السياق ويريد بالمقبلة السنة التي تقبل بالنبات اي تجيء به اه ٠

وص٢٢٢ س٩ — عدد المؤلف وظائف مباشر البيوت السلطانية قال [ومنها تعاهد اسماء الحوائج خاناه] قوله [اسماء] صوابه [اشياء] وهي الامتعة المحفوظة في البيت المسمى [الحوائج خاناه] فانه يحتوي على اشياء يتنقدها الموظف لا على اسماء ٠

وص٢٢٢ س١٤ — [ويحصر لكل منهم ماحضره في كل يوم] قال المصحح في الاصل يحضر بالضاد المعجمة وهو تحريف اه ٠ وأرى ان صوابه يُحصي من الاحصاء فان مباشر بيت [الحوائج خاناه] يتلقى من كل من القصاب والحيواني والطيوري اشياءه ويحصيها عليه ٠ على ان [يحصر] لا بأس بها ٠

«المغربي»

—((*==*))—

مذهب الجاحظ في النقد[1]

— ١ —

« رأيه في التوليد — رأيه في اولية الشعر »

= 0 =

قبل ان أنقد فن الجاحظ وادبه ولغته لم لا انظر في نقد الجاحظ نفسه ، كيف كان ينقد فن غيره —

ولقد كان النقد قديماً في لغة العرب ولكننا لا نتجاوز عهد النابغة الذبياني مخافة ان نضيع في مجاهل لا نخرج لنا منها .

للعرب في الجاهلية مجالس ادب واسواق وما انتم بغافلين عنها ، شيخ النقدة في تلك الايام نابغة بني ذبيان الذي كان يضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها . —

وفي صدر الاسلام مجالس ادب حافلة وربما تصدرت في هذه المجالس امثال سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة . —

وفي زمن بني أمية مجالس ادب تشبه مجالس الأدب في الجاهلية منها مربد البصرة ومسجد الكوفة . —

وللخلفاء بني العباس أشباه هذه المجالس وربما كانت مجالس المنصور والمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم من الخلفاء وابناء الخلفاء والامراء والوزراء أعمر وأحفل .

ولو استقصينا أنماطاً من النقد في تلك العصور لوجدنا لها شكلاً خاصاً لا يتعداه فسواء

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

أكان النقد مجرداً من اسباب التفضيل والتمييز على نحو ما كانت عليه الحال في بعض الاحايين في النقد الجاهلي والنقد الاسلامي ام كان هذا النقد موضحاً هذه الاسباب في العصور التي تقدمت الجاحظ انه لا يتعدى الصور اللفظية والمعنوية من حيث انحراف هذه الصور عن الذوق اومن حيث مطابقتها للذوق ، فلم يكن له قواعد ثابتة ولم يكن له اصول يبنى عليها وانما كانوا في بعض العصور يملون طائفة من هذه الصور فيتطلعون الى صور حديثة .—

ثم مالبث ان ظهر الرواة فظهر ابو زيد الانصاري وابو عبيدة والاصمعي وظهر حماد الراوية والمفضل الضبي وخلف الاحمر فكان لنقدهم الشعر صورة خاصة وضحها لنا الجاحظ فقال :

« طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يعرف الا غريبه فرجعت الى الاخفش فألفيته لا يتقن الا إعرابه فعطفت على ابي عبيدة فرايته لا ينقد الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والانساب فلم اظفر بما اردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات .

قال الصاحب بعد هذا الكلام : فلله در ابي عثمان لقد غاص على سر الشعر واستخرج ارق من السحر .— »

وقال في مقام آخر :

« ولم أر غاية النحويين الا كل شعر فيه اعراب ولم ار غاية رواة الشعر الا كل شعر فيه غريب اومعنى صعب يحتاج الى الاستخراج ولم ار غاية رواة الاخبار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل .— »

قد يشتمل هذا الكلام على شيء من المبالغة وخاصة العبارة التي تتعلق بالاصمعي فالذي وصل الينا من امر الاصمعي ان له آراء في نقد الشعر تدل على انه يعرف غير غريب الشعر وكيف كان الامر فان الذوق الادبي في عصر الجاحظ قد لون بالوان شتى فمرة كان هذا الذوق يصبغ بصباغ نحوي ومرة بصباغ لغوي ومرة بصباغ أخباري .—

هكذا كان نقد بعض الرواة حتى جاء المؤلفون وشرعوا في تأليف الكتب في النقد فدخل النقد في طور جديد من حيث الترتيب والتأليف ، من هؤلاء المؤلفين محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء فقد فصل الشعراء من اهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين فأنزلهم منازل واحتج لكل شاعر بما وجده له من حجة وما قال فيه العلماء ولكن جوهر النقد لم يختلف عما

كان عليه في القديم فكان الحكم لشاعر من الشعراء لمتانة شعره اولشرود قافيته اولابتكار أسلوبه ٠—

ولكن النحو الجديد الذي نحاه النقدة في هذا العصر انماهو الطعن على ثقة بعض الرواة وهذا النحو أفق حديث في التمحيص والتدقيق الظاهر ان الرواة كانوا يزيدون في الاشعار فأشار ابن سلاّم الى توليدهو ّلاء الرواة وبين اسبابه فقال :

« فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر ايامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وماذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلّت وقائعهم واشعارهم وارادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار فقالوا على السن شعرائهم ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الاشعار وليس يشكل على اهل العلم زيادة ذلك ولا ماوضع المولدون ٠— »

الا ان ابن سلاّم لم ينبه على الزيادات التي زادها الرواة ولو فعل لنقي الشعر العربي فلم يبق مجال لارتياب المرتابين بصحة بعض هذا الشعر ٠

والى جنب هذا الأفق أفق آخر فكما نبهوا على توليد الرواة فقد نبهوا على اختلاف لسان حمير ولسان قريش فقد أشار ابن سلام الى قول ابي عمرو بن العلاء في هذا المعنى فقال :

« مالسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ٠— »

غير ان ابن العلاء لم يبين وجه هذا الاختلاف أهو من حيث قواعد النحو والتصريف أم هو من حيث اللفظ فبقي كلامه غامضاً وقد وردت في طائفة من كتب الادب الفاظ يمانية لها معنى غير المعنى الذي لها في لغة قريش ، وهذا كله لا ينقع غليلنا ٠—

وفي هذا العصر الذي نبهوا فيه على توليد الرواة وعلى اختلاف لسان حمير ولسان قريش ظهر الجاحظ فهو من ابناء عصر بن سلاّم ٠—

ولقد يصعب على رجل مثل الجاحظ قضى عمره كله في التمحيص ان يمر بمواطن الزور في الادب فيغفل الكلام عليها فقد أشار الى التوليد فقال[1] :

« ولقد ولدوا على لسان خلف الاحمر والاصمعي ارجازاً كثيرة فماظنك بتوليدهم على السنة القدماء ولقد ولدوا على لسان جحشويه في الحلاق اشعاراً ماقالها جحشويه قط فلو تقذروا من شيء تقذروا من هذا الباب ٠—»

[١] الحيوان الجزء الرابع — ص ٦٠

وقال في موطن آخر في توليدهم على بشار (١) :

قال صاحب الكلب : السنور يساوي في صغره درهماً فاذا كبر لم يساو شيئاً وقال العتبي :

كسنور عبدالله بيع بدرهم صغيراً فلما شب بيع بدينار

... وقد يضاف هذا البيت الى بشار وهو باطل . —

غير ان الجاحظ لم يدل على الذي ولدوه فلم يضف شيئاً الى ماقاله ابن سلاّم في زيادة الرواة، ولو دل على مواطن التوليد لما اتسع المجال الى الشك في بعض ادبنا وقد كان يسهل على الجاحظ وامثاله ان يحصوا ويدققوا حتى يستخرجوا بعد هذا التمحيص والتدقيق الزيادات التي زادها المولدون فهم متصلون بتطور اللغة من عهدها الجاهلي المتعارف الى عهدها الاسلامي ومن عهدها الاسلامي الى عهدها العباسي فليس بينهم وبين هذه العصور التي تطورت اللغة في اثنائها الا قرنان اوثلاثة قرون فقد كان يتيسر لهم ان يعرفوا روح كل عصر ولغته وفنه لانهم على نحو ماقلت لكم متصلون بتلك العصور ، اما اليوم فان التنبيه على مواطن التوليد قد يكون عقبة كؤوداً فاذا أردنا ان نعرف ان هذا البيت من الشعر قد نُحِلَه شاعر من الشعراء لزمنا ان نتعمق في ديوان الشاعر كله حتى نعلم هل هذا البيت الذي نُحِلَه من روحه اولغته من لغته او فنه من فنه فاذا اعترضتنا المصاعب في تمييز بيت من الابيات فكم تعظم هذه المصاعب في تمييز قصائد بحذافيرها قيلت في عصور متفاوتة بعيدة عنا . —

وليس في لغتنا معجم يبين لنا ان اللفظ الفلاني استعمل في العصر الفلاني ثم بطل استعماله بعد ذاك العصر فقد تمر بنا الفاظ لشاعر من الشعراء نظنها في بدء الامر غريبة وقد تكون هذه الالفاظ شائعة في عصر هذا الشاعر فاذا لم يكن في لغتنا معجم يدوّن الالفاظ بحسب تاريخها صعب علينا ان نعرف ان هذا اللفظ مولّد على لسان فلان والشك في الادب قد لا يخلو في خاتمة امره من محاذير وقد فطن الجاحظ لهذا الامر فقال في خطاب جماعة مالوا الى رد بعض الامثال على جماعة آخرين (٢) :

وان جاز لكم ان تردوا عليهم هذا المثل جاز لكل من كره مثلاً اوشاهداً ان يردعليهم كما رددتم وفي ذلك إفساد امر العرب كله فان زعمت ان الديك كان احق به لخصومك كثير ولسنا

(١) الحيوان الجزء الخامس — ص ٩٦

(٢) 〃 〃 الثاني — ص ٥٥

نحيط باوائل كلامهم على اي مقادير كانوا يفهمونها ومن اي شيء اشتقوها و كيف كان السبب ورب شيء انكرناه فاذا عرفنا سببه أقررنا به .—

الا ان الجاحظ على مصاعب التدقيق في التوليد قد ركب هذا المركب الخشن فتفرغ لتمحيص خطبة زعم انها منسوبة الى معاوية[1] . وبعد ان فرغ الجاحظ من ذكر الخطبة قال :

« وفي هذه الخطبة ابقاك الله ضروب من العجب : منها ان هذا الكلام لا يشبه السبب الذي من اجله دعاهم معاوية ، ومنها ان هذا المذهب — في تصنيف الناس وفي الاخبار عنهم وعما هم عليه من القهر والاذلال ومن التقية والخوف — أشبه بكلام علي وبمعانيه وبحاله منه بحال معاوية ، ومنها انا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ولا يذهب مذاهب العباد ، وانما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ، والله اعلم باصحاب الاخبار وبكثير منهم .—

غير ان الجاحظ كان يجب عليه في رد هذه الخطبة ان يسلك مسلكاً اقرب فيأتي بنماذج من خطب علي وبنماذج من خطب معاوية وان يقابل بين هذه الأنماط كلها فيشير الى الفاظ علي ويشير الى الفاظ معاوية ويدل على الالفاظ التي يألفها علي والالفاظ التي يألفها معاوية فيقول : هذه اللفظة مثلاً من الفاظ علي ، اوهذا التركيب من تركيب علي ، اوهذا الفن من فن علي ، وقد وردت اللفظة والتركيب والفن في خطبة معاوية فهذا كله مردود ، ولو فعل ذلك لكان تمحيصه ابلغ ، لان لكل خطيب اولكل شاعر اولكل كاتب ، لكل واحد من هؤلاء الثلاثة مفردات ومصطلحات وتراكيب لا يحيد عنها فهي ملازمته وقد يستعملها على الرغم منه ويكرر استعمالها دون ان يشعر بها ، اما قول الجاحظ : ومنها أنا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ولا يذهب مذاهب العباد ، فلا يخلو من بعض الضعف لان الرجل اذا حضرت وفاته قد تتبدل حالة عقله وحالة روحه .—

على ان الجاحظ قد تجرد في بعض المقامات للتنبيه على مواطن التوليد في الشعر ايضاً فلم يكن ضعيف الحجة في هذا التنبيه فمن هذا رده طائفة من الاشعار من جملتها هذا البيت

[١] راجع الخطبة في البيان والتبيين — الجزء الثاني ص ٢٨ .

للأفوه الأودي[1] :

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

فقال في رد هذا البيت[2] :

« واما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي فلعمري انه لجاهلي وما وجدنا احداً من الرواة يشك في ان القصيدة مصنوعة وبعد فمن اين علم الأفوه ان الشهب التي يراها انما هي قذف ورجم وهو جاهلي ولم يدع هذا احد قط الا المسلمون فهذا دليل آخر علي ان القصيدة مصنوعة ٠— »

اما وقد عرفنا رأي الجاحظ في التوليد فلا بأس بان نعرف رأيه في اولية الشعر ، وعلى هذا تنشأ لنا صورة تصور لنا مذهبه في نقد بعض الآراء الادبية العامة ، من هذا النحو قوله[3] :

« واما الشعر فحديث الميلاد صغير السن اول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس ابن حجر ومهلهل بن ربيعة و كتب ارسطاطاليس ومعلمه افلاطون ثم بطليموس وذي بقراط وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور وقبل الدهور والاحقاب قبل الاحقاب ويدل على حداثة الشعر قول امرؤ القيس بن حجر :

ان بني عوف ابتنوا حسنا ضيعه الداخلون اذ غدروا
ادوا الى جارهم خفارته ولم يضع بالمغيب من نصروا
لاحميري وفى ولاعدس ولا استعير يحكها الثفر
لكن عوير وفى بذمته لا قصر عابه ولا عور

فانظر كم كان عمر زرارة وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام فاذا استظهرنا الشعر وجدناه الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام ٠— »

وقال في مقام آخر[4] :

« وقد قيل الشعر قبل الاسلام في مقدار من الدهر اطول ما بيننا اليوم وبين اول الاسلام »

[١] الحيوان — الجزء السادس ص ٨٨
[٢] 〃 〃 〃 〃 ٩٠
[٣] 〃 〃 الاول 〃 ٣٧
[٤] 〃 〃 السادس 〃 ٨٩

ففي قوله الاول جعل عمر الشعر مائتي عام وفي هذا القول جعله مائتين ونيفاً ، وفي كلا الحالين اشتطاط .—

أصحيح ان امرأالقيس اول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق اليه ، قد يكون امرؤالقيس اول من حفظت اشعاره اومن اوائل الشعراء الذين تناهت الينا اشعارهم واما ان يكون اول الشعراء فلا ، وقد اشار بعض شعراء الجاهلية الى تقادم الشعر فقال امرؤالقيس نفسه :

عوجا على الطلل القديم لعلنا　　نبكي الديار كما بكى ابن حذام

وقال زهير :

ما ارانا نقول الا معارا　　او معاداً من قولنا مكرورا

وقال عنترة :

هل غادر الشعراء من متردَّم

فالذي يستنبط من قول امرئ القيس وزهير وعنترة انه جاء قبلهم شعراء جالوا في الشعر كل مجال وحلّقوا في سمائه كل محلق وقد انقطعت عنا اخبار الذين اورثوا عنترة وزهيراً وامرأ القيس فيض قلوبهم وصوب اذهانهم وانطوت آثارهم فلا نعرف عنهم شيئاً فلغة العرب متقادمة العهد فلا يمكن ان تنشأ دفعة واحدة على الصورة التي نشأت عليها في العصر الجاهلي المعروف فلا ريب في انها سبقتها احقاب مديدة انتقلت فيها اللغة من طور الى طور حتى وصلت الى ما وصلت اليه فالعصور التي انتقلت اللغة في اثنائها من مرتبة الى مرتبة غامضة مبهمة فهي سر من الاسرار وهذه ثلمة في تاريخ ادبنا ولا تسد هذه الثلمة الا اذا درسنا اللغات السامية ولغات الامم التي خالطها العرب في قديم الدهر ، وعثرنا على كتابات قديمة منقوشة ، ان لغة العرب لم تنته الينا بحذافيرها فان الذي جاءنا عن العرب غيض من فيض فكثير من الكلام ذهب بذهاب اهله قال ابن فارس : ذهب علماؤنا او اكثرهم الى ان الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الاقل ولو جاءنا جميع ماقالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير .—

والمعروف ان بلاد العرب الجنوبية حضارة يتد تاريخها الى القرن الثامن قبل السيد المسيح فأين اللغة التي صورت هذه الحضارة وكيف تكون حضارة ولا تكون معها لغة .—

يقول احد أدباء الفرنسيس [1] :

«النثر الادبي في التاريخ لا يأتي على نحو ما يظنون قبل الشعر وانما يأتي بعده، والذي يأتي قبل الشعر انما هو اللسان الطبيعي العامل، لسان الموائج والمنافع ولكننا نستطيع ان نجعل من قوانين التاريخ الادبي العامة ان كل ادب يبدأ بالشعر ثم ينزل الى النثر بالغاء القيود التي تقيد اللغة الشعرية وباطراح هذه القيود اي بالتخلي عن لوازم الفن كلها ان لم يكن بالتخلي عن نتائج الفن . — »

فاذا كان الادب يبدأ بالشعر ثم ينزل الى النثر فأين النثر الذي نزل اليه الشعر الجاهلي، أهو هذا النثر الاسلامي المتكامل الذي ظهر فجأةً دون ان يكون لتكامله عامل من العوامل، لا شك في ان النثر الاسلامي سبقه نثر وهذا النثر سبقه شعر ولم تبق لنا الايام من هذا كله الا الشعر الجاهلي المتعارف والا قليلاً من النثر الجاهلي . —

مثل اللغات كمثل المخلوقات الحية في عالمي الحيوان والنبات فكما ان الحيوانات والنباتات تولد فتعيش فتموت فكذلك اللغات فانها اشبه شيء بهذه المخلوقات ولميلاد اللغات وحياتها وموتها عوامل منطقية وفلسفية وتاريخية وغير ذلك تجمعها كلمة : حياة الالفاظ، ولست اعلم بحثاً يأخذ بمجامع القلوب نظير البحث عن حياة الالفاظ . —

فقول الجاحظ : ان الشعر الجاهلي عمره قرنان فيه اشتطاط على ان الجاحظ نفسه يقول وقد سمعتم قوله : ولسنا نحيط باوائل كلامهم — اي كلام العرب — على اي مقادير كانوا يضعونها ومن اي شيء اشتقوها وكيف كان السبب، فان الذي يقول هذا القول لا ينبغي له ان تزلق به قدمه هذا المزلق فيجعل الشعر حديث الميلاد صغير السن . —

دمشق : في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩٣١

—((*=*))—

[١] فن النثر — لانسون ص ١٠ .

مذهب الجاحظ في النقد

- ٢ -

« اهتمامه بالصنعة »

تبين لنا من النظر في نقد الجاحظ لطائفة من الآراء الادبية العامة انه يذهب في الادب مذهبه في العلم ، وماهذا المذهب الا الاستقصاء في كل شيء فالتحقيق اغلب صفات الجاحظ فكما انه يتقذر من توليد الكذابين في ابواب العلم فكذلك يتقذر من التوليد في ابواب الادب وسواء ارشدت مسالكه في الدلالة على مواقع الزور في هذا التوليد ام لم ترشد انه نزاع الى التمحيص فاذا جاز لنا ان نستنبط صفة له من اساليب نقده التي قلبنا النظر فيها استنبطنا منها امعانه في التدقيق .—

فلننظر بعد هذا كله في طبيعة ذوقه ، كيف يذوق نتائج القرائح وثمرات الخواطر ، أيقتصر على استحسان المعاني وحدها ام انه مولع بالصنعة وهل وقف به ولعه بالصنعة على تفضيل اساليب المتقدمين ام انه مال الى مذاهب المولدين وما غايتنا من هذا كله الا استخراج صورة عامة لذوقه الفني من آرائه المبعثرة في اضعاف كتبه حتى يتمثل لنا ذوقه كما تمثل لنا تحقيقه .—

* * *

للجاحظ ولع خاص بالصنعة وأريد بالصنعة في هذا المقام الفن على مصطلح عصرنا فهو ميال الى استحسان الالفاظ فمن قوله في هذا الباب وقد نقد بيتين من الشعر [1] :

« وانا قد سمعت اباعمرو وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة ان كلف رجلاً حتى احضر دواة وقرطاساً حتى كتبهما له وانا ازعم ان صاحب هذين البيتين

[1] الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٠

لا يقول شعراً ابداً ولولا ان ادخل في بعض القيل لزعمت ان ابنه اشعر منه وهما قوله :

لاتحسبن الموت موت البلى   وانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا   افظع من ذاك لذل السؤال

وذهب الشيخ الى استحسان المعنى والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير .— »

فالجاحظ مفتون بالفن فهو يريد ان نعطي المعاني حقوقها من الالفاظ واظن ان هذا المذهب يحتاج الى شيء من التوضيح فقد يخطر على البال ان الذهاب الى استحسان الالفاظ انما يراد به الحط من مقادير المعاني حتى يتوهم المتوهمون ان الذين يستحسنون الالفاظ يقولون : المعاني لا قيمة لها وانما القيمة للالفاظ وحدها ، ولكن الالفاظ في الحقيقة انما هي خدم المعاني فقد وضعت للدلالة على فكر من الافكار فلولا الفكر لم يكن اللفظ فحسن الالفاظ يستوجب حسن المعاني فاذا وجدنا الفاظاً ضخمة ولم نجد لها معاني ضخمة استخرجنا من ذلك ان اصحابها لا يجوكون الكلام على حسب الاماني ولا يخيطون الالفاظ على قدود المعاني ، فقد تكون الفاظ سيئة تشتمل على معان حسنة ولكن هذه المعاني لا يبقى لها اثر في القلوب لانها لم تعط قسطها من الصنعة ، لنضرب مثلاً لذلك ولنرجع الى البيتين اللذين استشهد بهما الجاحظ : معناهما ان اصحاب النفوس الكريمة يفضلون الموت على سؤال الرجال فالمعنى فيهما حسن ولا شك ، ولكن الشاعر هل تهيأ له ان يكسوه ما يناسبه من اللفظ ، اذا كان الغرض من الشعر ان يعرض علينا حقائق الافكار المحسوسة حتى نكاد ندرك هذه الافكار ذاتها وظواهر صيغها كل هذا في شكل مرصوص كأنه بناء مبني لا خلل فيه ، اذا كان هذا هو الغرض من الشعر فالبيتان اللذان تقدمهما الجاحظ وخاصة البيت الثاني ليس فيهما شيء من الصور الشعرية فان لغة البيت الثاني بعيدة عن لغة الشعر فكلمة : ذا وذاك واشباههما انما هي من الالفاظ الثقيلة على السمع .—

فلما ذهب الجاحظ الى استحسان الالفاظ لم يذهب الى استقباح المعاني وانما ذهب الى ان الالفاظ التي صورت المعنى في هذين البيتين لم تكن مناسبة لهذا المعنى فالفرق بينه وبين ابي عمرو الذي استجاد البيتين كالفرق بين الرجل الأديب وبين الرجل غير الأديب

او كالفرق بين صاحب الفن وبين المجرد من الفن فابو عمرو لا اهتمام له بالفن فانه ينظر الى مجرد المعنى سواء عليه أكان لباس هذا المعنى مناسباً له ام كان غير مناسب والجاحظ معتنٍ بالفن فانه لا ينظر الى مجرد المعنى وانما يريد ان يكون هذا المعنى مصبوباً في قالب مناسب له فاذا كنا نستحسن المعاني وحدها ولا نبالي بالقوالب التي تفرغ فيها هذه المعاني فلم يبق للفن قيمة ولم يبق للمفاضلة بين الآثار الفنية وجه فاذا خطر مثلاً على بال شاعر مثل البحتري معنى من المعاني فصبه في قالب مناسب له وخطر هذا المعنى نفسه على رجل من العامة فقذفه في لغته العامية فلا افضل للبحتري على العامي فاذا كان الاصل المعنى واذا كان هذا المعنى قد وقع في خلد كل واحد منهما وكل واحد منهما استطاع ان يؤديه الى غيره هذا بلغته الشعرية وهذا بلغته العامية فلا تفاضل بينهما فما الحاجة إذن الى الفن فأظن انكم قد ادركتم النتائج التي يؤدي اليها استحسان المعاني وحدها دون المبالاة بالالفاظ التي تصورها وخوفاً من هذه النتائج التي تؤدي الى القضاء على الفن ومذاهبه تفرغ اكابر أدباء العرب والافرنجة للمراماة دون حياض الفن فمن أدباء العرب من واطأ الجاحظ على رأيه كأبي هلال العسكري وابن رشيق وغيرهما فأبو هلال يقول بحسن التأليف وجودة التركيب وكمال الحلية والمعرض ، وابن رشيق يختار جودة الالفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ، ومن أدباء الافرنجة من دافع عن الصنعة على نحو الجاحظ .

فمن كلام « فولتير » : ان الاشياء تؤثر فينا في الاغلب من نواحي اساليبها اي من نواحي القوالب التي تصب فيها لأن للناس افكاراً واحدةً بوجه التقريب ولكن الاسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب .—

ومن كلام « فاگه » : ان الذي يخلّد الكاتب انما هو جمال الأسلوب .—

ومن كلام « فرانس » : ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه وانما هو ملك الذي يثبته في الاذهان .—

من هذا كله يتبين لكم ان اكابر الادباء وبلغاء الكتاب قد اجمعوا على فضل الأسلوب فالاعتناء بالاسلوب قديم عهده في الأمم ، فاليونانيون كانوا على هذا المذهب ، والرومانيون اولعوا الولع كله بجمال الأسلوب حتى أفرطوا في هذا الامر فأدى بهم إفراطهم الى التقصير في الكتابة الحسنة .—

انظروا الى الشعراء الذين عاشوا في زمن البحتري ثم نظروا الى الذين طواهم فلم يتقد له

م

ظل ولم يتسع لهم في أفخاذ البحتري ويموت شعراء عصره لولا الصنعة[1] .—

ليس معنى هذا كله ان الادباء الذين استشهدت بكلامهم سواء عليهم حسن المعاني وقبحها وانما هؤلاء الأدباء يريدون ان نعطي المعاني الحسنة حقها من الالفاظ الحسنة فهم قد شعروا بتاثير الالفاظ في تخليد المعاني فعظموا من مقادير هذه الالفاظ .—

واذا اردنا ان نعرف تأثير الالفاظ فلنسمع ماقاله الاستاذ «باولوسكي» في مقالة اشار فيها الى ترجمة الدكتور Mardrus للقرآن بعد ان استعد لهذا الامر عشرين سنة :

« لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً اجمع فيه المبشرون على الاعتراف بانهم لم يستطيعوا ان يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم واستنتج الدكتور من ذلك ان الكلمة اذا وضعت مواضعها وأُنزلت منازلها كانت سحراً حلالاً فمن الذي يتبجح بان يأتي بكلام ينزل على اكباد ثلاثمائة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرّى .—»

فالجاحظ مولع بالفن ولا يقعن في خلد احد ان ولعه بالفن يفضي به الى تحقير المعاني فانه يعظم المعاني ويعطيها قسطها فمن قوله في ذلك وقد اعجبه تمام التشبيه وغرابة المعنى وشرف هذا المعنى[2] :

« ولا يعلم في الارض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب عجيب او في معنى شريف كريم اوفي بديع مخترع الا وكل من جاء من الشعراء من بعده اومعه ان هو لم يقدر على لفظه فيسرق بعضه اويدعيه بأسره فانه لا يدع ان يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم واعاريض اشعارهم ولا يكون احد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه اولعله يجحد انه سمع بذلك المعنى قط وقال انه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الاول هذا اذا قرعوه به إلا ما كان من عنترة في صفة الذباب فانه وصفه فأجاد وصفه فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرضوا له ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه انه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر . قال عنترة :

[١] راجع محاضرة الاسلوب في كتابي «المتنبي» .
[٢] الحيوان — الجزء الثالث ص٩٦ .

جادت عليها كل عين ثرة ... فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغني وحده ... هزجاً كفعل الشارب المترنم
غرداً يحك ذراعه بذراعه ... فعل المكب على الزناد الاجذم

قال : يريد فعل الاقطع المكب على الزناد والاجذم المقطوع اليدين فوصف الذباب اذا كان واقفاً ثم حك احدى يديه بالاخرى فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين يقدح بعودين ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ولم اسمع في هذا المعنى بشعر ارضاه غير شعر عنترة . — »

وسواء أأحسن عنترة في هذا المعنى على رأي فريق اولم يحسن على رأي فريق آخر ان الجاحظ ذهب الى استحسان معانيه ولكنه لم يقتصر على استحسان المعاني وحدها فان معاني عنترة في هذه الابيات ان لم تصورها لغة شعرية تصويراً ناطقاً لما كان لها هذه القيمة فالجاحظ لم يذهب الى استحسان الالفاظ الا لان الالفاظ هي التي تبرز المعاني وتثبتها في الاذهان على تراخي الاحقاب ، اما إجادة عنترة في ابياته اوعدم إجادته فانما هذه مسألة متعلقها الذوق ولا جدال في الذوق فقد نستحسن معنى ويستقبحها غيرنا وقد نستقبح فكراً لا يستقبحه الناس فالذي يستنبط من كل ماتقدم ان استحسان الالفاظ على مذهب الجاحظ انما وجهه اعطاء المعاني حقوقها من هذه الالفاظ بحسب مقاديرها حتى يكون لها الاثر الخالد فهو لا يتهاون بوضع الالفاظ في مواضعها لأن اللفظ اذا لم يصب في قالبه شوه المعنى اوقلبه اواضاعه كلفظ : يخون في البيت الآتي قال الجاحظ وفي مخول شعر النابغة[1] :

فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

وليس لهذا الكلام وجه وانما ذلك كقولهم كان داود لا يخون وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام وهم وان لم يكونوا في حالة من الحالات اصحاب خيانة ولا تجوز عليهم فان الناس انما يضربون المثل بالشيء النادر من فعل الرجال ومن سائر امورهم كما قالوا : عيسى ابن مريم روح الله وموسى كليم الله وابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم وسلم ، ولو ذكر ذاكر الصبر على البلاء فقال : كذلك كان ايوب لا يجزع كان قولاً صحيحاً ولو كان كذلك

[١] الحيوان — الجزء الثاني ص ٩٠

نوح عليه السلام لايجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقها ولوذكر الاحتيال وتجرع الغيظ فقال : وكذلك كان معاوية لا يسفه وكان الاحنف لا يفحش لكان كلاماً مصروفاً عن جهته ولو قال : كذلك كان حاتم لا يبخل لكان ذلك كلاماً معروفاً ولكان القول قد وقع موقعه وان كان حاتم لا يعرف بقلة الاحتمال وبالتسرع الى المكافأة ولو قال : سألتك فمنعتني، وقد كان الشعبي لا يمنع وكان النخعي لا يقول لا لكان غير محمود في جهة البيان وان كان ممن يعطي ويختار نعم على لا ولكن لما يكن ذلك هو المشهور من امرهما لم تصرف الامثال اليهما ولم تضرب بهما .— »

فأنتم ترون ان كل هم الجاحظ في اساليب نقده انما هو اعطاء الكلمة حقها حتى يقع القول موقعه وحتى يكون محموداً في جهة البيان فالجاحظ من هذا البـاب من اكبر رجال الفن واذا نظرتم غداً في لغته تبين لكم كيف يعطي الكلام حقوقه .—

وقد حمله مذهبه هذا واعني به إنزال اللفظ في منزله دون شيء من الغلو في استعمال الالفاظ على إنزال المعاني في منازلها دون شيء من المبالغة في تصور هذه المعاني وتخيلها فكما انه يتذمم من الغلو في اللفظ فكذلك يتذمم من الغلو في المعنى فهو لا يريد من المعـاني الا ما كان صادقاً فمن قوله [1] :

« واذا استوحش الانسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنـه وانتقضت اخلاطه فيرى ما لا يرى ويسمع ما لا يسمع ويتوهم على الشيء الصغير الحقير انه عظيم جليل ثم جعلوا ما تصورهم من ذلك شعراً تناشدوه واحاديث توارثوها فازدادوا بذلك ايماناً ونشأ عليه الناشيء وربي به الطفل فصار احدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند اول وحشة اوفزعة وعند صياح بوم ومجاوبة صدى وقـد رأى كل باطل وتوهم كل زور وربما كان في الجنس واصل الطبيعة نفاجاً كذاباً وصاحب تشنيع وتهويل فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة فعنـد ذلك يقول : رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول : رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك الى ان يقول : تزوجتها ، قال عبيد ابن ايوب :

[١] الحيوان — الجزء السادس ص٧٨

فلله در الغول اي رفيقـة ... لصاحب قفرٍ خائف متنفر

وقال :

أهذا رفيق الغول والذئب والذي ... يهيم بربات الحجال الهواكل

وقال آخر :

اخو قفرات حالف الجن وانتفى ... من الانس حتى قد تقضت وسائله
له نسب الأنسي يعرف نجله ... وللجن منه خلقه وشمائله

ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومدّ لهم فيه انهم ليس يلقون بهذه الاشعار وبهذه الاخبار الأعرابياً مثلهم والا غبياً لم يأخذ نفسه قط لتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق اوالشك ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الاجناس قط واما ان يلقوا راوية شعر اوصاحب خبر فالراوية عندهم كلما كان الأعرابي اكذب في شعره كان اطرف عندهم وصارت روايته اغلب ومضاحيك حديثه اكثر فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول اوقتلها اومرافقتها اوتزويجها وآخر يزعم انه رافق في مفازة نمراً فكان يطاعمه ويواكله ·—»

ولكن الجاحظ على اهتمامه بالالفاظ وفرط اعتنائه بالصنعة ، وعلى شدة ميله الى السلف الطيب والاعراب الاقحاح الذين لم يجد لهم الفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا طبعاً رديًّا ولا قولاً مستكرهاً ، لم يؤثر المحافظة على اساليب المتقدمين التي تناهت اليه من عصر الجاهلية والاسلام وانما رأى لكل عصر اطواراً وان الانتقال من طور الى طور انما هو من علامات الحياة ·—

اتصل الجاحظ بعصر انقلبت فيه الافكار كل منقلب ، فقد نقلت في ذلك العصر كتب الهند وترجمت حكم اليونانيين وحولت آداب الفرس فكان لهذه الافكار المنقولة تأثير في ادب العرب فقد استوجبت هذه الافكار صيغاً حديثة لاعهد للعربية بها فدخل النثر في طور لم يدخله من قبلُ ، ولم يكن الشعر بمعزل عن آثار الانقلاب فان الشعراء اتصلوا بالخلفاء متقلبين في اعطاف الحضارة والنعيم فكان من بدائه الامور ان يكون في شعرهم اثر من صور هذه الحياة الحديثة ·—

ومن هؤلاء الشعراء الذين ظهرت على شعرهم آثار حديثة تختلف عن الآثار التي كانت

تظهر على الشعر من قبلهم في الجاهلية والاسلام بشار وابو نواس والبحتري واضرابهم .—

فكما انتقل الجاحظ في النثر من طور الى طور فلجأ الى اساليب تستطيع ان تستوعب الآثار المنقولة فكذلك انتقل ذوقه في الشعر من طور الى طور فاختار من هذا الشعر ما ظهرت عليه آثار الانقلاب فلم يؤثر المحافظة على الآثار القديمة وانما تطلب الصور الحديثة دون المبالاة بالعصبية التي تعترض على الذين يفضلون شعر اهل البدو .—

فمن الطبيعي بعد هذا الانقلاب ان يفضل ابانواس اوبشاراً من الذين وسّعوا آفاق الشعر ولم يضيقوا هذه الآفاق .—

فاذا تطاول مثلاً حماد عجرد لبشار وقال فيه ابياتاً ناضل الجاحظ عن بشار فقال[1] :

« وما ينبغي لبشار ان يناظر حماداً من جهة الشعر وما يتعلق بالشعر لان حماداً في الحضيض وبشاراً مع العيّوق وليس في الارض مولد قروي يعد شعره في المحدث الا وبشار اشعر منه .— »

ولا يعرف الجاحظ شاعراً بعد بشار اشعر من ابي نواس[2] .—

وله آراء كثيرة في ابي نواس تتعلق بفصاحة أسلوبه وجودة طبعه .—

منها قوله[3] :

« ما رأيت رجلاً اعلم باللغة من ابي نواس ولا افصح لهجة مع مجانبة الاستكراه .— »

ومنها قوله بعد ان ذكر رجزاً له[4] :

« وانا كتبت لك رجزه في هذا الباب لانه كان عالماً راوية وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الاعراب وذلك موجود في شعره وصفات الكلاب مستقصاة في اراجيزه هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة وان تأملت شعره فضلته الا ان تعترض عليك فيه العصبية اوترى ان اهل البدو ابداً اشعر وان المولدين لا يقاربونهم في شيء

---

[١] الحيوان — الجزء الرابع ص١٤٥
[٢] « « « ص١٤٦
[٣] طبقات الانباري — ص٩٧
[٤] الحيوان — الجزء الثاني ص١٠

فأن اعترض هذا الباب عليك فانك لا تبصر الحق من الباطل مادمت مغلوبا . — »

ليس معنى هذا كله ان الجاحظ يفضل المولدين من الشعراء على شعراء الجاهلية والاسلام وانما معناه ان الجاحظ يماشي عصره ، فكما ماشى هذا العصر في تجديد النثر بسبب جدة الافكار فكذلك ماشاه في استحسان الشعر المولد . والا فان الجاحظ ما كان يتأخر عن ضرب الامثال بامرئ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن ابي سلمى ثم بجرير والاخطل والفرزدق [1] . —

دمشق : في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٣٢

—:(==*•:•*==):—

[١] الحيوان — الجزء الخامس ص ٩٦ .

كتاب التكملة والصلة والذيل

للقاموس

—:0:—

في خزانة القرويين عمرها الله بفاس ذات النفائس والمخطوطات النادرة المؤسسة في الدولة المرينية دولة العرفان والعلم على يد نابغة ملوكها العظام ابي عنان المريني سنة ٧٥٠ هـ — توجد نسخة من الكتاب ذي الاسم اعلاه بخط مؤلفه ابي الفيض محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ثم المصري المتوفى بها سنة خمس ومائتين والف وهي مبيضته رغايها طرره في مجلدين ضخمين يشتمل الاول منهما على ٢٢٦ ورقة والاخير على ٢٤٧ ورقة طول كل ورقة ٣٢ سانتيما في عرض ١٨ تحت عدد ورقم ح ٨٠ — ١٣٦ .

فالجزء الاول يضم بين دفتيه من باب حرف الهمزة الى آخر حرف الراء . والثاني يضم حرف الهاء والواو والياء فقط مكتوبان بكاغد به تلاش . وفي اول الجزء الاول بتر حيث لا توجد به خطبة الكتاب ولا توجد به فصول الالف والباء والتاء والجيم والحاء من باب الهمزة ويوجد بكل من الجزءين تمزيق يسير وخرق السوس والتنقيع . نعم يمكن الاستفادة منه الا يسيراً مع مشقة .

سطور كل صفحة من ١٦ الى ١٨ الى ٢١ على غير نظام اذ كان مؤلفه يزيد ما ظهر له الحاقه ولم يتقيد بمسطرة خاصة وربما كمل بالطرة .

ويوجد فراغ بين المجلد الاول والاخير وهو الحروف الساقطة بين حرفي الراء والهاء فاما ان يكون هناك مجلد تام قد ضاع او مجلدان وهذا بعيد اذ لم يكن بين فراغ المؤلف من تبييض المجلد الاول والاخير الا نحو سبعة اشهر هي التي بيض فيها الجزء الاخير . ويمكن ان يبيض ذلك قبل او بعد ان وجد . نعم قد يكون بيض في الزمن المذكور جزءاً آخر ثالثاً

او جزءين ولكن من باب خرق العادة وطي الزمن ودونك تاريخ الجزءين مدققاً باليوم والساعة :

يوجد في آخر المجلد الاول مانصه بالحرف الواحد : تم حرف الراء والحمدلله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وكان الفراغ من ذلك في الثالثة من ليلة الاربعاء لست بقين من شوال من شهور سنة احدى بعد المائتين والف على يد مسوده العبد الفقير ابي الفيض محمد مرتضى الحسيني غفر الله له بمنه وكرمه آمين .

ويوجد في آخر المجلد الاخير مانصه : وهذا آخر الكتاب الذي سميته التكملة والصلة والذيل لمافات صاحب القاموس من اللغة مما املاه الحفظ واوله الخاطر من ذكر اللغات التي وصلت اليّ وغرائب الالفاظ التي انثالت الي وهذا بعدان عانني كبرة واحطت بما جمع من كتب اللغة خبراً وخبرة . ولم آل جهداً في التقرير والتحرير والتحقيق وايراد ماهوحقيق واطراح مالاتدعوالضرورة الى ذكره حذراً من اضجار سائله وتخفيفاً على قارئه وان كان مامن الله به من التوسعة ومنحه من الاقتدار على البسط وزيادة الشواهد من فصيح الاشعار وشوارد الالفاظ الي غير ذلك مما اعجز عن اداء شكره . ليكون للمتأدبين معيناً ولهم على معرفة غوامض لغات الكلام الالهي واللفظ النبوي معينا . وقد اعفيته من الحشو وبينت الصواب فيه بقدر مرقتي ونقيته من التصحيف والمغير [كذا] والخطأ المستفحش والتفسير المزاد . الى آخر ماطال به في مدح الكتاب . ثم قال وقد نبهت فيه على مواضع وقع للمصنف فيها خطأ إما سهواً اوهو من تغيير النساخ مع اني لا آمن ان اقع فيما وقع فيه والله المستعان .

ثم ذكر الكتب التي منها أخذ وعليها اعتمد قال وان كان قدسبق في الخطبة الحوالة فيها على اصل الشرح ولكن اذكرهنا المشاهير منها واقتصر على بعضها دون كلها : فمن كتب اللغة التي هي بمنزلة الاصول الجمهرة لابن دريد والصحاح للجوهري والتهذيب للازهري والمحكم لابن سيده والعباب للصغاني والتكلة على الصحاح له ايضاً . فهذه الستة هي كالاصول في علم اللغة وتهذيب التهذيب للارموي . وماعزوته لابن بري فبواسطة هذا الكتاب ثم ذكر كتباً أخرى في اللغة والانساب وفي الرجال والصحابة واسماء البلدان الى غير ذلك من غرائب الكتب المؤلفة في انواع من اللغة ككتاب السرج واللجام لابن دريد

وكتاب ايمان العرب له وكتاب (١) غريب الحمام المفدى وعدد كتباً اخرى الى ان قال : ومن الله ارجو حسن الثواب وبرحمته اعتصم من هول يوم المآب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً كثيراً ابداً والحمد لله رب العالمين . انتهى ذلك في الثالثة من نهار الجمعة المباركة الثاني والعشرين من جمادى خمسة (كذا) سنة ١٢٠٣ احسن الله ختامها . وكتب ابو الفيض محمد مرتضى الحسيني غفر الله ذنوبه وستر عيوبه بمنه وكرمه حامداً الله تعالى ومصليا اه . واني لأعجب من الجبرتي مؤرخ مصر حيث ترجم لمرتضى المذكور وعدد تواليفه واهمل ذكر تكملة القاموس المذكورة على اهميتها مع كونه تلميذه لكنه هو نفسه معترف بانه لم يستوعب كل تواليفه ذكراً .

وها كم انموذجاً من الكتاب :

ففي اول ورقة من الجزء الاول المبتور هذه العبارة : (جبأ الجراد) هجم على البلد وكل طالع لجأة جابئ و (جبأ جبوءا) خنس و(الجابئة) المرأة تنبو عنها العيون هذا ما يوجد اول الجزء الاول .

وفي الورقة ٣ من الجزء الاول ايضاً : فصل الخاء مع الهمزة (الخُبَأة) كهمزة المرأة تطلع ثم تختبئ قال الزبرقان بن بدر : ان ابغض كنائني الي الخُبأة الطلعة ويروى الطلعة القباة (كذا) وخبأ الشيء حفظه كخبَّأه والخبء بالكسر لغة في الخبء بالفتح لما خُبئ وغاب وخبايا الارض ما يخبؤه الزراع من البذر اوما خبأه الله من معادن الارض جمع خبيئة .

وقال في فصل الميم مع الهمزة :

المروءة ذكرها المصنف ولم يضبطها ولم يحدها وهي بضم الميم والراء ممدودة وقد تشدد وللعامة في النطق بها اختلاف فمنهم من يقول مروءة بالفتح ومنهم من يقول بالتشديد مع فتح الميم ومنهم من يقول بضم الميم وفتح الراء مع التشديد وكل ذلك خطأ واما حدها فاختلف فيه ففي العباب هي الانسانية وكمال الرجولية انتهى . وسئل عنها الاحنف فقال هي العفة والحرفة وقال غيره هي ان لا تفعل في السر امراً وانت تستحي ان تفعله جهراً الى ان قال وقيل هي السمت الحسن وحفظ اللسان وتجنب المجون . وتمرأ صار ذا مروءة الى ان قال ويقال في تصغير المرإ

(١) [المجمع] قوله (كتاب غريب الحمام المفدى) في مقدمة التاج [كتاب الحمام والهدى] .

والمرأة مرْي (كذا) ومرْية (كذا) . ويقال في امرأة امراة غير مهموز بعد الراء عن ابن عديس في الباهر ونقله اللبلي[1] في شرح الفصيح ومرأ كنع اطعم على بناء دار اوتزويج الخ اهـ .
وكل ما تقدم نقله يمكن ان يستغنى عنه بماله في الشرح .

وقال في فصل الراء مع الخاء :

الزرخ اهمله صاحب القاموس وقال الصغاني هو الزج بالرمح والمزرخة بالكسر مايزرخ به والمصنف اورده بتقديم الراء فوهم . ماأصبت منه زرنخة بالكسر اي شيئاً .

وقال ايضاً في فصل الشين مع الخاء .

الشُخاخ كغراب البول نفسه والمشخة موضعه ورجل شخاخ كثيره وهي بهاء . وكسحابة بالشين[2] منها عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن الشخاخي . روى عن البخاري مات بالشاش سنة ٣٢٣ الخ .

وقال في فصل اللام والحاء المهملة :

اسلنطح الشيء طال وعرض والرجل انبسط ووقع على ظهره . واناء مسلطح واسع عريض .

وما في هذه المواد الثلاث الاخيرة زائد على ما له في الشرح وعلى اقرب الموارد ايضاً بل صاحب اقرب الموارد وقع في الوهم الذي وقع فيه صاحب القاموس في زرخ .

فيظهر ان الكتاب ضروري لعشاق اللغة العربية ومن يريد التوسع فيها .

ولقد ظفرت بنسخة أخرى عند بعض علماء فاس جلة مشتملة على افتتاحية الكتاب يمكن منها جبر الكسر اوبعضه وبالله الاستعانة .

الرباط (مراكش) محمد الحجوي

—((*:*))—

(١) [المجمع] لعل صوابه الليلي كما يفهم من كشف الظنون .
(٢) [المجمع] في معجم البلدان قرية من قرى الشاش ينسب اليها ابو محمد عبدالرحمن بن محمد بن عبد الخالق البخاري الشخاخي فصوابه بالشاش .

« سيرة » الامام محمد بن اسحاق المطلبي

« المتوفى سنة ١٥١ »

من جملة نفائس المكتبة القروية الفاسية مجلد مخطوط اثر نفيس حوى الاجزاء ٢ و٣ و٤ و ٥ من السيرة اعلاه تجزئة عشرين ولقد قابلتها بسيرة ابن هشام المختصرة منها فاذا الفرق بينهما زيادات في الاولى لا توجد في الثانية كما ان في الثانية زيادات لابن هشام معروفة وعلى كل جزء من الاجزاء الاربعة خطوط جماعة من علماء المشرق والمغرب وإجازات وسماعات عجيبة على نسق ما كان معروفاً عند الحفاظ المتقدين المتصدين للتحرير والاتقان والتثبت في النقل الذي لا وجود له في عصرنا الحاضر .

هـذه السيرة هي من رواية الشيخ ابي الحسين احمد بن محمد بن النقور البزار عن ابي طاهر المخلص عن رضوان عن احمد بن عبد الجبار العطاردي عن يونس بن بكير عن مؤلفها الامام محمد بن اسحاق المطلبي رضي الله عنهم .

وهذا المجلد الشاهد العدل الذي لا يقبل الطعن — سهم مصيب في نحر الجحود بين الذين يزعمون ان لا وجود للسيرة الاسحاقية ويتهمون ابن هشام كما اتهموا رواة الشعر الجاهلي وكما يتهمون ابصارهم في شمس الظهيرة .

محمد الحجوي

—(*)==(*)—

الاستاذ السيد زكي مغامز [1]



(١) عضو المجمع العلمي والمتوفى في هذه السنة .

وُلد السيد زكي مغامز في حلب سنة ١٨٧١ م وكان جده غنياً فاعتنى بتربيته وادخله مدرسة الفرنسيسكان وبعد قليل مات جده فسافر الى العمق وبقي فيه مع والده نحو خمس سنوات اقتبس في خلالها اللغة التركية من التركمان القاطنين في تلك الجهات ثم عاد الى حلب فدخل المدرسة الرشدية العسكرية ولم يكن قد تعود الدرس فجعل يدرس في الليل والنهار وهو لا يفهم معنى مايدرس فكان يبكي احياناً وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة لكنه لم تمض عليه مدة حتى اصبح الاول في صفه . وبقي يتدرج كذلك محافظاً على الاولية حتى اخذ الشهادة المدرسية وسافر الى الاستانة ليدخل في المدرسة العسكرية الطبية ولكن ابى ناظرها الارمني قبوله تعصباً منه فمال الى الصحافة فعين محرراً في جريدة (سعادت) اليومية ومن ذلك الحين اخذ اسمه في الاشتهار بين الاتراك ثم ازداد شهرة بين أدبائهم بما كان يكتبه في مجلة (مكتب) وقد عدوه في الطبقة الاولى ثم أقفلت هذه المجلة فاشترك مع صديقه الشاعر (فائق اسعد بك) على نشر مجلة باسم (عندليب — زكي) و (عندليب) بتوقيع (لفائق اسعد بك) كان يوقع به اشعاره . ثم ان السلطان عبد الحميد نفى (عندليب) الى سيواس فأقفلت المجلة . ثم اخذ (المترجم) يحرر في جريدة (إقدام) لصاحبها احمد جودت بك فبقي عدة سنين ولما انشأ (طاهر بك) جرائده ومجلاته تقلد المترجم رئاسة تحريرها كلها اكثر من سنة وكان الاحتياج رائده في قبول رئاسة التحرير . وقد غلبت الحرية على لهجة جريدة (معلومات) العربية احدى الجرائد التي تولى (المترجم) تحريرها فكانت الصحف العربية والاسلامية المنتشرة في جميع الاقطار تقتبس منها وتحتج بما ينشر فيها . ولما وفد بطريرك الروم الكاثوليك في الشام (بطرس الجريجري) الى الاستانة نوه المترجم به في صحفها بما لم يعتد سماعه في حق بطاركة العرب فلفت ذلك نظر البطريرك اليه واستصحبه معه ليكتب له عرائضه وبذلك تعرف برجال المابين معرفة شخصية وعلى اثرها جرى تعيينه عضواً في مجلس بلدية العاصمة واذ ذاك ترك التحرير في الصحف عدا جريدة (إقدام) فبقي يحرر فيها ويراسل الصحف العربية المصرية كالمؤيد واللواء ثم اسس محلاً تجارياً في الاستانة لاخيه السيد جميل مغامز وكان يساعده فيه كما يقوم بوظائفه الرسمية الاخرى ويقضي الليل في الدرس والتأليف ومكاتبة الصحف . ثم عين مديراً لمجلة البوليس ثم عضواً في دائرة الترجمة والتأليف في نظارة المعارف ثم لما قامت الحكومة

الكمالية عهدت اليه وكالة المعارف في انقرة امر تصحيح الكتب التي تطبع في (المطبعة العامرة) وهي آخر وظائفه ومنها انتقل الى (التقاعد) .

ومن آثاره ترجمة كتاب (الرق في الاسلام) تأليف احمد شفيق باشا المصري ورسالة عن (بديع الزمان الهمذاني) وكتاباً اسماه (مفتاح المكالمة العربية) . وترجم كتاب (التمدن الاسلامي) للمرحوم جرجي زيدان وقد نشر تباعاً في جريدة (إقدام) وبذلك اشتهر جرجي زيدان عند الاتراك شهرة واسعة ثم ترجم رواية (ابي مسلم الخراساني) و (عروس فرغانه) و (صلاح الدين الايوبي) و (الاسماعيليين) وكلها لزيدان . كما ترجم كتاب (تحرير المرأة) للمرحوم قاسم بك امين وكتب نحو عشرين مقالة عن حياة المتنبي في جريدة (بيام صباح) وخمس عشرة مقالة عن (ابي العلاء) في جريدة (اجتهاد) وبالجملة فان المترجم كان من اكبر العوامل في نشر آثار العرب وفضائلهم بين أدباء الاتراك المتأخرين .

وفي سنة ١٩٢٠ طلب اليه بعض الوراقين ان يترجم له القرآن الكريم من العربية الى التركية فقضى سنتين ونصفاً من حياته الادبية في ترجمة هذا الكتاب ترجمة خالية من الاغلاط ولكن بعد اتمام الترجمة قام جماعة من الحاسدين المتعصبين وطعنوا على الكتبي فخاف هذا على نفسه واخر طبع الكتاب فاستفاد من ذلك صاحب مكتبة (جهان مهران الارمني) وعهد بترجمة القرآن من الفرنسوية الى احد الاتراك فجاءت ترجمة مشوهة وسارع لطبعها فتهافت الناس عليها واشتروها وكان لها اسوأ تأثير عند العلماء المدققين . ولكن الطابع استفاد من عمله فطبع الكتاب مرتين حتى علم الناس انها ترجمة غير صحيحة فنبذوها وكانت السبب لكساد التراجم التي نشرت بعده . اما ترجمة (المترجم) للقرآن الكريم فقد نشرها الكتبي خفية بعد زمان متأخر بعنوان (توركجه قرآن كريم) ونسبها الى هيأة علمية وان (اسماعيل حقي) هو الذي صححها . ولم يفز الوراق بما كان يرغب فيه لان الناس ابتعدوا عن اشتراء التراجم ونفروا منها . ويوجد من ترجمة المترجم نسخة في دار المجمع العلمي العربي ونسخ عديدة اخرى في تركية ومصر . ثم حولت الاحرف العربية الى حروف لاتينية فماتت جميع الكتب التي انتشرت بالحروف العربية .

وبينما كان (المترجم) يراسل جريدة اللواء المصرية جاء الاستانة الكاتب الفرنسي (بيير لوتي) ومعه كتاب توصية الى المترجم من مصطفى كامل صاحب اللواء فأصبح صديقاً حميماً له وكان المترجم يتلقى عنه الافرنسية وهو يتلقى التركية عن المترجم الذي كتب مقالات عديدة عن هذا الكاتب الكبير في إقدام وثروت فنون . وفي خزانة المترجم جميع مؤلفات هذا الكاتب العظيم وكلها مهداة اليه بخطه فضلاً عن المراسلات الكثيرة التي دارت بينهما وربما نشر منها شيء في الصحف .

—((*⇌*))—

آراء وافكار

—(())—

النثر الجاهلي

بعد ان سكنت الضوضاء التي أحدثهـا الاستاذ طه حسين حول (الشعر الجاهلي) منذ بضع سنين قامت اليوم ضجة أخرى حول (النثر الجاهلي) احدثها تلميذه الدكتور ذكي مبارك فقد نشر في جريدة (البلاغ المصرية) منذ حين مقالات بعنوان (النثر الجاهلي) و (نشأة النثر الفني) حرك بها من اقلام كبار كتاب الادب في مصر فانبروا لتأييده في بعض ماذهب اليه ومعارضته في بعضه . وقد احببنا ان ننشر خلاصةً من هذا الموضوع الجم الفائدة . الطريف الاثر في آدابنا العربية :

افتتح الدكتور مبارك مقاله الاول بهذا السؤال :

[هل كان للعرب نثر فني في عصور الجاهلية ؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والامثال ؟]

واجاب على ذلك مخطئاً اولاً من قال ان العرب قبل الاسلام لم يكن لهم وجود ادبي ولا سياسي . وقائل هذا القول امامسلم يرى ان الاسلام هو الذي خلق العرب ونقلهم من الظلمات الى النور . اومؤرخ يشك في ماأثر عن العرب من الآثار الادبية . ومنهم من غلا فزعم ان عرب الجاهلية كانوا يعيشون عيشة اولية وهذه الحالة لا تسمح لهم بتولد النثر الفني فيهم . وصاحب هذا الرأي هو الموسيو (مرسيه) وشايعه عليه الدكتور طه حسين . ويراد بالنثر الفني مايلجأ اليه الرجل لاذاعة فكرة اودفع شبهة او إيضاح مشكلة . واستبعد الدكتور مبارك ان يكون للامم التي تجاور العرب كالفرس واليونان وغيرهم نثر فني قبل الميلاد باكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر مثله بعد الميلاد بخمسة قرون .

قال والدليل على خطأهم في ذلك ان القرآن أشار الى انه كانت لدى العرب كتب تدرس وكتابة تمارس بدليل آية [وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك] فالنثر الفني كان موجوداً وكان يكتب ويتداول ٠ وعدم وصوله الينا لا يقتضي عدم وجوده ٠ فهو قد ضاع لاسباب : اهمها شيوع الامية وقلة التدوين في الجاهلية وبعد نثرهم عن الحياة الاسلامية التي حدثت بنزول القرآن ٠

وبعد ان اثبت الدكتور مبارك وجود النثر الجاهلي على هذه الصورة عاد يبحث عن طريق يثبت به كيف كان نثرهم الفني ؟ وماهو أسلوبه ؟ وماهي الاتجاهات العقلية التي كان يرمي اليها كاتبو ذلك النثر في ذلك العصر ؟؟

فذهب الى ان النصوص المروية كأسجاع الكهان وعظات الخطباء وخطب الوفود لا تكفي لتعيين اساليب النثر الجاهلي وهي على المتهما مما وضع في العصر الأموي لاغراض دينية اوسياسية اوقومية أي بيان فضل العرب ٠ وبعد ان افاض في اثبات رأيه هذا قال : والنتيجة اننا لانستطيع ان نعطي النثر الفني الجاهلي لوناً نطمئن اليه مادمنا لم نظفر بنصوص صحيحة منه اما ماروي من تلك النصوص فهو منحول مختلق ٠ وهذا الشعر الجاهلي ارتابوا في صحة كثيره مع ان الشعر يسهل حفظه ويعتنى بروايته فكيف بالنثر وهو ليس بهذه المثابة ٠

فاذا لم تكن النصوص المروية كافية في تعيين أسلوب النثر الفني فما هو الشيء الذي يثبت لنا ذلك ؟

اجاب الدكتور مبارك بانه القرآن ٠ وبديهي ان رأيه هذا فيه مفاجأة حادة يصعب التسليم بها على كثير من الباحثين المسلمين ولذا تغير اتجاه هذا البحث الى المنزع الديني بعد ان كان ادبياً محضاً ٠ فرد على الكاتب طائفة من انبل كتاب مصر امثال الاساتذة محمد عبد المطلب [رحمه الله] ومحمد لطفي جمعة وفريد وجدي ٠ ولا يخفى ان القرآن في اعتقاد المسلمين وحي الهي فكيف يقول الدكتور انه نثر جاهلي ٠

وقد اجاب على هذا بان اتخاذه القرآن نموذجاً للنثر الجاهلي لا يلزم منه نفي ان يكون القرآن وحياً الهياً كما لا يلزم منه ان لا يكون كذلك ٠ وكل ما يريد اثباته هو ان أسلوب النثر الفني الجاهلي إن فقدنا نصوصه الاصلية الجاهلية فاننا نراه مصوراً وممثلاً في آيات القرآن التي ضربت على غرار ذلك النثر وهي تعطينا صورة صحيحة عنه ٠ لانها انزلت لهداية اولئك

الجاهليين وارشادهم . ولايمكن ذلك الا بمخاطبتهم بما يفهمون من الكلام والاساليب . وقد صرح القرآن نفسه بان الرسول لا يُرسل الا بلسان قومه ليبين لهم . ولامعنى لهذا الا ان القرآن مفرغ في اساليب العرب النثرية الفنية حتى يتيسر فهمهم لها فيسترشدوا بها . وكأن الدكتور يقول هذا كل ما أريده من قولي ان القرآن نموذج للنثر الفني الجاهلي . اما كونه كلام الله لا كلام البشر اوبالعكس فليس من مباحث الادب التي نحن في صددها . وقد تهكم الدكتور باستاذه [طه حسين] الذي قال ان القرآن [لاهو شعر ولاهو نثر وانما هو قرآن] . ثم ختم مقاله بقوله [والخلاصة ان القرآن نثر وانه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فني قبل الاسلام . فكان لهم بذلك وجود ادبي متين قبل ان يتصلوا بالفرس واليونان . وفي هذا قضاء على اوهام من زعموا [ويريد بهم موسيو مرسيه وطه حسين] . ان اول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الاصل . وان العرب لم يكونوا يعرفون من قبل غير الخطب والاسجاع والامثال .

وبعد ان اثبت الدكتور مبارك انه كان للعرب الجاهليين نثر فني نموذجه القرآن بحث في ان [الزخرف] الذي يهتم به علماء البلاغة هل اتصل بذلك النثر بمقتضى طبيعة اللغة العربية ام وصل اليها من الخارج حين اتصل العرب بالفرس واليونان ؟

يرى الموسيو [مرسيه] ان [الزخرف] اتصل باللغة العربية عن طريق الفرس وقال [طه حسين] انه جاءها عن طريق اليونان . وهذه الفكرة ترجع الى [رينان] القائل بان المدنية العربية غريبة عن العرب .

والدكتور مبارك لاينكر ان كل أمة [ومنها العرب] تتأثر بحضارة أمم أخرى لكنه مع هذا يرى ان [الزخرف] عنصر اصيل في اللغة العربية . وشاهده على ذلك القرآن ايضاً فهو مفعم بالزخرف والصنعة المحكمة التي تدل على ان المخاطبين بها وهم العرب يعرفون ماهي الكتابة الجيدة وماهو الأسلوب الجذاب . ثم اشار الدكتور الى ان البحث عن زخرف القرآن من اي جهة اتصل به هو بحث خطر : لان الرأي العام الاسلامي لايسمح بدرس القرآن درساً تحليلياً يبين مافيه من العناصر العربية الاصيلة والعناصر الدخيلة . ومع هذا فمعرفة الصفات الاصيلة في النثر العربي ومحاكاة القرآن لاتتيسر لنا مالم يصل الينا مجموعة نصوص صحيحة من النثر الفني الجاهلي تمثل لنا من ماضيه قرنين على الاقل . ومن اين لنا تلك المجموعة وليس في يدنا

الا القليل من النثر المنسوب الى القرن الذي يباشر ظهور الاسلام ومثله لا يمكن الركون اليه في معرفة طبيعة لغة من اللغات . فلم يبق لدينا الا القرآن وهو اثر عربي صرف لان الرسول الذي تلقاه عربي نشأ في بيئة عربية وبلّغه بلسان عربي . اما تأثر القرآن بآداب اجنبية فاحتمال محض وهو لا يغني من اليقين شيئاً فالزخرف الفني في القرآن طابع اصيل فيه فيكون طابعاً اصيلاً في لغة الجاهليين الذين خوطبوا به وفهموه حق فهمه . وانه ال العرب بالفرس قد يحدث تطوراً في هذا الزخرف لكنه ليس العلة الاولى فيه كما ظنه بعض المستشرقين . وهذا الزخرف او الخواص الفنية الموجودة في القرآن وُجدت في النصوص التي عاصرته كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والقواد الذين جاؤا بعده بقليل فتم لنا بهذا ان لغة الجاهليين كان لها نثر فني وان لذلك النثر الفني زخرفاً وصنعة أصيلة فيه كانت تزين نصوصه الكثيرة المفقودة والتي حاكاها القرآن ووصفها لنا ابلغ وصف .

ولم يكتف الدكتور بما مر من امر [الزخرف] بل تعداه الى العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض والبديع فذهب الى انها اصيلة في لغة العرب بدليل وجودها في القرآن ولم تحدث في القرن الاول والثاني كما ظنه مؤرخو الآداب العربية . اذ لا يعقل ان يظهر كتاب كالقرآن بين قوم لم يفكروا في الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير فالقرآن ظهر في لغة تجاوزت طور الطفولة . وارباها المتكلمون بها لم يكونوا من الأمية بحيث وصفوا بل هم مستعدون — بثقافتهم الادبية — لفهم مافيه من قواعد البلاغة واساليب البيان قال : بل أنا اذهب ابعد من ذلك فأقرر ان الاسلام كان تاجاً لنهضة علمية وادبية وسياسية واخلاقية واجتماعية في الحدود التي كان يستطيعها العرب .

فالاسلام لا يتصور ان يكون نقل العرب من ظلمات الى نور بل من نور الى نور أتم لكن نورهم الاول لم تصل الينا صوره المختلفة . لاقى الاسلام من المعارضة آلاف المصاعب أفيمكن الاقتناع بانه لم يُقل في معامع تلك المعارضة سوى مانقل الينا من الخطب والرسائل ؟ اين السنة اليهود العرب والأشراف من قريش ؟ واين ماقاله الصحابة في الرد على خصومهم ؟ وكل مانقل الينا لا يصف حياة العرب العقلية فلابد أن يكون هناك آثار ونصوص اندثرت ولو بقيت لفقهنا اسراراً جمة من حياة العرب العقلية وثقافتهم الادبية ومبلغ [الزخرف] الذي كانوا يزينون به لغتهم .

ثم اشار الدكتور الى ان ضياع آثار الجاهلية كان بالاسلام . وضياع آثار الاسلام كان بحروب الردة حتى كاد القرآن نفسه يتلاشى لولا مافعله ابو بكر من جمعه وتدوينه فلعرب الجاهلية علوم ادبية كانوا يحذقونها قبل ان اتصلوا بالفرس والروم في العهد العباسي: فاذا استكثر المستشرقون ومن لف لفهم من أدبائنا — على ابي الاسود الدئلي ان يكون هو اول من فكر في وضع علم النحو فانا استقل ان يكون هو المفكر الاول . بل اول من فكر هم عرب الجاهلية الذين عرفوا النحو وغيره من العلوم الادبية . وماقلته أتحمل تبعته والدفاع عنه وارجوان يكون له اثر في فهم البيئة القديمة التي نزل فيها القرآن والتي سموها خطأً عصر الجهل وهي في رأيي عصر معرفة ونور .

ثم استشهد الدكتور بكلام لابن فارس يتنسم منه انه كان للعرب معرفة بالنحو والعروض واصول اللغة وقواعد الكتابة . وهو على الجملة يرى ان العلوم العربية كانت معروفة قبل الاسلام . وماحققه الدكتور مبارك قبل الاسلام .

وماحققه الدكتور مبارك في مقاليه هذين يمكن تلخيصه هكذا :

[١] كان لعرب الجاهلية نثر فني .

[٢] زخرف الفن الذي كان في نثرهم اصيل فيه لادخيل .

[٣] آثار النثر الجاهلي ونصوصه لم يصل الينا منها الا النزر القليل المشكوك في صحته .

[٤] القرآن هو وحده الاثر العربي الموثوق به الذي صور لنا النثر الفني الجاهلي .

[٥] القرآن كما صورلنا نثر الجاهلية دلنا على انه كان لهم حياة عقلية وعلوماً لغوية .

—*!؟!*»—

مطبوعات حديثة

=(())=

ترجمة القرآن الى الفرنسية

« بقلم المحامي احمد لايمش Ahmd Laïmèche وابن داود B. Ben Daoud »

« طبع بمطبعة : هنتز إخوان — وهران — في ٣٤٦ ص من »

« القطع الوسط »

لا أدري ما الفائدة من ترجمة القرآن ؟ —

أفلا ترى ان لغة القرآن تشتمل على اسرار لا يعرفها الا الراسخون في هذه اللغـة فكثير من اساليبه لم يجرِ على الحقيقة وانما المراد به المجاز وصور المجاز تختلف في الامم فالمترجمون انما يترجمون ظواهر الكلام ويغفلون عن بواطنه فما هو اثر ترجمتهم . —

خذ مثلاً من الامثال ، خذ هـذه الآية : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم . — »

فقد ترجم المؤلفان ظاهر هذا الكلام وانما أئمة المفسرين ذهبوا غير هذا المذهب فالبيضاوي يقول في تفسير هذه الآية :

« ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة وانما المراد بهما ان يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي واستقباح الايمان والطاعات بسبب غيهم وانهماكهم في التقليد وإعراضهم عن النظر الصحيح فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيهـا الحق واسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنها مستوثق منهـا بالختم الى آخر ما جاء في هذا التفسير الى ان قال : وسماه على الاستعارة ختماً وتغشية . . . »

فكيف يعرف الافرنجي الذي يقرأ ترجمة الآية ان في هذا الكلام استعارة وان

الختم والتغشية لم يكن على الحقيقة ، واذا غاب عنه هذا الامر فكيف يدرك اسرار القرآن ، واذا هو لم يدرك اسرار القرآن فلست ادري كيف يكون نظره الى الآيات وكيف تكون قيمتها في نفسه .—

ثم ان المسلمين فرق شتى منهم من ينظر الى ظواهر الآيات ومنهم من يتغلغل في بواطنها ، انظر مثلاً الى صورة التين : والتين والزيتون وطورسنين ، فقد ترجم المؤلفان هذا الكلام على ظواهره وانما المفسرون ذهبوا مذاهب في تفسير هذا القسم فمنهم من زعم ان التين دمشق والزيتون فلسطين ومنهم من يقول وما تعرف دمشق الا بدمشق ولا فلسطين الا بفلسطين وان كنا وانما وقفنا من ذكر التين على مقدار طعمه وانه نافع وانه غذاء قوي فقد اسأنا ظناً بالقرآن وجهلنا فضل التأويل .—

فكيف يعرف الافرنجي هذه الامور كلها وانما يحمل القسم على ظواهر الكلام ولا يحيط ببواطنه فتخفى عليه اسرار القرآن .—

ثم ان لكل لغة نغمات خاصة تعمل عملها في القلوب خذ سورة من السور ، خذ سورة الزلزال :

« اذا زلزلت الارض زلزالها . وأخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان مالها ! . . »

أفلا تجد ان الزلزال انما هو امر عظيم وان هذا الامر العظيم انما يستلزم الفاظاً تدل على العظمة وان كلمة الزلزال وحدها فيها نغمة خاصة توحي اليك هذه العظمة ، وان هذا كله انما هو من عبقرية اللغة فكيف تستطيع ان تنقل هذه العبقرية من لغة الى لغة من دون ان تضيع نغماتها واسرارها .—

شفيق جبري

في دولة الادب والبيان

[عمر ابو النصر]

« ٢٢٣ صفحة من القطع الوسط طبع بمطبعة روضة الفنون »

« سنة ١٩٣٢ في بيروت »

—(()) —

مقالات في موضوعات شتى ، في الادب والنقد وفي تصوير طائفة من رجال الحكومة في لبنان ، هجم فيها الكاتب على خضّم من المذاهب بشيء من الجرأة فبقي في اكثر هجماته على الساحل خوفاً من الغرق . —

صاحب هذه المقالات من المفتونين بكلمات التضريج والتعفير والتحطيم فلست تجد في خطرات نقده الا الفاظ الهدم والنقض واشباهها . —

مرة تحدثه نفسه بهدم اللغة فليس يضير اللغة في مزعمه ان يخطئ احدنا في فتح الحاء وضم التاء وليس يسوء القواعد في مذهبه ان تبدّل بعض الحركات الصرفية فهو يرى ان هذه المباحث انما هي قشور في الادب لكنه بعد هذه الثورة العربية لا يلبث ان يهدأ فيرجع اليه فكره فيستنهض الناس للمحافظة على اللغة فحرام عليهم في رأيه ان ينتهكوا حرمتها . —

ومرة يهجس في صدره ان يحطم الادباء كلهم فليس في الادب العربي في سورية على حسب دعواه ميزة ، وليس فيه لون جديد من الوان الحياة فأدبنا ضيق النواحي مضطرب النسيج ضعيف المادة فلا ينعم بالخلود اديب من أدباء العصر في باقيات الايام .

غير انه بعد هذه الهواجس يحاسب نفسه فيلهمه الله الصواب فيقول :

« اهدم ماشئت من رأي ثم افحمنا بما عندك من رأي ومذهب ، هذا النقد الحق » .

فاذا خرج القارئ من قراءة هذه الهجسات والخطرات بشيء فلا يخرج باحسن من هذا القول . —

شفيق جبري

—(( ))—

الكتاب السنوي

« للمجمع المصري للثقافة العلمية »

عدد صفحاته ٢٣٢ صفحة يتخللها رسوم وتصاويرفنية واحصاآت وبيانات

المجمع المصري للثقافة العلمية مجمع علمي يضم اليه عدداً من خيرة علماء مصر وقد خدم منذ تألف الى اليوم اللغة العربية والعلوم العصرية خدمة جلى بنشر الكتب والقاء المحاضرات ونشرها مطبوعة ٠

وان في عداد المواد التي يتألف منها دستور هذا المجمع مؤتمراً عاماً يقيمه في اوائل كل عام تلقى فيه محاضرات قيمة تنشر في كتاب سنوي ٠ وهذا الذي نحن بصدده كتاب مؤتمره الذي التأم من ٢١ الى ٢٧ مارس (آذار) سنة ١٩٣٠ ا يحوي احدى عشرة محاضرة في اهم الموضوعات العلمية والعمرانية والتاريخيــة والطبية والصحية القــاها اقطاب يستنار بشعاع علمهم ، هم الحكيم علي بك ابراهيم رئيس المجمع ، والاستاذ فؤاد صروف ، والاستاذ اسماعيل مظهر ، والحكيم علي مصطفى مشرفة ، والحكيم جورجي صبحي ، والحكيم حسن صادق ، والحكيم اندراوس شخاشيري ، والاستاذ سلامة موسى ، والحكيم محمد شرف ، والحكيم محمد رضا مدور ، والحكيم علي حسن ٠ وبذكر اسماء هؤلاء الاعلام كفاية عن تقريظ محاضراتهم كل واحدة بمفردها فبكل واحدة منها غنى عن مطالعات كثيرة وتنقيب طويل في موضوعها العلمي ٠

عبد الله رعد

الكنائس الشرقية البيزنطية

موءلف هذا الكتاب الاب الياس اندراوس البولسي يأتي في مئتين وخمس وتسعين صفحة بقطع الربع مزينًا برسوم جمة تمثل بيعًا وديرة وشخصيات بارزة تاريخية وحاليــة لعلية الرؤساء الدينيين للكنائس التي كتب عنها ٠

عنى الموءلف بالكنائس الشرقية البيزنطية جماعات المسيحيين المنتسبين للطقس البيزنطي سواء أكانوا على المذهب الكاثوليكي ام على المذهب الارثوذكسي وتمييزاً لهم عن الكنائس الغربيــة المنتسبة ذووها للطقس الروماني وهم الذين يستعملون في صلواتهم اللغة اللاتينية ويُعرفون باللاتين ٠ اما الذين عرّفهم بالكنائس الشرقية البيزنطية فهم فروع يستعملون اليونانية والسلافية والالبانية والكرجية والعربية حسب الامصار وكلهم طقس واحد ٠

وقد جعل الموءلف هذا الكتاب بمثابة دليل الى معرفة هــذه الكنائس فجاء احصاء دقيقًا وقد استند فيه الى مصادر قيمة عدّدها في خاتمة كتابه ٠

شمل هذا الاحصاء عدد نفوس كل جماعة من هاته الجماعات مع ذكر مختصر لتاريخها واهم بيعها وديرها وابرز رجالاتها وكيفية ادارتها ٠ وفرّق فيه لكل فرع بين اتبــاع المذهب الكاثوليكي منه واتباع المذهب الارثوذكسي من اجل المقــابلة في الارقام وفي طرق الادارة متوخيًا في ذلك نوعًا من التوطئة وبعبارة أخرى رمى فيه دلوه بين الدلاء الناشدة التفاهم واصلاح ذات البين بين الفئتين الاختين وتوحيدهما ٠

اما لغة هذا الكتاب فعربية صحيحة لا بأس بها ، لا تكلف في عبارتها ولا خطأ او غريب في إعرابها وتلك خير طريقة في كتابة الكتب المعدة ان يفهمها العالم وغير العالم ٠

عبدالله رعد

شعراء الجزائر في العصر الحاضر

« جزؤه الاول في نحو ٢٠٠ صفحة وقد طبع في المطبعة التونسية »
[سنة ١٩٢٦]

كنت وانا اتصفح تراجم هؤلاء الشعراء وأقرأ نظمهم ونثرهم أشعر بامرين قد هزا نفسي مسرةً واغتباطاً . الامر الاول وحدة اللغة العربية الفصحى بيننا معشر المشارقة وبين اخواننا المغاربة فهم يكتبونها كما نكتبها ويتذوقون بلاغتها كما نتذوقها وبذلك تتوحد منازعنا ومشاربنا وهذه مزية القرآن وهو العروة الوثقى التي تضم اليها ما تفرق من اطراف الاقطار الاسلامية . والامر الثاني ما نراه من اللهجة الحادة في مخاطبة الطامعين ومقارعة المتغلبين مما يدل على ان اليقظة اصبحت فيهم تامة كما هي في الاقطار المشرقية وانهم اخذوا يفهمون الحياتين الاجتماعية والسياسية ويوفقون بينهما وبين ما يأمر به القرآن وتتطلبه تعاليم الاسلام . وهؤلاء الشعراء والكتاب في بلاد المغرب كافة بعد ان كانوا يعدون بالآحاد اصبحوا يعدون بالعشرات بل والمئات . والكتاب يتضمن ترجمة نحو (١٢) شاعراً واديباً وقد زين برسومهم واودع الكثير الطيب من اشعارهم وعلق عليها ناشره الفاضل السيد [محمد الهادي الزاهري] تعاليق لغوية توضح المبهم وتزيل الغموض الخفي المشكل .

« المغربي »

الاسلام في حاجة الى دعاية وتبشير

لانرى إلحاح المبشرين في تبشيرهم الاسبابا في نهضة الشعوب الاسلامية وانتباهها الى وجوب العمل على إصلاح تقاليدها وعاداتها واخلاقها . وكنا نظن ان شمالي [إفريقية] هو أبعد الاقطار عن هذه النهضة او اليقظة — واذا الامر على العكس واذا في تونس والجزائر بل والمغرب الاقصى نهضة ويقظة تحتذي مثال النهضة المصرية وتمشي على اثرها في مقاومة التبشير والمبشرين من ذلك مقالات بقلم الاستاذ محمد السعيد الزاهري الجزائري — كان نشرها اولاً في صحيفة [الفتح] وقد عاد اليوم لجردها في كتيب صغير .

« له »

تهذيب الاخلاق

« والتعليم الاجتماعي الوطني »

كتاب مدرسي بهذا العنوان ألفه [الخوري انطون يمين] وقد راعى فيه برنامج المعارف اللبنانية وضمنه المباحث الاخلاقية والاجتماعية التي لا يسع الفتيان جهلها ولا طبع نفوسهم بطابعها . فواجبات الانسان إزاء خالقه . وصحة بدنه . وتوفير ماله . وإدارة منزله . وتربية اولاده — ثم موقفه إزاء المدرسة والمجتمع والدولة والوطن وسائر الامم — كل ذلك مما تضمنه الكتاب . واتى عليه مؤلفه ايضاحاً وشرحاً بالاسلوب اللين . والتعبير الهين . مقسماً الى دروس متقاودة . وابحاث متناسقة متناسبة .

« له »

—((*))—

هدية كتب الى المجمع

اهدى الى مكتبة مجمعنا السيد محمد بن محمد زبارة الحسني امير قصر صنعاء اليمن ونزيل القاهرة — طائفة من كتب العلم المفيدة ننشر اسماءها فيما يلي شاكرين له هديته :

١— الجزآن الاول والثاني من تفسير الشوكاني المسمى [الفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير] . والشوكاني اكبر عالم قام في اليمن بل في العالم الاسلامي في القرن الماضي وقد زاحم المجتهدين الاولين في فهم اسرار الدين ويكفي ان نقول هو صاحب (نيل الاوطار) وقد توفي في صنعاء سنة ١٢٥٠ هـ والكتاب طبع في مطبعة السيد مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر .

٢— الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير تأليف القاضي الحافظ شرف الدين الحسن بن احمد السياغي الصنعاني المتوفى سنة ١٢٢١ هـ وهو اربعة اجزاء كبار طبعت في مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر .

٣— تتمة الروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير للسيد الحافظ العباسي بن احمد الصنعاني وهو من المعاصرين الاحياء . والتتمة في مجلد يبلغ نحو ٣٥٠ صفحة .

٤— رسالة تتضمن ماقاله أجلاء العلماء في الديار المصرية وغيرها في تقريظ كتاب (الروض النضير) المذكور .

٥— كتاب (تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين) تأليف الامام الشوكاني المذكور وقد طبع في مطبعة السيد مصطفى البابي .

٦— ترجيح اساليب القرآن على اساليب اليونان تأليف السيد محمد بن ابراهيم الوزير الحسني الصنعاني مؤلف (ايثار الحق على الخلق) المتوفى سنة ٨٤٠ هـ طبع في مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بمصر في نحو ٢٠٠ صفحة والكتاب يرمي الى لزوم الاكتفاء بالقرآن عن الفلسفة اليونانية التي اولع بها علماء الاسلام وبعض فرقه كالمعتزلة وغيرهم .

٧— البرهان القاطع في اثبات الصانع وجميع ماجاءت به الشرائع تأليف السيد محمد الوزير المذكور طبع في المطبعة السلفية في نحو ٧٠ صفحة .

٨— مجموعة الرسائل اليمنية : خمسة منها في مجلد واحد :

(١) الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين تأليف الامام يحيى بن حمزة الحسني •

(٢) العقد الثمين في إثبات وصاية امير المؤمنين تأليف الامام الشوكاني •

(٣) العصمة عن الضلال : عقيدة السيد الحسن بن احمد الجلال اليمني •

(٤) فيض الشعاع الكاشف للقناع عن اركان الابتداع تأليف السيد الحسن المذكور •

(٥) قرة العين في الجمع بين الصلاتين تأليف الفقيه حامد بن حسن شاكر الصنعاني •

وكل هذه الرسائل طبعت في (ادارة الطباعة المنيرية) لصاحبها محمد منير الدمشقي والرسالة السادسة طبعت على حدة وهي [الوجه الحسن المذهب للحزن لمن طلب السنة ومشى على السنن] تأليف اسحق بن يوسف بن الامام المتوكل على الله اسماعيل المتوفى بصنعاء سنة ١١٧٣ هـ طبعت في مطبعة الجمل بجوار الازهر •

٩ — بهجة الجمال ومحجة الكمال في المذموم والممدوح من الخصال في الأئمة والعمال تأليف شيخ الاسلام محمد بن يحيى بهران اليمني الصعدي توفي سنة ٩٥٧ هـ طبعت في مطبعة الجمل ايضاً •

١٠ — نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر [١] •

« المغربي »

—((*؟*))—

[١] راجع مجلد ١١ ص ٧٧٠

الف ليلة وليلة
تاريخ حياتها[1]

« المحاضرة الاولى »



يخطو الدهر دائبا في وناه و كبرياه وصمت ، فيعفو الاثر . ويفري الحجر . ويبري الحديد ، وتنال يده العابثة كل شيء في حياة المرء بالتغيير والنقص ، الا شيئا واحداً يلوذ منه بسواد القلب فيستقر في قراره ، ويكمن كمون السر في دخيلته وإضماره ، أريد به ذكريات الصبى ، واحلام الحداثة ، فهي باقية والجسم يخونه البلى ، ثابتة والعيش تزعزعه الاحداث ، ناضرة والمنى يصوحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من الهم ظلام وسحب ، فمن منكم ياسادة لايذكر اول بيت أبصر فيه الوجود ، واول ملعب عرف فيه الرفيق ، واول مكتب رأى فيه المعلم ، واول موعد لاقى فيه الحبيب ؟؟ ومن منكم لايذكر ساعات السمر اللذيذة الهادئة ، في غرفة النوم الوثيرة الدافئة ، حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الجدة الحنون . اوالأم الرؤم . اوالظئر الحانية ، فينصتون في سكون وشوق الى ماتقصه عليهم من روائع الأسمار . وبدائع الأقاصيص ، وهم من طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة المحدث في حال لا يصف الشعور بها غير الشاعر ، ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب ان يخدر الاعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى ، وتسمع بقية الحديث الشهي في الحلم !

هذه الاقاصيص الشائقة التي كانت لعقولنا الصغيرة سحرا ، ولعواطفنا المشبوبة سكرا ،

(١) محاضرة للعلامة السيد احمد حسن الزيات عضو المجمع العلمي العربي ألقيت باسمه في ردهة المحاضرات في ٢٦ شباط سنة ١٩٣٢ .

ولقلوبنا الغضة فتنة ، هي نوع من الاحلام والاماني تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن القديم ، وتنقلت من عهد الى عهد ، ومن مهد الى مهد ، ومن بلد الى بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الازمن البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لانها ظاهرة طبيعية من ظواهره : كالغناء والشعر والرقص فلا تعرف لها أولية . ولا تحدد في الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الاساطير يزعمون أنها نشأت في الهند ، وهاجرت منها الى بلاد الفرس ، ثم رحلت الى بلاد العرب ، ثم استقر بها النوى في أقطار الغرب ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتسم بسمات العقيدة .

وأما أبطالها الذين وُجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال التاريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ، وشهرة بملازمة الاسفار وملابسة الغير ، فتحدث الناس اولاً بما فعلوا ثم سرّجوا حول أسمائهم وأنبائهم الاكاذيب والاعاجيب حتى أصبحوا أعلاماً على شخصيات متميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم : كدعد وليلى في الشعر وابي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الابطال فمن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً للمثل الاعلى ، او القدر العابث او الجد العاثر ، او السلطان الجائر ، او الهوى المتسلط ، او الامل الآسي ، او الحظ السعيد .

وعلى ذكر الطفولة ومناغيات الامومة أراكم ولاريب تركتموني أنكم وعدتم بالذاكرة الى تلك العهود الحبيبة تخيلون سحرها ، وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون الى ذلك الصوت الحنون ، ينبعث خافتاً من أعماق الماضي القريب او البعيد ، مردداً أسماء اولئك الابطال الذين طالما اكتأبتم لاكتئابهم ، وتألمتم لمصابهم ، وشاركتموهم بالعطف في نعماء الحب ، وبأساء الحرب ، ولأواء الخطب : من أمثال حسن البصري ، ونور الدين المصري ، والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، الى آخر ما سجلته الذاكرة . . .

انا كذلك يا سادتي ذكرت حين كتبت هذه السطور — هاتيك القبور التي ضمت هواي . ورفقة صباي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة البلى منبعه . . . ثم ذكرت شيئاً آخر : ذكرت مجلى من مجالي الأنس في القاهرة كان جمة القلوب ،

وألفة النفوس ، ومستجم الخواطر ، فعصفت به روح المدنية الحديثة ، ذلك منظر المحدث اوالقصاص اوالمسامر اوالشاعر في مقهى الحي وهو في حلته الشرقية المفوّفة الضافية ، فوق صفته الخشبية البالية العالية ، وقدتجمع بين يديه ، وعن يمينه، وعن شماله ، أوزاع العامة ، وشيوخ المحلة يستجمّون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربيـة ، وتدخين النرجيلة العجمية ، وتبادل العواطف الاخوية ، ثم الإصغاء المشترك الى (ابي درويش) وهو يقص بصوته العريض المتئد ، وجرسه الهادئ المتزن — حروب (عنترة) او وقائع (ابي زيد) اومخاطر (ابن ذي يزن) فينقلهم بقوة تمثيله اوبحسن ترتيله ، على جناح الخيال — الى عصور هؤلاء الابطال ، فيشهدهم مجد البطولة وسلطان الحب وفتك السحر وبطش المردة . ثم يرى الخبيث أن فورة الحماسة اوالشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أسر اوشدة، فيسكت ليجمع النقوط من السمار والنظار . فلا يجد هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو الى إطلاق البطل من إساره ، وإنقاذ الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره . . .

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون هذه القهوة ذات الضوء الشاحب ، والصمت الحالم ، والمنظر الكئيب — قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت في جوها الثريات ، وتلألأت في سمائها المصابيح ، وأخذت زخرفها بالسامرين ، وقـد جلسوا متقابلين على الدكك العالية يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطّر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قد خرج الى القوم يتهادى في عمته المكوّرة وجبته المعصفرة وقفطانه الانيق الاصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري ذلاذل تنوس على بطنـه المنتفخ الضخم . فاذا استوى على عرشه المنجّد — توهج البخور من جانب وتضوعت العطور من جانب ثم خشعت الاصوات ورنت اليه العيون وأنشأ يحـدث . فاذا بدا لاحد ان يسأل بعض الجالسين عن سبب هذا المهرجان عجب اولاً من انه لا يعرفه ، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو : هذه ليلة زفاف عبلة الى عنترة . . . فاذا كانت القصة قصة بني هلال — وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال الى عصبية شنيعة . ورأيتم إخوان الامس قـد أصبحوا أعداء اليوم : فطائفة تتعصب لبني هلال . وطائفة تتعصب لبني زناتة . وهؤلاء يريدون الشاعر على ان يقص واقعة . واولئك يسألونه ان يقص اخرى ، والشاعر لا يجيب الا من يجزل له العطاء . فاذا رجحت كفة وشالت كفة أخذ يروي من ذاكرته وغيبه — على هوى الفئة الغالبة مالم يسجله تاريخ . ولم

يدونه كتاب . فيزوّر الغرائب ، ويختلق الوقائع ، ويقمش ماخزنه في حافظتـه — من مختلف الاسمار ورقائق الاشعار ليحوك منها للبطل جلة تهزّ العجب في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فإما نفحة أخرى تميل به الى الجهة الثانية ، وإما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث اربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ — هو الاثر التاريخي والنموذج الحقيقي ، لذلك القصاص البارع الذي خلّف لنا كتابنا العالمي الخالد (الف ليلة وليلة) .

يرجع تاريخ هذا القصاص ياسادة الى صدر الاسلام ، والفضل في وجوده كان أيضاً للقرآن الكريم . فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية والنذر الاولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها — من أسلم من أهل الكتاب كتميم الداري ووهب بن منبه . وكعب الاحبار وعبدالله بن سلام : فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون الى الناس في المساجد ، يفصلون مافي كتاب الله من قصص الانبياء ، ويسرفون في تهويل هذه الانباء ، ابتغاء للعبرة ، والتماساً للموعظة ، ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس فازداد إقبال الناس عليه ، وكثر إفك القصاص فيه ، حتى طردهم امير المؤمنين علي من المساجد ، ما خلا الحسن البصري .

ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول وقوة أثره في توجيه الميول — فاتخذوه لساناً للدعاية وسبيلاً لافتعال الاحاديث . واختلاق الاقاصيص في الاغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية فولى رجلاً على القصص كان اذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحربه . وكان هو اذا انفتل من صلاة الفجر جلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه ، وكان ولاته وقواده يقدمون القُصاص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وماوعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة (٧٧) أن عتّاب بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة يحرضهم على القتال

ويقصُّ عليهم . ثم قال : اين القصاص ؟ فلم يجبه احد . فقال : اين من يروي شعر عنترة ؟ فلم يجبه احد .

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنبًا الى جنب يشبهان على الناس وجوه الرشد ، ويموّهان على العقول صور الباطل ، والقصاص كانوا في ذلك أشدّ وطأة على الحق : لانهم ينسبون مايفترون الى التاريخ اوالى الدين . فلما هدأت نائرة الاحزاب ، وسكنت طائرة الفتن ، ونضجت العقول — عاد القصاص الى المسجد ، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قدفطن الى كذبه وبهتانه ، والخليفة قداستغنى عنه برواته وندمائه ، فانقلب الى العامة يسامرهم في أملائهم وأعراسهم بما أُثر من ايام العرب ونقل من أساطير العجم ، وروي من أخبار الفتوح .

وانتشر القُصاص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرةً من ظواهر اجتماعها ، وحاجةً من حاجات عامتها ورعاعها ، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الاسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده : من عنف المتسلطين من السلاجقة ، وعسف المتغلبين من المغول ، وغزو المتعصبين من الفرنك ، فطلبهم العامة تفريجًا للكرب ، والخاصة تشجيعًا على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أبرع صناعة ، وأنفق بضاعة ، وأرفع مكانة ، لان طبيعة إقليمها ، ونظام اجتماعها ، وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي ملموم الرقعة ، متصل العمارة ، يجود بالخير الكثير ، على الجهد القليل ، فكان لذلك أهله قليلي الاسفار يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة يميلون الى اللهو والسمر ، وكانوا لاينفكون بين يسر متدفق طلق — اذا عم الفيضان ، وعدل السلطان ، واقتصد الموت وعسر متجهم كزّ — اذا فحش الغلاء ، وألحّ الوباء ، وبغى الحاكم . وعلى الحالين كان السامر اوالمسامر عنصرين من عناصر الحياة ينضّران بهجة العيش في الرخاء ، ويسرّيان كربة النفس في الشدة .

وكان اول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنتر التجيبي سنة ٣٨ تولاه مع القضاء ثم أُفرد به ، ثم تعاقبت القصّاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض ، فكانوا أصداء للعقيدة ، وأبواقًا للسياسة ، تسمع منهم في كل عهد لهجة ، ولكل دولة سندًا وحجة . وترون ذلك أقوى ظهورًا في عهد الفاطميين . فقد كان (يعقوب

ابن كلّس) وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص في جذب القلوب لاهل البيت . وكان مقتل الامام (علي) ومأساة الامام (الحسين) موضوع المنابر والسوامر في شهري رمضان والمحرم .

وقيل ان ريبةً حدثت في قصر (العزيز بالله) فتناقلتها الافواه ورددتها الاندية فطلب الى شيخ القصاص يومئذ [يوسف بن اسماعيل[1]] ان يلهي النـاس عنها بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنترة ونشرها تباعاً في اثنين وسبعين جزءاً سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين الى اليوم وهي الياذة العرب لا ينازعها هذا الشرف الى الآن عمل فني آخر .

وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغـداد والقاهرة . ففي عهدي (المقتدر بالله العباسي) و (العزيز بالله الفاطمي) كان القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الاخبار ، ويتنافسون في جمع الاسمار ، من الوراقين والرحالين والعامة .

ولكن القصص في العراق كان من عمل الكتاب ، يصورون فيه أنبل عواطف الناس ، وأجمل مواقف الحياة ، ويلقونه زهوراً وعطوراً في مجالس الخلفاء ، وسوامر الملوك ، فكانت بلاغة المحدث وجلالة السامع ونبـالة الموضوع تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر ، وتنزع بها الى السليقة الغريبـة المجبولة على الايجاز والقصد في الشعر والخطب والرسائل والقصص .

فما جمعه ووضعه (الجهشياري) و (ابن دلان) و (ابن العطار) في القرن الرابع من الاقاصيص في الحب الطروب ، والترف المسرف ، وماوضعـه من قبل هؤلاء (سهل بن هرون) و (علي بن داود) و (أبان بن عبد الحميد) من الاسمار في الامثال الرمزية والحكمة العالية والسياسة الرشيدة ، وماصنعه من قبل هؤلاء (عيسى بن دأب) و (هشام الكلبي) و (الهيثم بن عدي) من الاخبار في الهوى العذري والسخاء العربي في الاسلام والجاهلية — كل اولئك موسوم بسمة العقلية العربية الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

---

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزري . وممن قال بهذا الرأي الاستاذ كوسين برسيفال الذي طبع لهذه السيرة ملخصاً في باريس .

أما القصص في مصر فكان غالبًا من عمل القصاصين والمسامرين ، يلفقونه من الكتب ، ويتلقفونه من الافواه ، ويحدثون به الدهماء في المجالس العامة . ورزق هؤلاء القصاص على قدر ماعندهم من القصص . فاذا ماانقطع احدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم لذلك مضطرون الى تطويل الموضوع بالاستطراد ، وبسط الحادث بالتزيد ، وجذب القلوب بالإغراب والمبالغة .

ومن ثم اتخذ الادب القصصي في مصر شكلاً لا عهد للادب العربي به . ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة رومان (Roman) في اصطلاح الفرنك ، فان المعروف الشائع من قبل — إنما كان المثل (Fable) والأقصوصة (Conte) والحكاية (nouvelle) وهذه الانواع قد تولد بعضها من بعض على نحو مايرى الاستاذ (برونتير) الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب (دارون) على الانواع الادبية ، فالأقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الأقصوصة ، والقصة نشأت من الحكاية ، باتساع الخيال وفعل المبالغة ، وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوءها الى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لان عملها يقتضي التطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب ، والعرب في عهودهم الاولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الامور ، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بادبهم فيضطرون في حضرة الملوك ان يراعوا أدب الحديث فلا يغرقون في الحادث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ، ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق ، اما القصاص المصري فقد تهيأت له الاضباب اللازمة لخلق القصة : كان سميرالاوزاع والعامة فلم يتقيد معهم بقوانين الخُلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ ، فهو يصطنع اللهجة الصريحة ، ويستعمل الالفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط والتلفيق ، قصداً الى الإغراب والتشويق ، ويعتمد غالباً على المفاجآت القوية ، ويستطرد كثيراً الى الحوادث العرَضية ، ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق ، لانه يجهلها ، والجمهور الذي يسمعه لايعلمها ، فاستطاع بذلك ان يزور أغرب الحوادث ، ويجمع شتى الاحاديث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولاتزال للخاصة مبعث لذة ، وللعامة مصدر ثقافة .

كان القصاص المصري يعتمد في مادته على مايصدر عن بغداد من الاقاصيص الموضوعة

والمنقولة ، والروايات القديمة الصحيحة والمدخولة ، ثم يضيف الى ذلك ماتنوقل في مصر وماتجمع من الاخبار من التجار والرحالين والبحارين ، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدونون ماراوا من الاعاجيب ، كافعل اليعقوبي وابن فضلان وبزرك بن شهريار مثلاً ، إذ يحدثون بها الناس كأن يقولوا لهم ماحكاه ابن خرداذبة من ان في بعض الامم رجالاً عراض الوجوه ، سود الجلود ، لاتزيد قامة أطولهم على اربعة أشبار ، وفي جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وإن فيهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كرأس الكلب ، وجسمه كجسم الثور اوالاسد ، وماجاء في كتاب (المستطرف) من ان في (البلغار) من طوله اكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه ، كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل . وما رأى الرحالون بالطبع هذه الاشياء ، وانما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس فظنوها حقيقة .

كان القصاص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كثيرة الفصول والفضول ، تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد الى حوادث شتى ، لا يصلها بحياة البطل الا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة (عنترة) : بناها على حادثة أصلية صحيحة : هي (حرب داحس والغبراء) التي شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام . ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو (عنترة بن شداد) العبسي ، فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والحماسة والإجارة والشعر والغزو والسلب والثأر ، ولكن حروب عبس وذبيان مهما هوّل فيها وطول لاتشغل بال السامعين طويلاً ، ولاتدرّ عليه من المال كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنترة وبين فرسان العرب فيقابلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعاً بالنكول والعجز . والقصاص في اثناء ذلك ينقلنا في السهول والاودية ، ويقلبنا بين المضارب والاخبية ، حتى جلا لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لاتتمثل في خواطركم من طريق التاريخ المقتضب المفكك الا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك ان الشوق شديد ، وان الامد الذي يريده بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ويقدم به الى مصر بلد القصاص فيقود عنترة بها حروباً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً لا تزال العامة تعرفها الى اليوم باسمه ، ثم يذهب الى القسطنطينية ويزوجه من امرأة رومية . حتى اذا

ظفرت المنون اخيراً بالشجاعة الخارقة عاد ابنه من (بيزنطة) الى الحجاز فطالب بعرش ابيه وحارب معاديه ومغتصبيه ، والميتة التي اختارها القصاص لعنترة تدل على قدرة فنية عجيبة ، وكان (لامرتين) لا ينفك بها معجبا ، ومنها طروبا ، فقد ذكر أن (الاسد الرهيص) احد خصوم (عنترة) المقهورين الموتورين رماه غيلةً بسهم مريش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق خشي على قومه من بعده شرّ الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر ممتطياً جواده ، متكئاً على رمحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة ، فارتد الجيش وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ، ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنترة حتى فاضت روحه على صهوة جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه ، فلما طال وقوفه ، وجاوز الحد سكونه ، ارتاب الجيش المهاجم ، فدبر الحيلة لكشف الامر فأرسلوا الى جواده حجراً تهيجه ، فلم يكد يراها الفرس حتى وثب وثبةً خرَّ لها فارسه على الارض صريعاً .

والغالب فيما أظن ان القصاص الماهر قد اخذ هذا الختام البارع من مصرع (سليمان بن داود) أمام عماله المسخرين من الجن ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته . فلما خرّ تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة في عصر كان وادي النيل فيه منيع الحوزة ، باهر الجلالة ، صافي المورد ، لا يكدره والغ ولا واغل : فكان استقلاله يلهم العزة ، وعروبته توحي الشهامة . فلما هبت الاعاصير الهوج بالبربرية الجامحة ، فأطفأت منائر بغداد ، وزعزعت عرش الخلافة ، وعبثت العجمة الجاهلة بتراث العرب : من علم وادب ، وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر ، تنبح الهلال الآفل ، وتنهش المجد المطريد — رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة تصويراً عجيباً . ورأينا القصاص قد اتسع خياله ، بقدر ماضاق عمله ، فيخلق بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة — ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة غُفلاً من أسماء مؤلفيها : لان القُصاص المحترفين إنما كتبوها لانفسهم فيما أرج

ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنُشرت على شكلها ، دون اسم ولا وسم ولا تعريف .

وأشهر قصص هـذا الدور سيف بن ذي يزن ، والاميرة ذات الهمة ، وفيروز شاه ، فأما أنها كتبت في هذي العهود فذلك واضح لادنى نظر من لغتها وأسلوبها وماتدور عليه من عادات واعتقادات وصور ، وأما أنها كتبت بمصر فذلك ثابت من أماكن وقائعها ، واسماء اشخاصها ، فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر ، حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها ...

فالمهلهل بن ربيعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي يزن هو الذي اجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحري الذي دفنه في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجيزة اسم من أسماء زوجاته ، وسبك الثلاث ودمنهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع الى فرعي رشيد ودمياط : لان الملك (سيفاً) وهو قادم به من السودان وقف يقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراءه قدعب عبابه وطفحت أواذيه فاندفق شطرمنه الى الشمال . واتجه الملك بالشطر الآخر الى اليمين .

ومدينة (سمنود) أصلها سماء نود لان الحكيم (نودا) صاحبها قد عقد عليها سماء بالسحر توقعاً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل الى مصبه . ثم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم ، وقال ان قبره هو الذي يعرف الآن بالجيوشي .

ولقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا الدور ، فان العواطف الدينية والحماسة القومية التي ألهبتها في قلوب المسلمين هذه الغارات قد حملت القصاص على ان يتملق هذه العواطف ويغذيها بما يلفق من الاشعار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر .

فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً يقتحم المعاقل والأرصاد على الوثنية والشرك في معالم الارض ومجاهلها ، وهو يقول : « لااله الا الله إبراهيم خليل الله » . وكذلك سائر الابطال في سائر القصص ، الا انهم كانوا بعد الاسلام لاقبله .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المماليك بفساده ، وحكم الاتراك باستبداده ، قد أتيا على مابقي من اركان الاجتماع ، وحللا أواصر الاخلاق والطباع ،

ومُني الناس بإلحاح الأوباء ، وشراهة الجباة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخلدوا الى التصوف او الى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والافيون ، وحارب بعضهم بعضاً بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخديعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة في مصر الى مناسر من اللصوص والعيارين ، يقطعون متون السبل ، ويعبثون بالامن والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ويجلونهم إجلال الزعماء ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالإعجاب والمبالغة فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيع الذي يمثل هذه الحال بحقارتها وسفالتها ، ويصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها ، كالقصص الذي يدور على (علي الزيبق) و (احمد الدنف) و (حسن شومان) و (دليلة المحتالة) او (دالة المحتالة) كما يسميها (المسعودي) . واصبح أسلوب القصاص في هذا الدور دائراً بين الجهالة والقحة . فهو يستعمل في قصصه لغةً مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملاً محفوظة ووقائع واحدة يرددها في كل قصة . ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة واعتماد الناس في جمع الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر . فتكدسوا في السوامر حول القصاص وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الاساطير والاسمار . فهبوا يدونونها كما دونت تلك السير من قبل . فكان مما دون في تلك الحقبة الغريبة كتابنا وموضوع محاضرتنا (الف ليلة وليلة) .

(الف ليلة وليلة) ياسادة كتاب شعبي تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته ، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته ، فهو كالشعب وكل شيء للشعب . قد لقي من جفوة الخاصة وترفُّع العلية أذىً طويلا ، أغفله الادب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الادباء فلم يبحثوا فيه ، ورآه (محمد بن اسحق المعروف بابن النديم) فقال إنه غثٌ بارد ، لانه نظر اليه نظره الى الادب الارستقراطي الذي يصور ترف الخيال وجمال الصناعة . فلما حقق العصر الحديث تغلُّب الديمقراطيــة وسيادة الشعوب ، واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي (الرومانتكيين) في الغرب بحياة السوقة والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء وهبّ رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور[1]) الشرق اخذ أدباؤنا بحكم

(١) فولكلور (Folklore) كلمة انكليزية يراد بها في الادب الاوربي — مجموع التقاليد والاساطير والاشعار الشعبية لأمة من الامم .

التقليد والعدوى — يعطفون على أدب السواد ، فدونوا اللغة العامية ، وجمعوا الأغاني الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا في رجفة من الدهش — الى قول الاوربيين : ان في أدبنا الموروث كنزاً دفيناً — من هذا النوع له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه . ولكنهم لم يخلدوا بدياً الى هذا القول بثقة .. واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي السوقي ان يذكر في الكتب ويوضع في المكاتب وينبه الناس الى فضله ، ويهنأ العرب بانتاجه حتى رأينا بعيوننا انه نقل منذ أوائل القرن الثامن عشر الى كل لغة .. وحلّ الموقع الاول من كل أدب ، وظفر بإعجاب النوابغ من كل أمة . حتى قال (فولتير) انه لم يزاول فن القصص الا بعد ان قرأ الف ليلة وليلة اربع عشرة مرة ، وتمنى القصصيُّ الفرنسي (استندال) ان يمحو الله من ذاكرته (الف ليلة وليلة) حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته .

ثم قرأنا أن أقلام المستشرقين اخذت تتجادل منذ أوائل القرن التاسع عشر في اصله ، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وان دوائر المعارف الكبرى سجلته في حقولها ، وخصته بالطويف الممتع من فصولها . وان الاستاذ (فكتورشوفان) أفرد له في كتابه (تاريخ المؤلفات العربية) جزءين سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته ، وجزءين آخرين لخص فيهما طائفة كبيرة من حكاياته ، وان الكتّاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح فاستخرجوا للاول رواية (لص بغداد) وللثاني (قسمت) او (القضاء والقدر) ، وان رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا — قد اقتبسوا منه أدباً للاطفال فاختصروه وصوروه ، ولقيتُ انا منذ عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر اميركياً قد أرسلتْ الاول جامعته . والثاني جمعيته ، لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات (الف ليلة وليلة) .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرؤه وتسمعه ، ومطابعنا الراقية تصححه وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون اليه في تاريخ الادب . ولكنهم الى اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف العِذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه ، قد سجل على توالي القرون أطوار اجتماعنا ، وصوّر بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب . والأدب الذي احتقر العامة . فكان منه للناقد الاجتماعي والمؤرخ الفيلسوف

والاديب الباحث والكاتب القصصي — منهل ثر الينابيع ، صافي المورد . وهو — فضلاً عن ذلك — كان للشعب العربي في زمن انحلاله ، وضياع استقلاله ، وصعوبة اتصاله — قبس يبعث الحرارة في النفوس الخامدة ، وذكرى تلوع القلوب أسىً على المجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون (الف ليلة وليلة) علماً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان أدل عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة ، ومكانها البارز في التاريخ : ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها . اما هي في هذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخبُ ، وصداها داوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في (بغداد) متحف زاخر بالاعاجيب ، دونه ما للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لانه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث الى جميع الشعوب وهي صامتة ، حتى أصبح لفظ (بغداد) في جميع اللغات مرادفاً للعمران الزاهر ، والترف العجيب — واسم الرشيد رمزاً للعدل الشامل والزمن الخصيب . ذكر احد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخي فقال : كان ذلك في العصر الذهبي إذ كان يحكم الخليفة العادل هرون الرشيد .

ذلك بعض فضل الكتاب على (بغداد) . وقد ذكرت من قبل أنه لم يُؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه احد من بنيها ، وانما جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة ، وطبع اول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة بالقاهرة . ثم كان حظ القاهرة من كتاب (الف ليلة وليلة) ان صورها للناس مثابة للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل بينما يصور (بغداد) مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً للكرم ، وعشاً للحب ومظهراً للترف ، حتى كان من جراء ذلك ان اهل (بغداد) لا يزالون يقولون (عياق مصر وحيال مصر) ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغدد فلان اذا أظهر البغددة . وهي كلمة مشتقة من (بغداد) تدل على السرف والترف والبطر والنبل !

وسبب اختلاف حظ البلدين من الكتاب ان القصاص المصري اذا تحدث عن مصر — وهو منها وفيها — تحدث عما يرى ، وعبر عما يسمع ، وقد علمنا في اي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . اما اذا تكلم عن بغداد فانما يتأثر بعوامل اربعة : يتأثر بما وُضع من الاقاصيص الجميلة في بغداد — ويتأثر بما ملأ الآذان وشغل

الاذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة — ويتأثر بما ركب الله في طباع الناس من تقديس الماضي ، وتعظيم البعيد — ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الامم ، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة ان يعترف بموت (الرشيد) ، ومصرع (بغداد) ونكبة المجد الأثيل .

اما بعد فاني أحاول الآن ياسادتي ان أكشف عن حقيقة (الف ليلة وليلة) بمقدار ماتهيأت لي المراجع في (بغداد) ، بعد ان توفرتُ على قراءته ودراسته في مختلف الطبعات، ووقفتُ على مانشرعنه من الابحاث في بعض اللغات . وما أريد بالطبع ان أدفع السأم في نفوسكم بذكر مالايحتمله المقام من التحليل المفصل، وانما أجتزىء بذكر مالا يسع الرجل المثقف جهله من امر هذا الكتاب .

وهنا يدركنا المساء كما يدرك شهرزاد الصباح ، فنرجئ البقية الى الاسبوع المقبل اذا تفضلتم بالسماح .

احمد حسن الزيات

—((❦))—

المجلد الثاني عشر ١٣٥١ و ١٣٥٢ الجزء ٣ و ٤

مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

آذار — نيسان
١٩٣٢

دمشق
المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي	في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
الدفع مقدماً	وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل ٥٠٠ من السنة الاولى الى الخامسة الى كل سنة منها
« ٣٠٠ « السادسة الى الحادية عشرة «
في الخارج ٦٠٠ « الاولى الى الخامسة «
« ٣٥٠ « السادسة الى الحادية عشرة «

الكلمات الايوبية

—(()—

وأعني بها الكلمات التي تولدت في عهد الدولة الايوبية والدول التي خلفتها في مصر والشام : كنتُ — وانا أتصفح الجزء الاخير (الثامن) من نهاية الارب لمؤلفه النويري المصري — أعثر على كلمات جارية في لغة تخاطب المصريين في ذلك العهد . وهي كلمات (عامية) — أو نحكرمها فنسميها (مولدة) — مما لا يعرفه فصحاء العرب ولم يدونه أرباب المعاجم . والذي جعلني أهتم بتلك الكلمات أنها مازالت الى اليوم شائعة على ألسنتنا وعائشة في لغة تخاطبنا : فهي إذن قد عاشت نحو ثمانية قرون . ومايدرينا لعلها كانت حية قبل ذلك التاريخ ايضاً .

والبحث في كلمات اللغة من حيث نشوءها وتطورها ومرور الازمنة المختلفة عليها — هو فن اوضحى حديث من مناحي المباحث اللغوية التي يعنى بها علماء اللغات الراقية ويضعون فيها المصنفات النفيسة . ومازال هذا الفن — أو الابتكار في البحث اللغوي — مجهولاً لدينا معشر العرب ، بيد أن الانتباه اليه ، والفكرة فيه قد أخذت تنمو . وسيأتي زمن يكون فيه لكلمات لغتنا (ولا سيما غير القاموسية منها) تاريخ ومؤرخون ومصنفات . واخشى ان يسبقنا الى هذا الضرب من خدمة لغتنا العربية اولئك المستشرقون الفضلاء كما فعل المستشرق الكبير (دوزي) مذ جمع الكلمات التي أهملها أرباب المعاجم العربية وأودعها كتاباً ضخماً ذا جزئين .

وهذه الكلمات التي سنسردها في مقالنا هذا من جملة الكلمات التي تولدت بل الأجدر ان نقول من جملة الكلمات التي كانت شائعة الاستعمال في عهد الايوبيين وخلفائهم كما كانت شائعة كذلك في الاقطار التي حكموها وخاصةً القطرين المصري والشامي .

وكما دعونا الكلمات التي كانت شائعة في عهد الخلفاء العباسيين — (الكلمات العباسية) — يحسن ان نسمي الكلمات التي كانت شائعة في عهد الايوبيين الى زماننا هذا — (الكلمات الايوبية) — والكلمات التي تولدت في عهد اختلاط الافرنج الصليبيين والسوريين — (الكلمات الصليبية) وسنأتي الاشارة في مقالنا هذا الى كلمة من تلك (الكلمات الصليبية) .

ولا نعلم ان كانت بعض تلك (الكلمات الايوبية) مما ورثه الايوبيون من العباسيين او لم يرثوه منهم بل تولد في زمنهم هم . لكننا نعلم يقيناً ان كثيراً من تلك الكلمات قد ورثه العهد التركي العثماني من العهود التي سبقته ثم انتشر في عهد سيطرة العثمانيين على مصر والشام . ومازال شائعاً بيننا الى هذه الايام .

***

فأول تلك الكلمات الايوبية كلمة (ديوان) على ان كلمة (ديوان) مما ورثه الايوبيين ممن قبلهم كما ورثوها لمن بعدهم اويقال ان كلمة (ديوان) هي حجر الزاوية في البنائين بناء (الكلمات المعرّبة) في الاسلام وبناء (الكلمات الادارية) في الاسلام . أليس أول من استعملها عمر بن الخطاب ؟ وذكر بعضهم ان معنى (الديوان) كان موجوداً قبل ان يعرّب لفظه : إذ انه (إي المعنى) وجد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم . فقد روى (حذيفة) رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اكتبوا لي من تلفّظ بالاسلام من الناس . فكتبنا له الفاً وخمسمائة رجل) . وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اني اكتُتبت في غزوة كذا وامرأتي حاجّة . قال إرجع فاحجج مع امرأتك) . فيفهم من هذين الحديثين أن الاحصاء و(قيد النفوس) او (نفوس الغزاة خاصة) نشأ في عهده صلى الله عليه وسلم . أما تسمية ذلك بالديوان فكان في عهد عمر :

ذلك انه بعث بعثاً وعنده الهرمزان الفارسي فقال لعمر : هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال فان تخلف رجل منهم وأخلّ بمكانه (اي ترك المكان اوالعمل الذي وكّله اليه أميره) فمن أين يعلم صاحبك (أي أميرك الذي وليته ذلك الجيش) فأثبت لهم ديواناً . فسأله عمر عن (الديوان) ففسره له فكلمة (ديوان) أم الكلمات الادارية الدخيلة .

وكان (الديوان) ديوانين: ديواناً بالشام : لغته الرومية ، وديواناً في العراق : لغته الفارسية . ثم تحولا الى اللغة العربية . ويحكى في سبب تحول ديوان الشام الى العربية أن

بعض كتاب الروم في الديوان الشامي أراد ماء لدواته فبال بالدواة . فبلغ الخليفة عبد الملك بن مروان خبره فأدبه وكان ذلك من جملة الاسباب في تحويل الديوان من الرومية الى العربية .

ومن الكلمات الايوبية الادارية كلة (المجلس) بمعناها الاداري المتعارف اليوم وكلة (كتابة الانشاء) و (كتّاب الانشاء) و (كتابة الحساب) و (كتّاب الحساب) ونسميها اليوم المحاسبة و (كتابة التصرف) و (كتاب التصرف) وكانوا يريدون (بالتصرف) مانريده اليوم بالاعمال الداخلية اوالاعمال الادارية مما يقابل الاعمال الماليةوالعسكرية . ومن كلة (التصرف) هذه جاءت كلة (المتصرف) و(المتصرفية) عندالاتراك العثمانيين . وكلة (الخزانة) ويريدون بها مستودع الامتعة والثياب والتقادم والخلع وشاعت لدى الاتراك العثمانيين باسم (خزينة) و (خزنة) لكنهم يريدون بهما مستودع النقود والاوراق المالية . وكلة (جامكية) بمعنى الراتب والاجر . و(العوائدالمقررة) وهي صلات وهدايا تخص بها الحكومة بعض ذوي المنزلة في الدين أوالشرف اوالعلم . وكلمات (الناظر) و (النائب) و (المباشر) . وفي غزة اليوم أسرة تسمى بالمباشر وهي من أصل مصري . ومازالت كلة (مباشر) تطلق في محاكمنا الشرعية على الذي يجلب الخصوم اويبلغ اوراق المحكمة (الدعوتية) ويسمى (المحضر) ايضاً . وكلمات (الرتب) و (المناصب) و (أرباب المناصب) ويريدون بها مانريده بها اليوم . وكذلك (التشريف) و (التشاريف) بمعنى الرتب الرسمية وهي شائعة في الدولة المصرية اليوم بمقابل كلمة (الرتب) الشائعة عندنا . وكلمة (المرسوم) و(المنشور الشريف) وجمعها (المناشير) وهو مايتضمن الاوامر السلطانية الصادرة بالتعيينات الادارية او القضائية او الملية وترادفها في الدولة العثمانية كلمة (فرمان) وهي كلمة فارسية . وكلمة (دستور) ولها معانٍ عرفها العرب الاقدمون ثم شاعت في الدول الاسلامية الاعجمية بمعنى (الاذن) وبمعنى (الوزير) وبمعنى (الكتاب) يتضمن قوانين الدولة ونظمها وأوامرها . وكلمة (كشف) بمعنى تقرير اوبيان ينظمه الموظف ويفصل فيه أعمالاً قام بها اوحسابات أجراها . ومثل (الكشف) كلمة (عرض) يودعه رئيس الديوان تفصيلا لاستعراض الجند وقيود رواتبهم . وكلمة (تحرير) بمعنى الكتابة و (ضبط) تقييد الشيء وكتابته و (جريدة) و (جرائد) للسجلات والدفاتر التي تقيد فيها المعاملات الحكومية . وغلبت اليوم على دفاتر

قيود المحكمة الشرعية . وكلمة (شطب) كانوا يريدون بها نقل [المعاملة] او [القيد] من دفتر الى دفتر . ولا بد أنهم يمدون خطاً بالحبر على المعاملة الاولى إشارة الى إهمالها وعدم الاعتداد بها وبهذا المعنى « معنى إمرار الخط على السطر وإفساده » نستعملها نحن اليوم مذ نقول [اشطب] و [شطّب] وفي اللغة الفصحى [ارمج] و [رمّج] يقال رمج الكاتب ما كتبه إذا أفسد سطوره بعد كتابتها . وكلمة [جندية] بمعنى العسكرية والتجند و [أجناد الحلقة] الحلقة في اللغة العربية بمعنى السلاح وقد استعملها الايوبيون وخلفاؤهم بمعنى الجنود باسلحتهم يقامون في مواضع المخافة للحراسة والخفارة . ومثلها [المسلحة] و [المسالح] وهي مراكز الجنود باسلحتها تعدُّ للغرض المذكور . ومازال يوجد مكانان في الطريق بين بيروت وطرابلس الشام على ساحل البحر أحدهما يسمى [ابوحلقة] على بعد كيلومترين اوثلاثة من طرابلس فيه عين ماء وكان في زمن الجراكسة المصرية مركزاً للجنود الخفراء — والمكان الآخر يسمى [المصيلحة] بياء التصغير محرف عن [مسيلحة] تصغير [مسلحة] اسم عقبة كؤود فيها بناء شبه قلعة صغيرة كانت تقيم فيها الجنود للخفارة وحفظ القوافل والمسافرين .

وكلة [استدعاء] والاستدعاء في اللغة بمعنى الطلب ثم صار يطلق على كتاب الشكوى الذي يرفعه المستدعي الى الحاكم طالباً انصافه اوالنظر في مظلمته او تسوية بعض مشاكله مما هو من وظيفة ذلك الحاكم الذي قدم اليه الاستدعاء . فمعنى كلة [الاستدعاء] في الاصطلاح موافق لمعناها في أصل اللغة العربية وهو الطلب . على ان كلمة [طلب] نفسها مازالت الى اليوم تستعمل في الحكومة المصرية بمعنى الاستدعاء أونوع آخر من أوراق المعاملات الرسمية . فلاحاجة الى ان يقال ان كلمة [استدعاء] محرفة عن كلمة [استعداء] بتقديم العين على الدال . ولعمري ان هذه الكلمة [استعداء] أفصح وأدل على المعنى الاصطلاحي من أختها : ذلك ان معنى [استعدى] هو ان يتقدم المظلوم الى الحاكم ويستعديه على خصمه اي يطلب منه ان [يُعديه] ومعنى [يعديه] يزيل عدوانه عنه ومعنى [العدوان] الظلم والتعدي . فهمزة [أعداه] هي للازالة كالهمزة في [أشكاه] القاضي اذا أزال شكايته وأنصفه من خصمه . فالاستعداء في اللغة هو طلب إزالة العدوان . فاذا كُتب هذا الطلب في كتاب صح ان نسمي الكتاب [استعداء] فيكون الفرق بين [الاستعداء] و [الاستدعاء] ان [الاستدعاء] في اللغة يدل على مجرد الطلب . أما [الاستعداء] بتقديم العين فيدل على طلب خاص وهو إزالة

العدوان عن المستعدي المظلوم . فالاستدعاء اصطلاح حسن . ولكن الاصطلاح على [الاستعداء] أحسن منه . على اننا يمكننا مذ الآن ان نخصص كلمة [الاستعداء] بتقديم العين لكتب الشكاوى التي ترفع الى قضاة العدل . وتبقى كلمة [الاستدعاء] بتقديم الدال في كتب المصالح الاخرى التي ترفع الى سائر الحكام .

والمستودعات الاميرية كانت تسمى في عهد الدولة الايوبية [البيوت السلطانية] وتختلف اسماؤها باختلاف مايجعل فيها : فهي [الشراب خاناه] و[الفراش خاناه] و[السلاح خاناه] الخ وكأن كلمة [خاناه] بمعنى البيت كانت تلفظ في التركية القديمة بالف مدّ بعد النون . اما في التركية العثمانية فاختزلت الى [خانه] فيقال [جبخانه] و[طوبخانه] . وكان لكل بيت مباشر هو المسؤول عما فيه . قال في [نهاية الارب] مبيناً وظيفة مباشر [الفراش خاناه] : « ويعرض ما يسلمه للفراشين عليهم ... ويضبط ما يتسلمه الصناع الذين يفصلون الخام الجديد وغيره من آلات [الفراش خاناه] من قماش بياض ومصبوغ وغزل وجلود ومشمعات الخ » .

ففي هذه العبارة عدة كلمات أيوبية : منها [الفراشون] وهم الذين يتولون أمر فرش قصور العظماء وغلبت اليوم في مصر على الذين يلتزمون تقديم آلات الضيافة من فرش وغيره في الولائم او المآتم . وكلمة [الخام] الظاهر انه أراد بها مايراد بها في بعض بلاد الشام اليوم وهو ضرب من الثياب البيض غير خالصة البياض ولذا تسمى في دمشق [البطانة السمراء] وفي القاموس [الخام الجلد الذي لم يدبغ والكرباس الذي لم يغسل وهو فارسي معرب] فاستعماله اليوم في الثياب السمراء موافق لمعنى [الكرباس] لأن الكرباس الثوب الأبيض من القطن اوالثوب الخشن . والخام من القطن ايضاً وهو خشن . وكذلك يطلق لفظ [الخام] اليوم في الفن أو الصناعة — على المواد الأولية قبل ان تحول الى مصنوع كالصوف والقطن قبل نسجها والجلد قبل صنعه والمواد المعدنية قبل صهرها الخ . وهذا الاستعمال موافق لمعنى الخام في اللغة كما قال القاموس غير أن القاموس خصه بالجلد . وأهل الصناعة والاقتصاد اليوم تخطّوا به الى كل مادة تُصنع : جلداً أو غيره . وكلمة [قماش] نريد بها اليوم ما كانوا يريدونه في العهد الأيوبي أعني الثياب المختلفة التي تلبس أوتفرش . وهو استعمال عامي إذ للقماش في اللغة معنى غير هذا . وقول المؤلف [قماش بياض] يوافق استعمالنا اليوم من

إطلاق [البياض] علي الثيـاب البيض الرقاق التي تفصل أقمصة وسراويلات ويسـمى هذا الضرب من القماش في دمشق [مادام] وفي القديم كان يسمى الكرباس ويجمع علي الكرابيس لكن الكرباس يكون فيه خشونة كما يفهم من كتب اللغة وكما يفهم من استعماله مذ يقولون [وكان فلان متقشفاً يلبس الكرابيس] .

وكلمة [مشمعات] ايضاً ممانستعمله اليوم ونريد به ثياباً تطلى بالشمع ويتقى بهـا المطر ويسمى المشمع الذي يلبس لاتقاء المطر في اللغة العربيـة [ممطراً] على وزان منبر . قال عمر ابن ابي ربيعة :

[فأسرج لي الدهماء واعجل بممطري ولا يعلمن خلق من الناس مذهبي]

وكلمة [جندرة] ورد ذكرها في نهاية الارب مع تفصيل الثياب ورفوها وحشوها فلعلهم يريدون بها ماذكره علماء اللغة مذ قالوا جندر الثوب اذا أعاد وشيه بعد ذهابه قال الجوهري وأظنه معرب . ونريد بجندرة الثوب اليوم تموجاً خاصاً في وشي الثوب او في صبغه وتلوينه .

و [آلة الحمام] يريدون بها مانريده اليوم مما يستصحبه المغتسلون في الحمامات من طشوت وطاسات .

وكلمة [طواشيه] مما استعملوه في العهـد الايوبي ويستعمل اليوم في ذلك المعنى ايضاً وكانوا في العهد الأموي يدعونهم [خصيان] .

وكلمة [بخش] بضم الباء يريدون بها [الثقب] لكنها اليوم أصبحت عامية مبتذلة .

وكلمة [نفَر] مراداً بها الشخص الواحد فيقولون كما نقول اليوم: اخذ القائد معه خمسين نفراً مثلاً اي خمسين نفساً . ولها معنى في اللغة غير هذا .

وكلمة [قلوب] ذكرها في نهاية الارب مع الأبازير والتوابل ويريدون بها لب الفستق واللوز والبندق وتسمى في بعض بلاد الشام [قلوبات] أما اهل دمشق فيسمونها [مكسّرات] .

وكلمة [الأقسما] يذكرونهـا مع الفقّاع [ضرب من الأشربة] والفواكه والحلويات ولعلهم يريدون [بالأقسما] ماذكره الخفاجي في شفاء الغليل قال هو نقيع الزبيب وهو معرب [أبسما] . أما الاقسما في بعض بلاد الشام فيراد به نحو شراب التوت اوالليمون محلىّ بالسكر ومبرداً بقطع الثلج التي تبقى جامدة تتمعقع تحت الاسنان . وقد أخذت كلمة [الأقسما] تموت رويداً رويداً وتخلفها كلمة [شربات] .

ويقولون [دسوت النحاس] الدست له عدة معان في اللغة وليس منها معنى القدر الكبير كما هو الشائع على ألسنة العامة اليوم فهو إذن مولد زيد فيه [الخلقين] والخلقين كلمة يونانية .

وكانوا يقولون [الركائب] بتقديم الراء على الكاف ويريدون بها المغارف وهو لفظ شائع الى اليوم في مصر لا في الشام لكنهم [أي أهل مصر] اليوم يلفظونه على أصله فيقولون [كرائب] بتقديم الكاف جمع [كُرْنُبه] وهي المغرفة . قال في مستدرك التاج إنها كلمة مصرية . فأنت ترى ان المصريين الأقدمين كانوا يلفظونها محرفة مذ يقولون [ركائب] لا [كرائب] . وليس هذا بعجيب منهم: فان أبناءهم اليوم يقولون في [أرانب] جمع أرنب [أنارب] بتقديم النون . ومازلت أذكر السيد احمد بك الحسيني رحمه الله مذ قال لي أما تحب لحم الانارب ؟ فلم أفهم ذلك حتى فسره لي .

وكانوا يستعملون كلمة [خصم] اي التنزيل في الحساب كما نستعملها اليوم وكذا كلمة [وصول] . ويقول المصريون اليوم [ابصال] اما في الشام فمازالوا يقولون [وصول] و[وصل] . وقال في شفاء الغليل انها مولدة عامية . ولقد تظرّف بعض المولدين مذ قال :

[أنفقت عمري في هواك وليتني أعطى وصولاً بالذي أنفقته]

وكذلك يقولون [غلّق ماعليه من أجرة الضمان] أي أدى بقيته كما نقول اليوم وهو تعبير عامي . أما قولهم [عيّر الشيء] اي وزنه ليعلم مقدار ثقله بالنسبة الى موزون آخر — فهو فصيح لامولد . ومثله فعل [استعير الشيء] وهو المستعمل في بلادنا اليوم لمعرفة الموزون او المكيل . وكذلك كلمة [إردب] في الكيل المخصوص مازالت مستعملة الى اليوم . ومثلها [فدان] في المساحة .

وسألني بعض كبار المهندسين عن كلمة تقوم مقام (Precis) الافرنسية مذ يقولون « مسح المهندس الارض الفلانية فبلغت خمسين متراً بالضبط » فان الكلمة الافرنسية لايجوز لنا استعمالها لعجمتها وكلمة [بالضبط] لابتذالها . فقلت يمكنك ان تقول [بالتمام] أو [تماماً] . ثم اتفق ان رأيت صاحب [نهاية الأرب] يقول (ص٢٤٤) في صدد معرفة عمر الغلام الذي تؤخذ عنه الجزية « يُدار خيط على عنق الصبي مرتين تحريراً ثم يوضع طرف الخيط بين أسنانه وتُدخل أنشوطة في رأسه فان دخلت دل ذلك على بلوغه وإلا فلا » فقوله [تحريراً] قد أراد به في غالب الظن مانريده نحن اليوم في قولنا [بالضبط] وما يقوله

الافرنسيون بقولهم (Précis) و (Precisement) فما علينا اليوم الا ان نحيي هذه الكلمة فنقول [فلان عمره ستون سنة تحريراً] و[زرت فلاناً في الساعة الثامنة والنصف تحريراً] و«فلان بلغت قصبات أرضه التي اشتراها الف قصبة تحريراً» الى غير ذلك ·

ذكرنا كلمة [قصبات] ونحن على يقين ان معظم أهل الأقطار العربية لا يعرفون ما المراد منها لكننا نحن استعملناها في المعنى الذي يستعملها فيه الدماشقة اليوم والمصريون قديماً : فقد ذكر صاحب [نهاية الأرب] الفدّان وحدد مقداره فقال : «هو اربعمائة قصبة بالقصبة الحاكمية والقصبة الحاكمية ستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش» · ولا يخفى ان ذراع القماش هو الذراع المستعمل اليوم في بلاد الشام ويسمى ايضاً الذراع الاسلامبولي · وفي دمشق مقدار من المساحة الارضية يعبرون عنه بالقصبة وهو ثمانية واربعون ونصف [مربع] بالذراع المذكور اي الذراع الاسلامبولي أو ذراع القماش فتكون النتيجة ان قصبة المساحة التي كان يسميها المصريون في العهد الايوبي بل والعهد الفاطمي [القصبة الحاكمية] نسبة الى [الحاكم بامر الله الفاطمي] — هذه القصبة هي المستعملة اليوم تقريباً في دمشق فيقولون [قصبة] ولكن لا ينعتونها بالحاكمية كما كان ينعتها المصريون الايوبيون · وقال القلقشندي في [صبح الأعشى] القصبة الحاكمية طولها ستة أذرع بالهاشمي وخمسة أذرع بالنجاري وثمانية أذرع بذراع اليد اه ·

ورأيت في [نهاية الارب] كلمةً عربت منذ ثمانية قرون ودخلت في لغة أجدادنا السوريين من لغة الافرنج الصليبيين وقد نبه اليها المؤلف نفسه فقال «وفي بعض الأعمال الشامية نواحٍ مفصولة ومضمنة على أربابها بشيء معلوم يؤخذ منهم عند إدراك المغل» ثم قال مفسراً كلمة [مفصولة] ما نصه : [وكلمة «الفصل» بالشام كله كلمة افرنجية واستمر استعمالها في البلاد الساحلية التي ارتجعت من أيدي الافرنج جرياً على عادتهم اه] · وكأنه أراد بقوله [جرياً على عادتهم] ان اهل الشام في زمن الحروب الصليبية كانوا يعرّبون كلمات الافرنج ويستمرون على استعمالها · وهل المصريون يا ترى ما كانوا يفعلون ذلك ؟ وكلمة [فصل ومفصولة] استعملهما المؤلف النويري — كما رأى القارئ — في صدد استئجار الارض الزراعية المُغلّة · فناحية من نواحي الشام تكون مفصولة أي ذات فصل بان تكون إقطاعاً بتصرف أمير من الامراء الإقطاعيين فيعتمد هذا الامير على بعض اتباعه فيؤجره الناحية لقاء مبلغ

من المال — هذه الارض الاقطاعية المؤجرة على هذه الصورة كان يقول عنها أسلافنا أهل الشام انها أرض [مفصولة] وايجارها [فـصـل] . وقال المؤلف النويري ان الشـاميين أخذوا هذه الكلمة من لغة الافرنج فكيف أخذوها؟ قال الاستاذ احمد الزين مصحح كتاب [نهاية الارب] معلقاً على عبارة المؤلف ما نصه : « لعل أصل هذه الكلمة في اللغة الافرنسية Vassal [فـسّـالـ] ومعناه التابع الذي أعطاه متبوعه إقطاعاً نظير واجبات يؤديها كما في معجمات هذه اللغة فكأن اهل الشام اشتقوا من [فسال] لفظ [الفسل] وأرادوا به المعنى المصدري اي التبعية ثم حرفته ألسنتهم الى كلمة [الفـصل] كما هنا حسب نطقهم العربي واشتقوا منه لفظ [مفصولة] » اهـ كلامه .

فأجدادنا أهل الشام لما لم يجدوا في اللغة العربية كلمة خاصة تدل على استئجار تابع الامير من متبوعه أرضه الاقطاعية وسمعوا الصليبيين يقولون معبرين عن هذا المعنى بكلمة (Vassal) استجازوا تعريبها وقالوا [الفصل] و [الارض المفصولة] حتى استعملها النويري في كتابه . فيصح لنا نحن اليوم ان نسميها [كلمة صليبية] ونبحث عن أخواتها ونضمها اليها بعنوان [الكلمات الصليبية] وقد يعثر المتتبع اليقظ على كثير من هذه الكلمات .

ونختم هذا البحث بكلمتين إداريتين كان المصريون في عهد الدولة الايوبية يستعملونهما : احداهما كلمة [الترصيع] يريدون بها ما نريده بكلمة [التنظيم] مذ نقول : نظم العامل العمل اونظم جدولاً بالعمل امامه فكانوا يقولون رصّع العمل وترصيع العمل ولا بأس باستعمال هذه الكلمة في مثل هذا المقام او مقام آخر يشبهه . اما الكلمة الاخرى فهي [مَعْذوق] مذ يقولون مثلاً « وأمر البيوت السلطانية معذوق بناظر خاص » ويريدون [بمعذوق] ما نريده اليوم بكلمة [منوط] مذ نقول هذا الأمر منوط بفلان اي معلق به ومرتبط به واليه مرجعه . ولكلمة [معذوق] معنى في اللغة لا تمكن إرادته هنا الا على استكراه . فليس لنا في استعمال [معذوق] حاجة مادامت لدينا كلمة [منوط] بشرط ان لا نشدد واوها ونقول [منوّط] كما يفعل بعضهم .

« المغربي »

مذهب الجاحظ في الادب[1]

—(())—

أحطنا حتى اليوم بثلاث نواحٍ من نواحي الجاحظ فقد تكشف لنا علمه ودينه ونقده ، فكان في علمه يبني على أصول معينة وصولاً الى الحقائق وكان في دينه يعمل عقله في التفسير والتأويل دون ان يكون لأحد سلطان عليه ، وكان في نقده على نحو ما رأينا ه في علمه يتوخى الحقائق مهتماً بالفن الاهتمام كله ، فاذا عرفنا هذا فهل علينا من حرج ان نعرف طائفةً من مذاهبه في الأدب كما عرفنا طائفةً من مذاهبه في العلم والدين والنقد ، وآراء الجاحظ في الأدب مشتتة في أثناء كتبه فلا نجد له مباحث مطردة في هذا الباب يأخذ بعضها برقاب بعض فكأنه يلهو بمجامع المعاني لهواً وهذا اللهو من خصائص عبقريته ٠—

وعلى هذا النحو اننا لا نطمع في استقصاء آرائه الادبية وإنما نتوخى معرفة اليسير منها لعلنا نتصور الجاحظ في صورة الأديب كما تصورناه في صورة العالم أو في صورة الفيلسوف أو في صورة الناقد ٠—

قبل أن أتفرغ لبيان أفكاره الأدبية لا أرى لي مندوحة عن الاشارة الى مذهبه في الأدب ، فالجاحظ من أصحاب الأدب المجرد ، انكم تعلمون ان الجاحظ عاش في عصر استفاضت فيه الحرية في كثير من الامور ، من جملة هذه الامور تسمية الأشياء باسمائها دون اللجوء الى الكنايات ، فاذا تصفحنا بعض الشعر في ذلك العصر ظهرت لنا ألفاظ عارية تصور الطبيعة في حقائق صورها دون شيء من التعفف ، والجاحظ متصل بعصره الاتصال كله على نحو ما تبين لكم ذلك فلم ينسلخ من أثر من آثار هذا العصر فاذا وجد ان الأدب

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة ١٩٣١ ٠

المجرد مذهب من المذاهب المستفيضة أخذ به ولم يتورع فهو صورة عصره في كثير من الامور فمن قوله في هذا المعنى[1] :

« وبعض الناس اذا انتهى الى ذكر ... ارتدع وأظهر التعزز واستعمل باب التورع وا كثر من تجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار الا بقدر هذا الشكل من التصنع ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق الا عن لؤم مستعمل[2] ونذالة متمكنة الى آخر ما ذكره ثم أيد مذهبه هذا بطائفة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام بعض الخلفاء الراشدين والسلف الطيب .—

ففي كلام الجاحظ ما يدل على ان هذا الشكل من الادب لم يشع الشيوع كله فقد كانت طائفة من الناس يرتدعون ويظهرون التعزز ويستعملون باب التورع الا ان الجاحظ كان يرى ان هذه الأخلاق انما هي من ضرب التصنع وكيف كان الامر فالذي يهمنا انما هو المذهب نفسه ولهذا المذهب رجال ظهروا في فرنسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر منهم (Henri Beyle) في مقدمتهم (بالزاك Balzac) و (فلوبر Flaubert) ثم (زولا) وغيرهم فيكاد يكون (بالزاك) أستاذ الأدب المجرد أو الأدب الواقع على حسب المصطلح فقد أحيا في رواياته جماعات تصورها على نحو جماعات اللحم والدم .—

لمح (بالزاك) في مقدمة رواية من رواياته الى غرضه فالغاية التي يرمي اليها انما هي كتابة تاريخ الرجل الطبيعي، فأنتم تدركون من هذه الكلمة النتائج التي تؤدي اليها كتابة التاريخ الطبيعي للبشر، شأن صاحب هذا المذهب انما هو وصف القبح والجمال ووصف الخير والشر على وجه واحد فلا قبح ولا جمال ولا خير ولا شر في نظر أهل هذا الأدب وانما هي مظاهر مختلفة يظهرها الرجل فهم يشبهون الانسان بحيوان أو بنبات .—

ليست غايتنا التبسط في الكلام على أهل الأدب المجرد وانما أردنا ان نقابل بينهم وبين الجاحظ فالجاحظ يختلف عنهم من حيث انه لم يتوسع في هذا المذهب فهو لم يضع روايات يرمي فيها الى تصوير القبح والجمال أو الخير والشر وانما لجأ الى مفردات قد لجأوا الى أشباهها نظراً الى التحامها بموضوعاتهم فهو يشبههم في قليل من المواطن فقد نجد من كلامه ما هو مجرد من الأدب نسبة الى عصرنا وقد يكون هذا الكلام مألوفاً في عصره الا أنه كيف يكون

(١) الحيوان — الجزء الثالث ص١٢ . (٢) لعله : عن لؤم مستفحل .

الامر فلا نستطيع في هذه الايام ان نستعمل أضراب هذا الكلام لأن عصرنا لم يتهيأ لهذا النوع من الأدب ، اما كلام الجاحظ الذي اشرت اليه فانه يتجلى لنا في بحثنا عن لغته . —

وقد جرّته هذه الحرية في الأدب الى حرية مثلها في اللغة فاسمعوا ماقاله في بعض كلامه على الكلاب[١] :

« فأما الذي شهدت أنا من ابي اسحاق بن سيار النظّام فانا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأبُلّة وتقدمته شيئًا وألح عليه كلب من شكل كلاب الرعاء وكره ان يعدوَ فيغريَه ويضربه وأنف ايضًا من ذلك وكان انفًا شديد الشكيمة اباء للضيمة وكره ان يجلس مخافة ان يشر عليه ببوله أو لعله أن يعضه فيهرُتَ ثوبه وألح عليه فلم ينله بسوء فلما جزنا حدّه وتخلصنا منه قال ابراهيم في كلام له كثير بعدد خصاله المذمومة فكان آخر كلامه أن قال : ان كنت سبع فاذهب مع السباع وعليك بالبراري والغياض وان كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم ، فلما بلغ الى قوله البهم ثم قال :

ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون من قولي : ان كنت سبع ولم أقل ان كنت سبعًا وانا أقول : ان الإعراب يفسد نوادر المولدين كما ان اللحن يفسد كلام الأعراب لأن سامع ذلك الكلام انما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة فاذا دخلت على هذا الامر الذي انما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيها حروف الإعراب والتخفيف والتثقيل وحولته الى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته . — »

فلم يأنف الجاحظ بعد أن بسط مذهبه هذا من لحن أو من كلام غير معرب أو من لفظ معدول عن جهته حتى قال في كتاب البخلاء[٢] :

« وان وجدتم في هذا الكتاب لحنًا أو كلامًا غير معرب ولفظًا معدولاً عن جهته فاعلموا انا انما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده الا أن أحكي كلامًا من كلام متعاقلي البخلاء واشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه . — »

ولم يقتصر على استعمال اللحن والكلام غير المعرب واللفظ المعدول عن جهته وانما أوصى

(١) الحيوان — الجزء الاول ص ١٣٦ .
(٢) البخلاء — ص ٣٣ .

بهذا المذهب فقال [١] :

« ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب فاياك وان تحكيها الا مع إعرابها ومخارج ألفاظها فانك ان غيرتها بأن تلحن في إعرابها واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلحة من مُلَح الحشوة والطغام فاياك وان تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها . — »

فاذا عرفنا ميله الى الحرية في التصوير والى الحرية في اللغة لزمنا ان نعرف مذاهبه في هذا التصوير وفي هذه اللغة ، ماهي الأصول التي يبني عليها الفن . —

لم يعنَ الجاحظ بشيء في أبواب الفن اعتناءه بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني فان قاعدة : لكل مقام مقال تكاد تكون أغلب قواعده ، فما أكثر ذكره لها في كلامه ، وما أكثر تنبيهه على استعمالها ولا عجب في ذلك ، فاذا رأيتم غداً كيف يناسب بين ألفاظه ومعانيه وكيف تكون ألفاظه على أقدار هذه المعاني عرفتم السبب الذي من أجله يحرص هذا الحرص على أن يكون المقال مطابقاً للمقام ، فقد نبه على هذه القاعدة في مواطن كثيرة من كلامه لا أرى بي حاجة الى ذكرها كلها وانما اجتزيء بذكر بعضها فن قوله في هذا المعنى [٢] :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والافصاح في موضع الافصاح والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال وان كان موضع الحديث على انه مضحك وملهي وداخل في باب المزاح والطيب فاستعملت فيه الاعراب انقلب عن جهته وان كان في لفظه سخف وابدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على ان يسر النفوس يكربها ويأخذ باكظامها . — »

أو قوله [٣] :

(١) البيان والتبيين — الجزء الاول ص ٨١ .

(٢) الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢ .

(٣) 〃 〃 〃 ص ١١٤ .

« وقبيح بالمتكلم ان يفتقر الى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار أو في مخاطبة أهله وعبده وأَمته أو في حديثه اذا حدّث اوخبره اذا أخبر ، وكذلك من الخطإ ان يجلب الفاظ الأعراب والفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل . — »

أو قوله [١] :

« ووجدنا الناس اذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا واذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز ... ورأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف واذا خاطب بني اسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام . — »

ومثل الاشارة الى قاعدة : لكل مقام مقال كثير في كلام الجاحظ ولكن كيف يريد الجاحظ ان يكون هذا المقال ، ماهي قواعد الانشاء في نظره ، أيريد ان يرسل الكاتب كلامه على بجيته دون شيء من التنقيح أم يريد ان ينقح هذا الكلام . —

اهتم الجاحظ بالتنقيح كل الاهتمام فهو يعلم مقدار فتنة الكاتب بكلامه فلم يجد بداً من تنبيهه على التهذيب فقال [٢] :

« وينبغي لمن كتب كتاباً ان لا يكتبه الا على الناس كلهم له أعداء وكلهم عالم بالامور متفرغ له ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفلاً ولا يرضى بالرأي الفطير فان لابتداء الكتاب فتنة وعجباً فاذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الاخلاط وعادت النفس وافرةً أعاد النظر فيه فتوقف عند فصوله توقف من يكون وَزْنُ طبعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ويتفهم معنى قول الشاعر :

ان الحديث تغر الناس خلوته حتى يلج بهم عيٌّ واكثار

ويقف عند قولهم في المثل كل مجرٍ في الخلاء يسر فيخاف ان يعتريه مااعترى من أجرى فرسه وحده أو خلا بعلمه عند فقد خصومه واهل المنزلة من اهل صناعته ليعلم ان صاحب القلم يعتريه مايعتري المؤدب عند ضربه وعقابه فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط

(١) الحيوان — الجزء الاول ص٤٦ . (٢) الحيوان — الجزء الاول ص٤٤ .

فيضرب مائة لانه ابتدأ الضرب وهوساكن الطباع فأراه السكون ان الصواب في الاقلال فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة فزاد في غضبه فأراه الغضب ان الرأي في الإكثار وكذلك صاحب القلم فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة والحفظ مع الإقلال أمكن وهو مع الإكثار أبعد . (واعلم) ان العاقل ان لم يكن بالمتتبع فكثيراً مايعتريه مايعتريه من ولده ان يحسن في عينه منه المقبح في عين غيره فليعلم ان لفظه أقرب نسباً منه من ابنه وحركته امس به رحماً من ولده لان حركته شيء احدثه من نفسه وبداءته من عين جوهره فصلت ومن نفسه كانت وانما الولد كالمخطة يتمخطها والنخامة يقذفها ولاسواء اخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك واظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته وليس الكتاب الى شيء أحوج منه الى إفهام معانيه حتى لايحتاج السامع لما فيه من الروية ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الفاظ السفلة والحشوة ويحطه من غريب الاعراب ووحشي الكلام . — »

وقال في مقام آخر(١) :

وليس في الارض خصمان يتنازعان الى حاكم الا كل واحد منهما يدعي عدم الانصاف والظلم على صاحبه وليس في الارض انسان الا وهو يطرب من صوت نفسه ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده الا ان الناس في ذلك على طبقات من الغلط فمنهم الغرق المغمور ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطإ ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه فما أحسن حاله مالم يمتحن بالكشف ولذلك احتاج العاقل في استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي ومن إعادة النظر والتهمة الى أضعاف مايحتاج اليه في سائر ذلك . — »

ولكنه على شدة اهتمامه بالتنقيح والتهذيب لايريد المبالغة في هذا الامر لانه يعلم ان المبالغة قد تفضي بالكاتب في خاتمة الامر الى شيء من التنطع والتنطس فلذلك قال(٢) :

« وليس له ان يهذبه جداً وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق الا بلب اللب وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتعرقه وأسقط زوائده حتى عاد خالصاً لا شوب فيه . فانه ان فعل

(١) الحيوان — الجزء الثاني ص٣٧ .

(٢) « « الاول ص ٤٥ .

ذلك لم يفهم عنه الا بان يجددلهم أفهاماً مراراً وتكراراً لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بان يعكس عليها ويؤخذ بها الا ترى ان كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الامصار وبلغاء الاعراب لما فهموا أكثره وفي كلام إقليدس كلام يدور وهو عربي وقد صفي لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ولا يمكن ان يفهمه من يريد تعليمه لانه يحتاج الى ان يكون قد عرف جهة الامر وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام (قال معاوية بن أبي سفيان) رضي الله تعالى عنهما لصحار العبدي : ماالايجاز ؟ قال : ان تجيب فلا تبطيء ، وتقول فلا تخطيء ، قال معاوية : أو كذلك تقول ، قال صحار : أقلني ياامير المؤمنين ، لاتخطيء ولا تبطيء ، فلو ان سائلاً سألك عن الايجاز فقلت لاتخطيء ولا تبطيء وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرف بالبديهة وعند اول وهلة ان قولك لاتخطيء متضمن بالقول وقولك لاتبطيء متضمن بالجواب وهذا حديث كما ترى آثروه ورضوه ولو ان قائلاً قال لبعضنا : ماالايجاز ، لظننت انه يقول الاختصار ، والايجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز وكذلك الإطالة . وانما ينبغي له ان يحذف بقدر مالا يكون سبباً لإغلاقه ولا لترداده وهو يكتفي من الإفهام بشطره فما فضل عن المقدار فهو الخطل . — »

واذا كان الجاحظ يرمي الى التهذيب والتنقيح فمن الطبيعي ان يجعل للألفاظ صفات وخصائص وأن يحمل الكاتب على توخي هذه الصفات وهذه الخصائص ، ماهي طبائع الالفاظ التي يميل اليها الجاحظ ، قال في هذا المعنى[1] :

« وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله فاذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة ومتى حصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة ، وقد قال عامر بن

(١) البيان والتبيين — الجزء الاول ص ٤٧ .

عبد القيس : الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .— »

ومن قوله ايضاً [١] :

« ومتى شاكل أبقاك الله ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا ولذلك القدر لفقا وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع وأجدر ان يمنع جانبه من تناول الطاعنين ويحمي عرضه من اعتراض العيابين ولا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة ومتى كان اللفظ ايضاً كريماً في نفسه متخيراً في جنسه وكان سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد حبب الى النفوس واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشت اليه الأسماع وارتاحت له القلوب وخف على ألسن الرواة وشاع في الآفاق ذكره وعظم في الناس خطاره وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ورياضة للمتعلم الريّض . فان أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة وكان ممن يعم ولا يخص وينصح ولا يغش وكان مشغوفاً بأهل الجماعة شنفاً لاهل الاختلاف والفرقة جمعت له الحظوظ من أقطارها وسيقت اليه القلوب بأزمتها وجُمعت النفوس المختلفة الاهواء على محبته وجبلت على تصويب إرادته ومن أعاره الله من معرفته نصيباً وأفرغ عليه من محبته ذنوباً حنت اليه المعاني وسلس له نظام اللفظ وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح الفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا طبعاً رديئاً ولا قولاً مستكرهاً واكثر مانجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة المتأدبين وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتائج التخير والتفكر . ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً وزمناً طويلا يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه فيجعل عقله ذماماً على رأيه ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوله الله من نعمته .— »

فأكبر همه انتخاب اللفظ النبيه الشريف واجتناب اللفظ الهجين الرديء .

وقبل ان يشرع الكاتب في الكتابة يلزمه ان يتصور المعنى ثم يتصور اللفظ على قدر

(١) البيان والتبيين — الجزء الثاني ص ٣ .

هذا المعنى[١] .

« وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيء المعنى عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر اليه المعنى جراً ويلزقه به الزاقاً حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ومنعه الافصاح عنه الا به ·— »

هذه بوجه التقريب القواعد التي رسمها الجاحظ في صناعة الكلام وإذا أجملناها وجدنا أنها تتعلق بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني وبتنقيح الالفاظ دون شيء من الغلو في هذا التنقيح وبما يؤدي اليه التنقيح من انتخاب الالفاظ وتخيرها فهي من هذا الوجه تشبه في بعض الأحوال القواعد التي يضعها أدباء الافرنجة فاذا قابلنا مثلاً بين ماقاله الجاحظ وبين ماقاله الشاعر الفرنسي «بوالو» في فنه الشعري وجدنا القولين متشابهين في كثير من الوجوه · فاذا تم للأديب هذا كله واجتمعت له أسبابه فليعمل بعد هذا بما قاله الجاحظ له[٢] :

« وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات ان يحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ·— »

فما ينبغي للأدب في نظر الجاحظ ان يكون متعبةً للعقل وانما الأدب في رأيه ضرب من الرياضة وعلى هذه الصورة يشبه مذهب الجاحظ في قدر الأدب مذهب أكابر الادباء في فرنسة وفي جملتهم الاستاذ «لانسون» Lanson الذي يريد ان يكون الادب : رياضة وذوقاً ولذة[٣] ·—

في ٥ آذار سنة ١٩٣٢

شفيق جبري

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الاول ص٢٨ ·

(٢) 〃 〃 〃 〃 〃 ص١٥٥ ·

(٣) راجع كتابي : المتنبيء — ص٤ ·

قصيدة الفراسة



هذه أرجوزة تعد ٢٣٣ بيتاً تضمنت ذكر فضائل الاجناس وماخص كل جنس من جميل الطبع وقبيح الخلق وأثر كل بلدة بأهله — على سبيل الاختصار وهي من النوادر العزيزة الوجود اذ لم أرها في غير مسودة كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب لاحمد بن ابراهيم موفق الدين أبي ذر ابن العجمي المتوفى سنة ٨٨٤ وقد كتب هذه القصيدة بخط يده وعنه نسختها وكان المرحوم العلامة الشيخ طاهر الجزائري رآها عندي في احدى زياراته منزلي وطلب مني أن أسمح له بنقلها فاعتذرت له ولم أجب طلبه حرصاً عليها وأخبرني انه لم يرها مدة حياته سوى مرتين هذه المرة احداهما مع كثرة اطلاعه وولعه بالبحث والتنقيب عن الكتب المخطوطة النادرة .

والذي يغلب على الظن استدلالاً من أسلوبها واستنباطاً من تسميتها البلدان والاقاليم وأجناس الناس بأسمائها المذكورة فيها — أنها مما نظم في القرن الرابع اوالخامس .

وليس الغرض من نشرها بيان نعوت البلدان والسكان التي ذكرت فيها ولا ذكر محاسنهم ومساويهم إنما الغرض من نشرها بيان عقلية ذوي الثقافة في أهل الزمن الذي نظمت فيه فيما حكته عنهم وهي من جهة أخرى قد تعد أثراً تاريخياً قديماً يستحق ان يحرص على حفظه وصونه من الفقدان والضياع .

والذي أعتقده من ذوي الثقافة في هذه الايام انهم لايحفظهم مايرونه في هذه القصيدة من ذكر مساوئ بلادهم اوأجناسهم فان سعة مداركهم ترشدهم الى ان طباع الناس والأقاليم قد استحال الكثير منها الى الضد والنقيض اذ من نظر في مرآة الوجود وبحث في أحوال تلك البلاد وأخلاق أهلها وطبق محاسنها ومساويها على ماورد في هذه الأرجوزة —

تراءى له أن أكثر ماتضمنته قد أحاله الزمان الى عكسه فانقلب البلد العامر خرباً والخرب عامراً وهذا مصداق ماقاله الحكيم : « ليس ترداد حركات الفلك الا احالة الكائنات عن حقائقها » قيل ومنه أخذ المتنبي قوله :

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذبا

ان الكائنات تتأثر بالزمان اكثر من تأثرها بالمكان قال فيلسوف العرب النابغة المعري :

اما المكان فثابت لا ينطوي لكن زمانك ذاهب لا يثبت

وله : يقال ان زماناً يستقيد لهم حتى يبدل من بؤس بنعماء

وله : ان المواهب كلها عارية ومن السفاهة غبطة بعطائها

وله : زمان يخاطب ابناءه جهاراً وقد جهلوا ماعنا

يبدل باليسر اعدامهم وتهدم احداثه ما بنى

ولابي تمام في المعنى :

ارض مصرّدة وأخرى تسجم تلك التي رزقت وأخرى تحرم

واذا تأملت البلاد رأيتها تثري كما تثري الرجال وتعدم

حظ تعاوره البقاع لوقته وادٍ به صفر وواد مفعم

حلب : كامل الغزي

وهذه هي القصيدة :

القصيدة الموعود بذكرها

الحمد لله على الهداية والعلم والتوفيق والدراية

هذي قصيد الحدس والفراسة نافعة لصاحب السياسة

يعرف منها كل مستسر في الناس من ذي صالح وشر

وأي جنس فيهم النجابة والرأي والتجريب والاصابة

وأيهم يرغب في السداد ويقتني للمهن الشداد

وأيهم في طبعه شراسه وأيهم ليس له رياسه

ومن يكون صالحاً للخدمة ومن له عزيمة وهمة
وعلم ما أثرت البلاد في طبعهم وماله استفادوا
فافهم مقالي فهو عين الرشد ان كنت تبغي بغيتي وقصدي

« ذكر العرب »

خير البرايا والأنام العرب كذاك قال العالم المجرب
طابوا فروعاً وزكوا اصولاً لانهم لم يلدوا مجهولا
ونزلوا نجداً وارض نجد سليمة من كل طبع مرد
فسلموا من شره العراق وغلظة الشآم والرستاق
ففيهم العزة والحمية والشيمة الطاهرة الزكية
كراهة الغدر وبذل الجود والطعن بالمثقف الأملود
وفيهم الخداع والعداوة والشر والارهاب والقساوة
وفيهم نجابة الاولاد وعندهم فضائل الأمجاد
رعاية الجار وحق الضيف موجودة فيهم وضرب السيف
وفيهم تراحم وعطف وفيهم عتب وفيهم عنف
أمينهم ليس له مماثل كما الخؤون ماله معادل

« ذكر العجم »

والفارسيون لهم مكارم يعرفها من لهم يلائم
لهم خلال ولهم رياسة وفيهم السداد والكياسة
وعندهم بخل وفيهم كبر وعزة ومنعة وفخر
والرحمات عندهم كثيرة والنغمات فيهم شهيرة
وفيهم نجابة معروفة وهمة وعزمة موصوفة
وعندهم رأي وفيهم علم وصنعة وحكمة وفهم

« ذكر الترك »

والترك فيهم قسوة وعظمة وجرأة ما ان لديها مرحمة

لا يعرفون العفو والوفاء ولا يرون الجود والسخاء
وفيهم النسيان والكفران وفيهم الابطال والشجعان
وفيهم الليوث يوم الحرب وفيهم كل مليح عذب
لهم قدود ولهم خصور والوجنات الحمر والشعور
وفيهم نجابة الأولاد لكن عروا من حكمة السداد

« ذكر الديلم »

والعقل في الديلم والسداد في حسنهم ليس له نفاد
وفيهم شهامة وفضل وعفة ورتبة ونبل
في نسلهم نجابة وقسوة وغلظة في طبعهم وجسوة
وفيهم جبرية وظلم وفيهم قساوة وغشم
وعندهم شطر من الآداب ومن رجوع العقل للصواب

« ذكر الأكراد »

والشر كل الشر في الاكراد لبعدهم عن منهج السداد
وفيهم للحرب والقتال جلادة والطعن بالعوالي
لكن جميل الخلق والصباحة ليست لهم كلا ولا السماحة
ونسلهم يصلح للجلاد وللامور الصعبة الشداد

« ذكر الروم »

والروم فيهم أدب وظرف وغلمة ونغمة ولطف
وفيهم العقول والألباب وفيهم الآراء والصواب
وفيهم فوارس الشجاعة والعلم والحكمة والصناعة
وفيهم اللذة والتمتع لكنهم مافيهم تصنع
وفيهم البخل وذل النفس وفيهم الفهم وصدق الحدس
لكل شيء يصلح الغلام منهم وهذا الشرف التمام

« ذكر الارمن »

وليس في الأرمن خير فاعلم ان كنت يا صاح اخا تفهم

للشغل الشاق من الاعمال براهم ذو العز والجلال
وفيهم ضرب من الجمال لكنه يندر في الرجال
وفيهم قذارة وخسة وذل نفس ليس فيه لبسة

« ذكر الفرنج »

كذلك الفرنج شر الأمم في غلظ الطبع وخبث الشيم
أبخل من براه رب الناس من سائر الضروب والاجناس
لكنهم ابطال يوم الحرب واعمل الخلق بحد القضب
وعندهم سياسة قليلة وحكمة لكنها ضئيلة
وفيهم رشاقة القدود وحمرة الوجنات والخدود

« ذكر اللان »

واللان جنس خلقوا للخدمة وللمعاناة وحفظ الحرمة
فان تردهم للنكاح والولد فانت في ذاك على غير الرشد

« ذكر الهند »

والهند فيهم عفة وفسق وقسوة وباطل وحق
لهم شعور ولهم قدود وهم اهيل وهم عبيد
ان استرقوا يصلحوا للرق وللطرفات[1] وللاشق
وللنتاج ثم للاولاد وللخصومات وللجلاد

« ذكر السند »

ألأمُ جنس الناس جنس السند فلا ترد منهم سلوك القصد
لهم خصور ولهم شعور لكنما أذاهم كثير
براهم الله الشديد الحول فاتبع سبيلي واستمع لقولي

« ذكر البربر »

أنجب أجناس الرقيق البربر لاسيما الجنس اللطيف الاصفر
للوطيء والأولاد والبيوت يختزن لا للكد والتعنيت

(١) نسخة : وللضرورات .

نعم وفيهم للغناء طبع وللعلوم الرائقات جمع
والكيس والظرف لهم شعار فاختزمُ بجنسهم مختار
وفيهم سوء وخبث دخله وعندهم بخل وفيهم خله

« ذكر الزَّرَنج »

ان الزرنج في العبيد وسط وأمرهم أمر به تخلط
يصلحن للنكاح لا للولد ثمت للخدمة والتودد
ما فيهم عقل ولا رياسة كلا ولا عندهم سياسة

« ذكر أجناس السودان »

وفي الزنوج غلظ الطباع وفيهم ميل الى البقاع
ما فيهم لناكحيهم منية ولا لقانيهم غداً من بغية
الا لاهل الريف والرستاق وكل ذي أمر شديد شاق
براهم لذاك رب الناس فلا تكن عليهم بالآسي

« ذكر صقع سرنديب »

من في سرنديب يكون مولده يطيب منه عيشه ويحمده
ولا يزال ضاحكاً مستبشرا كأنما يشرب صرفاً مسكرا

« ذكر خراسان »

من في خراسان يكون شبها قاسي الفؤاد لا يراعي رحما
له رواء حسن ومبسم لكنه عن خيره مجمجم

« ذكر نيسابور »

كذاك نيسابور فيها عجب وليدها فيه البذا والعجب[1]
لا يعرف الفضل لرب الفضل لما عليه قد يرى من جهل
وفيهم شراسة وخفة وغلظة ومسكة وكلفة

« ذكر اصفهان »

وجيءُ فيها شرة وخيرة لكنها شهرتها الشهيرة

---

(١) كذا ولعله الصخب .

ليس لمن في ارض اصبهان خليقة غير اذى الجيران
لهم رواء ولهم جمال وفيهم الحيلة والادلال
وفيهم تعصب في الطبع لغير دين ولغير شرع

« ذكر الري »

والري فيها الكيس والظرافة لكنها في طبعها كثافة
لهم عقول ولهم آداب لكنما آراؤهم تصاب
وفيهم شجاعة وقوة وعندهم في طبعهم عتوة
وليدها يركب كل صعب ولا يخاف نازلات الخطب

« ذكر مرو »

ومرو في تربتها السلامة وفي بنيها النقص والفدامة
ليس بها فضل ولا وسامة ولا لها في اهلها كرامة

« ذكر طوس »

تولد الجهل مع المولود وتسلب الرشد من الرشيد
وليدها يعرف في الاقطار بانه من جملة الابقار
وفيهم شراسة وحدة وعندهم لآمة وشدة
والحسن في غلمانهم معروف لكنهم ليس بهم ظريف

« ذكر هراة »

وفي هراة كل امر معجب من العلى والدين والتأدب
وكل فضل من دقيق العلم في اهلها وكل أمر فخم
وفيهم بسالة وقوة لكنهم ليس لهم مروة
وفي أناثيهم جمال ظاهر يعرفه المقيم والمسافر
وفيهم بغض لاهل الحق فيا لهذا من لئيم الخلق

« ذكر همذان »

وان ترد في همذان خيرا عز ولو انك كنت طيرا

مدينة في طبعهـا فظاظة وفي بنيها الشر والغلاظة
الجهل فيهم شائع مشهور والعقل بهم خامل محقور
وفيهم دناءة ولوم وترف شيطانه رجيم
قدسلبوا الغيرة والسدادا والفوا الخصام والعنادا
وفيهم تعاشر في الذنب فيا لهذا من قبيح الادب
وفيهم محاسن وظرف لكنها ليس عليها عطف

« ذكر الاهواز »

وعند اهل الخوز والأهواز جماع كل الشر والمخازي
وفيهم على دني الانفس بأس ولكن ليس عن تفرس
وفيهم من الجمال والمقه خليقة لكنهـا مستخلقه
وفيهم لباقة وشكل لكنها عم عليها الجهل
وقد سبى النساء للرجال في الحسن والعفة والاشكال

« ذكر مازندران »

مازندران في بنيها ظرف وعندهم رياسة ولطف
لكنهم في خلقهم شراسة وحدة أزرت على الرياسة
وفيهم تكرم وجود بعتاده الاحرار والعبيد

« ذكر البصرة »

وعند اهل البصرة الرداءة واللوم قد ضما الى الدناءة
في تربة الارض وفي الهواء جبلة للفهم والذكاء
وفيهم شر وفيهم لوم شعاره عليهم معلوم
وفيهم سماحة الاخلاق قد جبلت بالرقع والشقاق
وفيهم نتائج النفاق وكلما يجمع في الفساق

« ذكر الكوفة »

والكوفة الحمراء في هوائها عجائب وتربها ومائهـا
الغدر في ترابهـا مجبول والخير عن مياهها مشغول

وما لهم عهد ولا وفاء لكن عليهم غلب المراء
بالمبدعات عنهم سار المثل وطبق الارض سهولاً وجبل
وعندهم غوص على العلوم منثورها والحكم المنظوم
وفيهم حسن الطلا معروف يعرف ذاك الفهم الظريف

« ذكر بغداد »

وعند بغداد اعتدال تام في ارضها ليس له اكتتام
مولودها افهم كل ناطق بالعلم والآداب والخلائق
وعندهم كيس وفضل شامل لكنه يشوبه مخائل
وفيهم عجب وتيه وصلف ودين كل ما حووه من لطف
وعندهم سوء وفسق زائد وفطنة لكنها مكائد
وعندهم من المراء والرما (١) ماليس يحصيه سوى رب السما
قد جبلوا على السرور والطرب والسعي بين الناس بالامر العجب
ليس لهم عهد ولا ميثاق خص بهذا الخلق العراق

« ذكر بابل »

وبابل شر البلاد والقرى تكسب طبع اهلها شر الأرا
فيهم خلاف وبهم شقاق وعندهم في دينهم نفاق
وفيهم دين ونسك شامل وفيهم الخداع والتحايل

« ذكر الموصل »

والموصل الحدباء خير منزل قليلة الاسواء والتملل
لهم خواص في الغناء والطرب وكلما يكون من شرط اللعب
وعندهم سماحة وجود لكنها يفسدها التنكيد
لاهلها تيه وعجب زائد اكثره لفضلهم معاند
والدين في عرصتهم غريب والظلم والبغي لهم حبيب

(١) الرما لغة في الرياء ٠

« ذكر الجزيرة »

واسمع حديث صفة الجزيرة وماسرى عن اهلها من سيرة
ترابها وماؤها المنساب ليس به علم ولا آداب
لكنه أشيب بالجهالة والحمق المعجون بالرذالة
ما فيهم عقل ولا صباحة وجلهم صنعتـه الفلاحة

« ذكر نصيبين »

صاب نصيبين عذاب الحمى وخص فيهم ضرها وعما
فما ترى في ربعها صحيحا ولا فتى مهذبًا مليحـا
دأبهم الخصام والمهاترة والشر والتكذيب والمكابرة

« ذكر سنجار »

وارض سنجـار فشر ارض لطالب العلم وباغي العرض
أخلاقهم سيئة ردية وكلهم في قبحهم سوية
لا يعرفون الجود والتكرما ولا الملذات ولا التنعما
قد شغلوا بتعب الأشغال عن العلى وكرم الخلال

« ذكر حران »

واهل حران فشر الناس في الوصف والتقدير والقياس
البخل فيهم أظهر الاوصاف بلا مماراة ولا خلاف
وفيهم من غلظ الاخلاق ما جل عن حكاية الحذاق
تقاصروا عن شرف الفضائل وانهمكوا في أرذل الرذائل

« ذكر الرها وماردين وآمد »

وفي الرها وآمد عجائب وماردين عندهم غرائب
كل اهاليها لئام بكم عن العلى والمكرمات صم
ليس لهم في الدين والعلوم حظ ولا في الشرف القديم
فيهم جفـاء وشرور ونزق وعندهم في الود والحب مذق
وكل مولود من الغلمان في ارضهم يعيش كالحيران

ومن تربى فيهم صغيرا　　لم يك في رياسة كبيرا

«ذكر الرافقة»

لا سيما ان حل ارض الرافقه　　وحل في تربتهـا علائقه
وكان من ماء البليخ مشربه　　ومن ثراها اكله ومكسبه
فابك على ذكائه وفطنته　　وكيسه وعلمه وحكمته
كذا حكى الرواة عن هارون　　في وصفها ثم عن المأمون

«ذكر الشام»

والشام عين الارض والبلاد　　وخير دار وأجل ناد
يكسب من يحله جلادة　　وعزمة يعضدها نجـادة
وفيهم ميل الى الولاة　　ومن له شأن من الكفاة
وفيهم قنـاعة وصبر　　لا سيما ان حل يوماً أمر
لكنها الحدة فيهم عادة　　وغفلة نتاجهـا بلادة

«ذكر منبج»

فمنبج طيبـة البراري　　لاهلهـا رغيدة القرار
لكنها مفسدة للرائي　　مبيرة للفهم والذكاء
فيها جمال ولها بهاء　　وفي بنيها منطق هراء
طالعها ليس له سيادة　　ونجمها ما عنده افادة
وفي بنيها قوة وشدة　　لكنها ليس عليها عمدة

«ذكر حلب»

وحلب خزانة الذكاء　　وموطن العفة والحياء
طالعهـا للغرباء سعد　　وهي لمن فيها شقا وكد
لكنها تعطي دقيق العلم　　لأهلها من بعد لطف الفهم
لكنها نتيجة التلاحي　　وموطن المراء والكفاح
والعصبيات لديهم وافرة　　وعلقة الحذق عليهم ظاهرة

«ذكر حماة»

وفي حماة حمق وخفة وفيهم للمكرمات كلفة
لكنهم فيهم ذكاء ظاهر يعرفه من لم يعاشر
وفيهم غلاظة الطباع معروفة في سائر الاصقاع

«ذكر شيزر والمعرة»

في شيزر واختها المعرة خلائق الجهل وطبع الشرة
فشيزر جهل بلا مضرة والفهم والضر لدى المعرة

«ذكر حمص»

وعند حمص كل أمر معجب من نجدة وفطنة وأدب
لكنها منزلة الرقاعة وموطن الخفة والفراغة
وفيهم الحدة والبسالة وفيهم القوة والجهالة

«ذكر دمشق»

وفي دمشق منظر أنيق يعرفه العدو والصديق
وفي بنيها منظر عجيب وخلق نتاجه غريب
لهم رواء حسن وبر لكنه عن باطن يغر
وفيهم شكاسة الاخلاق وغلظة تنبو عن الشقاق
ودادهم اما شهدت وافي فان تغب فالود منهم خاف
وفيهم نجابة وباس لكنها ليس لها ايناس
وفيهم غلاظة وحدة وفيهم على الغريب شدة

«ذكر فلسطين»

وفي فلسطين وارض الأردن والشام الاعلى كل طبع حسن
هواؤه وماؤه والترب لأهله فيه معان عجب
تكسب من حل به او نزلا نجابة تدرأ عنه العللا
تنتج حب الدين والعبادة لأهله والصبر والزهادة

لكنه يغلظ الاكبادا ويعظم الفطنة والسدادا
وفيه إمساك وبخل زائد وفطنة لكنها مكايد

ذكر مصر »

وعند مصر كل أمر معجب تحار فيه فكرة المهذب
طالعها باللعب والمزاح وخفة الأنفس والأرواح
وقلة الغيرة والوفاء والحب للآراء والاهواء
لكنها قرارة الفراعنة وخطة الأراذل الصفاعنة
وفيهم رياسة وهمة وشبق عند النسا وغلمة
والعشق فيهم والبذاء فاشي ليس لهم عن فحجه تحاشي
وفيهم علم وفهم وأدب وهمة الى العلاء والرتب

« ذكر المغرب »

وعند أهل المغرب الجفاء وقوة ليس بها مراء
وفيهم بخل شديد وقحة عندالجدال المرا مستقبحة
وفيهم شجاعة عند اللقا خليقة ليست لهم تخلقا
وعندهم علم وفهم وافر وهمة تعرفها العشائر
والعصبيات لديهم جمه لكنهم آراؤهم ملتمه

« ذكر الحجاز »

في الحجاز العلم والذكاء واللطف والنجدة والعزاء
وفيهم دماثة الأخلاق والبأس يوم الخلف والشقاق
وفيهم الغصب وسلب المال والسوء والمكر على الرجال
لهم وداد ولهم جمال وفيهم الاعطاء والافضال
وفيهم ميل الى اللذات والعشق والغناء والفرحات

« ذكر اليمن »

وعند اهل اليمن القباحة موجودة وقلة الرجاحة

وقلة العقل لديهم فاشية لكنما طباعهم مواتية
وعنـدهم فصاحة ، علم وعزمة صادقة ، فهم
وفيهم السخاء والتكرم ، فيهم غدر ، شـر يعلم

* * *

فهذه نتائج البلاد و كنه ما يختص بالعباد
نقلتها عن كل طب ندس رحب العلوم صادق التفرس
ظاهرة الدليل ، البرهان واضحة المنار والتبيان
تنفع من يرغب في السياسة ويمتطي غوارب الرياسة
ويعتني بخبرة الانام من الأجلا ومن العوام
وقد أتت من حسن التهذيب تلقح رأي الفطن اللبيب

الاسماء العربية للثمار النباتية

—(()))—

نشر العالم المحقق الدكتور امين باشا المعلوف في هذه المجلة بحثاً مستفيضاً في اصطلاحات النبات[1] بدأه بالبزرة وأنهاه بالزهرة وترك الثمرة وأشكالها دون ان يتعرض لها. ولاشك ان الألفاظ التي استقر عليها الدكتور المشار اليه سواء أكانت من وضعه أم من وضع الذين تناولوا هذا البحث من قبله هي على ما رأيت أصلح ما يجب على المؤلفين اقتباسه لكتب علم النبات وكتب الزراعة وما اليها.

ولما كانت معرفة الاسماء العربية لمختلف الثمار تهم جميع الذين يتدارسون العلوم النباتية والزراعية جئت بهذه المقالة لحقاً لبحث أمين باشا الذي له فضل السبق في هذا المضمار.

ولا يظن احد انني وضعت لأشكال الثمار أسماء لم يسبقني اليها العلماء من قبل. فالحقيقة ان عملي في هذا البحث يقتصر على تمحيص الألفاظ التي وضعها السابقون واختيار ما أراه منها أصلح من غيره. وربما لم يزد ما هو من وضعي (والأصح ما أنبه اليه قبل غيري) على لفظة واحدة أو لفظتين.

والكتب التي راجعت فيها الاسماء الموضوعة لأشكال الثمار هي الآتية :

أولاً كتاب الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع تأليف انطون فيجري بك طبع سنة ١٢٥٧ هـ في مصر.

ثانياً كتاب مبادئ علم النبات تأليف جورج بوست طبع سنة ١٨٧١ في بيروت.

ثالثاً كتاب علم النبات الزراعي تأليف جون برسيفال، نقل الى العربية في وزارة الزراعة المصرية وطبع سنة ١٩٢٠ م.

---

(١) أنظر م ٧ ص ٢٨٩ و م ٨ ص ٣٢١ و ٤٦٥ من مجلة المجمع العلمي العربي.

رابعاً معجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد بك شرف ٠

خامساً أهم كتب النبات المدرسية التركية ككتاب الدكتور اسعد شرف الدين ٠ طبع في القسطنطينية سنة ١٩١٢ وكتاب حسين رمزي بك ، طبع سنة ١٣٢٠ مالية في القسطنطينية وكتاب الدكتور شرف الدين مغمومي ، طبع سنة ١٩٠٩ في مصر ٠ وغيرها وهي أربعة كتب أخرى ٠

سادساً مفردات ابن البيطار ومعاجم اللغة الأصلية ٠

***

لايخفى على الذين لهم إلمام بمبادئ علم النبات ان الثمار تقسم ثلاثة أقسام أساسية وهي البسيطة والمركبة والمؤتلفة (أوالمدغمة أوالمشتركة) ٠ وان الاولى اي البسيطة على ثلاثة أشكال : جافة ولحية ومابينهما ٠ وان الشكل الاول اي الثمار الجافة منها التي لاتنفتح عندما تنضج ومنها التي تنفتح ٠

فمن الثمار الجافة التي لاتنفتح ثمرة يسمونها بالفرنسية (Achaine) تكون بزرتها منفصلة عن الغلاف الثمري وقد سماها جميع المؤلفين المار ذكرهم « فقيرة » الا الدكتور محمد بك شرف فانه عرب اللفظة الأعجمية فقال اخينيوم واخين : وأرى انه يلزم الاحتفاظ بلفظة الثمرة الفقيرة التي شاعت منذ نحو قرن الى يومنا هذا ٠

ومنها ثمرة تدعى بالفرنسية (Caryopse) تكون بزرتها وغلافها الثمري متلاحمين كحب الحنطة والشعير والذرة وأشباهها ٠ وقد سماها فيجري بك «الثمرة اليابسة» ٠ وسماها بوست وشرف «الحبة» ووردت في كتاب علم النبات الزراعي بلفظة « البرة » أما الاتراك فانهم أطلقوا عليها لفظ « الثمرة القلوية » و « الثمرة المحوزة » وأرى ان « البرة والحبة » هما أصلح لفظ لهذا الشكل من الثمار ٠

ومنها ثمرة تدعى (Samare) لها زائدة كالجناح منهم من عرب اسمها الاعجمي فقال «سمارة» ومنهم من سماها ثمرة مجنحة وثمر جناحي ٠ اما بوست فدعاها بالمفتاح ٠ وأظن ان لفظ « الثمرة الجناحية » أرجح ماتسمى به ٠

ومن الثمار الجافة التي تنفتح ثمرة تدعى (Capsule) لم أجد لها اسماً في معجم شرف ولا في كتاب بوست ٠ وجاءت في كتاب فيجري باسم «الثمار الجونية» وكذا في كتب الاتراك

الا واحداً منهم سماها « العلبة » كما سماها مترجموا كتاب علم النبات الزراعي . وعندي ان أصلح لفظة لهـذه الثمرة هي الجرو ج. جراء . فقد ورد في اللسان ان الجرو « وعاء بزر الكعابير وفي المحكم بزر الكعابير التي في رؤوس العيدان » . وجاء في المخصص « ... وكأن سنابله جراء الخشخاش ... » . قلت وثمرة الخشخاش هي كبسول نباتياً .

اما لفظة العلبة فيرجح استعمالها لثمرة أخرى جافة ينفتح نصفها الأعلى كما يُفتح غطاء العلب ويسمونها بالفرنسية (Pyxide) . وسميت في معجم شرف وفي كتاب علم النبات الزراعي « الثمر الحقي » ودعاها الأتراك باسم « الثمر الصوني ؟ » اما بوست فأطلق عليها لفظة العلبة وهو أرجح اسم لها على ما أرى .

ومن الثمار الجافة التي تتفتح تلك التي تدعى (Follicule) وهي ذات غلاف ثمري واحد يتصدع على امتداد تدريز واحد ايضاً . وقد سماها جميع من ذكرنا من المؤلفين « ثمرة جرابية » الا مترجمي كتاب جون برسيفال فقد أسموها « الحوصلاء » واللفظة الاولى أرجح لانها متفق عليها .

ومنها ثمار نباتات الفصيلة القرنية كالفول والفاصولياء وأشباههما وتسمى بالفرنسية (Gousse) وغلافها الثمري يتفتح على امتداد تدريزين . وقد سماها المؤلفون ثماراً قرنية وثماراً بقلية ونسب الدكتور شرف الى الجمع فقال « ثمر بقولي » . وأصلح لفظة لها هي السِنفة والحُبْلة . فلفظة السنفة استعملها ابن سيده وابن البيطار لهذه الثمار . وورد في اللسان « يقال لأكمة الباقلاء واللوبياء والعدس وما أشبهها سنوف واحدها سنف » . ومن البديهي ان الكم في هذه الجملة هو الغلاف الثمري بعينه اي ما يدعى بالفرنسية (Carpelle) والسنفة تطلق على ذلك الغلاف وعلى البزور التي هي ضمنه اي على الثمرة كلها .

وجاء في اللسان « الحُبلة ثمر السَّلَم والسيّال والسَّمُر وهي هنة معقّفة فيها حب صُغار أسود كأنه العدس . وقيل الحبلة ثمر عامة العضاه وقيل هو وعاء حب السلم والسمر واما جميع العضاه بعدُ فان لها مكان الحبلة السنفة » .

ومنها الثمار المسماة (Silique) كثمار الخردل واللفت والملفوف والمنثور وقد وردت في كتاب فيجري و كتب الاتراك باسم « الثمار الخرنوبية » وسماها بوست « الجيبة ؟ » وجاءت في كتاب جون برسيفال بلفظة « الثمر الخردلي » اما الدكتور شرف فقال « ثمر

خردلي ، ثمر بقولي ، حبلة » قلت وأصلح الجميع « ثمر خردلي » اما ألفاظ « ثمر بقولي وحبلة » فغلط .

هذا في الشكل الاول من الثمار البسيطة وهي الثمار الجافة اما الشكل الثاني اي الثمار اللحمية فهي ايضاً تحتوي على أصناف عديدة نكتفي بذكر أصلح الألفاظ العربية لها دون الخوض في بحث تفريق بعضها عن بعض نباتياً لان ذلك من متناول كتب النبات .

فمن الثمار اللحمية التي يكون فيها الغلاف الثمري الداخلي ملتحماً بالغلاف الأوسط ثمرة تدعى (Baie) كالعنبة وقد سماها الأتراك وبوست وشرف « الثمار العنبية » ووردت في كتاب فيجري و كتاب برسيفال باسم «الثمار اللبية» ولعل الاولى أصلح . ومما يدخل في هذا الباب الثمار التي تدعى (Péponides) وهي الثمار البطيخية كثمار البطيخ والخيار والقرع وأشباهها .

ومن الثمار اللحمية التي يكون فيها الغلاف الثمري الداخلي منفصلاً عن أجزاء الثمرة السائرة تلك التي تدعى (Hespérides) وهي الثمار البرتقالية والأتراك يسمونها الثمار النارنجية .

ومنها الثمار التفاحية (Mélonides) وقد أجمع كلهم على تسميتها بهذا الاسم .

ومنها التي تدعى (Drupe) كثمرة المشمش واللوز والخوخ فقد سماها الترك « عُتمة» وهي في اللغة شجرة الزيتون البري . ولست أرى لهذه اللفظة مبرراً في هذا المقام . وكذا لفظة فَصاة التي جاءت في معجم الدكتور شرف لان الفصى في كتب اللغة حب الزبيب واحدته فصاة . ولعل أصلح لفظة تلك التي استعملها بوست وشرف وهي « ثمرة نووية » .

والشكل الثالث من الثمار البسيطة هي التي بين الجافة والطرية كالثمار الرمانية (Grenade)

اما القسم الثاني من الثمار اي الثمار المركبة فان منها الثمرة التوتية (Sorose) والثمرة التينية (Sycone) والثمرة الصنوبرية (Cône) وهي كلها لاخلاف فيها .

واما القسم الثالث من الثمار اي الثمار المؤتلفة فكثمر العليق (Fruit des Rubus) الذي يسميه الأتراك « ثمر نواتى » خطأ وكاجتماع فقيرات في ثمار بعض الانواع النباتية .

وبعد يلخص بحثنا هذا على الشكل الآتي :

أصلح الالفاظ العربية	« اللفظة الفرنسية »
الثمرة الفقيرة	Achaine
البرة ، الحبة ، الثمرة الحبية	Caryopse
الثمرة الجناحية	Samare
الجرو	Capsule
العلبة	Pyxide
الثمرة الجرابية	Follicule
السنفة ، الحبلة	Gousse
الثمرة الخردلية	Silique
« العنبية	Baie
« البطيخية	Péponide
« البرتقالية	Hespéride
« التفاحية	Mélonide
« النووية	Drupe
« الرمانية	Grenade
« التوتية	Sorose
« التينية	Sycone
« الصنوبرية	Cône
« العليقية	Fruit des Rubus

مصطفى الشهابي

آراء وافكار

—(1)—

الخط العربي

[النقط . الشكل — الحركات . علامات الفصل الخ]

للعلاَّمة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري مصنَّف نفيس اسمه « توجيه النظر الى اصول الأثر » عثرنا فيه على بحث ممتع في الخط العربي وعلائم الفصل والوقف والحركات المشوبة بغيرها وغير ذلك مما يستدعيه إصلاح الخط حسبما يتمناه أفاضل هـذا العصر . البحث طويل يستغرق نحو عشرين صفحة وقد لخصنا منه بعض ما له علاقة بالموضوع مباشرة قال :

علم قوانين الكتاب أو الخط معروف : وهنـاك علم يسمى علم قوانين القراءة وهو علم تعرف منه العلامات المميزة بين الحروف المشتركة في الصور والعلامات الدالة على الادغام والمد والقصر والفصل والوصل والمقاطع الخ . وهذا العلم وعلم قوانين الخط متلازمان لغاية واحدة وهي معرفة دلالة الخط على اللفظ . وقد ذكر بعضهم ان شدة الاحتياج الى هذين الفنين وفرط عناية النفوس الانسانية بمعرفتهما وتعلمها أغنت عن التصنيف فيهما .

وقال بعضهم الخط علامة فكلما كان أبين كان أحسن . وأهل العلم وان لم يستقبحوا إغفال الشكل في المكاتبـات فانهم يعدون ذلك في كتب العلم مستقبحًا . وكثيراً مادعا حسن الخط الى المطالعة في كتاب لا يميل المطالع اليه . ومن ثمة جودة الخط مراعاة المناسبة بين الحروف بعضها مع بعض وبين الكلمات كذلك . ومن ثمة ذلك مراعاة الفواصل وحسن التدبر في فصل الكلمات . وللخط استمداد من الهندسة ولذلك قال بعض الحكماء الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية . والخط العربي يمكن فيه من السرعة مالا يمكن في غيره ويحتمل من تكبير الحروف وتصغيرها مالا يحتمل غيره ويقبل من التنوع مالا يقبله غيره . والمشهور من أنواعه : (المونق) (الثلث) (النسخ) (التوقيع) (الريحان) (المحقق) (الرقاع) .

ولكل منها شيء يختص به : (فالمحقق) و (الريحان) يختص بالمصاحف والأدعيـة . و (النسخ) بالتفسير والحديث ونحوهما . و (الثلث) بالتعليم . و (التوقيع) بالتواقيع الكبار التي للامراء والقضاة والاكابر . و (الرقاع) بالتواقيع الصغار والمراسلات . و (المؤنق) بكتابة الشعر . والخط الدقيق لا ينتفع به احد بل ربما ضعف نظر صاحبه فلا يعود ينتفع به هو ايضاً . وقال ابو حكيمة كنا نكتب المصاحف بالكوفة فيمر بنا علي بن ابي طالب فيقوم علينـا فيقول أجل قلمك قال فقططت منه ثم كتبت فقال : هكذا : نوّروا ما نوّر الله عز وجل . وقد يكون في تدقيق خط الكتب فائدة كأن يكون صاحبها رحالاً يحمل كتبه معه . قال محمد بن المسيب الارغياني : كنت أمشي في مصر وفي كمي مئة جزء في كل جزء الف حديث . وقيل لابي بكر عبدالله الفارسي وكان يكتب خطاً دقيقاً لم تفعل هذا ؟ فقال : « لقلة الورَق والورِق . وخفة الحمل على العُنق » .

وقد اختلفت خطوط الامم من حيث الحركات واتصالها بالحروف وعدمه فكان الخط العربي والعبراني والسرياني مما توضع حركته فوق الحرف أو تحته وبذلك تيسر لهم ان يجروا على مقتضى الحال من الشكل عند الاشكال وتركه عند عدمه أو عند شدة الاستعجال .

وللخط العربي مزايا منها وضع علائم الوقف بحيث يُقرأ فيها بدون توقف . وعابه بعضهم بان فيه من الاشتباه ما لا يوجد في غيره من الخطوط لكن الشكوى تزول اذا التزم فيه الشكل وعلائم الوقف ونحوه .

والعربية أخت السريانية وحروفها أخوات حروفها . واتفق ان وجد في العربية حروف ستة زائدة : هي حروف (ثخذضظغ) فلم يخترعوا لها صوراً جديدة بل صوراً مناسبة لأخواتها القديمات فصارت الثاء مع التـاء والخاء مع الحاء والذال مع الدال والضاد مع الصاد والظاء مع الطاء والغين مع العين على صورة واحدة .

وقد اخترعوا النقط للحروف فزال ما كان يقع من الاشكال بين المتشابهات منها : كالحاء والخاء والدال والذال والسين والشين الخ فصاروا لا يكتبون الا بالنقط سوى بعض الكتب القديمة فانها كُتبت بدون نقط جرياً على الطريقـة القديمة ثم روعي النقط تماماً الا التواقيع فانهم اعتادوا كتابتها بدون نقط كما في الشهادات والصكوك وهـذا أيضاً مما لا ينبغي ان يقع .

وكانت الحروف العربية قديماً من دون شكل كسائر الخطوط السامية ثم اخترعوا الحركات تحتها أو فوقها لا في صفها كالخطوط السامية الاخرى . وجعلوا للمد علامة أو حرفاً خاصاً داخلاً مع الحروف الممدودة في الصف مما لا يوجد نظيره في الخطوط الأخرى . والحركات ست : حركة محضة : ضمة فتحة كسرة . وحركة مشوبة وهي التي تكون بين حركتين غير خالصة الى احداهما كالحركة التي بين الفتحة والكسرة وهي الالف الممالة الى كسرة — وكالحركة التي بين الفتحة والضمة وهي الالف الممالة الى ضمة — وكالحركة التي بين الكسرة والضمة وهي الياء الممالة الى ضمة أو الضمة الممالة الى ياء .

ويتولد منهـا حركات أخرى لكن هذه الست هي الاصول . وقد رأى كثيرون من فضلاء العرب اليوم وجوب إحداث علامات تدل على الحركات المشوبة ليكون الخط العربي وافياً بالغرض فيما اذا كتبنا كلمات أجنبية فيها شيء من تلك الحركات الفرعية والا وقع تحريف في تلك الكلمات يؤدي أحياناً كثيرة الى تغيير المعنى ولو دعا داع الى هذا في عهد الخليل ابن احمد لبادر هو أو أحد تلاميذه الى تلبية الداعي .

وقد يقال لماذا لم يضع الأسلاف علامات لهذه الحركات المشوبة وأجاب بعضهم بان السبب هو كون تلك (الحركات المشوبة) ليست في لغة قريش التي هي المقصود الاول وعليها عند اختلاف اللغات المعول . ويضم الى هذا ما كان لهم من شدة العنـاية بالرواية والتلقي من الأفواه فلم تبق ثمة حاجة الى إحداث علامات للحركات الفرعيـة . على ان من بحث وتتبع وجد أنهم وضعوا علامات للحركات المشوبة ايضاً وقد ذكرها سيبويه في كتابه كما ذكرت في كتاب (المحكم في نقط المصاحف وكيفية ضبطها) لابي عمرو الداني فاستحسن بعضهم جعل علامة الفتحة الممالة الى الكسرة — الفتحة الاصلية نفسها لكنها مقلوبة بحيث يكون طرفها متجهاً الى جهة اليمين هكذا (ـ) وقد جعل بعضهم هذه العلامة مشتركة بين الإمالة الصغرى والإمالة الكبرى الا انه فرق بينهما فجعل في الإمالة الكبرى تحت الحرف . وربما زاد بعضهم على ذلك فوضع فوق الألف نقطتين هكذا (آ) وجعلها في الإمالة الصغرى فوق الحرف وقد التزم هؤلاء ان يكتبوا ذلك بالمداد الأحمر .

وأما الفرس ونحوهم فان الأولى لهم أن يضعوا علامة الإمالة تحت الحرف وذلك

لأمرين : أحدهما ان الإمالة ليست من الامور الطارئة في لغتهم ولذا كتبوا حرف المد الذي بعدها بصورة الياء : الثاني أنهم وان عدوا من كسر نحو شير وشبر مما أمالوه — لاحناً فانهم يعدون من فتحه أشد لحناً . والظاهر أنه ينبغي لمن أراد أن يكتب نحو قس وزن وكل بالإمالة كما ينطق به العامة وهو في الاصل مكسور — أن يجعل علامة الامالة تحت الحرف رعاية لما ذكر . وقد التزم بعض الكتاب ان يجعل الفتحة اذا تلاها مدٌّ قائمةً وبعضهم لم يلتزم ذلك الا في بعض المواضع نحو يرقى ويروي ويهوى والمرتقى والمنتقى ونحو راس وياس واستاذن اذا خففت فيه الهمزة بخلاف مثل كاتب وكتابة حتى ان بعضهم يرى عدم لزوم الفتحة فيه مطلقاً لدلالة الالف عليها وخصها بعضهم بالمواضع التي حذف فيها حرف المد نحو هٰذا وهٰؤلاء وهٰهنا والإٰله والرحمٰن والسمٰوات ولٰكن ونحو ذلك . وكما التزم بعضهم أن يجعل الفتحة اذا تلاها مدٌّ قائمةً — التزم بعضهم ذلك في الكسرة فجعلها قائمةً اذا تلاها مدٌّ سواءٌ أكان ذلك في موضع لا يخشى فيه الاشتباه نحو كريم وحليم وكبير وجليل أو كان في موضع يخشى فيه الاشتباه نحو (أدني وأقصي وأعطي وأولي وأبدي وأخفي) فانها أفعال مضارعة للمتكلم وهي اذا فتحت ياؤها صارت أفعالاً ماضية للغائب الا ان الداعي هنا أضعف من الداعي فيما قبله والأولى للكاتب أن لا يلتزم شيئاً لا يلزم خشية أن لا يقوم بحقه . هذا وقد يظن ان الفتحة والكسرة قد وضعتا من أول الأمر على صورة واحدة غير أنه فرق بينهما بجعل الفتحة من فوق والكسرة من تحت وليس الامر كذلك فان الخليل لما وضع العلائم جعل علامة الضمة واواً صغيرة توضع فوق الحرف — وعلامة الفتحة الفاً صغيرة فوق الحرف الا أنه جعلها مضجعة وعلامة الكسرة ياءً توضع تحت الحرف واختار لذلك الياء المردودة وهي التي يرجع بها الى الجهة اليمنى هكذا (ـــے) الا انها تغيرت فيما بعد حتى صارت كالفتحة . وقد اختار بعض العجم وضعها فوق الحرف علامة على الامالة الا أنه اختصر فيها حتى صارت هكذا (ـــے) ومناسبة الياء للامالة لا يخفى ولو وضعت تحت الحرف لم يكن في ذلك بأس لتميزها بصورتها ويمكن التصرف فيها على أوجه شتى مختلفة الوضع هكذا (<> < > ><)
وينبغي لمن أراد ذلك اختيار أسهلها عليه . وأما الضمة المشوبة بالفتحة فالأولى أن تجعل علامتها نفس الضمة المشهورة بدون زيادة شيء عليها الا أنها تجعل مقلوبة بان يكون طرفها متجهاً الى الاعلى

هكذا (ـُ) وذلك مثل (الصلوٰة والزكوٰة والحيوٰة) في العربية عند من يكتبها بالواو
ويجعل حركة ماقبلها ضمة مشوبة بالفتحة مثل زور وآشوب في الفارسية وينبغي تسمية هذه
الحركة بالضمة المشوبة وبزيادة هاتين العلامتين يتيسر كتابة الفارسية بدون إخلال بشيء
من حركاتها وذلك ان الفرس وكثيراً من الامم لا يوجد في لغتهم الاخمس حركات وهي الضمة
والفتحة والكسرة والفتحة الممالة الى الكسرة والضمة المشوبة بالفتحة واما الضمة المشوبة
بالكسرة فالأولى ان تجعل علامتها نفس الضمة المشهورة بزيادة خط تحتها متصل بها
هكذا (ـُ) وهذه الصورة مناسبة لما وضعت له لان وضع شبه الكسرة تحت الضمة يشعر
بأن هنا حركة ممتزجة من حركتين هما الضمة والكسرة وان الضمة متقدمة على الكسرة
وعالية عليها وان كان التقدم هنا والسبق على طريق المجاز . مثال ذلك مررت
(بمذعور وابن بور) وهذه الحركة وان كانت قليلة في العربية فهي كثيرة في بعض
اللغات المشهورة وينبغي تسميتها بالضمة الممالة لأن في لفظ الامالة بحسب العرف اشعاراً بوجود
الميل الى الكسر ومما يُعرك لهذه الحركة رد ونحوه من المضاعف المبني لما لم يسم فاعله . وقد
أشار الى ذلك سيبويه حيث قال : أما ما كان من بنات الياء فتمال ألفه لانها في موضع ياء
وبدل منها فنحوا نحوها كما أن بعضهم يقول قد (رُد) وقال الفرزدق :

وما (حُل) من جهل حبا حلمائنا ولا قائل المعروف فينا يعنف

فيشم كأنه ينحو نحو فعل فكذا نحوا نحو الياء : وأما الكسرة المشوبة بالضمة فالاولى
أن تجعل علامتها نفس علامة مقابلتها وهي الضمة المشوبة بالكسرة لكونها أشبه الحركات
بها الا أنها توضع مقلوبة هكذا (ـِ) ومثال ذلك قيل وجيء وخيف وهيب وانقيد واختير
وخفت وهبت وينبغي أن يكتب مثل قيل وجيء على هذه اللغة بالياء دون الواو وذلك لأن
الحرف الذي ينشأ عن هذه الحركة هو الى الياء أقرب منه الى الواو : وقد ذهب بعض
الناس الى كتابته في غير العربية بصورة الواو وذلك لكونه مشوباً به وجعل الحركة التي
انشأ عنها نوعاً من أنواع الضمة لكونها مشوبة بها وهو مخالف للظاهر فان الظاهر كون هذه
الحركة نوعاً من أنواع الكسرة لان الكسر أغلب عليها و كتابة الحرف الذي نشأ بصورة

الياء لكونه أشبه بها . وأما في اللغة العربية فيتعين كتابته بالياء لثلاثة أمور : (أحدها) ماذكر وهو كونه أشبه بها . (الثاني) ان أشهر اللغات فيه هي لغة من يلفظ به بالياء . (الثالث) رعاية الاحتياط فانه اذا كتب على هذه اللغة بالواو ولم ينتبه القارئ للاشمام وأتى بالضم الخالص يكون قد ترك اللغة الفصيحة وهي لغة من يشم الكسرة ضمة الى لغة غير فصيحة وهي لغة من يقول فيه قول وجوء بالضم الخالص . وأما اذا كتب بالياء فانه اذا لم ينتبه للاشمام وأتى بالكسر الخالص يكون قد ترك اللغة الفصيحة وهي لغة من يشم الكسرة ضمة الى اللغة التي هي أفصح منها وهي لغة من يقول قيل وجيء بالكسر الخالص . وأكثر الناس في أمر العلائم اما مفرّط واما مفرط . فمن المفرطين في ذلك من لا يكاد يضع علامة في موضع من المواضع . ومن المفرطين فيه من لا يكاد يترك موضعاً بغير علامة وقد رأيت بعض قراء الفرس جعل لما ونحوها علائم فجعل لما الشرطية الطاء وللاستفهامية الميم والموصولة الخاء اشارة الى أنها خبرية لا انشائية وللزائدة الصاد اشارة الى انها صلة في الكلام وللكافة الكاف وجعل ذلك فوق ميم ما وكتبه باحرف صغيرة بمداد أحمر وجرى علىّ مثل ذلك في كثير من الاشياء والاولى في أمر العلائم ان لا توضع الا حيث يضطر اليها أو يبعث عليها باعث .

وهاك جدولاً في الحركات ومايتعلق بها :

أسماء الحركات	العلامات		مثالها بالعربية	مثالها بالفارسية	معناها
الضمة	ُ....	ou	جُدْ	پُرْ	ملآن
الضمة المشوبة	ُ....	o	صأُوة	خُودْ	نفسه
الضمة الممالة	ُ....	u	رُدّ	•	•
الكسرة	....ِ	i	صِلْ	چِه	أي شيْ
الكسرة المشمة	....	eu	هبت	•	•
الفتحة	َ....	a	هَبْ	سَرْ	رأس
الفتحة الممالة	....	e	دَرَجه	سه	ثلاثة

وهذا المبحث واسع الأطراف جداً وفيما ذكرنا كفاية للطالب المنتبه والله الموفق •

* * *

ومن إجادة الخط مراعاة علائم الوقف • وقد اصطلح كتّاب القرآن الكريم على علائم مختلفة لأقسام الوقف المختلفة : فجعلوا (التاء أو الميم) للوقف التام و(الحاء) للحسن و(الكاف) للكافي و (الصاد) للصالح و (الجيم) للجائز • وقد التزموا كتابة هذه العلائم بالأحمر ووضعها فوق موضع الوقف • وللسخاوي تقسيم آخر للوقف وجعل لكل قسم علامة خاصة غير ماذكر توضع فوق محل الوقف وتكون بالمداد الأحمر والأقسام الخمسة هي : (اللازم) و(المطلق) و (الجائز) و (المجوز لوجه) و (المرخص للضرورة) : فعلامة اللازم (الميم) وعلامة المطلق (الطاء) وعلامة الجائز (الجيم) وعلامة المجوز (الزاي) وعلامة المرخص (الصاد) • وهناك وقف قبيح جعلوا علامته (لا) •

وللكتّاب اصطلاحات أخرى في العلامات (فالسين) علامة السكتة وهي الوقف اللطيف من غير التنفس ، و(القاف) علامة الوقف الذي قال به بعض العلماء دون بعض ، و (قف) علامة على ان الوقف مستحب لا واجب ،

ومن جملة علامات الوقف ما اصطلح عليه المحدثون من وضع (دارة) بين الحديثين للفصل بينهما ، وكان بعضهم يدع بقية السطر أبيض ليكون البياض مؤكداً للفصل ، ومنهم من جعل البياض علامة الفصل وهو مختلف المقادير حسب المقتضيات من تعلق المعاني بعضها ببعض قلة وكثرة وقد أشار الى ذلك ابن السيد حيث قال : والفصل انما يكون بعد تمام الكلام الذي ابتدي به واستئناف كلام غيره ، وسعة الفصول وضيقها على مقدار تناسب الكلام فان كان القول المستأنف مشاكلاً للقول الاول أو متعلقاً بمعنى منه جعل الفصل صغيراً وان كان مباينًا له بالكلية جعل الفصل أكبر من ذلك فاما الفصل قبل تمام القول فهو من أعيب العيوب على الكاتب والورّاق جميعاً ، وترك الفصول عند تمام الكلام عيب ايضاً الا انه دون الاول اه ، وكان الصحابة لا يعرفون شيئًا مما أحدث في المصاحف الا النقط الثلاث على رؤوس الآيات ، وقيل اول ما أحدثوا النقط عند آخر الآيات ثم الفواتح والخواتم ، وقال قتادة بدأوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا ، أي كتبوا الأعشار والأخماس وأسماء السور وعدد الآيات ، وقال بعض المقرئين : لاأستجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم ، وأرى أن تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة والهمزات بالصفرة ، واول من فعل الشكل في الصدر الاول بطريق النقط هو ابو الاسود الدؤلي ، واما الشكل المتداول الآن فمن وضع الخليل فالفتحة عنده الف صغيرة فوق الحرف والضمة واو صغيرة فوقه ايضاً والكسرة ياء صغيرة مردودة تحته ووضع لكل من الهمزة والتشديد والروم والإشمام والسكون علامة ،

وينبغي ان يتخذ للوقف اربع علائم :

(١) علامة السكت وهي خط هكذا (—) يوضع بعد الحرف المسكون عليه والمراد بالسكت الوقفة الخفيفة مثال استعمالها ما تراه في هذا الشعر من قول بعض القضاة :

[فما خفض الأعادي قدر — شاني ولا قالوا فلان قدْ – رشاني]

وقول الكميت :

[وما أنا ممن يزجر الطير — ـه أصاح غراب أم تعرض ثعلب]

فالسكتة الخفيفة في المواضع الثلاثة لازمة لتساعد على فهم المعنى المراد .

(٢) علامة الوقف الحسن وقد اختلفوا فيها : فمنهم من جعلها كتابة الكلمة الاولى بالحبر الأحمر . أو كتابة الحرف الأول ولا سيما ان كان واواً او بوضع خط أحمر فوق الكلمة الاولى — كل ذلك إشارة الى ان تلك الكلمة مما يسوغ الابتداء بها وان ماقبلها يسوغ الوقف عليه . ومنهم من يجعل العلامة نقطة صغيرة ومنهم من يجعلها واواً مقلوبة هكذا (،) وهذه العلامة هي التي نختارها مثال استعمالها :

« سوسوا أحرار الناس بمحض المودة ، والعامة بالرغبة والرهبة ، والاسافل بالمخافة . »

(٣) علامة الوقف الكافي واو مقلوبة يزاد عليها نقطة أوخط تمييزاً بينها وبين علامة الوقف السابقة هكذا [؛ او ، —] .

(٤) علامة الوقف التام نقطة كبيرة هكذا (•) ومنهم من يجعلها ثلاث نقط على هيأة نقط الشين (∴) أو دائرة مطبقة (O) أو منفرجة (∩) . واذا كان الوقف التام أنواعاً فيحسن ان يجعل لكل منها علامة من هذه العلامات الأربع ومنهم من جعل للوقف التام علامات غير هذه .

ومن العلامات التي اصطلح عليها الكتاب رقم (اه) المختزلة من (انتهى) حينما يريدون ان الكلام المنقول قد انتهى وتم . واذا حذفوا جملة في خلال الكلام يقولون (قال) وينتقلون الى ذكر ما يريدون بعد حذف المحذوف ثم نحتوا من (قال) حرف القاف فيكتبون هكذا (ق) . واصطلح المتأخرون على وضع علامة للاستفهام واخرى للتعجب وهو حسن اذا روعي وضعها في محلها المناسب لا أن يخبط في وضعها خبط عشواء . واما وضع علامة قبل مقول القول للدلالة عليه فيحسن اذا خيف التباس أو نحوه . ومبحث العلامات مبحث واسع الاطراف جدير بان يفرد بالتأليف اه ملخصاً .

مطبوعات حديثة

—(())—

ديوان الحلاج

[ترجمه الاستاذ لويس ماسينيون]

« طبع في باريز في المطبعة الأهلية — ص١٥٨ من القطع الوسط »

الاستاذ لويس ماسينيون أحد أعضاء مجمعنا العلمي متفرغ لدراسة الصوفية ، وله في هذا الباب كتاب : الحسين بن منصور الحلاّج بحث فيه عن الحلاّج من جامع نواحيه بحثاً مستفيضاً مبنياً على القواعد الحديثة في التنقيب وله كتاب آخر بحث فيه عن اصول مصطلحات الصوفية . وله كتاب فيه أربعة نصوص تتعلق بترجمة الحلاّج .—

وآخر ما أهداه الى المجمع العلمي : ديوان الحلاّج فقد رتب هـذا الديوان ونقله الى اللغة الفرنسية ونشره .—

قد يكون نقل الشعر من لغة الى لغة مركباً خشناً لما في كل لغة من الخصائص والأسرار التي لا تكون في لغة غيرها ، ففي لغةٍ استعارات اذا نقلت الى لغة ثانية كانت ضرباً من السخرية .—

أما نقل المصطلحات الفلسفية من لسان الى لسان فليس فيه من المصاعب ما في نقل صور اللغة الشعرية وخاصة ان كانت اللغة المنقول اليها مشتملةً على المصطلحات المجرّدة أي على خصائص اللغة الفلسفية .—

وشعر الحلاّج انما هو شعر فلسفي ليس فيه الا القليل من الصور الشعرية وانما احتوى على صور مجرّدة بعيدة عن الاستعارات وأمثالها فألفاظ العلم والايمان والتجاريب والجسم

والروح والخاطر والوهم والفكر وأشباهها مما اشتمل عليه شعر الحلاّج انما هي ألفاظ مجردة غير لاصقة بالمادة فلا يصعب وجود أمثالها في اللغة الفرنسية تدل عليها الدلالة الواضحة دون شيء من كد الذهن .—

من أجل هذا السبب كان نقل الاستاذ ماسينيون لشعر الحلاج من العربية الى الفرنسية نقلاً واضحاً حرص فيه صاحبه على خصائص لغة الحلاج وأسرارها .—

شفيق جبري

الموجز التاريخي

[للصف الثالث الابتدائي]

« قررته وزارة المعارف في مصر سنة ١٩٣١—١٩٣٢ »

ألفه هنري الشماع مدير مدارس جمعية الايمان القبطية بشبرا ويوسف فهمي أستاذ الآداب والتربية بالقسم العالي بالأزهر الشريف .—

طبع بمطبعة رعمسيس — ٤١ شارع الظاهر — مصر .

رسالة مدرسية صفحاتها ٣٨ .—

جاء فيها كلام مختصر على العرب وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الخلفاء الراشدين : رضي الله عنهم .—

وعلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .—

وعلى معاوية بن ابي سفيان وعلى هرون الرشيد .—

وعلى احمد بن طولون وعلى المعز لدين الله الفاطمي وعلى الحاكم بامر الله وعلى صلاح الدين الايوبي وعلى شجرة الدر وعلى الظاهر بيبرس وعلى قانصوه الغوري وعلى سليم الاول وعلى محمد علي بك الكبير .—

وفي الرسالة خرائط وصور بعض المساجد في مصر كجامع عمرو بن العاص وجامع بن طولون وجامع الغوري وصلاح الدين وسليم الاول .—

وفي آخر كل فصل أسئلة تتعلق بالفصل ذاته .—

توخى المؤلفان في رسالتهما سهولة اللغة ولكن هذه السهولة قد خرجت بهما في بعض المواطن عن متانة التراكيب فلا يقال : قالب شبيق ، ولا يقال تحقق من موته ولا يقال : اشترك في حروب ضد الروم الى أشباه هذه التراكيب الضعيفة فقد يكون الكلام سهلاً من غير ان يكون ضعيفاً في مبناه .

شفيق جبري

—

بحث لغوي في الراء

« بمعنى الرأي »

[بقلم جبران النحاس]

كراسة صغيرة صفحاتها اربع عشرة أثبت فيها صاحبها طائفة من الأقوال التي جاءت فيها كلمة الراء بمعنى الرأي .

اما الشعراء الذين استشهد بأشعارهم فهم : مطيع بن أياس وأبو العتاهية وأبو نواس وابن الرومي وابن المبارية وعمرو بن عثمان القيني والبحتري والمعتز وابن نباتة السعدي وأبو الفرج الببغاء والشريف الرضي ونجم الدين بن صابر المنجنيقي .

وأما الكتاب فهم : أبو اسحق الصابي ، أبو منصور الثعالبي ، القاضي عبد القادر الجرجاني

وقد أورد صاحب الكراسة أبياتاً لابي تمام وردت فيها كلمة الراء منها :

فاذا رأيت أسى امرىء أو صبره   يوماً فقد عاينت صورة رائه

فقال الصولي في شرحه على هذا البيت : هــذا شيء استعمله الطائي وغيره فأما مذهب سيبويه في ذلك فاذا حمل عليه كان كالعيب لأنه لا يجعل همزة حوبائه وما كان مثلها اذا

خفف ياء خالصة ولكن تكون بينَ بينَ وياء رأيه ياء خالصة لايجوز قلبها الى الهمزة في هذا الموضع فيقع الاختلاف في الروي وأما غير سيبويه فلا يبعد في مذهبه أن يجعل همزة حوبائه ومثلها اذا خفف ياء وهو مذهب ضعيف ونحو من ذلك ماجاء في شعر أبي النجم لأنه قال :

هل تعرف الربع عفت جواؤه

وقال فيها :

وعزَّ شاء المغربين شاؤه

فواو شاؤه لايجوز ان تهمز ، همزة جواؤه لايجوز أن تجعل ألفاً خالصة .

شفيق جبري

مصطلحات علمية

« والترجمة والتعريب »

—(()—

كنت منذ شرعت تدريس العلوم الطبيعية والرياضية في المدارس العربية بدمشق ، أي منذ عشرين عاماً ، أرجح ان آخذ هذه العلوم عن الكتب الغربيـة ، اذ لامشاحة في أن بلاد الغرب هي منبع هذه العلوم فيهذا العصر ، لكنني كنت ألاقي فيسبيل الوصول الى غايتي عقبات جمة في ترجمة المصطلحات الأعجمية الى اللغة العربية ، فان نفسي كانت — ولاتزال — تأبى استعمال تلك المصطلحات على علاتها أوتعريبها لاعتقادي بان كلا الحالتين لايخلو من الدلالة على احد امور اربعة : (الاول) عدم المبالاة باللغة العربية من ان يعتريها الفساد والتشوه فتصبح بمرور الزمن مزيجاً من لغات مختلفة محرفة الألفاظ مكسرة الحروف بحيث لايجدر أن يقال عنها انها «اللغةالعربية» بل يجب أن تسمى باسم آخر ، فتبقى اللغة الأصلية مدفونة في ضرائح الكتب كاللغة اللاتينية وغيرها من اللغات المجهورة لا يعرفها ولا يقوم بذكرها سوى أفراد قلائل من محبي التفكه بها والولعين بالاطلاع على قديمها ، ثم ان هؤلاء يأخذ عددهم في النقص كلما أخنى الدهر عليها وأفناها الى ان تندرس وتتلاشى فتصبح نسياً منسيا ، (والامر الثاني) من الامور الاربعة التي يدل عليها تحبيذ التعريب : التكاسل عن بذل شيء من الهمة في التفتيش عن ألفاظ عربية تقوم مقام المصطلحات الأعجمية المراد تعريبها ، (والثالث) العجز عن ذلك ، (والرابع) العمد الى إفساد اللغة لسوء قصد بها .

فلما كنت اعتقد بما تقدم من ان الميل الى التعريب لاتخرج أسبابه عن الامور الاربعة المذكورة ، ولما كنت أعتمد على سعة اللغة العربية معتقداً بان كل معنى يجول في الذهن لابد من أن يكون له فيها لفظ ولو كان كامناً في أغوار معاجمها — كنت آخذ على نفسي أن

م : ٥

لا أجتاز عقبة من عقبات تلك المصطلحات دون تذليلها بترجمتها الى العربية ولو تكبدت في ذلك أعظم المشقات وفاديت باعز الأوقات . وقد وفقت ولله الحمد الى ترجمة جميع المصطلحات التي لاتيتها في نقل ما نقلته الى العربية من العلوم الغربية حتى الآن وخطتي في تلك الترجمة مبنية على ما يلي :

اولاً : ان لاأتقيد بالترجمة الحرفيــة بل كنت أترجم بعض الآلات مثلاً بالفاظ تفيد فعلهــا أو خاصة من خواصها كترجمتي Coupe - circuit « بالحارزة » وهي الآلة المعروفة عند العامة (بالبوشون) تجعل فيمسير التيارالكهربائي حتىاذا اشتدالتيار الىدرجة الخطر احترقت فانقطع التيار فاندفع الخطر فهي إذن تحرز من خطرالحريق ولذا سميتها بالحارزة ، فلوأردنا ان نترجم أعجميتها بالحرف للزم ان نسميها (قاطعة الدارةالكهربائية) ففي تسميتها بالحارزة منفعتان الاولى استعمال لفظ واحد بدلاً من ثلاثةالفاظ والثانية ان يفهم مناسمها ماخاصتها وما فائدتها ، وذلك كما ترجم بعض الأفاضل (بالون) بالمنطاد و (صُومارِن) بالغواصة و (اوتوموبيل) بالسيارة مع ان كلمة بالون لايفهم منها الانطياد بل يفهم شيء منتفخ كروي الشكل و (صومارن) معناه (تحت البحر) لا (الغواص) واوتوموبيل معناه (المتحرك من نفسه) لا (السيار) معانه لايتحرك مننفسه فيتضح منذلك ان هذه الأسماء العربية أقرب الى فهم حقيقة مسمياتها من أسمائها الأعجمية نفسها ، وهذا من جملة محاسن نقلالاسماء الأعجمية الىالعربية بالفاظ عربية دون تعريبها كما سنبينذلك في مقال آخر ان شاء الله .

ثانيًا : انأتجنب فيالترجمةالصيغ غيرالقياسية كاسمالآلة والصفة المشبهة وانأختار الصيغالقياسية كاسمالفاعل ومبالغته واسمالمكان أسوة بالمتقدمينالذين ولدوا كلمات كثيرة على هذه الأوزان فان اسم الآلة سماعي لايصح ان نصوغ على وزنه مانشاء منالاسماء لان أوزانه كثيرة فالعرب اتخذوا لكل آلة وزناً من الأوزان المعلومة وهكذا جاءت أسماء الآلات مسموعة عنهم فكما انه لايسوغ لنا ان ننقل أحد هذه الأسماء من وزنه الى وزن غيره من سائرالآلات ، فلايجوز لنا مثلاً ان نقول بدلاً منملعقة مِلعق وزان مثقب او ملعاق وزان مفتــاح أوأن نشتق احد تلك الاسماء من فعل غير الفعل الذي اشتقه منه العرب فنقول (مأكلة) بدلاً من (ملعقة) ، كذلك لا يجوز لنا أن نصوغ اسماء جديدة

على أوزان اسم الآلة ، واما اذا كان ثمت اضطرار الى وضع اسماء لمسميات حديثة لم تكن عند العرب فالمجال أمامنا واسع لاستعمال كثير من الصيغ القياسية كاسم الفاعل واسم المفعول واسم المكان ومبالغة اسم الفاعل وهي صيغ لاخلاف في قياسيتها وليس لكل منها سوى وزن واحد خلافاً لاسم الآلة الذي كثرة أوزانه لابد من ان تؤدي الى الخلاف بين المترجمين واللغويين فاذا ترجم احدنا (مكرسكوب) مثلاً بالمجهر (بالكسر) كان لغيره الحق ان يترجمه بالجهار ولآخر بالمجهرة ومن هنا الخلاف في وضع المصطلحات واتساع الفوضى اللغوية التي نسعى الى إزالتها ، اللهم الا اذا انعقد مؤتمر لغوي عام منتخب من جميع البلاد العربية مفوض اليه توليد ما يرتئيه من الاسماء ، يقرّ اللفظ ثم ينشره بين العرب عامة فيكون استعماله شبه إجباري بالتواطوء بحيث لايصح لمؤلف اومترجم او كاتب ان يستعمل غيره[1] واذا لم يعقد هذا المؤتمر فان ترجمة الاسماء الحديثة على الصيغ القياسية الآنفة الذكر خير من ترجمتها على أوزان سماعية لاينشأ من السير عليها الا الخلاف والتفرق في الرأي .

ثالثاً : اذا كان اللفظ الأعجمي كلمة واحدة ولم تمكن ترجمته بكلمة عربية واحدة فاني لاأتقيد بذلك إذ لاضرورة اليه بل يمكن ان تترجم الكلمة الأعجمية الواحدة بكلمتين عربيتين على ان يكون ذلك موافقاً لقواعد اللغة كما ترجمت (الكترود) بالمنفذ الكهربائي و (مترونوم) بميزان الغناء و (ترمومتر) بميزان الحرارة « وان يكن ترمومتر مركباً في الاصل من كلمتين فانه في الظاهر كلمة واحدة » وكذلك كل ما كان مركباً من (متر) وكلمة أخرى نحو بارومتر (وهو ميزان الجو) ومانومتر (وهو مقياس الضغط) وإغرومتر (وهو مقياس الرطوبة) ، وماالمانع لهذه الترجمة ؟ فان قيل ان المصطلح العربي صار كلمتين مع ان مقابله الاعجمي كلمة واحدة فالأرجح ان يبحث عن كلمة عربية واحدة تقوم مقام كلمتين —

(١) ومما يجدر بهذا المؤتمر ان يعرض الكلمات التي يستحسنها على أنظار الناس في المدن العربية الكبرى على صفحات جرائدها وان ينظر فيما يرد عليه في تلك الكلمات من الملاحظات وذلك الى مدة معينة ثم يقرّها ، وبذلك يمكن التواطوء على ان يكون استعمال كلماته والأخذ بآرائه شبه إجباري فينتظم الحال وتزول الفوضى ، والا فان اعماله تذهب من هذه الوجهة سدى على ما نظن .

قلت فان وجدت تلك الكلمة فهي مرجحة على غيرها بلا ريب ولكن على ان تفيد المعنى المراد وان تكون موافقة لقواعد اللغة ، لا كما أراد بعضهم ان يترجم ترمومتر (بالمحرار) ومانومتر (بالمضغاط) وإغرومتر (بالمرطاب) فهب اننا تواطأنا على توليد أسماء جديدة على أوزان اسم الآلة فان (مضغاط) مثلاً لا يفيد المعنى المراد من مانومتر وهو « الآلة التي يقاس بها الضغط » بل يفهم من مضغاط « الآلة التي يفعل بها الضغط » كما يفهم من مفتاح الآلة التي يفعل بها الفتح لا التي يقاس بها الفتح ، وشتان ما بين المعنيين . فما الذي يضيرنا من استعمال كلمتين ترجمة لكلمة واحدة اذا لم تساعد سليقة لغتنا على غير ذلك . ألم يكن كثير من الكلمات العربية يقابلها في اللغات الاعجمية كلمتان او اكثر كقولهم Face antérieure (وهما كلمتان) مع ان عربيتها مُقدَّم (وهي كلمة واحدة) وقولهم Pendant deux jours (وهي ثلاث كلمات) وعربيتها يومين (وهي كلمة واحدة) وقولهم Un morçeau de fer (وهي اربع كلمات) وعربيتها حديدة (وهي كلمة واحدة) وقولهم Il est venu (وهي ثلاث كلمات) وعربيتها جاء (وهي كلمة واحدة) ، فهل غبطنا بذلك أصحابُ هذا اللسان وقاموا يسعون الى التفتيش عن كلمات مفردة تقوم مقام هذه العبارات ؟ كلا ، فان لكل لغة قوالب فالترجمة هي ان يؤخذ المعنى من اللغة المترجم منها ويفرغ في قوالب من اللغة المترجم اليها ، وعكساً لما تقدم فان سليقة لغتنا كثيراً ما تساعد على ترجمة المصطلح الاعجمي المركب من كلمتين او اكثر بكلمة عربية واحدة كما ترجمتُ Ultra - microscope (وهي مركبة من ثلاث كلمات) بكلمة عربية واحدة وهي (الجهّارة) .

وان قيل ان (ميزان الجو) مركب إضافي وهو مما تصعب النسبة اليه فكيف نترجم Hauteur barométrique مثلاً ؟ قلت لا ضرورة لترجمة النسبة بالنسبة ، بل يمكن ترجمتها بمركب إضافي فلك ان تقول في ذلك « ارتفاع ميزان الجو » (مجازاً اي ارتفاع زئبقه) فتكون حملتَ على المعنى المراد من العبارة الاعجمية مفرغاً في قالب عربي .

فهذه هي القواعد التي بنيت عليها خطتي في ترجمة كثير من مصطلحات العلوم وحيث ان بعض أصدقائي طلب اليّ ان أنشر تلك المصطلحات على صفحات هذه المجلة ، فنزولاً عند رغبتهم ، سأقوم بنشرها تباعاً مبتدئاً ببعض مصطلحات جاءت في كتابي المطبوع «القطوف

الينبعة في علم الطبيعة » وقد درجتها كما يلي جاعلاً أرقاماً في حذاء ما لم يسبقني احد اليه منها والله الموفق .

***

١ — [Calorie — حُرَيْرة]

ان كل ماقبل الزيادة والنقصان يقال له في علم الطبيعة (قدْر) افرنسيته Grandeur كالطول والمال والحرارة ولاجل مقايسة كل قدر من الأقدار اضطر البشر الى ان يتخذوا من ذلك القدر جزءاً معيناً ليقايس به سائر أجزاء القدر وقداصطلح علماء الطبيعة على ذلك الجزء (بالواحدة) — افرنسيتها Unité [1] — غير ان اكثر الواحدات تختلف باختلاف الامم فواحدة الطول مثلاً عند العرب الذراع وعند الافرنسيين المتر وعند غيرهم الاصبع والأنش والميل الخ حتى ان بعض الواحدات يختلف عند الامة الواحدة ايضاً بحسب استعماله ، فالافرنسيون اذا أرادوا قياس طول معتدل اتخذوا له المترَ واحدةً وفي قياس الأطوال الصغيرة يتخذون السنتمتر وهو جزء من مائة جزء من المتر وفي قياس الطرق الطويلة يتخذون الكيلمتر وهو الف متر ولما لم يكن لبعض الواحدات المستعملة عند الغربيين في العلوم الحديثة مقابل عندنا قد اضطررنا الى ان نقتبسها منهم ونستعملها في علومنا وصنائعنا التي طالما أخذناها عنهم . فلاقيت اثناء ترجمتي بعض كتبهم طائفة من هذه الواحدات أردت ان استعمل لها الفاظاً عربية فلم أجد أوفق من طريقة قد أتتني بالفاظ عربية فيها من الفوائد ما لم يكن في أصلها الأعجمي وهذه الطريقة هي :

ان آخذ مصدر المرة من مادة القدر المراد قياسه ثم أصغر ذلك المصدر ، مثال ذلك : عندما أردت أن أضع لفظاً يقابل Calorie [2] وهي الواحدة التي تقاس عليها كية الحرارة

(١) وقد ترجم بعضهم Unité بالوحدة وهي ترجمة حرفية لامبرر لها لان الوحدة مصدر مع ان المراد من Unité هنا ليس المصدر بل الاسم وكذلك كثير من اسماء المصادر الافرنسية يرد بمعنى الاسم المطلق أو اسم المفعول نحو Radiation فانه اسم مصدر بمعنى الاشعاع مع انه يرد بمعنى الشعاع وكذلك Solution وهو الحلّ فهو يرد بمعنى (المحلول) .

(٢) Calorie مشتقة من كلمة لاتينية وهي Calor او Caloris ومعناه الحرارة .

— أخذت مصدر المرة من الحرارة وهو (حَرَّة) ثم صغرته فصار (حُرَيرة) ففي ذلك فائدتان : الاولى كون مصدر المرة يفيد الوحدة والثانية كون التصغير يفيد ان الكمية المفهومة من ذلك اللفظ هي جزء صغير متخذ للقياس عليه فهاتان الفائدتان غير موجودتين في معنى اللفظ الاعجمي وزد على ذلك انهم يضطرون أحياناً الى اتخاذ واحدة للحرارة اكبر من الواحدة المذكورة الف مرة فيسمونها Grande calorie مما يجعلهم في حاجة الى تقييد الاولى بـ Petite calorie واما انا فقد سميت Grande calorie بالحرّة و Petite calorie بالحريرة . فلا يخفى ما في ذلك من الاختصار وخفة اللفظ .

٢ — [Dyne — أُيَيْدة]
٣ — [Mégadyne — أيْدة]
٤ — [Sthène — آدٌ]

Dyne واحدة متخذة لقياس القوة تساوي جزءاً من ٩٨٠ جزءاً من ثقل الغرام في دمشق[1] فترجمتها بالأُيَيْدة تصغيراً للأيدة وهو مصدر مرة من آد الشيء اذا قوي واشتد وصلب لأن Dyne كلمة مشتقة من Dunamis اليونانية ومعناها القوة ، ثم ان عندهم للقوة واحدتين أخريين احداهما مايسمونه Mégadyne وهي مركبة من كلمتين يونانيتين وهما [Mégas — اي كبير] و [Dunamis اي قوة] فمعنى هذه الواحدة أييدة كبيرة وهي تساوي الف الف أييدة[2] فسميتها (أيدة) والثانية مايعبرون عنه بـ Sthéne وهي من Sthénos اليونانية ومعناها القوة ايضاً وهي تساوي مائة أيدة فترجمتها بـ (آد) بمعنى القوة ايضاً .

(١) او جزء من ٩٨١ جزءاً من ثقل الغرام في باريز لان الاشياء في باريز أثقل منها في دمشق لكون باريز أقرب من دمشق الى مركز كرة الارض وهو مركز الجاذبة التي تولد ثقل الاشياء وهكذا كلما بُعد عن خط الاستواء تقرباً من أحد قطبي الارض ازدادت الجاذبة الارضية فازدادت الاشياء ثقلاً لان القطبين أقرب الى مركز كرة الارض من خط الاستواء لانضغاط هذه الكرة في قطبيها كما هو معلوم في علم الجغرافية .

(٢) اذا جعلوا في المقياسات Méga في صدر الكلمة أفاد معنى الف الف مرة واذا جعلوا Micro أفاد معنى جزء من الف الف جزء .

٥ — [Dioptrie — كُسَيْرة]

هي واحدة لقياس درجة كسر المدسات البلورية لأشعة الضوء وقدر هذه الواحدة قوة عدسة اذا ورد على أحد وجهيها حزمة أشعة متوازية خرجت هذه الحزمة من وجهها الآخر متقاربة بعضها من بعض حتى تتلاقى في بعد عن العدسة قدره متر . واصل Dioptrie، (Dioptron) وهي كلمة يونانية مؤلفة من Dia بمعنى من بين و Optesthai بمعنى رأى ، فتكون كسيرة ليست ترجمة Dioptrie بالحرف ولاضرورة الى ذلك كما كنا قدمنا .

٦ — [Barye — ضُغَيْطة]

٧ — [Pièze — ضغطة]

Barye واحدة متخذة لقياس الضغط وقدرها ضغط أبيدة[1] على سنتمتر مربع واحد وهي كلمة يونانية أصلها Barus ومعناه (الثقل) فترجمتها بالضُغَيطة لأنها واحدة قياس الضغط ، و Pièze كلمة يونانية ايضاً أصلها Piézein ومعناه (ضغط) تستعمل لقياس الضغوط الكبيرة وتساوي الف مليار ضُغَيطة فترجمتها (بالضغطة) .

٨ — [Lumen — ضُوَيْ]

٩ — [Lux — نُوَيْر]

Lumen كلمة لاتينية معناها الضوء سموا بها واحدة اتخذوها لقياس شدة الضوء فترجمتها (بالضُوَيْ) و Lux كلمة لاتينية معناها النور سموا بها واحدة اتخذوها لقياس درجة تنور الاشياء بالضوء فترجمتها (بالنوير) ولا يسع المقام هنا تعريف هاتين الواحدتين .

١٠ — [Erg — عُمَيْلة]

Erg كلمة مأخوذة من Ergon اليونانية ومعناها السعي اتخذوها لقياس ما يقال له في علم المكانيك (العمل المكانيكي) فسميت هذه الواحدة (عُمَيلة) جرياً على القاعدة التي قدمت بيانها .

١١ — [Loupe — مكيبِّرة]

١٢ — [Microecope — جاهرة]

١٣ — [Ultra - microscope — جهّارة]

(١) راجع الكلمة رقم ٢

١٤ — [Lunette — نظّارة]
[Télescope — راصدة]
[Photographe — مصوّرة]

Microscope كلمة مؤلفة من الصدر Micro وهو يفيد جزءاً من الف الف جزء من المتر او Micros بمعنى (صغير) ومن Scope وهي مشتقة من Skopein اليونانية ومعناها (تفحّص) فيكون المعنى «آلة صالحة لفحص الاشياء الدقيقة» فترجمتها (بالجاهرة) بمعنى (كاشفة) من جهر الشيء اذا كشفه وفي الحقيقة ان الآلة المذكورة تكشف ما لا تستطيع العين ان تراه من دقائق الاشياء وقد ترجم بعضهم مكرسكوب بالمجهر (بكسر الميم على صيغة اسم الآلة) مع ان اسم الآلة سماعي لا يسوغ لنا ان نبني على أوزانه اللهم الا بالتواطوء كما قدمت ذلك في اول المقال .

ومما يحسّن لنا ترجمة مكرسكوب بالجاهرة دون المجهر كون المجهر له معان في اللغة العربية « فالمجهر من الكلام والصوت : الجهير ويقال رجل مجهر اذا كان من عادته ان يجهر بكلامه » فلا يخفى ما في استعمال المجهر بمعنى (مكرسكوب) من الالتباس بين هذه المعاني وزد على ذلك انه اذا ترجمنا Microscope بالجاهرة تسنى لنا ان نترجم Ulta-microscope بالجهّارة (بصيغة المبالغة) وهي آلة تكشف ما لا تستطيع الجاهرة ان تكشفه من دقائق الاشياء فما أجمل المناسبة التي بين اللفظين العربيين (جاهرة وجهارة) بالنظر الى اللفظين الافرنجيين Microscope و Ulta - microscope ولولا هذه المناسبة بين الصيغتين العربيتين لحرنا بماذا نترجم اللفظ الثاني ومعناه «ماوراء الجاهرة» .

١٥ — [Oculaire — العينية]
[Objectif — الجرمية]

للجاهرة عدستان مكبرتان احداهما ما يضع الناظر عينه عليها فيقال لها عينية ترجمة لـ Oculaire والثانية التي توجه الى المادة المفحوصة ، وقد عبّرت عن هذه المادة بالجرم ترجمةً لـ Objet وان لم تكن ترجمة حرفية غير ان قلة استعمال لفظ الجرم تساعد على ان يجعل له شبه تخصيص بالمادة التي تفحص بالجاهرة اوغيرها من الآلات البصرية وكان الحق

ان يترجم Objet بالشخص لانه ضد الخيال غير ان كثرة استعمال الشخص لا سيما في غير معناه الاصلي لاتساعد على التخصيص المذكور وعلى ذلك ترجمت Objectif بالجرمية ·

١٦ — [Revolver — دوّارة]

في الجاهرة آلة يعلّق بها بضع جرميات فتدار على محورها لتجعل الجرمية المراد استعمالها امام الجرم المفحوص فتشبيهاً لها بالآلة التي تبدّل فيها القذائف في المسدسات سموها Revolver فترجمتها بالدوارة لدورانها على محورها ولاشتقاقها من Eo revolve الانكليزية ومعناها كلَبَ ولَفَتَ ·

[Lame — الصفيحة]
١٧ — [Lamelle — الفَراشة]

يجعل الجرم المراد فحصه بالجاهرة على صفيحة رقيقة من زجاج ثم يستر بصفيحة أخرى من زجاج أرق من الاولى كثيراً فالاولى معروفة «بالصفيحة» ترجمة لـ Lame اما Lamelle فكان حقها ان تترجم «بالصُفَيِّحة» بصيغة التصغير لكن مشابهتها للاولى في الرسم تؤدي الى الالتباس فاضطررت الى ترجمتها بالفَراشة (بفتح الفاء وتخفيف الراء) وهي في الاصل كل رقيق من عظم أوحديد ·

١٨ — [Diaphragme — الحِظار]

في الجاهرة تحت عدستها الجرمية صفيحة مستديرة في وسطها ثقبة لتحديد حزمة أشعة الضوء التي ترد على الجرمية فسموا هذه الصفيحة Diaphragme من كلمة يونانية Diaphragma ومعناها الحجاب فترجمتها بالحظار (بالكسر) وهو كل شيء حجز بين شيئين وانما رجحت الحظار على الحجاب ليكون أقرب الى التخصيص بالصفيحة المذكورة لانه أقل استعمالاً من الحجاب ·

[Alcool — الغَوْل]

Alcool كلمة تستعمل بمعنى ما يستقطر من الخمر وتعبر عنه العامة بالاسبرتو ووجود الالف واللام في صدر كلمة Alcool يدل على انها عربية الاصل لكنه قد تضاربت الآراء في أصلها فمن قائل كحل أوكحول ومن قائل كؤول أو كهول أو آلي الى غير ذلك ، اما الكحل فليس من وجه شبه بينه وبين المائع المبحوث فيه إذ ان الاول جامد والثاني مائع والاول

أسود والثاني بلالون اللهم الا اذا قلت ان الأصل كُحيل (بضم ففتح) وهو النفط « زيت الكاز » فهو يشبه الاسبرتو في أمرين : السائلية وسرعة الاحتراق . وأما كؤول فأقرب لفظ عربي اليه الكؤولة ومعناها أن يشتري الرجل أو أن يبيع ديناً له على رجل بدين لذلك الرجل على آخر وهذا المعنى ايضاً لاعلاقة له بمعنى Alcool ، وأما كهول فمعناه ان يصير الرجل كهلاً وهذا ايضاً بعيد عما نبحث فيه ، وكذلك لم أر مناسبة بين الاسبرتو وبين القَلي والحاصل اني لم أجد لفظاً أوفق للمطلوب من الغول (بفتح الغين) من غاله يغوله اذا ذهب بعقله أو بصحة بدنه ، ولاجرم أن الاسبرتو يذهب بعقل شاربه وبصحة بدنه وتسميته بالمصدر للمبالغة لانه هو مادة الإسكار في كل شراب مسكر ، وقد جاء في القرآن الكريم « لا فيها غول ولا هم عنها يُنزَفون » أي ليس في كأس الشراب التي يطاف بها على أهل الجنة خمار يغتال عقولهم ولا يصدرون عنها سكارى .

[شعاع — Rayon]

١٩ — [شعاعة — Radiation]

[اشعاع او تشعشع — Rayonement]

٢٠ — [شُعّ — Vecteur]

٢١ — [مُشيع — Radiant]

٢٢ — [مُشيعة — Radiateur]

٢٣ — [شعيع — Roue]

الشعاع ضوء الشمس الذي تراه كأنه حبال مقبلة عليك وفي الاصطلاح الشعاع الخط الهندسي الذي ينتشر عليه الضوء افرنسيته Rayon وقد دل علم الطبيعة على ان شعاع الضوء الابيض ليس بسيطاً بل هو مؤلف من ألوان لاتحصى أشهرها سبعة معلومة في ذلك العلم فسموا كل لون منها Radiation فترجمتها بالشعاعة لان الشعاعة واحدة الشعاع .

وأما Vecteur فهي كلمة اصطلحوا بها في علم الهندسة على كل خط ممتد بين محرق الشكل الدوراني [كالقطع الناقص والقطع الزائد] وبين محيطه ومعنى Vecteur الشعاع ايضاً فترجمته بالشُعّ [بضم الشين وتشديد العين] لانه بمعنى الشعاع .

وأما Radiant فهو من مقاييس محيط الدائرة في علم الهندسة ترجمته بالمُشيع .

وأما كلمة Radiateur فقدعبروابها عن آلة تستعمل لتدفئة المكان بهواء حار يجري فيها فترجمتها بالمُشِعّة لان هذه الآلة تنشر حرارتها كما تنشر الشمس أشعتها ٠

وأما Rone — وهو ماتُرجم بالدولاب أو بالعجلة — فأرى الافضل ان يترجم بالشعيع وهو في اللغة العجلة لاسيما وان قضبانه تكون ممتدة من وسطه الى محيطه كالأشعة ٠

٢٤ — [Incandescence — التوهّج]

٢٥ — [Luminescence — التلألؤ]

٢٦ — [Phosphorescence — البصيص]

٢٧ — [Fluorescence — البريق]

يصطلحون بـ Incandescence على إضاءة الشيء ساخناً وبـ Luminescence على إضاءته بارداً وبـ Phosphorescence على نشره أشعة في الظلام وبـ Fluorescence على نشره أشعة في الضوء وهو ينار فخصصت التوهج بالحالة الاولى والتلألؤ بالحالة الثانية والبصيص بالحالة الثالثة والبريق بالحالة الرابعة ٠

٢٨ — [Projecteur — النوّارة]

٢٩ — [Projecteur — المُوقِعة]

يعبر الافرنسيون بكلمة Projecteur عن آلتين مختلفتين في الشكل وفي الاستعمال وكان الأجدر ان يعبروا عن كل منهما بلفظ خاص به ٠ أما الاولى فتستعمل لاجل إنارة المواضع البعيدة وتبادل اشارات المخاطبة بتقطيع الضوء بفترات معينة فسميتها بالنوّارة (بالتشديد) لشدة نورها ولقوة ارسالها أشعة الضوء الى بعد شاسع ٠ وأما الثانية فهي تستعمل في إيقاع الأخيلة[1] على ستار ابيض في غرفة مظلمة كإيقاع الصور المتحركة[2] وغيرها فسميتها بالموقعة (بضم الميم وكسر القاف) ويقال لها «الفانوس السحري» ٠

« للبحث صلة »

الطبيب : محمد جميل الخاني

—:((●)):—

(١) الأخيلة جمع خيال وأما خيالات فجمع خيالة ٠ (٢) سينما ٠

الف ليلة وليلة
تاريخ حياتها

—()—

« المحاضرة الثانية »

ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كألف ليلة وليلة أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبه ، لاننا اذا فزعنا الى التاريخ نسأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الاديب ومنهاج المؤرخ ، واذا رجعنا الى نص الكتاب ندرسه لنتبين من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعقائد أهله — نصيب كل جنس وجيل في تكوينه وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجة خادع الرأي لميل الغناء ، لان كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تجد نسختين منه تتفقان لا في الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول الصعلوك الثاني : انه قرأ القرآن بالروايات السبع وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراآت كالألفية في علم النحو ، وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية ويكتفي بذكر الروايات السبع . فلو ان ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمنا بان هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٦٣٠ في نسخة وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى اي الرقمين نعتمد في تاريخ هذه الحكاية ؟ إذن لم يبق للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تاريخ الحضارات المقارن وعلى ما بقي في الكتاب من صور الاساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهها الناسخ ولم يعف عليها الزمن .

كان أول من ذكر الف ليلة من المؤرخين علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ في كتابه مروج الذهب فقد قال حين عرض لأخبار إرم ذات العماد « ان هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك برواياتها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية (وفي رواية أخرى الفلهوية بدل الهندية) مثل كتاب هزارأفسانه ، وتفسير ذلك بالفارسية خرافة ويقال لها (أفسانه) . والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرزاد ودنيا زاد » ثم جاء بعده محمد بن اسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ فقال في الفهرست: « اول من صنف الخرافات وجعل لها كتبًا وأودعها الخزائن الفرس الاول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ومعناه الف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة .... رُزقت في اثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيا زاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحميا ابنة بهمن » .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : « والصحيح ان شاء الله ان اول من سمر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويُخرّفونه لا يريد بذلك اللذة وانما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزار افسانه ويحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر لان السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيته بتمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث » .

فالرجلان كما ترون متفقان على ان الكتاب منقول عن هزار افسانه الفارسي وانه موضوع في خبر الملك والجاريتين شهرزاد ودنيازاد وان اسمه في عصرهما كان الف ليلة لا الف

ليلة وليلة « ولاعبرة بمجيء اسم الكتاب كاملاً في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب فان ذلك من زيادة المصحح » . ويختلفان في نسب البنت والجارية فيقول المسعودي ان شهرزاد بنت الوزير ودنيازاد جاريتها وهو الصحيح ، ويقول ابن النديم ان شهرزاد من أولاد الملوك وان دنيازاد قهرمانة الملك ، ويزيد ان الكتاب يحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر وانه ألف لحيا أو هميا أو حماني أو حمانة أو جمانة أو خماني على اختلاف الروايات وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ولا يوجد غيرهما فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء اللهم الا إشارة الى وثيقة ثالثة مفقودة نقل عنها المقريزي في الخطط والمقري في نفح الطيب وعزواها لمؤرخ مصري اسمه القرطي الف كتاباً في تاريخ مصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي ذكر فيه الف ليلة وليلة وقايس بين قصصه وبين مايتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا دليل على ان الكتاب على أي صورة من الصور كان معروفاً في مصر على عهد الفاطميين ، وان اسمه كان إذ ذاك الف ليلة وليلة ، وان عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله . ثم تجاهله بعدئذ ادباؤنا ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ، ولم يسجلوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس المستشرقين البارون سلفستر دساسي ، فبدأ البحث العلمي في أصله بمقالين نشرهما في جريدة العلماء Journal des savants أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده باحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد ، وانه مؤلف في العهد الاخير ، وانه عربي الوضع من فاتحته الى خاتمته ، ودفع قول المسعودي ان فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية . فناقش أدلته قوم آخرون أشهرهم الاستاذ (يوسف فون هامر) الالماني فقد نشر في سنة ١٨١٩ مقالاً في احدى المجلات الالمانية ، وفي سنة ١٨٢٣ مقالاً آخر في المجلة الاسيوية أيد فيهما رأي المسعودي تأييداً لا سبيل عليه لآخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ (وليم لين) الانجليزي قسماً من الف ليلة وليلة وقدم له مقدمة حاول ان يثبت فيها ان الكتاب تأليف رجل واحد وانه ألف فيما بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد . ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من ثقات العلماء أشهرهم : كوجي وموللر ونولدكي واوستروب وكريمسكي وشوفان وكارادفو ، فاستجلوا على قدر إمكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب حتى أصبح

من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ماجهلوه أن نثبت في هذا الأصل رأياً يقارب الصواب ان لم يكنه .

[أصل الكتاب وطبقاته] — أصل هذا الكتاب نواة من الأقاصيص الهندية والفارسية تسمى هزارافسانه ترجم الى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان « الف ليلة » وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم . ثم تجمع حول هذه النواة في الازمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان طبقة بغدادية صغيرة وطبقة مصرية كبيرة . فأما النواة او الأصل او الاطار كما يسميه الباحثون فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية : حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان وهي مقدمة الكتاب وحكاية التاجر والجني ، وحكاية الصياد والجني ، وحكاية حسن البصرى ، وحكاية الحصان الآبنوس ، وحكاية الامير باسم دجوهر السمندلية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان والأميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال .

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألمعنا الى ذلك من قبل ، ففريق يرى ورأيه الأرجح ان المقدمة وبعض حكايات الاصل هندية ويبني هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب ، فأما المشابهة والموضوع فان في حكاية الملك شهريار واخيه مشابه من « كاثاسارِت ساجارا » الهندية . وأما المشابهة في الطريقة فان إدماج حكاية في حكاية وتوليد قصة من أخرى احدى خصائص الأدب القصصي الهندي وهي ملحوظة في قصة (مهابهاراته) و (بنجه تنتري) اصل كليلة ودمنة ، لان الباعث الاول على القصص في أدب الهند كان ابتناء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور عن عزمه ، ويحجز المتسرع عن وجهه ، كفعل الببغاء مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية (سوكاسابتاتي) فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلهو الحديث عن زيارة خليلها في غيبة حليلها ويقطع حديثها دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً اذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات الف ليلة وليلة فلا نزاع إذن في انها هندية . وأما المشابهة في الأسلوب فان من لوازم القاص الهندي ان يقول : لاتفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلاناً فيسأله السامع وكيف ذلك فيجيب القاص على هذا السؤال برواية

القصة . وهذا الأسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من الف ليلة ، وقولهم فيها و كيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية (كاثام إتات) ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات وينتهي الى ان هناك طائفة من الأقاصيص لا شك في انها فارسية وهي حكاية الحصان الآبنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال وحكاية قمر الزمان والاميرة بدور وحكاية بدر باسم والاميرة جوهر السمندلية وحكاية أردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى ان الأصل كله فارسي تأثر بالعقائد اليهودية والإغريقية والاسلامية ويريد أحدهم وهو الاستاذ كوجي ان يجعل بين هيكل الف ليلة وليلة وبين قصة استر اليهودية صلة ونسبة . ذلك لان ابن النديم في الفهرست يقول ان هزار افسانه ألف لحميا بنت بهمن ، والطبري يقول ان استر هي زوج بهمن ، والمسعودي يجعل استر زوجة لبختنصر ويسميها دنيازاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد ايضاً على أم حميا بنت بهمن اي على زوجة بهمن وهي التي سماها الطبري استر . ويقول المسعودي ايضاً في موضع آخر ان أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الاولين . أما وجه الشبه بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة الف ليلة فهو أن الملك أسريوس كان كالملك شهريار لا يرى المرأة الا ليلة واحدة ، فتزف اليه البكر مساء ليطردها من قصره صباحاً دون ان يقتلها كما يفعل شهريار واستر كانت كشهرزاد تستهوي الملك وتخلب لبه فيستبقيها ، وهي بنت الوزير وشهرزاد بنت الوزير ، وهي تغرر بنفسها لتنقذ بنات جنسها من شر الفضيحة والذل ، وشهرزاد تفعل ذلك الفعل لتدرأ عن بنات قومها خطر السباء والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الاصل عربياً بحتاً اوفارسياً بحتاً اوهندياً مشوباً — فهي ان القصاص العرب قد عبثوا به عبثاً شديداً فبدلوا أسماءه وغيروا أسلوبه وموهوا لونه واخترعوا بعضه وطبعوه بطابع اسلامي محض ثم بعثروه في جوانب الكتاب وثنايا القصص حتى التاث على المقاييس الفنية فرزه وتحديده .

واما الطبقة البغدادية فتتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب واتسمت بسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف . تمثل حياة الطبقة الوسطى باسلوب

صحيح عذب وتصور حضارة بغداد في ايام العروس[1] بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغني في الأسواق ، وضجة الغلمان في الافنية ، وقصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق اللاهية في دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملاك رحمة ورسول عناية يجيء متنكراً وظاهراً في كل مكان بالثروة للمحروم والعدل للمظلوم والوصل للعاشق البائس . ولا أقصد بذلك الى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون بغدادية ، فان افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعلاه رمزاً للرخاء والعدل حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن الرواة ودون في الكتب مستقلاً وغير مستقل . فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الادباء البغداديون ثم طواها الزمن ، وقد عد ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي بن اديم ومنهلة ، وقصة عمرو بن صالح وقصاف ، وقصة ابي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة احمد بن قتيبة وبانوحة ، وقصة ريحانة وقرنفل وقصة سكينة و لرباب الخ ...

واشهر حكايات هذه الطبقة حكاية علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقة الأسى على جدثهما العاثر ونهايتهما المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة وهو الرسائل الغرامية التي تجري بين العاشقين اذا عز اللقاء وعيل الصبر . ثم حكاية أنس الوجود وورد الأكمام وهي قطعة حب وشعر وغزل . تجدون من فيها : اما محباً أو حبيباً أو واصلاً بينهما ، والشعر الذي تضمنته انما أنشيء لها خاصة فهو مطابق لمقتضى أحوالها ، مشتمل على أسماء أبطالها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سماك أنس الوجود — يا جامعاً ما بين أنس وجود

يا طلعة البدر الذي وجهه — قد نوّر الدنيا وعم الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الحمال والصعاليك الثلاثة . ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليع . ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني . ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري . ثم حكاية المعتضد مع ابي الحسن الخراساني وهي تدور

(١) ايام العروس اسم كان يطلقه البغداديون على عصر الرشيد . (المسعودي)

على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل . ثم حكاية الشاب البغدادي مع جاريته . ثم حكاية الجواري الضرائر . ثم حكايات السندباد البحري وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخطرات في مياه الهند والصين قام بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في العمران والعظمة .

ومما لاجدال فيه أنها كانت في الاصل رحلة حقيقية شوهها الناس بالمبالغة ، وزينها القصاص بالافتعال والتزيد ، ولعل صاحبها هو الذي نحا بها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في كتابه عجائب الهند . فلوصفيناها من سخف الأساطير وصرف الحديث كالسمكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وبيضة الرخ التي يحسبها الراؤن قبة إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هذا الموضوع كوصف جزر المهراجا أو المهرجان كما يسميه السندباد ، والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان ، وماذكر عن الفيل والكركدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ ...

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف قلبه حب الأسفار ومصارعة الأخطار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض غمرات الهول ويكابد غصص الغرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ الا يزمع رحلةً بعد هذه المرة . فاذا ما عاد سالماً غانماً الى دياره ، ونعم حيناً بالعيش الرخي بين ندماه وسماره ، عاده الوله الشديد الى البحر الغادر ، ونازعته نفسه الطامحة الى الأفق البعيد ، فيجتوي الراحة ، ويعاف النعيم ، ويبتاع البضائع ، ويكتري السفينة ، ثم يقلع من البصرة !!

واما الطبقة المصرية فهي أوسع الطبقات وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقها في اللهجة وأقلها في البلاغة . تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليهودية والاساطير الفرعونية . وقد قسمتها حين حللتها الى طبقتين قديمة تنتهي بالقرن الثامن وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تدور على المغامرة والحروب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والأرصاد والجن والسحر والقدر كحكاية جودر التاجر وإخوته ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية مسرور وزين المواصف ، وحكاية قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والأحدب ، وحكاية مزين

بغداد وهي قطعة فنية قوية رائعة ، ثم حكاية علي شار او بشار مع زمرد . والطبقة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الأسلوب جريئة العبارة تدور تارة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعبر . وظهور القصص المحتال الداعر بجانب القصص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة — إنما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن ان تبدو هذه الظاهرة ايضاً في قصص بغداد لولا ان مغامرات اللهو والحب فيها قد غلبت في نفوس القصصيين على كل شيء وهم الى ذلك كتاب يتأبهون عن حياة العامة . فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته ابو الباز شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص٤٧٩ من طبعة مصر « أنه برز في مكائده وما أورده من حيله على دالة المحتالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم » ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة .

وكان في بغداد كما كان في القاهرة نظام (التوابين) وهم اللصوص الذين اذا أقعدهم الكبر عن السرقة تابوا ورسمهم الخليفة شيوخاً لأصناف اللصوص فاذا حدثت حادثة عرفوا فعل من هي . ذكر ذلك المسعودي ايضاً في ص٤٧٣ من الجزء نفسه وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء والشيوخ كما يقصه علينا الف ليلة وليلة .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحيل إذن بطبيعة العمران فضلاً عن تأثرهم بما بقي مذكوراً على بعض الألسنة من أساطير العهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا واللصوص الاربعين مثلاً تشبه قصة وردت في (كتاب الأقاصيص الشعبية في مصر القديمة) لكبير الأثريين الاستاذ (ماسبيرو) . ثم تأثروا في أقاصيص العبر والعظات بالاسرائيليات كحكاية مدينة النحاس وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك ما دعا الاستاذ (فكتورشوفان) الى ان يقول ان القصص المصرية الاخيرة إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الاستاذ لان علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهر الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها .

وأشهر أقاصيص هذه الطبقة حكاية علي بابا واللصوص الاربعين ، وحكاية علاء الدين

ابي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منهـا لص بغداد للسينما ، ثم حكاية معروف الاسكاف ، وحكاية ابي قير وابي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وملكة الحيات وقصة مدينة النحاس ، وحكايات احمد الدنف وحسن شومان وعلي الزيبق ودليلة المحتـالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك النـاصر والولاة الثلاثة ، وحكاية الرجل الصعيدي وامرأته الافرنكية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الاربع تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأقاصيص الصغيرة ليبلغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد كقصة عجيب وغريب وسهيم الليل وهي من قصص البطولة والحرب تستعر وقائعها في العراق بين العرب والعجم أو بين دين الحنيفية والمجوسية ، وتستمير صورها من قصة عنترة وسيرة ابن ذي يزن ، ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والاميرة دنيا وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جانشاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي ملفقـة من أمثال كليلة ودمنة .

وطائفة أخرى يغلب فيهـا أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم ، وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد ، وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجلس الرشيد ، فان الجارية كانت تجيب السائل في الفقه على المذهب الشـافعي وتصرح بذلك ، وتذكر في التقويم الزراعي الشهور القبطية ككيهك وبرموده وبشنس ومسرى وأمشير ، ثم تقول في حضرة الرشيد : الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان . ومن الغريب ان الاستاذ اوستروب يقول في دائرة المعارف الاسلامية ان هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان (لادنن زلا تيودور) أو تودرر . ويظن ان تودد تصحيف تودور . ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لارى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة .

وهناك عدا ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والاجواد ونوادر الاولياء والزهاد

نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين لم يقصد بها الا توسيع الكتاب .

[مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته] — ذهبت جهود الباحثين باطلاً في تحقيق هوية المؤلف ، لان هزارافسانه نقل الى العربية غفلاً لم يسم واضعه ، ثم غشيته الطبقتان البغدادية والمصرية على التدريج ، فكان كل قصاص يكتتب لنفسه ماسمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الأقلام دون ان يسندها الى راو او يعزوها الى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد ان يحفظ ويقص لا أن يروي وينشر ! فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته قيض الله لها من ضم شتات الفتها ونسق نظام وحدتها ثم دونها على هذه الصورة . ولم يستطع ذلك الجندي المجهول ان يعلي اسمه على الخلود ، إما لتواضع فيه حمله على إنكار ذاته ، وإما لتواطوء من النكران والنسيان أمات اسمه بعد مماته ، ومن التوافق الغريب ان أسماء الكتّاب الذين وضعوا القصص الفرنسوية الكبيرة في العهد الذي دوّن فيه الف ليلة وليلة قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك ، كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً فان الكتّاب تكون على اليقين من أعمال مستقلة ثم نما بالاتفاق على توالي الحقب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الاعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الإمكان . أما التاريخ الذي قرّ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن ان نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و٩٣٣ وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ وليم لين الانجليزي بين سنتي ١٤٧٥ و١٥٣٥ للميلاد اي في مدى خمسين سنة فوافقناه في الغاية وخالفناه في البدء ، ولم نر هذا الرأي اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من النص الظنين من جهة أخرى ، وانما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي وهو ان الاستاذ الفرنسي (جلان) قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ وقد نقله عن نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر غفلاً من التاريخ ، ولكن الذي نقلها الى الشام وهو من

طرابلس كتب عليها بخطه انه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ثم انتقلت من يده الى يد آخر من حلب فكتب عليها ايضاً تاريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل سنة ٩٤٣ بزمن نقدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الاعلى اما من جهة الطرف الادنى فانا نجد ذكر القهوة المعروفة يتردد في بعض الحكايات كحكاية ابي صير وابي قير وحكاية علي نورالدين ومريم الزنارية مثلاً وذلك لا يكون قبل العقد الاول من القرن العاشر لان القهوة لم تنتشر في الشرق الا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ الباب العالي وبعض النظم العثمانية تذكر من حكايات أُخرى كحكاية معروف الاسكاف وهي مصرية قطعاً والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوّن بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ .

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، اما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل ان تيسر في حكاية تعذر في أُخرى ، وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالاستاذ وليم بوير الامريكي فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الاسيوية جزم فيه بان حكاية الوزيرين شمس الدين ونورالدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ويرجح انها كتبت سنة ٧٠٦ وان قصة الخياط والاحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الاخرى كمزين بغداد قد أُلفت سنة ٨١٩ للهجرة والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا الى التفصيل الذي يمل في الروح ويخمد نشاط الحديث .

سمى العرب هزار افسانه الف ليلة ولو أرادوا الترجمة الامينة لقالوا الف خرافة أو أسطورة ، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما ان الليلة كانت في اصطلاحهم ترادف الاسطورة باعتبارها زمناً لها وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد ابن اسحق الوراق : « ابتدأ ابو عبدالله الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره وأحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلى بنفسه .. فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه الف سمر ... » وإما ان يكون عدد الالف في الاصل انما أُريد به التكثير

لا التحديد على حد قوله تعالى : « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وأحر به ان يكون كذلك فان ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً وقال ان فيه دون المائتي سمر وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٦٤ حكاية قسمها المؤلف على الف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة فان شهرزاد يدركها الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق على انه لم يبق مما رآه ابن النديم الا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

إما زيادة الليلة على الالف فمن عمل القرن السادس لان النسخة التي رآها القرطي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة . ويقول (جلدمستر) في تعليل زيادة الليلة ان العرب يطيرون بالأعداد الزوجية وهو زعم غريب مارأيت في تاريخنا ولا في أدبنا مايؤيده . ولقد ظل الكتاب اكثر من قرنين يسمى الف ليلة وكان الجهشياري يريد أن يسمي كتابه الف سمر وعندنا الفية ابن معطي والفية ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم ان يؤيده اوستروب في دائرة المعارف ويزيد عليه ان ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث ايضاً على هذه التسمية ! وليس في قولنا الف ليلة وليلة كما تعلمون تسجيع ولا مزاوجة . والغالب في رأيي أن الليلة انما زيدت فوق الالف لافادة الكمال كطفحة الإناء ورجحة الميزان ، لان الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً . والكمال درجة فوق التمام ، وان في لغة التخاطب مايشبه ذلك فقد يقال في المن قضيت لك الف حاجة وحاجة وفي المبالغة زرتك الف مرة ومرة وهلم جرا .

« للبحث صلة »

احمد حسن الزيات
عضو المجمع العلمي العربي

رحلة اوليا جلبي

« في البلاد العربية »

—(()—

تمهيد . — محمد ظلي افندي المعروف باوليا جلبي اي الولي الفاضل سائح تركي شهير من رجال القرن الحادي عشر الهجري (ولد في سنة ١٠٢٠ وتوفي في سنة ١٠٩٠) زار أكثر الامصار التي كانت تتألف منها السلطنة العثمانية المترامية الاطراف في ذلك العهد ووضع في وصف رحلاته العديدة بضعة مجلدات لم يطبع منها الا القليل وهي تعد عند الترك من الآثار القيمة لما تضمنته من بيان عمران البقاع والبلدان التي شاهدها ووصف مناظرها ومبانيها وأحوال سكانها وصفاً لا بأس فيه تتخلله طائفة من النبذ الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لولا أن فيها شيئاً غير يسير من شوائب المبالغة والاحاديث الخرافية وذكر الاضرحة والكرامات التي كان يهتم الجلبي بها كثيراً شأن رجال تلك الايام .

قيل ان اوليا جلبي لم يوفق في صباه في تلقي العلوم وان جمال صوته ساقه للولع بفنون الادب والموسيقي الى ان كان ذات يوم في رمضان سنة ١٠٤٥ يتلو القرآن في جامع اياصوفيا فأعجب السلطان مراد الرابع بصوته ورفعه الى قصره وجعله من ندمائه . الا أن تلك الابهة والنعمة اللتين صادفهما أوليا جلبي في القصر كانتا محاطتين بضروب التقييد والحصر . فلم تروقا لعينيه ولم تتفقا

مع خفته وظرفه وحبه للحرية والانطلاق وشغفه بالسفر وجوب الآفاق · فغادرالقصر بعد مكوث سنتين وراح يجول في الامصار تارةً منفرداً وتارةً مع كبار الوزراء والقواد لاسيما مع خاله ملك احمد باشـا احد صدور ذلك العهدالبارزين · ورافق أهم الجيوش التي ساقتها الدولة العثمانية إذذاك في الشرق والغرب وحضر الحروب ووصفها وبهذا تسنى له ان يرى اكثر بلادالاناضول والروم ايلي ووصل الى جزيرة كريت وجال ايضاً في أجزاء بعض ايران والقفقاس وجنوبي روسية ومولداويا وترانسلفانيا ودالماتزيا وهنغاريا والنمسا والمانيا وهولاندة ·

وقد زار هـذه البلاد الاوربية وهو في بطانة السفير العثماني المرسل الى هولاندة · ولم تفته من البلاد العربيـة الشام ومصر والحجاز · جاء مرة الى دمشق صحبـة مرتضى باشا المعين نائباً على الشام وذهب مرة أخرى معه لما جرد جنده لجباية الاموال الاميرية من الدروز وغيرهم في جنوبي جبل لبنان وجبل الجليل وأرسله الباشا في غيرها بمهمة الى غزة فمر باكثر مدن الشام الشمالية والجنوبية وعرفها ووصفها · وقد استرعت رحلة هذا السائح التركي أنظار علماء المشرقيات في اوربا فترجموا منها مايختص ببلادهم الى اللغات الالمانية والانكليزية والمجرية · لذلك أحببت ان أحذو حذوهم فأنقل الى لغتنا وصف البلاد العربية التي زارها لحسباني ان في ذلك ما يفيد معرفتـه من الأوضاع الجغرافية والحالات الاجتماعيـة التي كانت قبل ثلاثة قرون · وقد تصرفت في عبارة الجلبي وحذفت منها ماليس في ذكره نفع وعلقت عليها نبذاً في ترجمة

الاشخاص وذكر أسماء المدن والقرى التي كانت في طريقه اوحولها مما فاته بيانه ووصفت منها بعض ماتسنى لي زيارته ورؤيته أو العثور على ذكره في الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة وعنيت بسرد الفرق بين حالتها حينما مرّ بها الجلبي وحالتها الحاضرة ليكون ذلك تكملة لهذه الرحلة واقتداء بما يكتبه مؤلفو كتب الأدلة للسائحين في بلادنا كايزامبر وشوفه وموغمارسه وبيديكر وغيرهم من أفاضل الفرنج الذين لم يقتف أثرهم احد من كتابنا بعد حتى أصبح هؤلاء الغربيون الغرباء يعرفون بلادنا ومسالكها وخططها ومصانعها وعاداتها وحالات أهلها وطبائعهم معرفة تامة ليس لأكثر مفكرينا نصيب منها وماذلك الا لوفرة ماعندهم من هذه الكتب وأشباهها وفقدانها لدينا بالكلية .

وقبل الشروع بسرد الرحلة لابد من التنويه بان المحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر وقد ترجم كثيراً من فضلاء الترك وأعيانهم في ذلك العهد لم يذكر اسم أولياجلبي على الرغم من ان هذا جاء الشام وساح فيها ومكث في دمشق مدة ولم يترجم ايضاً مرتضى باشا الذي جاء الجلبي في حاشيته وظل والياً في دمشق نحو سنة وقد تحريت فلم أعثر على ذكر هذا الوزير الاعرضاً في صدد ترجمة عبدالسلام المرعشي احد أعيان الجند بالشام وصاحب الحول والطول في ذلك العهد . قال المحبي : وكان عبدالسلام لما وجهت نيابة الشام لمرتضى باشا الكرجي ثانية في سنة سبع وستين وألف وتصرف بها متسلمه اضطرب لذلك اضطراباً شديداً لما كان قد وقع له من المعاداة في توليته الاولى فأخذ يدبر أشياء لمدافعته ثم أداه اجتهاده الى ان جمع جمعاً عظيماً في الجامع

الأموي وأحضر اكثر اهل البلدة وذكر لهم ظلمه وأشار عليهم بان لا يرضوه حاكماً عليهم وكان نائب الشام السابق المعروف بالسلاحدار لم يخرج بعد من دمشق وكان مقيماً بالميدان الاخضر فذهب القوم اليـه وأبرموا عليه ان يبقى نائباً وكتبوا في هذا الشأن عروضاً ومحاضر وأرسلوها الى الابواب السلطانية وخرج متسلم مرتضى باشا هارباً ولما وصل اليه وهو في الطريق ارسل الى الباب السلطاني يعلمهم بما وقع فقرر في نيـابة الشام بخط شريف فلم يمكنوه واظهروا الممانعة وجمعوا جمعاً عظيماً من أوباش الشام وعزموا على محاربته وطلعوا الى قرية دوما وهم في جيش عرمرم وكان مرتضى باشا وصل الى القطيفة فلما سمع بخبرهم ولى راجعاً ولم يدخل دمشق » اه · فيظهر من هذا ان مرتضى باشا عين لنيابة الشام مرتين الاولى في سنة ١٠٥٨ حينما جاء معه أولياجلبي ودخل بموكب عظيم واستقبلته جنود دمشق وأعيانها استقبالاً فخماً كما سيأتي ذكره · على ان هذا الباشا كان على ما يظهر جباراً عاتياً فعزل بعد سنة لكنه عاد للمرة الثانية في سنة ١٠٦٧ فلم ترض به جنود دمشق وأهلها واضطروه للرجوع فنقمت الدولة بسبب ذلك على عبد السلام المذكور ورفقائه الذين قادوا هـذه الفتنة وكان من جملتهم الامير منصور الشهابي وابن عمه الامير علي فقتلتهم جميعهم تبـاعاً وصادرت أموالهم وأملاكهم وفاقاً لعوائد تلك الايام ·

أما الرحلة فهي كما يأتي :

كان أولياحلبي يتدبر قضاء فريضة الحج فانتهز فرصة سفر مرتضى باشـا المعين نائباً على الشام فالتحق بقافلة الباشـا المؤلفة من مئات الحواشي والاتباع

والجند والوف الركائب والبغال المثقلة بالعتاد والامتعة وغادر مدينة اسكدار في غاية شهر شعبان سنة ١٠٥٨ (١) وراح يتنقل مع تلك القافلة في بلاد الاناضول كأزنيق واسكي شهر وآق شهر وقونيـة وآذنة ومسيس « المصيصة » وغيرها الى أن أشرف على خليج الاسكندرونة وسار موازياً شاطئ البحر الرومي فوصل الى «بيّاس» وهي الآن آخر بليدة تركية متاخمة لبلاد الشام الحالية(٢) .

(١) في هذه السنة جلس السلطان محمد خان الرابع على كرسي آل عثمان وهو صبي ابن سبع سنوات .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان : بيّاس مدينة صغيرة شرقي انطاكية وغربي المصيصة «وصحيحه انها شمالي انطاكية وجنوبي المصيصة» بينهما قريبة من البحر بينها وبين الاسكندرية «وصحيحه الاسكندرونة» فرسخان قريبة من جبل اللكام . قال البحتري :

ولقد ركبت البحر في أهواله وركبت هول الليل في بيّاس
وقطعت أطوال البلاد وعرضها ما بين سندان وبين سجاس

والى الشمال الشرقي من بيّاس الكنيسة السوداء والهارونيـة نسبة الى هرون الرشيد الذي اختطها وكانتا من الثغور في طرف جبل اللكام قاله ياقوت الحموي في المشترك . وكذلك كان في هذه الكورة التي تدعى قيليقية التابعة الآن للجمهورية تركية قلاع عديدة ذكرت مراراً في التاريخ الاسلامي كانت تتعاورها أيدي المسلمين والأرمن والروم في حروبهم وغاراتهم مدة قرون الى ان ثبتت في يد الترك ذكرمنها ابوالفداء في تقويم البلدان أسماء سيس التي كانت عاصمة ملك الارمن والمصيصة «مسيس» على جانب نهر جيحان بناها ابوجعفر المنصور واياس على الساحل د برس برت شمالي سيس وتل حمدون بالقرب من جيحان وفي شرقي هذا التل حصن حموص ومرفند كار وفي شمالي جيحان عين زربة «آناوارزا» هذا عدا عن آذنة وطرسوس وهذه على مقربة من الثغور أو الدربندات في جبال طوروس التي كانت تفصل بين المسلمين والروم . وهذه البلاد كان يدعوها المسلمون الثغور ثم دعوها ببلاد ابن لأون ملك الارمن . وقد تغيرت اسماء اكثر هذه القلاع الآن واصبحت تعرف باسماء تركية كطوبراق قلعة وييلان قلعة وقوه سيس قلعة الخ .

وقد وصف قلعة پيّاس ودورها وبساتينها ودارمكسها وميناءها وخانها وجامعها الذي بناه محمد باشـا الصوقوللي الصدر الاعظم الشهير وأثنى على اهلها لانهم كانوا يردون عادية قرصان البحر ويحرسون المسالك والمضائق الممتدة شمالي بيـاس وجنوبها من شر لصوص الجبال ويسهلون سبيل الحجاج والتجار المارين ببلدتهم من برالترك الى برالشام وبالعكس ونوّه بشدة حرها في الصيف ورداءة هوائها واضطرار أهلها الى الاصطياف في النجود والهضاب المحيطة بهم وذكر ان الوفاً من الاكراد والتركمان أصحاب قطعان الغنم والماعز يتسلقون هذه النجود في فصل الصيف ويطلقون مواشيهم ترعى أعشابها الغضة وتشرب مياهها النميرة(١) .

(١) هذه نجود جبل اللكام الذي يدعوه الافرنج آمانوس وعامة الترك كاورطاغي ودعته حكومتهم جبل البركات ، وسلسلة اللكام تعد عند اكثر الجغرافيين التخم الطبيعي بين الشام والاناضول ويمر الآن في وسطها من الغرب الى الشرق الحد الذي اعتبر رسمياً بين جمهورية تركيا وبلاد الشام الواقعة تحت الانتداب الافرنسي ، وهي تنفصل في الشمال عن جبال مرعش وسيس بنهر جيحان وتتجه بخط مستقيم الى الجنوب حتى مضيق بيلان الذي يفصلها عن جبل الاحمر الممتد شمالي انطاكية وغربيها ، وفي هذه السلسلة الشامخة أودية ووهاد سحيقة ونجود ومرابع عالية صالحة للاصطياف ورعي الماشية لجودة هوائهـا وغزارة مياهها وروعة مشاهدها وطيب أعشابها ووفرة حراجها مما لا نظير له في لبنان أو غيره ، وفيها قمم شاهقة أعلاها الصخرة البيضاء (آق قيا) ٢٥٠٠ متر ومغبر ادموغر ٢٢٦٧ متراً يجللها الثلج في معظم أيام السنة وتشرفان على سهول حلب وآذنة على السواء ، وفيهـا مضائق كانت تعبرمنها في العصور الغابرة جيوش الغزاة والفاتحين من الشمال الى الجنوب وبالعكس ، وكان القدماء ولاسيما الارمن أقاموا في النقاط الحاكمة على هذه المضائق الوعرة قلاعاً كانوا يشحنونها بالمقـاتلة لمنع الاعداء من المرور ، منها في الشمال وفي منتصف الجبال « قلعة حجر

قال اوليا جلبي : وبعد ان مكثنا في بـاس يومين غادرناها واجتزنا في جنوبها جسراً متقن الصنع ذا أربع منافذ من آثار محمد باشا الصوقوللي ووجدنا في قربه على شاطيء البحر تكية باسم الشيخ عبد القادر الكيلاني دائرة الاركان

شغلان» صعبة المرتقى تشبه عش النسر بمنعتها ورفعتها تعلو عن سطح البحر ١٢٥٠ متراً ومثلها في الشمال وعلى مقربة من اسكندرونة «قلعة المركز» وفي الشرق على حاشية سهل العمق « قلعة دربساك » ومثلهـا في الجنوب «قلعة بغراس» . ولما جاء الصليبيون استولوا على هذه القلاع وأقاموا فيهـا الفرسان الهيكليين وظلت تتعاورها أيدي الارمن والروم وصليبيو انطاكية الذين لم ينفكوا يتنازعون أمرها فيما بينهم كما ان المسلمين في عهد بني حمدان وبني أيوب والمماليك لم يتوانوا عن مهاجمتها حينما كانوا يغزون بلاد الارمن والروم ويقابلهم هؤلاء بالمثل فيتخذ كل منهم هذه القلاع نقاطاً للاستناد عنـد زحفه شمالاً أو جنوباً وظل هذا الأخذ والرد مستمراً الى ان جهز الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ جيشاً لغزو سيس قاعدة بلاد الارمن اذذاك وولى قيادة هذا الجيش الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر محمود صاحب حماة فجاء فاستولى على هذه القلاع وأباد الفرسان المرابطين فيها ودمرها ثم أتم غارته على سيس وحواليها ورجع ظافراً . هذا وكان جبل اللكام في اول عهد الاسلام موطناً لقوم عرفوا « في كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جرجومة عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقة قرب انطاكية وقد صـالح الجراجمة المسلمين على ان يكونوا أعواناً لهم وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم بمالئونهم على المسلمين وخرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير الى الشـام مع قائد الروم فتفرقوا في نواحي الشام لاسيما لبنان وعرفوا بالمردة فاضطر عبد الملك بن مروان الى أن صالحهم » ذكره في معجم البلدان . وسكان هذه الجبال الشاهقة في يومنا تركمان سنيون لا يزالون على الفطرة معروفون بصدق المعاملة يقطنون في الشتاء في قراهم المخبأة في بطون الفجاج قرب السفحين الغربي والشرقي وفي الصيف يصعد أكثرهم كما قال أوليا چلبي — الى المرابع والنجود المرتفعة لرعي الماشية وقطع الحطب ويحذو حذوهم جم غفير من أكراد حرة الجاة في شمالي العمق وهم أهل وبر وا كارون . وجبال اللكام كانت وماتزال

آهلة بالدراويش . ثم استأنفنا المسير نحو القبلة فمررنا بتكية ثانية أصغر من الاولى فيها بضعة دراويش ينتسبون الى الطريقة البكتاشية ثم اجتزنا جسراً نصب على نهر تجتمع مياهه من الاودية المنحدرة من أعالي الجبال التي ذكرناها وتصب في البحر . وعلى مقربة من هذا الجسر مررنا بقلعة تدعى «قلعة المركز» تبعد عن البحر رمية سهم بنيت في سفح جبل عال مربعة الشكل ذات بناء جميل قيل أنها من عهد القياصرة(١) . ولما مر السلطان سليم من هذا المكان سنة ٩٢١

غنية بالحراج (١٥٠٠٠ هكتار) على الرغم من انكباب الامم الغابرة على قطعها لبناء الاساطيل والمعابد والقصور وهي قد اشتهرت بوفرة ما في منحدراتها الشرقية والغربية من الصنوبر الحلبي والارز والشوح والسنديان والبلوط والزان والقيقب والاشجار المثمرة البرية كالتفاح والاجاص والزعرور ويكثر الدلب والصفصاف المستحي والجوز والدردار في الأودية الرطبة كما ان الزمزريق والقطلب ولاسيما اللبنة منتشرة وكثيفة في اكثر الاماكن وفي قرب بياس في لواء اسكندرونة منجم كبير يحوي معادن مختلفة كالحديد والكروم والآميانت والمانغانز والنحاس لكنها بنسبة قليلة لا تفي بنفقات الاستخراج . وقد عرف القدماء هذه المعادن واستثمروا منها معدن الزاج الذي ذكر المؤرخون وجوده بين بياس وبوقة .

(١) اذا خرج السائح من بياس موازياً شاطئ البحر يصادف على بعد كيلومتر منها نهر بياس الذي ذكر أوليا چلبي جسره وفي ضفته اليسرى يبدأ التخم الذي اعتبر الآن رسمياً بين بلاد الشام وبلاد الترك وهذا التخم يسير شرقاً بموازاة ذلك النهر متسلقاً قمة مغبر هابطاً ضفة نهر الاسود اليسرى . ويصادف السائح في طريقه سهلاً كثير الحصى والبلان منبسطاً بين سفوح جبل اللكام والبحر وفيه يمر النهر المسمى (دكرمن دره) وقد ذكر اوليا چلبي جسره . ويرتأي بعض الباحثين ان معركة ايسوس الكبرى التي وقعت بين دارا ملك الفرس واسكندر المكدوني وغلب فيها دارا وكانت سبباً لاستيلاء الاسكندر على بلاد الشام حدثت في هذا السهل الواقع جنوبي بياس والذي عليه اكثر المحققين بانها وقعت

وهو ذاهب للاستيلاء على مصر افتتحها بالامان وهي الآن تابعة لنيابة بياس وفيها قائد وعدة جنود وحولها كروم وبساتين وفي داخلها جامع وبضعة بيوت لسكنى الجنود ·

وبعد ان اجتزنا هذه القلعة مررنا في ساحل البحر بمضيق يدعى صقال طوتان (قابض الذقون) لاتنقطع والعياذ بالله منه اللصوص وقطاع الطريق وجلهم من أشرار الاكراد الذين يهبطون من ناحية الجومة من أعمال حلب · لذلك يجدر بالمجتازين من هنا ان يكثروا من الحيطة والحذر · وبعد ان مررنا بمكان يدعى آجي جاي (النهر المر) وصلنا بعد ساعتين ونصف الى قلعة اسكندرون (١) ·

شمالي بياس بالقرب من نهر دلي شاي · اما التكايا التي ذكرها الچلبي فقد دثرت · وبعد مسير عشرة كيلومترات يصادف السائح أطلال «قلعة المركز» التي ذكرها الچلبي ماثلة بجدرانها وببعض أبراجها الفخمة وهي احدى قلاع جبل اللكام المنيعة التي نوهنا بها وبمصيرها وقل من يعرفها الآن بهذا الاسم بل باسم القرية القريبة منها «صاري سكي» وكان الصليبيون يسمونها حصن كاستيم أوحصن كودفروا وثمة في شمالي هذه القلعة أطلال جدار يمتد من الغرب الى الشرق يدعوه الفرنج جدار السلوقيين لايزال قسم منه قرب البحر سالماً في الجملة وقسم آخر في سفح الجبل وكان هذا الجدار على مايظهر لسد الطريق في وجه الجيوش الزاحفة من الشمال الى الجنوب او بالعكس ·

(١) بعد مغادرة قلعة المركز يضيق السهل الممتد في الساحل تدريجاً الى ان يقترب ذيل جبل اللكام من البحر فيؤلف معبراً ضيقاً كان يسميه الرومانيون باب قيليقية والصليبيون Portella وكان يعتبر هذا المضيق في العصور الغابرة الحد الفاصل بين سورية وقيليقية وكان فيه لملوك الارمن دار للمكس · وقبل الحرب العامة مد الالمان في وسطه سكة الحديد الآخذة من اسكندرونة الى (طوبراق قلعة) لحلب · ويعلو الصخور التي عن يمين

وصف اسكندرونة — سميت هذه البليدة باسم بانيها اسكندر الكبير وبعد ان خربتها عوادي الزمن عمرت في اول عهد الاسلام(١) ثم خربت مرة أخرى وصارت ملجأ لقطاع الطرق وقرصان الافرنج فاسترعى هذا

المضيق ويساره أعمدة رخامية أثرية يعرفها الملاحون باسم أعمدة يونس ويزعمون ان الحوت الذي ابتلع النبي يونس عاد فلفظه على شاطىء هذا المضيق . على حين انها ليست الا بقايا باب كبير من آثار اليونانيين او الرومانيين كان معداً لسد المضيق وفتحه في وجه المارين والعابرين او للاشارة اليه . وفي رواية ان جسد الاسكندر بعد موته وضع فوق هذا الباب ومرت من تحته قواده وجحافله . والقلعة المركز على قيد غلوة من هذين العمودين ولا يزال سكان هذه البلاد وهم أتراك يدعون المضيق والقلعة معاً باسم صقال طوتان .

(١) قال ابو الفداء : باب اسكندرونة من جند قنسرين . قال احمد الكاتب : وباب اسكندرونة مدينة على ساحل البحر الرومي بالقرب من أنطاكية بناها ابن ابي دؤاد الايادي في خلافة الواثق . قلت ان اسكندرونة كانت موجودة قبل الاسلام . وقد ذكرها المؤرخان اليونانيان هرودتس وكسنفون باسم ميرياندروس . الا ان هذه كانت خارج البلدة الحالية والى الجنوب الشرقي منها وكانت مستعمرة لفريق من الفينيقيين . وقد اكتشفوا في الايام الاخيرة كثيراً من آثار ميرياندروس وفسيفسائها . اما اسكندرونة الحالية فهي بلا ريب من عهد الاسكندر شيدها خلفاؤه وسموها باسمه لتمجيد النصر الباهر على دارا ملك الفرس في وقعة ايسوس . ولعل ابن ابي دؤاد الذي ذكره احمد الكاتب رممها بعد خراب قد يكون أصابها في ذلك الحين . يبلغ عدد سكانها الآن ثلاثة عشر ألفاً وهم بازدياد اكثرهم من الأرمن اللاجئين من بلاد الترك بعد سنة ١٣٤٠ . وقد جعلت منذ احتلال الافرنسيين قاعدة لمتصرفية شبه مستقلة تتبع حكومة دمشق في بعض الامور وتشمل الجزء الشمالي الغربي من ولاية حلب القديمة وألحق بها ثلاثة أقضية اسكندرونة وأنطاكية وقرق خان وألحق بالقضاء الاول ناحية اسكندرونة وعرسوز وبالثاني نواحي أنطاكية والسويدية وعوافية وجبل موسى وكسب والاوردو وقصير الفوقاني والوسطاني والتحتاني والحربية وبالثالث نواحي قرق خان وحاجيلر والريحانية وبيلان .

الحال نظر نصوح باشا الذي كان صدراً أعظم في زمن السلطان احمدخان فشرع ببناء قلعة حصينة في اسكندرونة ولكن السلطان نقم عليه بعد حين لتهامل بدى منه فقتله وبقيت القلعة دون اكمال . وحبذا لو أكملت هذه القلعة وجدد عمران اسكندرون لأنها فرضة بحرية ذات مكانة وقريبة من حلب نحو مرحلتين . وقد علمت انه يزورها في كل عام من سفن المسلمين والافرنج اكثر من مائتي غليون . هذا وحرمان هذه الفرضة من قلعة جعل الافرنج يتقاعسون عن دفع المكوس الى الملتزم الذي التزمها بمائتي حمل(١) . ولاسكندرونة قاضي يجبي من قراها خمسة أكياس(٢) ولها ميناء لطيف لولا ان غربيه مكشوف يأتي بالرمل فيحول دون اقتراب السفن من الشاطئ ويضطرها الرسو على بعد رمية مدفع . والى الغرب من ميناء اسكندرونة وعلى بعد ٢٦٠ ميلاً بحرياً(٣) يوجد رأس اندراوس في جزيرة قبرص وقد قيل لي انه اذا اعتدل الهواء وصفا أديم السماء ترى من هنا جبال قبرص المجللة بالثلوج . اما انا فلم يتسن لي رؤية ذلك . ويكثر وجود الافرنج والروم في اسكندرونة لهذا لاتجد فيها جامعاً او خاناً او حماماً او سوقاً سوى الحانات فانها كثيرة . وقد اعتاد الصادي والغادي الى اسكندرونة ان يمكث ليالي الشتاء في هذه الحانات حتى صارت تشبه الخانات . ويجلب الماء الى اسكندرونة على ظهور الحمير من

(١) اذا كان الحمل مائة الف قرش فالمائتا حمل تعادل عشرين مليوناً من القروش ولعل الچلبي مبالغ بهذا المبلغ . (٢) الكيس خمسمائة قرش . (٣) صحيحه مائة وخمسة أميال .

نبع في خارجها يدعى نبع القوافل(١) وقد اعتاد الداخلون الى هذه البلدة والخارجون منها ان يضربوا خيامهم قرب هذا النبع . وفي اسكندرونة وكلاء اوقناصل لسبع دول . اما القناصل الاصليون فمركزهم في خان الافرنج في حلب . ولما كانت الاسكندرونة فرضة بحرية وباب تجارة لحلب وضواحيها تجد بجانب جمركها مخازن عظيمة يقوم فيها تجار الافرنج بالبيع والشراء دون انقطاع . حتى انه لما مر مولانا مرتضى باشا من هنا بموكبه الحافل كان من سفن الافرنج ستة وعشرون غليوناً راسياً في الميناء فأطلق كلها المدافع ترحيباً بجنابه ودام الاطلاق مدة غير يسيرة حتى كادت الغلايين لا ترى من كثرة النار والدخان . وتحيط باسكندرونة مستنقعات(٢) . ثم قمنا من هنا مع الركب فمررنا بنبع القوافل وسرنا نحو القبلة نحاذي الساحل تارة ونصعد في الجبال أخرى وكان المطر ينهمر علينا بشدة الى ان وصلنا الى بليدة تدعى بيلان(٣) .

---

(١) يدعى هذا النبع الآن رأس العين ومذ ماتقدمت اسكندرونة في العمران مدت الانابيب الحديدية من رأس العين الى البلدة وأسيلت فيها المياه واستراحت الحمير من النقل .

(٢) كانت هذه المستنقعات ذات مساحة عظيمة تحيط باسكندرونة وتتخلل أحياءها وأزقتها وتجعل هواءها وبيلاً والاقامة فيها خطرة لشدة الوبالة الناشبة في سكانها . دام هذا الحال الى أوائل القرن الحاضر اذ مدت الحكومة العثمانية سكة حديدية صغيرة كانت تنقل بها التراب من الآكام القريبة وتطمر بها تلك المستنقعات وظلت العناية بالطمر قائمة الى الآن حتى زال كثير منها وحسن المناخ عما قبل وازداد عمران الاسكندرونة .

(٣) الطريق بين اسكندرونة وبيلان وطوب بوغاز (٢٧ كيلومتراً) معبدة ومعتنى بها وهي من أنزه الطرق وأجملها . يغادر السائح مستوى البحر في اسكندرونة حيث الحرارة

وصف بيلان .— وبيلان مركز قضاء يتبع أيالة حلب فيها نحو ثلاثة آلاف من السكان ودورها مبنية من الطين على طرفي جبلين متقابلين بينهما واد . وهذه الدور يركب بعضها فوق بعض وتتخللها أزقة ضيقة . وهواء

والرطوبة شديدتي الوطأة فيمر من أمام رأس العين وعلى قيد غلوة منه المكان الذي يظن انه كانت فيه مدينة ميرياندروس ثم يشرع بتسلق أعضاد جبل اللكام وكلما اعتلى يجد الهواء العليل والمشهد النضر وفي الكيلومتر العاشر يرى على يمينه الطريق الصاعدة الى قرية صوغوق اولوق (علوها ١٠٠٠ متر وسكانها أرمن) وفي غربيها قرية النار كيزللك (علوها ٥٠٠ متر وسكانها أتراك) ويقصد اهل اسكندرونة وحلب هاتين القريتين للاصطياف حيث يجدون المناخ الطيب والمنظر الجميل والحراج الغيباء والفنادق الجميلة ناهيك عن زرقة البحر ومرآه الرائع وفي الكيلومتر (١١) مفترق الطريق الصاعدة الى قرية عاتق الارمنية (علوها ١٠٠٠ متر) وهي وان لم تضارع جارتها بالحراج والفنادق لكنها تفوقها بالينابيع الباردة وجمال المناظر في الصرود الشاهقة بقربها كثنية كوزبل (١٦٠٠ متر) وقمة شا كشاك (١٨٣٥) وفيها مشاهد تأخذ بمجامع القلوب حقاً . فالواقف اذا تطلع الى الشرق يرى آكام جبل اللكام تنحدر أمامه نحو سهل العمق ومستنقعاته وبحيرة أنطاكية الزرقاء وما في شرقها من الجبال والهضاب كجبل الزاوية والاعلى وباريشا وسمعان والكرد وغيرها الممتدة في الأفق البعيد حتى سهول حلب الغربية واذا تطلع نحو الشمال يرى قمماً في جبل اللكام تناطح السحاب كالماطاغ (١٨٣٥) ودازتبه (١٧٠٧) وآق قيا (٢٥٠٠) ومغبر (٢٢٦٧) ويرى بينها نجاداً ومرابع متسعة انتشرت فيها الوف من قطعان الغنم والماعز ترعى الاعشاب والانجم النضة وفي الغرب سلسلة جبال طوروس التي تنفصل عن آمانوس بسهول قيليقية الفسيحة والبحر الخضم وقد سترت الغيوم البيضاء زرقته فزادت في روعة المشهد . وهذا ماحمل ياقوت في معجم البلدان ان يذكر جبل اللكام قائلاً : هو الجبل المشرف على انطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور اه . هذا وفي الكيلو متر (١٣) يصل السائح الى بيلان . وهي بليدة جميلة المنظر ، طيبة الهواء ، غزيرة المياه (علوها ٥٠٠ متر) يشطرها الوادي السحيق الفاصل مابين جبل اللكام وجبل الاحمر الى شطرين بنيت

بيلان جيد وماؤها عذب وصحة أهلها حسنة وفيها مسجد جميل له قبة مكسوة بالرصاص وامامه خان عامر وفيها ايضاً حمام وحوانيت عديدة وينتج فيها فواكه وأعناب لذيذة فهي صالحة في الجملة للاصطياف ثم ان في الجبال التي تعلوها نجود اشتهرت بنقاء هوائها وطيب مراعيها (١) ثم غادرنا بيلان وسرنا

دورها كما قال الجلبي في سفحي الوادي بعضها فوق بعض ، سكانها ٣٠٠٠ ثلثاها من الترك والثلث من الارمن . لم يذكر جغرافيو العرب بيلان اذ لم تكن عامرة في زمنهم وربما هي التي كانت تدعى باب اسكندرون . قال ابوالفداء : باب اسكندرون في زماننا هو دربند بلاد سيس من جهة حلب وهو على دون مرحلة من بغراس وليس هناك مدينة بالاصالة ولا قرية وبين بغراس وباب اسكندرونة اثنا عشر ميلاً اه . قلت والعمران كان منحصراً بقلعة بغراس التي سمى العرب المضيق اوالدربند بها في حين ان الافرنج سموه باب سورية (Pylea Syriae) ومنه مرت في العصور الغابرة اكثر جيوش الفاتحين الواردين على الشام اوالخارجين منها . وبيلان تقع في مبدإ هذا المضيق المظيم الذي يفصل جبل اللكام عن جبل الاحمر وربما كان اول من سعى في عمران بيلان هو السلطان سليمان القانوني فقد أعجبته مكانتها من الوجهة الحربية والتجارية فبنى فيها في سنة ٩٦٠ ه الجامع والخان اللذين ذكرهما أولياچلبي ووضع جنوداً لحفظ المضيق وأسكن عدداً من التركان جلبهم من الاطراف ومازال هؤلاء يزدادون وبيلان تتقدم في العمران وصارت ممر القوافل والجيوش بعد ان كان الممر بعيداً عنها قليلاً الى الشمال وصار اهل اسكندرونة يلجأون اليها في الصيف للتمتع بهوائها ومائها اللذين نوه السائحنا بجودتهما . رما برحت بيلان في عهد بني عثمان مركزاً للقضاء الى ان وفدت في سنة ١٣٠٠ ه ومابعدها جموع الارمن على اثر إخراجهم من بلاد الترك فاسكنت الحكومة الافرنسية طائفة منهم في موضع (قرق خان) في غربي سهل العمق وعلى طريق حلب المعبّدة فعمروا هذا الموضع الذي لم يكن الى ذلك الحين شيئاً مذكوراً وجعلوه بليدة حافلة بالدور والحوانيت والفنادق والمقاهي وغيرها ثم نقلت مركز القضاء اليه في سنة ١٣٤٢ ه وتركت بيلان قاعدة لناحية فأفل نجمها من ذلك الحين .

(١) يعني الجلبي نجود جبل الاحمر المعروف هنا بقزل طاغ ويعده البعض تتمة سلسلة

نحو الجنوب نصعد عقبات ونهبط أودية الى ان اجتزنا مضيقاً فيه جنود مكلفون بحفظ الدروب(١) وشاهدنا في يميننا على بعد رمية مدفع «قلعة بغراس» وهي

آمانوس ويحسبه آخرون مستقلاً عنه بمضيق بيلان . وهذا الجبل وفروعه الغربية الممتدة من جنوبي بيلان الى ميناء عرسوز ورأس الخنزير تداشتهر مثل جبل اللكام بمافي منحدراته وآطامه من حراج الشجر الغضيض والمرابع الخضراء والمشاهد الجميلة والينابيع السارية مع شيء من الضباب الذي يخفف وطأة الحر في الصيف . واكثر حراجه مؤلفة من الصنوبر الحلبي والصنوبر الاسود والبطم والبلوط والقطلب والشوح والجوزوغيرها ويستخرج القطران من أشجار الصنوبر بكثرة . وفي هضابه المرتفعة آثار معادن مختلفة لم تستثمر بعد . ويقطن النصيريون في السهول الساحلية المصاقبة لسفوحه الغربية بين اسكندرونة وعرسوز وأشهر قراهم قره آغاج وهم فلاحون ويقيم التركمان في النجود والهضاب لاسيما حول غابات كسريك وقره كوز وجنكان وبش اولوق ومهنتهم قطع الحطب وصنع القطران وهم على الفطرة وصدق المعاملة وتربي قرى الارمن في جبل موسى غربي انطاكية الى الشمال دود الحرير ويصنع أهلها الامشاط من خشب القطلب . وفي سني الحرب العالمية لما أجبرت الحكومة العثمانية هؤلاء على الهجرة كما جرى لبقية الارمن اعتصموا بجبلهم بين الحراج وحاربوا الحملة التي هاجمتهم واستبسلوا الى ان توصلوا للاتفاق مع سفن الحلفاء فركبوها رجالاً ونساء وانتقلوا الى ساحل مصر وهناك الفوا كتائب الانتقام الارمنية التي زحفت مع جيش الجنرال اللنبي سنة ١٩١٨ ودخلت مدن الشام وكان منها ماذكره المؤرخون .

(١) بعد مغادرة بيلان يظل السائح صاعداً في طريق طوب بوغاز الى الكيلو متر (١٦) حيث يلاقي مضيق بيلان او دربند بغراس كما كان يدعى «علوه ٧٠٠ متر» فيشرف من هذه الروابي النضرة على منظر غاية في الروعة والبهاء فهو يرى في الشرق سهل العمق ومستنقعاته وبحيرته والجبال والآكام المحيطة به فيحلق في سماء التفكير ويتذكر كيف مرت من هنا جحافل الأشوريين والفرس والمقدونيين والرومانيين والبيزنطيين والمسلمين الأولين بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي والحملة الصليبية الاولى وجيوش المماليك والتركمان والتتار وابراهيم باشا المصري الذي كسر فيه سنة ١٢٤٨ الجيش العثماني بقيادة

قلعة قديمة تعاورتها أيدي كثير من الملوك الى ان افتتحها السلطان سليم بالامان حينما مر بهذا الطريق وهو ذاهب لقتال الملك قانصو الغوري في مرج دابق . والقلعة صغيرة القد مخمسة الشكل مبنيـــة على هضبة اتخذت قضاء تابعاً لايالة حلب وأقيم فيها كتخدا وقائد جند الانـكشارية ومحافظ القلعة وجنود وفيها جامع وخان وحمام وسوق صغيرة(١) على انها لانحرافهـا عن الطريق ليست

الســـردار حسين باشا . وبعد المضيق يبدأ الطريق بالانحدار ففي الكيلو متر ٢٠ موقع جقاللي وفيه مخفر للدرك يؤمنون السابلة في هذه المسالك الوعرة وهنا يلمح السائر على يمينه (قلعة بغراس) رابضة فوق رابية تشرف على هذا الطريق .

(١) قال ابو الفداء : بغراس من جنـد قنسرين ذات قلعة مرتفعة ولها اعين وواد وبساتين قال ابن حوقل وبغراس على طريق الثغور وكان بها دار ضيافة لزبيدة وهي في الجبل المطل على عمق حارم وفي معجم البلدان لياقوت بغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ ذكرها البحتري في شعر مدح به احمد بن طولون الذي حاصر سيما الطويل التركي صاحب انطاكية في سنة ٢٦٤ وجرت بينهما حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم قال البحتري :

سيوف لها في كل دار غداً ردى وخيل لها في كل دار غداً نهب
علت فوق بغراس فضاقت بما جنت صدور رجال حين ضاق بها درب

كانت تدعى هذه القلعة في زمن الروم حصن لوقا وهي في يومنا خراب في الجملة على ان اطلالها لا تزال ماثلة وهي اكبر مما ذكره الچلبي كانت تسع زهاء الفي جندي وكان لها سوران وكنيسة وبهو كبير واربع طبقات من القاعات المعقودة سقوفهـا وكثير من المستودعات والاصطبلات والغرف والآبار وكان لها قناطر علوها ١٨ متراً تأتي بالماء من الجبال الى القلعة والبناء الحالي اسلامي يتخلله بعض آثار للروم وللصليبيين . قال الكولونل جاكو مؤلف كتاب انطاكية ماخلاصته : ان لقلعة بغراس مآسي مفجعة في تاريخ المسلمين منها ان الروم لما جاؤا بقيادة القيصر نيكوفورفوكاس في سنة ٣٥٨ هـ وغزوا بلاد الشام

عامرة وانحصرت الآن شهرتها بزهورها الفيّاحة لاسيما بالسنبل والمسك الرومي وأهلها يقلعون من جبالها وحدائقها أبصال الزهور الجميلة فيحملونها ويبيعونها في بقية البلدان وقد يصلون بها الى استانبول · «للبحث صلة»

وصفي زكريا



حتى حمص وعرقة وطرابلس وجميع الساحل واعملوا فيهما النهب والحرق والخراب عادوا ومعهم من السبي مئة الف صبي وصبية من ابناء المسلمين ولما ساقوا هؤلاء المساكين امامهم ليأخذوهم الى القسطنطينية اشتدت انواء الشتاء وسدت المسالك في جبال آمانوس وطوروس فاضطروا للوقوف بهم في قلعة بغراس · ولما لم تكن الأقوات ووسائل الايواء والتدفئة كافية حصدهم الجوع والبرد والامراض وصارت سهول العمق مقابر لهم اهـ· قلت وبعد ثلاث سنوات تمكن الروم من فتح انطاكية بخيانة اهل بغراس الذين بعد ان التجؤا الى انطاكية نقبوا الأسوار ومكنوهم من الدخول · وحينما جاء الصليبيون في الحملة الأولى اخذوا بغراس فيما اخذوه من بلاد الشام الشمالية وجعلوها مع قلعة دربساك وحارم وارتاح مخفراً امامياً لانطاكية الى ان جاء الملك الناصر صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ فحاصر بغراس ودربساك وقاتلها بشدة حتى افتتحها بالامان الا انه بعد بضعة اعوام جاءها مقدم الأرمن ابن لاون فدخلها وظلا بيده تارةً وبيد الصليبيين أخرى الى ان استولى الملك الظاهر بيبرس عليها نهائياً حينما فتح انطاكية عنوةً سنة ٦٦٨ · هذا ولم يبق من القرية في اسفل القلعة من العمران الذي ذكره الچلبي سوى ٣٠ — ٤٠ دار منتشرة على طول الوادي والعيون والبساتين التي ذكرها ابوالفداء يسكنها فلاحون من النصيرية والتركمان ولم أدر اذا كانوا كما قال الچلبي يتاجرون حتى الآن ببصل الزهور أم لا ·

عبقرية الجاحظ(1)

—(())—

تبين لنا في كلامنا على عصر الجاحظ ان الجاحظ متصل بكل أفق من آفاق هذا العصر، فلئن استفاضت حرية التفكير في عصره فما غاب عن هذه الحرية فقد كان يرجع الى عقله في كل مذهب من مذاهبه، ولئن شاعت الزندقة والخرافات والاباطيل في أيامه فما غفل عن التنديد بها والتقذر منها، بقي أن نعلم مقدار اتصاله بالناحية الثالثة من نواحي عصره، وهي جهة الانقلاب الفكري فما هو نصيب الجاحظ من هذا الانقلاب .—

نقلت في أيامه كتب الهند وترجمت حكم اليونانيين وحوّلت آداب الفرس، فما هو حظ الجاحظ من هذا النشاط الفكري .—

قد كنت ذكرت لكم في بعض المواطن ان الجاحظ انما هو كامل من الكملة وأردت بكلمة الكامل ما يريده الافرنجة بكلمتهم Encyclopédiste فالجاحظ لخص معارف عصره على نحو ارسطاطاليس في القديم، وقد أشار بعض الافرنجة الى امتداد هذه العبقرية وانبساط مجالها فاستشهد أحدهم وهو البارون « كارادي ڤو » Baron Carra de Vaux في كتابه : أصحاب الفكر في الاسلام، بفصل الجاحظ في نفع الكتاب وهو الفصل الذي عقده في مقدمة كتاب الحيوان فدلّ على براعته في الانشاء فبعد أن ذكر البارون طائفة من هذا البحث قال :

« هذا بوجه التقريب نمط من أنماط فصول الجاحظ، ان في هذا كله مجموعاً قد يكون في بعض الأحيان غير منسجم ولكنه ملآن بالحوادث والأفكار، اني لا أجسر على أن

(1) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة 1931 .

أؤكد أن كل فصوله قد تكون خصيبة مثل هذا الفصل ولكننا قد نلاقي في كلها بعض الشيء ، ولنذكر ايضاً أن في رسائله الصغيرة قطعاً جديرة باستيقاف الباحثين وخليقة بدراسة خاصة ففي رسالة التربيع والتدوير تعرض لنا ولا أدري كيف يكون ذلك سلسلة طويلة فيهامسائل في كل أنواع الموضوعات والعلوم ، في التاريخ والأساطير وطبقات الارض كأن هذا كله انما هو برنامج «موسوعة» تدل على روح التطلع في القرن التاسع وفي رسالة الأسود والأبيض كلام موجز على تاريخ الزنج وذكر أبطالهم وفتوحاتهم ، كل هذا مجموع حوادث قلّ من يعرفها وقد تنفع في البحث عن روح الامم والأجناس .—

ان هذا النوع من علم الروح كثيراً مايستهوي الجاحظ فهو يرجع اليه من حين الى آخر فان عقله الغريب الميّال الى النقائض يحمله على النظر في الأمم التي لم يكن لها على أيامه مقام عال ، وعلى هذه الصورة ان لرسالته في مدح الترك فائدة ومن الممكن ان تكون هذه الرسالة اول الكتب التي توسّع أصحابها في الكلام على الترك وجعلوا لهم بعض الشأن فان خصائص الامم تشغل ذهن الجاحظ فهو يأتي على ذكرها في عدة مواطن .— »

* * *

خاض الجاحظ في كل باب من الأبواب فلم يتعاظمه الكلام على الاجتماع أو على الأخلاق أو على التربية والتعليم أو على الطبيعة أو على التاريخ الطبيعي أو على فلسفة اللغة الى غير ذلك من المذاهب التي تدلّ على سعة عبقريته غير أن استقصاء هذه الغرائب والعجائب قد يطول أمره ولكننا لامندوحة لنا عن الإلمام ببعضها حتى نعرف شيئاً من امتداد عقل الجاحظ .—

يتنقل الجاحظ على نحو ماقال البارون « كارادي ڤو » من فكرٍ الى فكر ولكنه يظل في هذه التنقلات صاحب نكتةٍ ، خفيف الروح ، محبوب النفس ، انه يلعب من دون ان يُضجر غيره في هذا اللعب .—

مرةً يخطر بباله باب من أجلّ أبواب الاجتماع في هذا العصر وهو الكلام على حقوق النساء فينبري للدفاع عن المرأة والمطالبة بتوفير حقوقها فكأنه نصير النساء في أيامنا

هذه [١] :

« ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن اكثر حقوقهن وأن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام الا بان ينكر حقوق الأمهات والأخوال فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ولولا ان ناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخور لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب . — »

وقد قال في مقام آخر [٢] :

« ونحن وان رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء اكثر وأظهر فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الأمهات وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت أرى ان حق هذا أعظم فان هذه أرحم . — »

ومرةً يتغلغل في أعماق الجماعات فيقلب النظر في أخلاقهم فلا يزال يمارس هذه الأخلاق ويدوّن في ذهنه نتائج مراسه وتجربته حتى يكشف الغطاء عن أسرارها فيقذف في هذا المعنى بالرأي الخمير الذي لا تزيده الايام الا قوةً وتمكناً من هذا الباب كلامه على السفلة والوضعاء والمحقَّرين الذين اذا صار اليهم شيء من الامر ظلموا وغشموا [٣] :

« والكِبْر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم فصار لا يعرف ذلك الا أهل المعرفة ، كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود ، والجملة ان من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ظهر من كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به فان كان ذمياً وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك واستظهرت به طبيعته بما يظن ان فيه رفع ذلك الخرق

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الاول ص ١٥٢ .

(٢) 〃 〃 〃 〃 ص ١٦١ .

(٣) كتاب الحيوان الجزء السادس ص ٢٢ .

وحياض ذلك الفتن[1] وسد تلك الثلمة فتفقد ما أقول لك فانك ستجده فاشياً وعلى هــذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكاً من الحر وشيء قد تتلمذ علماً وهو اني لم أر ذا كبر قط على من دونه الا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه ٠ — »

ونحن اذا تنقدنا ماقاله وجدناه فاشياً كل الفشو حتى نكاد نلمس بايدينا هذه الأخلاق في كل جانب من جوانبنا فما أصدق قوله ، وما أبين رأيه ! لقد تعمق في روح الجماعات وأمعن في دراسة هذه الروح فبعد دراسته للحيوان وإظهاره لاخلاقه وطبائعه ومقابلته بين أصناف هذا الحيوان وكلامه على تعادي هذه الأصناف ، بعد هذا كله يرتفع الى أفق أعلى من أفق الحيوان فيصور عداوة الانسان ويوضح أسباب هذه العداوات فيقول[2] :

« وأسباب عداوات الناس ضروب منها المشاكلة في الصناعة ، ومنهــا التقارب في الجوار ، ومنها التقارب في النسب والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة والمساكن عدو للمسكن والفقير عدو للغني وكذلك الماشي والراكب وكذلك الفحل للخصي وبغضــاء السُوَق موصولة بالملوك وكذلك الوُصْلة بالمال الرغيب وكذلك الوارث والموروث وجميع هذا تفسير ولكنه يطول ٠ — »

فلو أحببنا أن نمتحن قوله في هذه الايام لما وجدنا فيــه انحرافاً عن الحق فليس آراؤه في الاجتماع الا بنات تجربته وعيانه وكما انه درس أخلاق الجماعات العامة فكذلك درس أخلاقهم الخاصة وأمعن في هذه الدراسة في مثل كلامه على البخل أو على الفسق او على الحسد فلم يفته لون من ألوانها أو حركة من حركاتها أو هيأة من هيآتها ، ومن قرأ كتابه فـي الحاسد والمحسود تجلّت له قدرته على تصوير الاخلاق الخاصة فيكاد يكون في هــذا الباب عالماً من علماء النفس يتصل باجزائها فيقاربها ويخالطها ويعرض لكل ناحية من نواحيها ويصف هذه الناحية أدق وصف ويصورها أتم تصوير حتى اذا فرغ من البواطن انتقل به الكلام الى الظواهر فراقبها وتأمل فيها واستخرج منها صفاتها البارزة وخصائصها الظاهرة ولولا اني اعتقد ان في نقل طائفة من هذا كله تشويهاً لمحاسنه لنقلتها لكم ٠ —

ماذا أنقل ، أأنقل هذا التعريف الوجيز الذي صوّر فيه بكلمتين داء الحسد فقال :

« والحسد أبقاك الله من داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر ، وصاحبه

(١) كذا في الاصل ٠ (٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٣٠ ٠

ضجر وهو باب غامض وامر متعـذر وما ظهر منـه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه في عناء ٠— »

فمن كان له صلة بحاسد من الحساد تجلت له صحة هذا التعريف وشعر بقوته فأي حاسد لم نر جسده منهوكاً وصدره ضجراً لا يملكه غمض الليل ولا يذوق لذة البال فلا تقع عينه على صاحب نعمة الا اضطربت كل أعصابه وكأن الطبيعة عادلة فقد جعلت في قلب الحاسد عقابه.وما هذا العقاب الا النار التي تأكله ٠—

أم أنقل لكم حالة الحاسد الظاهرة :

« وما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه وشخوص عينـه واخفاء سلامه والاقبال على غيرك والاعراض عنك والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك ٠— »

أم حالته الباطنة وهي تنحصر في :

« تراكم الغموم على قلبـه واستكمان الحزن في جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغص عمره وكدر نفسه ونكد عيشه ٠— »

أم تمكن الحسد من صاحبه وسلطانه عليه :

« ما خالط الحسد قلباً الا لم يمكنه ضبطه ولا قدر على تشحينه وكتمانه حتى يتمرد عليه بظهوره واعلانه فيستعبده ويستميله ويستنطقه لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ومن السلطان على رعيته ومن الرجل على زوجته ومن الآسر على أسيره ٠— »

أم وصفه علاج الحسد :

« فاذا أحسستَ رحمك الله من صديقك بالحسد فأقللْ ما استطعت من مخالطته فانه أعون الاشياء على مسالمته وحصّنْ سرّك منه تسلم من شره وبوائق ضره واياك والرغبة في مشاورته ولا يغرنك خدع ملقه وبيـان زلقه فان ذلك من حبائل نفاقه فان أردت ان تعرف آية مصداقه فأدنين اليه من يهينك عنده ويذمك بحضرته فانه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل ومن خلاف المودة ماأنت عنـه غافل وهو اخْ في حسده لك من الذباب وأسرع في تمزيقك من السيل الى الحدور ٠— »

أم وصفه الحاسد نفسه :

« فهو الكلب الكلب والنمر النمر والسم القشب والفحل القطم والسيل العرم وان ملك

قتل وسبي وان مُلِك عصى وبغى حياتك موته وموتك عرسه وسروره يصدق عليك كل شاهد زور ويكذب كل عدل مرضي لا يحب من الناس الا من يبغضك ولا يبغض الا من يحبك عدوك بطانة وصديقك علانية . — »

فاذا دققنا في هذه الأوصاف كلها تحقق عندنا ماقلته لكم من ان الجاحظ عالم من علماء النفس يبني عمله على تجربته ثم يصف ماتوحي اليه هذه التجربة وصف صاحب صنعة وفن . —

ولما كانت التربية والتعليم لا تبعد كثيراً عن الأمور الاجتماعية لم يشأ الجاحظ أن يكون غريباً عنها فقد أدلى في هذا الباب بدلوه ، وعلى بعد عهده عنا وعلى تقدم علم التربية والتعليم في عصرنا استطاع الجاحظ أن يأتي فيه بمذاهب تكاد تكون من احدث المذاهب ، انكم تعالجون التربية والتعليم علماً وعملاً فأظن أن من أحدث قواعده التي تطبقونها في مدارسكم تدريب الطالب على الاستنباط من دون أن يلجأ الى الحفظ لان الحفظ يسد عليه سبيل الاستنباط فيجمد عقله ويبلد ذهنه فاليكم ما قاله الجاحظ في هذا الباب [1] :

« وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه واغفال العقل من التمييز حتى قالوا : الحفظ عذق الذهن ولأن مستعمل الحفظ لا يكون الا مقلداً والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ . — »

وكتابه في المعلمين قد اشتمل على القواعد المتبعة في التعليم في أيام الجاحظ فهو يصور لنا أساليب التربية والتعليم في العرب .

ولم يكن نصيب الجاحظ من علوم الطبيعة بأقل من نصيبه من بعض فصول في الاجتماع والأخلاق والتعليم وما شابه ذلك ، الا انه قد يكون في آرائه الاجتماعية أصح فكراً وأقل خطأ اما في علوم الطبيعة فالجاحظ على جلالة بعض أقواله فيها قد لا يسلم من خطأ فان علوم الطبيعة قد تقدمت في السنين الأخيرة ولكن الأخلاق واحدة في العصور قديمها وحديثها فالحسد الذي صوره الجاحظ انما هو شبه الحسد الذي نقاسي شره في أيامنا . —

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد للكامل — الجزء الاول ص ١٩

خاض الجاحظ في كثير من علوم الطبيعة في الحكمة الطبيعية والكيمياء وتوسع في التاريخ الطبيعي وخاصة في علم الحيوان .—

فلننظر الى بعض آرائه في هذه العلوم .—

انكم تعلمون انهم كانوا في عصر الجاحظ يمزجون الدين بالعلم معنى هذا أنهم اذا جادلوا في أمر من أمور الدين استعانوا في بعض الأحوال بمذاهب العلم من هذا الشكل مجادلة الجاحظ لمجوسي عارضه وقد قرأتم هذه المعارضة في كلامنا على عصر الجاحظ في فصل حرية الفكر ، فمن قول الجاحظ :

« والماء ليس يجمد للبرد فقط فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون متغيرة فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً . وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون . وقد خبرني من لا أرتاب بخبره انهم كانوا في موضع من الجبل يستغنون به بلبس المبطنات ومتى صبوا ماء في اناء وزجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته فليس جمود الماء بالبرد فقط . . . »

اما اليوم فاننا لا نرضى بهذا الرأي على علاته فاننا اذا بحثنا عن جمود الماء قلنا يجمد الماء ويزداد حجمه اذا وصل الى درجة من الحرارة تبلغ الصفر في الميزان المئوي وجموده على صورة قطعة من جليد مركبة من بلورات مسدسات الشكل كثافتها ٠،٩١٨ .—

وكما تعرض للحكمة الطبيعية فقد تعرض للتاريخ الطبيعي فهو من أصحاب مذهب « التولد الذاتي » وله في هذا المعنى حكايات كثيرة من جملتها قوله (١) :

« والذباب من الخلق الذي يكون مرة من السفاد والولادة ومرة من تعفن الاجسام والفساد الحادث في الأجرام والباقلاء اذا عتق شيئاً في الأقباء استحال كله ذباباً فربما أغفلوه في تلك الأقباء فيعودون الى الأقباء وقد تطاير من الكوى والخروق فلا يجدون في الأقباء الا القشور والذباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً ثم يعود ذباباً وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقباً في داخله شيء كأنه مسحوق اذا كان الله قد خلق فيه الذبان وطيره منه وما أكثر ما تجده فيه تام الخلق ولو تم جناحاه لقد كان طار .— »

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٠

وله من هذا الشكل آراء كثيرة في كتاب الحيوان فهو يؤمن بحدوث الخلق من غير ذكر ولا أنثى وبخلق الديدان من الجيف[1] وبخلق القمل من العرق والوسخ اذا علاهما ثوب أو ريش أو شعر[2] :

لقد أبطل العلم هذه الآراء بمجامعها فقد دلت تجاريب « باستور » Pasteur على ان «التولد الذاتي» أمر ممتنع فكل جحيرة مصدرها جحيرة مثلها وكل حي لا يلده الا حي مثله معنى ان الأحياء لا تلدها المواد العضوية أو المواد المعدنية .—

وقد كان للمتقدمين معتقدات غريبة في هذا الباب فقد زعموا ان القمل يلده لحم الانسان وان الديدان يلدها اللحم الفاسد وان البق ينشأ عن اختمار الروائح وماشابه ذلك .—

ان هذا كله قد ردّه العلم في أيامنا واذا وجدنا الديدان في اللحوم فمعنى هذا ان الذباب باض في هذه اللحوم فلو منعنا الذباب عن البيض لامتنعت الديدان فاذا ظهرت أحياء في مادة عضوية أو في مادة معدنية فهذه الأحياء ناشئة عن أحياء مثلها تغلغلت في هذه المواد وما أكثر تجاريب «باستور» في هذا المعنى .—

والى جنب هذه الآراء الباطلة قد تجد للجاحظ آراء جليلة في العلم تكاد تكون من أحدث الآراء فالحيوان في بيئة ما يكون تركيب خلقته مناسباً لهذه البيئة فمن قول الجاحظ في الضب[3] :

« قالوا : من كَيْس الضب ان لا يتخذ جحره الا في كُدْية وهو الموضع الصلب أو في الارتفاع عن المسيل والبسيط ولذلك توجد براثنه ناقصة كايلة لانه يحفر في الصلابة ويعمّق الحفر .— »

فانظروا كيف علّل نقصان براثنه وكلالتها فبراثنه ناقصة كايلة لانه يحفر في الصلابة ويعمق الحفر وهذا التعليل علمي محض .—

والى جنب هذا كله بحثه عن غريزة الحيوان وعن إحساسه وماأحببت ان استقصي هذه الآراء فادل على ما بطل منها وعلى ما صح في عصرنا هذا فان هذا العمل انما هو عمل العالم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤
(٢) 〃 〃 〃 الخامس ص ١١٢
(٣) 〃 〃 〃 السادس ص ١٢

لا الاديب فاذا تفرغ علماؤنا لتدوين أطوار العلم في العرب استطاعوا أن يجـدوا للجاحظ مادة واسعة في هذا الباب وأما عملنا فاننا نقتصر فيه على الإيجاز في الكلام على الجاحظ من حيث سعة عبقريته .—

وبينا نجده يبحث أمثال هذه المباحث اذ يتفرغ لباب من أروع أبواب اللغة وهو باب: حياة الألفاظ ، انكم تعلمون أن لتغيير معاني الألفاظ أسباباً منطقية وأسباباً روحية وأسباباً أدبية ، فمن جملة الأسباب المنطقية الاستعارة فالاستعارة تنقل اسم الشيء الى شيء غيره لصفة من الصفات يشترك فيها الشيئآن فورقة الشجر تعير اسمها ورقة الكتابة بسبب الرقة التي تشترك فيها الورقتان فانظروا كيف يخوض الجاحظ في مثل هذا الفصل فيقول [1] :

« ثم سموا الآطام التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصي قال الله عز وجل : وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم والعرب تسمي الجارح وذا الجثة صاحب سلاح فلما كان اسم سلاح الديك ومايمتنع به صيصية سموا قرن الثور الذي يجرح صيصية وعلى انه يشبه في صيصية صورته بصيصية الديك وان كان أعظم ثم لما وجدوا تلك الآطام معاقلهم وحصونهم وجنتهم وكانت في مجرى الترس والدرع والبيضة اجروهما مجرى السلاح ثم سموها صياصي ثم اسموا شوكة الحائك التي بها تهيأ السداة واللحمة صيصية اذا كانت مشبهة بها في الصورة فان كانت أطول شيئاً ولانها مانعة من فساد الحوك والغزل ولانها في يده كالسلاح متى شاء أن يجأ به انساناً وجأه به وقال دريد بن الصمة :

نظرت اليـه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدد

وقد تسمي العرب ابرة العقرب شوكة كما تسمي صيصية الديك شوكة وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل ويقال لمن ضربته الحمرة قد ضربته الشوكة لأن الشوكة اذا ضربت انساناً فما أكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة ....— »

ثم توسع في هذا الباب على هذا النحو .—

هذا نمط من الأفكار التي عالجها الجاحظ يدلكم على شيء من سعة علمه وامتداد أفياء عبقريته ومن خصائص الذين يخوضون في أبواب كثيرة ويتعرضون لمذاهب شتى قلة التعمق فقد تعرض لهم أفكار كثيرة لانبساط ثقافتهم فيلمون بها إلماماً ولا يتعمقون فيها تعمقاً فهم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٨٥

يفهمون كل ما يقع عليه نظرهم ولكنهم قد لا يفهمونا إياها في بعض الاوقات على نحو فهمهم لها فالجاحظ من هذا القبيل في بعض مباحثه فهو يلهو بالمعاني لهواً فيخرج من فكر الى فكر ومن معنى الى معنى ولكنه يضرب في آفاق كل المعاني ويجول في ميدان كل الأفكار ، ايُّ كتاب من كتبه بل ايُّ سطر من سطوره لا يوطئ للقارئ مجال التفكير وسواء أتوسع في أفكاره أم ألمَّ بها إلماماً انه عظيم ولست أدري هل أورثتنا عبقرية العرب أعظم منه فهل نعرف حياةً أوسع آفاقاً من حياته العقلية وذهناً أخصب تربةً من ذهنه وفكراً اشدَّ انطلاقاً من القيود من فكره ، لقد ذاق لذّة الحياة العقلية وتقلّب في أعطافها فخالط عالم الأفكار واستأنس بهذا العالم فلم يستوحش من ناحية من نواحيه ، خاطب العقل في قرن متكامل ولكن هل تعلمون أي عقل خاطبه ، لقد خاطب العقل الذي يكره كل باطل من الاباطيل وكل قيد من القيود ، فما كان عقله بأنس الا بضياء الاشياء وما كان هذا العقل ينقبض الا عن ظلامها ففي كل يوم كان يطلع على العالم بأفكار حديثة فما كان غذاؤه الا الأفكار والا المعاني ، لقد سكر كل حياته بألوان الأدب وبرنّات الفاظه وثمل كل عمره من لذّة العلم فجمل هذا الأدب وهذا العلم نزهة عقله ومشحذة طبعه وبجيع نفسه وعمارة صدره !

دمشق : في ٢ نيسان ١٩٣٢

شفيق جبري



صفي الدين الحلي

هو الشاعر المطبوع أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا الشهير بصفي الدين الحلي .

والحلة المنسوب اليها الشاعر هي حلة بني مزيد ، وتسمى حلة بابل لوقوعها قرب بابل القديمة الى الجنوب ، الا أن أطلال بابل على شاطئ الفرات الشرقي ، والحلة على شاطئه الغربي شمالي أطلال الكوفة ولا تزال الحلة عامرة الى عصرنا ، وبنو مزيد أصحابها بطن من بني أسد بناها منهم الامير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس (كزبير) ابن علي ابن مزيد الاسدي سنة ٤٩٥ في مبدإ الدولة السلجوقية . وكانت من أرقى مدن العراق غير أن توارد الاعراب عليها ونزولهم بها جعلها كثيرة الفتن والحوادث

الحالة السياسية والاجتماعية في عصره

نشأ المترجم في عصر الدول التركية التي كان سلطانها حينئذ يمتد من شواطئ المحيط الاعظم (الهادي) الى برقة غرباً ، ومن شواطئ المحيط القطبي الشمالي الى حوض الكنج واليمن ودنقلة جنوباً ، ولو كان هذا الملك العظيم مستظلاً براية واحدة ومحكوماً بنظام واحد لنشأ في أحضانه أسمى حضارة شهدها سكان كوكب الارض ، ولكن سلطان هذا الجيل التركي لم يكن متوحداً الا في الجذم الطوراني وأصول اللغة ، وكان متقاطعاً في الدين والمذهب ، متدابراً في أصول الحكم والسياسة متفنناً في اختراع صنوف الظلم والقسوة ، فلم يجر على العالم الا الفتن المبيرة واختفاء آثار الحضارات السابقة لحكمه ، فتكونت منه دول لا تحصى من التتار في الصين وشمال آسيا وأواسطها وشرقي أوربة ، ومن بقايا السلجوقيين في الجزيرة وآسيا الصغرى وشمالي الشام ، ومن المماليك التركانية بالشام ومصر وبرقة والنوبة والحجاز . وكان ملوك كل دولة من هذه الدول الكثيرة يحكمون

البلاد بولاة وعمال من الترك مؤيدين بجيش من جنسهم وكان من الرعايا المقهورين كل رجال القضاء والادارة وجباية الاموال واعمال الري والعمارة . وفي الجملة أكثر أرباب الاقلام والادباء والمدرسين والمؤلفين ، ولذلك كان تأثير سلطانهم في اللغات الوطنية وآدابها ضعيفاً بالاضافة الى تأثيره في اضطراب الأمن وزعزعة أركان الحضارة القديمة ، ولذلك بقيت اللغة والآداب الصينية غالبة على مغول الصين ، والفارسية غالبة على مغول فارس وأواسط آسيا وعلى بقايا السلجوقيين فيها ، والعربية غالبة على الدويلات المتشعبة من السلجوقية في العراق والجزيرة وعلى دولة المماليك بمصر والشام ، ومن تلك الدويلات دويلة كان ملوكها سلالة مملوك تركي من مماليك (ملك شاه السلجوقي) يدعى (أرتق) .

صرف شاعرنا أكثر عمره في خدمة ملوكها . وكان الشأن في كل أسرة ملكية من الترك في العراق والجزيرة ومصر والشام اذا طال أمد حكمها في بيئة عربية أن يستعربوا أو يلموا بالآداب العربية ، فيروج عندها الادب العربي بعض الرواج ويعجبهم تأليف الكتب بأسمائهم ، وربما اتخذوا من أدباء العرب بطانة لهم وندماناً وسماراً ، بل ربما نظم بعضهم الشعر لهذا نجد شاعرنا ينتقل أحيانا في العراق والجزيرة والشام ومصر ويعيش بالادب ، ونجده يكثر في شعره من وصف غلمان الاتراك لكثرتهم في زمنه وامتلاء اسواق الرقيق بهم مما يسبيه المغول في غاراتهم على شمالي آسيا وشرقي أوربة ، وكثر في شعره الطرديات لولع الترك بالصيد .

نشأته . — ولد المترجم سنة ٦٧٧ ﻫ بمدينة الحلة من أسرة عربية من قبيلة سنبس احدى قبائل طيء ، وكانت عشيرته على اشتغال كبرائها بالفقه والأدب على حالة بداوة : تحمل السلاح ، وتشترك في الغارات والحروب ، وتطالب بالثأر ؛ فنشأ المترجم نفسه على هذه السجايا ، فتأدب على أهله وعلماء بلدته وعلماء بغداد لقربها منها وشب مطبوعاً على قول الشعر ينظمه تأدباً وتطرباً لا استجداء به وتكسباً كما قال هو عن نفسه .

وحدث في شبيبته ان شبت فتنة بين أسرته المسماة آل محاسن وبين أسرة أخرى تسمى آل ابي الفضل فاغتال آل ابي الفضل خالاً له يدعى صفي الدين ابن محاسن : قتلوه في مسجده ، وكانوا أقوى من أسرة المترجم ، فأعمل صفي الدين لسانه وقلمه وقصد أمراء النواحي ورؤساء العشيرة يستنجدهم على أخذ ثأر خاله من آل ابي الفضل ؛ وحدثت بين

الفريقين موقعة الخذل فيها آل ابي الفضل فافتخر صفي الدين هو وعشيرته باخذ ثأرهم من عدوهم . فذلك حيث يقول في مطلع قصيدته الشهيرة :

سلي الرماح العوالي عن معالينا   واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

الا ان هذه الموقعة لم تكن خاتمة الفتن ، بل بقيت العداوة يحتدم أوارها ويشتد أذى آل ابي الفضل على المترجم وأسرته حتى أزعجوه عن المقام في بلده ، وخشي غائلتهم ؛ فخرج مهاجراً حتى ألقى عصاه في مدينة ماردين من إقليم ديار بكر بارض الجزيرة الفراتية مستظلاً بحماية ملوكها من بني أرتق ((كملفل)) وهم ملوك دولة من فروع الدولة السلجوقية دخلوا في طاعة التتار وحاسنوهم فأبقوهم على حكم ماردين وإقليم ديار بكر . ومؤسس ملكهم أرتق الكبير وهو مملوك شجاع من مماليك آل سلجوق . وعاصر المؤلف منهم الملك المنصور نجم الدين غازي وولده الملك الصالح ، وعاملاه معاملة كريم مستجير بهما لا معاملة شاعر مستجد . وكتب الى أهله بالحلة عند وصوله الى ماردين يقول :

ألا بلغ هديت سراة قومي   بحلة بابل عند الورود
الا لا تشغلوا قلبًا بعدي   فاني كل يوم في مزيد
لاني قد حللت حمى ملوك   ربوع عبيدهم كهف الطريد
فمن يك نازلاً بحمى كليب   فاني قد نزلت حمى الاسود

وبقي في كنف الملك المنصور غازي يمدحه وينادمه حتى مات المنصور سنة ٧١٢ ومدحه بجملة مدائح منها القصائد المسماة بالأرتقيات ، وهي تسع وعشرون قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتًا على حرف من حروف المعجم يبدأ في كل بيت منها بحرف وبه يختم أي يكون روياً ومبدأ وجعلها ديواناً سماه ((درر النحور في مدائح الملك المنصور)) ثم كان في خدمة ولده الملك الصالح فخف على قلبه ومزجه بنفسه واصطفاه وأسبغ عليه نعمه وجعله في خاصة بطانته ينادمه ويؤانسه ، ويخرج معه الى الصيد والوقائع ، وطاب له العيش في ماردين ، ووفرت نعمته واقبل على اللهو والطرب ونظم الشعر في الغزل والخمريات والدعابة والمجون حتى اذا ناهزت سنه الخمسين عزم على المتاب من شرب الخمر وارتكاب الآثام ، وجعل باكورة التوبة الرحلة لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام سنة ٧٢٤ هـ ودخل مصر بعد حجه سنة ٧٢٦ وسلطانها يومئذ الملك الناصر محمد بن قلاوون ووزيره وكاتب

سره القاضي علاء الدين بن الاثير الجزري الكاتب المؤلف المشهور ، فمدحه ومدح الناصر بقصيدة طنانة عارض بها قصيدة ابي الطيب « بابي الشموس الجانحات غواربا » ومطلعها:

اسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

فأغدق عليه نعمه وهداياه . ثم رحل الى الشام فنزل بدويلة من بقايا آل أيوب مستظلة بحماية سلاطين مصر من آل قلاوون ، وتحكم مدينتين او ثلاثاً من مدن وادي العاصي وحاضرتها مدينة «حماة» وكان سلطانها في ذاك الوقت الملك المؤيد ابو الفداء عماد الدين اسماعيل مؤلف كتاب « تقويم البلدان » والتاريخ المسمى « المختصر في أخبار البشر » فنزل ضيفاً عليه فأكرمه ، وبقي أثيراً عنده مدة ، ويظهر من مراثيه ومدائحه ومكاتباته انه أقام بالشام عدة سنين ، ولقي بدمشق الشهاب محموداً الحلبي وابن نباتة المصري . وتكسب فيها بالتجارة . ثم لحق بمخدومه بماردين بعد غيبة طويلة . وصار يختلف الى بلاد الجزيرة وبغداد والشام ويراسل أدباءها ويمدح ملوكها ويرثيهم . ولم نعلم عن يقين البلد الذي مات به ونرجح أن تكون وفاته بماردين . ومات سنة ٧٥٠ هـ .

علمه وأدبه . — كان علم صفي الدين لا يعدو اللغة وآدابها وكان يحفظ كثيراً من شعر المتقدمين المجودين في اللفظ والأسلوب من أمثال ابي نواس والبحتري وابي تمام وابن الرومي وابن المعتز ، فأثرت فيه خمريات ابي نواس وغلامياته وأثرت فيه أوصاف ابن المعتز وطردياته ، وكثيراً ما أغار على معاني هؤلاء ، ولم يكن علمه بغريب اللغة ولا تاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم موازياً لشهرته بالادب ولا بافتخاره بالانتماء الى سنبس من طيء ، ومبلغ علمه من الادب واللغة أنه حفظ الكثير من الشعر فاكسبه ملكة قلما تهيأت لاحد في عصره .

ذكاؤه وتوقد خاطره . — كان صفي الدين على جانب عظيم من توقد الخاطر وسرعة البديهة يعرف ذلك من قرأ ديوانه فرأى فيه الكثير من غرائب الصناعة البديعية كالاكثار من عجيب التصحيف وما لا يستحيل بالانعكاس والاكثار من القصائد المهملة الحروف والمعجمتها المصغرة الالفاظ وذوات القافيتين وضوابط الشطرنج والعلوم ، ولو انه بذل بعض هذا الجهد في استخلاص لباب اللغة والغوص على المعاني الرائعة لبذّ المتقدمين ، ولكن هكذا كان ديدن أهل عصره ورغبتهم من الادب .

أخلاقه . — نشأ صفي الدين في الحلة على فطرة عربية من الشمم وإباء الضيم ، وحب الإنتقام والاخذ بالثار ، وشهود المعارك والرغبة عن ذل السؤال ، ونظم الشعر للتطرب والرياضة لا للاستجداء كما يتحدث بذلك عن نفسه في مقدمة ديوانه وكما يستخلص من قراءة شعره في شبابه غير انه لما لحق بخدمة متأخري آل أرتق قبيل انتهاء دولتهم ، وكانوا أهل ترف وانهماك في اللذات ومعاقرة للخمر ولهو بالصيد والقنص اعتاد من عاداتهم ، ونادمهم في مجالسهم ، وتغزل في غلمانهم . وأفحش وفجر . ولما عات سنه عزم على التوبة والنسك وحلف الا يشرب الخمر ، ولكنه نقض التوبة مراراً فعاد وشربها مرضاةً للامراء والرؤساء .

ومن الغريب في امره تصريحه في قصيدة خمرية ذكر فيها تنغيص شهر رمضان على الشاربين لذاتهم بان لا ينسك الا بعد ٦٨ سنة من عمره وذلك حيث يقول منها :

فيه هجر اللذات حتم وفيه (غير مستحسن وصال الغواني)
وقبيح فيَّ التنسك الا (بعد ستين حجة وثمان)

ولا أدري سبباً لارجاء التوبة النصوح الى هذا السن المضبوطة بالعدد الا تضمينه شطري مطلع القصيدة التي بعث بها الشريف ابو ابراهيم موسى بن اسحق الى ابي العلاء المعري وهذا هو المطلع :

غير مستحسن وصال الغواني بعد ستين حجة وثمان

فأجابه ابو العلاء بنونيته الشهيرة التي مطلعها :

عللاني فان بيض الاماني فنيت والزمان ليس بفان

ولا ندري على اي حال انتهت حياته ، وكان الحلي يتشيع نوعَ تشيع يترضى عن الصاحبين ، وينكر على الأمويين والعباسيين جد الانكار ، وتلك نزعة قديمة العهد في أعراب الفرات والجزيرة منذ عهد علي ومعاوية وأرسخها فيهم وجود مشاهد النجف وكربلاء بين ظهرانيهم .

شعره . — نشأ صفي الدين في القرن الذين خلفوا قرن القاضي الفاضل وانتحلوا طريقته في التهافت على استعمال المحسنات البديعية والشغف بها شغفاً أخرجهم عن قصد البلاغة فكان معاصراً لكثير من كبار ادبائهم وشعرائهم ومؤلفيهم من أمثال شهاب الدين محمود

الحلبي وابن فضل الله العمري وابن نباتة المصري وصلاح الدين الصفدي وعلاء الدين بن الاثير والملك العالم المؤرخ الاديب مؤيد الدين صاحب حماة ، فكان صفي الدين علماً شامخاً بين هؤلاء الاعلام معترفاً له بالسبق في فنون من الشعر والاجادة في أخرى ، وكلهم كاتبه وراسله وعارضه وعابثه فاذا وازناه بهم واحداً واحداً من كل وجه طال بنا المقام ، ولكنا نشير اليك هنا بأن شهاب الدين كاتباً ومؤلفاً أرجح منه شاعراً وأن صناعته في الكتابة أروع من صناعة صاحبنا: فصفي الدين اشعر منه واكثر طروقاً لفنون الشعر وأبوابه وأن ابن فضل الله العمري امام لايجارى في الادب والتاريخ ووصف الارضين والشعوب والملل والنحل وكتابة الترسل ، وصفي الدين في غير الادب ليس هناك فهو يفضل ابن فضل الله في الشعر ويفضله في كل ما تقدم ، وأن الصفدي وان كان ذائع الصيت في الشعر والتحال البديع الا أن التأليف غلب عليه ، فزاحمت ملكة التأليف وتقرير الحقائق ملكة الشعر وانتزاع الخيال وبذلك يكون صفي الدين أشعر منه وأطبع في الشعر ، وكذلك شأنه مع ابن الاثير . بقيت الموازنة بينه وبين ابن نباتة وهما متشابهان في كثير من الامور ، فهما شاعران مطبوعان غلبت فيهما ملكة الشعر على كل صناعة ادبية ، بل كانا أشعر شعراء المشارقة في عصرهما ويمتاز ابن نباتة برقة اللفظ ، ومراعاة الذوق الادبي ، ودقة النكتة ، ولطف الكناية والتعريض ، وليس ذلك فيه بعجيب ؛ فهو مصري صميم تخرّج بشعر القاضي الفاضل ، وابن سناء الملك ، والبهاء زهير ، وابن مطروح ، وابن قلاقس الاسكندري ، فانطبعت في شعره صورهم وتقمصت به أرواحهم ، وبرع ابن نباتة في التورية جد براعة حتى لم يبق لاديب معه فيها كبير نصيب ، ولم تقل كتابته على الطريقة الفاضلية عن شعره كثيراً ؛ فهو كاتب بديعي بارع متكسب بصناعة الكتابة والترسل في دواوين مصر والشام .

واما صفي الدين فشاعر بديعي صقيل اللفظ رائع الاسلوب متفنن في كل غرض صاحب مقطعات ومطولات ومسمطات وموشحات وينظم من أوزان العرب والمولدين ، ويقول الدوبيت ومجزو الدوبيت . وهو من الغلاة في البديع فيجيد المطولات المؤلفة كلماتها من الحروف المهملة تارة والمعجمة أخرى أو التي حرف منها مهمل وحرف معجم أو التي كلمة منها مهملة والاخرى معجمة أو التي كل أسمائها مصغرة ، أو لاتستحيل بالانعكاس ، ثم هو بعدُ غاية في الجناس ، الا أنه ليس له في التورية كثير غناء ولكن الاديب الحاذق يرى

أن كل ماامتازبه الحلي داخل في باب التكلف والتحذق لافي باب الانطباع والرقة والرشاقة ·
وبذلك يُفضّل ابن نباتة في جملته على الحلي في جملته ·

« للبحث صلة » احمد الاسكندري

—((✩✩))—

آراء وافكار

—(())—

استفهام

طالعت في الجزء الاخير من مجلة المجمع فصلاً للاستاذ المحقق الشيخ بهجة الأثري فيه لغة وأدب وتشريع وتاريخ وقد وافقت على كل ماجاء فيه تقريباً · وأسر ما سرّني منه إنكاره الحيل الشرعية واستهجانه تسمية كتاب الامام محمد بالحيل واستشهاده باقوال ابن قيم الجوزية على إبطال هذه الحيل من أصلها وذلك في كتابه القيم « اعلام الموقعين » ·

أماالذي لم أوافق عليه في هذا الفصل الممتع فهو قوله : « ومن مأثور أقوالهم ركب جنح نعامة » لمن جدّ في امر · فان المثل « ركب جناحي نعامة » أو « جناح نعامة » ولايخفى ان الجنح غيرالجناح · فالجنح هوالجانب ويقال جنح الليل بضم فسكون أوبكسر فسكون أي جانبه وقيل اوله وقيل قطعة منه نحو النصف · ويقال كأنه جنح ليل يشبه به العسكرالجرار · ويقال جنح الطريق ايضاً أي جانبه · وعلى كل حال لم يرد «جنح نعامة» ولا جنح ايّ طائر وانما هو جناح · واما استشهاد الاستاذ الأثري بقول شاعر الحماسة :

كأن بصحراء المريط نعامة تبادرها جنح الظلام نعائم

فهو دليل على قولهم «جنح الليل» و « جنح الظلام » لا على « جنح النعامة » ولا أزال أحفظ ان اليازجي الكبير في مقاماته استعمل «الجنح» بمعنى «الجناح» مضافًا الى الطائر فأخذ عليه في ذلك احمد فارس صاحب الجوائب · فان كان عند الاستاذ الأثري نص أو شاهد يوثق به على ورود جنح بمعنى جناح مضافًا للطائر فليدل به فانما انا مستفهم ·

جنيف : شكيب ارسلان

ملاحظات

اطلعت في الجزء الثاني عشر من المجلد الحادي عشر من مجلة المجمع العلمي على مقال للاستاذ سليم عنحوري يحتوي على ترجمة الحلاج فرأيت فيه من المآخذ مايجب التنبيه عليه . ذكر في ص ٧٤٦ و٧٤٧ ان الذي دعاه الى ترجمة الحلاج كونه أديباً متكلماً ينظم شعراً عربياً خالص العروبة لامغمز فيه ولا لحن يذهب فيــه مذهباً غريباً — الى ان قال : فالحلاج إذن شاعر له مزية على غيره هي تفرده بطريقة اختطها لنفسه .

والحقيقة اننــا لم نر أحداً ممن ترجم الحلاج مع كثرة من ترجمه قال عنه إنه أديب أو شاعر لتكون له طريقة خاصة أو شاعرية خاصة . وغاية ماقالوا عنه انه نسبت اليــه أبيات كان يتمثل بها . وجميع ما نسب اليه لا يتجاوز ثلاثين بيتاً من الشعر مع جواز انه لم ينظمها . ومثل هذا العدد الضئيل لا يحشره في جملة الشعراء حتى ولا النظامين . ويشهد لهذا ان صاحب المقال نسب الى الحلاج هذين البيتين (انا من أهوى ومن أهوى انا . الخ) مع ان ابن خلكان في تاريخه ذكرهما في ترجمة الحلاج ولم ينسبهما اليه ، ونسب اليه ايضاً : (أرسلت تسأل عني كيف كنت وماء الخ) ونسب ابن خلكان اليه ايضاً هذين البيتين ثم ذكر ان ممن تمثل بهما ايضاً سمنون بن حمزة الزاهد وهو من المعاصرين للحلاج . فهذا يؤيد ان مانسب اليه لايخرج عن حد النسبة أو التمثل وأي رجل عنده أدنى ملكة في العلم لايتمثل باقوال الشعراء .

وجاء في ص ٧٤٤ ان الحلاج صحب حال حياته القاسم بن الجنيــد والثوري والحسن البصري فصحبتــه للحسن البصري وللثوري لم نر احداً قال به قبله . كيف وبين وفاتيهما وولادته عشرات من السنين فوفاة الثوري سنة ١٦١ هـ ووفاة الحسن البصري سنة ١١٠ هـ فاذا ثبت ان الحلاج قتل سنة ٣٠٩ هـ وبالغنا في عمره وقلنا سنه يوم قتل ستون سنة فتكون ولادته عام ٢٤٩ وعليــه فتكون وفاة الثوري قبل ولادة الحلاج بـ ٨٨ سنة . ووفاة الحسن البصري قبل ولادته بـ ١٣٩ سنة فكيف تسنى له الاجتماع بهما ؟

وقوله : القاسم بن الجنيد خطأ . وانما هو ابو القاسم الجنيد بن محمد .

وجاء في ص ٧٤٩ و ٧٥٠ ان الوزير حامداً أحضر القاضيين : ابا عمرو بن العلاء وجعفر

ابن بهلول في محاكمة الحلاج . فزيادة ابن العلاء وهم ايضاً لان ابا عمرو بن العلاء توفي سنة ١٥٤ فيكون بين وفاته ومحاكمة الحلاج نحو من ١٥٥ سنة والذي في تاريخ ابن خلكان : القاضي ابو عمر بغير واو ولم يذكر اسمه ولا اسم ابيه .

وجاء في ص ٧٤٤ سطر ١٤ العباس بن سريج وانما هو ابوالعباس بن سريج كما في ابن خلكان .

هذا ما رأيته من المآخذ الجديرة بالذكر وهناك امور أُخر أضربنا عنها صفحاً .

دمشق : محمد احمد دهمان



مطبوعات حديثة

—(()—

آداب المعلمين

« مما دون محمد بن سحنون التنوخي عن أبيه . عني بنشره السيد حسن حسني »
« عبد الوهاب التونسي طبع بمطبعة العرب بتونس سنة ١٩٣١ ص٧٦ »

هذا الكتاب من مطبوعات اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العربية نشرها صديقنا العلامة السيد حسن حسني عبدالوهاب الذي اشتهر بتآليفه وتحقيقاته الكثيرة باللغتين العربية والفرنسية قدم له مقدمة مستوفاة للتعريف بالمؤلف وهو من أهل القرن الثالث للهجرة وشفعها بلمحة عن الكتاتيب بافريقية في زمن المؤلف فقال : « ان الغزاة العرب من الصحابة وتابعيهم لما فتحوا إفريقية في أواسط القرن الاول للهجرة كان الكثير منهم في عيالهم وذراريهم فعندما أناخوا بمعسكرهم وخطوا (قيروانهم) كان أول ماأنشأوا الدور والمساجد ثم التفتوا الى تعليم صبيانهم فاتخذوا لهم محلاً — كتاباً — بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كلام الله العزيز ... حكى غياث بن ابي شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه . » « ولم يزل شأن الكتاتيب في نمو وعددها في ازدياد وتكاثر في العاصمة وفي المدائن الإفريقية الكبيرة كتونس وسوسه وصفاقس حتى لم يخل منها درب من الدروب أو حي من الأحياء وربما تعددت الكتاتيب في الحارة الواحدة مثلما تعددت المساجد في الحارات . ولا عجب ان اعتبرت الكتاتيب في القديم كملحقات بالمساجد وتوابع لها بل انما وجدت ايضاً في دور الأعيان والاغنياء ، وبالاحرى في قصور الوزراء والامراء . » وقال : ان التعليم الابتدائي ما كان يختص بالولدان دون البنات بل

انه كان شاملاً للجنسين لا سيما عند المياسير وذوي الحيثيات وأرباب المناصب العالية . ومما لاريب فيه ان معلمات من فاضلات النساء كن يهذبن ويعلمن الجواري والبنات المقصورات في الدور والقصور في كل عصر من العصور . ثم ذكر طريقة التعليم في الكتّاب وما الى ذلك من الفوائد التي حققها من التاريخ فكانت صورة صادقة لعناية المسلمين بتعليم أبنائهم .

أما متن الكتاب الذي علق عليه وقدم له هذه المقدمة البارعة وفى عليه بآراء بعض علماء العرب في التربية كابي بكر بن العربي وابن خلدون الحضرمي — فهو على أسلوب الرواية عند المحدثين ، ذكر فيه ماجاء في تعليم القرآن وفي العدل بين الصبيان وفيما يجوز من الأدب ومالا يجوز وفي واجبات المعلم واجارته ومايجب له من لزوم الصبيان الى آخره . فجاء الأصل والتعليق من جميل ما يقتنى . يستفاد منه على صغر حجمه . م . ك



تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

« الجزء الاول وفيه سيرة السيد جمال الدين الأفغاني تأليف السيد محمد »
« رشيد رضا . الطبعة الاولى في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٥٠ — ١٩٣١ »
« ص ١١٣٤ »

كان قراء العربية أشوق مايكون لصدور هذا الكتاب بعدان صدر الثاني والثالث منه منذ سنين . وهما في منشآت أستاذنا الشيخ محمد عبده وماقيل في تأبينه ورثائه . وهذا الجزء في سيرته توسع فيها صديقنا الاستاذ توسعاً عظيماً لم يترك معه من سيرة المترجم له مجالاً لقائل وشفعها بوثائق تاريخية أهمها ماكان من قلم المترجم له رحمه الله مثل ترجمته لنفسه منذ نشأته ومفكراته في الحوادث العرابية ، وقد اتهم بانه مشايع لرجال الثورة فحبس أشهراً ثم نفي الى الشام ثلاث سنين ، وقد توسع المؤلف ايضاً فيما وقع للاستاذ الامام في السياسة ، وذكر أثره في نهضة مصر العلمية ، وهذا أهم من حياته السياسية . فان في حياته العلمية عبراً كثيرة ودروساً مفيدة في الاصلاح الاسلامي ، تعلّم وتذكر وتثقف ، ولا يستغني

عن تدارسها من يضرب باصغر سهم في الحركة العلميـة العصرية . وقد لحظنا من مجموع هذا التاريخ ان المترجم له زُجّ في السياسة زجًا فكان مضطراً الى ركوب مراكبها الخشنة ولذلك رأيناه بعد ان صفا له الزمن وكان مفتي مصر الاكبر يتخلى عن السياسة ولم يرض ان يدخل غمارها بالفعل مع أنه أريد على الدخول فيها قائلاً في الاعتذار أنه خُلق معلماً ويرجو أن يموت معلماً . وهكذا كان الى ان ناداه ربه الى جواره . لاجرم ان نشر هذه الوثائق المفيدة برمتها قد أورث الكتاب تطويلاً ولكنه تطويل محبوب غير مملول ، وقد حفظ المؤلف بهذا الصنيع جانبًا كبيراً من تاريخ مصر الحديث ومثالاً صادقًا عن وقائع يهتم لها أبناء هذا الشرق القريب عامة . وكأن المؤلف يستخدم أسلوب المعلمين في التدريس باسلوبه فيكرر العبارة لترسخ في أذهان الطلبة ويورد عليها الشواهد لبيان مافيها من المقاصد . وقد يرى المطالع انه قد خرج من الموضوع كثيراً بما يقرأ من الاستطراد الذي قد ينفع الاستغناء عنه ثم لايلبث المؤلف ان يعود بالقارئ أدراجه فيدرك انه في صدد قراءة سيرة عظيم من عظماء الاسلام .

وهذا النمط من التأليف بمايحمل في مطاويه من متانة عربية شائقة لا نزاع فيهـا هو فيما اختص به فيما نرى الكاتب المدقق السيد محمد رشيد رضا وقد يكثر في كتابته من ذكر خصوصيات لاشأن لها في العموميات . وكان الموضوع يكتسب روعة وجلالاً اكثر لو خلت منها مكتوباته . وهذه النمشة الطفيفة لاتقدح في ذاك الوجه الجميل .

ومما يجب ان يستفاد منه ان الرجل الحكيم الشيخ محمد عبـده بدأ بتعلم اللغة الفرنسية في الرابعـة والاربعين من عمره وقد كالمناه قبيل وفاته فكان يتكلم بها مع أحد علماء المشرقيات برشاقة لاغبار عليهـا ولم نحص عليه مدة ساعة كاملة غلطة أوشبه غلطة . وقد بدأ بتعلمها على أستاذ فكان هو يتلو أمامه قصة لاسكندر دوماس وذاك يصلح له النطق ويفسر له الكلم ثم تعلم نحوها بالتدريج وكان يسافر كل سنة الى سويسرا وفرنسا ويحضر في جنيف دروس العطلة في كليتها فتعلم الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغاله بالقضاء وقال عن نفسه في هذا الصدد : « ثم ان الذي زادني تعلقًا بتعلم لغة اوربية هو اني وجدت انه لايمكن لاحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحهـا كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة اوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين

مشتبكة مع مصالح الاوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم ان يشتغل للاستفادة من غيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم . »

م . ك

الرسالة النباتية

جردنا هذه الرسالة للاستاذ الامير مصطفى الشهابي من هذه المجلة وهي كما علم القراء في بعض نباتات زراعية لم ترد في معجم أسماء النبات للدكتور احمد عيسى ومعجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد شرف وقصدنا بذلك ان يقف عليها من لا يطالعون على أجزاء هذه الصحيفة . وأبحاث الاستاذ المؤلف على ما يوقن العارفون لا تحتاج الى تقريظ لانها أثر من آثار البحث والدرس وله الفضل في استخراج مئات من الألفاظ من معاجم اللغة العربية في المعاني الزراعية وايجاد ما يقابلها من الاسماء اللاتينية هذا الى غير ذلك من أبحاثه التي يعرفها قراء هذه المجلة .

م . ك

طوق الحمامة

« في الألفة والألاف تأليف الامام ابي محمد علي بن حزم الاندلسي المتوفى »
« سنة ٤٥٦ هـ عنيت بنشره مكتبة عرفة بدمشق »

تمثلت الحياة لعين السلف بصورتها الحقيقية فخبروها وادركوا ماهيتها واجادوا وصفها فما تركوا لها ظاهرة الا وقد احصوها ولا خافية الا وقد نفذوا اليها ببصائرهم فجاءت مؤلفاتهم في هذا البحث ضافية وافية تنطق بفضل غزير وسعة علم وعلو همة .

وقد اتى عهد طويل على كثير من هذه المؤلفات كانت فيه مهملة لا تعرف قيمتها ولا يقدر نفعها لما غشي بصيرة الخلف من جهل وضلالة حتى انها كادت تندثر لولا ان تداركها الغرب بحكمته فعني بجمعها وحفظها ونشرها . ومن هذه الكتب القيمة التي طوتها العصور الى عهد قريب « طوق الحمامة » في الألفة والألاف للعالم الكبير الامام ابي محمد علي بن

حزم الاندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ فقد اتى فيه المؤلف على صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه وما يقع فيه وله مقتصراً في جميع ما اورده على الحقيقة المشاهدة والحوادث الواقعة والخبرة الشخصية فجاءت رسالته هذه صفحة ادبية اجتماعية أخلاقية تنير ناحية مظلمة من نواحي النفس البشرية وتحل عقدة هي اشد عقد الحيـاة الاجتماعية تعقيداً الا وهي الحب الجنسي منذ النظرة الاولى حتى النفس الاخير على ما يتخلل هذين الأصلين المتقابلين من علامات وصفات وتعريض واشارة ومراسلة وسفير وطي سر واذاعة وطاعة ومخالفة ومساعد ورقيب وواش ووصل وهجر ووفاء وبين وقنوع وخنى وسلو وقبح معصية وفضل تعفف وذلك باسلوب لا يختلف عن مناهج العصر الحاضر في التأليف وعبارة سهلة ممتنعة يتخللها قطع شعرية من نظم المؤلف مما يجعل لهذا الكتاب شأناً ادبياً واجتماعياً وينم عن فضل مؤلفه وغزارة علمه وسمو خلقه وسعة خبرته وصدق فراسته .

وكنا نود لو اشار الناشر الى الاصل المطبوع في ليدن من هذه الرسالة البديعة لئلا يُغمط حق ناشره الاول .

اسعد الحكيم

المجلد الثاني عشر

١٣٨ و ١٣٧

الجزء ٥ و ٦

مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة سنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

أيار — حزيران

١٩٣٢

دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً { في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكا

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل ٥٠٠ من السنة الاولى الى الخامسة الى كل سنة منها

« ٣٠٠ « السادسة الى الحادية عشرة «

في الخارج ٦٠٠ « الاولى الى الخامسة «

« ٣٥٠ « السادسة الى الحادية عشرة «

كتب الادب القديمة والحديثة

— ٢ —

كنا أسلفنا فيما سبق كلمة تحت هذا العنوان بينا فيها حالة كتب الادب وما منيت به في الطبع والشرح ووعدنا بتقديم مثالين على صحة ما قلناه وقد ذكر المثال الأول ونشر في الجزء ٩و١٠ والمجلد ١١ من هذه المجلة ثم حيل بيننا وبين انجاز القول بما لاطاقة لنا برده .

والآن نقدم للقراء الكرام كلمة في المثال الثاني وهو زهر الآداب وفاء بما وعدنا .

كتاب زهر الآداب وثمر الالباب لابي اسحق الحصري القيرواني يغني اسمه عن التعريف به وشهرته في عالم الادب العربي تكفي مؤنة الاسهاب في مدحه واطرائه وقد طبع غير مرة ولم تسلم طبعة من الزيادة على سابقتها في التحريف والتصحيف حتى اصبح ذلك الزهر والثمر مسيجاً بشوك من الأغلاط والتشويه لا يبلغ الا بشق الانفس . ثم قيض الله لاحياء هذا الكتاب الجليل الاستاذ الفاضل الدكتور زكي مبارك فعني بطبعه وشرحه وصدر هذه الطبعة بما يأتي قال في الجزء الأول منه :

وقد ظل بين يدي نحو تسعة اشهر وانا معتقل في سنة ١٩٢٠ فقرأته ثم قرأته وعنيت بضبطه وتصحيح ما وقع فيه من الاغلاط ثم رأيت ان افصله . . .

ثم قال : كان زهر الآداب مطبوعاً على هامش العقد الفريد من غير ضبط ولاشرح وكان يكفي ان يطبع الكتاب طبعة ازهرية ليصبح مثالاً في المسخ والتشويه وانقذى في قراءته العيون وتضل في فهمه العقول فأنفقت من جهدي ومن وقتي في تحقيق ماجناه من السنين وعبث الجاهلين ما لا أمن به على القارئ الا وانا آسف محزون .

ثم قال : في الطبعة القديمة كثير من الأغلاط ولا غرابة في ذلك فقد كان الأدب يوم ظهرت قليل الانصار وقد اعتمدت في ضبط هذه الطبعة على مراجعة الاصول التي أخذ

منها زهر الآداب وعلى ما اثق به من مختلف المعاجم والقواميس فان استطاع القارئ ان يلفتني الى خطإٍ فاتني اصلاحه فاني بشكره خليق . وقفت على هذه المقدمة فاخذتني نشوة الطرب لماجاء فيها وكدت أطير فرحاً بابراز هذا الكتاب الجليل الى عشاق الادب مصححاً منقحاً مشروحاً وحمدت الله على ان لم يكن طبع طبعة ازهرية ولم يكن مثالاً للمسخ والتشويه .

الا ان القدر لم يشأ ان يكون مدى سروري اكثر من لمح البصر .

فلقد تصفحت بضع صفحات من كل جزء فسقطت على مالم اكن اتوقع . واصطدمت بما لم يقع في الحسبان .

ولما كان الاستاذ الفاضل أذن للقارئ — ان استطاع — ان يلفته الى خطإٍ فاته اصلاحه . رأيت ان الفت نظره الى ما عثرت عليه عند نظري في هذا الكتاب نظرة عجلى . نزولا عند رغبته . ورغبة في تلافي ذلك في طبعة أخرى وقد افردت ما جاء في كل جزء على حدة ليكون ذلك اقرب الى الرجوع الى الاصل عند ارادة ذلك .

فما جاء في الجزء الأول :

في ذيل الصفحة ٢ . تفسيره النقد بالوزن والتحرير والتقدير بالضبط . وذلك غير سديد .

وفيه ايضاً . قال في تفسير مدابرة . ذات سأم وملال والمدابرة في الاصل الهزيمة . والمذكور في كتب اللغة دابره اذا قاطعه واعرض عنه وعاداه . ولم اجد المدابرة بمعنى السأم والملال وفي ديوان ابي العتاهية . مدبِرة وفي نسخة . مصرفة .

وفي ص ٦ زمن المروءة وفسر الزمن بالبالي والمشهور في هذه القصة زمر المروءة اي قليلها . ولا يخفى ما في تفسير الزمن بالبالي .

وفيها . وان من الشعر لحكمة ويروى لحكماً . ضبطها بكسر الحاء وفتح الكاف . والصواب لحكماً بضم الحاء وسكون الكاف بمعنى الحكمة .

وفي ص ٧ كان يزبرق عمامته اي يصفرها بالغين والصواب يصفرها بالفاء .

وفيها . احدى النفثات في العقد . والصواب النفاثات .

وفي ص ٩ وعقلة المستوفز فسر العقلة بالعقال والمستوفز بالمستعجل . وهو القاعد منتصباً غير مطمئن يقال اطمئن فاني اراك مستوفزاً .

وهذا من كلام ابن الرومي ، والذي في ديوانه وعلقة المستوفز ، وفي امالي القالي ونهزة ما مثلها ،

وفي ص ١٣ وعقلة الظبي وحتف المتقل ، وهذا من كلام المتنبي ، وقد فسر المتقل بالظبية التي استبان حملها ، وهو خطأ والصواب وحتف التنفل كما في ديوان المتنبي ،

وفيها : وقد رعتها اذ كان شعري رائعاً وطرف مشيبي عن عذاري ارمد

ضبط شعري بكسر الشين والصواب الفتح ،

وفي ص ١٤ واسمه عمير بن شبيم بالباء الموحدة والصواب بالياء المثناة ،

وفيها : ويقال للصقر قطامي وقطاني والصواب قطامي في الموضعين ،

وفيها : حياء وتقيا ، والصواب وبقيا كما في امالي القالي ،

وفيها : ما ظل مسلما ، والصواب ما طل ،

وفيها : لغر الثنايا ، والصواب كغر الثنايا ،

وفي ص ١٥ من كف ناظم ، والصواب من سلك ،

وفيها : رمين فانفذن القلوب ، والصواب فاقصدن ،

وفيها : الأجرى ، وفي القالي الاجوى ، وعليه لا يصح تفسير الحيزوم بما اكتنف الحلقوم ،

وفيها : الى هذا يتطرق : والظاهر ، وهذا ينظر الى ،

وفي ص ١٦ لرنا للهجتها ، والرواية ، لرؤيتها كما في الديوان ،

وفيها : نظر السليم ، والرواية السقيم كما ذكره في الذيل ،

وفيها : سعدى ، ضبطت بكسر الدال ، وهي بفتحها ،

وفي ص ١٧ ووافق فيه قطراً ، والرواية ووافق منك فطراً كما في امالي القالي ،

وفيها : او عصا زبد : ضبطت بكسر الزاي والصواب الضم ،

وفي ص ١٨ فمن لؤلؤ تجنيه : والرواية تجلوه كما في الديوان ،

وفيها : فسر الظلم بالثغر ، وهو ماء الاسنان وبريقها لا الثغر ،

وفي ص ١٩ العناج ضبط بفتح العين والصواب كسرها ،

وفيها القعب ضبط بضم القاف والصواب فتحها ،

وفي ص ٢٠ انها لرشحاء ، وفسرها في الذيل بانها كثيرة العرق وذلك من عيوب

النساء . والصواب رسحاء اي قليلة لحم العجز والفخذين .

وفي ص ٢١ الكتبة بضم الكاف وسكون الباء والصواب سكون التاء وفتح الباء .

وفي ص ٢٢ بقافية انفاذها وفي ديوان جرير بقارعة .

وفيها : فرى هندواني وفسر الفرى بالشق والصدع وفي الديوان قرى بالقاف وهو الصواب

وفي ص ٢٣ فسر الدمنة بمربط الخيل والابل . ولا يخفى ما فيه .

وفي ص ٢٤ فسر القوام بكسر القاف . بالتقويم ولم اره لغيره .

وفي ص ٢٥ قال : يفري الشعر بمحوه ومحو الشعر كناية عن غاية الايذاء . والمعروف فري الشيء قطعه وشقه .

وفيها : ولكن لئيم لا يقوم له زند . والرواية ولكن هجين ليس يورى له زند .

وفي ص ٣٦ فانك لم يفخر عليك كعاجز وفي ص ٣٧ كفاجر . والمعروف في البيت كفاخر .

وفي ص ٣٩ فسر الحجزة بالحضن . والصواب معقد الازار ومن السراويل موضع التكة .

وفي ص ٤٠ وسيف لا ينبو . قال في تفسيرها والنبوة عدم الاصابة ويقولون لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة . والصواب ان يقال نبا السيف عن الضريبة اذا كلّ وارتد عنها ولم يمض .

وفي ص ٤٢ وكأن قد جزع المزاد ذكره في موضعين بالزاي والصواب المذاد بالذال .

وفي ذيلها . فسر الضراب بالمطاردة . وقال فيه . الدكادك جمع دكداك والظاهر ان الدكادك جمع دكدك واما دكداك فجمعه دكاديك .

وفي ص ٤٥ ونجل لخل لا يقرف . فسره في الذيل بقوله . لا يقرف من القراف بالكسر وهو داء يقتل البعير يريد انه قوي متين لا تقربه الادواء . وما ابعد هذا التفسير عن قول الاصل . ان العود من لحائه والولد من ابائه والله انه لنبات اصل لا يخلف ونجل لخل لا يقرف وظاهر انه من القرفة يقال اقرف الرجل دنا من الهجنة والاقراف من قبل الفحل والهجنة من قبل الام . والمقرف من الخيل الهجين وهو الذي امه برزونة وابوه عربي وقيل بالعكس والمقرف ايضاً النذل قال الشاعر :

فان يك اقراف فمن قبل الفحل

وفي ص ٤٦ ان العباءة لا تكملك وان يكملك من فيها والصواب وانما يكملك .

وفي ص ٤٧ فصول القول والصواب فضول .

وفيها : والنقرى دعوة الفرد والمعروف دعوة بعض دون بعض .

وفيها : لا ترى الآدم فينا ينتقر . والصواب الآدب .

وفيها : قال في تفسير بيت زهير وهل ينبت الخطي الا وشيجه .

الوشيج عروق القصب . ومن البين ان المراد بالوشيج هنا شجر الرماح .

وفي ص ٤٨ مقامات حسان وجوهها . والرواية وجوههم .

وفيها : فلم يفعلوا او لم يلوا ولم يألوا والصواب ولم يليموا .

وفي ص ٥١ سرّك من ذمك . والظاهر . سرك من دمك .

وفيها : بدن لايشتكي مثل مالاً يزكى . والظاهر مثل مال لا يزكى .

وفيها : هل تُعَدّنّ سالماً . الى آدم ام هل تُعَدّ ابن سالم ضبط تعد بالبناء للمفعول في الموضعين وظاهر انها بالبناء للفاعل .

وفيها : عن عدو في ثياب صديقُ بضم القاف والصواب كسرها .

وفي ص ٥٢ العرانين الاوائل ، والاولى تفسيرها بالسادة والاشراف .

وفي ص ٥٣ وكيف ايجازها وتحسيرها وفسر التحسير بالايذاء والمناسب للمقام . وتحبيرها ، من حبر الكلام .

وفي ص ٥٧ في وصف الدنيا والمنزل تلعة والدار قلمة وقد فسر القلمة بالحصن، والصواب الانقلاع يقال الدنيا دار قلمة بضم فسكون اي انقلاع وتحول وهو المناسب لأول الكلام ، خلق الدنيا للفناء فجديدها بال ونعيها مضمحل .

وفي ص ٦٢ نظر الفتيق الى الهجان المصعب ، وقال في الذيل والفتيق السمين والهجان البيض ، والصواب الفنيق بالنون وهو الفحل المكرم الذي لا يركب ولا يهان لكرامته ، والهجان الكرام ، وهو المناسب للبيت وما قبله .

وفيها : اللعين الشنفرى ، والظاهر المنقري .

وفي ص ٦٤ وسلت سخيمات الصدور فعالك الكريم ، والصواب وسل .

وفيها ذيول العصب ضبطت بضم العين وهي بالفتح .

وفي ص ٦٥ تسح ترابه ، والصواب يسح ·

وفي ص ٦٦ في وصف سيف ·

وتراه معتماً اذا جردته بدم الرجال على الاديم الفاقع

فسر الفاقع بشديد الصفرة وقال معتم جمد الدم عليه ، والصواب ان الفاقع هنا الاحمر يخلط حمرته بياض او الخالص الحمرة ·

وفيها : اذا جرته والصواب جردته ·

وفي ص ٦٧ مزبد يجري بالزبد والأولى يقذف بالزبد ·

وفيها : الرود الجميلة الوافرة الحياء والصواب الشابة الحسنة ·

وفيها : الشواجر،القواطع اوالروابط،والاولى متداخلة يقال رماح شواجر مختلفة متداخلة

وفي ص ٦٨ مالي رأيت ثراكم بسالة ، والرواية بيساً به وهو المناسب ·

وفيها : وابنة الرقم الحية والذؤلول السم ، ولم اجد الذؤلول ، والظاهر انها محرفة عن الدؤلول بالدال المهملة يقال وقعوا في دؤلول اي شدة وامر عظيم وبنت الرقم الداهية ، وفي تفسير الكلمات خطأ وفي تفسير المعنى خطأ آخر يظهر للمتأمل ·

وفي ص ٧٢ للمارة والصواب للمماراة ·

وفيها : المرو الحجارة السود والصواب البيض ·

وفي ص ٧٤ ان رأيك اذا احتجب اليه ، والصواب احتجت ·

وفي ص ٧٥ ولي نظر لولا التحرج عازم ، وقال في تفسير عازم اي طامع · والرواية عارم اي شديد حاد ·

وفيها : فسر المهاة بالظبية ، وهي البقرة الوحشية ·

وفي ص ٧٧ او ينأى عنها رفدك ، وسياق القول يدل على ان الاصل ، ولا ينأى ·

وفي ص ٧٨ فاطمني اولك في أخائك ، والصواب فاطمعني ·

وفي ص ٧٩ وارمي من وراها ، والصواب من رماها ·

وفي ص ٨٨ جذب بضبعه : نوه به ، والأولى انعشه ·

وفي ص ٩٠ اذا عم بالسراء عم سرورها ، والصواب اذا مس بدليل الشطر الثاني وان مس بالضراء ·

وفي ص ٩١ وزهن المتكلفين والصواب وهن .

وفي ص ٩٢ في الف ترن ، والصواب قران .

وفي ص ٩٣ تريد تخمير اللفظ وقال : المراد من تخمير اللفظ التروي في تخيره كما تخمر الخمر لتجود ، والصواب تحبير اللفظ كما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين فلاحاجة الى هذا التخمير .

وفي ص ٩٥ ومثله الجؤشوس ، والصواب الجؤشوش .

وفي ص ٩٦ وقال ابو داود ، وقد إعيد في ص ٩٧ والصواب ابو دواد كما في البيان والتبيين .

وفي ص ٩٧ بجميع عدة السن الخطباء ضبط بكسر عدة عين والصواب ضمها .

وفيها : وسعلة بكسر السين والصواب ضمها .

وفي ص ٩٨ تلخص الملتبس والصواب تخلص .

وفي ص ٩٩ مطرطا والصواب مطرحا .

وفيها : افنته ما قرت حياضك والصواب افناه .

وفيها : قرت ، اخذت ، والصواب جمعت يقال قرى الماء في الحوض جمعه .

وفيها : فيض العقول ، والرواية صوب العقول .

وفي ص ١٠٣ في وصف النسخ ، ثم تستبرأ باعادة النظر فيها قال ، تستبرأ : تجفف ، والصواب ان يكون من قولهم استبرأ الأمر طلب آخره ليقطع الشبهة عنه ، ولامعنى هنا للتجفف باعادة النظر .

وفي ص ١٠٤ ووصل جوهر معانيه والصواب وفصل كما في المفتاح وغيره .

وفيها : الوذم : الدلو ، والصواب ان الوذم جمع وذمة وهي سير بين اذان الدلو واطراف العراقي .

وفيها : الدخاريص فتحات الازرار ، والصواب ان الدخاريص ما يوصل به البدن ليوسعه وهي البنيقة ولم ار من ذكرانها فتحات الازرار .

وفيها : الدروز : الاطراف الرقاق ولم ار من ذكرها كذلك .

وفي ص ١٠٥ استطلقت طبيعة الغباوة فشفي من سوء التفهم واورث صحة العوم ،

وصواب العبارة فاستطلقت طبيعته الغباوة فشفي من سوء التوهم واورث صحة التفهم ·

وفيها : انه لعجيب ان يرى السكاكي ان التخنث صنعة ··· واعجب منه ان يحكم الاستاذ المبارك على السكاكي بذلك مع ان هذه الجملة لم ترد في كلام السكاكي كما يظهر ذلك بادنى نظر في كلام السكاكي ·

وارى ان اجتزئ بهذا القدر من الجزء الأول حتى لا يمل القارئ وانا على ثقة ان ما لم اذكره اكثر مما ذكرته وعسى ان اعود الى سرد ما فيه خدمة لهذا الكتاب ·

« الجزء الثاني »

في اول صفحة منه وهي رقم ٣ الكريم لا يحظر ضبطها بضم الياء وكسر الظاء والصواب فتح الياء وضم الظاء ·

وفيها : الفنيق الفحل المائج ، وقد اسلفنا انه الفحل المكرم ، ولم نعلم من اين جاء الاستاذ بالمائج

وفي ص ٤ كالعود المطرى ، ضبطها بفتح الميم وسكون الطاء وكسر الراء ، والصواب المُطَرّى ·

وفيها : الجزور السريع الى اكرام الضيف وهو خطأ فان المراد بجزور في هذا البيت رجل بعينه كان وكيل القاسم بن عبد الله على مطبخه وفيه يقول ابن الرومي الابيات ، كما ذكر ذلك صاحب التاج ·

وفيها : دمع العيان والصواب العيون ·

وفي ص ٥ فاستفزته حمة القرم ، قال في شرحها الحمة ابرة العقرب يلسع بها من يلمسه ، ومن البين ان الحمة هنا بمعنى الشدة ، اذ لا ابرة للقرم ولا لسع ·

وفي ص ٦ ويتسايل جوذابه مرقًا ، فسره فقال الجوذاب خبز يوضع في التنور ومعه طائر او لحم ، وهذا لا مرق فيه ، وفي القاموس الجوذاب طعام يتخذ من سكر ورز ولحم وقال في التاج في مادة ذبج وقد جاء منها الذوباج مقلوباً عن الجوذاب وهو الطعام الذي يشرح ومنه ما اطيب ذوباج الارز بجآجئ الأوز ، يريد ما اطيب جوذاب الارز بصدور البط ونحو هذا في اللسان ، وليس فيه خبز ·

وفي ص ٨ غبا والصواب غيبا ·

وفي ص ١٠ وضروب النور والصواب وظروف النور ·

وفيها : في يادق الذهب والصواب بنادق ٠ ٠

وفي ص ١١ على ابي محذر والصواب محرز ٠

وفي ص ١٤ الخيرة في موضعين ، والصواب الخيزة ٠

وفيها : منشد التقريض والصواب القريض ٠

وفي ص ١٧ بندس بكسر الدال والصواب ضمها ٠

وفيها : صفن بكسر الفاء والصواب فتحها ٠

وفيها : ان استوقف فطن وان رعى ابن ، قال ابن قوى والصواب قطن بالقاف وابن ، كلاهما بمعنى اقام ٠

وفي ص ١٨ ام النجوم الشوابك ٠ هي الشمس ٠ وفي التاج واللسان ام النجوم المجرة لانها مجتمع النجوم ٠

وفي ص ٢٠ وسلت اصلت والصواب وصلب صلّب ٠

وفيها : متوحش والصواب متوجس ٠

وفيها : الدقيقتان ٠ صفة للساقين والصواب للأذنين لان التوجس تسمع الصوت الخفي وهذا يكون بالاذنين لا بالساقين ٠

وفي ص ٢١ نبات نمش ملبب ٠ ضبط نمش بفتح الشين وملبب بتشديد الباء الاولى والصواب جر نمش وتنوينها وضبط ملبب بغير تشديد ، يقال الب الدابة فهي ملبب وملبّ كمكرَم ومحب ٠

وفيهـا : مداوك الصيقل : ادوات كالماون وغيره ٠ وفي كتب اللغة المدوك حجر يسحق به الطيب ٠

وفي ص ٢٢ وغذاره والصواب وعذاره ٠

وفي ص ٢٣ كخصوة العسيب والصواب كخوصة

وفيها : القارح الفرس القوي ، والقارح المسن

وفي ص ٢٤ حرة آذانها ، والصواب حشرة اي لطيفة

وفيها : السبج السواد ، والصواب خرز أسود

وفي ص ٢٥ اللهوات مجاري الحلق ، واللهاة اللحمة المشرفة على الحلق

وفي ص ٢٦ ويوم كلون العاشقين ، والصواب كليل العاشقين

وفي ص ٢٧ يحضر بضم الياء والصواب فتحها

وفيها : القلت البقرة في رأس الورك ، والذي في التاج والقلت مابين الترقوة والعنق ، والقلت المطمئن من الخاصرة ، وفيه وفي اللسان ، قلت الفرس ما بين لهواته الى محنكه ، ولعلها محرفة عن النقرة

وفي ص ٢٨ لين المردعين ، ولامعنى لهذا اللفظ والظاهر انه محرف عن المردغتين والمردغة مابين العنق الى الترقوة

وفيها : لين الفرق ، والظاهر انه العرف

وفي ص ٢٩ الجحفلة من ذوات الاربع هي الشفة من الانسان والصواب كالشفة أو مثل الشفة

وفيها : والشظا عظم لاحق بالذراع ، والصواب لاصق

وفيها : وأحوال عاذرة ، والاولى غادرة

وفي ص ٣٠ تبادره ، بضم الراء والهاء وبه يختل الوزن ، فالصواب إسكان الهاء

وفي ص ٣١ لم شيئًا ، والصواب لم يكن شيئًا

وفيها : وريُ يونس ، والصواب ورؤي

وفي ص ٣٤ سلسلة النظام ، والصواب سلسة

وفيها : ياابن القرم ضبط بكسر القاف ، والصواب الفتح

وفي ص ٣٥ قال يزيد حوراء ، والصواب ابن حوراء

وفي ص ٣٧ قدمت عتبة ببغداد ، والصواب بغداد

وفي ص ٣٨ في سماع ، والصواب في سماح

وفي ص ٤٠ ولا ترد الغربان الا وماؤه ، والصواب ولا ترد الغدران الا وماؤها

وفيها : ويومًا بالاسنة اكبها ، والرواية بالمنور اكبها

وفيها : تردي غواربها العدى ، والرواية تردي عواتقها القنا

وفيها : في يلاميع ، والصواب يلامع جمع يلمع

وفيها : حمل اللائمه ، والصواب اللائمة

وفيها : عن الصلة الى القطمية ، والصواب القطيمة

وفي ص ٤١ من القضية الدالة ، والصواب الدمية الدالة
وفيها : الحاجد ، والصواب الجاحد
وفي ص٤٢ عكف الدهر بهم فثووا . وبه يختل الوزن ، والصواب عليهم
وفيها : الحر تحل الشكر ان اجناه ، والصواب نحل
وفي ص٤٣ وهي تلفهم ضبطت بفتح الفاء ، والصواب ضمها
وفي ص٤٤ فحرج ، والصواب نخرج
وفيها : بيض بسائقه ، والصواب بنائقه
وفي ص٤٦ وروى حاضراً ، والصواب وروض حاضر
وفيها : لقد انست سلوّي ، والصواب انست مساوي
وفيها : وما اشتبهت سهيل المجد ، والصواب طريق كما في ديوان ابي تمام ، ولعل أصلها سبيل
وفيها : عابر الانباء ، وفي الديوان عاثر الانباء
وفيها : ثنا خير كأن القلب منه يجربه ، وهو خطأ وأصل البيت ثنا خبر كان القلب امسى يجربه
وفي ص٤٧ ابن دواد ، والصواب ابن ابي دواد
وفي ص٤٨ لم يكن فرضه ، والرواية فرصة
وفيها : وليس لقولة ، والصواب لرهبة
وفيها : تهايبي ، والصواب تهائمي
وفي ص٤٩ على أيدي ، والصواب يدي
وفيها : لعنة الله ، والصواب لعنه
وفي ص٥١ واما لمختار ، والصواب المختار
وفيها : ابن نهراق ، والاولى مهران
وفي ص٥٣ ورجع الى العشرة وابناء المودة ، والصواب وآب الى المودة
وفيها : ولا يستحن ، والصواب يستحسن
وفي ص٥٤ ومتع من عضل الامات كما متع من وأد البنات ، والصواب منع في الموضعين

وفيها : تعالى حده ، والصواب جده

وفي ص٥٥ كمثل هذي ، والصواب كمن فقدنا

وفيها : قال الرومي ، والصواب ابن الرومي

وفيها : فان يجن بعهد ، وفي الديوان فان تبعن

وفي ص٥٦ وشتهم ، والصواب وشتتهم

وفيها : تضرّع ، والصواب ضم الراء

وفي ص٥٩ يهزئون ، والصواب يهزأون

وفي ص٥٩ في عيني اليمن ، والصواب اليمنى

وفيها : ان اللائمة ، والصواب الأئمة

وفيها : من وحشيه ، والصواب وحشية

وفي ص٦١ لا احسبه كما وصف ، والصواب لأحسبه

وفيها : شرمخ ، والصواب شرمح

وفيها : اذا كنت في القوم الطوال فطلتهم ، والصواب فضلتهم كما في امالي القالي

وفي ص٦٢ ونصيف من الرجال . ولا معنى له ، والظاهر انه محرف عن قضيف وهو الدقيق العظم القليل اللحم

وفيها : دعوا التجاجؤ ، والصواب التخاجؤ

وفيها : يحذى نعام السبت ، والصواب نعال

وفيها : وكنا اذا ماالخائن الجد غره . سنى برق غاد ، والصواب الحائن الجد . سنا برق غاو . كما في كامل المبرد

وفي ص ٦٤ وبالقوادم والخوافي قوة النجاح . والصواب الجناح

وفيها : والجزع على الاموات غناء . والصواب عناء

وفي ص ٦٥ وعلى الصلو من ذريته ، والاولى وعلى الصفوة

وفيها : ومفزع الورى وحسنة العالم . والصواب وجنة العالم

وفي ص ٦٦ في نظام من النهى ونضاح . والصواب ونصاح

وفي ص ٦٧ يلثمه بفمه تفضله والصواب بفضله

وفيها : يتسم المجد بسميته ، والصواب بسيته
وفي ص ٦٨ الذي يد في الفضل والصواب في يد الفضل ٠
وفيها : قال في شرح الادحي : الادحي بيض النعام والصواب مبيض النعام ٠
وفي ص ٦٩ طبقة المتكلمن ٠ والصواب المتكلمين ٠
وفي ص ٧٠ ضبط لحاقه بكسر اللام والصواب فتحها ٠
وفي ص ٧١ لا يذهب الخبر ماله ٠ والصواب لا يذهب الخمر ٠
وفيها : لا ينفذ فيها ماله ٠ والصواب ينفد ٠
وفي ص ٧٢ ثقابة المعرفة والظاهر اتقانه المعرفة ٠
وفيها : في المهامة ٠ والصواب في المهامه
وفي ص ٧٣ شفاء نفسي منك تخميشة ٠ والصواب تجميشة
وفي ص ٧٤ تمت بهن شمائل ٠ والصواب نمت
وفي ص ٧٦ وريم على السكر خمشته ٠ والصواب جمشته
وفيها : ونسب لا يحفى ٠ والصواب لا يخفى
وفي ص ٧٧ لم ينس علم ما ٠ والصواب ما علم
وفي ص ٧٨ عشر بنين والصواب عشرة
وفيها : عبيد او موالي ٠ والصواب موال
وفي ص ٨١ رأى السطان ٠ والصواب السلطان
وفي ص ٨٢ وذو عينين بفتح احدهما والصواب احداهما
وفيها : فلا رأي للمحمول الا ركوبها والمعروف فلا يسع المضطر
وفي ص ٨٣ كما تتأيى ٠ والصواب تتأيا
وفيها : اذا عض متنيه الثقاف تأدوا ٠ والصواب تأودا
وفيها اذا ازدت والصواب ازددت

سليم الجندي

مصطلحات علمية

- ٢ -

٣٠ — [Aberration — الكدورة]
٣١ — [Stigmatisme — الرّشاد]
٣٢ — [Astigmatisme — الّطوْح]

الأشعة الضوئيـة التي تصدر من نقطة مضيئة واحدة وتنكسر في عدسة بلورية فهي لاتتلاقى في نقطة واحدة ولذا لايكون خيال النقطة نقطةً صافيةً مثلها وانما يكون بقعة كدرة تزيغ البصر فعبروا عن ذلك بـ (Aberration) بمعنى التيه والضلال لأنه ينشأ من ضلال الأشعة وعدم تلاقيهـا في نقطة واحدة وحيث ان المراد من التعبير نعت الخيال لا نعت الأشعة فقد ترجمت هذا الحال «بالكدورة» والمراد كدورة الخيال . ثم عبروا عن حالة الآلات التي تستطيع ان تجعل خيال النقطة نقطة مثلها بـ Stigmatisme من Stigmatos اليونانية ومعناها «النقطة» فعبرت عن ذلك «بالرّشاد» لرشـاد الأشعة اذ ذاك بتلاقيها في نقطة واحدة ، واما الآلات التي لاتستطيع ان تجعل خيال النقطة نقطة مثلها (ومنها عين الانسان) فقد عبروا عن حالتها بـ Astigmatisme فالصدر a في هذه الكلمة لفظ يوناني يفيد العدم فترجمتها «بالّطوْح» وهو ضد الرشاد .

٣٣ — [Punctum remotum — نقطة المدى]
٣٤ — [Punctum proximum — نقطة الكثب]

Punctum كلة لاتينيـة معناها النقطة و Remotum معناها البعيـد فيراد بـ Pumctum remotum أبعد نقطة تستطيع العين ان تراها بلاتعب فترجمتها بـ « نقطة المدى» تقول مدى البصر اي منتهاه وغايته واما proximum فمعناه «القريب» ويعبرون

بـ Pnnctum proximum عن أقرب نقطة تستطيع العين رؤيتهـا فترجمتها بـ « نقطة الكَثَب » .

٣٥ — [Emmétropie — اعتدال البصر]
٣٦ — [Myopie — الحسور]
٣٧ — [Hypermétropie — الطمس]
٣٨ — [Presbytie — الادرهمام]
٣٩ — [Astigmatisme — الَطوُح]

Emmétropie كلمة مركبة من Emmétros اليونانية ومعناها «المطابق للمقياس» ومن ôps اليونانية ايضاً ومعنـاها النظر فيكون المعنى « النظر المطابق للمقياس » فعبروا بـ Emmétropie عن حالة العين السليمة فترجمتها « باعتدال البصر » و Myopie أصلها Myopia اليونانية وهي مركبة من Myein ومعناها غمّض عينه ومن ôps ومعناها النظر فيريدون بـ Myopie حالة العين التي لا ترى الاشياء البعيدة واضحة بل تكل اذا نظرت اليهـا فترجمتها «بالحُسور» (بالضم) ، يقال حَسَرت العين (بفتح السين) اذا كلت لبعد الشيء الذي حدقت اليه ، والمصدر حُسور لا حَسَر كما جاء في بعض الكتب لان الحسر مصدر حسِر (بالكسر) بمعنى تلهّف .

و Hypermétropie مركبة من الصدر Hyper وهو يفيد شيئاً من الافراط ومن Métron ومعناه المقياس ومن ôps ومعناه النظر كما تقدم فيعبرون بـ Hypermétropie عن حالة العين التي تكل من النظر الى الاشياء القريبة فيضطر صاحبهـا الى النظر الى تلك الاشياء من بعيد فعبرت عن هذه الحالة بالطمْس ، لانه يقال طمَسَ بعينه اذا نظر نظراً بعيداً ، والطمْسُ النظر الى الشيء من بعيد (تاج العروس)

و Presbytie مأخوذة من Presbutès اليونانية ومعناها الشيخ الكبير وقد عبروا بهذه الكلمة عن حالة العين التي ترى الاشياء القريبـة كدرة والبعيدة واضحة ولما كانت هذه الاشياء تحدث في الشيوخ سموها بذلك وقد ترجمتها الى العربية بالادرهمام لانه يقال ادرهمّ فلان اذا كبر سنه ويقال ادرهم بصره اذا أظلم ومن حسن الصدف ان اللفظ العربي يفيد من اللفظ الأعجمي معنييه اللغوي والاصطلاحي .

و Astigmatisme حالة العين التي ترى الخطوط الأفقيــة مشوشة والقائمة واضحة او بالعكس فعبرت عن هذه الحالة بالطوح (بالفتح) (راجع الكلمة رقم ٣٢) .

٤٠ — [Poêle — المصطلى]

٤١ — [Calorifère — المَحَرّ]

٤٢ — [Radiateur — المُشِعَّة]

Poêle هو المعروف عند عامتنا (بالصوبية) المعربة من التركية وقد ترجمته بالمصطلى من اصطلى بالنار اذا استدفأ بها وقد ورد هذا اللفظ في كتب اللغة فاستعماله خير من توليد لفظ جديد .

و Calorifère مركبة من Calor اللاتينية ومعناها الحرارة ومن Ferre اللاتينية ايضاً ومعناها أقلّ ويعبرون بـ Calorifère عما تتولد فيه الحرارة في طريقة التدفئة المسماة بالتدفئة المركزية فترجمت الكلمة المذكورة بالمَحَرّ على صيغة اسم المكان .

ولاجل Radiateur (راجع الكلمة رقم ٢٢) .

٤٣ — [Pendule — النوّاس]

Pendule عبارة عن ثقل معلق يترجح[1] فعبرت عنه بالنواس (بصيغة المبالغة) من ناس الشيء اذا تذبذب متدلياً (لسان العرب)

٤٤ — [Force centripète — القوة الجابذة]

٤٥ — [Force centrifuge — القوة النابذة]

٤٦ — [Centrifugeur — الخضّاضة]

اذا ربطت حجراً بطرف خيط واخذت في تدوير الخيط كالمقلاع تولد هناك قوتان : قوة تجذب الحجر نحو يدك وقوة تدفعه الى بعد فعبروا عن الاولى بـ Force centripète من Centrum اللاتينية ومعناها المركز و Petere ومعناها الكسب فترجمت Force centripète بالقوة الجابذة من جبذ الشيء اذا جذبه لان هذه القوة تجذب الحجر نحو المركز وهو طرف الخيط مما يلي يدك وانما اخترت الجبذ دون الجذب ليكون خاصاً بهذه القوة فالجذب أعم وعبروا عن القوة الثانية بـ Force Centrifuge من Centrum

(١) اي يتذبذب .

اللاتينية وقد تقدم ذكرها و Fugere بمعنى الفرار فترجمت Force centrifuge بالقوة النابذة من نبذ الشيء من يده اذا طرحه ورمى به ·

و Centrifugeur آلة تستخدم فيها القوة النابذة لاجل سرعة ترسيب ما يكون في المائع مما هو أثقل منه فعبرت عنها بالمخّاضة (بالتشديد) ·

٤٧ — [Mire — المستهدَف]
[Voyant — الشاخص]

Mire عند المهندسين مسطرة طويلة ينصبها أحدهم لينظر اليها الآخر من وراء آلة التسوية فعبرت عن تلك المسطرة بالمستهدَف من استهدف له الشيء انتصب وذلك تخصيصاً بهذا المعنى لان Mire يطلق على غير ذلك ايضاً و Voyant لوح مربع في ظهره حلقة تُدخل في المستهدف فيشد اللوح فيه فترجمت ذلك اللوح بالشاخص ·

[Balance — الميزان]
[Balance romaine — القبّان]
٤٨ — [Peson — المِرزان]
٤٩ — [Bascule — القذّاف]
٥٠ — [Dynamomètre — الربيعة]
٥١ — [Barorsope — الرائزة]

Balance و Balance romaine معلومان · اما Peson فهو آلة ذات نابض [1] يعلّق بها ما يراد وزنه فيقدر ثقله على حسب امتداد نابضها به فعبرت عنها بالمِرزان (بالكسر) من رزنه اذا رفعه لينظر ما ثقله واما Bascule وهو ميزان الاثقال فقد ترجمته بالقَذّاف (بالتشديد) وهو الميزان وذلك تخصيصاً به ، واما Dynamomètre فاصلها من Dunamis اليونانية ومعناها القوة ومن Mètrons ومعناها المقياس والمراد مقياس القوة فعبرت عنها بالربيعة لان الربيعة في الأصل حجر تمتحن باشالته القوى ·

وأما Barorsope فهي مركبة من Baros اليونانية ومعناها الثقل ومن Skopein ومعناها فحَصَ وقد اصطلحوا بـ Baroscope على آلة تكشف القوة الدافعة التي تقع

(١) نريد بالنابض ما تقول له العامة زنبرك المعرب من الفارسية ·

من الهواء (أو من أي غاز كان) على الأجسام الغائصة فيه ولما كان المعنى اللغوي من كلمة بارسكوب «فاحص الثقل» ترجمتها «بالرائزة» من رازه روزاً اذا رفعه ليعرف ثقله ·

٥٢ — [الميز — Dialyse]

٥٣ — [المائزة — Dialyseur]

٥٤ — [النتوح — Osmose]

Dialyse من Dialusis اليونانية ومعناها الانحلال أو الحل ويريدون بها انفصال المواد الكيمياوية بعضها عن بعض وهي منحلة في الماء مثلاً وذلك بان ينفذ بعضها الأغشية ذات المسام والآخر لا ينفذها فترجمت هذه الكلمة بالميز (بالفتح) من مازه ميزاً اذا عزله وفرزه عن غيره وترجمت Dialyseur بالمائزة ·

واما Osmose فهي من Osmos اليونانية ومعناها الدفع ويصطلحون بهذه الكلمة على خاصة يتخالط بها المائعان المنفصلان بعضهما عن بعض بغشاء ذي مسام بان ينفذ أحدهما أو كلاهما الغشاء ليصل الى الآخر فعبرت عن هذه الخاصة بالنتوح وهو الرشح تقول نتح الماء من الاناء اذا تحلب وخرج من مسامه وقد عبر بعضهم عنها بالحلول على اني لم أجد مناسبة بين معنى الحلول والمعنى المقصود ·

٥٥ — [النفّاخة — Fontaine avec jet d'eau]

يقول بعضهم للعين الذي ينبع ماؤها من سفل الى علو فوّارة وبعضهم نافورة وغير ذلك مع انه ليس في هذه الألفاظ ما يفيد نبعان الماء من سفل الى علو فأوفق تعبير لها «النفاخة» على ما أرى لانه جاء في معاجم اللغة نفخ الماء ما كان منه من سفل الى علو ·

٥٦ — [البدّاغة — Casse - noix]

Casse - noix آلة لكسر الجوز أو اللوز ترجمها بعضهم بالمرضاح أو بالمرضاخ أو الفهر أو مكسر الجوز أو عصفور الجوز مع ان المرضاح الحجر يكسر به الحصى أو النوى والمرضاخ كالمرضاح وزناً ومعنى والفهر الحجر قدر ما يدق به الجوز وليس لاحدى هذه الكلمات معنى يلائم المراد فرأيت أن تترجم Casse - noix بالبدّاغة لانه يقال بدغ الجوز واللوز كسره ·

٥٧ — [Diézer — الصدح]
[Bémoliser — الترخيم]
٥٨ — [Si dièze — سي صادح]
٥٩ — [Si bèmole — سي رخيم]
٦٠ — [Harmoniques — مدروجة]
٦١ — [Musical — رنيمي]

من المعلوم في علم الغناء ان ارتفاع الأصوات الغنائية يزداد في تدريج فيكون بين كل صوت والذي أرفع منه فرق في الارتفاع يقال له مسافة وهي اما كبيرة فيقال لها «بردة» واما صغيرة فيقال لها «عربة» وهي تكاد تكون قدر نصف بردة الا انه يضطر المغني أحياناً الى ان يحدث بين صوتين بينهما بردة صوتاً متوسطاً ينفرق عن كل منهما قدر عربة ولاجل الحصول على هذا الصوت اما ان يرفع أغلظ الصوتين قدر عربة واما ان يخفض أرفعها قدر عربة فيقال للطريقة الاولى Diézer فعبرت عنها بالصدح من صدح صدحاً اذا رفع صوته بغناء والصدح حدة الصوت (المخصص) ·

ويقال للطريقة الثانية Bémoliser فعبرت عنها بالترخيم من رخم الصوت لان وسهل فعليه يترجم Si dièze مثلاً بـ (سي صادح) و Si bémole بـ (سي رخيم) ·

واما Armoniques فقد اصطلحوا به على الأصوات الغنائية التي يأخذ ارتفاعها في الازدياد بنسبة كنسبة ازدياد الأعداد من الواحد فصاعداً فعبرت عن هذه الأصوات «بالمدروجة» · وترجمت Musical بالرنيمي ·

٦٢ — [Ampoule — الحَبَابة]

يعبرون بـ Ampoule عن زجاجة صغيرة يحصر فيها الدواء الذي يحقن تحت الجلد فعبرت عنها في العربية بالحَبَابة (بالفتح) استعارة من حَبَاب الماء وهي نفاخاته التي تعلوه وحبابة تجمع على حَبَاب ·

٦٣ — [Chloroqhille — الخَضْب]
٦٤ — [Hémoglobine — النعامية]

Chlorophille كلمة مركبة من Khloros اليونانية ومعناها «اخضر» ومن

Phullon ومعناها ورق الشجر فيريدون بـ Chlorophille المادة الخضراء التي في الشجر وخصوصاً في ورقه فترجمتها بالخضب (بفتح فسكون) اذ جاء في اللغة « الخضب خضرة الشجر » ·

و Hémoglobine مركبة من Haima اليونانية ومعناها الدم ومن Globus اللاتينية ومعناها الكرة ويقصدون بـ Hémoglobine المادة الملوّنة لكريات الدم فعبرت عنها «بالنعمانية» لان النعمان من أسماء الدم والمراد «المادة النعمانية» ·

٦٥ — [Capsule surrénal — الكُظْر]

اذا أردنا ان نترجم التعبير الافرنجي بالحرف لزم ان نقول « الحقة التي فوق الكلية » على اني كنت عثرت في كتب اللغة على لفظ عربي واحد يفيد مدلول هذه الكلمة وهو «الكُظْر» (بضم فسكون » ومعناه الشحم على الكلية وقد كنت نشرت ذلك في مجلة الصحة العمومية التي كانت تصدر في دمشق منذ ١٢ سنة ·

٦٦ — [Volant — المَحَالة]
٦٧ — [Arbre de couche — الجُزْع]
٦٨ — [Tiroir — الجَرور]
٦٩ — [Excentrique — المخرف]
٧٠ — [Courroi — المِجَرّ]
٧١ — [Hélice aérienne — المَحَّارة الهوائية]
٧٢ — [Turbine atmosphérique — العنفة الهوائية]

Volant دولاب جسيم يدور على محور المحرّك للماكنة فاستعرت له المحالة (بالفتح) وهي في الأصل الدولاب الكبير أو البكرة الكبيرة ·

و Arbre de couche المحور الذي يدور عليه ذلك الدولاب فترجمته بالجُزع (بالضم ويفتح) وهو في اللغة المحور الذي تدور عليه المحالة ·

و Tiroir شيء في ماكنة البخار كعلبة يجر ذهاباً واياباً ليتناوب بذلك ضغط البخار وجهي المكبس فعبرت عن تلك العلبة بالجرور (بالفتح) وهو فعول من الجر ·

و Excentrique لوح صغير في ماكنة البخار مستدير او غير مستدير يدور على محور غير مار بوسطه بل منحرف عنه ولذا سميته «بالمنحرف» .

و Hélice آلة تدور في مؤخر الباخرة لتدفعها ومعنى Hélice في الأصل نوع من الأصداف فاستعير الى الآلة المذكورة لشبهها به فعبرت عن هذه الآلة بالمحارة (بالفتح) وهي في الأصل الصدفة أونحوها من العظم ثم استعرتها لما يدور في مقدم الطيارة مع تقييدها بالهوائية كما في أصلها الافرنسي .

و Turbine يراد به دولاب قائم المحور يدوّره الماء فترجمته بالعَنَفة (بفتح العين والنون) فقد جاء في اللغة العنفة الذي يضربه الماء فيدير الرحى[1] .

و Courroie يطلق في فن المكانيك على رباط من جلد أوغيره يعقد طرفاه ويطوّق به دولابان لينتقل به الدوران من أحدهما الى الآخر تقول له العامة كشاط وترجمه بعضهم بالأسار أو السير أوالبند مع ان في العربية كلمة يمكن تخصيصها بمدلوله وهي المِجَرّ (بكسر الميم وتشديد الراء) فقد جاء في اللغة المِجرّ خيط غليظ يطوّق به الدولاب ليدور بواسطته .

شفّاف — Transparent	]	
شافّ — Translucide	] — ٧٣	
الظل — Ombre	]	
الشعشاع — Pénombre	] — ٧٤	

يريدون بـ Transparent ما ترى الأشياء من ورائه باشكالها فهو الشفّاف وبـ Translucide ما ترى الأشياء من ورائه دون ان تدرك أشكالها فترجمه بعضهم بنصف شفاف مع انه لاحاجة الى هذا التكلف فالأرجح ان يترجم بالشافّ لانه أقل شفوفًا من الاول فيختص به اسم الفاعل وتخص المبالغة بالأول .

واما Ombre فهومعلوم واما Pénombre فيريدون به الظل اللطيف فترجمه أحدهم بشبه الظل وترجمه غيره بالظُليل (بالتصغير) مع ان عربيته الشعشاع اذ جاء في اللغة الشعشاع الظل غير الكثيف .

---

(١) تقول له العامة فرّاش .

٧٥ — [Pédal — الموطئ]
٧٦ — [Grade — المرقاة]
٧٧ — [Diffusor — الناشر]
٧٨ — [آرما — الرقيم]

Pédal مايحمل عليه الحائك او شاحذ السكاكين[1] قدمه فترجمه بعضهم بالمداس أوالرجلية أوالدوّاسة الى غير ذلك مع ان المداس الحذاء والدواسة الأنف فأصح مايلائم المعنى على ماأرى « الموطأ أوالموطئ » اذ هو في اللغة موضع القدم .

و Grade من مقاييس محيط الدائرة في علم الهندسة فعبرت عنه بالمرقاة .

و Diffusor بوق من الورق المقوى يستعمل في الحاكي (الفنغراف) فعبرت عنه بالناشر .

و «آرما» — وهي تطلق في الشام على اللوح يعلّق على الحانوت أو غيره مكتوباً فيه (أي اللوح) اسم صاحب المحل وصنعته الخ — هي كلمة ايطالية الأصل استعملها الترك ثم انتقلت الينا . فأرى ان مرادفها العربي « الرقيم » اذ جاء في القرآن الكريم « أم حسبت ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » قال المفسرون المراد بالرقيم لوح رصاص نقش فيه أسماؤهم ونسبهم الخ .

٧٩ — [Moment — ناتج]
٨٠ — [Collimateur — موجّه]

يعبرون بـ Moment في علم المكانيك عما ينتج من فعل القوة وغيرها فترجمته بالناتج ومن مركباته Moment de la force (ناتج القوة) و M. de l' inertie (ناتج العطالة) و M. du couple (ناتج المزدوجة) الخ فعليه ترجمت Résultante بالحاصلة .

واما Collimateur فهو آلة تدير أشعة الضوء الى جهة من الجهات فعبرت عنها بالموجّه .

[Propagation de la lumière — انتشار الضوء]
[Reflexisn » — انعكاس «]

(١) المعروف عندنا بالمجالخ .

[انتشار الضوء — Diffusion de la lumière]
[« انكسار » — Réfraction »]
[« انحراف » — Déviation »]
[« تبدد » — Dispersion »]
٨١ — [« كدورة » — Aberration »]
٨٢ — [« انعراج » — Diffraction »]
[« تداخل » — Interfèrance »]
[« استقطاب » — Polarisation »]

كل ذلك مصطلحات تتعلق بخواص الضوء في علم الطبيعة لا يسع المقام شرحها وفي بعضها شيء من التخصيص وانما سنذكر كلمة عن Polarisation فقد جاء عن هذه الكلمة في لاروس مامفاده ان مدلول Polarisation الاصطلاحي ليس فيه معنى القطب اصلاً وقد كان المراد ان تشتق الكلمة من Polein اليونانية ومعناها الدوران لان البلور الذي شوهدت فيه خاصة الضوء هذه لأول مرة كان يدار على نفسه لاجل مشاهدتها ، لكنه قد خطئ في الاشتقاق فجاءت الكلمة على هذا اللفظ اه ثم ترجمها بعض المصريين بالاستقطاب وأخذها الترك عنهم فانتقلت الينا وشاعت حتى صار تغييرها متعذراً ولذا اضطررت الى ابقائها .

٨٣ — [Psychromètre — مقياس الخَصَر]

هو آلة تستعمل في قياس الرطوبة التي في الجو و Psychro كلمة يونانية أصلها Pusukhros ومعناها البرد فترجمت Psychromètre بمقياس الخَصَر (بفتح الخاء والصاد) وهو البرد .

٨٤ — [vaséline — دهن النفط]
٨٥ — [Lanoline — دهن الصوف]

كل من Vaséline و Lanoline مادة دهنية تستعمل في المراهم فالاولى تستخرج من النفط فسميتها بدهن النفط والثانية تستخرج من صوف الغنم فسميتها بدهن الصوف .

٨٦ — [Sillon — النُقبة]

يعبر الافرنسيون عن أول مايظهر من الجرب بـ Sillon ومعناه التلم لان الجرب ينبعث عن حشرة دقيقة تنقب بشرة الجلد فتدخل فتمشي تحتها فتحفر تلماً يؤدي الى الحك فترجم بعضهم Sillon بالتلم أو بالأخدود لكن الأصح ان يترجم — بالنظر الى مدلوله هـذا — بالنُقبة (بالضم) اذ جاء في اللغة النقبة أول مايظهر من الجرب[1] ومما يستدعي النظر في ذلك ان العرب كانوا يفقهون ان الجرب ينشأ من حشرة تنقب الجلد ·

٨٧ — [Tarlatane — السَحْل]
[Gaze — الشَفّ]
٨٨ — [Ouate — السبيخ]
٨٩ — [Hydrophile — نَشِف]

يراد بـ Tarlatane كساء من قطن كثير الخفة واللمعان فأرى ان يترجم بالسحل (بفتح فسكون) جاء في المخصص السحل الثوب من القطن وجاء السُحُل ثياب بيض واحدها سَحْل · و Gaze كساء رقيق يحكي ماتحته عربيته «الشَفّ» (بالفتح ويكسر[2]) فاستعمالها خير من التعريب · و Ouate يراد به في الطب قطن منـدوف معرّض مطبّق بعضه فوق بعض يستعمل في تضميد الجراح فأرى ان يترجم بالسبيخ وهو في اللغة المعرّض من القطن ليوضع عليه الدواء ويوضع فوق جرح · و Hydrophile مركبة من Hudôr اليونانية ومعناها الماء ومن Phylos ومعناها المحب فيكون المعنى محب الماء فيقال Coton hydrophile و Gaze hydrophile فعليـه تترجم Hydrophile بالنَشِف (بفتح فكسر) وهو ماينشُفُ الماءَ اي يشربه ·

٩٠ — [Gant de Caoutchouc — الخِتاع]
٩١ — [Doigtier de » — الختيمة]

Gant de caoutchouc قفاز من المطاط — (كَوشوك) — يلبسه الجرّاح حين العمليات الجراحية فأرى ان يترجم بالخِتاع (بالكسر) وهو في الأصـل كف من جلد يلبسه البيزار خوفاً على يده من مخالب البازي الواحدة خِتاعة · و Doigtier هنـة من

(١) فقه اللغة للثعالبي · (٢) عاميته شاش ·

المطاط كاصبع القفاز يلبسها الطبيب ليسبر بعض أجواف البـدن فيمكن ان تستعار لها كلة «ختيمة» وهي في الأصل قطعة من ادم يلفها الرامي على اصبعه ٠

٩٢ — [Chape — الخُطّاف]

من معاني Chape الافرنسية خشبتان أو حديدتان يستند اليهما طرفا محور البكرة أوالميزان أوغيرهما فالكلة العربية التي تفيد هذا المعنى هي الخُطّاف (كرُمّان) اذجاء في التاج الخطاف حديدة حجناء [1] تكون في جانبي البكرة فيها المحور وفي المخصص الخطاف الذي تجري البكرة فيه ٠ «للبحث صلة» الطبيب

محمد جميل الخاني

---

(١) أي معوجة

الف ليلة وليلة

تاريخ حياتها

— ٢ —

« من المحاضرة الثانية »

طريقة الكتاب وأسلوبه . — كانت طريقة العرب في القصص ان يسردوا الاسمار والاحاديث على نمط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها لا يربطها بما يسبقها ولا بما يلحقها علاقة . وترون ذلك واضحًا في أمثال لقمان وكتب النوادر فلما نقلت الأقاصيص الهندية الى العربية في القرن الثالث عن طريق الفارسية ادخلت في ادبنا القصصي طريقة طريفة تجعل الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات متعاقبة الخطوات متتابعة النسق ، وذلك على ضربين : الأول ان تعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية تكون فاتحة لبدايتها وسببًا لروايتها ابتغاء التعويق عن فعل ما لا يجمل ، وذلك في العربية مذهب كتاب الوزراء السبعة وكتاب كليلة ودمنة واغلب كتاب الف ليلة وليلة ، وهو في الفارسية مذهب بختيارنامه وقصة جهار درويش وقصة نوروز شاه وكتاب طوطي نامه وانوار سهيلي مثلاً . والضرب الثاني ان تروى الحكايات موزعة في الكتاب على عدة ابواب بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الأبواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه . ومن هذا الضرب في أدبنا كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع لابن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥ ، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لاحمد بن عربشاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ ، وفي ادب الفرس كتاب مرزبان نامه لمرزبان بن رستم بن شروين ، وقد ترجمه ابن عربشاه واستمد منه ، ذلك فضلاً عن الطريقة الفارسية التي احتذيناها في الاقاصيص الغرامية المطولة . فالف ليلة وليلة إذن يجري على ثلاث طرق : يجري على الطريقة الهندية في الحكايات المتداخلة المتسلسلة

كحكايات الأصل وحكاية البنات الثلاث والصعاليك الثلاثة وحكاية الخياط والاحدب والطبيب وحكاية جان شاه وحكاية وردخان . . . الخ

ويجري على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة المجردة كحكايات العشاق في بعض اقاصيص الأصل وما جرى مجراها من حكايات الطبقة البغدادية فانها مضروبة على قالب القصص الفارسي في الاعتماد على الحب الوهمي الذي يصيب ظرفاء الشباب على اثر طيف يزور في الكرى ، او صورة تعرض في الطريق ، او حكاية تلقى في المجلس . ثم يجري على الطريقة العربية الخالصة في الاقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الأدب كحكاية حاتم الطائي وحكاية معن بن زائدة وحكاية ابراهيم بن المهدي وحكاية خالد بن عبدالله القسري مثلاً ، اما أسلوبه فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص ، فاذا حكمنا عليه فانما نحكم على جملته لا تفصيله ، ونتوخى الصفات العامة في نقده وتحليله ، فهو في عمومه أسلوب سهل المأخذ مطرد السياق ، سوقي اللفظ مبسوط العبارة كثير الفضول كثير التضمين جريء الاشارة لا يعرف الكناية ولا يتقي الحياء ولا يصطنع التحفظ ، لأن سبيله سبيل العامة فهو يسايرهم في ثرثرتهم وفضولهم وسذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم ولا يستطيع ان يكون الا كذلك . يسير سير الأعرج المفلوج وراء المذهبين الكتابيين اللذين راجا على التعاقب في عهده وهما مذهب ابن العميد في العراق ومذهب القاضي الفاضل في مصر . فهو يسرف في السجع ويكثر من اقتباس الأمثال وتضمين الملح ، ويتظارف أحيانًا بذكر مصطلحات النحو على سبيل التشبيه أو التورية كقوله في قصة قمر الزمان الثانية : « باتا على ضم وعناق ، وإعمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كتنوين الإضافة معزول » وهو يغالي في تضمين الابيات في خلال الحكايات ويمعن في ذلك غالبًا حتى يمل . وترصيع النثر بالشعر اسلوب لا يألفه الأدب العربي ولا الأدب الفارسي ، وانما هو ميزة من مزايا الأدب الهندي ايضًا . . اقتبسه الفرس ثم نقله كتابهم الينا في منتصف العصر العباسي وروّجه في عهد بني بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات كابن العميد والصاحب والبديع والخوارزمي ومن ترسم خطاهم أو سار على هداهم . وموضع هذه الاشعار يكون عادة في مواقف السرور والحزن والوصف وثوران العواطف . ولكن القصاص يسيء في الغالب استعمال التضمين فيخطئ مواضع الاشعار ،

او يجهل محل المناسبة ، أو يردد الابيات نفسها في كل موقف . وقد تدفعه السماجة الى الاستطراد الغث فيقول :

وقال الشاعر ايضاً في المعنى ثم يورد ابياتاً لا يصلها بالموضوع سبب كما فعل في مقدمة علي نورالدين ومريم الزنارية مثلا فانه حين وصف البستان لم يترك نوعاً من انواع الفاكهة الا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق في ذلك خمس صفحات من الكتاب !

ان خير ما يمتاز به اسلوب الف ليلة وليلة هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسبق الالفاظ الى الذهن ، والصور تسبق الوصف الى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه ويربط السامع او القارئ بموضوع القصة . على ان القصاص يعالج التصوير والحوار بدقة وبراعة في كل مايتصل بأحوال الشعب واخلاق العامة ، فاذا سما الى مقام الملوك والخاصة خانته قدرته وغلبت عليه بيئته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي بالصبغة المحلية وهي ان يسند الى الشخص مايلائم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل . فالأقاصيص الهندية والفارسية تشوبها روح القصاص الاسلامية كحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية كحكاية ابي الحسن الخليع ، ثم نراه يجري على لسان الخليفة الرشيد ما يأبى عليه جلاله وكماله ان يقوله ويجعله يفعل مالا يجوز في العقل ان يفعله ، كأن ينادي وزيره جعفراً بقوله : يا كلب الوزراء ويكلفه في قصة الفتاة المقطعة بالعثور على القاتل في مدى ثلاثة ايام والا شنقه هو واربعين من بني برمك . وكأن يخلع في حكاية علي نورالدين مع انيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقعة بالية قذرة لكريم الصياد فيفيض قملها على اطرافه ، ويسيل قذرها على منكبه وأعطافه ، ولو أن ما كلف به الرشيد من التعب المزري كان لضرورة ملجئة لوجدنا له مساغاً من الفن ولكنه جشمه ما جشمه ليتسنى للخليفة ان يسمع غناء انيس الجليس وهي في قصر من قصوره وفي ضيافة خادم من خدمه ! فهو يدسه في هذا الزي الزري على الحبيبين والبستاني ليقدم اليهم ما معه من السمك فيكلفوه شيه في المطبخ فيشويه ! !

وكثيراً ما تدفع القصاص شهوة الإغراب الى تجاوز المبالغة المعقولة فتفوته من الفن صفة الامكانية وهي ان يلبس القصصي الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة فيقرّب مابينها من الظروف ويمهد لها اسباب الوقوع حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد . والامثلة

على هذا العيب مستفيضة في كل قصة . وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصصي كلها كقصة الصياد والجني وقصة مزين بغداد ومقدمة حكايات السندباد وقصة علي بن بكار وشمس النهار .

هذا اذا نظرنا الى الاسلوب في جملته وعمومه ، اما اذا تتبعناه باللمح الخاطف في نواحي الكتاب وجدناه فيما بقي من الاقاصيص الهندية والفارسية وما جرى مجراها من الحكايات المحدثة المقلدة بين السذاجة أبله الاشارة لأنهـا من نوع الخوارق التي تدخل على القلوب الغريرة ، ولا تظفر الا بتصديق العقل البسيط ، فهو جارٍ مع طبيعتها متفق اللون مع صورتها ، وفي الطبقة البغدادية تراه متين العبارة عفيف اللفظ حسن السبك دقيق الوصف كثير السجع قليل الفضول لأنه في الغالب مكتوب يحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب ، وقد يسف في بعض الاقاصيص اسفافاً قبيحاً فيثقل بسخفه على الطبع ويعتدي بضعفه على الذوق ، كما نراه في قصة الخليفة مع النائم اليقظان مثلا ، اما الاسلوب في الطبقة المصرية فهو في قسمها الأول وخاصة الاقاصيص المكتوبة منه اشبه شيء باسلوب الطبقة البغدادية مع اتساع في السجع وجرأة على الحشمة ، والغالب عليه التقليد فتارةً يجري على منهاج الطريقة الهندية كما نرى في حكاية وردخان والملك جليعاد وتارةً ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله في قصة قمر الزمان الثانية وحكاية مسرور وزين المواصف وقد يجرى في مجراه الخاص من التهكم الساخر والمزاح المضحك فيكون رقيقاً كما نراه في قصة الأحدب وخاصة في مزين بغداد ، ولكنه في القسم الثاني وفي سائر القصص الالقائية التي الفها القصاص ليلقوها في السوامر مهلهل النسج عامي اللفظ مرذول المبالغة سيء التلفيق شديد الوطأة على الحياء والمروءة لصدوره عن قصاصين محترفين جهلاء يتملقون فيه شهوات العامة بالافحاش ، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة الملتزمة فيقال دائماً في وصف القينة العازفة : (فعملت على العود من غرائب الموجود الى ان طرب الحجر الجلمود وصاح العود في الحضرة ياداود) وفي ايثار البعد : « بعدك عن الحبيب اجمل وأحسن ، عين لاتنظر وقلب لايحزن » وفي غرابة الحادثة « لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن يعتبر » وفي وصف الشيخ الفاني « قد ابقى ما ابقى دهر كه

الدهر فما استبقى، كأنه مُغنى مُلاقٍ، في خِرقة زرقاء تمرّ بها الارياح غرباً وشرقاء كما قال فيه الشاعر :

أرعشني الدهر اي رعش والدهر ذو قوة وبطش
قد كنت امشي ولست اعيا واليوم اعيا ولست أمشي

وفي وصفه ساحة الحرب ومجالس الأنس ورياض الأرض وأثاث البيت لا يكاد يغير شيئاً من الاسجاع والاوضاع ومقطوعات الشعر .

ذلك ياسادتي ما استطعت استشفافه من صور الاساليب الاثرية في الكتاب وسترون حين تعيدون قراءته أن القصاص والمصنفين والمصححين في مصر قد اخضعوه اخضاعاً شديداً للهجاتهم واساليبهم وأمثالهم حتى جعلوا البحث اللغوي الفني من البعد بحيث لا تبلغ اليه وسيلة .

فلسفته ومراميه . — سيداتي وسادتي إن من يطلب من الف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة كان كمن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة وطبيعة ثابتة واغراضاً متفقة ، فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبي يصور الحياة الدنيا كما هي لا كما ينبغي ان تكون ، فاذا رأينا مذاهبه تتناقض ومراميه تتعارض وآراءه تختلف ، فذلك لأن المجتمع الذي يصوره كذلك .

ولم يكن الكتاب نتاج قريحة معلومة ولا نتيجة خطة مرسومة حتى نتلمس في جوانبه الدوافع والنوازع والغاية ان هو الا صدى يتردد خافتاً لعقائد الشرق القديم وعقلياته وعاداته ففي الفلسفة نراه يتأثر بالأفلاطونية الحديثة والأخلاق الاسلامية فيدعو الى القناعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال في اللذة والمبالغة في الحذر والتفويض المطلق للقدر ، فروحه من هذه الجهة تتنافر مع صوره البراقة ووسائله الطامحة وحوادثه المغامرة ، ثم نراه في اقاصيص اخرى ولا سيما الحديثة يزين الأنانية ، ويرتضي القسوة ، ويتشوف الى المكاسب الدنيئة ، ويشره الى اللذة الخسيسة ولا يكاد يعتقد بالعواطف الكريمة . . وقد يصور المتاع الحسي واللهو الجموح بما لا يتمثل في الذهن الا على سبيل الخيال كالذي يحكيه عن فتى من ابناء الملوك رسا الى جزيرة كل من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون فقضى بينهن في هذا النعيم اياماً اقل ما أصاب فيها من اللذة انه

كان يلقي الشبكة في الماء على سبيل اللهو فتخرج اليه من الاصداف خريدة من بنات الجان كأنها حورية من حور الجنان الخ .. فاذا اختبرناه في السياسة والاجتماع رأيناه ملكيًا يقيم في كل مدينة عرشاً وينصب على كل مجمع من الاحياء ملكاً حتى الحيات والحشرات والطيور والوحوش والقردة ، ديمقراطياً يشرك الملك والصعلوك في مُتَع الحياة ومعالي الانس عائلياً يبني نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة والولد . لذلك تجدونه يستهل معظم اقاصيصه بحنين الوالدين الى النسل ، وفزعهما الى الله أو الى المنجم من داء العقم . وقد يسمو مغزاه الى الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والحمال . فالحمال يؤوده الحمل الفادح ، وينهكه الحر اللافح ، فيلقي حمله على مصطبة امام بيت من بيوت التجار يتردد اليه النسيم الرطيب ، وتنبع منه روائح العطر والطيب ، ثم يرى عظمة ذلك التاجر في كثرة خدمه وغلمانه ، ويسمع تغريد البلابل والفواخت في بستانه . ويصغي الى رنين أوتاره وغناء قيانه ، وينشق افاويه الطعام الشهي من صحافه والوانه ، فيرفع طرفه الحائر الى السماء ويقول سبحانك يارب لا اعتراض على حكمك ولا معقب لأمرك ! أين حالي من حال هذا التاجر ؟؟ انا مثله وهو مثلي ، ولكن حمله غير حملي ! !

على أن أسوأ ما سجله الف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة ، فان حظها منه منكود وصورتها فيه بشعة ، وكيف ننتظر من كتاب بني على خيانة المرأة ان ينصف المرأة ؟ ان شهرزاد المسكينة انما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شهريار أعجب القصص ابتغاء الحظوة لديه حتى تدرأ القتل عن نفسها والخطر عن بنات جنسها ، ومن الخطل الأليم ان يسند القصاص كل هذه النقائص الى النساء على لسان واحدة منهن في مقام الدفاع عنهن ، وان يجري على فمها في حضرة الملك تلك الكلمات الجريئة المخزية في وصف بهيمية الرجل ! !

الف ليلة وليلة يصور لنا المرأة في القسم الهندي الفارسي خطالة خائنة تبيع عرض الملك للعبد في قصة شهريار وأخيه ، لجوجة جموحة أنانية في قصة الحمار والثور تصر على ان يبوح لها زوجها بسره ، وهي تعلم ان في افشائه ضياع عمره ، حاقدة كائدة منتقمة في قصة الوزراء السبعة ، قاسية عاتية مرهوبة في حكاية قمر الزمان الاولى ، وهي في بغداد سجينة في قصرها ، مغلوبة على أمرها قد انتبذها زوجها وألقى زمامه في أيدي الجواري

والقيان ، وعلى كلتا الحالتين من حرية ورق نراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة خدمة ، أما هي في مصر والشام فوجودها عدم ، لا تسمع لها صوتاً في بيت ولا ترى لها أثراً في سوق ، فاذا خرجت من ظلام الستار الى ضوء النهار كانت طاغية جاهلة كزوجة معروف الاسكاف ، أولصة حيالة كدليلة وبنتها زينب ، أوقوادة مرتادة كأولئك العجائز اللاتي ينقلن الفتنة من مكان الى مكان ويصلن المنكر بين فلانة وفلان .

اما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقي في القرون الوسيطة من العادات والاخلاق والمراسم في السوامر والولائم والأعراس والمآتم والأسواق والمحاكم فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، الا ان الطبقة المصرية في هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع لان القصاص وهم مصريون تكلموا عن علم ووصفوا عن رؤية ونقلوا عن سماع ، فاذا قرأتم مثلاً حكاية نورالدين وشمس الدين وجدتم المصريين كانوا في حفلة العقد يطلقون البخور ويشربون السكر وينضحون الوجوه بماء الورد ، وفي زفاف العروس ينقطون المواشط والقيان بالقاء النقود في الدف اوالأطار كما يسميه الف ليلة أوالطار كما يسمى الآن في مصر ، وفي جلوتها على المنصة يجلسونها بين صفين من كرائم السيدات في يد كل منهن شمعة موقدة ، ثم يلبسونها حلة بعد حلة في فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلل ، ومع كل سيدة من المدعوات الى الحفل صرة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلما خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة الى تمام السبع ، ولا تزال هذه العادات باقية في بعض البلاد وبعض الأسر في مصر .

واذا قرأتم حكاية علاء الدين ابي الشامات وجدتموهم كانوا يستعملون الحشيش قوة للزوج ويتخذون المحلل خلاصاً من الطلقة الثالثة وهما خلتان شائعتان اليوم في الطبقة الدنيا اقرأوا حكاية معروف الاسكاف تجدوه مثالاً صادقاً لبعض الناس هناك في ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب الأبهة وتبذير مافي الجيب اتكالاً على الغيب واهتماماً للحق وتجدوا زوجه فاطمة العرة التي فرّ من جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها الى أقصى مجاهل الارض فتبعته لايزال لها شبه في الباقيات الطالحات بمصر من عهد الجهالة .

اما الطبقة البغدادية فقد عبث بها القصاص وشالوها بلهجاتهم وعاداتهم ولكنها مع ذلك حرية بثقة الباحث اذا استطاع تنقيتها من شوائب البهرج والدخيل .

بقي علينا ان نعرف وجهة كتابنا في الدين ، وليس من العسير على القارئ العادي ان يتبين تلك الوجهة فان في كل صفحة من صفحاته دليلاً على انه مسلم صادق الايمان قوي العقيدة يأخذ تقاليد الدين صحيحة أومشوبة مأخذ العامي الواثق المطمئن فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطبق حتى في مقام الحكمة والموعظة لا يكاد يذكر حديثاً أوآية وانما يستند في ذلك الى مأثور الشعر ومنثور الحكم ، فسبيله في الدين إذن أن يدعو اليه ويهتف به ويتعصب له ، لذلك نراه لايتحدث الا عن المسلمين ، ولا يتخذ أشخاصاً لقصصه حتى الاجنبية منها الا من المسلمين ، فاذا كان احد الجنة أو الناس غير مسلم واضطر الى الحديث عنه انتهى به الى الاسلام أودبر له عقبى سيئة وذلك نادر ، كما فعل في حكاية مسرور المسيحي وزين المواصف وزوجها اليهوديين ، فالحبيب والحبيبة أسلما فورفت عليهما ظلال النعيم والحب وظل الزوج يهودياً فدفنته امرأته حياً ، والف ليلة وليلة بعد ذلك سني لا يكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الاسلام حتى الشيعة وكان لهم على عهده في مصر دولة الفاطميين ، وفي العراق نفوذ البويهيين لم يذكرهم الا في حكاية علاء الدين وهي مكتوبة بمصر على عهد المماليك ، ولقد دل حين تعرض لهم في هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة فقد أشار في موضع منها الى ان الروافض كانوا يكتبون اسمي الشيخين على بواطن الأعقاب ، وقال في موضع ثانٍ ان اهل بغداد كانوا يغلقون الأبواب خوفاً من الروافض ان يلقوا الكتب في دجلة ، وقال في موضع ثالث : ان الرشيد سأل الرجل الذي هم باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان فنجاه أصلان بن علاء الدين : أما أنت مسلم ؟ فقال كلا وانما انا رافضي .

مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته . — صنف المنقبون ماعثروا عليه من مخطوطات الف ليلة وليلة فكان ثلاث مجموعات مختلفة : مجموعة أسيوية ومجموعتين مصريتين ، فأما المجموعة الأسيوية وهي أقدمهن فلا تشتمل الا على القسم الاول من الكتاب واحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كلكوتا وهي تحتوي على مائتي ليلة وقد شرع بطبعها الشيخ اليمني في جزءين بمدينة كلكوتا سنة ١٨١٤ م وأتمها سنة ١٨١٨ م فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب في الشرق والغرب ثم نسخة (برسلو) وهي التي طبعها الاستاذ (هبكت) في اثني عشر جزءاً ، ظهر الجزء الاول في سنة ١٨٢٥ والأخير سنة ١٨٤٣ ، واما المجموعتان المصريتان فهما أحدث من الاولى وبين نسخها اختلاف شديد في الأسلوب والترتيب والعدد والقصص

ومن هاتين المجموعتين نسخة كلكوتا الثانية التي جمعها وطبعها الاستاذ (ماك نوكتن) في أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التي طبعتها الحكومة المصرية في مطبعتها بالقاهرة سنة ١٨٣٥ في مجلدين وهي أكمل النسخ جميعاً وأصحها وعنها صدرت جميع الطبعات في مصر والشام وبومباي ، ونقلت جميع الترجمات الى جميع اللغات ماعدا ترجمة (جلان) : فأما الطبعات فكلهن سواسية في قبح الشكل وسوء النقل وقلة العناية لصدورهن عن أرباب المكاتب وأصحاب المطابع وهؤلاء يبتغون أوفر ربح في أيسر كلفة . على ان أديباً من الآباء اليسوعيين قد طبعه ببيروت طبعاً جميلاً في اربعة مجلدات بعد ان قص من قصصه واقتضب من جمله وهذب من عبارته ، ثم جاء منشئ الهلال فأربى عليه في الحذف والبتر والاختصار وطبعه بمصر في خمسة أجزاء صغار ، وهاتان الطبعتان ولا سيما الاولى أليق الطبعات باخلاق الفتى وحياء الفتاة ولكنهما لا تنقعان غلة الأديب الباحث .

واما الترجمات فأولها في الوجود ترجمة الاستاذ جلان وهي أنيقة الأسلوب رائعة السبك الا انها غير دقيقة ولاأمينة ولاوافية ، على ان لها اليد الطولى على الكتاب في التعريف به والتنويه باسمه والدلالة على فضله ، طبعت هذه الترجمة بباريس في اثني عشر مجلداً ابتداء من سنة ١٧٠٤ الى سنة ١٧١٧ ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة انكليزية مختصرة في ستة مجلدات بعنوان الليالي العربية ، وأشهر الترجمات بعد ذلك في السعة والدقة والصدق ترجمة بورتن بالانجليزية وترجمة ماردروس بالفرنسية وترجمة هبكت بالالمانية .

* * *

ذلكم ياسادتي ما يتحمله المقام والوقت من تاريخ الف ليلة وليلة ، وانكم لترون من هذا الاجمال فعل القريحة العربية فيه ، ومظهر العقيدة الاسلامية في جميع نواحيه ، وطابع العقلية السامية في أخيلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحيوية القاهرة والشخصية الآمرة في آبائنا ، والاّ فبما ذا نفسر هذا ؟

لقد خالفوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً في رسالة محمد ، وخالفوا اليونان على

العلم فعاد عربياً ساطعاً في فلسفة ابن رشد ، وخلفوا الرومان على الحضارة فبهرت العالم بالعمران والعدل في عصر الرشيد ، وخلفوا الفرس على الأدب فأخضعوا السنتهم وأفئدتهم لأدب القرآن ، وخلفوا الهنود على القصص فأروهم روعة الخيال وقوة الإلهام في الف ليلة وليلة ، وخلفوا الامم العظمى على اكثر الارض فأوشكوا ان يعرّبوا العالم ! فليت شعري أتغيرت الصحراء ، أم فسدت الدماء ، أم ضويت الأنباء ، أم هي ربضة الأسد واستجمامة المتعب واستجماعة الواثب ، ثم استئناف الهجمة الاولى على الموقع الأول في الحياة .

لقد أعقتكم طويلاً وأتعبتكم كثيراً وكدت أخرج من المحاضرة الى الخطابة فعذراً ياسادتي وشكرا .

احمد حسن الزيات
عضو المجمع العلمي

صفي الدين الحلي

- ٢ -

صفة شعره . — ونوضح ما أجملناه من وصف شعره بما نقول :

أغراض شعره . — نظم الحلي الشعر في أكثر أغراضه فأجاد في بعضها وقصر في بعض :

(١) فاما باب الفخر والحماسة الذي صدر به ديوانه فاكثر ماقاله منه في صباه وجرى في أكثره على طبيعة شعر المتقدمين ؟ فقلل من البديع ، وآثر الجزالة وظهرت فيه صورة البداوة التي شب عليها في بلدته الحلة ، وهي من مدن الاعراب . فمن ذلك قوله من قصيدة يفتخر فيها بانتصاره في الموقعة التي أخذ فيها بثأر خاله :

لمن الشواذب كالنعام الجفّل   كسيت جلالاً من غبار القسطل
يبرزن في حلل العجاج عوابساً   يحملن كل مدرع ومسربل
شبه العرائس تجتلى فكأنهـا   في الخدر من ذيل العجاج المسبل
فعلت قوائمهن عند طرادها   فعل الصوالج في كرات الجندل
فتظل ترقم في الصخور أهلة   بشبا حوافرها وان لم تنعل
يحملن من آل العريض فوارساً   كالاسد في أجم الرماح الذبّل
تنثال حول مدرع بجنانه   فكأنه من بأسه في معقل
مازال صدر الدست صدر الرتبة العــ   ـلياء صدر الجيش صــدر المحفل

وهي طويلة ومثلها قصيدته التي أسلفنا أولها ، ونختار منها الابيات الآتية :

سلي الرماح العوالي عن معالينا   واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا
وسائلي العرب والاتراك ما فعلت   في أرض قبر عبيد الله أيدينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد   دنّا الاعادي كما كانوا يدينونا

بضمّر ما ربطناها مسوّمة الا لنغزو بها من بات يغزونا
وفتية أن نقل أصغوا مسامعهم لقولنا أو دعوناهم أجابونا
قوم اذا استخصموا كانوا فراعنة يوماً وان حكموا كانوا موازينا
اذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة وان دعوا قالت الايام آمينا
أن الزرازير لما قام قائمها توهمت انها صارت شواهينا
انا لقوم أبت اخلاقنا شرفاً أن نبتدي بالاذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا
لا يظهر العجز منا دون نيل منى ولو رأينا المنايا في أمانينا

(٢) وأما المدح فهو جل صناعته وزعم في مقدمة ديوانه انه كان لا يتكسب به في نشأته . ثم أعوزته ضرورة الفرار من وطنه الى انتجاع الملوك والتكسب به . وله مدائح جيدة في الملوك ومدائح نبوية منها بديعيته التي فتحت للشعراء بعده باب نظم البديعيات ؛ فهو أول من نظمها . وبديعيته التي تعتبر الاولى من هذا النوع واستعمل فيها كل أنواع البديع المعروفة في زمنه عارض بها بردة البوصيري في الوزن والقافية والموضوع ، اذ كانت الغاية في عصره بين المدائح النبوية ، ولانها حوت من أنواع البديع الكثير مع انسجام لفظ وبراعة معنى ، فلم يبلغ شأو البوصيري فيها ، ولكنها أصبحت في الغرض الصناعي الذي وضعت من أجله فاتحة البديعيات ، فعارضه بادئ بدء عز الدين الموصلي ، وزاد عليه تسمية النوع ، ولكنه تكلف لذلك تكلفاً غير يسير ، ثم جاء ابن جابر الهواري الضرير الاندلسي مهاجراً الى الشرق ، ودخل الجزيرة ، ومدح ابن الصالح ملك ماردين بعد وفاة الحلي ، فعارضه بقصيدة بديعية جارى الحلي في عدم التصريح باسم النوع فجاءت بليغة في جملتها ، ثم جاء تقي الدين بن حجة الحموي ونظم بديعيته المشهورة مصرحاً فيها باسم النوع ، ولم تخل من تكلف ، ثم عارضها آخرون لا يحصون الى وقتنا هذا . ومطلع بديعية الصفي المسماة الكافية البديعية في المدائح النبوية هو :

ان جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم واقر السلام على عرب بذي سلم

(٣) وأما المراثي فهو ممن يجيدها ، وكان يعارض في كثير منها مشهورات مراثي المتقدمين ومن ذلك قصيدة يرثي بها أخاه عارض بها نونية المعري التي رثى بها أباه والتي أولها :

نمت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جادني الا عبوس من الدجن

فيقول صفي الدين في أول مرثيته وأغار على كثير من معانيها وضمن بعض شطورها :

بكيت دماً لو كان مسكب الدما يغني وضاعفت حزني لو شفى كمداً حزني
وأعرضت عن طيب المناء لانني (نممت الرضا حتى على ضاحك المزن)

ومن أغرب مراثيه تخميسه لقصيدة ابن زيدون النونية وصرف غزلها الى رثاه ·
وباب المراثي في ديوانه حافل بالشعر الجيد فراجعه ·

(٤) الطرديات — وقد كاد يلحق في هذا الباب أبا نواس وابن المعتز وشعره فيها جزل بليغ خال من سفساف البديع ، لان المقام مقام فروسية وتبدٍّ وإصحار · وقد اقتبس هذه الخلة من بيئته البدوية الاولى ومن خدمته لملوك من الترك والكرد كملوك ماردين وحماة وكان يشهد معهم المصايد ويصف لهم آلات الصيد من أقواس السهام وأقواس البندق وكلاب الصيد وفهوده وشواهينه وبواشقه وصقورته كما يصف المصيد من الكراكي والتم الخ ·

وله في الطرد مسمطة خماسية من الرجز لا أدري ان كان عارض بها ابن نباتة في طرديته أو هذا الذي عارضه، غير أن طردية ابن نباتة ، من نوع الرجز المزدوج بشطورين فقط ومطلع طردية صفي الدين هو :

أما ترى الانواء والسحائبا قد أصبحت دموعها سواكبا
فاكتست الارض بها جلاببا فاظهرت أزهارها عجائبا
غرائباً أضحت لنا رغائبا

ومطلع ابن نباتة هو :

أثنى شذا الروض على فضل السُحُبْ واشتملت بالوشي أرداف الكُثُبْ
ما بين نور مسفر اللثام وزهر يضحك في الأكمام
ان كانت الارض لها ذخائر فهي لعمري هذه الأزاهر
قد بسطتها راحةُ الغمائم بسطَ الدنانير على الدراهم
أحسنْ بوجه الزمن الوسيم تعرف فيه نضرة النعيم

وكأنك معي تشعر بان طردية ابن نباتة المصري أرق وأرشق ·

(٥) الخمريات — وهو في وصفها خليع مستهتر يعترض على تحريمها ، ويؤنب اللائمين في معاقرتها وطالما تاب عنها ثم عاد اليها ، وكثيراً ما جعلها محل النسيب من مدائحه السلطانية كقوله في مطلع مدحه للملك المنصور :

دقّ شوال في قفا رمضان   وأتى الفطر مؤذناً بالتهاني
فجعلنا داعي الصبوح لدينا   بدلاً من سحوره والأذان

الى أن قال :

شملتنا من ناصر الدين نعمى   نصرتنا على صروف الزمان

(٦) الغزل — وهو فيه رقيق القول جيد المعنى يبتدئ به المدائح المطولات وينظم فيه المقطعات ، وأكثر ما يكون غزله بالمذكر ، وبخاصة غلمان الاتراك . وقد يبلغ به الاستهتار أن يعقد موازنة بين الغلمان والجواري ، ولم يكن هذا ديدنه وحده بل كان دأب أدباء زمانه ، ولولم يقارفوا منكره . وكأن ذلك كان يعجب ملوك الترك والكرد فيستملحونه ، ويستمعون اليه لمصادفته أهواء من أفئدتهم . ومن أرق قوله فيه :

يا ضعيف الجفون أضعفت قلبًا   كان قبل الهوى قوياً مليا
لا تحاربْ بناظريك فؤادي   فضعيفان يغلبان قويا

وقوله :

قيل إن العقيق قد يبطل السحـ   ـر بتختيمه بسر حقيق
فأرى مقلتيك تنفث سحراً   وعلى فيك خاتم من عقيق

وقوله :

ما زال كحل النوم في ناظري   من قبل اعراضك والبين
حتى سرقت الغمض من مقلتي   ياسارق الكحل من العين

(٧) الوصف — وهو فيه حسن التخيل بديع التصوير ، فاذا وصف الازهار ومجالس الانس سهل شعره ورقت ديباجته واذا وصف الوحش والفرس وسرى الليل ونحوه اتى بالمتين والجزل ؛ فمن ذلك قوله في فرس أدهم محجل :

ولقد أروح الى القنيص وأغتدي   في متن أدهم كالظلام محجل
رام الصباح من الدجى استنقاذه   حسداً فلم يظفر بغير الأرجل

فكأنه صبغ الشبيبة شبابه وخط المشيب لجاءه من أسفل

وقوله في وصف عود الطرب :

وعودٍ به عاد السرور لأنه حوى اللهو قدْماً وهو ريان ناعم
يغرّب في تغريده فكأنه يعيد لنا ما لقنته الحمائم

راجع ديوانه في الطرديات والزهريات . ولقد خاض صفي الدين في أغراض أخرى من الشكوى والالغاز والمعاياة فراجعها في ديوانه .

اسلوب شعره . — يغلب على شعر الحلي الاوصاف الآتية :

(١) سهولة اللفظ وانسجام الاسلوب في جملته . وقد قصد الى ذلك واعتد به في أكثر شعره حتى انه ربما أسفّ الى استعمال الاساليب العامية الصورة . « ونقل عن نفسه في ديوانه أن بعض الادباء سمع شعره فاستحسنه ، وقال لا عيب فيه سوى قلة استعماله للغريب فكتب اليه ابياتاً الخ » ثم اتى بقصيدة ذكر فيها جملة ألفاظ من غريب اللغة من الخماسية الاصول الصعبة المخارج كأن الغرابة عنده بطول الكلمات وصعوبتها ، وكأنه غفل عن أن العرب انما تطيل اللفظ لزيادة المعنى إما في الحسن والقبول ، وإما في القبح والاستفظاع . على أن ما ورد في اللغة من الخماسي لا يعدو خمسين كلمة . وكذلك تضع العرب الكلمة ذات الحروف الصعبة المخارج للمعنى الفظيع كالعجوز والحجارة والداهية الخ وهاك ابياتاً منها :

انما الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس
والخرافيج والشقحطب والصقـ ـعب والعنقفير[1] والعنتريس
والغطاريس والعقنقس والفر نق والخربصيص والعيطموس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس

وهو احتجاج بارد لا يقصد اليه منتقده ؟ فهل كان غريب مسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبي بل المعري من هذا النوع على أنه — كما قدمنا — اذا قال الشعر في الطرديات أو الفخر والحماسة اتى بالغريب المراد ونسي البديع وتكلفه .

(٢) الاستكثار من استعمال البديع اذ كان من المبتدعين لبعض انواعه وأول من نظم البديعيات وله كتاب في الجناس ومن انواع البديع التي يستعملها في شعره الجناس

(١) ذكر اللفظين المزهر في الاسماء التي جاءت على فنعليل .

والتضمين ويكثر منه ويجيده وقد ضمن كثيراً من شطور قصائد المتقدمين المشهورة كمعلقة امرئ القيس ومقصورة ابن دريد ولامية العرب والاقتباس من القرآن — والمراجعة. وما لا يستحيل بالانعكاس والتوجيه باصطلاحات العلوم واهمال الحروف واعجامها على أنواع شتى والتصحيف. والسجع في الشعر وهو ممن لا يحفل بالتورية كما قال ابن حجة وصدق في قوله على انه قد وقع له منها بعض المقبول.

معاني شعره. — ليس الحلي من أولي الابتداع في المعاني والغوص على نفائسها وأكثر معانيه مسبوقة أو فطرية ، ولكن الذي جعل له هذه الشهرة الذائعة سترها في أغلب الشعر برقيق اللفظ ودماثة الاسلوب ويقل اختراعه وربما كان منه قوله من قصيدة يمدح بها الصالح :

لولا كم لم يكن في الشعر لي ارب ولا برزت به من خزن تامور
فضيلة نقصت قدري زيادتها كالاسم زادت به ياء لتصغير

وقوله منها يصف صب الخمر :

وللاباريق عند المزج جلجلة كمنطق مرتبك الالفاظ مذعور
كأنها وهي في الاكواب ساكبة طير تزق فراخاً بالمناقير

وقوله في تأخر منزلته :

كأنني من رقوم الهند أوجب لي علو مرتبتي افراط تاخيري

(باعتبار أن كتابة الارقام ككتابة الحروف العربية من اليمين الى الشمال كالنطق بها)

عيوب شعره. —

(١) منها تكلفه لدرجة المقت والبرد إيثاراً لصناعة البديع من امثال التجنيس والقلب والاهمال والاعجام ونحو ذلك.

(٢) كقوله في ممدوح :

مهذب محبب مجرب للمجتني والمجتلي والمجتدي
فقوله وطوله وطوله للمقتني والمعتفي والمعتدي

وقوله في قصيدة كل اسمائها مصغرة :

وذياك الأويمع في الضُحيا وُجَيهك أم قُمير في سُعيد

(٣) وتنوع كثير من اللحن لغة ونحواً في شعره مثل قوله من قصيدة منصوبة الروي يصف الدروع :

مروا بها خزر العيون فأوجست جزعاً وكادت بالكماة تميدا

وقوله وقد استعمل همزة القطع موصولة ولا يجوز ذلك حتى في الضرورة :

وابلغ الرملة الانيقة (وابلغ) معشراً لي بربعها وأهيلا

كنت جلداً فلم يدع بينكم لا جسم حولاً ولا لقلبي حيلا

(٤) فساد معانيه واستعاراته وتشبيهاته في كثير من المواضع كقوله في تشبيه خمسة بخمسة لجمع البدر والهلال في آن واحد في وصف فارس يلعب بالصولجان :

ملك بروض فوق طرف فارع كرةً بجوكانٍ حكاه ضرابا

فكأن بدراً في سماء راكباً برقاً يزحزح بالهلال شهابا

القاهرة : احمد الاسكندري

فن الجاحظ (١)

—(()) —

قد تعتق طائفة من مذاهب الجاحظ في العلم أو قد تبلى جملة من آرائه في الفلسفة فالعلم لم يثبت على حال من الأحوال والفلسفة لم تجمد على شكل من الأشكال فهما عرضة للتغيير في كل عصر من العصور فلكل زمن معتقداته وآراؤه ولكن الجاحظ إن لم يخلده علمه أو فلسفته خلده فنه ولغته .—

لقد قضيت أياماً وأنا أفكر في فن الجاحظ كيف أشرع في الكلام على هذا الفن وكيف أفرغ من هذا الكلام واشتدت حيرتي لما طالعت طائفة من كتب الإفرنجة ورأيت كيف يبحثون عن فن شعرائهم أو كتابهم أو خطبائهم وأظن انه سيمضي على أدبنا حين من الدهر قبل أن نصل الى ما وصلوا اليه في هذا الباب .—

ان لهم أسلوباً في البحث عن الفن لم يعهده أدبنا بعد فلا يكتفون بالاشارة الى جزالة الكلام أو الى رقته أو الى محاسن التشبيهات والكنايات وغير هذا من الصور ولكنهم يعرضون لألفاظ الكاتب فيبحثون عن هذه الألفاظ بحثاً مستفيضاً من حيث دلالتها على المعنى من طريق الحقيقة أو من طريق المجاز أو من حيث رنات هذه الألفاظ أو من حيث دلالتها على لون من الألوان أو على صوت من الأصوات أومن حيث انها مجردة أومحسوسة الى غير هذا من دقائق البحث ثم يبحثون عن النعت والمنعوت ثم يبحثون عن الفعل الى اشباه هذه المباحث التي لا أجد لها في أدبنا نظيراً .—

قضيت أياماً وأنا أفكر كيف أشرع في الكلام على فن الجاحظ وخاصة بعد أن

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

تراءى لي تقصيرنا في هذا المجال وقلت في نفسي : وما أنت قائل في هذا المعنى وكيف أنت داخل هذا الباب أم كيف أنت خارج منه وخاصة فانه أجل أبواب الجاحظ التي تدل على خلوده في الأدب .—

أحبّ الجاحظ الحياة حبًا جمًا فصوّر كل معرض من معارضها ولوّن كل صورة من هذه الصور بحقائق ألوانها فكان إفصاحه عن شعوره بالحياة خالصاً من كل تصنع فألبس كل معرض من المعارض ضرباً من اللباس وجعل لكل صورة من الصور نوعاً من الخطوط والألوان جرياً على قاعدته الغالبة : لكل مقام مقال .—

ومن ولعه بهذه القاعدة وحرصه على أصولها تعلّق الجاحظ بحرية الصيغ وبمرونتها فهو يتوخى الأساليب التي يخاطب بها الناس على مقادير عقولهم فمرة يخاطب بلغة العقل ومرة بلغة الحواس وهذا كله دليل على حرية عبقريته وحرية فنه .—

لقد عرفتم كيف كانت حياة الجاحظ العقلية ووقفتم على نشاط فكره وعلى رغبته في التطلع ورأيتم كيف يميل الى ذوق الأفكار والى تمحيصها وكيف يسلك الى التمحيص مسالك شتى ، مرة يستظهر بعقله ومرة بالتجربة والعيان ، فكل همه مصروف الى معرفة الحق وقد دفعه شغفه بهذه المعرفة الى اجتناب كل كلفة وكل صيغة شعرية في علمه مما يبعد الاشياء عن حقائقها .—

فلذلك كان فنه في أبواب العلم والفلسفة مبنيًا على العقل وحده فهو في هذه الأبواب قليل الاستعارات قريب العبارات منقاد لعُريان الكلام يستعمله نفور من معتاصه يهمله على نحو ماقاله فيه البديع في مقامته الجاحظية لانه في العلم والفلسفة يخاطب العقل وحده ولغة العقل مجرّدة والتجريد من خصائصها فالجاحظ قليل الصور في علمه وفلسفته حتى اذا اضطر الى تشبيه في أثناء كلام له على بعض الحيوان قرّب تشبيهاته ولم يغلُ فيها بحيث تكون على مقربة من حواسنا تدركها هذه الحواس دون شيء من النصب والكلفة .

من هذا الشكل تشبيهه النمل بالخيط الأسود الممدود قال[1] :

« فلا يلبث ذلك الانسان أن يراها قد أقبلت ومثلها كالخيط الأسود الممدود .— »

فانظروا الى هذه الصورة المحسوسة فانه لم يغلُ في المشبه به ولا في لونه ولا في هيأته

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٣ .

فالخيط والسواد والمدّ كل هذا من الصور التي تراها العين لأول وهلة .—

ولو عرضنا طائفة من تشبيهاته لوجدناها بمجامعها على هذا النمط واليكم بعض الامثال :

البعوضة مع صغر جسمها تفسخ الانسان في أسرع من الاشارة باليد — والحية تسقط أسرع من اللمح — والشعر الذي يكون تحت حنك الكلب كأنه طاقة — وساقا الكلب كأنهما خشبة من صلابتهما — والحية انتصبت كأنها رمح من كوز أوعود ثابت — والخصي كأن السيوف تلمع في لونه وكأنه مرآة صينية وكأنه وذيلة مجلوة وكأنه جمّارة رطبة وكأنه قضيب فضة قد مسه ذهب وكأن في وجناته الورد .—

واذا أحب في غير أبواب العلم أن يبرز بعض صفات فيمعارض مه وّرة لجأ الى تشبيه الموصوف بأشخاص معروفين مشهورين حتى يكون المشبه به على مقربة منا كوصفه أحد البخلاء (١) :

« وكان يستعمل على خُوانه من الخدع والمكائد والتدبير ما لم يبلغ بعضه قيس بن زهير والمهلّب بن ابي صُفْرة وخازم بن ابي خزيمة وهرثمة بن أعين وكان عنده فيه من الاحتيال مالا يعرفه عمرو بن العاص ولا المغيرة بن شعبة .— »

انه لا ينزع في تشبيهاته الاّ الى ما يقرب من طريقته التي لجأ اليها كل حياته في كل مذهب من مذاهبه وما هذه الطريقة الاّ الطريقة الحسية حتى انه كثيراً ما يشبه بحاسة من الحواس كاليد أو كاللمح فكل صوره محسوسة .—

لم يكن فنّه في العلم والفلسفة الاّ فنّ الفلاسفة والعلماء الذين ينصرفون الى حلّ الأفكار والتنقيب عن صيغ العالَم فهم لا يلتمسون من الألفاظ الاّ دلالتها على الأفكار دلالةً وجيزة فالجاحظ يجرّد كلامه من العناصر التي تجعل للكلام خصائص فنية فهو لا يجعل للصور مقاماً في كلامه وانما المقام للعقل وللتمييز فكل تدقيقه صحة البيان .—

ان فن الجاحظ العلمي انما هو فن الرجل الذي يخاطب العقل وأسلوبه فيّاض بالمعنى وبالمادّة فهو يقذف بأفكاره كما هبطت عليه فكأن كتاب الحيوان ضرب من احاديث في العلم والفلسفة ولكنها أحاديث يفيؤها عقل رجل فتان ، خفيف الروح فكأن الجاحظ

(١) كتاب البخلاء ص ٨١ .

في هذا الكتاب رجل مكسال فهو يخاف روح الترتيب فلا يريد الا الحديث من دون أن يستفرغ جهده في الترتيب حتى يكاد القارئ يضيع في كثرة الاستطرادات وتماظل الموضوعات وكما انه لم يتعب في قذف أفكاره فكذلك لم يتعب في قذف ألفاظه فألفاظه تنفجر من ينبوع لغته التي لا تنضب كما تنفجر أفكاره من ينبوع عقله الذي لا ينشف .

ولهذا الميل المستحكم فيه وأعني به الميل الى الصيغ العقلية كان شعر الجاحظ بعيداً عن أن يكون ضربًا من الشعر فالجاحظ على نحو ماقاله فيه البديع في أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف ، فمن شعره قوله :

يطيب العيش أن تلقى حليماً غذاه العلم والرأي المصيب
ليكشف عنك حيرة كل ريب وفضل العلم يعرفه الأريب

فاذا دققتم في الفاظ هذين البيتين كالعلم والرأي والحيرة والريب تبين لكم انها ألفاظ مجرّدة والشعر لا يعرض علينا الأفكار المجرّدة كما يفعل النثر ولكنه يعرض علينا حقائق هذه الأفكار المحسوسة حتى نكاد ندرك الأفكار ذاتها وظواهر صيغها ، كل هذا في شكل مرصوص كأنه بناء مبني لا خلل فيه فالشعر غرضه أن يعرض الفكر في معرض ظاهر فهو يتحامى التجريدات ومصطلحات العلم واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص النثر فهي تجعل الشعر في عالم يختلف عن عالم الخيال وعالم الصيغ المحسوسة[١] وفن الجاحظ ممزوج بهذا الاصطلاح العلمي والاستدلال الفلسفي فما أبعده عن أفق الشعر واذا مال في شعره الى شيء من التصوير كالتشبيه بوشي البرود وما شا كله فلا نجد في تصاويره نوعًا من الإبداع وانما يصب فيها على قوالب محفوظة ويذهب فيها مذاهب مألوفة .ـ

غير أن الجاحظ لم يحبس نفسه على مذاهب العلم والفلسفة فقد أحبّ الحياة كما قلت لكم وصوّر كل مشهد من مشاهدها وانما جعل لكل صورة خصائصها فاذا أعطى الفلسفة والعلم مقاديرهما من الفن فهل قصّر عن إعطاء غيرهما من معارض الحياة ما يستحقه من لوازم الفن .ـ

إذا جاوزنا أفق العلم والفلسفة الذي جال فيه الجاحظ كل مجال وبنى فنه فيه على أصول العقل وجدنا أنّ فن الجاحظ قد دخل في طور آخر .ـ

(١) راجع كتابي : المتنبي ـ سحر العبقرية .ـ

هل كان الجاحظ مصوّراً ؟ —

يقولون : المصوّر يبحث عن الالفاظ الدالة على المعاني من طريق الحقيقة دون المجاز المصوّر يبحث عن الألفاظ المحلية والألفاظ الفنية وعن صحة النعت . —

فلنعمد الى صورةٍ من صور الجاحظ ، كصورة قاضي البصرة عبد الله بن سوار ، قال الجاحظ[1] :

كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له عبد الله بن سوار لم ير الناس حاكماً قط ذمياً ولا ركيناً ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك ، كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حبوته ولا يحل رجلاً على رجل ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة الظهر ثم يعود الى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم الى العصر ثم يرجع لمجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ثم ربما عاد الى محله بل كثيراً ما كان يكون ذلك اذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ثم يصلي العشاء وينصرف ، فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ولا احتاج اليه ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب كذلك كان شأنه في طوال الايام وفي قصارها وفي صيفها وفي شتائها وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه وليس الا ان يتكلم فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفي السماطين بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ثم تحول الى مؤق عينيه فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغض وجهه أو يذب باصبعه فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض فدعاه ذلك الى أن يوالي بين الأطباق والفتح فتنحى ريثما سكن جفنه ثم عاد الى مؤقه باشد من مرته الاولى فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك فكان احتماله وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقل فحرك أجفانه وزاد في شدة الحركة وألحّ في فتح العين وفي تتابع الفتح والاطباق فتنحى عنه بقدر ما سكنت

---

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١٠٦ .

حركته ثم عاد الى موضعه فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده فلم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده ففعل وعيون القوم اليه ترمقه وكأنهم لا يريدونه فتنحى عنه بقدر مارد يده وسكنت حركته ثم عاد الى موضعه ثم ألجأه الى انذب عن وجهه بطرف كمه ثم ألجأه الى ان تابع بين ذلك وعلم ان فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه فلما نظروا اليه قال أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء وأزهى من الغراب وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله عزّ وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً وقد علمت اني عند نفسي من أضعف الناس فقدغلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . وكان بين اللسان قليل فضول الكلام وكان مهيباً في أصحابه وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ولا في تعريض أصحابه للمنالة .— »

فلنرجع بعد ان قرأنا هذا الوصف الى كل دقيقة من دقائقه .—

للصورة في عصرنا هذا شروط خاصة فمن خصائص الصورة أن يفصّل المصوّر على وجه عام هيأة الموصوف كالكلام على قامته وعلى لونه وعلى عينيه وعلى شعره وعلى أسنانه وما شابه ذلك فيتكلم على محاسن هذه الهيأة أو على مساويها فاذا فرغ من هذا كله تكلم على خصائص عقله فوصف محامد هذا العقل أو مقابحه ما بطن منها وماظهر فاذا فرغ من هذا تكلم على قلبه فوصف مختلف عواطفه وأهوائه .—

ليس في هذا الرسم شيءٌ من المصاعب وانما المصاعب ان يفصح الواصف عن كل شكل من الأشكال بلهجة من الكلام خاصة تباغت القاريء فتسليه وتسره .—

أهمل الجاحظ الكلام على هيأة القاضي فلم يصف لنا شيئاً من قامته أو لونه أو عينيه أو شعره أو غير ذلك من ظواهره ولكنه لم يهمل الكلام على جلسته ، كيف يجلس هذا القاضي :

« يأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حبوته ولا يحل رجلاً على رجل ولا يعتمد على أحد شقيه الخ ... »

قلت لكم : المصوّر يبحث عن الألفاظ الدالة على المعاني من طريق الحقيقة لا من طريق المجاز فاذا دققتم في هذه الألفاظ التي لجأ اليها الجاحظ وجدتم انها بعيدة عن المجاز

ولما اضطر الى تشبيه هذا القاضي في وقار جلسته رجع الى عادته في التشبيهات المحسوسة فشبهه ببناء مبني وبصخرة منصوبة فلم يغلُ في هذا التشبيه وانما كانت الصورة على مقربة من حواسّنا فهي مثل قوله : كالخيط الأسود الممدود .—

فالجاحظ في تصويره يعمد الى الألفاظ التي تفصح عن المعاني من طريق الحقيقة واذا لجأ الى المجاز وقليلاً ما يلجأ فانه يقرّب ولا يبعّد .—

وكما يبحث المصوّر عن هذا الضرب من الألفاظ فكذلك يبحث عن الألفاظ الفنية فلما قال الجاحظ : ثم ربما عاد الى محلّه بل كثيراً ما كان يكون ذلك اذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، لما قال الجاحظ هذا القول استعان بالألفاظ الفنية ، ما هي هذه الألفاظ : العهود والشروط والوثائق ، هذه هي مصطلحات القضاة .—

وكما لم يهمل الجاحظ الكلام على جلسة القاضي فكذلك لم يهمل الكلام على محاسن صفاته ، ففي ثلاث كلمات وصف هذه المحاسن فقال : لم يرَ الناس حاكماً قط ذمياً ولا ركينا ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك .—

وبعد أن فرغ من الكلام على صفات عقله تكلم على بعض صفات قلبه : ما هي هذه الصفات : الشعور الديني البارز في صلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء في أوقاتها .—

لا شك في ان الجاحظ لم يطل الكلام على هذه الصفات كلها وانما وصف منها ما له متعلق برجل قاضٍ ، قد لا يكون للصورة في عصر الجاحظ القواعد التي لها في عصرنا ولكن الجاحظ لم يغفل عن الكلام على الأشكال بلهجة تباغت فتسلي وتسرّ ، فمن هذه التسلية ومن هذه المسرة : سقوط الذباب على أنف القاضي وإطالته المكث وتحوله الى مؤق عينيه والمباغتة فيهما صبر القاضي على عضه وعلى نفاذ خرطومه من غير أن يحرك أرنبته أو يغض وجهه أو يذب باصبَعه ،

ومن هذه التسلية ومن هذه المسرّة إطباق القاضي جفنه الأعلى على جفنه الأسفل وموالاته بين الإطباق والفتح وتحريكه أجفانه وزيادته في شدة الحركة والمباغتة فيهما ذب القاضي عن عينيه بيده وبطرف كمه .—

فالجاحظ مصوّر من أكبر المصوّرين وتكاد تكون قصة القاضي عبد الله بن سوار

مثال التصوير في أدبنا فقد جرّ الجاحظ الى هذا القاضي انتباه القاريء فثبّت انتباهه هذا في مختلف أوضاعه وولّد عن هذه الأوضاع أفكاراً وألّف بين هذه الأفكار فالصورة لم تكن حلاً مجرّداً وانما هي رسم حقيقي ، انما هي معرض من معارض الحياة ليس فيها شيء من اوصاف العقل أو العاطفة مما لا تقع عليه عين وانما فيها وصف شيء تراه العين فهي صورة واضحة قوية صوّر فيها وضع من الأوضاع في مختلف حالاته .—

لا شك في انكم قد لا حظتم انّ من أساليب الجاحظ في هذه القطعة الترديد فمن ترديده قوله : فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة الظهر ... فلا يزال كذلك حتى يقوم الى العصر ... فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ...

والترديد وسيلة من وسائل الفن فان الكلمة المردّدة توضّح الفكر أحسن توضيح فتوحي المعنى الى الذهن وتستثير هذا الذهن فان اللفظة اذا ردّدت كان لترديد جرسها تأثير في تثبيت العناصر في الذهن .—

وكثيراً ما يلجأ الى هذا الباب فمرّة يردّد النعت ذاته كقوله في قصة محمد بن أبي المؤمل في البخلاء :

« ولم يكن أكله الا على قدر أكله اذا أتى بذلك في طبق نظيف مع خادم نظيف عليه منديل نظيف . »

ومرّة يردّد الفعل كقوله في وصف سحابة(١) :

« فاذا سحابة ضحياء تكاد تمس الأرض وتكاد تمس قمم رؤوسهم ... ثم قوله : ثم انها دفعت باشد مطر ... ثم اندفعت بالضفادع العظام ... ثم اندفعت بالشبابيط . »

أو قوله(٢) :

« ومن العجب في قسمة الارزاق ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها ... »

فكرّر كلمة : تأكله ثماني مرات في خمسة سطور وما يقال في الترديد يقال في لجوء الجاحظ الى استعمال اللفظ وضده إظهاراً للمعنى فالغاية التي يؤدي اليها ترديد النعت أو

(١) كتاب الحيوان — الجزء الاول ص ٦٨

(٢) 〃 〃 〃 السادس ص ١٠٢

الفعل أو الاسم انما هي شبه الغاية التي يؤدي اليها استعمال اللفظ وضده فكل هذه الوسائل انما المقصد منها تثبيت الفكر في الذهن .—

هذه عناصر يسيرة يتركب منها بنـاء الجاحظ ، أما جملة البناء فان لها أشكالاً شتى .

مرةً تموج عبارته فتنبسط ثم تمتد حتى تغيب عن النظر فلا يقف بك كلامه الا بعد شيءٍ من التعب ونماذج هذه العبارة كثيرة منها قوله في وصف الكتاب[1] :

وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى أثره ولولا ما أودعت لنـا الاوائل في كتبها وخلّدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بهـا ماغاب وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا مالم نكن ندركه الاّ بهم لما حسن حظنا من الحكمة ولضعف سببنا الى المعرفة .— »

ومرةً يقطعها تقطيعاً كأنها ألحان موسيقى كل لحنٍ له رنته[2] :

« اللهم انّا نعوذ من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العِي والحَصَر .— »

فيأخذ كلامه في مثل هذا التقطيع نصيبه من الراحة ويمهّد للقاريءْ مثل هذا النصيب :

ومرةً يرسل الكلام إرسالاً لا يبالي بتموجه وتقطعه ، من هذا القبيل كلامه في البخلاء وفي كثير من كتاب الحيوان .—

من كل ماتقدم يتبين لكم أن الصور التي يعرضها علينا الجاحظ قليلة وهي صور قريبة لاتتعب الحواسَّ في إدراكها وانما الجاحظ اذا أراد أن يصبغ فنه عمد الى صباغ من غير الجنس الذي نعهده فهو يحيي فنه وينفخ فيـه روحاً بلجوئه الى توضيح حقائق التفاصيل انه يصوّر الأفكار بريشة الحوادث نفسها فيختار لها أحوالاً وخصائص ترينا هذه الأفكار واذا أردتم أن تعرفوا نموذجاً من هذا الفن فارجعوا الى كلامه على ذرء الحمام وطلبه الولد[3] .

(١) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص٤٢ .

(٢) مقدمة البيان والتبيين .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ٤٦ .

ليس في هذا الكلام شيء من الصور وانما فن الجاحظ فيه تصوير الأفكار ذاتها بتفصيل دقائقها وأكثر كلام الجاحظ على هذا النمط .—

واذا شاء الباحث ان يستوفي خصائص فن الجاحظ أوشك أن ينقطع به الكلام وأظن ان في هذا القدر إشارة الى فنه بقي علينا أن نعرف كيف عالج الجاحظ لغة هذا الفن وكيف زاولها .—

دمشق : في ١٤ أيار سنة ١٩٣٢ شفيق جبري



آراء وافكار

—(()—

اصل بناء حلب الشهباء

لقد اضطرب قول المؤرخين في أصل بناء مدينة حلب الشهباء ، وقد خبطوا في الامر خبط عشواء ، فمنهم من جعلها من بناء ابراهيم الخليل ، ومنهم من جعلها من بناء العالقيين وآخرون جعلوها من بناء الحثيين أو الروطانوس ، الذين تشهد الكتابات الهيروغليفية بانهم كانوا يسكنون سورية الشمالية ، وهم من ذرية (لود) وقد ملكوا سورية قروناً طوالاً ، ولم يقوض سرادق ملكهم الاَّ الحثيون الذين دفعوا لهم الجزية ، وهناك قوم عزوا بناءها الى بلكورس أو بلوكوسكس ملك الموصل ، الذي ملك في القرن الخامس عشر قبل المسيح فبناها ودعاها بهذا الاسم ، على شرف حلب بن مهر بن خاب الذي كان متسلطاً على قنسرين .

على ان علائق الشهباء مع الحثيين هي بينة فان أقدم عصر ذُكرت فيه هو القرن العشرون قبل المسيح ، أما تاريخ تأسيسها واسم بانيها ، فهذا ماستسرَّ علمه على المؤرخين ، ولكن الاب (دورم) العلامة الاثري الشهير نشر في مجلة سورية العلمية سنة ١٩٢٥ خلاصة مابلغ اليه في هذا الشأن فقال : لم يعلم الباحثون شيئاً يذكر من تاريخ حلب القديم ، حتى هذه الأعوام الاخيرة . ولكن الكتابات الهيروغليفية تذكر حيناً بعد آخر مدينة حلب في النصوص المتعلقة بامينوفيس الثاني أورعمسيس الثاني في عهد الدولة السابعة عشرة أو التاسعة عشرة ، فالوثائق التاريخية المصرية لاتدل على وجود مدينة حلب قبل القرن الخامس عشر قبل المسيح . اما الكتابات المسمارية فانها لاتبدأ بذكر اسمها الا في عهد (سلما ناصر) الثاني الذي ملك من سنة ٨٥٩ حتى سنة ٨٢٤ وهي تدعوها (Halman)

أوحلوان — كذلك الكتاب المقدس فان مدينة « حلبون » المذكورة فيه ليست سوى قصبة «حلبون» التي تقع على ثلاث ساعات من دمشق ، وهي عاصمة بلاد الحلبونيين التي اشتهرت بخمرها الجيد . أما المؤرخون اليونانيون والرومان فانهم كانوا يدعونها « بيروه) وكذلك الملك سلوقوس نيكاتور كان يسميها بهذا الاسم ، وقد تلا تلوهم المؤرخ اليهودي « يوسيفوس» .

فلاريب إذن في وجود مدينة حلب منذ القرون الاولى لتاريخ بلاد سورية، وكانت تعقد المعاهدات التاريخية مع ملك الحثيين وكان الشعبان كفرسي رهان ، وان سجلات « حاتوزا » الملكية تتضمن ماجلّ ودقّ من تاريخ مملكة حلب وماطرأ عليها من الكوارث والتقلبات منذ عهد حاتوزيبليس الاول الذي حكم في القرن العشرين قبل المسيح فلم تبق شبهة في ان مدينة حلب قد ذُكرت لأول مرة في التاريخ في القرن العشرين قبل الميلاد .

ولكن ماهي ياترى تلك الكوارث والتقلبات التي تسردها سجلات حاتوزا الملكية ، وكيف يبتدئ تاريخ مدينة حلب ؟ تمكن معرفة هذا من الكتابة المذكورة التي صُورت باحرف بابلية .

وكان ملك حلب في ذاك العهد (١٣٣٦ قبل المسيح) « رييشرهاما » وملك الحثيين « مورشيليشو » الثاني عم رييشرهاما . اماالكتابة فليست سوى نص معاهدة وُقعت بين الملكين المتحاربين ، وليس لدينا سوى نسخة منها نُقلت بامر «موفاتاليش» بن «مورشيليش» وقد فقدت النسخة الاصلية . وقد جاء في تلك المعاهدة ما نصه :

« كان لملوك بلاد مدينة حلب (Halaap) قديمًا السلطان على مملكة عظيمة وكان حاتوزيليس الملك الكبير ، ملك بلاد مدينة حاطي قد جعل تلك المملكة تزحم منكب الجوزاء وتعلو جناح النسر » وفيها ايضاً بعد بضع عبارات : « بعد حاتوزيليس ملك بلاد مدينة حاطّي هدم مورشيليش الملك الكبير حفيد حاتوزيليس الملك الكبير مملكة بلاد مدينة حلب (Halaap) وبلاد مدينة حلب » .

ونقرأ في وصية تليبينوش السياسية (قرب سنة ١٧٧٥ قبل المسيح) ، ان مورشيليش قد أتى الى مدينة الحاتوزيين بمجوفي «حالابا» وبخيراتها .

وعليه فلا إشكال في حدوث حرب في تلك الأعصر بين الحثيين وبين الحلبيين

الأولين . وكانت الوقائع التي سردناها نتيجة تلك الحرب . لا بل ان دخول مورشيليش الاول مدينةحلب واستيلاءه عليها لم يكن سوى مرحلة من مراحل التوسع الحثي . فان التاريخ والوصية المشار اليهما يقولان ايضاً « ان مورشيليش الاول قام من حلب على بابل وأوقع في بابل البوار والدمار » .

مع ان كبار الباحثين جعلوا هذا الهجوم على مدينة بابل نحو عام ١٨٧٠ قبل الميلاد ، فكان الشاهد الصادق على ان الحرب بين الحثيين والحلبيين قد نشبت في أواخر القرن العشرين قبل المسيح .

فقد ظهر ان مدينة حلب في ذاك العهد كانت قطب مملكة زاهرة تسمى (بلادمدينة حلپاس) ومنها جاء اسم حلب ، فيكون اسمها لم يزل ثابتاً منذ تأسيسها حتى عهد العرب الذين سموها هم ايضاً به .

ولكن مملكة حلب ومدينة حلب ، بعد ان دمرهما «مورشيليش» الاول ، عادتا الى الوجود اذ رجع احد الملوك فبنى المدينة من جديد . ولا يدخل في علم التاريخ شيء من أطوارهما مدة اربعمائة سنة أو أكثر حتى أواخر القرن السادس قبل المسيح ، اذ نشاهد الحلبيين في عهد «توداليش» الاول ملك الحثيين ، قد لف شملهم بسكان «هانيكالباد» في جنوبي شرقي نهر الفرات واتحدت وجهتهم في مقاومة الحثيين ، فأصبحوا لهم حرباً وعليهم إلباً . وكان من وراء ذلك العصيان تقويض مدينة حلب بامر « توداليش » الاول . وقد بنيت مرة ثانية ولكنها مافتئت على خلاف مع الحثيين ، بل كانت تثور عليهم أحياناً . فمن تصفح نص المعاهدة التي عقدت بين مورشيليش الثاني وريميشرماما ، ثبت له ما سبق وعرف تاريخ حلب حتى الى مابعد الحرب التي نشبت في أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد .

اما المصريون فانهم حكموا حلب في عهد توطمس الثالث ، الذي ملك من سنة ١٥٠١ قبل المسيح حتى عام ١٤٤٧ . ومنذ ذلك الحين انجلت عن تاريخ حلب الشكوك والأوهام .

حلب : الخوري جبرائيل رباط



مطبوعات حديثة

كتاب الجزائر

« تأليف السيد احمد توفيق المدني طبع في المطبعة العربية في الجزائر »
« سنة ١٣٥٠ هـ ص٤٠٨ »

من أمتع الكتب التي نشرت في الجزائر على عهدها الاخير على أسلوب عصري بديع تام بتأليفه ووضعه وطبعه ، هذا السفر النفيس كتبه مؤلفه باسلوب رشيق وعبارة منسجمة فرسم لنا صورة الجزائر طبق الاصل بحيث من يقرأ كتابه يلم بتاريخ ذاك القطر وتقويم أرضه وعادات أهله وأخلاقهم وأصول إدارته وقبائله ومراكزهم وعناصره وسكانه . قال ان العربية العامية فيه هي أفصح اللهجات العربية وان من يتكلم بها العامة ومن دخلوا في الجيش فيمزجون العربية بالافرنسية بالبربرية بالايطالية الخ ، وأفاض في المعاهد الاسلامية وغيرها وجميع ماله علاقة بادارتها وصنائعها واقتصادياتها وحضارتها الحديثة والقديمة . وكان المؤلف على تحمسه الظاهر في بعض صفحات كتابه صادقاً في آرائه لم يسعه الا ان يقول قول المؤرخ الاجتماعي الصادق للجزائر بين ومما قال : « وبعد فالجزائر اليوم تسير خطوات شاسعة في ميدان النهضة العربية الاسلامية وانها بعلمائها وكتابها وشعرائها ومدرسيها ورجال العمل فيها تهيء لنفسها مركزاً متيناً في عالم النهضة العربية ، انما الخطوة التي بقي عليها ان تخطوها هي ان يشارك الشبان المتعلمون تعليماً فرنسياً عصرياً في الآداب والعلوم العربية ، وان يشارك علماء العربية وكتابها وشعراؤها في العلوم العصرية الحديثة حتى تتوحد الثقافة ويسير الفريقان يداً في يد في طريق واحدة وغاية الجميع رفعة شأن الوطن ورفع الجزائر الخالدة الى أسمى مقام . » (ص ١٠١) وقال (ص ١٤٤) اننا نرى

طغيان اللغة العربية العامية على كل البلاد العربية والبربرية من جهة ونرى ان هذه اللغة قد أخذت تترقى وتتهذب وتزداد كل يوم اقتراباً من اللغة الفصحى والفضل في ذلك راجع للمدارس والدروس والصحافة والمحاضرات . » والمؤسف ان خمسة في المئة من المسلمين هناك يعرفون القراءة والكتابة وينقسم التعليم فيها (ص٢٩٣) الى قسمين تعليم الفرنسيين والاوربيين وهو إجباري فلست تجد قرية أو دشرة أو مركزاً صغيراً الا ورأيت فيه بناية المدرسة الجميلة وأطفال القرية اوالمركز يجبرون على التعليم ، والقسم الثاني تعليم المسلمين وهو يسير الهوينا . والتعليم في الجزائر يتبع مبدئياً نظام التعليم في فرنسا وفي أمهات المدن مدارس لتخريج المدرسين والمدرسات ، وجملة الاوربيين الذين يتلقون علومهم في هذه المدارس يبلغون زهاء ١٣٦ الفاً من البنين والبنات (وجملة الاوربيين ٩١٣ الفاً) ويتعلم في مدارس الحكومة من المسلمين ٦٠ الفاً (وجملة المسلمين نحو ٦ ملايين) فيبقى ٧٨٠ الفاً من المسلمين لايدخلون المدارس ، ومنهم من يتلقى علومه في نفس المدارس الفرنسية وعددهم ٩ آلاف و٤٨ الفاً يتلقون العلوم بالفرنسية في مدارس خاصة وعددها في القطر الجزائري ٥٤١ مدرسة منها ٥١٩ مدرسة للذكور وتلاميذها ٤٥ الفاً و٢٢ مدرسة للبنات تلميذاتها ٣٠٠٠ ، وفي الجزائر ثلاث مدارس للتعليم الثانوي في مدينة الجزائر وقسنطينة ووهران وثماني مدارس عليا (كوليج) وعشر مدارس حرة اوربية وثلاث مدارس تجهيزية للبنات ويزيد إقبال المسلمين على التعليم الثانوي . وللتعليم العالي في الجزائر (الجامعة) وفيها كلية الحقوق وكلية الطب والصيدلة وكلية الآداب وفيها تلقى دروس اللغة العربية الفصحى والمدنية الحديثة والفلسفة الاسلامية ويستفيد في العلوم الاسلامية الاوربيون وقليل من المسلمين ومن أبناء المسلمين نحو ٧٥ طالباً يتلقون التعليم في مختلف الكليات . والتعليم الابتدائي العربي مهمل ويعنى بعض العناية بتعليم العربية في الثانوي والعالي ، وفي الجوامع مدرسون يدرسون الفقه والتوحيد والنحو وهم منبثون في ٣٣ بلدة من بلاد الجزائر ، ويعلم علماء الدين في ثلاث مدارس اسلامية وهي المدية وتلمسان وقسنطينة ومن هذه المدارس يؤخذ القضاة والمفتون وغيرهم ، وهناك مدارس قرآنية حرة لتعليم العربية وهي ثلاثون مدرسة في القطر الجزائري تعلم ثلاثة آلاف من أولادها والإقبال عليها كثير وهي تقوم بمال المسلمين وفي استطاعة أهل كل قرية اودشرة اومدينة

أن تؤسس مدارس قرآنية والحكومة تشترط لهذه المدارس ان تكون أما كنها صحية وان يكون الشيخ او المؤدب محرزاً شهادة تثبت انه اهل للتدريس ولكن الجزائريين يهملون التوسع في هذه المدارس للبنين كما أهملوا البنات ، وهناك بعض المدارس الاسلامية التي يتخرج فيها الطلبة علي الاصول القديمة لكنها غير منتظمة وذلك لتهاون الجزائريين بها مع ان الحرية مطلقة لهم في ذلك . الى غير ذلك من المدارس الزراعية والصناعية والتجارية وكلها مفتحة الابواب لا تطلب غير الاقبال عليها من المسلمين كما أقبل عليها غيرهم من نزلاء الجزائر والغرباء عنها من القاصية فاستفادوا وأفادوا . وقصارى القول أن كتاب الجزائر من الكتب الخالدة المفيدة فيه روح الشباب والتجدد ولا تصح ان تخلو منه خزانة كتب شرقية فلمؤلفه الشكر على هذه التحفة البديعة التي أتحف بها المكتبة العربية .

م . ك

الصبح المنبي

— عن —

« حيثية المتنبي »

أعاد طبعه الشيخ ياسين عرفة بدمشق — مطبعة الاعتدال — ٢٩٢ صفحة من القطع الوسط .—

يتضمن هذا الكتاب جملة صالحة من أخبار المتنبي على ما هو متعارف ، غير أن عيبه انما هو عيب بعض كتبنا في القديم فلم يروِ صاحبه الأخبار من مبادئها الى خواتيمها على صورة مرتبة فقد رواها على صورةٍ مفرّقة مبدّدة وانه ليروي لنا أخبار المتنبي عند سيف الدولة اذ ينقلب بنا فجأة الى أخباره عند ابن العميد على غير مناسبة فلو ذكر صاحب الصبح المنبي أنباء المتنبي دفعة واحدة من دون أن يتخللها شيء من نقد الشعر أو غيره مما لا محلّ له في فصل الأنباء لكفى القارئ كثيراً من العناء فأدبنا في القديم لا يزال فوضى ينقصه كثير من الترتيب .—

وقد تولى إصلاح خطأ المطبعة الإستاذ عز الدين علم الدين عضو مجمعنا العلمي وقدم

الكتاب بمقدمة أشار فيها الى فريق من الذين شرحوا ديوان المتنبي ولمح الى إسهاب صاحب كتاب الصبح المنبي في استطراداته وذكر بعض حسنات هذا الكتاب من جملتها صدق كثير من احكامه على المتنبي وإلمامه بكثير من حوادث بعض الابيات التي يستعين بها الدارس على فهمها ومفاضلته بين كثير من القصائد .—

وأشار الى زيادات هذه الطبعة أي طبعة الشيخ ياسين عرفة .—

والكتاب مطبوع طبعاً جيداً على ورق جيد وفيه بعض خطأ من هذا الخطأ اسم وزير كافور فقد سماه صاحب كتاب الصبح المنبي : ابن حرابه وبقي اسمه هكذا في الطبعة التي نتكلم عليها والصحيح ان اسمه : ابن حنزابة .—

شفيق جبري

أحاديث الزواج في مصر

كتاب جيد الورق متقن الطبع طبعته مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر القاهرة وضعه مؤلف عالم ضليع من فلسفة الاجتماع لم يشأ — تواضعاً او لغرض من الاغراض — ان يذكر اسمه في فاتحته بل جعله ُغفلاً واستعار له اسم « رسول الزواج » واكرم به من رسول فصيح اللسان جلي البيان ، وجه رسالته بنوع اخص الى الفتى الناهض والفتاة العصرية يسليهما بما فيه من فلسفة وادب صحيحين ويضيء عقليهما بنور وحي الحكمة التي فيه حتى اذا اقبلا على الزواج ترسما رسم خطواته .

قسم المؤلف احاديثه الى ابواب عالج فيها فلسفة الزواج ومنافعه ومشاكله وكل ما يتعلق به من اوليات وشروط ونتائج ومحّص الاسباب في كل ذلك وردّها الى عللها ومنابتها ووصف دواء ادوائها . وقد حلاه برسوم منتقاة كل واحد منها يوافق الفصل الموضوع فيه ويزيده بياناً فوق بيانه الادبي واللغوي . حريّ بهذا الكتاب ان يقرأه الكبير والصغير وان تكون له مكانته على مناضد العائلات الكريمة .

عبد الله رعد

منابت الصهيونية

كتيب مطبوع في مدينة سان باولو احدى امهات مدن البرازيل وضعه السيد توفيق قربان ٠وهو يحتوي على قصة ملفقة القصدمنها تكريه الناس من اليهود الصهيونيين المستعمرين لفلسطين ولكنه بهذا التلفيق لم يصب الهدف بل حطّ فيه من كرامة المسيحيين واليهود عامّةً لانه اوّل في هذه القصة آيات التوراة على غير تأويلها والتوراة كتاب منزّل في اعتقاد المسيحيين واليهود وله فوق ذلك اعتبارٌ كبير عند سواهم من الشعوب ومكانة عظيمة في التاريخ ٠ وليته طرق غير هذا الباب فيما رماه اذاً لما طاش سهمه ٠

وتلي قصة منابت الصهيونية في هذا الكتّيب قصصٌ اخرى من تعريب السيد قربان الا ان تسميته لها « اجتماعية » في غير موضعها لان ما في كل منها من المغزى لا ينطبق على مبادئ الشرف والاستقامة ، وخصوصاً مغزى القصّة التي اسماها بعنوان « رجل مستقيم »

فلسفة الدين والاجتماع كثيرة التشعّب والفروع عند الامم والشعوب ولكل شعبة منها انصار ٠ الا ان السيد قربان كتب ونقل باللغة العربية ، اذاً فكتابته موجهة الى قرّاء العرب ، ولا اظن ان الكثيرين بين هؤلاء يقولون قوله او يرون رأيه ٠ ٠—

اما من جهة اللغة المكتوبة بها هذه القصص في هذا الكتّيب فلا بأس بها ٠

عبد الله رعد

الاسلام

« للسيد هنري ماسي — طبع باريز سنة ١٩٣٠ عدد صفحاته ٢٢١ بقطع صغير »

Henri Masset - L'Islam, 221 pages. Paris 1930

يحتوي هذا الكتاب بالرغم من صغر حجمه على موجز تاريخ النهضة الاسلامية وقد افتتح كتابه بمقدمة عن العرب قبل الاسلام ثم بحث عن الاسلام وتطوره الديني والمدني منذ نشأته حتى تاريخنا هذا كما أنه بحث في اصول الادارة الاسلامية وتقدمها في القرن الاولى ٠

ومما لا نقر المؤلف عليه قوله بأن محمداً (ص) حط من شأن المرأة وسلبها الحرية التي

كانت تتمتع بها في زمن الجاهلية والحقيقة ان الاسلام هو الذي صان حقوق المرأة كما صان حياتها . ونرجو ان لا يكون المؤلف قد تأثر ببعض المصادر المتحاملة على الاسلام وتاريخه

جعفر الحسني

احصاء الابنية الاثرية
« في مدينة حلب »

للسيد ج سوفاجه — طبع باريز سنة ١٩٣١ عدد صفحاته ٥٦

Inventaire des Monuments Musulmans de la ville d' Alep . 56 pages . Paris 1931

يحتوي هذا الكتاب على وصف لأشهر ابنية حلب الاسلامية الاثرية وعاديتها وقد بين مؤلفه في مقدمته خطورة حلب الاثرية وما تمتاز به عن بقية المدن الاسلامية الشرقية من وفرة آثارها وتنوعها ويمتاز هذا الكتاب عن غيره باشارته الى مواضع الخلل في كل بناء وما يحتاج اليه من الترميم والاصلاح وقد زينه برسوم ومخططات بعض هذه الابنية ويصح ان يتخذ هذا الكتاب دليلاً لكل من يزور مدينة حلب فيستنير به وينتفع بفوائده وذلك لخبرة مؤلفه الواسعة في آثار سورية الاسلامية .

جعفر الحسني

أخبار دمشق عن الصليبيين

The Damascus chronicle of the Crusades H. R. A. Gibb

كتاب نقله الى الانكليزية المستر (هـ أ ر جب) أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن عن كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وهو ذلك الكتاب العربي الذي طبعه الاستاذ امدروز في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٠٨ ، وأضاف اليه مقدمة وجيزة مشفوعاً بفهرس الأسماء الواردة في تلك الرسالة مرتبة بحسب حروف الهجاء والأسماء اللاتينية القديمة وما يقابلها باللغة الانكليزية . عدد صفحاته ٣٦٨ وهو مطبوع على ورق صقيل وبحرف جميل .

أشار الاستاذ في المقدمة الى قلة الكتب العربية القديمة الباحثة في حروب الصليبيين الاولى وأثرها في الشرق الأدنى وبحث عن الرسالة المخطوطة التي عثر عليها منذ بضع سنوات في مكتبة البولديانا وقد تناولت قسماً عظيماً من تلك الحوادث بقلم ابن القلانسي فأحب نقلها الى اللغة الانكليزية ليسهل درسها على المؤرخين ٠

وقد جاء في مقدمته على ذكر حياة ذلك المؤلف العربي كما اقتبسها عن كتاب تراجم أعاظم الرجال الدمشقيين وأسفار التاريخ الكثيرة مما نوجزه فيما يلي تتجلى منها قيمة هذا الكتاب الثمين الذي أخذت معظم أخباره عن مصادر رسمية بالنظر لشدة ارتباط المؤلف العربي بدواوين الدولة ولتأييده الاخبار التي كان يسمعها من المحاربين بالوثائق ٠

وابن القلانسي هو حمزة بن اسد المعروف بابي يعلى يمت بنسبه الى أسرة دمشقية معروفة تنتمي الى قبيلة تميم ، وقد درس الأدب والدين والشريعة واستخدم في المصالح العامة امين من ديوان الرسائل ثم انتهت اليه رئاسته ٠ ووسدت اليه رئاسة المدينة وتوفي في ٧ ربيع الأول سنة ٥٥٥ هجرية الموافق لـ ١٨ آذار سنة ١١٦٠ ميلادية عن عمر بلغ التسعين سنة ٠ والكتاب المذكور هو الأثر الوحيد الذي قام بتأليفه وسماه « ذيل تاريخ دمشق » مما يدل على انه وضعه كتتمة لكتاب المؤرخ هلال الصابي وبدأ في نقل الحوادث منذ وفاة المؤرخ المذكور سنة ٤٤٨ هجرية وأورد في كتابه فقرات منه حتى تاريخ وفاته سنة ٥٥٥ هجرية ٠

ويقسم الكتاب الى أقسام عديدة يبحث كل منها في مدة معينة ابتداءً من اول الحروب الصليبية حتى سنة ١١٦٠ ميلادية مع بيان الحوادث المهمة وما طرأ على دمشق اثناء ذلك من الامور وما تقلب عليها من ملوك وأمراء ٠

عبد الرحمن الجوخدار

المخطوطات
« التي اقتناها المجمع العلمي حديثاً »

(تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة) مخطوط في مجلد لطيف الحجم يبلغ ٧٣ صفحة مؤلفه ابو بكر بن الحسين المراغي العثماني نزيل المدينة المنورة المتوفى سنة ٨١٦ اوله (الحمد لله الذي جعل المدينة الشريفة دار هجرة رسوله الخ) ويفهم من مقدمة المؤلف انه في تأليفه انما هو يلخص تاريخ الحافظ محب الدين النجار الموسوم (بالدرة الثمينة في اخبار المدينة) وقد ضم اليه بعد التلخيص (سوانح الشوارد وفرائد الفوائد) الى آخر ماقال والنسخة غير حسنة الخط ولا متقنة الضبط وقد كتبت عن نسخةالمؤلف التي بيضها في ١٢ رجب سنة ٧٦٦ هـ وهي من(كتب سلمان بن محمد الشامي)وقد وقفها علي طلبة العلم في المدينة المنورة سنة١١٩٤ هـ .

كتاب القنطير (كذا) كامل الصناعتين (كذا) المعروف بالناصري سمي به لان مؤلفه ابا بكر ابن البدر البيطار صنفه برسم خزانة الملك الناصر بن قلاوون وهو مجلد كبير تبلغ صفحاته ٤٥٠ صفحة حسنة الخط ومتينة الورق . ولا يفهم موضوع الكتاب من اسمه وانما يعرف من فهرسته المسهب المفصل وهو في الخيل واوصافها وامراضها ومحاسنها ومساويها وجميع ما يتعلق بها واوله (وما من دابة الآية الحمد لله الواسع العطا الذي اسبل الغطا) وقدقال في المقدمة انه لم يترك شيئاً ممايتعلق بالخيل حتىذكره (ولاسيماً للزراطقة والبياطرة والنخاسين (كذا) والركابين الاواوقفته علي حده الخ) والكتاب مركب من عشر مقولات وكل مقولة من عدة ابواب وليس في النسخة ما يدل على زمن كتابتها وانما شكل الخط يدل على انها كتبت من عهد قريب . ويظهر ان مؤلفه بيطار قدير وله اب حاذق في صنعة البيطرة فهو ينقل عنه اشياء كثيرة في هذه الصناعة وحبذا لو طالعه احد علماء البيطرة في دمشق ولخص عنه مقالاً فان فيه فوائد لغوية واصطلاحية تتعلق بزمن الملوك الشراكسة .

(بستان الفقراء ونزهة الامراء) كتاب في الوعظ صنفه الشيخ علي الكتامي الشافعي اوله الحمد لله الذي احكم الامور وقدرها وقد قال المؤلف انه جمعه من كتب عديدة

ورتبه على مئة وخمسة ابواب فجاء في نحو ٨٠٠ صفحة وقد فرغ من تأليفه سنة ٩٩١ هـ وقد كتبت المخطوطة سنة ١١٤٨ هـ وهي جيدة الخط مقروءته .—

(نتيجة العقاد في معرفة الأوقات) هو مخطوط كل صفحاته جداول ودوائر مرقومة بالحبر الاسود والاحمر والاخضر احياناً وقد افتتحه مؤلفه بأرجوزة أبان فيها الغرض من تأليف نتيجته قال في اولها :

(يقول يوسف الحقير الملتجي لحرم الله وعوداً يرتجي)

ومنها : (أرختها رزنامةً هدية لها على امثالها مزية)

وقوله (رزنامة هدية) تبلغ أبجديته سنة (١١١٧هـ) وكاتب هذه المخطوطة مراد ابن الشيخ علي نور الدين القباني نقيب طائفة القبانية بمصر تلميذ الشيخ مصطفى ابي الاتقان الوفائي الخياط صناعةً كتبها في رجب سنة ١١٩٥ هـ وقوله (الخياط صناعة) راجع الى كاتب النسخة (مراد) لا الى الشيخ أبي الاتقان الوفائي .والكتاب نفيس مفيد ولاسيما فيما يتعلق بالميقات المصري واعياد المصريين ومواسمهم المختلفة فهو لم يدع من الاعياد الاقباط شيئاً حتى ولا عيد (ابو شنودة) و(وابوبقطر) و (قاتل الحية) و (عيد مهرايا) و (عيد فلوطس) الخ الخ اما المآكل وما يختار منها في الفصول فهو ايضاً فصل فيه القول تفصيلاً وكذا الاستحمام والطعوم والشروب ومهاب الرياح واوقات الزرع والحصد والقطاف الخ الخ .

(شرح مقدمة قانون ابن سينا) مجلد ضخم حسن الخط مقروءه ملزوز الاسطر والكلمات لكنه كثير الغلط وعدد صفحاته (٦٧٠) واوله (الحمد لله الذي دقت حكمته في خلقة الانسان) ومؤلفه هو (محمد بن محمود الآملي) ذكر في مقدمته انه قدمه الى سلطان زمانه ولم يسمه وقد انتهى الكتاب بالفصل الحادي والثلاثين في الوصية بان الطبيب اذا تعددت الامراض في شخص فبأي مرض يبتدئ ؟ وبعدان وفى هذا قال مانصه (وليكن هذا القدر من كلامنا المختصر في الاصول الكلية لصناعة الطب كافياً ولنأخذ في تصنيف كتابنا في الادوية المفردة) .

وفي عبارة الكتاب اخطاء كثيرة فاما ان تكون من الناسخ او تكون من المؤلف نفسه لأنه يظهر من اسمه وأسلوب تقديمه الكتاب لسلطان عصره انه تركي عثماني .

« المغربي »

كتاب

التبصر بالتجارة

« للجاحظ »

توطئة للناشر

—(()—

الجاحظ بصري المولد والوفاة ، بالبصرة وُلد وبها شبّ ودرج ، وفيها دوّن غالب تآليفه .

مابين نصفي القرن الثاني والثالث نبغ الجاحظ حينما كان « العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق[1] » ، وكيف لاتكون كذلك وهي عندئذ باب بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ، نظير مرسيلية اليوم بالنسبة الى فرنسا أوجنوة لايطاليا وليفربول لبلاد الانكليز ، بل امتازت البصرة على تلك المراسي بنصيب أوفر وحظ أكبر إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ، ومحط رحال الشرق والغرب ، من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى ، ولذلك استفحل بها العمران وكثرت فيهـا المصانع والصنائع وصارت واسطة العرب والعجم وحق لها ان تتلقب « بقبة الاسلام » كما سماها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) .

ناهيك ببلد جمع لحسن الموقع أضداد الأشياء وأشتات الأرزاق ومختلف المكاسب والمطالب .

---

(١) ثمار القلوب للثعالبي ص١٢٧ ومعجم البلدان لياقوت ٢ :

فاخر خالد بن صفوان البصري ببلده لدى عبدالملك بن مروان فقال :
« يغدو ساكنها قانصاً فيجيء هذا بالشبوط والشيم ، ويجيء هـذا بالظبي والظليم ، ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً ، وخزاً وديباجاً[1] . »

وباهى الجاحظ نفسه بمسقط رأسه فقال :
« ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى ارضاً كالكافور ، ورأى ضباباً تحترش ، وغزلاناً وسمكاً وصياداً ، وسمع غناء ملاّح في سفينته ، وحدا جمّال خلف بعيره[2] »

وقد قال الخليل بن احمد البصري قبله[3] :

زر وادي القصر نعم القصر والوادي ... في منزل حاضر ان شئت او بادي
ترّ به السفن والظلمان حاضرة ... والضب والنون والملاح والحادي

اشتهر أهل البصرة من قديم بالتطوّح في الآفاق والترامي على الأسفار البعيدة والضرب في مناكب الارض طلباً للرزق والتماساً للثراء ما جعل الجاحظ يصرح : « بانه ليس في الارض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أطراف الدنيا الا وانت واجد به البصري والمدني[4] » وقد اتفقت كلمة السائحين وأصحاب الرحلات على بُعد همة البصريين في الترحال وغوْرهم في الاغتراب حتى قال ابو بكر الهمذاني — وناهيك به من خبير : « وأبعد الناس نجعة في الكسب بصريّ وحميَريّ ، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بد ان يرى فيهما بصرياً أو حميريا[5] . »

ومن البديهي ان من كان في ذكاء الجاحظ وفطنته الغريزية وحبه استطلاع الاشياء والبحث عن الجليل منها والحقير ، ويشاهد عياناً ما يجلب الى العراق من أطراف البلاد وما يصدر منه الى سائر الآفاق لجدير أن يفيدنا بكل حذق وتدقيق عن الاحجار الكريمة والأعلاق النفيسة والطرائف الثمينة والرياش الغالية وعن ماهيتها وأثمانها في عصره ، على

(١) معجم البلدان لياقوت ٢ : ٢٠٤
(٢) ثمار القلوب ص ٤١٩ . (٣) الكتاب المذكور ص ٤١٩ .
(٤) كتاب البخلاء (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) ص ١٦٠
(٥) كتاب البلدان للهمذاني (طبعة ليدن سنة ١٣٠٢) ص ٥١

أنه لم يكتف بمجرد ذكر المتاجر ومصادرها بل زاد في البيان فنبه على المعمول من الجواهر واليواقيت والمغشوش من العطور والعقاقير ، وفرّق بين العالي منها والمتوسط والرديء فأضاف الى الخبرة التفنن والى المعرفة التبصر ، وهو عين موضوع كتابه «التبصر بالتجارة» الذي ننشره اليوم .

فلا عجب حينئذ ان اشتملت هذه الرسالة على فوائد جمّة تهم أرباب الصناعة والتجارة كما تفيد المشتغلين بعلم الاقتصاد والباحثين عن علائق العالم الاسلامي زمن غزارة حضارته وعنفوان تمدنه مع بقية الممالك .

وهي لعمري افادة ذات شأن ، ترشدنا الى ما وصلت اليه عواصم الاسلام الكبرى — لاسيما بغداد — من التبحر في العمران وتوسع سكانها في وسائل البذخ والترف . ما جعل تجارها في حاجة الى توريد نتائج أطراف المعمورة وان بعُدت وركوب الاخطار والمشاق في سبيل استجلابها وبذل النفس والنفيس في اقتنائها إجابة لرغبة الاغنياء وتسديداً لشره النساء إما لتأثيث القصور أو لزينة ربات الخدور !

نعم ! وضع المعتنون بتقويم البلدان من أبناء العربية تآليف عديدة هي عمدتنا الآن في معرفة العلائق التجارية قديماً وما اختص به كل صقع من أنواع النتائج ، منهم ابن الفقيه الهمذاني ، وابن رسته الاصبهاني ، وابوزيد البلخي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، وابن البشاري المقدسي وغيرهم من كبار الجغرافيين وأصحاب الرحلات ، غير أنا لا ننس ان الجاحظ هو الذي فتح لهم باب التأليف في تقويم البلدان وخصائصها وشرع لهم هذا المنهج ، فهم في الحقيقة عيال عليه — وان توسعوا بعدُ — ومقتفو أثره ومقلدوه ، الامر الذي جعل أحدهم — وهو المقدسي — يقول : «واذا نظرتَ في كتاب الفقيه فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ[1] »

وهي لعمري شهادة اعتراف بأسبقية الجاحظ في خوض هذا الميدان ، وليس هو باول موضوع يطرقه ذلك المبدع الماهر بل البحر الزاخر الذي لا ساحل له .

حرر الجاحظ هذا البحث الاقتصادي برسم احد كبار أحبابه ممن سبقت عنايته

(١) راجع كتاب «أحسن التقاسيم ، في معرفة الاقاليم» للمقدسي — طبعة ليدن سنة ١٨٧٧ ص ٢٤١ .

بالتأليف والاهداء اليهم ، فهو — وان لم يسمه — احد الأربعة : محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ، وقاضي القضاة احمد بن ابي دؤاد ، والوزير الفتح بن خاقان ، وابراهيم ابن العباس الصولي ؛ وأراني في غنى عن إثبات نسبة هذه الرسالة الى الجاحظ ، وان لم يأت ذكرها بين مصنفاته الواردة في فهرست ابن النديم ومعجم الادباء لياقوت ، لكن أبومنصور الثعالبي[1] والعلامة النويري[2] تكفلا بتعريفنا بها ونقلا جملاً منهـا بالحرف الواحد ونسبتها الى مؤلفنا الكبير حسبما نشير اليه في محله ٠

على ان « التبصر بالتجارة » ليس باول كتاب للجاحظ لم يذكر من بين مؤلفـاته فان « خصائص البلدان له » — وهو غير « كتاب البلدان » — لم يرد اسمه بعدُ في قائمة مانسب اليه ياقوت في معجمه وقد نقل عنه أبو منصور الثعالبي كثيراً[3] ٠

أجل ! كثيراً ما يستعمل الجاحظ الفاظاً دخيلة في غضون مصنفاته وقد وقع جانب عظيم منها في رسالته هذه في التعريف بمسميات أجنبية ، وهو أمر متعارف جرت به عادة الكتّاب والمؤلفين في عصر الدولة العباسية ، فلطالما استعملوا اصطلاحات ومعرّبات جلها فارسي المأخذ لقرب بلاد ايران من العراق ، ولقد تتبع صديقنا ساكن الجنان العلامة احمد تيمور باشا أثر بعض المعرّبات الواردة في كتاب «نشوار المحاضرة» للتنوخي فعقد لشرحها فصولاً ممتعة نشرها في مجلة المجمع العلمي الدمشقية[4] ٠

وقد حاولنـا شرح ما ورد ضمن هذه الرسالة من غريب الدخيل على قدر الاستطاعة والجهد ، وياحبذا لو توفق من أبناء العربية من يضع لنا معجماً لغوياً يوضح لنـا به السبيل الى فهم الفاظ الدخيل والمصطلحات التي كانت مستعملة في القرون الوسطى الاسلامية مثلما فعل المستعرب الهولاندي دوزي في « مستدركه على المعاجم العربيـة » ، وهي أمنية طالما أبداها كل من يعاني استقراء تصانيف الدور العباسي ٠

أما الاصل المنقول عنه فهو مثبت في ضمن مجموع خطي محفوظ بالمكتبة العمومية

---

(١) « ثمار القلوب » ٠ (٢) « نهاية الارب » ٠

(٣) ثمار القلوب ص٤٣٨ وص ٤١١ ٠ (٤) تفسير الالفاظ العباسية ، مجلة المجمع العلمي العربي ، جزء تشرين اول سنة ١٩٢٢ ص٢٨٩ وما بعده ٠

(مكتبة سوق العطارين) في حاضرة تونس ، وهذا المجموع يحتوي على أذكار وأدعية وذكر بعض الغزوات ، ثم رسالة حافلة في الخط وتماريفه من تأليف الوزير العباسي الشهير ابي عبدالله علي بن مقلة ، ثم كتاب «التبصر» هذا ، ثم شرح قصيدة ابي الفضل ابن النحوي التوزري المعروفة بالمنفرجة من وضع الامام علاء الدين علي بن جمال الدين البصري الشافعي نزيل دمشق ختمه خلال سنة ٨٧٣هـ ، وفيما يظهر ان كامل المجموع بخط يد هذا الشارح وهو خط شامي معتاد تغلب عليه الصحة الا في الاعلام والدخيل والمعربات : وبالرغم من بحثي الشديد للوقوف على نسخة ثانية من كتاب (التبصر) فاني لم أظفر بها فاقتصرت على ايراد ما هو موجود هنا .

وقد بذلت جهدي في اكساء هذا الاثر الجليل الثوب الذي يليق به إحياء لذكرى واضعه الخالد ، وهو سبحانه ولي التوفيق .

المهدية الفاطمية (تونس) : ح . ح . عبد الوهاب الصمادحي

شعبان ١٣٥٠

وفي الصفحة التالية يرى القارئ ذلك الأثر الجليل :

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري :

سألت أكرمك الله عن أوصاف مايستظرف في البلدان من الامتعة الرفيعة ، والأعلاق النفيسة ، والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة ، ليكون ذلك مادةً لمن حنكته التجارب ، وعوناً لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب ؛ وسميته بكتاب « التبصر » والله ولي التوفيق .

زعم بعض المحصلين من الاوائل ان الموجود من كل شيء رخيص بوجدانه ، غال بفقدانه اذا مست الحاجة اليه .

وقالت الروم : اذا لم يرزق أحدكم في ارض فليتحول الى غيرها .

وقالت الهند : ما من شيء كثر إلا رخص ما خلا العقل فانه كلما كثر غلا ، [1] :

وقالت العجم : اذا لم تربحوا في تجارة فاعتزلوا عنها الى غيرها ، واذا لم يرزق أحدكم بارض فليستبدل بها [2] :

---

(١) نسب أبو منصور الثعالبي هذه الكلمة الى نصر بن سيار والي خراسان ، لكنه أورد لفظ « الادب » « بدل » « العقل » (كتاب الاعجاز والايجاز — طبعة مصر سنة ١٨٩٧ ص ٧٦) .

(٢) نقل ابو منصور الثعالبي جملاً من الفصول التي اوردها الجاحظ هنا ولم يعزها لاحد ولا شك انه اقتبسها من هذا التأليف ، قال الثعالبي في فصل « التجار والسوقة » من كتابه (التمثيل والمحاضرة) : اذا لم تربحك تجارة فاعدل عنها الى غيرها ، واذا لم ترزق بارض فاستبدل بها — وقال : الرابح في كل سوق ، البائع لما ينفق فيها — وقال : شاركوا الذي اقبلت عليه الدنيا فانه اجلب للرزق — وقال : من اشترى مالا يحتاج اليه باع مالا بد منه » ومن هنا يظهر ان ما نقله الثعالبي هو عين ما اورده الجاحظ بتغيير قليل في اللفظ

وقالت الفرس : الرابح في كل سوق هو البائع لما ينفق فيها .

وقالت العرب : اذا رأيتم الرجل قد اقبلت عليه الدنيا فالصقوا به فانه أجلب للرزق .

وقيل لبعض المياسير : بِمَ كثر مالك ؟ قال : ما بعت بنسيئة قط ، ولا رددتُ ربحًا وان قل ، وما وصل اليّ درهم الا صرفته في غيرها [1] :

وكان يقال لا تشتروا ما ليس لكم اليه حاجة فيوشك ان تبيعوا ما لا تستغنون عنه .

وزعم بعض الحكماء انه وجد في وصية الفرس : أيها الانسان ليس بينك وبين بلد انت به نسب ، فخير البلدان ما وافقك[2] . وخير الدهر ما أصلحك ، وخير الناس من نفعك ، وخير الماء ما أرواك ، وخير الدواب ما حملك ، وخير الثياب ما سترك ، وخير التجارة ما اربحك ، وخير العلم ما هداك ، وأحسن الحسن ما استحسنته وان كان قبيحًا ؛ وكان يقال : خير الصناعة الخز[3] وخير التجارة البز .

« باب معرفة الذهب والفضة وامتحانهما »

قال الحكيم[4] : يستحب من الذهب سبيكه وغير سبيكه ، وان يكون كنار خامدة وشعاع مركوم وكبريت تابي[5] وانما دامت دولته لانه لا تدحضه خبث الكير ولا

(١) كذا بالاصل وكأن المؤلف أعاد الضمير الى التجارة ولذا جعله مؤنثًا .

(٢) نقل الشريشي (شرح مقامات الحريري ١ : ١٠٢) وكذا الصفدي (الغيث المنسجم شرح لامية العجم ٢ : ٧٦) هذه الجملة ولم يذكرا قائلها ، وكأن الجاحظ يشير الى كلام عثمان بن عفان — رضي الله عنه — حين سئل عن كثرة أرباحه فقال : لم أرد من ربح قط ولو قلّ (راجع كتاب البخلاء للجاحظ ص ١٦٢) .

(٣) بالاصل : الخرز — واظنه تحريفًا من الناسخ والصواب : الخز — لتحصل القافية والمعنى .

(٤) كثيراً ما يبتدئ الجاحظ الكلام بقوله : قال الحكيم — أو : قال — وفي ظني انه لا يقصد بذلك الا نفسه كما هو هنا ، يتضح ذلك لمن تتبع تآليفه لا سيما كتاب الحيوان .

(٥) هذا الوصف يشبه كثيراً ماذكره المؤلف في كتابه الحيوان (ج ٥ ص ٣٣) حيث قال : واذا وصفوا حمرة الذهب قالوا ما هو الا نار . . . وشعاع مركوم . . .

يفسده مر الدهور ؛ وقيل انما صار الذهب ثميناً لقلة تغيره وازدياد نضارته وحسنه اذا عتق ولأن الاشياء تنقص عند المس والدفن ما خلا الذهب فانه لا ينقص البتة .

وخير الدنانير العتق الحمر الى الخضرة ، وزعم بعض الاوائل انما يمتحن الدينار بلصوقه الشعر واللحية وصعوبة استمراره فيهما ، والنبهرج [1] من الدنانير يعتبر بخفته وثقله .

وزعموا ان خير الذهب العقيان وخير الفضة اللجين ، ومذاق الفضة الصافية عذب ، ومذاق الزيوف مُرّ صديّ ، والنبهرج من الدراهم مالح جرسيّ الطنين ، والفضة صافية الطنين لا يشوبها سَمَمٌ وهي تقطع العطش اذا مُسكت في الفم .

« باب مايعتبر من الجواهر النفيسة ومعرفتها وقيمتها »

زعموا ان معرفة جوهر اللؤلؤ انك تجد مذاقته على ضربين : عذب المذاقة عُمانيّ ، وملح المذاقة قلزميّ كلاهما يرسب في الماء ؛ والمعمول منه تجده مرّ المذاق مع دسومة فيه وهو خفيف الوزن يطفو على الماء .

وزعموا ان اللؤلؤة اذا كان في باطنها دودة فانك تجدها حارّة المص واللمس فان ذلك للعلّة النفسانية ، واذا لم يكن بها دودة كانت باردة المص واللمس وامتحانها بذلك .

وزعم المجربون ان اللؤلؤ الكبار المتغير اللون تلف عليه الألية الطرية المشرحة وتؤخذ في جوف عجين ويدخل التنور ويبالغ في إحمائه فانه يصفو ويحسن ويعود اليه الماء ، واذا بخر بكافور كان ذلك ، واذا عولج بمخ العظم وبماء البطيخ فانه يصفو .

ومعرفة اللؤلؤ اللحمي الجوهريّ من الصدفيّ العظميّ هو ان الجوهريّ يكون مستوي الصورة ليناً أملس ، والعظميّ يكون خشناً غير مستوي الهيكل .

وخير اللؤلؤ الصافي العُماني المستوي الجسد الشديد التدحرج والاستواء ، واذا كانت

وهو الكبريت الاحمر — ومن هنا يستدل على ان الجاحظ كثيراً ما يعيد الكلام بعينه في تضاعيف تصانيفه من غير ان يشعر بذلك ، وانه كان قليل المراجعة لما يكتب .

(١) النبهرج — معرّب نبهره الفارسية — هو الدينار أوالدرهم المموّه الزيف الردي (راجع كتاب شفاء الغليل للخفاجي وغيره) — وفي كتاب البخلاء للجاحظ (ص ٦٩) : دينار بهرج — وهو صحيح ايضاً .

حبتان متساويتين في الشكل والصورة واللون والوزن كان ارفع لثمنهما ؛ والعُماني أنفس وأرفع من القلزمي لأن العماني عذب نقيّ صافٍ ، والقلزمي فيه ملوحة مع عيب كثير[١] :

واذا بلغت الحبة نصف مثقال سميت دُرّة ، والمدحرجة المعتدلة في التدوّر اذا بلغ وزنها نصف مثقال ربما بلغت في الثمن الف مثقال ذهباً ، والبيضية دون ذلك في الثمن ، واثمانها ترتفع على زيادة وزنها وتدحرجها ، واذا بلغ وزنهـا مثقالين ان شئت جعلت ثمنها عشرة آلاف دينار وان شئت مائة الف دينار ، والمدحرجة على هذا الوزن والصفة لا قيمة لها ، وهي فريدة ، وكلما كانت أصفى وأنقى كان أرفع لثمنها وأنفس ، والدرّة اليتيمة قُلزمية ، زعموا ان وزنها ثلاثة مثاقيل ، والصغار من اللؤلؤ مرجانه[٢] :

وخير الياقوت البهرماني[٣] ثم الاحمر المورّد ، ثم الاصفر ، ثم الاسمانجوني[٤] وأدونه الابيض ؛ والياقوت من جبل سرنديب بالهنـد ، وتعرف اليواقيت من المعمولات بخصال

(١) على ذكر اللؤلؤ القُلزمي قال ابو العباس احمد التيفاشي التونسي المتوفى سنة ٦٥١ في كتابه « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » (خط بمكتبتي) : ... وكذلك ما يوجد من الجوهر ببحر القلزم وسائر بحار الحجاز فرديّ ولو كانت الدرّة منه في نهاية الكبر فانها لا يكون لها طائل في الثمن اذ ليس فيها شيء من أوصاف الدر النفيس .

(٢) قال التيفاشي في كتابه المذكور : والمرجان في لغة العرب صغار الدر وهو اللؤلؤ الدق ، واستشهد بابيات لامرئ القيس — وقيل انه اول شعر قاله — منها :

فاعزلـــ مرجانها جانباً وخذ من درّها المستجادا

ولفظ المرجان معرب عن اليونانية وأصله (Marginto) وفي اللاتينية (Margarita) وأطلق اسم المرجان فيما بعد على العروق الحمر التي تطلع من البحر ويتخذ منها الحلي والأعلاق والسبح .

(٣) البهرمان : فارسي معرّب معناه : أحمر اللون ؛ قال التيفاشي : والياقوت البهرماني هو أحمر نقي الحمرة لا تشوبها شائبة ، والبهرمان اسم العصفر وبه سمي هذا الصنف من الياقوت .

(٤) الاسمانجوني : فارسي معرب مركب من كلمتين (آسمان) اي السماء و (گون) لون ، ومعناه أبيض بزرقة كلون السماء .

ثلاث : برزانتها في الوزن ، وبرودتها في الفم عند المص ، وعمل المبرد فيها ، لأن الياقوت حجر ثقيل الوزن بارد في الفم بطيء عمل المبرد فيه ؛ والمعمول منها يكون خفيف الوزن ، حار المص ، سريع المبرد فيه .

وخير الياقوت الصافي النقي المضيء من أي لون كان ، وارتفاع القيمة على قدر كبرها وصغرها [١] والياقوت الأحمر البهرماني الصافي اذا بلغ وزنه نصف مثقال ربما بلغ في الثمن خمسة آلاف دينار ؛

وكان وزن فص الخاتم الذي يسمى «الجبل» مثقالين قوّم بمائة الف دينار واشتراه ابو جعفر المنصور باربعين الف دينار [٢] . والياقوت الاسمانجوني ربما بلغ الفصّ منه مائتي دينار .

وخير الزبرجد الشديد الخضرة ، الصافي الجوهر ؛ ومعرفة الزبرجد الفائق من المعمول المتخذ كمعرفة اليواقيت : برزانته وبرودة مذاقته وعمل المبرد فيه على مهل ؛ والمعمول منه رخو خفيف الوزن ، حار في المذاق ، يسرع المبرد فيه ؛

---

(١) كذا بالاصل ولعل ضمير المؤنث في قوله : كبرها وصغرها — عائد على ياقوتة .

(٢) نقل ابو منصور الثعالبي من هذا التأليف فصولاً وفقرات عديدة ببعض التصرف نسب بعضها الى الجاحظ وغفل عن كثير منها ، فمن ذلك قوله : زعم الجوهريون (؟) ان الياقوت لا يكون الا من جبل سرنديب بالهند ، وخيره الاحمر البهرماني ، ثم الوردي ، ثم الرماني ، واذا بلغ البهرماني نصف مثقال كانت قيمته خمسة آلاف دينار ، وكان وزن الفص الذي يسمى (الجبل) مثقالين قوّم بمائة الف دينار فاشتراه المنصور باربعين الفاً . » (كتاب ثمار القلوب ص ٤٢٤) — ونقل الصلاح الصفدي من تأليف الشيخ شمس الدين ابن ساعد الانصاري وسماه «نخب الذخائر في أحوال الجواهر» جملةً مهمة جداً تتعلق بالياقوت وتكوينه وأصنافه وأثمانه جاء في ضمنها : وكان في خزانة الأمير يمين الدولة محمود ياقوتة شكلها شكل حبة العنب وزنها اثنا عشر مثقالاً قوّمت بعشرين الف دينار ، وكان للمعتصم العباسي فص يسمى «ورقة الآس» لانه كان على شكلها وزنها مثقالان الا شعيرتين اشتراه بستين الف درهم (كتاب الغيث المنسجم ١ : ٨٣) .

وزعموا ان خير الزبرجد الناضر الصافي النقي ، فاذا بلغ وزن قطعة منه نصف مثقال بلغ في الثمن الفي مثقال ذهباً ، وارتفاع القيمة على مقدار كبره وصغره ؟

وكان فص الخاتم الذي يسمى (البحر) وزنه ثلاثة مثاقيل اشتراه ابو جعفر المنصور بثلاثين الف دينار وهو اليوم في خزانة بعض الخلفاء ·

وخير الفيروزج الشير بام[1] الاخضر الاسمانجوني الصافي العتيق ، والفيروزج حجر لايعمل المبرد فيه ولا يتغير في النار والماء الحار ، وغاية ثمن فص فيروزج اذا بلغ وزنه نصف مثقال عشرون ديناراً ·

وخير العقيق اليماني الشديد الحمرة الذي يرى في وجهه شبه الخطوط ، وكلما كان أصفى وأضوأ كان أجود في الثمن ·

وخير البيجاذي[2] الأحمر الشديد الحمرة المتهب لونه التهاب النار ، وكلما كان أصلب وأكبر كان أنفس وأثمن ، والمعمول منه رخو ، وامتحان جودته من رداءته انك اذا قربته من الريش احتمله ، وكلما كان أحمل للريش كان أجود ، وغاية ثمن فص بيجاذي فائق اذا بلغ وزنه نصف مثقال ثلاثون دينار · والجوهر النفيس لاقيمة له وذلك لاتساع ضوئه وانتشار شعاعه بالليل ·

---

(١) شيربام : فارسي معرب مركب من لفظين ومعناه (لون اللبن) ·

(٢) البيجاذي : حجر كريم احمر اللون يشبه الياقوت فيه خاصية الكهرباء في جذب التبن ، واصله في الفارسية (بيجاده) وهو اسم الكهرباء ، وقد عرّب قديماً وورد في اشعار العرب ، قال الفرزدق (الاغاني ط بولاق ج ١٩ ص ٢١) :

أغرّك منها لوثة عربية　　علت لونها إن البجادي أحمر

راجع معجم المجموعة الجغرافية العربية تأليف المستشرق دي خوي طبعة ليدن ص ١٨٤ (Indices, Glossarium - Bibl. Géogr. Arab., de de Goeje) وانظر ايضاً التعليق الجميل الذي وضعه صديقنا العلامة المحقق المغفور له احمد تيمور باشا على هذه الكلمة في تفسيره للالفاظ العباسية (مجلة المجمع العلمي الدمشقية ج٧ ص ٢٠٤ من سنة ١٣٣٩)

وقال ابن عبد ربه : ومدينة بلخ بخراسان بها معادن البجادي العتيق ، وهو جنس من الفصوص تسميه العامة البزادي (العقد الفريد ٣ : ٢٥٧) ·

والبلور يُختار لصفائه وعظمه ، وخير الزجاج البلوري الصافي الأبيض النقي ، والفرعوني الفائق[1] . وخير الماس[2] البلوري الصافي الابيض النقي ، ثم الأحمر ، واذا بلغ وزنه نصف مثقال بلغ في الثمن مائة دينار ، وكلما كان أكبر وأعظم كان أبلغ في الثمن وأرفع .

« باب معرفة الطيب والعطر والروائح الطيبة »

زعموا ان خير العود المندي المندلي[3] الذي لا غش فيه ، وكلما كان أصلب فهو أجود وامتحان جودته بحدة أرجه وشدة رائحته ؛ وزعموا ان خير العود المندي الثقيل الوزن الذي يرسب في الماء ، وأدونه الخفيف الوزن الذي يطفو على رأس الماء ، والخفيف الوزن عندهم ميت لا روح فيه وهو ضعيف الرائحة ، والثقيل الوزن منه له ذكاء وقوة أرج ورائحة .

وخير المسك التُّبَّتي[4] اليابس الفائح وأرداه البُدّي ، وغش المسك من

(١) ورد ذكر الزجاج الفرعوني في كتاب (الحيوان) للجاحظ ج٣ ص ١١٦

(٢) الماس : يوناني معرّب وهو الديامنت وقد ورد ذكره في الحديث الشريف (النهاية لابن الاثير ج ٤ ص ٧٩) — وقال التيفاشي : الماس نوعان : الزيتي والبلوري ، والزيتي أجودهما ، والبلوري أبيض شديد كلون البلور ، والزيتي مخالط ببياضه صفرة كلون الزيت ، وهو شبيه بلون الزجاج الفرعوني (كتاب ازهار الافكار — خط) .

(٣) المندلي : منسوب الى « مندل » وهو بلد بالهند يجلب منه العود الذكي الشذا (راجع معجم البلدان لياقوت — لفظ مندل — وشفاء الغليل) — وقال أبو منصور الثعالبي وفي كتاب « العطر » [للجاحظ] : وخير العود الهندي المندلي ، وكلما كان أصلب فهو أجود وامتحان جودته اذا كانت فيه رطوبة ، ومن خصائصه ثبات رائحته في الثوب اسبوعاً واكثر (ثمار القلوب ص ٤٢٣) .

(٤) بالاصل : التبي وهو تحريف وصوابه : التبتي نسبةً الى بلاد التبت ، وفي كتاب « الحيوان » للجاحظ (ج ٤ : ٤٦) ان المسك كان يجلب من التبت — وفي « المحاسن والاضداد » (باب محاسن الهدايا ص ١٧٩) : وكان مما تهديه ملوك الامم الى ملوك فارس

الآنك[1] وجندبادستر[2] ودم الأخوين[3] وسياه دارو[4] وكلما خف وزنه وفاح فهو أجود ٠

وزعموا ان خير العنبر الاشهب الزابجي[5] ثم الأزرق ، ثم الأصفر ، وأدونه

طرائف ما في بلدهم « فمن الهند الفيلة والسيوف والجلود ، ومن التبت المسك والحرير والاواني ، ومن السند الطواويس والببغاء ، ومن الروم الديباج والبسط ٠ » —ويؤيده مانقل الاصطخري وابن حوقل حيث قالا : ولهم [أي أهل ماوراء النهر] من المسك الذي يجلب اليهم من التبت وخرخيز ماينقل الى سائر الامصار فيفوق غيره من المسوك ثمناً وجودة (المسالك والممالك للاصطخري طبعة ليدن سنة ١٨٧٠ ص ٢٨٠ و ٢٨٨ — والمسالك والممالك لابن حوقل طبعة ليدن سنة ١٨٧٢ ص ٣٢٧ و٣٣٧) ٠

(١) آنك : فارسي معرّب وهو الرصاص ، وعند ابن البيطار : الرصاص ضربان أحدهما الرصاص الاسود وهو الآنك ، والآخر الرصاص القلعي وهو القصدير (جامع مفردات الادوية طبعة مصر ٢ : ١٤٠) ٠

(٢) جندبادستر : فارسي معرّب وهومثانة حيوان بري بحري يكون في الانهار العظام يسمى القندر (وعند الافرنج Castor) وخصاه هيا الجندبادستر (الدميري ٢ : ٢١٧ وابن البيطار ١ : ١٧١) ٠

(٣) دم الاخوين : قال ابن البيطار بالنقل عن ابي حنيفة الدينوري : هو صمغ أحمر لشجرة يؤتى به من سقطرى ، ثم قال : وهو الأيدع عند الاطباء ، ويقال له الشيان ايضاً (جامع المفردات ١ : ٧٢ و ٢ : ٩٦) — قلت : والمعروف ان دم الاخوين هو العندم عند قدماء العرب ، وقيل هو البقّم ٠

(٤) سياه دارو : ويكتب ايضاً : سيادرو — وسيادروان ، وفي القانون لابن سينا سيادوان ٠ فارسي معرّب ، وهو صمغ الجوز الشامي (راجع كشف الرموز لابن حمدوش ط حجر بالجزائر ١٣٢١ ص ٩٩) ٠

(٥) الزابجي : سمى القلقشندي من انواع العنبر ستة أضرب اولها الشحري ثم الزنجي [قلت : وهو لا محالة تحريف الزابجي أو الرابجي] وهو أجود العنبر وافضله ٠٠ (صبح ٢ : ١١٧ و ١١٨) — وجاء في تاج العروس : (والرباحي جنس من الكافور) منسوب الى

الا .... [هنا ورقة كاملة من الأصل بها ثلاثون سطراً تعطلت قراءتها لانخرام كتابتها واستيلاء الزاج على أحرفها بحيث لم يتيسر نقلها باي وجه ولم يبق ظاهراً منها سوى ماهو مرسوم بالحمرة — في السطر السابع عشر — وهو : باب معرفة الثياب وما يستجاد منها]

.... وخير الوشي [في الثوب] السابري (١) والكوفي ، والابريسمي ، والمذهب

بلد كما قاله الجوهري وصوبه بعضهم أو الى ملك اسمه رباح اعتنى بذلك النوع من الكافور وأظهره (تاج ٣ : ١٤٠) — وفيه : ورباح موضع بالهند ينسب اليه الكافور ، وبسط بحثاً طويلاً في الغلط الحاصل في الصحاح للجوهري إذ نسب تارةً الرباحي الى بلد بالهند وتارةً الى دويبة يجلب منها الزبد — وذكر ابن البيطار — في مادة كافور وعنبر — ان الرباحي مشتق من اسم ملك هندي اسمه رابح (جامع المفردات ٢ : ٣٣٤) — وقال داود الانطاكي ويسمى الرياحي لتصاعده مع الريح ، وقيل الرباحي — بالموحدة — نسبةً الى رباح أحد ملوك الهند أول من عرفه (تذكرة — مادة كافور) — وقال دوزي في مستدركه على المعاجم العربية : ان بعض المصنفين يسميه ايضاً الزياحي Dozy, Suppl. aux diction. arabes, vol. I p. 499 — ومما تقدم يتضح ان الاختلاف في اسم الزابجي أو الرابجي قديم ولا يعرف على وجه التحقيق نسبته ، ولذا احترمنا هنا الصيغة الواردة بالاصل مع التنبيه عليه — ووقفنا اخيراً على فصل ممتع نشره العلامة المحقق الاب انستاس ماري الكرملي كشف فيه الغطاء عن معنى الرباح ووجه اشتقاقه واثبت ان اصل اللفظ — الزابج — وهو اسم جزائر ماليسية (جاوه وسومطرة وبرنيو) عند قدماء العرب — والنسبة اليه زابجي ، فحرفه النساخ والمؤلفون المتأخرون فقالوا الزابجي والرابجي وغير ذلك (راجع مجلة المجمع العلمي الدمشقية ص ٢٣٢ من سنة ١٣٣٩)

(١) السابريّ : نسبة الى سابور ، وفي حديث حبيب بن ابي ثابت قال : رأيت على ابن عباس ثوباً سابرياً استشفّ ماوراءه ، وكل رقيق عندهم سابري والاصل فيه الدروع السابرية منسوبة الى سابور [النهاية لابن الاثير ٢ : ١٥٢] — وفي التاج : والسابري ثوب رقيق جداً ، قال ذوالرمة :

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه   على عصويها سابري مشبرق

المنسوج ثم الوشي الاسكندراني الكتان البحت [1] ثم المنسوج بالذهب ، ثم الوشي الغزلي ، ثم الذي لا ابريسم فيه ولا ذهب وهو اليماني لانه يرتفع على هذه السبيل من الغزلي ، والابريسمي الكتان لا يبلغ في الثمن مايبلغه اليماني لانه ربما بلغ الثوب الغزلي الف دينار .

وخير السنجاب [2] القاقم [3] ثم الظهور منه ، ثم الخزري [4] ثم الخوارزمي ، ثم الذي لاغش فيه من زغب الارانب .

ومنه المثل : عرض سابري ، اي رقيق جداً [تاج ٣ : ٢٥٢] — وقال ابومنصور الثعالبي : والسابري ، وهو الرقيق الناعم من كل ثوب ، والأصل فيه النسبة الى نيسابور وعرّب فقيل سابري [ثمار القلوب ص٤٢٩] .

(١) نقل ابومنصور الثعالبي العبارة الآتية في لفظ « كتان مصر » ولم يذكر عن اي تأليف للجاحظ نقل ، قال : قال الجاحظ : قد علم الناس ان القطن لخراسان وان الكتان لمصر ، ثم للناس في ذلك في تفاريق البلدان ما لا يبلغ مقدار بعض بلاد هذين الموضعين ، وربما بلغت قيمة الحمل من دق مصر الذي من الكتان لا غير مائة الف درهم [ثمار القلوب ص ٤٢٠ — وراجع ايضاً كتاب « ما يعول عليه في المضاف والمضاف اليه » للمحبي — خط بمكتبتي] .

(٢) السنجاب : قال القلقشندي : حيوان أكبر من الفار يعيش في الشجر العالي ، فيها يأوي ومنها يأكل ، وهو كثير ببلاد الافرنج والصقالبة ، ووبره في غاية النعومة وجلده في نهاية القوة ، ويتخذ منه الفراء النفيسة التي يلبسها الناس والرؤساء ، وأحسن ألوانه الازرق [صبح الاعشى ٢ : ٥٠] أقول وهو المسمى باللاتينية Sciuriolus وبالفرنسية Ecureuil .

(٣) القاقُم [بقافين الثانية منهما مضمومة] — هو دويبة في قدر الفار لها شعر أبيض ناعم ، ومنه يتخذ الفراء ، وهو أعز قيمة من السنجاب [صبح ٢ : ٤٩] .

(٤) الخزري : نسبةً الى بحر الخزر وما كان حوله من البلاد .

وخير الثعالب الاسود[١] الخزري الغليظ الشعر الذي لايُغَشّ بصبغ، ثم الابيض، ثم الاحمر المحصري[٢] ثم الاحمر الخزري، ثم الخلنجي[٣] .

وخير القاقم اكثرها أذناباً : وخير السمور الصيني، ثم الخزري الشديد البياض مع شدة السواد الطويل الشعر .

وخير الفرش وأرفعه ثمناً وأجوده المرعزّى[٤] القرمزيّ الأرمني المنير، ثم الخز الرق، ثم الخز القُطوع[٥] ثم الديباج على عمل الخسرواني[٦] الرومي، ثم الخز المدبج على

(١) قوله : خير الثعالب الاسود، جاء في كتاب الحيوان للجاحظ [ج٦ ص١٠٠] وفي الثعلب جلده وهو كريم الوبر وليس في الوبر أغلى من الثعلب الاسود وهو ضروب فمنه الأبيض الذي لايفصل بينه وبين الفنك، ومنه الخلنجي وهو الاعم » .

(٢) كذا بالاصل وأظنه غلطاً من الناسخ وصوابه «الممصّريّ» أي المصبوغ بالمصرة وهي العصفر، وقال ابن سيده : والثوب الممصر هو المصبوغ بالطين الاحمر أو بحمرة طفيفة [المخصص ٤ : ٩٤] .

(٣) الخلنجي : المقصود به الذي يشبه لونه خشب الخلنج وهو شجر معروف [ابن البيطار ٢ : ٦٨] وقد عرف أبو الوليد المراكشي اللون الخلنجي بقوله : مخطط بسواد ودُخنة [راجع مستدرك المعاجم العربية لدوزي ج ١ ص ٤٠٠] .

(٤) المِرعِزّى والمِرعِزّاء — بكسر الميم — اذا خففتَ مددتَ واذا شددتَ قصرتَ، وأصله بالنبطية (مرعزّا) وقد تكلمت العربُ به قديماً، قال جرير من قصيدة يهجو بها التيم :

كساك الحنظلي كساء صوفٍ ومرعزّى فانت به تفيد

أي تتبختر عجباً [راجع المعرّب للجواليقي ص١٣٧] .

(٥) القُطُوع جمع قطع وهو ضربٌ من الوشي في الثياب [المخصص لابن سيده] .

(٦) الخسرواني، نوع من نسج الحرير الرقيق الحسن الصنعة منسوب الى عظماء الأكاسرة، وهو فارسي معرّب [المعرّب للجواليقي ص ٦٠ وشفاء الغليل للخفاجي] .

الميسانيّ ، ثم البزيون[1] ؛ ومهما كان من هذه الضروب منسوجاً بالذهب فهو أجود وأبلغ في الثمن ، وقد تكون هذه الضروب كلها منسوجة بالذهب الا الأرمني والميساني والبزيون .

وخير البزيون المسكيّ الدقيق النسج ، ثم المخطط ، ثم المفلّس[2] ثم الساذج ، ثم المعيَّن[3] ثم المنقط ؛ والغفارة المسكية اذا كانت رقيقة العمل نقيـة ربما بلغت في الثمن خمسين ديناراً .

وابو قلَمون[4] من الزلالي[5] الخسروانيّ الرومي القرمزي على خطوط مختلفة البنفسجي في الأحمر والأخضر ، وزعموا انه يتلوّن ألواناً بارتفاع النهار ووهج الشمس ، والقيمة مرتفعة منه جداً .

وخير الاكسية من الصوف المصرية ، ثم الخوزية الفارسية ، والمرعزّى في المرعزّى الفارسية الشيرازية ، ثم الاصفهانيـة ، والمرعزى في الابريسم الفسوية ، ثم

(١) البزيون كعصفور ، السندس ، وقال ابن بري : هو رقيق الديباج [تاج العروس ٩ : ١٣٩] .

(٢) وبالاصل ، المقلّس ، وهو تحريف بيّن ، والمفلّس بمعنى المختم والمزركش على هيئة الفلوس كما يقال ثوب مدنّر ومدرهم أي موشى على صورة الدنانير والدراهم .

(٣) المعيَّن ، ثوب في وشيه ترابيع صغار شُبّه باعين الوحش [المخصص ٤ : ٦٧] .

(٤) ابو قلَمون ، عرّفه مرتضى الزبيدي بقوله : ثوب رومي يتلون ألواناً للعيون نقله الجوهري ، وقال الازهري : يتراءى اذا أشرقت عليه الشمس بالوان شتى ، قال : ولا أدري لِمَ قيل له ذلك ، وقـد يشبه به الدهر والروض وزمن الربيع [تاج العروس ٩ : ٣١] — أقول : لفظ أبوقلمون يوناني معرّب وهو في الاصل Abokalamon — والنسيج المسمى ابوقلمون في المشرق هو المعروف في الديار التونسية بعنق الحمام .

(٥) الزِّلِيّة — بالكسر — البساط ج زلالي كما في لسان العرب والعباب ، وفي مستدرك التاج [مادة زلل ج ٧ : ٣٥٩] والزلال الصافي من كل شيء ، قال ذو الرمة :

كأن جلودهن مموهات على أبشارها ذهب زلال

فكأن المقصود هنا من الزلالي الصافي اللون .

الطبرية (١) ، ثم الصوف في الصوف ٠

وخير الطيالسة الرويانية الطبرية ، ثم الآملية (٢) ثم المصرية ، ثم القومسية (٣) ٠ وخير اللبود الصينيه ، ثم المغربية الحمر ، ثم الطالقانية البيض (٤) ثم الارمنية ، ثم الخراسانية ٠

وخير النمور البربري الموشح الشديد بياضه المشبّع سواده الطويل الوشي الساباني (٥) ٠ وأظرف النمور الذي يكون في وسط سواده نقطة سوداء صغيرة بينة ؛ وان كان سواده

(١) على ذكر الاكسية الطبرية نقل الجاحظ : ان قيمة الكساء الأبيض الطبري في عصره يساوي اربعمائة درهم والقومسي منها مائة درهم [كتاب الحيوان ٣ : ٨] ٠

(٢) قوله : الطيالسة الرويانية نسبةً الى الرويان وهي مدينة من نواحي قزوين [الاصطخري ص٢٠٦ — وابن حوقل ٢٦٩] — وكذا الآملية نسبةً الى آمل وهما مدينتان بهذا الاسم : الاولى عاصمة طبرستان — وهي المقصودة هنا — مشهورة بضأنها وصوفها ومنسوجاتها [المقدسي ص٣٥٥ وابن حوقل ٢٧١] والثانية مدينة في غربي جيحون في سمت بخارى بينها وبين جيحون نحو ميل ٠

(٣) القومسية ، نسبةً الى قُومس من اكبر مدائن الديلم ، قال ابن حوقل : ويرتفع من قومس اكسية معروفة تحمل الى الامصار وهي فاشية في جميع الارض [المسالك والممالك ص ٢٧١] — وقال المقدسي : أما قومس فلهم المناديل البيض من القطن المعلمة صغار وكبار وسواذج ومحشاة ربما يبلغ المنديل منها الفي درهم ، ولهم ايضاً اكسية وطيالسة وثياب رقاق من الصوف [كتاب أحسن التقاسيم ص ٣٦٧] ٠

(٤) نقل ابو منصور الثعالبي هذه العبارة من هذا التأليف وعزاها الى صاحبها فقال : وذكر الجاحظ في كتاب «التبصر بالتجارة» ان خير اللبود الصينية ثم المغربية الحمر ثم الطالقانية البيض » [ثمار القلوب ص٤٣٣] ٠ وتبعه النويري فنقل عين العبارة المتقدمة عن الجاحظ لكنه جعل اسم الكتاب « النظر في التجارة» [نهاية الارب ج ١ ص٣٦٧] وهو تحريف واضح لتشابه مابين لفظ «التبصر» و «النظر» — فليتنبه ٠

(٥) الساباني ، نسبةً الى السابان ، وهو في الفارسية الطائر المعروف بالزرزور الذي ريشه منقط بنقط بيض ونقط سود ، وبه شبّه الجاحظ هنا المختار من جلد النمور البربرية ، كان أقرب اليه أن يقول في نعته زرزوري اي في لون الزرزور ، وهو عربي صريح ٠

متصلاً بعضه ببعض بشظية من سواد خفيفة كان أظرف له ، واذا كانت فيه حمرة مع بياض يقق وسواد حالك كان أحسن وأبلغ في الثمن ؛ ونمور البربر صغار ومقدار الجلد منها ما يغشي سرجاً مفرداً ، ومنتهى ثمن الجلد منها خمسون ديناراً ، واما المغربية والهندية فهما أوسع وأكبر ولا يبلغان في الثمن ولا يرتفعان ، وخير النمور الوشي ، وخير القطن الابيض اللين الصغار الحبوب اللطيف البياض الصافي .

وزعم ان القرمز حشيشة تكون في أصلها دودة حمراء تنبت في ثلاثة مواضع من الارض[1] : في ناحية المغرب بارض الاندلس ، وفي رستاق يقال له تارم[2] وفي ارض فارس ، ولا يعرف هذه الحشيشة وأماكنها الا فرقة من اليهود يتولون قلعها كل سنة في ماه اسفندارمذ[3] فتيبس تلك الدودة ويصبغ بها الابريسم والصوف وغير ذلك ؛ وخير ما يصبغ في الأماكن بارض واسط .

(١) عرّف الرحالة ابن حوقل القرمز الارمني بقوله : وهو صبغ أحمر يصبغ منه المرعزّى والصوف ، وأصله من دود ينسج على نفسه مثل دود القز اذا نسجت على نفسها القز [المسالك والممالك ص ٢٤٤] .

(٢) تارم ، من مدائن فارس من ناحية شيراز بينهما ٨٢ فرسخاً [الاصطخري ص ١٣١ ومابعدها — وابن حوقل ص ٢٠١ و٢٠٣ و٢٢٦ — والمقدسي ٤٢٣ و٤٢٦] .

(٣) ماه اسفندارمذ ، هو اسم الشهر الثاني عشر من السنة الشمسية عند الفرس ، واليوم الخامس منه هو « اسفندار منذ روز » كان من الأعياد الكبيرة عند قدماء الفرس وفيه كانوا يلتقطون الاعشاب من الجبال والاودية ويتخذون الادهان ويهيئون البخور والدخن ، وفيه تكتب الرقاع لدفع الهوام والحشرات فيكتبون من ظهور الفجر الى طلوع الشمس رقيةً على كواغذ مربعة ويلصقون منها على الجدران [راجع كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني طبعة ليبسيغ سنة ١٨٧٨ ص ٢٢٩ — وعنه نقل القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات» طبع بهامش حياة الحيوان ص ١٢٨ ومابعدها] —

أقول : وهذه العادة الفارسية القديمة لم تزل متبعة في البلاد التونسية من كتب رقاع صغار بها آية السموم من القرآن وذلك اليوم الاول من شهر مايو الأعجمي ثم يلصقونها بمدخل البيوت دفعاً للعقارب والحشرات السامّة .

وزعموا ان البَلَسان شجر بارض مصر يُشرط في ايام الربيع فيخرج منه دهن البلسان فيؤخذ منه ، وهو مفقود في الارض كلها ماخلا مصر[١] .

وحبّ الزلم[٢] ينبت بارض شهرزور ، وزعموا انه جيد للجماع ؛ والقرماز شجر بالفارسية بنجكشت (؟) قلما يوجد الا ومعه الدفلى ، وهو نبت يستجير بالدفلى النابتة عنده يقال له فازَهر[٣] فلذلك غرس معه في موضع يكون به ، وقيل حُمِلا جميعاً من الروم وله قصة عجيبة طويلة .

« باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والامتعة والجواري »
« والاحجار وغير ذلك »

يُجلب من الهند : الببور والنمور والفيلة وجلود النمور والياقوت الاحمر والصندل الأبيض والأبنوس وجوز الهند[٤] .

(١) البَلَسان المصري ، قال الاصطخري : وحوالي الفسطاط زرع ينبت مثل القضبان يسمى البلسم يتخذ منه دهن البلسان لا يُعرف بمكان في الدنيا الا هناك [الاصطخري ٥٤] وجعله ابن حوقل في عين شمس خاصة [المسالك والممالك ص ١٠٦] .

(٢) حب الزَلَم ، عرّفه ابن البيطار بقوله : هو حب دسم مفرطح اكبر من الحمص قليلاً أصفر الظاهر أبيض الباطن طيب الطعم لذيذ المذاق ويجلب من بلاد البربر ، وينبت في ناحية شهرزور ، وقد ينبت منه شيء بصعيد مصر يسمونه بالسقيط [جامع مفردات الادوية ٢ : ٤ و١٦٦] — قلت وهو المعروف عندنا في تونس بحب عزيز .

(٣) المشهور ان الفازهر حجر كريم لانبات كما ورد هنا ، وانه صنفان حيواني ومعدني وهو عند الافرنج Bézoar) واسمه فارسي معرّب وأصله پازهر ومعناه «منفي السم» — وقد ذكر معدنه وأوصافه وخواصه ومنافعه جماعة من علماء الاحجار كابن البيطار في مفرداته والتيفاشي في كتاب أزهار الافكار والقزويني في عجائبه وسواهم كثير ، فليراجع هنالك .

(٤) قال ابو منصور الثعالبي : ولبلاد الهند من الخصائص مالم يكن لغيرها فمنها الفيل والكركدن والببر والببغاء والطاؤوس والدجاج الهندي والياقوت الاحمر والصندل الابيض والعاج والساج والتوتيا والقرنفل والسنبل والفلفل وغيرها من العقاقير [ثمار القلوب ٤٢٣] .

ويجلب من الصين : الفرند والحرير والغضائر [١] والكاغد والمداد والطواويس والبراذين الفُرّهُ والسروج والألبود والدارصيني وادارند [٢] الروم الخالص ، ويجلب من أواني الفضة والذهب والدنانير الخالصة القيسرانية والعقاقير والبريون والابرون والديباج والبراذين الفره والجواري وطرائف الشبه والأقفال المحكمة واللورا [٣] ومهندسو الماء وعلماء الحراثة والاكارة وبناء الرخام والخصيان .

ومن ارض العرب : الخيل العراب والنعام والنجائب والقانة [٤] والأدم [٥] .

ومن البربر ونواحي المغرب : النمور والقرظ [٦] واللبود والبزاة السود .

---

(١) الغضائر ج غضارة هي القصعة أو الصحن الكبير ذو ساق يتخذ من خزف ، وارفع الغضائر ما يؤتى به من الصين كما نص عليه الجاحظ هنا لاشتهارها وحسن صنعتها وجودة طليها وجمال رونقها ، وقال شمّر : الغضار الطين الاحمر نفسه ومنه يتخذ الخزف الذي يسمى الغضار . وقال ابن دريد فاما الغضارة التي تستعمل فلا أحسبها عربية محضة [تاج العروس وغيره] .

(٢) لفظ « ادارند » هنا لا معنى له ، وأظنه تحريفاً من الناسخ ، ويظهر انه قصد الراوند . قال مرتضى الروند الصيني وهو أنواع اربعة أعلاها الصيني ودونه الخراساني ويعرف بروند الدواب تستعمله البياطرة وهو خشب أسود ، والاطباء يزيدونها الفاً فيقولون «راوند» ولفظه ليس بعربي محض [تاج ٢ : ٣٥٩ و٣٦٠ مادة راد] .

(٣) كذا بالاصل ولم أر لها معنى ، ولاشك ان الناسخ حرف فلم يأت باللفظ على أصله اللهم الا ان يكون اللاذ واللاذة وهي ثياب من حرير تنسج بالصين تسميها العرب والعجم اللاذ [المخصص ٤ : ٦٨] وفي القاموس اللاذة ثوب حرير أحمر ينسج بالصين .

(٤) القانة وجمعها القان ، هو شجر جبلي ينبت بجزيرة العرب . زاد الازهري ينبت في جبال تهامة ويتخذ منه القسي [لسان العرب] .

(٥) الأدَم ج أديم ، هو الجلد المدبوغ اذا كان عليه شعره أو صوفه أو وبره .

(٦) بالاصل القرض ، وهو تحريف واضح وصوابه القرظ ، وهو ورق السلم تدبغ به الجلود ، وقيل هو السنط يعتصر منه الاقاقيا وهو مما يتداوى به [المعاجم اللغوية] .

ومن اليمن : البرود والأدَم والزرافات والجواميس(١) والعقيق والكُنْدُر(٢) والخِطْر(٣) والوَرْس(٤) .

ومن مصر : الحمر المماليج(٥) والثياب الرقاق والقراطيس ودهن البلسان ، ومن المعدن الزبرجد الفائق .

ومن الخزر : العبيد والإماء والدروع والبيضات والمغافر .

ومن ارض خوارزم : المسك والقاقم والسمور والسنجاب والفنك وقصب الطيب .

ومن سمرقند : الكاغد(٦) .

(١) كذا بالاصل ولا أخالها الأ الجواشن ج جوشن ، وهو الدرع من حديد ، وقال ابن سيده زرد يلبسه الصدر والحيزوم [المحكم ، خط بالمكتبة الزيتونية في تونس] .

(٢) الكندر ضرب من العلك عن ابن سيده وهو الأُبان عند الاطباء وغيرهم [تاج ٣ : ٥٢٩] .

(٣) الخِطر — بالكسر — نبات يجعل ورقه في الخضاب الاسود يختضب به ، وقال ابوحنيفة هو شبيه بالكتم وكثيراً ماينبت معه واحدته خِطرة [تاج ٣ : ١٨٣] .

(٤) قال الثعالبي ومن خصائص اليمن الزرافة ، وكان الاصمعي يقول اربعة قد ملأت الدنيا ولا تكون الا باليمن الورس والكندر والخطي والعقيق [كتاب ثمار القلوب ٤٢٥] وقد جعل الناسخ هنا الخطي — وهي الرمح — مكان الخطر ، فلينتبه .

(٥) على ذكر الحمير المصرية قال الاصطخري : وبمصر بغال وحمير لا يعرف في شيء من بلاد الاسلام أحسن ولاأثمن منها ، ولهم من وراء اسوان حمير صغار في مقدار الكباش معلمة تشبه البغال المعلمة ، اذا خرجت من مواضعها لم تعش ، ولهم حمير يقال لها [السملاقية] بارض الصعيد زعموا ان احد أبويها من الوحشي والآخر من الاهلي فهي أسير تلك الحمير [راجع مسالك الممالك ص ٥٥ وكذا ابن حوقل ص ١٠٧] .

(٦) كاغَد وكاغِد وكاغذ ، لفظ صيني معرب دخل العربية بطريق الفارسي ، ولم يكن الكاغد معروفاً بالمشرق في اول عهد الاسلام وانما كانت الكتابة على القراطيس المتخذة من البردي المصري أو على الرقوق ، واول ظهور الكاغد في الاسلام كان في سمرقند صنعه هنالك أسارى من الصين أسرهم الامير زياد بن صالح في وقعة اطلخ سنة ١٣٤ للهجرة

ومن بلخ ونواحيها : العنب الطيب والفوشنة[1] .
ومن بوشنج : الكَبَر المربى .
ومن مرو : الضرابون بالبرابط والبرابط الجياد والطنافس والثياب المروية[2] .

فاتخذوه له من خرق الكتان والقنب على ما كان جار في بلادهم فقلدهم الناس من ذلك الحين وكثر صنعه في بقاع متعددة من بلاد الاسلام ، ومنها دخل الى اروبا واشتهر — قال ابو منصور الثعالبي : كواغد سمرقند هي من خصائصها التي عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الاوائل يكتبون فيها لانها أنعم وأحسن وأرفق ، ولا تكون الا بسمرقند والصين ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة حتى صارت متجراً لاهل سمرقند فعم خيرها والارتفاق بها الى جميع البلدان في الآفاق [ثمار القلوب ص ٤٣١] — وذكر المقريزي في خططه ان جعفر البرمكي هو اول من استبدل الكتابة على القراطيس بالكاغد في الدواوين [النويري ١ : ٣٦٧] .

أقول : ومن أشهر الاصناف التي كانت تصنع قديمًا في العالم الاسلامي : الكاغد الفرعوني تقليداً للقراطيس المصرية المستعملة الى حدود ذلك الوقت ، والكاغد السليماني نسبة الى سليمان بن رشيد ناظر بيت المال بخراسان على عهد الخليفة هارون الرشيد ، والجعفري منسوب الى جعفر البرمكي الوزير العباسي ، والطلحي منسوب الى طلحة بن طاهر ثاني امراء بني طاهر ، والنوحي نسبة الى الامير نوح الاول من بني ساسان ، وسوى ذلك كثير ؛ وقد شاعت الوراقة في البلاد العربية وخصصت بدور صناعة في العراق واليمن وفارس والشام ومصر والمغرب — لا سيما في القيروان والمهدية — وفي الاندلس خصوصاً بمدينة شاطبة (Xativa) وغيرها [انظر كتاب الفهرست لابن النديم ص ٢١ وصبح الاعشى ١ : ٤٧٤ و ٤٧٦] .

(١) الفوشنة ، ويسميها أبو بكر بن الفقيه الهمذاني [الغوشنة] [كتاب البلدان ص ٢٥٥] ولم نهتد الى معرفة ماهيتها .

(٢) ثياب مرو ، قال الثعالبي : كانت العرب تسمي كل ثوب صفيق يحمل من خراسان المروية وكل ثوب رقيق يجلب منها الشاهجاني ، لان مرو عندهم أم خراسان ، ويقال لها مرو الشاهجان ، وقد بقي الى الآن اسم الشاهجان على الثياب الرقيقة ، ومما تختص

ومن جرجان : العناب والتدرج وحب الرمان الجيد واليرمق[1] اللين والابريسم الجيد[2]
ومن آمد : الثياب الموشية والمناديل والمقارم[3] الرقاق والطيالسة من الصوف .
ومن دباوند[4] : نصول السهام .

به مرو الثياب [الملحم] [ثمار القلوب ص ٤٣١] — ومن ينسب الى مرو من الرجال يقال له مروزي ومن الثياب مروي [العقد الفريد ٣ : ٢٥٧] . أقول : والمتعارف هو ان النسبة الى مرو الروز : مروزي ، والى مرو الشاهجان : مروي ، للتفريق بين المدينتين .

(١) لم نقف على معنى للفظ [اليرمق] وكأنه تحريف [النرمق] بالفتح ، فارسي معرب [نرمه] وهو اللين الناعم من كل شيء ، وانشد الليث لرؤبة يصف شبابه .

أجر خزاً خطلاً ونرمقا ان لريعان الشباب عتهقا

[تاج ٧ : ٧٥] — ويمكن ان يكون ايضاً [يلمق] ج يلامق وهو ضرب من الفراء المبطنة .

(٢) قال الاصطخري ، ويرتفع من جرجان من الابريسم شيء كثير ، وابريسم طبرستان يحمل بزر دوده من جرجان ولا يرتفع من بزر طبرستان ابريسم ، وبجرجان الثلج والنخيل وفواكه الصرود والجروم من التين والزيتون وسائر الفواكه [الاصطخري ص ٢١٣ وابن حوقل ص ٢٧٣] — وقال المقدسي ، ولاهل جرجان المقانع القزيات تحمل الى اليمن والعناب ، ولهم ديباج دون [أحسن التقاسيم ص ٣٦٧] .

(٣) المقارم ج مقرمة وهي الستر ، وعن ابن الاعرابي هي المحبس نفسه يقرم به الفراش قال . وهو ثوب من صوف فيه الوان من عهون فاذا خيط فصار كأنه بيت فهو كِلّة ، وقد تزين المقارم في اطرافها بالرجائز وهي نسيجة حمراء عرضها ثلاث أصابع وأربع [المخصص ٤ : ٧٥] أقول . وقد أخذ الافرنج لفظ مِقرمة عن اللغة العربيـة واطلقوه على نوع من الطرز يسمونه Macramé .

(٤) دباوند — كذا بالاصل وهو عندي تحريف من الناسخ وصوابه [دُنباوند] وهو جبل عال بناحية كرمان ، قال ابن الفقيه . وبكرمان مدينة يقال لها [دمندان] وهي مدينة كبيرة واسعة وبها اكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشاذر والصفر ومعدنه بجبل يقال له [دنبـاوند] جبل مرتفع شاهق في الهواء ارتفاعه ثلاث فراسخ [كتاب البلدان ٢٠٦] .

ومن الري : الخوخ والزئبق والبرمق والاسلحة والثياب الرقاق والامشاط والقلانس الملكية والقسيات [١] الكتان والرمان [٢] .

ومن اصفهان : الشهد والعسل والسفرجل والكمثرى الصيني والتفاح والملح والزعفران والاشنان والاسفيذاج [٣] والكحل والسرر المطبقة والاثواب الجياد والشراب من الفواكه [٤]

ومن قومس الفؤوس والأمساح والجتر (٥) والطيالسة من الصوف .

ومن كرمان النيلج والكمون .

ومن الجور الجوارشن (٦) .

---

(١) بالاصل : العسيات ، وعندي انها القسيات ، نوع من الثياب كانت تجلب اولاً من قس بمصر ثم أطلق الاسم على غيرها ، وقد ورد ذكرها في الحديث الشريف (راجع النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير] وقال ابن سيده : الثياب القسية تنسب الى قس وهو موضع وهي ثياب فيها حرير تجلب من نحو مصر وقد نهي عن لبسها [المخصص ٤ : ٧٢] .

(٢) قال الثعالبي وكان يحمل الى السلطان مع خراج الري — وهو اثنا عشر الف الف درهم — من الرمان مائة الف ومن الخوخ المقدد مائة الف رطل [ثمار القلوب ٤٢٨] .

(٣) الاسفيذاج ، فارسي معرّب وهو نوع من الطلاء أبيض اللون شارقه ويسميه الافرنج Blanc de ceruse وهو المعروف في تونس بالباروق ، وقد أطال ابن البيطار ذكر صنعه وتحضيره فليراجع [جامع المفردات ١ : ٣١] .

(٤) قال الثعالبي وكان يحمل من أصبهان الى حضرة السلطان كل سنة مع خراجها — وهو واحد وعشرون الف الف درهم — قدر كبير من الكحل ومن العسل الف الف رطل ومن الشمع عشرون الف رطل ، وكلها موصوف بالجودة والزعفران بها كثير [ثمار القلوب ٤٢٧] .

(٥) الجتر ، فارسي معرّب وهي المظلة تتخذ للوقاية من الشمس .

(٦) كذا بالاصل والاقرب ان تكون الجواشن ج جوشن وهي الدروع وقد ذكرها الجاحظ في « المحاسن والأضداد » [فصل محاسن الهدايا] .

وبزرقطونا (١) ٠

ومن بَرْذَعة البغال الفُرّه (٢) ٠

ومن نصيبين الرصاص ٠

ومن فارس الثياب الكتان التوزي والسابري وماء الورد (٣) ودهن النيلوفر ودهن الياسمين والأشربة ٠

ومن فَسَا الفستق وأصناف الفواكه وطرائف الثمر والزجاج ٠

ومن عُمان وسواحل البحر اللؤلؤ ٠

ومن ميسان الأنماط والوسائد ٠

ومن الأهواز ونواحيها السكر والديباج الخز (٤) ٠

(١) بزرقطونا ، نبت معروف وهو صنفان شتوي وصيفي وأنفع ما فيه بزره ، وهو الاسفيون بالفارسية وفي اليونانية فسيلون Psyllium [راجع المختصر الفارسي للصقلي ، والمعتمد في الادوية لابن رسولا طبع مصر ص١٦ ، وكشف الرموز للجزائري وغير ذلك] ٠

(٢) قال الاصطخري ويرتفع من نواحي برذعة بغال تجلب الى الآفاق [المسالك ١٩٠] وقال ابن حوقل ويجلب منها من البغال الجياد الموصوفة بالنجابة والصحة والجلد والصبر الى خراسان والعراق والشام وغير ذلك ما يستغنى بشهرته عن ذكره [حوقل ٢٤٨] ٠

(٣) قال الثعالبي جور من كوَر فارس مخصوصة بالورد الذي لا أطيب منه في سائر البلاد يضرب به المثل في الطيب وهو مجلوب الى أقاصي المشرق والمغرب ٠٠٠ وكان يحمل من فارس الى الخلفاء كل عام مع خراجها من ماء الورد سبعة وعشرون الف قارورة [ثمار القلوب ٤٢٧ — وراجع ايضاً الاصطخري ١٥٢ وابن حوقل ٢١٣ والمقدسي ٤٤٣] ٠

(٤) السكر من خواص الاهواز ومفاخرها ومتاجرها ، ولا يكون الا بها على كثرة قصب السكر في سائر النواحي ، والمثل مضروب بسكر الأهواز كما قال ابو الطيب المتنبي

تقضم الجمر والحديد الاعادي دونه قضم سكر الأهواز

وكان يحمل الى الخلفاء كل عام مع خراج الأهواز — وهو خمسة وعشرون الف الف درهم — ثلاثون الف رطل من السكر ؛ ومما ينسب الى الأهواز من النفائس ديباج تستر وخز السوس ، قال كشاجم يصف الروض

٠٠٠ والصناجات والرقاصات (١) ٠٠٠٠ وأنواع التمر والدبس والقند (٢) ٠
ومن السوس ، الأترج ودهن البنفسج والشاه سبزم (٣) والجلال والبراذع ٠
ومن الموصل ، الستور والمسوح (٤) والدراج والسماني ٠
ومن حلوان ، الرمان والتين والكامخ (٥) ٠

كأن الذي دبجت تسر وطرزت السوس فيه نسر
[ثمار القلوب ٤٢٦] ٠

(١) حصل هنا ترهل عطل قراءة بعض الكلمات ٠ اما لفظ « الصناجات» الواردة بالاصل فأظنها تحريفاً من الناسخ ولا أخالها الا « الِنصاحات » وهي الجلود واحدتها نِصاحة [راجع المخصص ٤ : ١٠١] — وكذا قوله « الرقاصات » فهي عندي « الطراحات » ج طراحة وهي مقاعد صغيرة مربعة تطرح في البيوت ٠

(٢) القَنْد والقَنْدة ، معرب « كَنْد» وهو عصارة أوعسل قصب السكر اذاجمد وهو المعروف عند الأطباء بسكر النبات ويسميه الافرنج Sucre candi اي سكر مرئي

(٣) شاه سبرم ، ويقال ايضاً شاهسفرم وشاهشفرم ، نوع من الريحان كان يسمى الريحان السلطاني والحبق الكرماني ، واللفظ فارسي معرب « شاه سبرغم » وهو مما عرب قديماً لوقوعه في شعر الأعشى [شفاء الغليل وتاج العروس ٨ : ٣٦١ — وكتاب المعتمد لابن رسولا ص١٧٨ وغير ذلك] ٠

(٤) المسوح ج مِسح ، عن ابن سيده كساء مخطط يكون في البيت يستتر به ويفترش [المخصص ٤ : ٨٠] ولايخفى ان منسوجات الموصل كانت لها من قديم الزمان شهرة كبيرة في الشرق والغرب حتى ان الامم الافرنجية أطلقت عليها اسم Mousseline تذكيراً لاصل موردها ٠

(٥) الكامخ ، فارسي معرب وأصله « كامه » ويجمع على كوامخ ، قال الجواليقي الكامخ الذي يؤتدم به [كتاب المعرب] وقال مرتضى وغيره في شرح الكامخ ومنهم من خصه بالمخللات Hors d' œuvres التي تستعمل لتشهي الطعام [تاج ٢ : ٢٧٦] وكذا شفاء الغليل — أقول والمعنى الاخير هو المقصود هنا ويؤيده ماحكاه الجاحظ نفسه في البيان والتبيين [ج٣ ص ١٩١ من طبعة مصر سنة ١٣٣٢] ٠

ومن أرمينية واذربيجان ، الّابود ۰۰۰۰ والبراذع والفرش والبسط الرقاق والتكك والصوف (١) .

« باب مايختار من البزاة والشواهين والبواشق والصقور وغير ذلك »
« من جوارح الطير »

خير البزاة البيض مايقع بناحية الترك الى جيلان ، ثم السود الغرابية التي بناحية الزنج الى الهند والى اليمن ، ثم الحمر المشرقة ، ثم الديْزَج (٢) .

وخير الشواهين السود الغرابية البحرية ، والبيض الجرجانية .

وكذلك البواشق يستحب منها السود الغرابية البحرية ، ثم البيض الهندية ، ثم الحمر البحرية ، الحُمر البطن والصدر بيكانات (٣) بيض ، المزهر اللون ، الكبير الرأس ،

---

(١) قال ابن حوقل عند ذكره أرمينية واذربيجان ، وبهذه البلاد وفي اضعافها من التجارات والمجالب وأنواع المطالب من الدواب والأغنام والثياب المجلوبة الى النواحي والأقطار ، معروفة لهم ومشهورة كالتكك الارمنية التي تعمل بسلماس ، تباع التكة من دينار الى عشرة دنانير ولا نظير لها في سائر الارض . ثم قال وأكثر ما يخرج الى بلاد الاسلام من الديباج والبزيون وثياب الكتان الرومي وثياب الصوف والاكسية الرومية فمن اطرابزندة [المسالك والممالك ص ٢٤٦] — وقال الثعالبي وكان يحمل الى حضرة السلطان مع خراج ارمينيـة كل عام — وهو ثلاثة عشر الف الف درهم — من البسط المحفورة(؟) ثلاثون بساطاً ومن الرقم خمسمائة وثمانون قطعة ومن البُزاة ثلاثون بازياً [ثمار القلوب ٤٢٨] .

(٢) الديْزج ، فارسي معرّب ديزه بالكسر ومعناه ذو لونين أو هو بين لونين غير خالص [تاج ٢ : ٤٢] ويروى ايضاً ديرج بالراء المهملة [النهاية لابن الاثير ٢ : ٢٢] .

(٣) بيكانات ، فارسي معرّب وأصله « بيكانه » ومعناه واحد والمقصود هنا معلّم بنقط بيض .

الغائر العينين من غير هزال ، العريض المنخرين ، الواسع الصدر مرتفعه ، اللين الزغب ، الطويل الذنب ، الاخضر الأرجل الذي رجله قريبة من الدستبان (١) الثقيل الوزن فاذا بلغ وزنه مائة وثلاثين (٢) فذلك غاية (٣) .

وزعموا ان اليؤيؤ (٤) ذكورة الصقور ، والعفصي (٥) ذكورة البواشق وذكورة البزاة بمنزلة اليؤيؤ الصغير .

---

(١) الدستبان ، فارسي معرّب وهو القفّاز من جلد يتخذه البيّاز في يده عندما يلعب أو يصطاد بالطير الجوارح .

(٢) كذا ورد من غير تعيين ، والمظنون انه يقصد مائة وثلاثين درهماً يعني نحو اربعمائة وعشرة غرامات باعتبار وزن الدرهم الشرعي بثلاثة غرامات وخمسة عشر سنتيغرام .

(٣) قال القلقشندي المختار من صفات الشواهين فيما ذكره صاحب «المصايد والمطارد» الاحمر اللون اذا كان عظيم الهامة ، واسع العينين حادّهما ، سائل السُّفعتين ، تام المنسر ، طويل العنق ، رحب الصدر ممتلي الزور عريض الوسط جليل الفخذين ، قصير الساقين ، قريب العقدة من القفا ، طويل الجناحين ، قصير الذنب ، سبط الكف ، غليظ دائرة الخصر ، قليل الريش لينه ، تام الخوافي ، ممتلئ المكوة [صبح الاعشى ٢ : ٥٨] — وقال ايضاً في صفة البُزاة ناقلاً عن الكتاب المتقدم . المختار من ألوانها الأحمر الاكثر سواداً الغليظ خطوط الصدر ، والاشهب الشديد الشهبة الشبيه بالابيض ، . الاصفر المدبّج الظهر — ثم قال ان ذكر البازي يسمى الزُّرَّق [صبح ٢ ص ٥٦ و٥٧] .

(٤) «اليؤيؤ» قال القلقشندي وتسميه اهل مصر والشام الجلَم ، وهو طائر صغير أسود اللون يضرب للزرقة ، وسموه الجلَم أخذاً من الجلم ، وهو المقص تشبيهاً به لان له سرعة كسرعة المقص في قطعه [صبح ٢ : ٦١] .

(٥) «العفصي» طائر صغير اشتق اسمه من لونه إذ كان يشبه العفص — وورد في صبح الاعشى اسم العفصي «بالفقصي» ، وفي التعليق عليه قال مصححه «العقصي» (؟) وكلاهما تحريف ، والصواب العفصي كما هنا للسبب الذي بينـا — قال القلقشندي . هو باز قضيف قليل الصيد ذاهل النفس [صبح ٢ : ٥٧] .

وقالت الفرس لا يكاد الفرس والبازي يكونان حسني المنظر لا مخبر لهما ، ولا حسني المخبر لا منظر لهما ، فان اجتمع المخبر والمنظر كان فائقاً .

« باب آخر »

كل ثوب من اللباس والفرش اذا كان ألين وأنعم وأسنى كان أرفع ، وكل علق من الجواهر والأحجار اذا كان أصفى وأضوأ فهو أنفس ، وكل حيوان من الوحشية والاهلية اذا كان أجسم وأطوع فهو آثر وأفخر ، وكل انسان من الشريف والوضيع اذا كان أعقل وأسهل فهو أجل ، وكل امرأة حرة أو أمة اذا كانت اكثر سكوناً وأجمل حالاً وأنزر طعماً وأشكر للناس فهي أصون ، وكل طير من السهلية والجبلية اذا كان آلف كان آثر ، وكل طارف وتالد اذا كان أزكى وأجل فهو أهنأ ، وكل عدو صغيراً أو كبير اذا كان حميماً فهو أعدى وأشد حسداً ، ومن لم يعرف مأواه فمحذور قربه ؛

والدول تنتقل والأرزاق مقسومة فاجملوا في الطلب وارحموا المسكين واعطفوا على الضعيف تجازوا به وتثابوا ، والقضاء جالب بجلب الامور ، وخير النوم ما يذهب الاعياء والكسل ؛

ومعرفة الاشياء بالحواس الخمس جودة الشيء بالنظر ان يكون حسناً رائقاً ، وبالخيشوم اذا كان طيباً أرجاً ، وبالمذاق اذا كان حلواً عذباً ، وبالسمع ان يكون صافي الوقع والصوت ، وباللمس ان يكون ليناً ناعماً (١) .

وكانت العجم تقول القلب والبصر شريكان ، والطعم والحس متفقان ، والفطنة والحفظ رفيقان ، والسمع والمنطق مجتمعان .

وخير الناس السهل الطلق الوجه المتواضع ، وفراسة الرجل السوء ان يكون منقبضاً

---

(١) ذكر الجاحظ [الحواس الخمس] غير ما مرة في غضون تآليفه المطبوعة ، قال هي السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، والمجسة — ولم يقل اللمس [كتاب الحيوان ج ٣ ص ٨٩] .

غير منشرح ، وان يُرى لونه الى الصفرة والكمود من غير مرض ، وان يكون طائش القلب ، وان يكون للدعابة والمزاح كارهاً له عائباً ، وان تراه غليظ اللفظ عند المحاورة .

ومن فراسة الرجل الصالح ان تراه سهلاً طلقاً ذا منظر بهيٍّ وكلام شهيٍّ ، سبط الجبين غير منقبض ولا نزق علق قلق ، وغير كاره للدعابة والمزاح ، يذكر من يذكر بخير لين المحاورة متواضعاً .

وزعم سابور الملك انه ليس ينبغي للعاقل ان يعتدّ بقول سبعة من الناس بقول السكران ، والدلال ، والمضحك ، والعليل ، والعراف ، والنمام ، والنساء .

تم الكتاب ولله المنة والحمد كما هو اهله
وصلى الله على محمد وآله وسلم



تتمة للناشر

—(١)—

رأينا من المناسب ان نثبت هنا فصلاً عقده الرحالة ابن الفقيه الهمذاني — وهو قريب من عصر الجاحظ — في (كتاب البلدان) له في «ذكر ماخص الله تعالى كل بلدة بشيء من الأمتعة دون غيرها» — وقصدنا بذلك مقابلة ما كتبه الجاحظ في باب «مايجلب من البلدان من طرائف السلع والامتعة وغير ذلك» وهو الوارد فيما مر من رسالته هذه .

قال ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه[1] :

ولولا ان الله عز وجل — خص بلطفه كل بلد من البلدان واعطى كل اقليم من الاقاليم بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ولما تغرب أحد ولاسافر رجل ولتركوا التهادي وذهب الشراء والبيع والاخذ والاعطاء ، الا ان الله عز وجل أعطي كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات ومنع الآخرين ليسافر هذا الى بلد هذا ويستمتع قومٌ بامتعة قوم ليعتدل القسم وينتظم التدبير . قال الله عز وجل : «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا» وقال الله عز وجل «وقدّر فيها أقواتها» .

فخص الله — جلّ وعزّ — بلاد «السند» «والهند» بانواع الطيب والجواهر كاليواقيت والالماس وغير ذلك من الحجارة الثمينة والكركدن والفيل والطاووس والاعواد والعنبر والقرنفل والسنبل والخولنجان والدارصيني والنارجيل والهليلج والتوتياء والقنا والخيزران والبقّم والصندل والساج والفلفل وعجائب كثيرة ؛ وخص اهل «الصين»

(١) [كتاب البلدان] طبعة ليدن سنة ١٣٠٢ ص ٢٥١ .

بالصناعات واعطاهم ما لم يعط احداً فلهم الحرير الصيني والغضائر والسرج وغير ذلك من الآلات المحكمة العجيبة الصنعة المتقنة العمل ، ولهم ايضاً مسك الا انه ليس بجيد ، وقالوا انما يتغير في البحر لطول المسافة ؛ ثم « الروم » وما قد خصها الله عز وجل به من العلوم والآداب والفلسفة والاحكام والهندسة والحذق بالابنية والمصانع والقلاع والحصون والمطامير وعقد الجسور والقناطر وعمل الكيمياء ، ولهم من الديباج الرومي والبزيون ، وفي بلادهم الميعة والمصطكى ، ثم هذه البلاد وما خصت به من الرمي فهم رماة الحدق ولهم الخيل العجيبة والافراس السابقة ، وفي بلادهم معدن الزبرجد والذهب وزيهم شبيه بزي العرب كأنها قطعة من بلاد اليمن ؛ ولاهل « المغرب » البغال البربرية والجواري الاندلسية والنمور الزنجية ؛ ثم ما قد خص به اهل « مصر » من النيل وعجائب ما فيه من السمك والخيل والتماسيح ولهم السمك الرعاد والاسقنقور ، ولهم الثياب الدبيقية والشطوية والقصب الموزون والمسير وغير ذلك من انواع ثياب الكتان والصوف من الاكسية ، ولهم البغال المصرية والحمر المريسية والثياب التنيسية والاسكندرانية ؛ ولاهل (اليمن) الحلل اليمانية والثياب السعيدية والعدنية ، وفي بلادهم الورس والكندر ، ولهم النجائب المهرية والسيوف اليمانية ، وفي بلادهم القردة والنسناس وغير ذلك من أنواع العجائب ؛ ثم (العراق) قلب الأرض وخزانة الملك الأعظم وما قد خصّ الله جلّ وعلا به أهل الكوفة خاصة من عمل الوشي والخزّ وغير ذلك من أنواع الفواكه والتمور والقسوب ما قد عدم مثله بالبصرة والأهواز وبغداد والحجاز مثل الهَيْرُون والمُشان وقسب العنبر والبِرْنيان ، ولهم الأدهان الطيبة الكثيرة ؛ ثم قل في عجائب (بغداد) ما شئتَ التي قد اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الأقاليم من أنواع التجارات والصناعات ، ولهم الذي لايشركهم فيه احد الثياب البيض المرْوية والزجاج المحكم من الأقداح والاقحاف والكاسات والطاسات والغضائر الحجرية ، ولهم الدّارش واللكّاء خاصة وفيهما أعجوبة ؛ وذلك ان الدارش يتخذ من هذا الجانب واللكاء من ذلك الجانب فلو جهد صاحب الدارش ان يتخذ من جانب صاحب اللكاء لأعوزه وكذلك لو جهد صاحب اللكاء ان يُتخذ في جانب صاحب الدارش لتعذر عليه ذلك ، على انهم قد امتحنوا ذلك وجرّبوه ففسد وتعذر عليهم ، وقد حمل المعتصم بالله صناع القراطيس الى سرّ من رأى مع تربتها ومائها وامرهم باتخاذه هناك فلم يخرج منه

الأ الخشن الذي يتكسر ؛ ولاهل كورة دجلة والسواد ومَيْسان ودَسْتَ ميسان من عمل الستور والبسط وعمل المَيْساني والحرير والدَّرا نك والدُّورَنْك وغير ذلك من أنواع الفرش والبسط ما ليس لأحد ؛ ولأهل (البصرة) من النخيل وأنواع التمور ما عدم مثله في جميع كور النخيل ؛ وذكر «الجاحظ» انهم أحصوا أصناف نخل البصرة دون نخل المدينة ودون مصر واليمامة والبحرين وعُمان وفارس وكرمان ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذراتها والأهواز وما بها أيام المعتصم واذا ثلاثمائة وستون ضرباً من مغل معروف وخارجي موصوف وبديع غريب مع طيب عجيب ؛ ولأهل (الأهواز) انواع من السكر والتمور ؛ ولاهل (السوس) خاصة (وجُنْدَيْسابور) حذق في اتخاذ انواع ثياب الحرير والديباج وكذلك لاهل (تستر) ؛ ثم (الجبل) وعجائبها وما قد أعطوا من الفواكه السرية الكثيرة والزعفران والأقطان واتخاذ طرائف الألبان كالجبن واللوز ؛ ولاهل (همذان) خاصة حذق باتخاذ المرايا والملاعق والجامر والطبول المذهبة التي قد فاقوا بها وباتخاذها جميع اهل الارض ؛ ولاهل (الري) الاطباق المدهنة والحرير وآلات كثيرة يتخذونها من الخشب من الامشاط وغير ذلك من المالح والمغارف ، ولهم الاكسية البيض الطرازية والطيالسة البيض السرية والثياب المنيّرة ؛ ثم بغداد الثانية اعني (اصبهان) وما أعطي اهلها من طيب الهواء وعذوبة الماء والحذق بانواع الصناعات ، فلهم الثياب المروية والعتابية والملاحم العجيبة والحلل الابريسمية المنسوجة وغير المنسوجة والثياب السعيدية ؛ (ولفارس) فضل في اتخاذ الآلات الظريفة المحكمة من الحديد حتى لقد قال بعض الحكماء لما وقف على اشياء ظريفة عند بعض الملوك من آلات فارس : لقد ألان الله عزّ وجل لهؤلاء القوم الحديد وسخّره لهم حتى عملوا منه ماارادوا ، فهم احذق الامة بالجوامع والأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن ، ولهم الثياب الجُنَّابية والسينيزية ، ولهم الماورد الجوري والطين السيرافي والاكسية الفسوية والأدهان السابورية والثياب الكازرونية ؛ ولاهل (سجستان) عمل المشارب الحجزية والكيزان وآلات كثيرة من الشَبَه والصفر ؛ ولاهل (طبرستان) و (الديلم) و (قزوين) حظ من عمل الاكسيه الرويانية والآملية واتخاذ الشستانك والمناديل واشياء كثيرة من انواع ثياب القطن والصوف والابريسم والكتان ؛ ولاهل (جرجان) من الابريسم ماليس عندغيرهم ومنها يحمل الى جميع البلدان

ولهم حذق باتخاذ الديباج والمقانع والثياب والستور وغيرذلك ؛ ولاهل (نيسابور) الثياب المحمة والطاهرية ، ولهم التاختج والراختج وليس هذا الا لهم ؛ ولاهل (مَرْو) الثياب المروزية والملاحم الفائقة التي هي اعلى الملاحم ؛ (وبخراسان) فواكه كثيرة مرية واعناب طيبة ، ولهم الزبيب الكُشْمِهاني والكِشْمِش وبطيخ يقدّد ، وقد كان فيما مضى يُحمل بطيخها الى الخلفاء في قدور نحاس لشدة حلاوتها ولذّتها وطيبها (كذا بالاصل) ، ولهم الأشْتِرغاز والأنجُذان والفُوشنة والكيمكان والرَّخبين والمَامِيرن ، وبها معدن الفيروزج واللازورد والرُّكُب المروية والثياب السمرقندية ، ولهم الأشْكن والخلنج وبها الخُتُو ؛ (وبالترك) السمور والفَنَك ؛ (وبالتُّبَّت) المسك التُّبَّتي والدرق التبتية .

فسبحان من اعطى كلّ بلد نوعًا من الخيرات وجنسًا من الصناعات ، وتبارك الله أحسن الخالقين .



توهم الميت حيا

«من كلمات اللغة»

—*—

كنت وانا أتتبع كلمات اللغة التي توهَّم أهل اللسان الحرفَ الزائد فيها أصليًا والتي بنيتُ عليها ثلاث مقالات[1] — كنت أجد أحياناً كلمات فيها شذوذ في صيغتها . وقد بنوا شذوذها على التوهم ايضاً . لكنه توهم عجيب الشكل . غريب الأمر :

توهمهم في الكلمات التي سردتها في المقالات الثلاث كان توهمًا مبنيًا على مستند . وله أساس . أما هذه الكلمات (المكتشفة) فان توهمهم فيها لامستند يستند اليه . ولا سبب معقول يمكن الاعتماد عليه .

فاذا قلنا لهم : لماذا قلتم (تمنطق) بالميم ولم تقولوا (تنطّق) أجابوا باننا توهمنا أن ميم (منطقة) أصلية فاشتققنا منها (تمنطق) .

فهذا توهم له مستند وله أساس . ولصاحبه بعض العذر في مخالفة القياس . وأما الكلمات الجديدة فانهم خالفوا فيها القياس . وادعوا ان مخالفتهم مبنية على التوهم . لكنه (توهم مجرّد) عن العلة والسبب بينما التوهم في كلمات النوع الأول (توهم معلّل) له علته وسببه .

ومحصل القول ان في اللغة كلمات شاذة في صيغتها جعلوها من باب (توهم الحرف الزائد أصليًا) لكنني لم أر لهذا الحمل حظاً من النظر . وانما هم اعتبروا التوهم فيه بمقياس أوسع مما مر في تخريج كلمات المقالات الثلاث .

(١) راجعها في (م ٥ ص٢٠٥) و (م ١٠ ص١٢٩) و (م ١١ ص٥٣٩) من مجلة مجمعنا العلمي .

ومن تأمل حق التأمل في هذه الكلمات الآتية وجدهم اعتمدوا في اشتقاقها على أصول ميتة اعتبروها حية : ثم اشتقوا منها . فيصح لنا ان نقول انه اشتقاق مبني على (توهم الميت حياً) .

***

رقم (٥١) — (كَنَّة — كنائن) (الكَنَّة) زوجة الابن قالوا في جمعها (كنائن) مع ان القياس أن تجمع على (كِنان) كما جمعوا (جنة) على (جنان) و (خَلَّة) على (خلال) و (بغلة) على (بغال) و (قصعة) على (قصاع) وكما نجمع اليوم (الجنة) على (الجان) .

هذا اذا لوحظ في لفظ (كنّة) أنه اسم غلب عليه الجمود لا صفة . وكذلك اذا لوحظ فيه أنه صفة من (الكنّ) بمعنى الستر كان القياس ايضاً ان يجمع على (فِعال) كما جمعوا (صعبة) على (صعاب) و (سَمحة) على (سماح) لكنهم لم يجمعوا (كنّة) الا على (فعائل) فقالوا (كنائن) ولما ذا ؟

قال (التاج) «كأنهم توهموا فيه كَنينة ونحوها مما يكسَّر على فعائل» اه .

وقد حاول الأزهري صاحب التهذيب أن يجعل جمع (كَنَّة) على (كنائن) مقيساً في كل ما كان على وزن (فَعْلة) مضاعفاً . فكان في محاولته هذه متكلفاً متعسفاً . وبقي القول للجمهور الذين يمثلهم صاحب التاج في ان السبب في جمعهم (كنّة) على (كنائن) هو توهمهم ورود (كنينة) على وزن (فعيلة) .

وبيان ذلك انهم لاحظوا في (كنّة) معنى الصفة (كسَحة) و (جَلْدة) اللتين يقال فيهما ايضاً (سميحة) و (جليدة) ومثلهما كثير في صفات الاناث التي على وزن (فَعْلَة) . أما (كنّة) فانها — وان كانت على وزن (فعلة) — لم يقولوا فيها كنينة على وزن (فعيلة) .

نعم لم يقولوا ذلك قولاً واقعاً في الخارج لكنهم قالوه قولاً متوهماً في النفس . وقد ظهر أثر هذا التوهم مذ جمعوا (كنة) على (كنائن) لأن (كنائن) على وزن (فعائل) هو الجمع القياسي لما كان على وزن (فعيلة) .

ومحصول القول إن العرب توهموا لفظ (كنينة) الميت حياً فجمعوه على (كنائن) واستغنوا به عن (كنان) القياسي .

(٥٢) — (حَرّة — أَحرّين) (الحَرّة) هي الارض ذات الحجارة السود كأنها أحرقت بالنار وتجمع على (حرار) و (حرّات) جمعاً قياسياً كما تجمع على (حرّين)

و (حرُّون) اي بالياء والنون والواو والنون جمعاً غير قياسي وانما هو معدود في شواذ جمع المذكر السالم نظير سنين ومئين وأرضين .

فالجموع الثلاثة (حرار ، حرّات ، حرُّون) إما مقيسة وإما غير مقيسة ولكن لها نظائر . وهناك جمع رابع غريب الأطوار : لاقياس يعتمد عليه . ولا نظير يستند اليه . هو (أَحرُّون) و (أحرين) يعني بالواو والنون أوالياء والنون على نمط جمع المذكر السالم . وليس في هذا غرابة وانما الغرابة في وجود همزة في أوله فمن أين جاءت هذه الهمزة ؟ ؟ ؟

جاءت من قاعدة (التوهم المجرد) وهي التي سميناها قاعدة (توهم الميت حياً) قال صاحب التاج : « من جموع (الحَرّة) (أحرين) » وهو على توهم أن له مفرداً على (أحرّة) اه .

يعني انهم توهموا وجود كلمة في اللغة تدل على معنى (الحرّة) وتلك الكلمة هي (أحرّة) بالهمزة في أولها . وبعد ان توهموها توهماً أو يقال بعد ان توهموها حية وهي ميتة — عادوا لجمعوها على (أحرين) . وزاد التاج عبارته السابقة قوة وتأييداً فقال : « قال سيبويه وزعم يونس انهم يقولون حرة وأحرُّون كأنه جمع (أحرة) ولكن لا يتكلم بها اه » أي ان العرب لم ينطقوا بكلمة أحرة إذ هي ميتة كما قلنا .

أما الشاهد على مجيء (أحرين) في اللغة فهو رجز قاله (زيد بن عتاهية) وهو من اصحاب علي رضي الله عنه : فان علياً أعطى أصحابه يوم الجمل خمسمائة درهم خمسمائة درهم ولما انهزم زيد المذكور يوم صفين ورجع الى الكوفة ابتدرته ابنته قائلة (اين الخمسمائة ؟) فأنشد :

(إن أباك فرّ يوم صفّين لما رأى عكّاً والاشعريين)
(وذا الكلاع سيد اليمانين قال لنفس السوء هل تفرّين)
(لا خمس الا جندل الاحرّين والخمس قد يجشمنك الأمرّين)
(جمزاً الى الكوفة من قنسرين)

فقوله (لا خمس الا جندل الأحرّين) معناه ليس لك خمسمائة درهم وانما لك حجار الحرّات . وقد كنى بذلك عن الخيبة .

هذا ماقاله (يونس) ورد عليه (ثعلب) بان (الأحرّين) ليست جمعاً لحرّة (يعني على توهم أحرّة) بل هو جمع لكلمة (أحرّ) أفعل تفضيل من(الحُرّ) وهو الكريم . فالأحرُّون هي المواضع التي تكون أحرّ وأكرم من غيرها وان جمع (الأحرّ) على (الأحرين)

لجمع (الاكرم) على (الاكرمين) و(الأطيب) على (الأطيبين) . لكن (السخاوي) في (سفرالسعادة) أيد (يونس) في ان (الأحرّين) بالهمزة جمع (حرّة) من دون همزة ثم علل ورود هذا الجمع بمالا يسعنا ذكره هنا . فانت ترى ان جمع (حرة) على (أحرّين) مبني على توهمهم وجود كلمة (أحرّة) في اللغة العربية وهذا التوهم مجرد تحكّم أوهو من قبيل توهم الميت حيّاً .

(٥٣) — (مُسَرّ — فهو مسرور ومُسَرّ) جاء في أمثال العرب (كل مُجْرٍ في الخلاء مُسَرّ) أصل هذا المثل أن رجلاً كان له فرس سماه (الأبياق) وكان اذا خلا به في الفلاة سابق عليه الطير والرياح وكان يُسَرّ بشدة عدوه وسبقه في الخلاء حتى خُدع بذلك وأدخل أبيلقه في سباق الخيل بل لم يدخله الا برهن من اول الأمر وثوقاً بسبقه في الميدان كما سبق في الخلاء . لكن (الابيلق) المسكين سُبق وخسر صاحبه الرهن فضربوا به المثل وقالوا : (كل مُجْرٍ في الخلاء مُسَرّ) اي مسرور يضربونه لمن يحمد مافي نفسه ولا يدري ماعند غيره من الفضائل . والشاهد في هذا المثل كلمة (مُسَرّ) بصيغة اسم المفعول من (أسره) لكن لم يرد في اللغة (أسره) وانما ورد (سَرّه) ثلاثياً فهو مسرور :

إذن كيف قالوا في هذا المثل (مُسَرّ) ؟

أجاب صاحبا اللسان والتاج بما نصه : (قال ابن سيده : هكذا حكي هذا المثل أقال ابن لقيط : إنما جاء على توهم أسرّ اه) .

يعني انهم قالوا (مسر) لا مسرور بناء على توهمهم وجود فعل (أسر) في لغتهم . ولم يبين لنا ارباب المعاجم سبب هذا التوهم ومعتمده : توهموا الياء في (ميثاق) أصلية لجمعوها على (مياثيق) والياء حية في (ميثاق) ليست ميتة وموجودة غير معدومة اما قولهم في المثل المذكور (مسرّ) لا (مسرور) فأن (أسر) ميت غير موجود لكنهم توهموه حياً فاشتقوا منه (مسرّ) .

(٥٤) — (أنبته — فهو منبوت) : كما توهموا وجود (أسره) الرباعي فاشتقوا منه (مسر) — توهموا وجود (نبته) الثلاثي فاشتقوا منه (منبوت) مع أن (نبته) ميت غير موجود وانما الموجود (أنبته) (والله أنبتكم من الأرض نباتاً) فاسم المفعول منه (منبت) لا منبوت . ومن أين جاء منبوت إذن ؟

اجاب صاحب اللسان في مادة (سرّ) وهو يشرح كلمة (مسر) الواردة في المثل السابق بقوله : ومثله منبوت في قول الشاعر .

(وبلد يغضي على النعوت يغضي كاغضاء الروى المنبوت)

(اراد المنبت فتوهم نبته كما أراد الآخر المسرور فتوهم أسره) اه

واعلم ان الكلمتين وردتا في (لسان العرب) مصحفتين هكذا (مثبت وثبته) بالثاء المثلثة وهو خطأ وصوابه كما قلنا (منبت ونبته) بالنون كما في التاج والصحاح . ولم يفسر لنا صاحب اللسان معنى قول الشاعر (وبلد يغضي الخ حتى إن مصححه تبرأ من صحة معناه وقال : (هكذا هو في الأصل) .

هذه كلمات اربع (كنائن) (أحَرُون) (مُسَر) (منبوت) وردت في فصيح كلام العرب ودوّنت في معاجم اللغة وقد بنوا صحتها على قاعدة التوهم : اي توهم وجود (كنينة) (أحرة) (أسرة) (نبته) مع انها ميتة غير موجودة . وهذا مما يجعل (قاعدة التوهم) واسعة مطردة اكثر مما كنا نظن ويفسح لنا المجال فنحشر أغلاطاً كثيرة للعرب والمستعربين من الفصحاء الاسلاميين — في هذه القاعدة ونعتبرها صحيحة مقبولة في الاستعمال .

على أن نزاع علماء اللغة حول هذه الكلمات الأربع ونظائرها — لا ينتهي عند حد ما قلته ونقلته في تخريجها وتوجيهها فان هناك دنادن حول امثال هذه الكلمات يمكن ترتيبها — على هذه الصورة :

(١) — قولهم (أحرون) (مسر) (منبوت) واشباهها — مما ورد على لسان رجل واحد من عرب الجاهلية — خطأ ولا عبرة به ولا ينبغي أن يتخذ أصلاً يقاس عليه .

وهذا هو مذهب البصريين الذين هم عمدتنا في اللغة وتقرير قواعدها اما الكوفيون جزاهم الله خيراً فيعتبرون هذا المثال الواحد المخالف للقياس — كافياً في صحته وصحة ماماثله وضرب على غراره .

(٢) — ان قولهم (أحرون) (مسر) (منبوت) ونظائرها ليست خطأ بل هي واردة على القياس :

فأحرون إنما هي جمع (أحرة) (ومسر) اسم مفعول من (أسره) ومنبوت من (نبته) . (وأحرة) و (أسره) و (نبته)— مما نطق به العرب حقبة من الزمن اشتقوا في خلالها

كلمات (أحرون ومسر ومنبوت) ثم انهم اخـيراً أماتوا الاصول وهي (أحرة) (أسره) و(نبته) فلم يستعملوها وأبقوا على سلالتها — الجمع واسمي المفعول — فاستعملوها في اشعارهم وامثالهم وجاء علماء اللغة فدونوا المشتقات والسلالات وأهملوا الأصول والامهات . ونظير ذلك ما فعلوا في فعلي (حب) و (أحب) مثلاً فان اهل اللسان أحيوا (محبوب) وأماتوا (حبه) الا قليلا وأحيوا (محب) وأماتوا (حاب) ولهذه الإماتة والإحياء نظائر يعرفها اللغوي .

(٣) — إن كلمة(أحرة)وفعلي(أسره) (ونبته)مما نطق به العرب واستعملوه ولم يميتوه لكن أرباب المعاجم أهملوه أو اغفلوه لسببٍ من الاسباب فلم يدونوه في المعاجم كما أغفلوا الكثير الطائل من فصيح كلام العرب حتى ذهب بعضهم الى ان ارباب المعاجم لم يدونوا الا النصف من كلمات اللغة وان ما فاتهم أو صُرفوا عنه اكثر مما ظفروا به أو هُدوا اليه . وذكر ابن فارس في كتابه (الصاحبي) أن علماءنا او اكثرهم ذهبوا الى ان الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الاقل قال : ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير انتهى . وهذا نحو (تبدــى) بمعنى ظهر و (معتمد) بمعنى عمــده الوجع و (يسوّف) بمعنى يشم الخ وهكذا يقال في كلمات (كنينة) بمعنى (كنة) و (أحرة) المفرد بمعنى (حرّة) وفعل (أسرّه) وفعل (نبته) بمعنى (سرّه) و (أنبته) فان العرب نطقوا بهـا ولم يميتوها كما تُوهم . وانما أماتها أرباب المعاجم أنفسهم . على ان أرباب المعاجم — وان اماتوها — رأيناهم من جهة ثانية قد أشاروا اليها ودلوا عليها : فلم يبق علينا الا البحث والتنقيب في كتب اللغة التي لم تنتشر ولم تطبع . بل إن هنالك مصنفات في غريب اللغة خاصة لم تصل الينا ولم ندر أين مكانها . فلعلنا اذا ظفرنا بها وجدنا كلمات : (كنينة) و (أحرّة) و (أسرّه) و (نبته) . ويكون شأننا مع هذه الكلمات التي لم تدوّن ونتعب في التنقيب عنهـا شأن علماء الفلك مع نجيمات تدلهم الأرصاد . والمواقع والأبعاد . ونواميس الجاذبية العامة على وجودها في رقعة أومنطقة من السماء معينة وان لم تكن ظاهرة للعيان الآن . ثم لا يلبث ان يصدق ظنهم ويتحقق حدسهم فيعثروا هم أوغيرهم على النجيمة أوالكوكب في الحيّز الذي عينوه ورسموه . وهكذا علماء اللغة قالوا لنا : إن هنالك كلمات نطق بها العرب ولم نظفر بها نحن . لكننا وجدنا ما يثبتها ويدل على وجودها فابحثوا عنها أنتم ونقبوا فلعلكم في العثور عليها موفقون .

«المغربي»

فن الجاحظ

- ٢ -

« لغته[1] »

أحاط الجاحظ بخصائص اللغة ووقف على مجاريها ومصارفها وتبحّر في جلائلها ودقائقها فقد ذكرت لكم انه صوّر كل معرض من معارض الحياة ولكن الكاتب اذا شاء أن يصوّر الحياة على هذا الشكل لزمه أن يحب الكلمة وأن يشعر بها كما يشعر بكل جزء من أجزاء الحياة وهذا ما انصرف اليه الجاحظ فكل ما يمكنه الكاتب أن يصنعه بالألفاظ صنعة الجاحظ فقد عرض على ذهنه مفردات اللغة بحذافيرها ثم ألّف بينها تأليفاً محكماً ، عرض مفردات العلوم والصناعات ومفردات الحركات والأفكار ومفردات الجد والهزل والخلاصة عرض مفردات العالم بمجامعها .—

أعظم خصائص الجاحظ في هذا المعنى تفقهه في اللغة فهو ينزل اللفظ في منازله ويصبه في قوالبه بحيث لو فتشنا عن لفظ آخر للمعنى الذي يمثله لنا لما وجدنا لفظاً غيره يقوم مقامه أو يسدّ مسدّه ، ولم يقتصر في هذا التفقه على باب من أبواب المعاني أو على نوع من انواع الأفكار وانما اعطى المعاني حقوقها من الألفاظ في كل فن من الفنون في الطب والفلسفة والصناعة والعلم وفي غير هذا كله من مذاهب الفكر فلا تجدن في فلسفته الا الفاظ الكم والكيف وما يماثلها من مصطلحات الفلاسفة وكذلك شأنه في كل باب من الأبواب فهو يستعمل لكل معنى من المعاني اللفظ الذي خلق لهذا المعنى فاذا أحبّ مثلاً ان يصوّر لنا كسر الأعضاء قال : فقأ العين وهشم الأنف وهتم السن ودق العظم واذا

---

(١) هذه آخر محاضرات الاستاذ شفيق جبري وقد شرع في طبعها في كتاب خاص : سماه : الجاحظ معلم العقل والأدب .—

احب ان يمثل تجريد الاجسام من اغطيتها قال · سلخ الجلد ونفض الورق و كشطت الشمس جلودهم وكذلك لغته في تصوير فساد الاجسام كقوله : نغلت الجبنة او في تصوير اصوات الحيوان كقوله : شحيج البغل ونهيق الحمار او في تصوير الشرب كقوله : يلغ في الدم او كقوله : الحسو والعبة والنغبة او في تصوير بيوت الحيوان كقوله : الأفاحيص والتماريد الى غير ذلك من خصائص تفقهه فهو آخذ بمخنق اللغة لا يفوته لفظ من الفاظها ولا يغفل عن سر من اسرارها ·—

وإذا عمدتم الى آثار الحياة الخاصة وجدتم ان الجاحظ قد اتقن لغة كل اثر من هذه الآثار مهما كان حقيراً فقد اتقن لغة البخيل مثلاً فيستعمل في تصوير البخل الفاظ البخلاء كالحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف واشباهها واتقن لغة الطبخ كالشواء والانضاج واستحلاب الدسم وتعرق العظم والقفار والمسمون واتقن لغة الطعام بحذافيرها كالشبارقات والأخبصة والفالوذجات وما يقاربها واتقن لغة الماعون كالجفنة الأعشار او القصعة المشعبة او الجرة المكسورة العروة او الحب المقطوع الرأس ·—

انكم لتذكرون ان الجاحظ يميل في فنه الى الصور المحسوسة القريبة من كل حاسة من حواسنا وكما اولع بالصيغة المحسوسة فقد اولع باللفظة المحسوسة التي تؤثر في حواسنا فكأنما صاغ لغته ليعرض على انظارنا اشكال هذا العالم الظاهر : عالم الحركات والهيآت والطعام واللباس واضراب ذلك فلستم تجدون في لغته الا امثال قوله : تغمس خراطيمها — يتطوس لها — يتموج في اهابه — يتخلج — تعاريج ريشه — تهاويل الوانه — التوبير الى اشباه هذه اللغة المحسوسة ·—

ومن وَلَعه بهذه الطبقة من الالفاظ كان الجاحظ لا يتحامى في بعض الأوقات الفاظاً نجدها في عصرنا هذا بارزة عن ظل الطهارة كألفاظ المناكح وما ضارعها ولا عجب في ذلك فان الجاحظ من اصحاب الأدب الواقع ·—

وعلى الرغم من تبحر الجاحظ في اللغة وتفقهه فيها لم يجمد في هذه اللغة فقد تتبع مذاهب الفكر واعطى كل طور من اطوار هذا الفكر حقه من الكلمات فاذا عرضت له طائفة من خصائص بعض الحيوان كالجاموس وكالخنزير او من خصائص بعض الأجسام كالنار اشتق هذه الخصائص من الاسماء نفسها فقال : الجاموسية والخنزيرية والنارية والحيوانية

والجوهرية وعلى هذه الصورة اثبت ان لغة العرب مستعدة للحياة متـأهبة لمجاراة اوضاع هذه الحياة ومذاهبها .—

وقد ذهب في هذا كله مذهباً أبعد فلم يتجنب في بعض الأوقات الألفاظ الأعجمية كلفظة : سوارست وامثالها .—

واذا وجدنا في بعض لغته شيئاً من الغموض فقد تكون هذه الألفـاظ الغامضة انما هي الفاظ تاريخية وأريد بها الألفاظ التي كانت تدل في عصر الجاحظ او في العصور التي تقدمته على معنى من المعاني كالطعام واللبـاس والسلاح وما ماثل ذلك ثم ذهب هذا المعنى بذهاب الذين كانوا يستعملونه فبقي الاسم وانطوى المسمى فلا نستطيع ان نتصور الاسم لاننا لا نرى المسمّى ولا نعرفه ، من هذا الشكل أسماء بعض الطعام كالعنب النيروزـي والعنب الرازقي أو اسماء بعض اللباس كالقلنسوة الخدرية او اسماء بعض السفن كالجعفرية مثلاً .—

هذا آخر ما خطر بالبال من الكلام على لغة الجاحظ فقد ادركتم ان اللغة القت الى الجاحظ طاعتها فصرّفها في كل شيء وما أريد ان افرغ من هذا الموضوع قبل ان ابيّن لكم على سبيل الاستشهاد مقدار اهتمام الافرنجة باللغة وبانتخاب الألفاظ .—

قال أناتول فرانس Anatole France في مقال له بحث فيه عن اسلوب لافونتين La Fontaine :

« كان لافونتين يولع بالكلمات ويعرف كيف ينتخبها ، ولا يكون المرء كاتباً الا اذا احسن اختياره للالفاظ ، فالكلمات هي افكار ، ولا سبيل الى الاصابة في الحكم الا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة ، واظن ان الشعب الاول في العالم انما هو الشعب الذي يملك احسن الاصول في النحو وتنسيق اللفظ ، قد يقع في اغلب الحالات ان الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيهـا ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا ، ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم يفي بدلالة كل شيء .

يحب لافونتين العبارات القديمة فاذا وقع نظره على كلمة قديمة ، جزلة المعنى استخرجها من موضعها وضمنها شعره في المقام المناسب .

كان كثيراً ما يقرأ الروايات ، وقد قرأ منها قديمها وحديثها » اه .

وقال رودس Roudès في كتابه الخطيب العصري :

« اما وقد عرفتم كيف السبيل الى استخراج المعاني من مكامنها ، والمعاني هي مادة الخطاب والركن الذي يبنى عليه ، ولولاها لما تمهدت لكم المداخل على الكلام اما وقد عرفتم ذلك كله فقد لزمكم ان تتبسطوا في استظهار المفردات حتى تتمكنوا من الافصاح عما يزدحم في صدوركم من متباين المعاني على اشكال تستعطفون بها القلوب وتجعلون للمعاني رونقاً وحياة :—

اجل فقد لزمكم ان تحفظوا من الألفاظ ما اعان عليه الامكان حتى لا ترتبكوا في الكلام فاذا فاتتكم لفظة من الألفاظ لجأتم الى غيرها واذا وردتم معنى من المعاني تيسر لكم الصدور عنه فبدلتم وعدلتم من غير ان يساوركم شيء من العجز عن ذلك .—

ومن قل حفظه للألفاظ صعبت عليه مذاهب البيان فلا يجد الى الافصاح سبيلاً ، فاذا لم يجتمع في الذهن طائفة كبيرة من الألفاظ التي تضافر على توضيح معنى من المعاني ذهب هذا المعنى من الصدور ، واذا لم تأخذوا انفسكم باستظهار الألفاظ والتعمق في الالمام بمعناها الحقيقي والمجازي ، والوقوف على ما يشاكلها ويجانسها ، وعلى ما يخالفها وينافرها ، اخفقتم ولم تظفروا بحوجائكم من البيان .—

كان الشاعر تيوفيل غوتيه يقرأ على ما يظهر صفحة من معجم لغوي في كل يوم زمن المحتمل ان بلزاك ، وبودلير ، وفلوبر ، وكلهم كتاب واقفون على اسرار اللغة بمجامعها كانوا يمعنون في هذه الكتب الضخمة (المعجمات اللغوية) التي تشتمل على عبقرية الامة وتنعكس فيها مظاهر حضارتها ، على تباينها في متعاقب الاحقاب .—

فمن الصواب على ما اعتقد ان نتقيل طرائق هؤلاء الكتاب فنقرأ في كل يوم صفحة من صفحات المعاجم اللغوية ، فان كثيراً منا يثابرون على تلاوة روايات الجرائد فلم لا نجد من يطالع صفحة من صفحات لاروس Larousse ؟

ربّ كلمة تمرّ بذهن رجل ذي مخيلة فتمثل له في ذهنه عالماً بجملته ، او حكايةً او نادرةً من نوادر التاريخ ، او منحىً من مناحي الطبيعة ، او مدينة من المدن ، او عصراً من العصور ، وليس من السآمة في شيء ان يتنقل الفكر من مبتدإ الازمان الى منتهاها ، ومن

العلل والمقدمات الى النتائج ، ومن هوميروس ، الى هوغو ، وان يجمع المرء من الألفاظ ما ينفعه في غد . —

بيد ان معرفة الألفاظ وحدها لا تكفي المرء مؤنة الابانة عن هواجس فكره على صورة تلائم ، واسلوب يناسب ، فان من الضروري ان يعرف المرء كيف يصل هذه الألفاظ بعضها ببعض وان يركب منها جملاً صحيحة ، واضحة المرمى ، يسهل على الذين يسمعونها ادراكها وفهم معانيها والسبيل الى ذلك ان يستخرج المرء من الكتب والخطب العبارات الجميلة بانسجامها وتناسقها . —

وعلى هذه الصورة تجمعون لانفسكم مجموعة تضمون اليها في كل يوم طرائف حديثة ترجعون اليها ، فيتدرب ذهنكم على أساليب البيان ، وتقفون على اتصال الألفاظ بعضها ببعض فيكون لكلامكم رقة وطلاوة . —

شفيق جبري



بسم الله الرحمن الرحيم

« وبه نستعين (١) »

قد قدمت فيما قبل هذا الجزء من هذه الأخبار عن سبب جمعي لها وأفصحت عن معنى(٢) فيها وكررت ذلك في رسالة كل جزء وان تغيرت العبارة إما تصريحاً او اشارة وأعلمت قارئها ومكرر النظر فيها انها نوع لم

---

(١) «المجمع» أرسل الينا العلامة مرجليوث عضو مجمعنا العلمي في انكلترا هذا الجزء من النشوار لننشره تباعاً في مجلتنا كما نشرنا أخاه الجزء الثامن في مجلد السنة العاشرة ثم نجرده كتاباً مستقلاً . وقد رأينا ان نبقي بعض أخطاء هذه النسخة على حاله لأن في تصحيحه وتأويله تشكيكاً وترديداً يزيدان القارئ حيرة وبلبلة ، على ان في ترك بعض الأخطاء تمثيلاً للنسخة الأصلية، وتصويراً لها في ذهن القارئ ، ودلالة على ما كانت عليه لغة التخاطب في العهد العباسي لأن كثيراً من تلك الكلمات او الاستعمالات ليس عربياً محضاً وانما هو محدث مولد ، وفي ذلك فائدة يقدرها علماء اللغة والتاريخ قدرها ، وقد يرد في هذه النسخة كلمات فيها سخف وبذاء فضلنا ان نخلي مكانها . وان نستبدل بياضاً بسوادها . هذا وقد بقي من أجزاء «كتاب النشوار» نحو ثمانية أجزاء لم يعثر عليها بعد ، فنرجو ممن عثر على شيء منها ان يهدينا اليه فيستحق شكرنا وشكر عشاق الأخبار . والمنقبين عن الآثار .

وقد وجد في طرة هذا الجزء قبل البسملة مانصه :

« الجزء الثاني من اختيار المذاكرة ،ونشوار المطالعة ، وابتكار المحاضرة ، للتنوخي »

(٢) لعله : معناي او مغزاي .

أسبق الى كتبه لانها مقصورة في الأكثر على ان نتذاكر بها لاحتوائها على ضروب من الأحاديث السابقة والسالفة في زماننا التي تُظلم عندي بان لانكتب وتضمنتْ خلطها بفنون من طريف السِيَر والحكايات وحديث الاتفاقات والمنامات وغريب الرقاوالامتحانات وأخبار ضروب الناس من اهل والمهن والصناعات والملوك والرؤساء واهل . . . . (١)
. . . . ات وغيرهم من الاخلاط والأوساط وعجيب
. . . . عاملات وتلميحها بطريف الشعر وجديد
. . . . ضمّني وإياه دهرٌ دون ان يقارب زماني زمانه واشتهر حذقه واحسانه . وشرحت العلة في ترك تبويبها واستفادة خلطها دون ترتيبها . ونبهت على الفوائد التي تتضمن وتجمع واعتذرت مع ذلك الى من لعلها لاتنفق عليه . اوتكسد وتبور لديه : بأن قلت انها على كل حال خير من مواضعها بياضاً وذكرت انها تصلح لمن قد فرغ من اكثر العلوم واشتهى قراءة ما يدله على أخلاق اهل الأزمنة وسننهم وطرائقهم وعاداتهم وان يقايس بين مانحن فيه ومامضى ليعلم كيف ماتت الدنيا وانقلبت الاهواء وانعكست الآراء . وفُقدت المكارم . وكثرت المحن والمغارم . وهلك أهل الفضل والتفضل . وتلف أهل الستر والتجمل . وصغرت الهمم . وتلاشت النعم . وفقد الجمال . وعدم النبل والجلال . في اكثر الخصال . وجمهور الرجال . وحقاً أقول لوعاش حكيم من اهل تلك الأزمنة حتى يرى ما حصلنا عليه

(١) هذا البياض موضع تمزيق مبادي السطور في النسخة الاصلية .

ودفعنا اليه ماشك في قيام الساعة . أوأن الناس بُدّلوا بهائم مهملة . اوجعلوا آلات غير مستعملة . لفقد الاحرار وشدة الاعسار . وبطول المكاسب وتواتر النوائب . وحدوث السنن القبيحة والعوائد السيئة الفضيحة . ونسأل الله العظيم فرجاً عاجلا وصلاحاً للعالم شاملا . إنه سميع مجيب رحيم ودود ذوالعرش المجيد . فعّال لما يريد . وهو تعالى حسبنا ونعم الوكيل والمعين ،

***

حدثني ابو العباس محمد بن نصر الشاهد قال كان ابو عبد الله جعفر بن القاسم الكرخي كتب الى ابي جعفر بن معدان ان يختار له وكيلاً ينظر له في ضيعته بالأهواز فاختار له عمرو بن محمد الاشجعي صاحبه فنظر في الضيعة سنة ثم ولي الكرخي الأهواز ووردها فطالب الاشجعي بالحساب فرفعه ، وتابعه كاتبه . فخرّجوا عليه فيه ستة آلاف دينار . فأمر الكرخي فلوزم الاشجعي في دهليزه وطولب بالمال ، فكتب الى ابن معدان بخبره . قال فكان رسم الكرخي ان يستدعي اباجعفر بن معدان في كل يوم الى طعامه ، فاستدعاه في ذلك اليوم فتأخر وراسله بأنه من كان صاحبه وثقته واختياره متهماً مسلطًا عليه محالات الكتّاب معتقلاً — لا يستدعى للمواكلة ، قال فامتنع الكرخي من الاكل وأنفذ اليه الأشجعيّ مع كاتب له والحساب وقال والله ما كنت بالذي ادّعي محالاً يستمر على صاحبك وماأخرج عليه الاشيئاً صحيحاً وقد يجوز ان يكون ضيع ذلك ولم يتناوله ولعمري ان من يكون اختيارك وثقتك لايخون ولم يك ملازمًا ، وانما أجلسته انتظاراً لك لتجيء فتدبر امره،

واذا كان ذلك قد شقّ عليك فمالي لك . وهذا الرجل والحساب إن شئت ان تستوفي لي ذلك او بعضه او تدعه جميعه فافعل ولا تتأخر عني فلست آكل او تجيء . قال فاطلق الاشجعي الى منزله وركب هو الى الكرخي ثم لم يعاود احدهما صاحبه في معنى الاشجعي بكلمة وفاز بالدنانير ومضت القصة على ذلك .

***

حدثني القاضي ابوبكر محمد بن عبد الرحمن بن احمد بن مروان قال حدثني خالي محمد بن هارون قال قال لي بعض أصحابنا قال كنت في بعض الليالي أنظر في كتاب التشريح لجالينوس قال فغلبتني عيني فرأيت هاتفاً يهتف بي ويقرأ « ما أشهدتهم خلقَ السموات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنتُ متخذ المضلين عضداً » فاستيقظت ومزقت الكتاب .

***

وحدثني القاضي ابو بكر قال حدثني مكرم بن بكر قال كنت في مجلس ابي حازم القاضي فتقدم رجل شيخ ومعه غلام حدث فاستدعى الشيخ عليه الف دينار عيناً ديناً فقال له ماتقول فأقرّ قال فقال للشيخ ماتشاء ؟ قال حبسه ، فقال للغلام قدسمعت فهل لك في ان تنقده البعض وتسأله الإنظار ؟ فقال لا ، فقال الشيخ إن رأى القاضي ان يحبسه قال فتفرس ابو حازم فيهما ساعة ثم قال : تلازما إلى ان أنظر بينكما في مجلس آخر ، قال فقلت لابي حازم وكانت بيننا مودة وأنسة — لِمَ أخَّر القاضي حبسه ؟ فقال ويحك إني أعرف في اكثر الأحوال في وجوه الخصوم وجه المحق من المبطل وقد

صارت لي بذلك دربة لا تكاد تخطئ ، وقد وقع لي ان سماحة هذا الغلام بالإقرار هي عن بلية وامر يبعد عن الحق وليس في ملازمتهما بطلان حق ، ولعله ان ينكشف لي من أمرهما شيء اكون في الحكم على ثقة ، اما رأيت قلة تغاضبهما في المناظرة وقلة اختلافهما وسكون جأشهما مع عظم المال ، وما جرت عادة الاحداث بفرط التورع حتى يقر مثل هذا طوعاً عجلاً بمثل هذا المال قال فبينا نحن كذلك نتحدث إذ استؤذن على ابي حازم لبعض وجوه تجار الكرخ ومياسيرهم فأذن له فدخل وسلم عليه وسبّب لكلامه فأحسن ثم قال : قد بليت بابن لي حدث يُتلف مالي في القيان والبلاء عند مُقَيِّنٍ يعرف بفلان ، وأسماه ، فاذا منعته مالي احتال بحيل تضطرني الى غرم له ، وإن عذلته عن ذلك وعددت حالي معه طال(١) ، وأقربُه اليوم انه قد نصب المقين ليطالبه بالف دينار عيناً ويجعل ذلك ديناً حالاً وبلغني انه قد تقدم الى القاضي فيطالبه فيحبس وأقعُ مع أمه في بلية وتنغيص عيش الى ان أؤدي ذلك عنه الى المقين، فاذا قبضه المقيّن حاسبه به من الجذور(٢) ، ولما سمعت ذلك بادرت الى القاضي لأشرح له الامر فيداويه بما يشكره الله تعالى عليه ، فجئت فوجدتهما على الباب . فحين سمع ابو حازم ذلك تبسم وقال لي كيف رأيت قال فقلت هذا ومثله من فضل الله عزّ وجل على مولانا القاضي وجعلت أدعو له . فقال عليَّ بالغلام والشيخ فدخلا فأرهب ابو حازم الشيخَ ووعظ

(١) يعني طال تعدادي من دون فائدة .

(٢) الجذور اجور القيان جمع جذر .

الغلام فأقرّ الشيخ ان الصورة كما بلغت القاضي وانه لاشيءُ له عليه ، واخذ الرجل بيد ابنه وانصرفا ٠

قال لي القاضي كان مكرم هـذا من فضلاء الرجال وعلمائهم وكنت أرى رجلاً يدعوه اباجدي فقلت له ماغرضك فقال ألست تعلم ان ابا الجدي هو التيس ٠

***

أنشدني ابو علي محمد بن الحسن بن المظهر الحاتمي قصيدة له في سيف الدولة وهي :

دنوّ فراق خلف الصبر نائيا ووجدمحبّ غادر الدمع جاريا
وقفت بمغني الشوق أنشد أهله فحاكى بلى جسمي هناك المغانيا
حكى نفَسي فيها صباها وأدمعي حياها واعضاي الطلول البواليا

يذكر فيها :

وكفل أرواح العداة الى الوعى حسامًا مليًا بالذي رام وافيا
ساصفحه ينبو على ان حده يبيد أعاديه ويغني المواليا
كذاالنار تهدي في الضلالة ساريًا وتحرق من عادت وتنفع صاليا
جعلت الظبى كأسًاتدير دم العدى ووقع الظُبي الالحان والحرب ساقيا
فان كان بيت المال أصبح عاطلاً لديك فقد أضحى بك المجد حاليا

***

أنشدني احمد بن عبدالله المعروف بالبحتري القاضي البغدادي لابي العلاء صاعد بن ثابت قال أنشدني لنفسه :

ثنتان من همتي ما ينقضي اسفي   عليهما ابداً من خيفة الفوت
لم احبُ منتجع الدنيا بجملتها   ولاحميت الورى من صولة الموت

فاجتمعتُ مع ابي العلاء صاعد بعد ذلك بواسط في جمادى الاولى سنة ٣٦٥ فسألته عن البيتين فقال غلط عليّ وما اخبرته انهما لي فقلت فلمن هما فقال كان ابو الحسن بن ابي داود كاتب الوقف بالبصرة حدثني باسناد ذهب عني ان ملكاً من ملوك الهند حارب ملكاً فقُتل في المعركة فألفاه بعض أصحابه طريحاً بين القتلى وفيه بقية من الروح فنزل اليه فقال هل لك من حاجة فأنشده لنفسه شعراً فُسّر ونقل فكان هذان البيتان في جملة الشعر .

***

أخبرنا ابو القاسم حسين بن محمد بن نبيل : كهل كان من اولاد الجند ببغداد فخرج الى الأهواز وأقام بها يكتب لعلي بن احمد الخراساني حاجب معز الدولة وكان اديباً سماعةً لكتب اهل الأدب وكان إماميّ المذهب قال رأيت في بيمارستان البصرة رجلاً من الكتاب محبوساً يقول الشعر فأنشدني لنفسه :

أدافع همي بالتعلل والصبر   وأمنع نفسي بالحديث عن الفكر
وارجو غداً حتى اذا جاءني غد   تزايد بي همي فيُسلمني صبري
فلا الهم يسليني ولا الغم ينقضي   ولا فرح يأتي سوى أدمع تجري
الى الله أشكو ما أُلاقي فانه   عليم باني قد تحيرت في أمري

قال وأنشدني ايضاً لنفسه :

أي شيء يكون اقبح منا ... ان نقضنا عهد الاخاء وخُنا
ان في حرمة المودّة ان نقـ ... ـضي جميعاً عن الخيانة منا
واذا ما أصابنا الدهر بالعيـ ... ـن رددناه بالتغافل عنا

قال وأنشدني لنفسه :

ما بال دمعك ابن الدمع ياعيني ... عسى اصابتك عين الدهر بالعين
اني لأجزع من فقد البكاء كما ... قد كنت اجزع قبل البين للبين

***

كان يلزم ابي بالأهواز شاعر يعرف بابي الخير صالح بن لبيب فدخل اليه يوماً وانا حاضر فأعطاه رقعة صغيرة فقرأها ابي وتبسم وامرله في الحال بدراهم وانصرف فأخذت الرقعة فاذا هي تحية وفيها :

يامن أرقّ له السماح ندى ... أضحى به الأحرار في رق
فضلاً سبقت العالمين به ... والفضل مقصور على السبق
ألزمت نفسك غير لازمها ... وعرفت لي حقين لا حقي

ودخل اليه يوماً شاعر يعرف بالهمذاني لا أعرف اسمه ولا نسبه فدفع اليه رقعة فيها :

كفى القاضي رضاي بما ارتضاه ... ولم أذمم رضاي ولا رضاه

فأمر له في الحال بجائزة سنية .

أنشدني غير واحد من الشيرازيين للامير عضد الدولة ابي شجاع بن ركن الدولة ابي علي :

بهطّة قصر عن وصفها بابدع الاوصاف بالزور(١)
كأنها في الجام مجلوة لآلئ في ماء كافور

وله ايضاً :

رأيت بساطاً للزبرجد ناضراً قد ابرز أطرافاً تعد قحافا
قحافاً من البلور ملأى وفرّغا ومجروحة منه رفعن سجافا
تحث كؤوساً للندامى كؤوسها(٢) وتترك احلام الحليم سخافا

وقال ايضاً :

نحرنا بيننا دنّا فعاد الليل اصباحا
وداجا(٣) نحره مثل الـ ـغراَبيْن اذا صاحا

. . .

حدثني ابو العلاء صاعد بن ثابت قال كتب اليّ القاضي ابو القاسم علي ابن محمد التنوخي جواب كتاب كتبته اليه :

« وصل كتابك :

فما شككت وقد جاء الرسول به أن الشباب أتاني بعد ما ذهبا »

« البقية تأتي »

---

(١) الصواب في يتيمة الدهر (٢ : ٣)
بهطّة تعجز عن وصفها يا مدعي الاوصاف بالزور
والبهطّة الأرز يطبخ باللبن والسمن خاصة بلا ماء وهي كلمة سندية كما في اللسان .
(٢) لعله سقاتها . (٣) تثنية وداج بمعنى الوَدَج وهما عرقان في العنق ينتفخان عند الغضب .

مطبوعات حديثة

—*—

أمراء الشعر العربي

— في —

« العصر العباسي »

[للاستاذ انيس المقدسي]

٤٣٦ صفحة — المطبعة الأدبية — بيروت سنة ١٩٣٢

اعتادت طائفة من الباحثين في أيامنا هذه أن يصدروا كلامهم على شاعر من الشعراء أو على كاتب من الكتاب بتصوير العصر الذي ظهر فيه هذا الشاعر أو هذا الكاتب وعلى هذه الآثار مشى الاستاذ أنيس المقدسي في كتابه المشتمل على دراسة سبعة شعراء وهم: أبو نواس وأبو العتاهية وأبو تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبيّ والمعري .—

بحث الكاتب في فاتحة كتابه عن العوامل السياسية في خلافة بني العباس وعن أطوار الحياة الاجتماعية وعن مجاري الحركة الفكرية .—

ولكن هل استطاع أن يبيّن مقدار اتصال الشعراء الذين يتكلم عليهم بالعصر الذي صوّره فقد بحث مثلاً عن تجزء دول المسلمين ثم تعرض لبيان تأثير هذا التجزء في الأدب ، فما هو هذا التأثير الذي ذكره ، ان هو الا مزاحمة حواضر الاسلام لبغداد في الأدب والعلم ، ولكن هل يكفي مجرّد ذكر هذا التأثير أفما كان من الواجب على الباحث أن يشير إلى « تطور » الادب في انحداره من بغداد إلى حواضر الأسلام وأن يوضّح خصائص الأدب في وحدة المسلمين وخصائصه في تجزء دولهم .—

وكأنه أراد أن يتمّم هذا النقص فلما بحث عن غارات الروم على أطراف الممالك

الاسلامية أشار إلى أن لحروب الروم أثراً في الأدب ظهر على شعر ابي تمام والبحتري والمتنبي ولكنه لما تكلم على هذا الأثر في شعر المتنبي اقتصر على أن يذكر أن روح الجهاد مستفيضة في كثير من مدائحه في سيف الدولة او انه رأى الجيوش في ساحة الحرب او انه شاهد الابطال ولم يكشف الغطاء عن خصائص هذه الروح فلسنا نعرف شيئاً في كتابه عن مبلغ فن المتنبي في وصف المعارك وعن لغة هذا الفن .—

وكذلك شأنه في كلامه على الحالة الاجتماعية في عصر بني العباس فقد وصف ترفهم أحسن وصف وصوّر بذخهم اتم تصوير ولكنه لما وصل الى الكلام على البحتري تعرّض لمنزلة البحتري في وصف القصر المعروف بالكامل فلم يقل كلمة واحدة في طبيعة هذا الوصف وخصائصه على ان كتابه أدبي ولم يكن تاريخاً من التواريخ فكان من الواجب عليه ان يفيض في الكلام على فن الشعراء مقدار افاضته في الكلام على العوامل السياسية او الاجتماعية او الفكرية .—

فقد اجاد في هذا الكلام وخاصة في كلامه على تطور الحياة الاجتماعية او على الجباية والمصادرة وظهرت على هذا الكلام آثار التتبع والاستقصاء ..

ولكن مباحثه الأدبية قد انحطت عن منزلة مباحثه التاريخية .—

اننا لا نزال في مباحثنا الأدبية بعيدين عن سواء السبيل فلا نعرف كيف نصوّر فنّ الشاعر وخصائص هذا الفن ولغته وطبائع هذه اللغة وهذه هي الدراسة المتكاملة .—

اما لغة الكاتب في كتابه فقد كانت سهلة في اكثر مواطنها لكن هذه السهولة قد انحدرت به في بعض المقامات الى درجة العجمة كقوله مثلاً :

الشرق الأدنى كان « تحت تأثير » الروح اليونانية

اللواتي « لعبن دوراً »

يتعصبون « ضد » ابناء الاماء

« شكّل » من فتيان الاتراك جنداً

قامت بها « هيآت » منظّمة

(شفيق جبري)



(١) كتاب النكاح والطلاق
(٢) كتاب الهبات وأحكام الوصايا والفرائض والأقضية

« ترجمة »

أحمد لايمش ، أستاذ مجلة الأحكام الشرعية في مدرسة تلمسان والمحامي في وهران .— الكتابان طبعا في الجزائر — الأول (٣١١ صفحة) سنة ١٩٢٦ والثاني (١٢٤ صفحة) سنة ١٩٢٨ .—

للامام ابن رشد كتاب : بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو يشتمل على مسائل الاحكام المتفق عليها والمختلف فيها بادلتها والتنبيه على نكت الخلاف فيها .

وقد نقل الى اللغة الفرنسية الأستاذ احمد لايمش بعض كتب من هذا الكتاب منها : كتاب النكاح وكتاب الطلاق ، ومنها : كتاب الهبات وكتاب أحكام الوصايا وكتاب الفرائض وكتاب الأقضية .—

والترجمة تدل على تمكن صاحبها من خصائص المصطلحات .—

شفيق جبري



رباعيات الخيّام

— تعريب وديع البستاني —

« مطبعة المعارف مصر »

لاتحتاج رباعيات الخيّام الى شيء من التعريف وقد كثر الذين تولوا تعريبها شعراً او نثراً وخلاصة فلسفتها ان صاحبها جاء الى هذه الدنيا اضطراراً ورحل عنها اضطراراً فلم يجد شيئاً يلهو به في هذه الحياة الا الخمر والمرأة فالدنيا عدم والآخرة عدم ، لكن هذه الفلسفة لاتخلو من هزء بعز السلطان ومن تقلب في يقين وارتياب .

اما التعريب نفسه فأحسن صفاته أنه مفهوم والكتاب قد طبع طبعاً غاية في الاتقان .—

شفيق جبري



(١) العبرات الملتهبة

(٢) على مذبح الوطنية

— بقلم —

« الياس قنصل — بيونس آيرس — ١٩٣١ »

« ديوان شعر — جزآن صغيران »

صاحب هذه النفثات شاب في مقتبل العمر خرج من وطنه سورية فاستقرت به النوى في اميركا فاضطرب قلبه فالتمس له متنفساً يتنفس منه فلم يجد غير مناجاة الطبيعة ، فتارة كان يشكو اليها حبه فتنفيض هذه المناجاة بعاطفة قلقة وشعور عاص ، وتارة كان يحن الى وطنه فينقم على الطبيعة نقمة فيها جزع الشباب .

وقصائده : على مذبح الوطنية ، تشتمل على عواطف وطنية تفصح عن رغبة صاحبها في نهضة بلاده .—

شفيق جبري



المحفوظات المختارة — والموجز في علم المنطق

من اشرف من كثب على سير اللغة العربية في هذه الآونة يغتبط حين يرى هذه اللغة المحبوبة نفضت عنها غبار الخمول ومزقت نسيج العناكب المخيم فوق غارها الذي آوت اليه بعد ان استخذي سلطانها .

لقد قيض الله لها طائفة من ابنائها المخلصين فشمروا عن ساق الجد ومهدوا لها السبيل فنشطت من عقلها واخذت تحتذي على مثال اللغات الحية وترسم خطواتهن في التقدم والتوسع .

ولا يكاد يمر حين من الدهر الا نرى فيه أسلوباً جديداً وطريقاً طريفاً وكتاباً حديثاً يسد فراغاً في خزانة اللغة الشريفة ولئن ظلت ردحاً من الزمن على مثل هذه الحالة فلا تلبث بعد قليل ان تعود الى سيرتها الاولى وتبلغ مستوى اللغات الحية .

وآخر ماانتهى الي من الكتب المخيرة للمدارس . كتب المحفوظات . وكتاب الموجز في علم المنطق .

« المحفوظات المختارة »

اربعة اجزاء الفهـا لطلبة المدارس الابتدائية الاستاذان الفاضلان السيد احمد علي عباس المفتش بوزارة المعارف المصرية والسيد عبـاس حسن المدرس بالمدارس الاميرية وقداشتملت هذه الأجزاء على قطع متخيرة من نظم ونثر من كلام البلغاء في هذا العصر وغيره في اغراض مختلفة بأُسلوب يستهوي افئدة الطلاب ويوائم مداركهم وهي مطبوعة طبعاً متقناً بحرف واضح مشتملة على صور تصبي نفوس الأحداث ويقع الجزء الأول منها في نحو ٤٩ صفحة والثاني في ٤٠ والثـالث في ٦١ والرابع في ١٠١ ولا تكاد تجد فيهـا مغمزاً الا امرين :

١ — قصر ما فيهـا من النشيد والتغني والترنم والوصف والحنين و ٠٠٠٠ على مصر دون غيرها . ومن حق العربي ان يكون له وطن عام وهو جميع البلاد التي يقطنها ابناء جلدته وان يحن اليها كما يحن الى وطنه الخاص ويتغنى بذكرها وماضيها وانجادها وامجادها كما يتغنى بمن في وطنه الخاص . حتى لا تنفصم الأواصر التي تربطه بقومه ولا ينشـأ على الجهالة بها .

٢ — لم يكن للأمثال نصيب في هذه الكتب ولا لشيء من الشعر الموثوق بعربيته على كثرة ما فيه من السهل . مع ان ذلك يكون ذخيرة للطالب يستطيع ان يطبع على غراره عند الحاجة الى ذلك .

« الموجز »

اما كتاب الموجز في علم المنطق فقد وضعه الاستاذان الفاضلان السيد محمد حسنين عبد الرزاق المدرس بمدرسة المعلمين العليا في مصر والسيد عباس حسن المدرس بمدرسة الناصرية .

واني لا ازال على ذكر من العهد الذي تعلمت فيه المنطق ولا ازالـــ اذكر ما كنت أكابده من الصعوبة واستفرغه من الجهـد في تعلمه وتفهمه . لصعوبة المنهج الذي كان المتقدمون ينهجونه .

ولقد رأيت كتاب الموجز : مهد للطالب مسلكاً جدداً جعل منه هـذا العلم علي

طرف الثام كما جعل مباحثه متسقة متناسقة آخذاً بعضها بحجز بعض كل ذلك باسلوب رشيق وترتيب انيق • ومن المفيد جداً ان يضاف الى مافيه من المباحث مباحث أخرى لا يستغني الطالب عن الالمام بها ولو قليلا •

منها : بحث اللزوم • لشدة الحاجة اليه ولذكره كثيراً عند الكلام على لزوم النتيجة للمقدمتين الصغرى والكبرى •

ومنها : التعريف بالعرض العام مع الخاصة • او مع الفصل • وبالفصل والخاصة فان الأول اقوى من التعريف بالخاصة وحدها • والثاني اقوى من التعريف بالفصل وحده • والثالث اقوى من هذا الثاني على ما حققه السيد الشريف •

ومنها : ذكر المشترك وما يقابله • فقد ذكر في ص ١٠١ عند الكلام على استعمال اللفظ الواحد في معان مختلفة • ولم يعرّف تعريفاً وافياً •

ومنها : ذكر التناقض ولو بصورة مجملة • وذكر العكس اكثر مما ذكر وقد سلك المؤلفان سبيلاً محموداً مفيداً في ذكر الاسماء والاشارة الى مايقابلها في اصطلاح المتقدمين • وذلك يسهل على الطالب فهم كتب المتقدمين عند الرجوع اليها •

ولو ذكر في مباحث (التفسير) ما يوافق او يرادف الوارد فيه • مماذكره الاصوليون في مباحث العلل • من السبر والتقسيم وتحقيق المناط وتنقيحه • او اشير الى ذلك لكانت الفائدة أجل وأجزل لأن الطالب يبقى على صلة مع المصطلحات القديمة وفهمها • وكلما أحكمت الصلات بين القديم والحديث كثرت فائدة الطالب من الكتب القديمة • وقلت المترادفات التي يشكومنها أكثر العلماء والأدباء في العصر الحاضر •

وبعد هذا فإن الموجز أفضل كتاب أخرجه هذا العصر في هذا العلم • ولعل وزارة المعارف الجليلة في الدولة السورية تقرر هذا الكتاب لمثل الصف الذي قرر له في مصر ، فتحسن إلى العلم والأمة عامة وإلى طلاب الفلسفة خاصة •

والكتاب مطبوع طبعاً جيداً مصحح منقح لا يكاد الواقف عليه يجد فيه شيئاً من الخطإ إلا قليلاً مثل قوله :

في ص ٣٠ — المصادقات • والصواب الماصدقات •

وفي ص ٤١ — حكمنا على عمر بالشجاعة ‥ وسياق القول يقتضي أن يكون حكمنا على عمر بالعدل وعلى علي بالشجاعة .

وفي ص ٦٧ — نظروا في كل ما حاطها كأشباهها . والأولى ما احاط بها .

وفي ص ٧٢ — (كلمةُ طبيعية) عربية فصيحة . والمشهور في باب النسب ان ما كان على فَعِيلة يقال فيه فَعَلِيٌّ أما ما جاء باثبات الياء كالسليقي في النسبة الى سليقة فهو شاذ لا يقاس عليه كما ذكر ذلك في شرح المفصل وغيره وفي ألفية ابن مالك وفَعَليٌّ في فَعِيلة التزم .

ومنها قوله في ص ٧٤ — من اعرف الارقام … وقوله بعده . ان يدعي لمعرفة . والظاهر أن الألف سقطت من المعرفة الى قوله اعرف .

ومنها في ص ٧٨ — بعد نضوج … والظاهر أن الواو زائدة لان مصدر هذا الحرف لم يجيء على فعول .

ومنها في ص ١٠٣ — مع بقاء السبب . والصواب السلب . ونحو هذا مما لا يمس قدر هذا الكتاب الجليل ولا يشوه نضرته ورونقه .

وانا لنسدي الشكر الجزيل لهؤلاء الأفاضل لخدمة هذه اللغة خدمة صادقة قائمة على حكمة صحيحة وعلم جم وذوق سليم .

سليم الجندي

« الخطرات »

« كتاب ادب واخلاق واجتماع بقلم وداد سكاكيني وهو يقع في ١٨٠ صفحة »
« من القطع المتوسط والحروف الكبيرة »

جمعت المؤلفة الفاضلة في هذا الكتاب مقالات دبجتها يراعتها في موضوعات مختلفة وهاك عناوين بعضها :

« الشاعر ، الأدب العربي ، تطور المرأة ، الفجر ، الأمل والموت ، ذكرى النبي ، الاخلاق والمدنية الحديثة ، الأطفال والأسرة ، الخنساء ، الثروة والعمل الخ » .

وقد نظرت الى الكتاب نظرة من يستقصي المادة في مقالاته ويتعرف الى مراعف اقلام المؤلفة ومقاطرها ويستجلي الروح التي اوحت اليها بتلك المقالات .

فاما مادة الكتاب فضعيفة وجدير بمن يكتب في الأخلاق والاجتماع ان يدرس بامعان كتب فلسفة الأخلاق وفلسفة علم النفس والاجتماع وان يقتبس منها في مقالاته حتى يتميز عن غيره بغزارة المادة . ولم اجد من حيث الأدب تلك الصور الدقيقة والافكار العميقة التي يتفاضل بها الكتاب . ويبدو ضعف المادة جليًا في المقالة التي عنوانها « الثروة والعمل » فإن هذا الموضوع المادي لايعالج بالأخيلة الشعرية .

واما لغة الكتاب لجيدة إجمالاً . ولا شك ان انشاء المؤلفة الفاضلة يفوق انشاء عدد كبير ممن يسمونهم ادباء وكتابًا . ومع هذا وجدت في ثنايا الكتاب هنات تفيد الاشارة الى بعضها كقولها في ص ٤١ « يأخذ بناصية اعجابنا ؟ » وفي ص ٥٩ « جمال الطبيعة البري » افلها جمال مجرم ام لا بد من ترجمة Innocent التي يستعملها الفرنسيون في هذا الصدد . وفي ص ٦٥ « اقبل على تلك المظاهر الجديدة كرهًا عنه » والصحيح كَرْهًا او كارهًا او مكرهًا او على تكرُّه الخ . وعدت فعل أثر بعلى في عدة مواضع (ص٨٨ و١٠٦ و١٠٧) . وهو يتعدى بفي . وفي ص ١٢٩ « كان لنبيهة نخبة راقية من الصديقات والصواحب ترتاح لحديثها وتستزيدها منه» ولعلها تريد ان تقول يرتحن لحديثها ويستزدنها منه . وفي ص ١٧٢ « فجرح رفضها هذا إباء الأمبراطور » قلت لقد ذكرتني هذه الجملة بقولهم « جرح تواضعه » ترجمة للجملة الفرنسية Blesser sa modestie وهي كلها تجرح فؤاد المطلع على بيان هذه اللغة ...

والروح التي اوحت الى المؤلفة بتلك المقالات هي روح عالية لأن صادق الوطنية وحب اللغة العربية والحث على التحلي بالأخلاق الفاضلة كلها تتجلى في تضاعيف الكتاب .

مصطفى الشهابي

كتاب الجيش العرمرم

طبع سنة (١٣٣٦ هـ) بالحرف المغربي ، مؤلفه الشيخ الوزير الكاتب ابو عبدالله محمد ابن احمد كنسوس القرشي السوسي المراكشي[1] المتوفى بمراكش سنة (١٢٩٤ هـ).

موضوعه : تاريخ دولة الاشراف العلويين الذين اعترف لهم اهل إفريقية بشرف النسب العلوي منذ عهد جدهم الشريف علي بن الحسن بن محمد بن الحسن العلوي الداخل الى المغرب في القرن السابع للهجرة وقد استقصى بيان تاريخهم لا سيما السياسي الى سنة (١٢٨٢ هـ) .

وقلما يغني عنه كتاب في ذلك لأن المؤلف واسع العلم كثير الاطلاع تقلد الكتابة والوزارة مراراً فتسنى له أن يقف على كثير من الشؤون التي تشتد حاجة التاريخ اليها .

وفي كتابه شعر كثير وترسل جميل يليق بموضوعه لو لم يتخلله شيء من السجع فيه ما فيه .

وقد ألم استطراداً بتاريخ أشهر دول الاسلام في الشرق والغرب واستهل كتابه ببحث رائق في بيان فضل التاريخ وحقيقة الإمامة والفرق بينهما وبين الخلافة والملك ، واختتمه باسهاب في صفات الملك العادل منها ما كتبه الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز . وله مصطلحات خاصة تعين على الاختصار في تعريف الاحوال التاريخية العامة كقوله في عنوان تاريخ صدر الاسلام : اللواء الاول الابيض الاكبر ، راية يزيد بن معاوية زرقاء ، راية عبد الملك بن مروان حمراء شديدة الحمرة .

والكتاب على كثرة محاسنه لم يخل مما يوجب نقده — والعصمة لله وحده — فهاجت بمؤلفه ثورة عاطفة شديدة جعلته يحمل على الامير عبد القادر الجزائري الكبير حملة منكرة بعيدة عن الحق جداً ولعل عذره في ذلك ان المفاخرة حرمان والعين لا ترى نفسها .

عبد القادر المبارك

عضو المجمع العلمي العربي

---

(١) ترجمته في كتاب فواصل الجمان في انباء وزراء وكتاب الزمان . المطبوع سنة (١٣٤٦) هـ للكاتب الأديب محمد غريط .

الحكيم ابو نصر الفارابي (1)



لا خلاف بين المؤرخين في أن اسم الفارابي (محمد) وانه ملقب (بابي نصر) وقد اختلفوا بعد ذلك في نسبه ، فمنهم من يقول هو ابو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان كما في (عيون الانباء) لابن ابي أصيبعة ، ومنهم من يقول هو ابو نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ كابن خلكان ، ومنهم من يقول هو ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان كالقفطي والبيهقي ، ومنهم من يقول هو ابو نصر محمد بن محمد بن محمد بن طرخان كابن النديم في (الفهرست) ، ومنهم من يقول : هو ابو نصر محمد بن محمد بن نصر كصاعد في (الطبقات) ويقول صاعد في موضع من كتابه أبو نصر محمد بن نصر .

فلا اتفاق على تسمية آبائه ولا على ترتيبهم ، واذا كان اسم ابيه موضع خلاف فلا غرو أن احداً من المؤرخين لم يشر الى اسم أمه ولا الى نسبها .

واكثر المترجمين للفارابي يذكرون أنه تركي لكن صاحب طبقات الأطباء يقول : (وكان ابوه قائد جيش وهو فارسي المنتسب) ولا سبيل الى تحقيق نسبه من هذه الناحية لتقارب البلادين واشتراك الأعلام فيهما ، واذا صح ان أباه كان قائد جيش فهو لم يكن من كبار القواد الذين يشيد بذكرهم التاريخ .

ولعل فيما امتاز به الفارابي من الشجاعة والصبر على احتمال متاعب الدرس ومشاق الأسفار وشظف العيش ما يشعر بانه سليل أبطال .

ولم يقف الخلاف في أمر الفارابي عند حد التضارب في نسبه فقد اختلف المؤرخون في وطنه الأول ايضاً .

---

(1) للاستاذ المحقق الشيخ مصطفى عبد الرازق من اعضاء المجمع العلمي العربي .

والفارابي منسوب الى (فاراب) ولم يشذ عن القول بذلك الا ابن النديم في الفهرست فانه يقول : أصله من الفارياب من أرض خراسان ، والا البيهقي في كتابه المخطوط في تاريخ الحكماء فانه يذكر أن الفارابي من فارياب (تركستان) لان النسبة الى فارياب هي : فاريابي . وقد ذكر معجم البلدان أسماء جماعة من الأئمة نسبوا اليها : منهم محمد بن يوسف الفاريابي .

وفاراب التي ينسب اليها فيلسوفنا وتسمى (باراب) ايضاً هي ناحية كبيرة واسعة وراء نهر جيحون (أموداريا) كذا يقول ياقوت عند الكلام على (باراب) ولكنه يقول عندذكر فاراب : « ولاية وراء نهر سيحون » (سرداريا) في تخوم بلاد الترك وهي أبعد من الشاش قريبة من بلاساغون ومقدارها في الطول والعرض أقل من يوم الا أن بها منعة وبأساً وهي ناحية سبخة لها غياض ولهم مزارع في غرب الوادي تأخذ من نهر (الشاش) والشاش هي مدينة بما وراء النهر ثم ماوراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك . ويتبين من ذلك ان لا خلاف بين عبارتي ياقوت فان (فاراب) وراء نهري جيحون وسيحون معاً ثم ان فاراب على جانبي الفرع الاكبر لنهر سيحون وهي في طرف بلاد الترك (تركستان) .

ويقول ابن حوقل الذي ظهر نحو سنة ٣٦٧ هجرية ٩٢٧ ميلادية أن على الشاطئ الغربي من سرداريا كانت توجد مدينة (وسيج) التي ولد بها الفيلسوف أبو نصر الفارابي .

والمستشرقون يعتمدون هذا القول لكن كثيرين من مؤلفي العربية كالقفطي وابن ابي أصيبعة وابن خلكان صرحوا بان الفارابي من مدينة (فاراب) وقال ابن خلكان أن هذه المدينة تسمى لعهده (أطرار) ويقول الاستاذ (بارتولد) في الفصل الذي كتبه في دائرة المعارف الاسلامية : « ان الاصطخري الذي وجد في أوائل القرن العاشر يذكر أن قصبة ولاية فاراب كانت مدينة تسمى (قدَر) في شرق نهر سرداريا على نصف فرسخ من مجراه وعلى الشاطئ الغربي من هذا النهر على فرسخين دون (قدر) توجد (وسيج) التي هي حصن صغير .

اما المقدسي الذي نبغ في أواخر القرن العاشر الميلادي فهو يذكر ان قصبة (فاراب) كانت تسمى باسم الولاية وعنده أن (قدر) مدينة حديثة النشأة .

ويرجح الاستاذ (بارتولد) أن تكون فاراب التي لم يذكرها ابن حوقل ولا

الاصطخري هي المدينة الحديثة النشأة اما (قدر) فهي المدينة القديمة و (أطرار) هي نفس مدينة (فاراب) وهي أحدث منها » .

وعلى ذلك فالراجح أن الفارابي ولد بوسيج كما ذكره ابن حوقل ونسب الى ولاية (فاراب) لا الى المدينة المسماة بهذا الاسم التي حلت محل مدينة (قدر) ثم حلت محلها (أطرار) .

ولسنا نعرف مولد الفارابي الا بالتقريب استنتاجاً مما ذكره المؤرخون في وفاته فقد ذكر ابن خلكان أنه توفي سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ — ٩٥١ م) وقد ناهز ثمانين سنة ويكون إذاً مولده حول سنة ٢٥٩ هـ ٨٧٢ — ٨٧٣ م .

ولا يعرف شيء عن طفولته وشبابه انما يقول المؤرخون : انه خرج من بلده وانتقلت به الأسفار الى ان وصل بغداد وهو يعرف اللسان التركي وعدة لغات غير العربي فتعلمه وأتقنه ثم اشتغل بعلوم الحكمة على ابي بشر متى بن يونس وهو مسيحي نسطوري معروف بين تراجمة الكتب اليونانية واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره ، وعلى الطبيب المنطقي المسيحي يوحنا بن حيلان ولم يذكر له المؤرخون أساتذة غيرهما .

واذا كنا لا نعرف التاريخ الذي خرج فيه الفارابي من بلده ولا التاريخ الذي وصل فيه الى بغداد فانا نستطيع ان نتلمس بعض هذه التواريخ استنباطاً من ثنايا كلام المترجمين للفارابي .

ويقول صاعد في « طبقات الأمم » (أخذ أي الفارابي صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان المتوفى بمدينة السلام في أيام المقتدر) والخليفة المقتدر توفي سنة ٣٢٠ هـ ٩٣٢م ويقول ابن خلكان : ان الفارابي ارتحل من بغداد الى مدينة حران وفيها يوحنا بن حيلان فأخذ عنه طرفاً من المنطق . ويؤخذ من ذلك أن يوحنا كان يشتغل بحران أولا ثم انتقل الى بغداد ومات بها قبل سنة ٣٢٠ هـ .

اما ابو بشر متى بن يونس فقد كان شيخاً كبيراً يقرأ في بغداد كتاب أرسطاطاليس في المنطق ويملي على تلامذته شرحه فحضر أبو نصر دروسه زمناً قبل انتقاله الى حران ولعلنا نستطيع أن نقدر زمن درسه ببغداد ثم اشتغاله بحران ثم انتقال أستاذه يوحنا بن حيلان الى بغداد ومقامه فيها الى أن مات بنحو عشر سنين فيكون دخول الفارابي الى

بغداد لأول مرة حوالى سنة ٣١٠ هـ ولا يكون هذا الفرض جزافًا اذا راعينـا ما ينقله ابن ابي أصيبعة من أن الفارابي كان يجتمع بأبي بكر بن السراج فيقرأ عليه صناعة النحو وابن السراج يقرأ عليه صناعة المنطق وابو بكر بن السراج توفي سنة ٣١٦ هـ فلا بد أن يكون تبادل التعلم بينه وبين الفارابي قبل وفاته بست سنين على الأقل خصوصـاً اذا روعي مالاحظه بعض زملائنا المشتغلين بدراسة تاريخ النحو من أن ابن السراج قد تأثر في مؤلفاته النحوية بأساليب المنطق وقواعده .

قد خرج الفارابي اذاً من بلده قاصداً الى بغداد حوالى سنة ٣١٠ وهو يومئذ يناهز الحسين فحضر دروس ابي بشر متى في المنطق وتعلم في اثناء ذلك العربية عن ابن السراج في مقابلة تعليمه المنطق .

والظاهر أن الفارابي حين وصل الى بغداد لم يكن جاهلاً للعربية ولا للعلوم الحكمية كما يفيده كلام المؤرخين فليس من المعقول أن الامام ابن السراج المجمع على فضله وجلالة قدره في النحو والأدب يتعلم المنطق عن ناشئ يتلقى دروسه الاولى ثم يتأثر عقله بأسلوب هذا الناشئ وتعاليمه وليس بالمعقول أن من يجهل اللغة العربية يبتدئ بتعلم ألفها وبائها عن ابن السراج . انما خرج الفارابي من بلده ليتصل بأئمة الحكمة والعلم في العراق والشام تكميلاً لما عنده من العلم والحكمة .

وقد ذكروا انه انما أخذ عن ابي بشر متى بن يونس وعن يوحنا بن حيلان علم المنطق وأخذ العربية عن ابن السراج فكيف تعلم الرياضيات وقد قالوا انه كان رياضيًا بارعًا ؟ وكيف تعلم الموسيقي وقد كان يحسنها تلحينًا وتوقيعًا حتى ليحكى كما في ابن خلكان « ان الآلة المسماة بالقانون من وضعه وهو اول من ركبها هذا التركيب . ويقول غير ابن خلكان انه وضع آلة تشبه القانون وكتابه في الموسيقى اشهر كتب الفن كما انه كان في صباه يضرب بالعود ويغني » ويقول « كاراده فو » في دائرة المعارف الاسلامية : ان دراويش المولوية لا تزال تحتفظ باغانٍ قديمة منسوبة اليه .

ثم انه كان له بالطب معرفة بل ذكر بعضهم انه مارسه عملاً ، وأنكر ذلك آخرون .

فهل تعلم كل هذه العلوم وهي لا تستغني عن موقف الا قبل مجيئه الى بغداد ؟ ؟.؟

ثم انهم ذكروا انه كان يعرف لغات كثيرة عند قدومه الى بغداد ورووا أساطير تدل

على انه كان يعرف سبعين لغة ومع مافي ذلك من الشطط فانه لايخلو من اثر الحق اذ هو بالضرورة كان يعرف التركية ولعله كان يعرف الفارسية وقد اتقن العربية وهو يتحدث في بعض كتبه عن اللغة اليونانية حديث خبير بها فهل يضطلع بعلم هذه اللغات الا الرجل العليم ؟ ؟

بعد ان قضى الفارابي وطره من دروس ابي بشر متى يتحول عن بغداد الى حران فأخذ عن يوحنا بن حيلان المنطق أيضاً ثم انه قفل راجعاً الى بغداد وكما يقول ابن خلكان وقرأ بها علوم الفلسفة وتناول جميع كتب ارسطاطاليس وتمهر في استخراج معانيها ويقال انه وجد كتاب النفس لأرسطاطاليس وعليه بخط ابي نصر الفارابي: اني قرأت هذا الكتاب مائة مرة . ونقل عنه انه كان يقول : قرأت السماع الطبيعي لارسطاطاليس الحكيم اربعين مرة وأرى اني محتاج الى معاودة قراءته . ويذكر ابن خلكان ان الفارابي الف في بغداد معظم كتبه .

ثم انتقل الفارابي الى الشام ثم توجه الى مصر وعاد الى الشام واتصل هناك بسيف الدولة ابن حمدان الذي عرف له فضله وأكرم وفادته فعاش في كنفه حتى مات .

وكلام المؤرخين مضطرب في امر هذه الانتقالات وقد أورد ابن خلكان في كتاب «الوفيات» أن ابا نصر ذكر في كتابه المرسوم بالسياسة المدنية انه ابتدأ بتأليفه في بغداد وأكمله في مصر .

وليس في كتاب السياسة المدنية المطبوع شيء من هذا .

وذكر ابن أبي أصيبعة انه ابتدأ بتأليف كتاب المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المبدلة والمدينة الضالة ببغداد وحمله الى الشام في آخر سنة ٣٣٠ هـ وتممه بدمشق في سنة ٣٣١ هـ وحرره ، ثم نظر في النسخة بعد التحرير فأثبت فيها الأبواب ، ثم سأله بعض الناس أن يجعل له فصولاً تدل على قسمة معانيه فعمل الفصول بمصر في سنة ٣٣٧ هـ .

وذكر ابن ابي أصيبعة في موضع آخر من ترجمته ما نصه : « ونقلت من خط بعض المشايخ أن ابا نصر سافر الى مصر سنة ٣٣٨ ورجع الى دمشق وتوفي بها سنة ٣٣٩ » .

والظاهر ان الفارابي رجع من بغداد الى دمشق سنة ٣٣٠ وهي السنة التي حصل فيها

وباء ببغداد وغلاء مفرط حتى اكل الناس الجيف وفيها حدثت فتنة البريدي .

وأقام بدمشق في شظف من العيش وهو على ذلك دائم الاشتغال بالحكمة ، قال ابن ابي أصيبعة نقلاً عن الآمدي : ان الفارابي كان في اول امره ناطوراً في بستان بدمشق وهو على ذلك دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها والتطلع الى آراء المتقدمين وشرح معانيها .

وكان ضعيف الحال حتى أنه كان في الليل يسهر للمطالعة والتصنيف ويستضيء بالقنديل الذي للحارس وبقي على ذلك مدة .

وملك سيف الدولة حلب سنة ٣٣٣ وبسط حمايته على العلم والأدب فقصد اليه الفارابي فآوى منه الى ركن شديد .

ثم انه عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه ......

وقد عاش منذ ذلك الحين في كنف سيف الدولة منقطعاً الى التعليم والتأليف غير منقطع عن الأسفار التي كان بها مغرماً وبلغت به أسفاره الى مصر ، ثم رجع الى الشام ولعله كان ينتقل بين حلب عاصمة الحمدانيين ودمشق التي كانت تدخل في حوزتهم تارةً وتخرج أخرى الى ان توفي بدمشق سنة ٣٣٩ وصلى عليه سيف الدولة في اربعة من خواصه أو خمسة عشر ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير .

كذلك ذكر المؤرخون وفاة ابي نصر وكلامهم يدل على انه مات بدمشق موتاً طبيعياً لكن البيهقي في كتابه المخطوط الموجود بدار الكتب المصرية المسمى « تاريخ الحكماء » روى عن موت الفارابي رواية هذا نصها :

« وقد سمعت من أستاذي رحمه الله ان ابا نصر كان يرتحل من دمشق الى عسقلان فاستقبله جماعة من اللصوص الذين يقال لهم (الفتيان ؟) فقال لهم ابو نصر خذوا مامعي من الدواب والأسلحة والثياب وأخلوا سبيلي فأبوا ذلك وهموا بقتله فلما صار ابو نصر مضطراً ترجل وحارب حتى قتل ومن معه ووقعت لهذه المصيبة في أفئدة أمراء الشام مواقع فطلبوا اللصوص ودفنوا أبا نصر وصلبوهم على جذوع عند قبره . وبعض من لم يكن له معرفة بالتواريخ يحكي ان ابا نصر قد عراه المايخوليا ومرّ على شط دجلة برجل يبيع التمر فقال له كيف تبيع التمر ؟ فأجاب الرجل بكلام غير ملائم فضربه وقال : أسألك عن الكيف وأنت تجيب عن الكم . »

ولو صحت حكاية قتل الفارابي الأشار اليها من ترجموا له ممن كان زمنهم قريباً من زمنه كأبي الحسن علي السعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ٩٥٧ م . على انا لاحظنا في ترجمة البيهقي للفارابي خلطاً تاريخياً يزعزع الثقة بها وهذه الرواية المنقولة عن قتل الفارابي يشبه ان تكون تحريفاً لما رواه المؤرخون عن مقتل ابي الطيب المتنبي الشاعر المشهور في عودته من بلاد فارس الى الشام سنة ٣٥٤ هـ .

وقد وقع للبيهقي خلط ايضاً في ترجمة الفارابي حيث نقل عن كتاب « اخلاق الحكماء » : ان الصاحب اسماعيل بن عباد بعث الى ابي نصر هدايا وصلات واستدعاه اليه وابو نصر يتعفف وينقبض ولا يقبل منه شيئاً . حتى ضرب الدهر ضرباته ووصل ابو نصر الى الري ، ودخل مجلس الصاحب متنكراً الى آخر ماذكره من رواية تشابه القصة المروية عن اتصال الفارابي بسيف الدولة .

والصاحب اسماعيل بن عباد ولد سنة ٣٢٦ فهو عند موت الفارابي كان صبياً لم يجاوز ١٣ عاماً .

اما صلاة ابن حمدان في بعض خواصه على جنازة ابي نصر التي عني المؤرخون بتسجيلها ، فهي آية مودة وتكريم من سيف الدولة لرجل اتاه الله حكمة تتعالى عن عقول العامة وقلوبهم .

هذه هي جملة حياة الفارابي مستخلصة من الحشد المضطرب في كلام من ترجموا له .

وقد عاش الفارابي عيشة الزهاد حياته كلها فلم يقتن مالاً ، ولا اتخذ صاحبة ولا ولداً وكان يستطيع أن يستمتع برفه العيش خصوصاً في شيخوخته أيام استظلاله بظل الملك الجواد سيف الدولة بن حمدان لكنه لم يكن يتناول من سيف الدولة الا اربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري العيش وهو الذي اقتصر عليها لقناعته ولو شاء زيادة لوجد مزيداً .

وروى ابن ابي أصيبعة انه كان يتغذى بماء قلوب الحملان مع الخمر الريحاني فقط — الحملان جمع حمل الذكر من ولد الضأن — قال ابن خلكان : (وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً الا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ويؤلف هناك كتبه ويتناوبه المشتغلون عليه) .

وفي مفتاح السعادة لطاش كبري زاده : وكان منفرداً بنفسه لا يكون الا عند مجتمع ماء أومشتبك رياض ويؤلف كتبه هناك وكان اكثر كتبه في الرقاع ولم يصنف في الكراريس الا قليلاً ولذلك كانت اكثر تصانيفه فصولاً وتعليقات وبعضها مبتوراً ناقصاً » ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٦٠ .

وتلك حياة فيلسوف زاهد موسيقي شاعر اما فلسفة الفارابي فستأتي اشارة اليها واما ابداعه الموسيقي فقد رويت فيه اعاجيب .

وحكى ابن خلكان : ان ابا نصر لما ورد على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأدخل عليه وهو بزي الأتراك وكان ذلك زيه دائماً فوقف فقال له سيف الدولة : اقعد فقال : حيث أنا أم حيث أنت ؟ فقال حيث انت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى الى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى اخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارهم به قل أن يعرفه أحد فقال لهم بذلك اللسان : ان هذا الشيخ قد اساء الادب واني مسائله عن اشياء ان لم يوف بها فاخرجوا به فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الامير اصبر فان الأمور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه وقال له : أتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً فعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون مايقوله فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له :

هل لك في أن تأكل ؟ فقال لا : فهل تشرب ؟ فقال : لا فهل تسمع ؟ فقال نعم فامر سيف الدولة باحضار القيان فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع الملاهي فلم يحرك احد منهم آلته الا وعابه ابو نصر وقال له اخطات فقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصناعة شيئاً ؟ فقال نعم ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج .»

ولئن كانت هذه الحكاية ادنى الى الاساطير منها الى التاريخ فهي تشبه أن تكون غلواً مجاوزاً لا اختراعاً صرفاً .

وقد روي للفارابي شعر فيه نفحة من اساليب الفلاسفة أحياناً وفيه احياناً صريخ محب للعزلة سيئ الرأي في الناس ومما روي من شعره :

يا علة الاشياء جمعاً والذي ... كانت به من فيضه المتفجر
رب السماوات الطباق ومركز ... في وسطهن من الثرى والأبحر
أني دعوتك مستجيراً مذنباً ... فاغفر خطيئة مذنب ومقصر
هذب بفيض منك رب الكل من ... كدر الطبيعة والعناصر عنصري

وروى له هذا الشعر ابن أبي أصيبعة وروى له ايضاً :

لما رأيت الزمان نكساً ... وليس في الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال ... وكل رأس به صُداع
لزمت بيتي وصنت عرضاً ... به من العزة اقتناع
أشرب مما اقتنيت راحاً ... لها على راحتي شعاع
لي من قواريرها ندامى ... ومن قراقيرها سماع
وأجتني من حديث قوم ... قد اقفرت منهم البقاع

وروى له ايضاً :

بزجاجتين قطعت عمري ... وعليهما عولت أمري
فزجاجة ملئت بحبر ... وزجاجة ملئت بخمر
فبذي أدون حكمتي ... وبذي أزيل هموم صدري

« مقدمة المجموعة المسماة — الفلسفة القديمة — المطبوعة بالمطبعة السلفية بمصر سنة ١٩١٠ » وذكر ابن خلكان : انه وجد في مجموعة ابياتاً منسوبة الى الفارابي هي :

أخي خل حيز ذي باطل ... وكن للحقائق في حيز
فما الدار دار مقام لنا ... وما المرء في الارض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على ... أقل من الكلم الموجز

وهل نحن الا خطوط وقعن على نقطة وقع مستوفز
محيط السماوات أولى بنا فماذا التنافس في مركز

وقد شك ابن خلكان في صحة هذه الابيات وذكر أنه رآها في كتاب « الخريدة » منسوبة الى شاعر من شعراء القرن السادس معاصر لصاحب الكتاب ٠

ونحن نشك في معظم هذا الشعر أن يكون للفارابي لما في أسلوبه من تكلف ينبو عنه أسلوب فيلسوفنا وطبعه ٠ ولما في معانيه من تبرم بالحياة والناس واستهتار بالشراب ٠

والفارابي انما كان يعتزل الناس ويؤثر الوحدة لما رأى أمر النفس وتقويمها اول ما يبتدئ به الانسان حتى اذا أحكم تعديلها وتقويمها ارتقى منها الى تقويم غيرها كما ذكر ذلك في كتاب « الجمع بين رأيي الحكيمين » تبريراً لتخلي افلاطون عن كثير من الأسباب الدنيوية وإيثاره تجنبها ولم يكن الفارابي ضجراً بالحياة ولا متبرماً بالناس أما الخمر فما نحسبه كان يشربها شهوة وتلهياً ، ذلك الرجل الذي كف نفسه عن شهوات الحياة ولهوها وقد يكون ضاع شعر الفارابي فيما ضاع من آثاره ٠

ولولا شك ابن خلكان شكاً وجيهاً لرجح عندنا أن يكون الفارابي هو القائل :

محيط السماوات أولى بنا فما ذا التنافس في مركز

بقي الكلام على فلسفة الفارابي ومكانه من الفلسفة الاسلامية ٠

ــ يقولون : الحكماء أربعة ــ اثنان قبل الاسلام ، وهما : أفلاطون وأرسطو ــ ٠ واثنان في الاسلام ، وهما : ابو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا ٠ وكان بين وفاة أبي نصر وولادة أبي علي حوالى ثلاثين سنة وكان أبو علي تلميذاً لتصانيف الفارابي يعترف أنه لولاها لما اهتدى الى فهم ما بعد الطبيعة ٠

وكما لقب افلاطون بالحكيم الالهي وأرسطاطاليس بالمعلم الأول لقب الفارابي بالمعلم الثاني وابن سينا بالشيخ الرئيس ٠

وآراء الناس مختلفة في تقديم الفارابي أو ابن سينا فالقفطي يقول عن الفارابي : ــ « فيلسوف المسلمين غير مدافع » ويقول ابن خلكان (وهو اكبر فلاسفة المسلمين) ٠

ولم يكن منهم من بلغ رتبته في فنونه والرئيس ابو علي بن سينا المقدم ذكره بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه) .

أما الشهرستاني فيقول عند الكلام على فلاسفة المسلمين ومنهم الفارابي: « وانما علامة القوم أبو علي الحسين بن سينا » ويقول ابن سبعين الفيلسوف الصوفي الأندلسي الذي يقال : انه انتحر بمكة شوقاً الى الاتصال بالله سنة ٦٦٩ هـ في كتاب له مخطوط مانصه نقلاً عن المجموعة التي نشرها الأستاذ « ماسينيون » :

وأما الفارابي اضطرب وخلط وتناقض وتشكك في العقل الهيولاني وزعم أن ذلك تمويه ومخرقة ثم شك في النفس الناطقة هل غمرتها الرطوبة أو حدثت بعد ، وتنوع اعتقاده في بقاء النفوس بحسب ماذكر في كتاب الأخلاق و كتاب الملة الفاضلة والسياسة المدنية وأكثر تآليفه في المنطق وعدة كتبه نحو ٧٥ كتاباً وفيها من الالهيات ٩ وهذا الرجل أفهم فلاسفة الاسلام وأذكرهم للعلوم القديمة وهو الفيلسوف فيها لا غير ومات وهو مدرك ومحقق وزال عن جميع ما ذكرته وظهر عليه الحق بالقول والعمل ولولا التطويل لذكرت ذلك مفصلاً » .

وابن سبعين هذا قد تناول بالنقد اللاذع بل بالتحقير الشنيع ابن سينا والغزالي وابن رشد ويقول الاستاذ « كارادهڤو » في ترجمته للفارابي بدائرة المعارف الاسلامية :

« ومذهب الفارابي هو مذهب الفلاسفة أعني الأفلاطونية الجديدة الاسلامية الذي بدأه من قبله الكندي ووجد في كتب ابن سينا من بعده أكمل عبارة عنه وقد يكون من الراجح أن الفارابي يخالف الكندي وابن سينا في بعض المواضع ولكن من العسير تعيين هذه المواضع ومن المناسب التحفظ بل الشك في تفسير مايتعلق بتفصيل مذهبه والواقع انا لانعرف من آثاره الا قليلاً ثم ان أسلوبه لا يخلو من غموض وفيما عرفناه من رسائله ماهو مصوغ في صورة حكم في نهاية الايجاز من غير نظام في ترتيبها ثم انه لايمكن البت عن يقين بأن مؤلفات كثيرة كمؤلفات الفارابي يتداولها تأثير أرسطو والافلاطون وأفلوطين تتجرد من التناقض على أن الفكرة التي تعتبر قاعدة لهذا المذهب وهي التوفيق بين ارسطو وافلاطون من ناحية وبين هذه الفلسفة الملفقة وبين العقيدة الاسلامية من ناحية أخرى ليست في نفسها سليمة من التضارب » .

وهذه العبارة في جملتها قد تبين بياناً صحيحاً عن مكانة كل من الكندي، والفارابي، وابن سينا، في الفلسفة الاسلامية وان كانت تفاصيلها لا تخلو من نقد. والفارابي من خير المفسرين لكتب أرسطو خصوصاً في المنطق وأثره في هذا الباب هو الذي جعله يستحق التلقيب بالمعلم الثاني إذ كان أرسطو هو الأول هذا هو رأي بعض المترجمين للفارابي، ومنهم « كاراده ڤو »

وفي كتاب « ابجد العلوم » لحسن صديق خان ما نصه :

« وفي حاشية المطالع لمولانا لطفي : ان المأمون جمع مترجمي مملكته كحنين بن اسحاق وثابت بن قره وترجموها بتراجم متخالفة مخلوطة غير مخلصة ومحررة لاتوافق ترجمة أحدهم للآخر فبقيت تلك التراجم هكذا غير محررة بل أشرف أن عفت رسومها الى زمن الحكيم الفارابي . ثم انه التمس منه ملك زمانه « المنصور بن نوح الساماني » ان يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة فأجاب الفارابي وفعل كما أراد وسمى كتابه « بالتعليم الثاني » فلذلك لقب « بالمعلم الثاني » وكان هذا في خزانة المنصور الى زمان السلطان « مسعود » من أحفاد المنصور كما هو مسوداً بخط الفارابي غير مخرج الى البياض اذ الفارابي غير ملتفت الى جمع تصانيفه وكان الغالب عليه السياحة على زي القلندرية وكانت تلك الخزانة باصفهان وتسمى « صوان الحكمة » وكان الشيخ أبوعلي ابن سينا وزيراً لمسعود وتقرب اليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم اليه خزانة الكتب فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد فيما بينها « التعليم الثاني » ولخص منه كتاب « الشفاء » ثم ان الخزانة أصابها آفة فاحترقت تلك الكتب فأتهم ابو علي بأنه أخذ من تلك الخزانة الحكمة ومصنفاته ثم أحرقها لئلا تنتشر ولا يطلع عليه فأنه بهتان وافك لأن الشيخ مقر لأخذه الحكمة من تلك الخزانة كما صرح به في بعض رسائله وأيضاً يفهم في كثير من مواضع الشفاء أنه تلخيص « التعليم الثاني » .

وفي ذلك القول خطأ تاريخي فان منصوراً بن نوح الساماني أنما ولي أمر خراسان بعد سنة ٣٤٣ ﻫ بعد موت الفارابي .

ولا ينتهي فضل الفارابي عند تفسير كتب أرسطو وتصحيح تراجمها والتمهيد بذلك للنهضة الفلسفية في الاسلام التي تكاملت من بعده بل له أيضاً أنظار مبتدعة وابحاث في

الحكمة العلمية والعملية عميقة سامية لماتتهيأ بعد للباحثين كل الوسائل لتفصيلها تفصيلاً وافياً وللفارابي كتاب في المدينة الفاضلة كما أن لأفلاطون كتاباً في الجمهورية الفاضلة .

والفارابي هو أول من عني باحصاء العلوم وترتيبها في كتابه « إحصاء العلوم » الذي نشره أحد خريجي قسم الفلسفة من كلية الآداب في سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م « عثمان أفندي أمين » ووضع له مقدمة طيبة والذي يعنى بنشره بعض المستشرقين الاسبانيين أيضاً ومن أجل ذلك يعتبر بعض الباحثين أبا نصر أول واضع في العالم لنواة دوائر المعارف .

ولئن كانت الأجيال تهتف باسم الفارابي منذ ألف عام في الشرق والغرب فانه قد استحق ذلك بما وهب من حياته لخدمة العلم والحكمة وبما ترك من أثر في تاريخ التفكير البشري وفي تاريخ المثل العليا للحياة الفاضلة .

« القاهرة » . مصطفى عبد الرازق



اصطلاحات النباتات الدنيا

—(()) —

قلت في المقالة التي عنوانها «الأسماء العربية للثمار النباتية[1] » ان الدكتور امين باشا المعلوف نشر في هذه المجلة بحثاً مستفيضاً في اصطلاحات النبات بدأه بالبزرة وأنهاه بالزهرة ولم يتعرض العالم المشار اليه للاصطلاحات المستعملة في النباتات الدنيا كالفطر والطحلب والسَمَرْخَس والأشنة وأمثالها . ولما كانت هذه الاصطلاحات مهمة وكان عددها كبيراً وكانت المعاجم الأعجمية العربية خلواً من معظمها وكان ما حوته تلك المعاجم فيه نظر رأيت من المفيد استقصاء بعضها في هذه العجالة وذكر الألفاظ العربية التي تصلح لها دون البحث عن شؤونها العلمية لأن القارئ يراها في كتب النبات .

جميع النباتات التي تناولها هذا البحث لا زهر لها فهي إذن من عديمة الأزهار . واعلاها السرخس Fougère فان له ساقاً وورقاً وجذراً ومنه الخنشار المسمى باللاتينيــة Polypodium filix mas ويليــه الطحلب ويسمونه العرماض فان له ساقاً وورقاً وهو بالفرنسية Mousse

وأدنى من ذلك الفطر Champignon والأشنة Algue فليس فيها سوق ولا ورق ولا جذور . والفطور لاخضوب فيها اما الأشنة ففيها خضوب .

وفي صف الفطور اربع رتب وهي اولاً رتبة الفطور البيضية Oomycètes وفيهــا تلك النباتات الدنيا التي تحدث العفونة على المواد العضوية المنحلة ومعظمها من فصيلة العفونة أو المتعفنات Mucorinées

ثانياً رتبة الفطور الدعامية Basidiomycètes وسماها الدكتور شرف في معجمه

(١) م ١٢ ج ٣

رتبة الفطور الاصلية وربما كانت الاولى اصلح · وهي فطور تنشأ غُبيراتها Spores على خلايا خاصة تسمى دعائم Basides · ومنهامعظم الفطور الكبيرة التي لها قبعات وترى في الحقول بعضهـا سام وبعض يؤكل · ومنهـا ايضاً التي تولد في الحبوب مرض الصدأ Puccinia graminis الخ ·

ثالثـاً رتبة الفطور الجرابية او القربية او الزقية Ascomycètes وهي التي تنشأ غبيراتها على خلايا تسمى واحدتها قربة او جراباً Asque ومنها الكمأة والفقع وهمـا من الفصيلة الكمئية ·

رابعـاً رتبة الفطور المخـاطية او الهلامية Myxomycètes وهي ابسط الفطور في تركيبها ·

وصف الأشنة هو صف النباتات الدنيا التي تعيش في المياه او في الأماكن الرطبة الهواء وتعرف بوجود الخَضوب في خلاياها خلافاً للفطور ويسميها بعضهم الأشنة وشيبة العجوز والضَّريع وسماها الدكتورشرف الفُوقَس وهي ترجمة اللفظة اليونانية وردت في مفردات ابن البيطـار مصحفة هكذا (قوفس البحري) مع ان الفوقس من اجناس هذا الصف وفي الصف المذكور اربع رتب وهي :

اولاً رتبة الأشنة الزرقاء Cyanophycées وهي الأشنة التي يكون خضوبهـا مشوباً بمادة زرقاء اللون منتشرة في جَبَلة الخلايا الأولى Protoplasme ·

ثانياً رتبة الأشنة الخضراء Chlorophycées وهي التي لا يشوب خضوبها لون آخر ·

ثالثاً رتبة الأشنة السمراء Phéophycées وهي التي يكون خضوبها مختلطاً بمادة سمراء تجعل النبات اسمر اللون · وفي هذه الرتبة الفصيلة الفوقسية Fucacées ومنهـا الفُوقَس Fucus وهي نباتات يسمونها بالفرنسية Varechs ·

رابعاً رتبة الأشنة الحمراء Rhodophycées وهي الأشنة التي يكون مع خضوبها مادة حمراء يصطبغ النبات بها ·

ويطلقون لفظة الحزاز على نباتات تنبت على لحاء الشجر وعلى الصخور والجدران يسمونها بالفرنسية Lichens وقد وردت بهذا الأسم في كتب الأتراك وسماها به الدكتورشرف

ايضاً كما اطلق عليها لفظة الأشنة وشيبة العجوز . اما الاتراك فانهم اطلقوا لفظة الأشنة على ماذكرنا دون غيره .

قلت ان الفطور والأشنة بسيطة التركيب لاتتميز فيها السوق عن الورق ولا هذه عن الجذور . وجسم النبات البسيط الذي يكون على هذا الشكل يسمى بالفرنسية Thalle (وتسمى الشعبة التي تنسب اليها تلك النباتات Thallophytes) . ولم اجد بالعربية لفظة تفيد هذا المعنى تماماً اي لفظة يمكن اطلاقها على جسم نبات بسيط لا ساق فيه ولا ورق ولا جذور . وسماه الدكتور شرف البارض . فالبارض هو اول مايطلع من النبات وهو غير التالوس المذكور لأن البارض بعد ان يكبر تتميز فيه الأعضاء المذكورة . ومع هذا لابأس من استعارة هذه اللفظة واشباهها لهذا المعنى الى ان نجد اقرب منها الى معنى التالوس الحقيقي .

وفي العربية ألفاظ كثيرة لها معنى مقارب للبارض اللغوي منها الأُسَاس وهو البقل مادام صغيراً لاتستمكن منه الراعية . ومنها السائخ من سمخ الزرع اي طلع اول طلوعه . ومنها المُقَرِّح من قرّح النبات خرجت رؤوس ورقه . ومنها النُّفطورة ج . النفاطير وهو اول نبات الوسمي . واصلحها جميعاً لما نحن في صدده المَشَرة وهي الأغصان الخضر الرطبة قبل ان تتلوّن بلون وتشتد وهي ايضاً اول النبات . قلت انها اصلح الجميع لأن لفظة Thalle الفرنسية مشتقة من Thallos اليونانية بمعنى الغصن . فيمكننا إذن ان نستعمل المَشَرة للتالوس والمشريّات للتالوفيت .

والمشرة اشكال . فاذا كانت خيوطاً متشابكة سميت بالفرنسية Mycélium وعربها الدكتور شرف بلفظة ميسيل . ورأيت انه يمكن ان نطلق عليها لفظة مشيجة نباتية .

وليس للنباتات الدنيا أزهار كما ذكرنا وهي تتكاثر بالتجزئة او بخلايا خاصة تحصل في المشرة يسمونها Spores وهي من اليونانية بمعنى البذر . فنحن اذا اسميناها بذراً او بزوراً كما في المعاجم الأجنبية العربية ومنها معجم شرف التبس الأمر على القارئ لأن البذور في المشهور حبوب ذوات الأزهار وهي بالفرنسية Graines . ولذلك كنت سميت السبور ذُبيرة ووجدت اخيراً ان العلامة بوست كان سبقني اليها . والذي دعاني الى استعمال هذه اللفظة ان للسبور شكلاً يسمونه Conidie وهو من اليونانية بمعنى الغبار .

المجلد الثاني عشر　　١٣٣٩ و ١٤٠　　الجزء ٧ و ٨

مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تموز — آب سنة ١٩٣٢ م

ربيع الاول وربيع الآخر سنة ١٣٥١ هـ

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي	في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً	
الدفع مقدماً	وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكا	

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الخامسة	الى كل سنة منها
«	٣٠٠	« السادسة الى الحادية عشرة	«
في الخارج	٦٠٠	« الاولى الى الخامسة	«
«	٣٥٠	« السادسة الى الحادية عشرة	«

والفرق بين السبور والكونيديا ان الأولى تنشأ في خلية كبيرة يسمونها Sporange اي كيس الغبيرات او وعاؤها اما الثانية فتنشأ على قمة الخيوط المشربة مباشرة فهي إذن غبيرات خارجية ٠

وللنباتات التي يتناولها مقالنا هذا طريقة أخرى للتكاثر وهي حصول بيضة من لقح خلية ذكرية لأخرى انثوية ٠ فالخلية الذكرية تسمى Anthérozoïde وقد رأيت ان اطلق عليها لفظ النطفة النباتية ٠ وهي تكون في وعاء اسمه Anthéridie وهو وعاء النطفة النباتية ٠ اما الخلية الأنثية فهي تسمى Oosphère من اليونانية Oôn بمعنى البيضة و Sphaira بمعنى الكرة ولذلك سميناها الكرة البيضية ٠ والوعاء الذي تكون فيه يدعى وعاء الكرة البيضية Oogone ٠

هذا ما رأيت ان أذكره في هذه المقالة ولعلي اتمكن من متابعة هذا البحث في فرصة أخرى ٠

وبعد نلخص الألفاظ التي مر ذكرها بما يلي :

الفطور البيضية	Oomycètes
فصيلة المتعفنات	Mucorinées
الفطور الدُعامية	Basidiomycètes
دعائم	Basides
صدأ الحبوب	Puccinia graminis
الفطور الجرابية او الزقية	Ascomycètes
الفصيلة الكمئية	Tubéracée
الفطور المخاطية او الهلامية	Myxomycètes
الأشنة	Algues
الأشنة الزرقاء	Cyanophycées
« الخضراء	Chlorophycées
« السمراء	Phéophycées
« الحمراء	Rhodophycées

الفُوقَس	Fucus
الحزاز	Lichens
الطحلب	Mousse
السَرخَس	Fougère
الخنشار	Polypodium filix mas
المَشَرة	Thalle
المَشَريات	Thallophytes
الغُبيرة	Spore
وعاء الغبيرة	Sporange
الغبيرة الخارجية	Conidie
النطفة النباتية	Anthérozoïde
وعاء النطفة النباتية	Anthéridie
الكرة البيضية	Oosphère
وعاء الكرة البيضية	Oogone

مصطفى الشهابي



كتب الادب القديمة والحديثة

– ٣ –

بعد ان انتهيت من الكلمة الأولى في زهر الآداب عثرت في جدول الأغلاط الملحق بالجزء الأول على ثلاث كلمات بين فيه صوابها فأحببت أن أعوض القراء عنها باضعافها فأعدت النظر في الجزء الأول فرأيت فيه ما يأتي :

قال في صفحة ١٠٧ — وأصاب شواكل المراد . وطبق مفاصل السداد . وقال في الذيل الشواكل جمع شاكلة وهي مابين الأذن والصدغ . والصواب وهي البياض ما بين الأذن والصدغ . وهذا بعيد عن مراد المتكلم فالأولى تفسير الشاكلة بالخاصرة لقولهم أصاب شاكلة الرمية اي خاصرتها . واصاب شاكلة الصواب . وهو يرمي برأيه الشواكل .

وفي ص ١١٧ — فليس في قوس احسان وراءها منزع . قال في الذيل منزع على وزن منبر السير الذي ينتزع به ولم أجده بهذا المعنى والذي في الاساس . رماه بالمنزع وهو السهم البعيد المرمى . وفي اللسان الذي يرمى به ابعد مايقدر عليه لتقدر به الغلوة . وفي القاموس السهم الذي ينتزع به .

وفي ذيل ص ١٢٧ — والجمام بكسر الجيم الراحة . وفي اللسان والجمام بالفتح الراحة . وفي القاموس والجمام كسحاب الراحة . وفي المصباح وجمام الفرس بالفتح لا غير راحته . وكذلك قال الفراء فمانقله عنه التاج .

وفي ذيل ص١٢٩ — الكعاب اطراف القنا . وفي كتب اللغة الكعاب جمع كعب وهو الانبوبة بين العقدتين وقيل العقدة مابين الانبوبين .

وفي ص ١٢٩ — اعز مكان في الدنا . والصواب في الدنى جمع دنيا .

وفي ص ١٣٢ — من ينحر البدر النضار لمن قرا . والصواب قرى لأنه من باب رمى كما في المصباح .

وفي ص ١٥١ — صاحت إذن بعلي . والصواب صاحب وفيها عُرْس . ضبطت بضم فسكون والصواب بكسر فسكون .

وفي ذيل ص ١٥٢ — المغفل الطيب القلب . وفي القاموس المغفل من لا فطنة له .

وفي ص ١٦٢ — بنفسج . ضبطت بكسر السين وقد ضبطه في المصباح بفتحها .

وفيها السحالة النخالة . وفي التاج والسحالة بالضم ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما اذا برد .

وفيها فسر القارح بالأغر والقارح من ذوات الحافر كالبازل من الابل .

وفي ص ١٦٣ — ابو دعبل الجمحي . والصواب ابو دهبل .

وفي ص ١٦٩ — افصح النصارى ضبط بضم الفاء . والصواب كسرها . والفتح عامي .

وفيها ريق المطر . الغزير منه وفي القاموس اوله . والريقان يصيبك من المطر يسير .

وفي ص ١٧١ — الماء المقضض . والظاهر انه المفضض .

وفيها على اعلا سماواته والصواب اعلى .

وفي ص ٧٣ — الزرافين الآلات يرفع بها الماء فترى له عليها بريقاً ولمعاناً . وفي القاموس والتاج الزرفين . حلقة للباب . او عام . ومنه درع ذات زرافين . ولم اجد من ذكر الزرافين بمعنى الآلات ولعل الاستاذ أراد الزرافات وهي المنازف التي ينزف بها الماء للزرع وما اشبهه . ولكنها غير الزرافين .

وفي ص ١٧٦ — فسر النفق بالسرداب . والنفق سرب في الارض مشتق الى موضع آخر اي له مخلص الى مكان آخر . والسرداب بناء تحت الارض للصيف فبينهما فرق واضح .

وفي ص ١٨٢ — مذق اللسان . يمزج الجد بالهزل ولم اجده بهذا المعنى وانما يقال فلان مذق اذا كان ملولاً غير مخلص .

وفي ص ١٩٦ -- كما هوى من عضاه الزبية الاسد . قال في تفسيره العضاه جمع عاضهة وهي الحية تقتل لساعتها . والصواب ان العضاه جمع عضاهة او عضهة وهو اعظم الشجر او كل ذات شوك .

واما الحية فيقال لها العاضة والعاضهة وهذه لاتجمع على فعال ولم اجد من نقل جمعهـا كذلك . وبعد كل هذا فان اصل الرواية كما هوى عن غطاء الزبية الأسد . كما رواه المبرد في الكامل .

وفي ص ١٩٨ — اشاط دمي شخص عليّ كريم . قال في تفسيره اشاط احرق . ولا معنى للاحراق هنا . بل من قولهم اشاط دمه اذا عرضه للقتل او اهدر دمه . او من اشاط دم الجزور اذا سفكه واراقه .

وفي ص ١٩٩ — من شاب شبن له المودة ضبط شبن بكسر الشين وهي من الشيب والصواب ضمها . من الشوب بمعنى المزج والخلط .

وفيها أذال ذيول الهوى . قال في تفسيره أذال أهان . ولا يلتئم هذا التفسير مع قوله : جرّ إزار الصبا فالأولى أن يقال أطال او أرخى .

وفي ص ٢٠١ — قبل ان تدرج لذاته . والصواب لداته .

وفيها عمر بن قمئة . والصواب عمرو بن قميئة .

وفي ص ٢٠٤ — حرزاً لشلو من الاعداء مشجون . وهو في ديوان ابن الرومي . حرزاً لشلو من الآفات مشحون .

وفيها فسر النون بالتمساح وهو تخصيص غريب لم أجده لغيره .

وفي ص ٢٠٥ — رقاق الثنايا عذبة المترنق . قال في تفسيره المترنق العين وتقولـ رنق النوم في عينيه خالطها وهو تفسير بعيد يقسم ابو حية النميري انه لم يرده . فالصواب ان يقال المترنق الريق المصفى من قولهم رنق الماء صفاه عن الكدر . وهذا يلتئم مع قوله :

سقتني بكأس الحب صرفاً مروقاً رقاق الثنـايا عذبة المترنق

وفي ص ٢١١ — صليل البيض تقرع . ضبط البيض بكسر الباء والصواب فتحها .

وفي ص ٢١٤ — اذا طرب الطائر المستحر . قال المستحر الحران . والصواب المغرد في السحر يقال استحر الطائر اذا غرّد في السحر واستحر الديك صاح فيه .

وفي ص ٢١٨ — مفدم بسبا الكتان ملثوم . أراد بسبائب . قال في تفسيره : السبائب جمع سبيبة وهي الحبل . والصواب ان السبيبة شقة كتان رقيقة . وبعضهم خصها بالبيضاء وبه فسر قول علقمة المتقدم .

وفي ص ٢٢٨ — ثم دعا نسعة من رقيقة · والصواب من رقيقه ·
وفي ص ٢٣٠ — فهل تستطيع · وبها يختل الوزن والصواب تسطيع ·
وفي ص ٢٤٤ — أجنينك الورد أغصان · والصواب والرواية أجنت لك الوجد ·

* * *

وقد رأيت ان اجتزيء بثلاثين كلمة فاكثر أقدمها للقراء بدلاً عن تلك ·

والآن أودع الجزء الاول وانا واثق باني أبقيت فيه لنظرة أخرى اكثر مماذكرته وأعود الى سرد ما جاء في الجزء الثاني :

قال في ص ٨٦ — اذا كان في ايحاثهم والصواب ايحاشهم ·

وفي ص ٩٠ — ذو مقلة بصرته منسية · وفي الديوان بصيرة مذهبة ·

وفي ص ٩١ — لولاء ماصح خط دائرة · وفي الديوان شكل دائرة ·

وفي ص ٩٢ — تمثال طرف بشكر الحذق مكبوح · والرواية بشكم جمع شكيمة وهي الموافقة لمكبوح ·

وفي ص ١٠٧ — فلج بقلب ضبطت بكسر الفاء · والصواب فتحها ·

وفيها · ورمى الكرى رأسي ومال به رمس · ولامعنى للرمس هنا · والظاهر انه رعس وهو هز الرأس في النوم ·

وفيها واذا له علق وحشرجة · والصواب غلق وهو ضيق الصدر وقلة الصبر وهو الملائم لحشرجة ·

وفيها · حتى دفعت به لمصرعه سوق المعيز تساق للعتر · قال في تفسيره العتر اسم نبات او شجر صغير · والصواب ان العتر هنا الذبح · ومنه العتر والعتيرة ·

وفي ص ١٠٨ — باعلى ستاهيَّ دالج · ولم أجد ستاهي فيما لدي من كتب اللغة ·

وفي ص ١١٠ — اربتك ان شطت · ضبطت بضم التاء والصواب فتحها ·

وفيها · الا ان حسياً · ضبطت بفتح الحاء والصواب الكسر ·

وفيها · متاعهم فوضى قضاً · والصواب فوضى فضاً ·

وفي ص ١١١ — قام الثقات · والصواب نام كما في الديوان والكامل ·

وفي ص ١١٣ — من قرة يصطلونا · ضبطها بضم القاف والصواب كسرها ·

وفي ص١١٦ — والله لولا الخليفة والصواب لولا رضى الخليفة وبه يستقيم وزن البيت ·
وفي ص ١١٧ — مساك السحاب · ضبطت بكسر الميم والصواب فتحها ·
وفيها اذا غدى · والصواب غدا ·
وفي ص ١١٨ — في طلا الاعناق · ضبطت بفتح الطاء والصواب في طلى بضمها ·
وفي ص ١١٩ — لهم احنة · والرواية بهم جنة ·
وفي ص ١٣٣ — أكلنا قريساً · ضبطت بضم القاف وفتح الراء · والصواب فتح الأول وكسر الثاني ·
وفي ص ١٤٥ — قد شذ هذا · والصواب شد ·
وفيها · نظل نلطم · والصواب تظل تلطم ·
وفي ص ١٥١ — ودمع العاشقة المرهاء · فسر المرهاء بالبيضاء · والصواب هي التي لا تكتحل ·
وفي ص ١٥٢ — او كعرق السآم · والصواب السام بغير مد رعاية للوزن والمعنى ·
وفي ص ١٥٥ — من برأي يعلم · والصواب برأي من يعلم ·
وفيها قد صاب آخر · والصواب ضار ·
وفي ص ١٦٣ — ولا سابح · والصواب سانح
وفي ص ١٦٧ — وان سمع العلم وعا · والصواب وعى ·
وفي ص ١٦٨ — دعا صَمرِد · والصواب صُمرَد
وفي ص ١٨٠ — فقلت الزيز مَلهية · والصواب ملهاة ·
وفي ص ١٨٣ — عقبة بن ابي سفيان · والدواب عتبة ·
وفي ص ١٩٨ — فما بالوا · والصواب يألو ·
وفي ص ١٩٩ — الحلي بضم الحاء · والصواب كسرها ·
وفي ص ٢٠٧ — عتاد بكسر العين · والصواب فتحها ·
وفي ص ٢١٤ — لمع من حَمم · والصواب حُمم بضم الحاء ·
وفي ص ٢١٧ — جبال شدورى · والصواب شرورى ·
وفي ص ٢١٨ — كحلية العروس · والصواب كحلة ·

وفيها · والسوس الآزاد · والظاهر الآزر ·

وفيها · ثمار الكنكر · والصواب الكبر ·

وفي ص ٢١٩ — ثم سما · والصواب همى ·

وفيها · احمره واصفره · بكسر الراء والصواب فتحها رعاية للقافية والاعراب ·

وفي ص ٢٢٣ · تبريح الأحباب · والصواب ترنح ·

ولنكتف بما اوردناه مما في الجزء الثاني تاركين فيه ما لا يقل عما ذكرناه خشية ان تدب السآمة الى نفس القاريء ·

* * *

وقد افتتح الجزء الثالث بمقدمة قال فيها :

اجمع رجال العلم والأدب على استحسان المنهج الذي سلكته في احياء زهر الآداب · فقد ظهر الجزء الأول والثاني ولم اسمع من احد منهم غير الثناء · وقد زادني هذا التشجيع حبًا فيما أعاني من التعب في ضبطه وتنقيحه وتفصيله وشرح مافيه من الغريب الخ ·

ومن وقف على الجزءين الثالث والرابع لا يسعه الا ان يدعو لهؤلاء المجمعين على الثناء · بان يوفقهم الله بعد اليوم حتى لا يقولوا الا الصدق ولا يثنوا الا بحق · وسيرى القاريء من الشواهد والأدلة على صحة هذا · مايغنينا عن الاطالة والاسهاب ·

فمما جاء في الجزء الثالث (في ص ١) ذات الرقم (٥) البحتري · ولو لم يكن في كفه غير نفسه · الخ · والصواب ان هذا البيت لابي تمام ·

وفي ص ٦ — الخمار بالضم ما يعتري الشارب من الألم عند فقد الشراب · والذي في لسان العرب والتاج وغيرهما · خمار الخمر ماأصابك من ألمها وصداعها وأذاها · فزيادة عند فقد الشراب غير صواب ·

وفي ص ٧ — وحملك المسن على الرياضة عمى · والصواب عناء · وفي المثل ومن العناء رياضة الهرم ·

وفيها · وبذل الانصاف · والصواب وبذلي ·

وص ٨ — بغصه · وصوابها بغضه ·

وفيها · عرصات السلطان · والصواب · مرضاة ·

وفيها · القارح هو الذي بلغ تمام القوة والجذع دون ذلك · وفي اللسان وغيره · الفرس في السنة الأولى حولي ثم جذع ثم ثني ثم رباع ثم قارح فالمناسب لسياق القول وللمعنى اللغوي ان يقال القارح المسن · والجذع دونه ·

وفي ص ٩ — بان فضل شجاع الفضل الخ · وهذا يشبه كلام الحكل · والظاهر ان يقال فان فضل شاع الفضل في الزمان واهله ·

وفيها · وتحلت للعيون · والمناسب للمقام · وتجلى للعيون ·

وفيها · بتكثير قليلها الخ والصواب ولتكثير قليلها · وايضاح مجهولها سبباً الخ ·

وفي ص ١ — ان زل السلطان اتبعت الرذيلة · والمناسب لسياق الكلام · ان رذل ·

وفيها · بملتقى طرفيها · والمناسب للمعنى والسجع · طرقها ·

وفيها · وحشية المضاع وجيرة المرتاع · والصواب وحشة · وحيرة ·

وفيها · اوتزورهم وصوابها او تزرهم كما هي الرواية ·

وفي ص ١١ — يحوي الجد · والصواب يحو الجد بحذف الياء للجزم ·

وفيها · والفى فيثها · والاقرب الى الصواب نيها أي شحمها ·

وفي ص ١٢ — فلا الاعجاز جازلة · وقال في تفسيره جازلة : اصابها الدبر · ورواية البيت خاذلة والدبر لا يكون في الاعجاز ·

وفي ص ١٣ — غناؤك به · والاولى له ·

وفي ص ١٤ — حسام جلت عنه العيون · والصواب القيون ·

وفي ص ١٥ — ابرى جورها · والصواب جوزها ·

وفيها · ومدرجة للريح غيراء · والصواب غبراء ·

وفي ص ١٦ — اعارتها المحاسن مشيها · والصواب المها · حسن مشيها ·

وفي ص ١٧ — وصراط في الشعر المستقيم نفى تيساره واوقد بالبقاع ناره · وفي العبارة ركاكة وتحريف والظاهر ان اصلها · نصب له مناره واوقد باليفاع ناره ·

وفي ص ١٩ — وسارية تزداد ارضاً · ولا معنى لها ولعل محرفة عن تزدار اوترتاد ·

وفيها · فتاة ترجيها · والصواب تزجيها ·

وفيها · وللخوط ضبطت بفتح الخاء · والصواب الضم كما في القاموس ·

وفي ص ٢١ — ومشرقة في النظم غُرّا ، ورواية البيت ، ومشرقة في النظم غَرّا ،
وفي ص ٢٢ — بالحصا ، والصواب بالحصى ،
وفي ص ٢٣ — وعصب اليمن بضم العين والصواب فتحها ،
وفي ص ٢٤ —

غدت تستجيز الدمع خوف نوى غد وغدّى قتادى عندها كل مُرقِد

هكذا اورد البيت وضبطه وهو مطلع قصيدة لابي تمام بلغ الغاية من الشهرة والجودة وصوابه ،

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كل مرقد

وفيها ، فاذرى لها الاشفاق ، والذي في ديوان ابي تمام فاجرى ،
وفيها ، تقضي زمام ، وصوابها ذمام ،
وفي ص ٢٥ — وموامي وصوابها ومواس ،
وفيها ، وقد حَنَقوا ، وصوابها حنقوا كما في المصباح والقاموس ،
وفيها ، استبطي نفقًا ، وفي الديوان استنبطي ،
وفي ص ٢٦ — من بنات الغيد وصوابها العيد
وفي ص ٢٧ — جليت جلاء الحضرمية ، وفي ديوان ابي تمام حذيت حذاء ،،
وفيها ، قد حاكها ، وفي الديوان احذاكها ،
وفيها ، يمده حسب ، وفيه : جفر ، وهو انسب ،
وفيها ، ابكار اذا نضت ، وصوابها نصت ، من نص العروس اقعدها على المنصة ،
وفيها ، قد طوقت عناباً ، والانسب طرفت ، يقال طرفت المرأة بنانها خضبت اطراف اصابعها بالحناء ،
وفي ص ٢٨ —

تطير عنها حصى الفزان من بلد كما توقد عند الجبهة الورق

وهذ البيت لايمكن فهمه على هذه الصورة ، ولعل اصله ،

تطير عنها حصى الظّرآن من بلد كما تنقد عند الجهبذ الورق

والظران جمع ظر وهو الحجر ، والجهبذ النقاد الخبير وحينئذ يصح اللفظ والمعنى ،

وفيها قول امرئ القيس :

كأن صليل المسرجين تشده

وصوابه كان صليل المرو حين تشده .

وفيها اسمى الى الافلاك . والرواية اسمو .

وفي ص ٢٩ — شُغِل المرء منظر ثم نطق

وأظن ان أصل البيت

يشغل المرء عن تغن ونطق فهو يصغي بظاهر وضمير

وفيها منعمات كأنها حافلات . وصوابها مفعمات .

وفي ص ٣٠ — ولم اعقل لمن حسابا . والرواية لم اغفل .

وفيها . فاغار ذاك على يد . قلبي . والرواية على يدي قلبي .

وفيها . كل اللباس عليها مَعْرِض حسن . صوابها مِعْرَض . وهو ثوب تجلى فيه الجارية . وكذلك قوله ومَعرِضها . صوابه مِعْرَضها .

وفي ص ٣١ — تام الصوت . صوابها ناعم .

وفي ص ٣٢ — سقى بضرب من المزن . والاحسن بصوب .

وفيها . بهوجد وعد . ووسواس ودق . والرواية وجد رعد ووسواس برق وهي أولى .

وفيها . لجزى النسيم على غلائل خده . والاولى يجرى او لجرى .

وفيها . لم يكن قبلها من الماء جرم حاض في نفسه بغير أوان

والظاهر حاصر نفسه أو حاضن نفسه لأن الماء لايحيض في نفسه .

وفيها . مارآه خائب فانثنى بغير امان . والمناسب خائف

وفي ص ٣٣ — وضروب طربه لاتضرب . وصوابها وضروب ضربته لاتضطرب .

وفيها . وقبل السماع منقهة الاسماع وأدام المدام . وصواب العبارة . وقيل . السماع متعة الاسماع وإدام المدام .

وفيها منهدة من عِتاد الملوك . والصواب مهندة من عَتاد الملوك

وفي ص ٣٤ — وحسن العهد والبغيا . والصواب والبقيا

وفيها . ولا بوردث . والصواب بوردت .

وفيها · ونتاجهها التأليف ·و صوابها ونتاجها ·

وفي ص ٣٦ — ومستنبطاً بانواره ظلم الجنان · ولااعلم كيف نستنبط الظلم بالانوار· والظاهر ان اصل الكلام · ومستنبطاً ماتواريه ظلم الجنان ·

وفيها · فكان من فرسان خيولهم وكنت عميدهم واقران نصرعليهم وانت صنديدهم · وهذه الجملة في غاية الركاكة · ولعل صوابها هكذا: وله فرسان خلق لهم وكنت عميدهم · واقران قصر عليهم و كنت صنديدهم ·

وفيها · مؤلفة مختلفة اركانها وطباعها الخ · ·

وهذه الجملة ركيكة متناقضة · وربما كان اصلها هكذا : يؤلفه مختلف انوائها ومتباين الوانها وانحائها · وتؤيده بقواها الخ ·

وفيها · فلما قادته السعادة التي ارته نسيج وحده في الاقلام الخ · والصواب قادته السعادة الى ورأيته نسيج الخ · وبهذا يلتئم اللفظ والمعنى ·

وفي ص ٣٧ — والصمامة مصلتها · والصواب والصمصامة ·

وفيها · للأيم بعثته · · وله اذا لم يجرها ·

ولعل صواب البيت

للايم نفثته · · · اذا لم يجره ·

وفي ص ٣٨ — والريح في جوفها حريق · والصواب خريق اي باردة شديدة الهبوب ·

وفيها · اي ثوبية ابتذل · والصواب اي ثوبيه ·

وفي ص ٣٩ — احدثت بعد ياعتابي · والاولى بعدي ·

وفيها · وان امير المؤمنين اعغاني معناها الخ ·

والرواية · وان امير المؤمنين اغصني مغصها الخ · وفي هذه الابيات كلها اضطراب · وهي مذكورة على وجه صحيح في لسان العرب في مادة · برد ·

وفيها ان البرامك لانجيك الجية بصنجة الدين الخ · وهذا البيت لا يكاد يفهم ·

وفيها · وانما اجتازه فاخطره ذلك الزيارة · والاولى وانما اجتازبه فأخطر تلك الزيارة ·

وفيها · فادفع مقالتهم بثانية · وسياق القول يقتضي · بثالثة ·

وفي ص ٤١ — بعد ماترأبين كان تلاق · والاولى بعدما قد ترين ·
وفيها · وادي اليها الحق فهو معينها · والأولى · امينها
وفي ص ٤٢ — مقيم بمستن الفلا والمقام يقتضي العلى ·
وفيها · اما غافر او معاتب · والظاهر او معاقب ·
وفيها · فاترك من هجرانك اليأس · والظاهر فانزل بي هجرانك الخ ·
وفيها تثوب بساق · والظاهر تنوء بباق ·
وفيها · فاقلعن عنه راميات المخالب · والصواب داميات ·
وفيها · فها انا مغض في رضاك · والاولى مقصى ·
وفيها · اشيعت مشتاقاً · والصواب واشعث مشتاق ·
وفي ص ٤٣ — قصر سوقه · والظاهر شوقه ·
وفيها · هندي الحسام المضارب · والصواب حسام على حد قول ابي خراش · حسام الحد مذروباً خشيبا ·
وفيها · لو رأتني دزى المجادة فردا · ولعل اصله اطوى المحارة وهي المكان يحار فيه · او بذي المجازة فردا ·
وفيها · بين صرحي ومغنى اعوادي · ولعل اصله بين سرجي ·
وفيها · على الخدين محول · وسياق القول يقتضي · محاول ·
وفي ص ٤٤ — ماعلى الرزح الرقائل · والصواب المراقل جمع مُرقل · والذي في الديوان · ماعلى الوسج الرواتك ·
وفيها · ظرف الصداقة · من ظرف العلاقة · والظاهر ارق من ظرف العلاقة ·
وفيها · وارا كها وعدادها · والظاهر · وعرادها وهو الغليظ من النبات ·
وفي ص ٤٥ — قالت الورد والمدامة والبد ر ضيائي ولونخدي ووجهي
والتقسيم يقتضي ان يكون رضابي بدلاً من ضيائي ·
وفيها · بجدران امسى · وصوابها بحوران ·
وفيها · اطلقت من السب · والصواب حبي الشيب ·

وفي ص ٤٦ — وله فصل الى بعض اخوانه يعتذر لك ان يعتب الخ والعبارة في غاية الركاكة والغموض ولعل اصلها وله فصل الى بعض اخوانه يعتذر اليه ·

لك ان تعتب ولشبهك ان يعذر فهب اقل الامرين الخ :

وفيها · الحزن احسن من كلامه · والصواب الحرس ·

وفيها · قصير جامع الكتابة · وصوابها باع ·

وفي ص ٤٧ — ويستنخى الصدر · والظاهر يسجي او يشجي ·

وفيها · وينقش الانقاس · والصواب ينفش اي يشعث او ينقس او يعيب ·

وفي ص ٤٨ — اللطيف فهم · وصوابها فهمهم ·

وفي ص ٤٩ — وأضاء له نور الزجاجة · صوابها الرجاحة ·

في ص ٥٠ — وشحذت مدارس الادب فواصله · وصوابها فياصله ·

وفيها · تسوء شكوكه ببيانه الخ · والظاهر يشوب الخ ·

وفي ص ٥١ — مطالعًا بيمينه · والظاهر مطاليًا ·

وفيها · كأنه وحماره تجاريا كلاً واحداً · وسياق الكلام يقتضي هكذا : كأنه وعمارة تجاذبا كلاماً واحداً ·

وفي ص ٥٢ — لماحتف صرفه · وصوابها لما خفت ·

وفي ص ٥٣ — وتلقانا شاب · وصوابها · وتلقاءنا ·

وفي ص ٥٥ — فقلت ياسادات نفسي صبراً · وصوابها قتلت · الخ ·

وفيها الاسكندي · وصوابها الاسكندري ·

وفيها الم تكن فينا وليدا · والرواية الم نربك فينا وليدا ·

وفيها · البعيث المنقري · والمعروف ان البعيث الذي هجاه جرير · مجاشعي فليتأمل ·

وفي ص ٥٦ — شجيج الغزال · وصوابها القذال ·

وفيها · ومحتفل دائر · والظاهر داثر

وفي ص ٥٧ — فما لم في الفلا والظاهر في العلى ·

وفيها · ولا لهم في الوغا وصوابها الوغى كما نص عليه أئمة اللغة ·

وفيها · ينعني القوم · والظاهر النوم ·

وفي ص ٥٨ — من لأود وصوابها من الأود ٠

وفيها ٠ ومذهب مقروض ٠ وصوابها مرفوض ٠

وفي ص ٥٩ — احق الناس باللؤم ٠ وسياق القول يقضي ان يكون ٠ باللوم ٠

وفيها ٠على الندى ٠ وصوابها على الذي ٠

وفيها ٠ اكثر صارخاً واشد معيبة ٠ ولعل الاصل واشد معتبة ٠

وفيها ٠ لماهجوتك ٠ وصوابها ولما ٠

سليم الجندي



رحلة اوليا جلبي

« في البلاد العربية »

– ٣ –

ثم رحلنا من هنا وسرنا نحو القبلة فاجتزنا قره مغرط الى ان وصلنا بعد اثنتي عشرة ساعة الى انطاكية (١) .

(١) قره مغرط قرية صغيرة في اسفل قلعة بغراس وشرقيها كان في جوارها خان قديم دثر في العهد الاخير ونقضت احجاره بعد ان كان عامراً وصالحاً لايواء القوافل والمسافرين . وقد فات الچلبي ان يصف مايراه السائح على هذه الطريق التي عبدت من عهد قريب وطولها من طوب بوغاز الى انطاكية ثلاثون كيلو متراً . وهي تسير محاذية لسفوح الجبل الاحمر التي يتركها السائح على يمينه ويرى على يساره سهل العمق الفسيح وبحيرة انطاكية الزرقاء والمستنقعات الواسعة الممتدة حولها . وهو بعد مغادرة الطريق الصاعدة غرباً الى قره مغرط وقلعة بغراس التي ترى عن بعد يمر حذاء ضيعة تدعى بغلامة تعد فرضة على شاطئ المستنقعات المتصلة بالبحيرة وفيها القوارب الرفيعة التي تغدو وتروح في هذه المياه وفي المسالك المنشقة بين قصب الآجام يركبها الصيادون الذين يغدون في الربيع لقنص الاوز والبط ودجاج الماء والشقب وغيرها من الطيور المائية واسرابها تفوق الحصر وثمة الثعالب والخنازير البرية وكلاب الماء ايضاً . ثم تجتاز الطريق وادياً عريضاً حافلاً بالبساتين فيه قريتا بدركة العرب وبدركة الشركس ثم قريتا ياقاري وسردلي وهنا يرى السائح في الافق الجنوبي جبل القصير وجبل الاقرع الشامخ كالهرم فوق البحر الى علو ١٧٥٩ متراً وبعد اجتياز قرية عواقية التي اتخذت قاعدة لناحية قره مغرط يودع المستنقعات ويدخل الارضين المحروثة والمزروعة من سهل العمق فيرى على يساره مخرج البحيرة الضيق يمتد من

الشمال الى الجنوب ويجري ماءه متثاقلاً ببطء زائد وهو يلتوي كالافعى الى ان يلاقي العاصي.وماء المخرج اصفر اللون لزج مملوء بالحنكليس الذي يصطاد بكثرة ويملح ويصدر الى البلاد.وهنا يشاهد عن بعد في الأفق الجنوبي جبل حبيب النجار او سيلبيوس المشرف على انطاكية وفي الافق الغربي جبل موسى معقل أرمن هذه الديار (١٧٠٠ متر) ثم يسير محاذياً لنهر العاصي الذي يحرف عند جسر الحديد من الشرق الى الغرب متجهاً نحو انطاكية فالسويدية.اما سهل العمق فقد قال الكولونل جاكو مؤلف كتاب انطاكية ماخلاصته: تبلغ مساحته ١٦٠٠٠٠ هكتار منها ٣٠٠٠٠ مما لا يمكن استغلاله يدخل فيه ٢٢٠٠٠ للمستنقعات و ٩ — ١٠ آلاف لبحيرة انطاكية . ويصب في هذا السهل ثلاثة انهر تأتيه من جبال عينتاب واللكام وجبل الكرد وهي عفرين ويغرا والنهر الاسود وثمة نهير يدعى البراك ينحدر من الجبل الاعلى . وجل صخور العمق طباشيرية واراضيه طينية كلسية الا في قليل من المواضع تكون صلصالية والصخور بازالتية (حرّى).وكمية امطاره لا تزيد في السنة على الخمسمائة ميليمتر وهواؤه وبيل ووطأة الحر فيه اشد منها في الساحل وتفوح من مستنقعاته رائحة تعافها الانفس تنشأ من تفسخ نباتات الآجام وتنتشر فيه سحب قاتمة من اسراب البعوض هي علة الوبالة (حمى البرداء) التي تفتك في اهله . وسبب وجود هذه المستنقعات كون ماء البحيرة لا يندفع بسهولة في المجرى الخارج منها الى العاصي حيث الميل لا يزيد في الكيلومتر عن عشرة سنتيمترات وثمة سكور اقامتها اهل شطوط البحيرة لاصطياد السمك لاسيما الحنكليس والسأور يدعونها داليان هي ايضاً من العثرات الواقفة في وجه الماء . ويقال ان مستنقعات العمق كانت قديماً اقل سعة مما هي عليه الآن ويعزى ازديادها الى الفتك بحراج جبل اللكام مما ادى الى انهيار التربة من سفحه وسيرها مدفوعة بالسيول الجارفة نحو السهل فرسبت في طريق انهره الثلاثة وتبسطت ولم يبق ثمة انحدار كاف لجريان الماء بسهولة فحدثت المستنقعات ومازالت تكثر بمرور الاعصر والاستمرار على تجريد الجبال من اشجارها حتى بلغت سعتها الحاضرة . ولو تسنى تجفيفها لطاب المناخ وامكن استغلال هذه المساحة الشاسعة بمختلف الزروع كالقطن وقصب السكر والأرز وغيرها . ويرى العارفون ان التجفيف يكون بازالة السكور التي وضعها الصيادون وبكري قاع البحيرة ومجرى العاصي

حتى انطاكية وتعميقها ليسهل جريان الماء وبفتح أخاديد واسعة تحصر فيها مياه الأنهر الثلاثة وغيرها من الينابيع الواردة الى العمق لتسيل فيها كما ينبغي . وجل أهل العمق عرب يسودهم نفر من سراة التركمان المنتسبين لآل مرسل وبعض الملاكين من الارمن وثمة بضع مئات من مهاجري الشركس في قرى الريحانية وبني شهر وضواحيها جاؤا منذ نصف قرن في زهاء مائتي بيت من مهاجري الارمن اختطت لهم السلطة الفرنسية منذ عهد قريب قرى في المرعى العسكري وغيره اه .

قلت ويرى السائر الى انطاكيــة مستنقعات العمق وآجام القصب والاسل المنتشرة والباسقة فيه يتخللها كثير من القرى الصغيرة مما لا يمكن الوصول الى معظمها في زمن الفيضان الا بقوارب خاصة وبيوتها أخصاص من القصب المطلي بخثي البقر الجاف مكتظ بعضها ببعض بين الأوحال والادغال . وأهلها صفر الوجوه هزلى من وبال المرتع لكنهم مرزوقون في الجملة فهم يقلعون عرق السوس ويستدرون البان الجواميس ويبقى لهم قدر غير يسير من الغلة بعد اقتطاع مايصيب أصحاب القرى . والزروع الشتوية والصيفية في العمق تربو وتبسق كثيراً لزكاء تربته وهو على علاّته مابرح منذ القديم ملجأ المعوزين من سكان الجبال والبقاع الممتدة بين ضواحي حلب الى شرقي اللاذقية يفدون اليه أفواجاً في السنين التي يصيبهم المحل كعامنا هذا (١٣٥) فيؤجرون من العمل في مزارعه الخصبة ويقتاتون ويمتارون بفضلات حصائده وأعشابه ثم يرجعون .

وللعمق وبطائحه ذكريات عديدة في تاريخ أمم الشرق والغرب التي استولت او جاءت تستولي على انطاكية عاصمة شمالي الشام وعروس مدنها في العصور القديمة . فالأشوريون والحثيون والفرس واليونان والرومان والمسلمون والصليبيون والمصريون بقيادة ابراهيم باشا مروا من هذا السهل ذي المكانة الحربية الكبرى أوتطاحنوا فيــه بمعارك دامية . عرفه من ملوك المسلمين ابن طولون في حروبه مع سيما الطويل صاحب انطاكية سنة ٢٦٤ كما ذكرناه في بحث بغراس ووصف المتنبي مجاري العمق ووحوله فـي احدى قصائده يمدح بهـا سيف الدولة لما عزم على السفر من انطاكية الى حلب في ايام شديدة الامطار فـي سنة ٣٥٥ وكان أوقع في العمق باهل انطاكية الذين عصوا عليه قال :

وما أخشى نبوّك عن طريق | وسيف الدولة الماضي الصقيل
وكل شواة غطريف تمنى | لسيرك ان مفرقها السبيل
ومثل العمق مملوء دماء | مشت بك في مجاريه الخيول
اذا اعتاد الفتى خوض المنايا | فاهون ما يمرّ به الوحول

وعرفه منجوتكين قائد جيش الفاطميين الذي اوقع بجيش ميخائيل البرجي نائب قيصر الروم في انطاكية وذلك في سنة ٣٨٤ وتعرف بوقعة المخاضة . وحصلت فيه بين نور الدين الشهيد وصليبيي انطاكية حروب كثيرة اخصها المصاف الذي كان في سنة ٥٤٣ في ارض يغرا من العمق فانهزم الفرنج وقتل منهم واسر جماعة كثيرة هذا عدا ما جرى لنورالدين حول قلاع حارم وارتاح وعم وعما جرى لصلاح الدين الايوبي وللظاهر بيبرس حول دربساك وبغراس وكلها من قلاع العمق المخصصة لحفظ انطاكية . اما حصن ارتاح الذي عده ياقوت من امنع الحصون في العواصم فقد دثر ولم يبق من رسمه الا اسمه واحدث في جواره قرية تدعى الآن « ريحانية » وكذلك الامر في عم التي ضاع رسمها واسمها وصار في مكانها قرية تدعى « بني شهر » ويسكن هاتين القريتين مهاجرو الشركس وفيهما ينابيع سارية ورباع مروية خصبة يزرعون فيها انواع البقول التي تحصل باكراً وتصدر الى حلب . قال ياقوت : عم بكسر اوله وتشديد ثانيه قرية غناء ذات عيون جارية واشجار متدانية بين حلب وانطاكية وكل من بها نصارى وقد نسب اليها قديماً قوم من أهل العلم والحديث قال ابن بطلان في رسالته التي كتبها في سنة ٥٤٠ الى ابن الصابي: وخرجنا من حلب الى انطاكية فبتنا في بلدة الروم تعرف بعم فيها عيون جارية يصاد فيها السمك ويدور عليها رحى وفيها مشارير للخنازير ومباح النساء والزنا والخمور امر عظيم وفيها اربع كنائس وجامع يؤذن فيه سراً اه . وقلعة حارم لاتزال رابضة باطلالها الدارسة فوق تلها المشرف على بلدة حارم التي اصبحت مركز قضاء وفيها عدد غير يسير من الدور والابنية الرسمية والحوانيت قال ابوالفداء : حارم بلدة صغيرة ذات قلعة وأشجار وأعين ونهر صغير . قال ابن سعيد هو حصن كثير الارزاق وقد خص بالرمان الذي يظهر باطنه من ظاهره مع عدم العجم وكثرة المياه . وقال عن دربساك : من جند قنسرين ذات قلعة مرتفعة ولها

ذكر أوليا جلبي نبذة من تاريخ انطاكية قبل الاسلام وبعده ونوه بفتحها على يد السلطان سليم العثماني عقيب معركة مرج دابق ثم قال ما خلاصته (١) : وعين السلطان اذ ذاك محمد باشا البيقلي واليًا على انطاكية

اعين وبساتين وهي خصبة ولها مسجد جامع ومنبر ولها من شرقيها مروج متسعة حسنة كثيرة العشب يمر فيها النهر الأسود وهي عن بغراس في الشمال بميلة الى الشرق وبينهما نحو عشرة اميال وفي شرقي دربساك يغرا وهي قرية اهلها نصارى صيادون يصيدون السمك وهي على بعد مرحلة من دربساك اه . قلت ويظن ان يغرا هي الآن قرية قالا التي اختص اهلها بصيد السلّور في بحيرة يغرا وهذه تدعى الآن كولباشي وهي الى الشمال من جسر مراد باشا على طريق حلب — قرق خان . وقد مر ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ بالعمق بعد ان غادر حصن بغراس وقال عنها « حصن بغراس حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الى بلاد سيس وهي بلاد الأرمن وامير هذا الحصن صارم الدين ابن الشيباني ولقد لقيت هذا الامير ومعه قاضي بغراس بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية وتيزين وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته » . وقال شيخ الربوة شمس الدين محمد الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر : ومن الثغور الساحلية الجبلية دركوش ودربساك وبغراس وحجر شغلان والاسكندرونة وقصير انطاكية ويغرا ولها بحيرة حلوة من النهر الاسود بينها وبين بغراس اه .

(١) قال ياقوت في معجم البلدان يصف انطاكية في القرن السابع : ولم تزل انطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية وهي من اعيان البلاد وامهاتها موصوفة بالنزهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير . وقال ثم لم تزل بعد ان فتحها ابو عبيدة بن الجراح في ايدي المسلمين وثغراً من ثغورهم الى ان ملكها الروم في سنة ٣٥٩ بعد ان ملكوا الثغور المصيصة وطرسوس وآذنة واستمرت في ايديهم الى ان استنقذها منهم سليمان بن قتلمش السلجوقي احد ملوك آل سلجوق في سنة ٤٧٧ فاستقام امرها وبقيت في ايدي المسلمين الى ان ملكها الافرنج بعد حصار شديد وطويل من واليها باغيسيان

ورامي علي افندي قاضياً وهي لاتزال بيدالعثمانيين فيها نائب ومحتسب ونقيب الاشراف وقاضي وكتخدا جند وسردار انكشارية ودزدار قلعة وفيها جنود وعتاد وعشرون مدفعاً بين كبير وصغير . وسور انطاكية مبني على خمسة

التركي على اثر خيانة احد قواده المسمى فيروز الارمني وذلك في سنة ٤٩١ . قلت وبقوا فيها الى ان افتتحها الملك الظاهر بيبرس عنوةً في سنة ٦٦٨ .

وقال ابو الفداء في القرن الثامن : « انطاكية قاعدة العواصم بلدة كبيرة ذات اعين وسور عظيم داخله خمسة اجبل وقلعة يمر بظاهرها نهر العاصي والنهر الاسود مجموعين وبها قبر حبيب النجار . قال ابن حوقل : انطاكية انزه بلدالشام بعد دمشق عليها سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها ويجري مياههم في دورهم وسككهم ومسجد جامعهم ولها ضياع وقرى ونواح خصيبة جداً . قال في العزيزي ومساحة دور السور اثنا عشر ميلاً » .

وقال شيخ الربوة في القرن الثامن ايضاً : انطاكية قصبة السواحل وكانت احدى كراسي الروم وتسميها الروم تعظيماً لها مدينة الله كما تسمى الارض المقدسة وانطاكية من المدن القديمة ويحيط بها سور كبير يحيط على اربع جبال وشماري ولها بساتين وحبيب النجار منها وله قصة في سورة يس في القرآن الحكيم في قوله تعالى : ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين . ولها فرضة تسمى السويدية عند الساحل عند مصب العاصي في البحر اه .

ومر ابن بطوطة بانطاكية في ذلك القرن في سنة ٧٢٥ هـ فقال عنها : مدينة عظيمة أصلية وكان عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها ، وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه وبخارجها نهر العاصي وبها قبر حبيب النجار وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر اه .

ومما ذكره الكولونل جاكو مؤلف كتاب انطاكية المطبوع في سنة ١٩٣١ ان عدد سكان انطاكية في يومنا هذا ٣٥٠٠٠ اكثرهم من المسلمين السنيين الترك والنصيرية العرب وأقلهم من المسيحيين العرب المنتسبين لطوائف مختلفة وفيها كثير من الفنادق الجميلة والمقاهي والنوادي والمصارف والمدارس والجوامع (اكبرها الجامع الكبير وجامع حبيب

جبال ونصف قلعتها في منحدرات تلك الجبال ونصفها الثاني في سفوحها وقرب نهر العاصي . ومحيط هذا السور اثنا عشر ميلاً . وفي الحق انني لم أر حتى الآن أسواراً وأبراجاً عالية مثلما رأيت في انطاكية . وربما بلغ علو السور

النجار) والكنائس ومتحف أثري في دار الحكومة وانها اكثر ما تصدر الصابون ثم فيالج الحرير والسمك والصوف والحبوب وزيت الزيتون والقطن والقطران وزيت الغار والجلود والفواكه الطيبة وغيرها . وفيها صناعات غزل الحرير وعمل الصابون والدباغة ونسج الاقمشة الحريرية والقطنية والطنافس وتجارة الامشاط وتجارة الاثاث المعمولة من خشب الجوز وتجارة النقود والعاديات وان جسامة انطاكية في يومنا لاتزيد عن عشر ما كانت عليه في العصور الغابرة وان من أكبر أسباب انحطاطها بعد الزلازل الهائلة التي انتابتها مراراً هو تخريب الملك الظاهر ميناء السويدية . وقد كانت انطاكية بفضل هذه الميناء مركزاً تجارياً عظيماً بين ممالك البحر المتوسط والاقطار الشرقية اه . ومما قاله مونمارشة في وصف انطاكية : يمكن للسائح ان يتملى برؤية هذه البلدة الجميلة اذا وقف فوق التل المتخذ مقبرة للمسلمين وهو في شمالي البلدة على يمين العاصي وقد كان عليه فيما مضى حصن بناه كودفروا فمنه يرى دور انطاكية المبنية على الطراز التركي وقد علتها اسطحة مائلة مغطاة بالقرميد ويرى العاصي وقد عرض وضخم اكثر مما كان في حماة وعليه هنا ايضاً نواعير تدور بنغمات لا تخلو من اللطافة وتحيط بانطاكية كلها رياض تزيدها نضرةً وحبوراً . قد نورت انطاكية حديثاً بالكهرباء وسيأتون اليها بمياه الشرب من شلالات دفنة الشهيرة كما كانت في العصور الغابرة اه .

ومما قاله الشيخ كامل الغزي مؤلف نهر الذهب في تاريخ حلب عن اهل انطاكية : الجمال غالب في نسائهم وقد اشتدت في وجهائهم واعيانهم محبة الجاه والتقرب الى الحكومة يزاحمون بعضهم في ذلك ليتمكنوا من اخضاع مزارعيهم ويصونوا حقوقهم وغلاتهم منه ومن غيره من ارباب الصولة في البر . ويعد من مساوئ انطاكية كثرة الامطار والرعود والصواعق والزلازل وفي الصيف انحباس النسيم عنها في بعض الليالي وكثرة الرطوبة وقال مما انفردت به انطاكية من الفواكه المشمش العجمي المعروف

الراكب على الجبال في الجهة الشرقيــة نحو ثمانين ذراعاً · اما السور القريب من نهر العاصي فواطئ ولا يعلو اكثر من عشــرين ذراعاً كما انه غير ضخم واذا دخلت من بابي حلب ودمشق وصعدت ترى أمامك ابراجاً وباشورات

بشكرباره والدراقن والسفرجل والبني دنيا وقصب السكر والبرتقال والليمون وانواع البطيخ الاصفر والعنب والرمان وحب الآس والعناب وانفردت ايضاً بلبن الجاموس وما يعمل منه كالزبدة والجبن فهما مما لانظير له في غيرها وانفردت بتبغها وفليفلتهــا الحمراء وصابونها الجيد اه · قلت واللغتان التركية والعربية شائعتان على السواء في انطــاكية يتكلم الاولى المسلمون السنيون والثانيــة النصيرية والمسيحيون على ان كلا الطرفين يفقه لغة الآخر والترك والمسيحيون في رغد من العيش والرفه العصريين ومنهم كثير من المتعلمين · هذا وفي الجنوب الغربي من انطاكية على مقربة منها قرية تدعى الحربية فيها شلالات دفنة الشهيرة تنحدر من عل نحو واد سحيق وتدير عدة طواحين تدعى طواحين بيت الماء ولهــا خرير ورغو زائدين بين اشجار الدلب والدفلى والاعشاب الخضراء مما يبهج السمع والبصر عدا عما هنالك من المناظر الرائعة والحدائق الغناء والآثار القديمة الباقية من عهد الرومانيين الذين اتخذوا هذا المكان محلاً للقصف والنزهة · وثمة شرقي دفنة وفي الهضاب الوعرة المطلة على صوفيلر احدى قرى كورة القصير التي سيأتي ذكرهــا شعاب تصل الى حصن القصير كان من معاقل الصليبيين المخصصة لحراسة انطــاكية من الجنوب وهو مبني فوق رابية منفردة تحيط به وهاد سحيقة وخندق ولا يزال بعض ابراجه وأسواره قائماً مر به ابن بطوطة واستحسنه وذكر اسم اميره وقاضيه · وفي غربي انطاكية على ساحل البحر بالقرب من مصب العاصي السويدية وهي قرية جميلة كبيرة اهلها نصيرية وروم وعلى مقربة منها خرائب سلوقية يزورها السواح لامتاع النظر في اطلالها العجيبة وقنواتها الفخمة الممتدة تحت الارض وقد كانت سلوقية فيما مضى فرضة انطاكية ومن اعظم موانئ الساحل الشامي وظلت في زهوها الى ان ردم الملك الظاهر بيبرس ميناءها بعد استخلاص انطاكية من ايدي الصليبيين حذراً من ان يعودوا فأفل نجمها من ذلك الحين ·

يعلو بعضها فوق بعض · اما الاحجار التي بنيت منها هذه القلعة فهي جد ضخمة وقد ركبت والصقت بمهارة كلية · وعلو باب حلب المتجه الى الشمال نحو عشرين ذراعاً (١) وكان ينبجس من الصخور التي في داخله مياه فوارة · وفي غربي هذا الباب جسر عظيم يعبر منه فوق العاصي · ولوفرة علو الجبال المحيطة بانطاكية وارتفاع الاسوار الراكبة عليها لاتنتشر الشمس على هذه البلدة الا بعد ساعتين من طلوعها ·

وفي انطاكية ثمانية قصور عظيمة اهمها قصر كتفاج باشا فيه كثير من الابهاء والغرف العديدة المزخرفة وبابه من الحديد · واكثر دور انطاكية المخمة واقعة على العاصي · وفيها من الاولياء حبيب النجار الذين يزعمون انه كان من حواريي السيد المسيح وبعد قتله حفظ رأسه في تكية يزورها ويتبرك بها المسلمون والنصارى على السواء · وفي انطاكية مدارس للعلوم الشرعية وكتاتيب للصبيان · وفيها تكية لحبيب النجار يهبط اليها بدرج ملئت بالدراويش وأخرى في اعلى الجبل في مكان عال مشرف يوصل اليه في خلال ساعة · وفيها حمامات تأتي مياهها من العاصي بالنواعير وفيها خانات وأسواق وحوانيت عديدة · ومياه هذه البلدة غزيرة تنحدر من الجبال العالية المحيطة بها لذلك ترى سبلها وينابيعها كثيرة كما ان الفاكهة تجود وتغزر

(١) هدم هذا الباب في الزلزلة التي حدثت عام ١٢٩٠ ﻫ اما الاسوار والابراج التي ذكرها اوليا چلبي فقد كانت باقية في الجملة على النحو الذي وصفها به الى ان جاء ابراهيم باشا المصري وافتتح انطاكية فنقض احجار الاسوار والابراج وبنى بها عام ١٢٤٧ ثكنة عظيمة لجيشه فلم يبق منها الآن الا آثار ضئيلة ·

أصنافها في البساتين التي تروى من النواعير الراكبة على نهر العاصي . هذا وبعد ان انتهينا من زيارة انطاكية عزمنا على السفر في صبيحة اليوم الاول من شوال سنة ١٠٥٨ وبعد ان أدينا صلاة العيد في جامع السوق ضرب نفير الرحيل في قافلتنا فغادرنا انطاكية متجهين نحو القبلة وبعد ان اجتزنا كثيراً من القرى العامرة نزلنا بعد ثماني ساعات في قرية الزنبقية على شاطئ العاصي (١)

(١) يظهر ان قافلة الجلبي اختارت الطريق الصاعدة في عقبات القصير بضم القاف وشعابه وطوله ثلاثون كيلومتراً لم يتم تعبيدها بعد وفيها قرى عامرة كما قال وهذا الطريق ممر القوافل منذ القديم فقد سلكها الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ حينما مر بحصن القصير ثم بحصن الشغر بكاس . والقصير كورة جبلية خضراء يحدها من الشمال والشرق وادي العاصي ومن الغرب البحر ومن الجنوب ينابيع نهر الكبير الشمالي وهي تشمل الآن ناحية الحربية والنواحي الثلاث القصير الفوقاني والوسطاني والتحتاني وناحية الاردو وكسب . وهذه النواحي الست تتبع قضاء انطاكية وثمة ناحية دركوش تتبع جسر الشغر وفيها سلسلتان من الجبال ممتدتان من الشمال الى الجنوب تتصل بها فروع واعضاد كثيرة تجعل هذه الكورة ذات حزون ونجود متموجة يتراوح علوها من ٧٠٠ الى ١٠٠٠ متر في الاكثر وفيها نهران يصبان في العاصي الاول نهر الابيض يخرج من هضاب الاردو مياهه عذبة والثاني نهر البواردة يخرج من قرب قلعة القصير ويصب في الشمال جنوبي جسر الحديد . وهي في الغرب في جهات الاردو وكسب مزدانة بمختلف الحراج الجميلة أخص اشجارها الصنوبر الحلبي واللبنة والبلوط اما في الشرق فهي خالية من ذلك ولكن اوديتها ومنحدراتها مغروسة بمختلف الاشجار المثمرة لاسيما الزيتون يأتي بعده التوت واللوز والتين والمشمش وفي منخفضاتها الرطبة الحور والدلب والصفصاف والدفلي . وهذه الكورة كثيرة الغلال وافرة الخيرات تتوالى على سكانها المواسم واجل موسم فيها الزيتون وبه يدر زيته الجيد الى انطاكية وصنع الصابون ثم يأتي بعده الحرير والبطيخ والتين والعنب والجبن والسمن والحنطة القصيرية مشهورة في هذه الربوع ومفضلة على غيرها وطيور الصيد ودوابه

وهذه القرية واقعة في واد خصب له كروم وحدائق ذات بهجة وفيهـا نحو ثلاثمائة بيت . وقد اشتهرت بجودة تينها وجمال زنبقها . وهنا أقام علي باشا

كثيرة . ويبلغ سكان هذه الكورة في النواحي التي عددناها زهاء ٤٠٠٠٠ معظمهم من التركمان السنيين ويأتي بعدهم العرب السنيون ثم النصيرية وثمة قرى للأرمن واخرى للروم وواحدة للاسماعيلية تدعى جندالية وتاريخ هذه الكورة مرتبط بتاريخ انطاكية وقد كانت تمر منها الجيوش الزاحفة نحو هذه العاصمة من اللاذقية او من جسر الشغر وفيها من الحصون المنيعة التي كانت تخفر انطاكية من جنوبها القصير ودركوش والشغر وبكاس وكفردبين . وفيهـا الآن من امهات القرى (قرية الشيخ) وهو الشيخ اسماعيل القصيري كان معدوداً من الاولياء وضريحه لايزال مقصوداً بالزيارة ولاحفاده في هذه الديار حرمة زائدة وقد اتخذت هذه القرية قاعدة لناحية قصير الفوقاني وفي غربيها نجود هي اعلى ما في هذا الجبل لها منظر جميل وهواء نقي تشرف على وادي العاصي والجبل الاحمر وسهل العمق والجبال المحيطة به وقرية (بابطرون) قاعدة ناحية القصير الوسطاني و (قارصو) قاعدة ناحية القصير التحتاني وهناك قرية (الاردو) وهي قصبة الناحية واهلها تركمان ثم (كسب) واهلها أرمن وفيها دير كبير للرهبان الفرنسيسيين ومنها يمكن الصعود الى جبل الاقرع الشامخ . وفي الشرق من الامهات قرية (دركوش) قاعدة هذه الناحية اهلهـا عرب سنيون عددهم (٢٥٠٠) مبنية على يسار العاصي في اضيق مكان من واديه يعلوهـا من الغرب جبل شامخ وعلى العاصي نواعير كما في حماة . عدّ شيخ الربوة دركوش من الثغور الساحلية الجبلية وقال عنها ياقوت : دركوش حصن قرب انطاكية من اعمـال العواصم اه . وقد زالت آثار هذا الحصن المنيع الذي عجز هولاكو عن فتحه وينتج في دركوش فواكه جيدة كالتفاح والرمان ترسل الى حلب . وهناك (القنية) قرية جميلة اهلهـا كاثوليك فيها دير للرهبان الفرنسيسيين وماؤها قليل وبقربها (كفردبين) على رابية وكان لهـا حصن ذكره ياقوت يمر من تحته الدرب الذاهب الى (حمة الشيخ عيسى) وهي ذات مياه معدنية حديدية حارة تنفع للاستشفاء من داء المفاصل يقصدها الناس من كل الجهات ولو شيدت فيها ابنية صالحة للاستحمام وللمبيت لزاد الاقبال عليها . ومن الامهات (قارياز) اهلها تركمان

الجانبولاد لمرتضى باشا وليمةً عظيمةً لم يسمع بمثلهـا . فقد اكل كل الجند الذي بمعية علي باشا وعده كان ينوف على الستة آلاف واكل خلق عظيم لايسعه الحصر ممن حضر من الجوار ومع ذلك فقد بقيت الصحون والقـدور

وعلوها ٨٠٠ متر وتعدا كبرواغنى قرى القصير اشتهرت بعنبها الفاخر ولوزها . و(جنيدو) واهلها روم يقام فيهـا في فصل الصيف سوق عام كل يوم خميس وفي غربيها طريق تأخذ الى قلعة القصير الأثرية التي ذكرناها في بحث انطاكية . و (صورية) وهي كبيرة وأهلها روم فيها مدرسة وكنيسة ومعاصر زيتون .

والسائر في الطريق الذي سلكته قافلة الچلبي بعد ان يغادر انطاكية يتسلق عقبات جبل القصير وشعابه وهضابه فيمر بقرى نارليجه وقيابينار ثم يجتاز وادي نهر البواردة ثم بقرية الفانكية التي اشتهرت بكثرة أشجارها وفاكهتهـا ثم بصورية وقليزان ومزرعة التركمان وفلنجار وكفر عابد وسفرية وقاربينار والهيتة التي تنتهي فيهـا حدود لواء الاسكندرونة وبالقنية حتى يصل الى جسر الشغر . ولعل قافلة الچلبي انحرفت من قارىياز الى الزنبقيـة وهي الآن ضيعة صغيرة قرب در كوش فيها أطلال خان قديم ثم تابعت سيرها نحو الجنوب مارة بدركوش وبالقنية الى ان وصلت الى جسر الشغر . هذا والمجتاز هضاب هذه الطريق لابد ان يلمح من أعاليها في الأفق الممتد شرقي العاصي آكام جبل الأعلى الغربية الخضراء وجلها مزدان بأشجار الزيتون تختفي في أوديتها بلدان صغيرة جميلة عامرة كحارم وسلقين وكفرتخاريم وأرمناز وقرى اسقاط والعلاني وتل عمار والدويلي وهذه فيها حصن خراب وفي جنوبها الجبل الوسطاني الحائل بين سهل الروج ووادي العاصي ويناوحه من الشرق جبل بني عليم الذي صار يسمى الآن جبل الزاوية نسبة لزاوية في قرية منه تدعى أم رعيان ويسمى القسم الشمالي منه جبل الاربعين لمقام فيه يعرف بمقام الاربعين اختص بالاشجار المثمرة التي تنبت عذيًا كالكرز والكمثرى والتفاح والتين والجوز والعنب وهو صحيح الهواء طيب الماء ذو مناظر جميلة تشرف على سهول حلب الغربية الشاسعة وما فيها من البلدان والقرى كأريحـا وادلب ومعرة مصرين وسرمين وغيرها . وفي جبل الزاوية كله قبور

ملآنة بالأطعمة النفيسة . وأهدى علي باشا الى مرتضى باشا ثلاث أفراس من عتاق الخيل فقابله مرتضى باشا بفرو من السمور المرصع (١) . ثم استأنفنا المسير الى الجنوب الى ان وصلنا الى جسر الشغر وهو مكان موحش على شاطئ العاصي وتحيط به مروج خضراء وفيه خان صغير . على ان الأمن هنا مفقود نرجو الله ان يوفق اهل الخير لعمران هذا المكان وتوطيد الامن فيه

كثيرة منقورة في الصخور وخرائب أثرية أهمها في قرى أم رعيان والمغارة والحاس وارم الجوز وكفرلاتا والبارة . والبارة هذه تشبه خرائب بومبي في ايطاليا لا تزال قصورها ومعابدها وشوارعها كما كانت تمتد في مساحة واسعة تدل على ما كانت عليه هذه المدينة من العظمة . هذا وبين جبل الزاوية والجبل الوسطاني سهل الروج المشتهر بخصبه وكثرة مناقعه ورداءة هوائه (مساحته ٢٠٠٠٠ هكتار منها ٩٠٠٠ مستنقعات) وبما كان في كورته لصليبيي انطاكية من المعاقل المخصصة لحراسة انطاكية من الجنوب . قال عنه ياقوت : الروج كورة من كور حلب المشهورة في غربيها بينها وبين المعرة ولها ذكر في الأخبار .

(١) من هو هذا الباشا الكبير الذي استطاع ان يقوم بتلك الوليمة العظيمة . لم يذكر الجلبي وظيفته ولا من أين أتى وما سبب مجيئه لمقابلة مرتضى باشا إذ لا بد ان يكون غير علي باشا الجانبولاد الشهير الذي حكم حلب في سنة ١٠١٤ ثم خرج عن طاعة الدولة العثمانية وحارب جيوشها مدة مديدة الى ان قتل في سنة ١٠٢٠ أي قبل مرور قافلة الچلبي بثماني وثلاثين سنة على ما رواه المحبي في خلاصة الأثر . ولما حسبته انه والي حلب جاء يحتفي بزميله مرتضى باشا وجدت (سالنامة ولاية حلب) تذكر في قائمة اسماء ولاتها احمد باشا الدباغ في سنة ١٠٥٧ ومصطفى باشا الموستاري في سنة ١٠٦ والچلبي لم يذكر احداً منهما . فهل كان مخطئاً في بيان الاسم ؟ .

ليسهل مرور الحجاج منه (١) .

«للبحث صلة» وصفي زكريا

(١) يظهر ان رجاء الجلبي استجيب فوراً . لان محمد باشا الكوبرلي الشهير الذي كان نائباً في طرابلس الشام قبل ان يصبح صدراً اعظم مر من هنا بعد مدة وجيزة من مرور الجلبي فرم الجسر الكبير المعقود فوق العاصي وقيل انه هو ايضاً بنى الجامع الكبير وخاناً وحماماً فعمرت بلدة الجسر على يد هذا الوزير بعد دثورها لانه كان في مكانها في العصور الغابرة على ما قاله الافرنج بليدة اسمها Niaccuba او Séleucie ad Bellum ومن الغريب ان جغرافيي العرب لم يذكروا عنها شيئاً . واكتفى ابوالفداء بذكر السوق العام الذي كان يقام قرب جسرها وقد دعاه جسر كشفهان . ومهما يكن فلهذا الجسر مكانة لاتنكر من الناحية الحربية والاقتصادية فقد كان يمر منه الرصيف الروماني القديم الذاهب من اللاذقية الى حلب الذي لاتزال آثاره ظاهرة في موقع يسمى اسفكون قرب خان الزعرور . وليس جسر الشغر مستقيماً بل في وسطه كوع جعل لمقاومة دفع العاصي كما ان ظهره أفقي ليس فيه الاحديداب الذي يرى في معظم جسور البلاد الشامية وطول هذا الجسر اربعمائة متر معقود على اربع عشرة قنطرة تدل حجارتها على انه رم مراراً وفي منتصفه وعلى جانبه حجرة زبرت عليها كتابة عربية فيها اسم جقمق ولعله الملك الظاهر جقمق الذي حكم مصر والشام في سني ٨٤٢ — ٨٥٧ . وفي بلدة جسر الشغر الآن من السكان سبعة آلاف اكثرهم مسلمون وفيها دار للحكومة جديدة ومساجد ومدارس ودور للاهلين مبنية بالحجر الابيض حسنة في الجملة ويمر منها طريق السيارات الذاهب من اللاذقية الى حلب لكن هواءها رديء لقرب مستنقعات الروج والغاب منها . وفي اواخر القرن الماضي جعلت مركزاً لقضاء يشمل قسماً من سهل الغاب وجبال النصيرية. وتتبعه ناحيتا الجسر ودركوش . ومعظم سكان هذا القضاء من العرب السنيين والنصيرية وقليل من التركمان القاطنين في مرتفعات جبل القصير ومن الروم في قريتي القنية وانكزبك وتكثر اشجار الزيتون في بقعة التركمان والاشجار المثمرة والكرمة في قرى بداما والجسر ودركوش والقنية وزراعة الارز والقطن في سهول قسطون وماجاورها . وفيه من المحاصيل

بزر الخردل وجزور المحمودة المعروفة في الطب باسم سقمونيا • واشتهرت فيه قرية اشتبرق بحدائقها وينابيعها ومتنزهاتها والكزبك بجودة هوائها وصلاحها للاصطياف وزعينة بجراجها ومياهها ومصائدها وقسطون بخصب تربتها وبلبس ومشمشان وعين عيسى وبشلمون بذكرياتها التاريخية • وكان لبلدة الجسر على بعد ساعة في شماليها قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق كل واحدة تناوح الاخرى وفوق الوادي جسر كان يعبر من فوقه من احداهما الى الأخرى • مر ابن بطوطة في سنة ٧٢٥ بحصن الشغر وبكاس وقال انه منيع في رأس شاهق وذكر اسم اميره وقاضيه ونوه بفضل الأول وان الثاني من اصحاب ابن تيمية • وقال ابو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ : الشغر وبكاس من جند قنسرين قلعتان حصينتان بينهما رمية سهم على جبل مستطيل وتحتهما نهر يجري ولها بساتين وفواكه كثيرة ولها مسجد جامع ومنبر ورستاق وهما بين انطاكية وفامية على قريب منتصف الطريق بينهما وفي شرقيها على شوط فرس جسر كشفهان وهو جسر على النهر وهو مشهور وله سوق يجتمع الناس فيه في كل اسبوع والشغر وبكاس في جهة الشرق والشمال عن صهيون وفي الجنوب عن انطاكية وبينهما الجبال اه •

فيستدل من هذا الوصف ان كشفهان ربما كانت هي بلدة جسر الشغر الحالية • وكانت الشغر وبكاس وما حولها من الحصون من معاقل الصليبيين المخصصة لحراسة انطاكية ومركز اتصال قواتهم بقوات قمص طرابلس وملك القدس ومن هنا كانوا يغيرون على المسلمين في شيزر وحماة عن طريق افامية وعلى حلب عن طريق سهل ادلب • وظل هذا الحال الى ان جاء الملك الناصر صلاح الدين بن ايوب سنة ٥٨٤ فافتتح انطرطوس وجبلة وصهيون والشغر وبكاس وحصن برزية ودربساك وبغراس فاصبحت انطاكية بعد فقدان هذه المعاقل كما قال في الروضتين «معدومة الاطراف قد قطعت ايديها وارجلها من خلاف» • ولم يبق الآن من آثار هاتين القلعتين الا اسس الجدران واحجارها المتهدمة وعلى بعضها كتابات عربية • وعلى مقربة من القلعتين قرية تدعى الشغر القديم تحيط بها المزارع والحدائق •

جامع التواريخ

— أو —

« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة »

— ٢ —

حدثني ابو يعلى محمد بن يعقوب البريدي الكاتب قال لماقصدت سيف الدولة اكرمني وانس بي وأنعم عليّ وكنت أحضر ليلاً في جملة من يحضر قال فقال لي ليلة من الليالي كان قتلُ ابيك أبرك الأشياء عليّ . فقلت كيف ذاك اطال الله بقاء مولانا ؟ قال : لما رجعنا من بغداد اقتصر بي اخي ناصر الدولة على نصيبين فكنت مقيماً فيها ولم يكن ارتفاعها يكفيني فكنت أدافع الأوقات وأصبر على مضض من الاضاقة مدةً ثم بلغتني اخبار الشام وخلوّها الا من (يانس المؤنسي) وكون ابن طغج بمصر بعيداً منها ورضاه بأن يجعل (يانس) عليها ويحمل اليه الشيء اليسيرمنها . ففكرت في جمع جيش وقصدها وأخذها وطرد (يانس) ومدافعة (ابن طغج) ان سار اليّ بجهدي فان قدرت على ذلك والا كنت قدتعجلت من اموالها ماتزول به إضاقتي مدة ووجدت جمع الجيش لايمكن الابالمال وليس لي مال . فقلت اقصداخي واسأله ان يعاونني بألف رجل من جيشه يزيح هو علتهم ويعطيني شيئاً من

من المال واخرج بهم فيكون عملي زائداً في عمله وعزه . قال وكانت تأخذني حمى ربع . فرحلت الى الموصل على ما بي ودخلت الى اخي وسلمت عليه فقال ما اقدمك ؟ فقلت امر اذكره بعدُ . فرحّب وافترقنا فراسلته في هذا المعنى وشرحته له فأظهر من المنع القبيح والرد الشديد غير قليل . ثم شافهته فكان اشد امتناعاً وطرحت عليه جميع من كان يتجاسر على خطابه في مثل هـذا فيردهم . قال وكان لجوجاً اذا منع من الاول شيئاً يلتمس منه اقام على المنع . قال ولم يبق في نفسي من يجوز ان اطرحه عليه واقدّر انه يجيبه الا امرأته الكردية والدة ابي تغلب قال فقصدتها وخاطبتها في حاجتي وسألتها مسألته فقالت انت تعلم خلقه وقد ردك وأن سألته عقيب ذلك ردني ايضاً فاخرق جاهي عنده ولم يقض الحاجة ولكن اقم اياماً حتى اظفر منه في خلال ذلك بنشاط او سبب اجعله طريقاً للكلام والمشورة عليه والمسألة له . قال فعلمت صحة قولها . فأقمت قال فاني جالس بحضرته يوماً اذ جاءه برّاج بكتاب طائر عرّفه سقوطه من بغداد فلما قرأه اسودّ وجهه واسترجع واظهر قلقاً وغمّاً وقال انا لله وانا اليه راجعون . ياقوم ! المتجعرف الأحمق الجاهل المبذر السخيف الرأي الرديّ التدبير الفقير القليل الجيش يقتل الحازم المرتفق العاقل الوثيق الرأي الضابط الجيد التدبير الغني الكثير الجيش . ان هذا لأمر عجيب قال فقلت له يا سيدي ما الخبر فرمى بالكتاب وقال قف عليه فاذا هو كتاب خليفته ببغداد بتاريخ يومين يقول ان في هذه الساعة تناصرت الأخبار وصحت بقتل ابي عبد الله البريدي اخاه ابا يوسف واستيلائه على البصرة .

قال : فلما قرأت ذلك مع ماسمعته من كلامه متُّ جزعاً وفزعاً ولم أشك انه يعتقدني كأني ابو عبدالله البريدي في الأخلاق التي وصفه بها ويعتقد في نفسه انه كأبي يوسف وقد جئته في أمر جيش ومال ولم أشك ان ذلك سيولد له أمراً في القبض عليّ وحبسي فأخذت أداريه وأسكن منه وأطمن على ابي عبد الله البريدي وأزيد في الاستقباح لفعله وتجهيز رأيه الى ان انقطع الكلام . ثم أظهرت له انه قد ظهرت الحمّى التي تجيئني وانه وقتها وقد جاءت فقمت فقال ياغلمان بين يديه . فركبت دابتي وحركت الى معسكري . وقد كنت منذ وردت وعسكري ظاهر البلد . ولم أنزل داراً . قال فحين دخلت الى معسكري وكان بالدير الاعلى لم أنزل وقلت لغلماني ارحلوا الساعة الساعة ولا تضربوا بوقاً واتبعوني : وحركت وحدي . فلحقني نفر من غلماني وكنت أركض على وجهي خوفاً من مبادرة ناصر الدولة اليّ بمكروه . قال فما عقلت حتى وصلت الى بلد في نفر قليل من اهل معسكري وتبعني الباقون فحين وردوا نهضت للرحيل ولم أدعهم ان يُرخوا(١) وخرجنا فلما صرنا على فرسخ من البلد اذا باعلام وجيش لاحقين بنا فلم أشك ان اخي أنفذهم القبض عليّ فقلت لمن معي تأهبوا للحرب ولا تبدأوا وحثوا السير قال فاذا باعرابي يركض وحده حتى لحق بي وقال أيها الأمير ما هـذا السير الحثّ خادمك (دنحا) قد وافى برسالة الامير ناصر الدولة ويسألك ان تتوقف عليه حتى يلحقك قال فلما ذكر (دنحا) قلت لو كان شراً ما ورد (دنحا) فيه

(١) لعل صوابه : يراحوا

فنزلت وقد كان السير كدّني والحمى قد اخذتني فطرحت نفسي لما بي . ولحقني (دنحا) واخذ يعاتبني على شدة السير فصدقته عما كان في نفسي فقال اعلم ان الذي ظننته انقلب وقد تمكنتْ لك في نفسه هيبة بما جرى وبعثني اليك برسالة يقول لك « انك قد كنت جئتني تلتمس كيت و كيت فصادفتَ مني ضجراً وأجبتك بالرد ثم علمت ان الصواب معك فكنت منتظراً أن تعاودني في المسألة فاجيبك فخرجتَ من غير معاودة ولا توديع والآن ان شئت فأقم بسنجار أو بنصيبين فاني منفذ اليك ماالتمست من المال والرجال لتسير الى الشام .»

قال فقلت لدنحا تشكره وتجزيه الخير وتقول كذا وكذا . أشياء واقفته عليها . وتقول : اني خرجت من غير وداع لخبر بلغني في الحال من طروق الاعراب لعملي فركبت لالحقهم وتركت معاودة المسألة تخفيفاً . فاذا كان قد رأى هذا فانا ولده وان تمّ لي شيءٌ فهو له وانا مقيم بنصيبين لأنتظر وعده . قال : وسرت ورجع (دنحا) فما كان الا ايام يسيرة حتى جاءني (دنحا) ومعه الف رجل قد أزيحت عللهم وأعطوا أرزاقهم ونفقاتهم وعرضت دوابّهم وبغالهم ومعهم خمسون الف دينار وقال هؤلاء الرجال وهذا المال فاستخر الله وسر . قال فسرت الى حلب وملكتها وكانت وقائعي مع الإخشيدية بعد ذلك المعروفة . ولم يزل بيني وبينهم الحرب الى ان اسفرت الحال بيننا على ان أفرجوا لي عن هذه الأعمال وأفرجت لهم عن دمشق واستغنيت عنه وكل ذلك فسببه قتل عمك لأبيك .

أنشدني ابوعلي الحاتمي فصلاً في رسالة عملها الى بعض الرؤساء في صفته :

أفكاره هِمَم ابعاده نِقَم وعوده قِسَم تأميله عصم
الفاظه حِكَم اوطانه حرم الحاظه نقم(١) آلاؤه دِيَم
تبغي الخلائق ان يحصوا فضائله ودون ذلك ما يستنفد الكلم
ولو أرادوا جميعاً كتم معجزه ابى له الله ما يأتون والكرم
تبغي مجاراته في فعله شير(٢) قدقصرت عندهم(٣) عن لعبه الفقم
وكيف يسطاع فعل اويرام علا ماليس يدركه الاوهام والفهم

***

حدثني بعض الأهوازيين قال رأيت ابا الحسن المنبري الشامى الطائي الشاعر بالأهواز على باب الحسين بن علي المنجم وهو عاملها يتردد مدة وكان قدامتدحه قال فتذاكرنا شدة تلوّن(٤) اخلاق المنجم وجنونه ونواميسه(٥) في وقت وعدوله عن ذلك في آخر ثم قلت له فأين أنت منه فقال ما آيس من رده ولا أطمع في وعده قلت انا : وهذا كأنه مأخوذ من الأبيات التي هجا بها الحسن بن رجا وهي مشهورة فلذلك لم أوردها على جهتها والاخير(٦) من الأبيات وهو :

لكنها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لابخلاً ولا كرما

***

(١) لعله : نعم . (٢) لعله : بشر . (٣) لعل صوابه : عنهم عن كعبه البُهَم .
(٤) بالاصل : تكون . (٥) لعله : تآنسه . (٦) لعله : الا الاخير .

حكي لي عن بعض الصالحين في إخراج السرق قال تأخذ قدحاً فيه ماء وتأخذ خاتماً فتشده فيه بشعرة وتدليه في القدح وتكتب خمس رقاع فيها أسماء المتهمين بالسرقة وتكتب «السارق» في القدح وتضع رقعة تكتب فيها اسم من تتهمه على حرف القدح وتقرأ عليه (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة وظنوا انه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون .) فاذا ضرب الخاتم القدح نظرت في الرقاع (١) فان السارق هو صاحب الاسم وان لم يضرب القدح فتضع أخرى فان السارق هو اذا ضرب . وقال لي في الآبق تكتب فاتحة الكتاب مدورة وتكتب في وسطها : (كظلمات في بحر لجّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) اللهم اجعل الارض علوها وسفلها وسهلها وجبلها وبرّها وبحرها في قلب فلان بن فلان أضيق من مسك شاة حتى يرجع .

* * *

تذاكرنا في مجلس ببغداد حضره ابو علي بن محمد بن منصور الشاهد المعروف بابن كردي حديث غلبة النساء على الرجال الا النفر من الرجال فقال لي ابو علي كان لنا شيخ فاضل من اهل القطيعة (٢) كان يضرب لنا في هذا مثلاً فيقول : ان في جهاز العروس الى زوجها سرجاً ولجاماً فاذا انقضت ايام العرس : إن سبق الرجل فأسرج المرأة ووضع اللجام في رأسها وركبها ملك

(١) لعله : الرقعة . (٢) القطيعة اسم لعدة أماكن في بغداد .

عليها امرها . وان تراخى لحظة وضعت هي السرج على قفاه واللجام في فيه فركبته فلم تنزل عنه الا بطلاق او موت .

* * *

حدثني ابوالفضل محمد بن عبيد الله بن المرزبان الكاتب الشيرازي قال حدثني سهل بن نظير اليهودي الجهبذ قال حدثني جدي سهل بن نظير وكان يتجهبذ للوزير على قديم السنين منذ ايام الفتنة والى ان مات قال لما نُكب عبيد الله بن سليمان بعد نكبته (١) الموفق النكبة العظيمة كنت اتوسم فيه الرفعة وعلوّ الحال فكنت احمل الى عياله في كل شهر مائة دينار وهو في الحبس ثم أُطلق فكنت احملها اليه الى ان ولي الوزارة فعرف لي ذلك وبلغ بي كل مبلغ وشكرني عليه اتم شكر قال ثم ان عبيد الله نكب جرادة الكاتب وكان قد جرت له عليه الرياسة وعلى الناس والرؤساء وكان له احسان سالف اليّ كثير فكنت احمل الى عياله في كل شهر مائة دينار واحدر به الى البصرة قال فبلغ ذلك عبيد الله بن سليمان وانا لا اعلم فدخلت اليه يوماً فقال لي ياسهل بارك الله لك في عداوتنا قال فقلت له ايها الوزير من انا حتى أُعاديك وانا اخس كلب ببابك قال واكثرت التنصل والتهيب وبكيت وقلت يا سيدي ما هذا الكلام ان كان شيءٌ رقي الى الوزير ايده الله عني واقفني عليه ولعل عندي فيه حجة او برهاناً على بطلانه قال فقال لي تحمل الى عيال جرادة في كل شهر مائة دينار قال فقلت ايها الوزير انا مافعلت هذا ولا

(١) لعله : وزارته .

تجاسرت عليه انما فعله الرجل الذي كان يحمل الى عيال الوزير ايده الله مائة دينــار في كل شهر رعاية لحق احسانه اليه فرعى لجرادة احسانًا له اليه ايضاً فحمل اليه مثل ما كان يحمل الى عيـا ل الوزير ايده الله فاحمرّ وجهه خجلاً واطرق وسكت ملياً ثم تصبب وجهه بالعرق وقلت قبض والله علي ونكبني قال فاسقطت فرفع رأسه وقال احسنت يا سهل ماترى بعد هذا مني منكراً ولا بقي في نفسي عليك شيءٌ فاجرهم على رسمهم ولا يوحشك ماخاطبتك به .

« البقية تأتي »



آراء وافكار

—(()) —

الفاظ عربية في اللغة الارمنية

وفقت بعد بحث طويل الى جمع ما يقرب من ١٥٠٠ كلمة من اللغة الارمنية وجدت بينها وبين طائفة من الكلمات العربية مشابهة في لفظها ومعناها وهذا العدد عظيم بالنسبة للغة الارمنية التي لا يتجاوز عدد كلماتها ٢٠٠٠٠ كلمة هو دليل مقنع على ان الشعبين العربي والارمني كانا يقطنان قبل التاريخ بقاعاً واحدة . ويتكلمان لغة ابتدائيـة واحدة . ودليلنا على صحة هذه النظرية ان البشر في حالتهم الاولى كانوا لا يملكون من اللغة الا الكلمات الضرورية التي تفيدهم في حاجاتهم البسيطة : كالأكل والشرب والفاظ العقيدة وهذه الكلمات التى استعملها العرب وا لارمن في زمن وحدتهما في الازمنة المتوغلة في القدم بقيت الى الآن مشتركة بينهما بالفاظها ومعانيها .

وهاءنذا أقدم نماذج من تلك الكلمات المشتركة ليطلع عليها علماء اللغة العربية وعسى ان أكون ادبت بذلك بعض الواجب عليّ في خدمة اللغات السامية .

الارمنية [1]	العربية	معناهما في اللغتين
ح ا ث	حث	الخبز القفار
و ا رت	ورد	ورد
ذب ا ل	الذب	كثير الحركة
غ ا ر ا س	خرس	ابريق او جرة

(١) قد اثبتنا الكلمات الارمنية بحروف عربية لعدم وجود حروف ارمنية في مطبعتنا ولتسهيل امر المقارنة بين كلمات اللغتين .

الارمنية	العربية	معناهما في اللغتين
ووص د	وصد	نسج
ث آر	دهر	الزمن الطويل (قرن)
هام وز	همزه	همس في قلبه وسواساً
ث رز	درز	خاط
ح اد	حد	حد السيف او السكين
حر — حور	حر	ضد البرد
خ اب	خب	صار خداعاً
شوق ا	سوق	موضع المبيع والشراء
ش ي ن ع	شنع	قبح المنظر
ص د وق	صدق	ضد الكذب
ص ورد	صرد	سريع التأثر في البرد
ص ور	صور	الميل العوج
ص وم	صوم	الامساك عن الطعام
ط ار	طار	ارتفع في الهواء
ع ارص	عرس	زوجة
وو خر	وغر	توقد عليه من الغيظ
خ م ور	خمير	ما يجعل في العجين ليختمر
واد	وضع	ذليل
ع ون ث	عنثة	يبيس العشب
ا ن س	انس	انسان
ع وق	عوق	ضد العجلة
ح ال	حل	فك
واه	بهي	حسن
غ وث	غوث	استغاث

قوزوت	قذع	قذر
ق اش ى	قشع	الجلد اليابس
ق ي ل دو	قلد	فتل الشي
قنن	قن	تفقد بالبصر
دغم ار	دُغْمُري	المخلوط من الاخلاق
ح ان ث	حنث	مال الى الباطل ، جناية
كززى	كز	بخل
ك ي س	كيس	كيس الدراهم وغيرها
زوك	زوج	كل واحد معه آخر من جنسه
زور	زور	المحرف
م ارخ	مرخ	شجر يقتدح به
م ارد	مرد	متمرد
م وروق	مرق	سفا السنبل
م اش ي ل	مشل	قل لحمه
م ي س	ميز	شديد العضل
ن اغ ى ل	نغل	الفاسد
خ وط	خوط	الغصن الناعم لسنته
ه وزال	هزل	ضعيف نحيل
او ه ود	أهَطَ	الجمل
ه وو	هف	هبوب الريح
ورود	رعد	رعد السماء
ارض	ارض	الارض
ش وور	شعار	ما يمس الجسد من اللباس
اورى ورت	رودة	الشابة الناعمة

مجلس إحياء المعارف النعمانية
« في الهند »

الفنا لجنة علمية دعوناها (مجلس إحياء المعارف النعمانية) بمعاونة لفيف من العلماء والغرض منها طبع المصنفات لمتقدمي الاحناف مثل الامام ابي حنيفة وصاحبيه وحسن بن زياد والطحاوي والخصاف والكرخي والجصاص وغيرهم من الاعلام الذين لم تطبع كتبهم بعد ولم نقصد من وراء ذلك الا نشر الدين وليس القصد التجارة . وقد وفقنا الله الى طبع كتابين (الأول) كتاب العالم والمتعلم للامام ابي حنيفة و (الثاني) شرح الصدر الشهيد على كتاب (نفقات الخصاف) ونحن اليوم في صدد طبع الجامع الكبير والمبسوط والزيادات خاصةً ولدينا نسخ من هذه الكتب غير ان زيادة التنقيح والتصحيح تقتضي الحصول على نسخ أخرى وقد ظفرنا بنسخة من المبسوط ونسخة من الجامع الكبير ولم نوفق الى الآن الى نسخة من الزيادات ونرجو من اعضاء المجمع العلمي وغيرهم من اهل الفضل ان يرشدونا الى مواطن الكتب التالية :

مصنفات الامام ابي يوسف كالأمالي والجوامع ، اختلاف الامصار ، المبسوط ، سند الامام له ونوادره رواية بشر بن الوليد . ومصنفات الامام محمد كالمبسوط ، الجامع الكبير ، الزيادات . زيادات الزيادات . السير الصغير . السير الكبير . كتاب الصلوة . الأمالي اي الكيسانيات . الهارونيات . الجرجانيات . العمريات . الرقيات . ومسند الامام ابي حنيفة له ونوادره رواية تلاميذه : ابي سليمان — ابن سماعة . ابن رستم . المعلى . هشام . وكتاب الحجة على اهل المدينة له وغير ذلك . ومصنفات الطحاوي كالمختصر له — اختلاف العلماء . احكام القرآن وغيرها . ومصنفات الكرخي : مختصره شرحه للجامع الصغير والكبير وغير ذلك — ومصنفات الخصاف نحو كتاب أدب القضاء له وغير ذلك . ومصنفات الجصاص مثل شرحه على الجامع . وشرحه على مختصري الطحاوي والكرخي واصوله وغير ذلك . وكتاب العلل ويقال له الحجج لعيسى بن ابان . وكتاب الحجج لبشر بن غياث الريس . وغيرهم من الاعلام .

وتهمنا هذه الكتب وامثالها والوقوف على طريقة الحصول عليها وخاصةً كتاب الحجة

على اهل المدينة والمبسوط والجامع الكبير والزيادات . وكتاب الحجة وان كان قد طبع في الهند قبل خمسين عاماً الا ان فيه بياضات واغلاطاً وتقديماً وتأخيراً وتكراراً فان وجدت نسخة صحيحة منه نعمل على طبعها ونشرها . ابو الوفاء

رئيس اللجنة والمدرس بالمدرسة النظامية

في حيدر اباد الدكن (الهند)

حارة شبلي كنج

(المجمع) نذكر في ما يلي طائفة من المصنفات المذكورة الموجودة في دار الكتب الظاهرية ليطلع عليه الاستاذ ابو الوفاء ونرجو من اهل الفضل ان يكتبوا اليه بعنوانه المذكور بما لديهم من أمر امثال هذه المصنفات :

(١) الجامع الكبير في الفتاوى : تأليف الامام محمد بن حسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ هـ نسخة في ٤٣٢ صفحة كبيرة ينقص من أولها ورقة واحدة كتبت سنة ٧٦٦ بخط معتاد [رقم ١١٢]

(٢) الجامع الصغير : للامام محمد والموجود منه ثلاث نسخ الأولى كاملة في ٤٧٥ صفحة كتبت سنة ٧٦٠ وفي هذه النسخة اوراق كتبت بخط حديث [رقم ١٠٩] .

(٣) النسخة الثانية في ٥٨٠ صفحة كبيرة كتبت بخط فارسي وعليها تعليقات وهوامش [رقم ١١٠] .

(٤) النسخة الثالثة غير كاملة في ٣٣٢ صفحة ناقصة من آخرها كتبت بخط نسخ [رقم ١١١] .

(٥) شرح الجامع الكبير : للامام محمد بن الحسن المتوفى سنة ١٨٩ يوجد منه مجلد واحد يبتدئ من كتاب البيوع وينتهي بباب الايمان كتب بخط تعليق [رقم ١٥٨] .

(٦) شرح الجامع الصغير : للامام محمد ايضاً والشرح لبرهان الدين امام الحرمين في ٤٦٠ صفحة صغيرة بخط سعيد بن محمود الرازي سنة ٥٨٥ [رقم ٣٧٣]

(٧) شرح السير الكبير : للامام محمد ايضاً والشرح لشمس الأئمة ابي بكر محمد بن احمد بن ابي سهل السرخسي المتوفى سنة ٤٩٠ هـ نسخة في ٧٧٢ صفحة متوسطة القطع نفيسة الخط محلاة بالذهب [رقم ١١٥] .

وهذا الكتاب طبع مؤخراً في مطبعة حيدر آباد الدكن في الهند .

مطبوعات حديثة



اتحـاف اعلام النـاس
« بجمال أخبار حاضرة مكناس »

تصنيف مولاي عبد الرحمن بن زيدان طبع في المطبعة الوطنية برباط الفتح
سنة ١٩٣١ في ٦٠٠ صفحة
(جزؤه الثالث)

هذا الكتاب النفيس وان كان عنوانه (اخبار مكناس) هو في الحقيقة تاريخ مملكة مراكش بمجموعها فالمؤلف يصورها في مختلف عصورها للقاريء كأنه يراها وقد صدر منذ حين الجزآن الأولان منه ثم صدر جزؤه الثالث في هذه الأيام وهو يشتمل على تراجم كثيرين من علماء تلك الديار ويتخللها تراجم بعض ملوك مراكش فان ملوكها يكادون يمتازون على سائر ملوك الاسلام باشتغالهم في العلوم الدينية على طريقة العلماء المعروفة وآخر من اشتهر منهم مولاي عبد الحفيظ ملك مراكش الاسبق . وقد نشر المؤلف في هذا الجزء وثائق تاريخية مما يتعلق بالشؤون المراكشية الداخلية ووثائق أخرى خارجية تتعلق باسبانيا وفرنسا والدانيمارك وهي منشورة بصورها الفوتوغرافية على غاية الضبط والجمال عدا الصور والرسوم التاريخية الأخرى : من ذلك صورة تمثل سفير الدانيمارك وهو داخل على سلطان مراكش مولاي محمد . وصورة تمثل سفير الانكليز كذلك . وصورة كتاب باللغة الافرنسية من ملك فرنسا لويس السادس عشر يبشر السلطان بولادة ابن له وكتاب آخر من نابليون الثالث يعزي سلطان مراكش بوفاة والده . وكتاب من اسرى الاسبانيين المسجونين في احدى قرى السوس . الى غير ذلك من الصور والوثائق التي تصف الحالة السياسية والادارية في بلاد مراكش مما كان له تأثير كبير في ضعفها واستيلاء الأجنبي عليها . وقد الحق

بالكتاب عدة فهارس للتراجم وللاعلام التاريخية والجغرافية . والكتاب حسن الورق والطبع لكن الاغلاط فيه كثيرة كسائر ما يطبع في الاقطار المغربية ومع عناية المطبعة في تصحيح الاغلاط بنشر جدول خاص في آخر الكتاب لحنا اغلاطاً أُخرى كثيرة العد فعسى ان ينتبه ارباب المطابع ثمة الى تدارك هذا التقصير في مطابعهم وقد ذكرنا ان مما نشر في الكتاب صورة كتاب ارسله لويس السادس عشر الى سلطان مراكش يهنؤه بولادة ابن له والكتاب نشر باللغة الافرنسية وهذه ترجمته العربية :

« من عظيم النصارى ملك فرنسا الى عظيم المسلمين ملك مراكش والمغرب سلاماً وبعد فان المولى جل جلاله حقق امنيتنا وامنية فرنسا فرزقنا اميراً وضعته والحمد لله الملكة زوجتنا العزيزة وقرينتنا وقد بادرت باعلامكم بهذا الحادث العظيم الذي يضمن السعادة لرعيتنا ويخلد هذه العائلة الملوكية وانا متحقق انكم ستتلقون هذا النبأ الذي يسر عائلتنا المشهورة ورعيتنا بكل سرور لما بيننا من روابط المودة وان السرور الذي ستقابلون به هذا الحادث سيكون شاهداً جديداً على ما بيننا من الصداقة المؤبدة وانا ندعو لكم ولمملكتكم بالنصر والعافية والرفاهية ونطلب من الله ان يحرسكم بعنايته اه » .

والكتاب نشرت فتوغرافيته باللغة الافرنسية وقد كتب بخط دقيق جداً وهو لا يتجاوز خمسة الاسطر ولا يكاد يقرأ .

هذا وان تاريخ مكناس طرفة من طرف العلم التي اتحفنا بها مولاي عبد الرحمن لا يستغني عنها مؤرخ ولاسيما المتخصصين في تاريخ علاقة الشرق بالغرب في العصور الأخيرة تلك العلاقة التي هي اساس الحالة السوءى التي نحن عليها معشر الشرقيين .

« المغربي »

نظرات الشورى

« في الأحوال الشرقية الحاضرة . وهو يقع في ٢٦٠ صفحة من القطع »
« المتوسط . تأليف الأستاذ محمد علي الطاهر »

صاحب جريدة الشورى الأستاذ محمد علي الطاهر من ذوي العقيدة الراسخة الناصرين لحزبهم السياسي اشد النصر والطاعنين في اعدائه بلا هوادة . وقد اصدر هذا الكتاب اثناء احتجاب « الشورى » وضمه احاديث وحوادث سياسية واجتماعية وادبية في كثير منهـا فائدة وطلاوة ونكات مستملحة . ولو جوزنا لمجلة المجمع العلمي ان تبحث في الأمور السياسية لقرظنا هذا الكتاب بما يستحقه لأن معظم ابحاثه في السياسة الحاضرة ورجالها .

وربما رأى بعض النـاس ان كثيراً من ابحاث الكتاب تصلح للجرائد اليومية ولا تستحق النشر في الكتب اما انا فأرى انهم غير مصيبين فيما ذهبوا اليه لأن بعض الحوادث التي تبدو صغيرة تكون في الحقيقة صورة صادقة لبعض الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية والأدبية كالحوادث التي تضمنها (نشوار المحاضرة) للتنوخي وكالنكتة الآتية التي تدل على كثرة الجرائد في بلادنا ووفرة محترفي حرفة الصحافة عن جدارة او عن غير جدارة وقد اوردناها مثالاً لأشباهها مما حواه كتاب « نظرات الشورى » قال المؤلف :

« كان بعض الأصدقاء يسمرون بالقدس وكان الموضوع كثرة الجرائد التي تُرمى على الناس فقال الأستاذ احمد حلمي باشا مدير البنك العربي بالقدس انا مشترك في جريدة كذا وجريدة كذا ومجلة كذا الخ ولكن يصلني اكثر من ثلاثين جريدة ومجلة برغم انفي . فقيل له وكيف ذلك يا باشا ؟ فقال لأن الجرائد الأخرى التي لم اشترك بهـا قد اشتركت بي ! . »

فهذه النكتة الصغيرة اجمل صورة لموضوع اجتماعي مهم ولا يمكن ان يختلف في جمالها اثنان اما في السياسة فمن البديهي ان الصور التي يصورها الاستاذ المؤلف مستقيمة يراها خصومه في السياسة مقلوبة . والعكس بالعكس . وهذا مالا شأن لنا به في هذه المجلة .

مصطفى الشهابي

الخزف الشامي العراقي
« في القرن الرابع عشر »

للمسيو سوفاجه : عدد صفحاته ٢٦ وعدد لوحاته المصورة ٤٩ طبع باريز سنة ١٩٣٢

Jean Sauvaget - Poteries Syro - Mésopotamiennes du XIVe Siècle; 26 Pages et 49 Planches. Paris 1932.

بدأ نشاط المعهد الافرنسي الفني بدمشق يتجلى للعيان منذ تولت إدارته يد مخلصة وهو يضم اليوم نخبة من الشبان الافرنسيين العاملين يشتغل كل منهم في نطاق اختصاصه وهم يتحفوننا من حين الى آخر بثمرات جهودهم في الابحاث العلمية والتاريخية المتعلقة بالبلاد السورية . والمسيو سوفاجه هو احد هؤلاء العاملين في خدمة الآثار الاسلامية في بلادنا فقد ضمن كتابه هذا بحثاً عن طائفة من الخزف الاسلامي المطبوع المعروف بالخزف الشامي العراقي وقد صنفها بحسب أنواعها مستعيناً بمجموعة من هذا الخزف عثر عليها في دمشق وهي محفوظة في المعهد الافرنسي المذكور . وقد ادلى بنظرية جديرة بالاعتبار توضح لنا تاريخ تسرب هذا النوع من الخزف العراقي الى دمشق وبقية المدن الشامية البعيدة عن الحدود العراقية مستنداً الى العوامل التاريخية التي اوجدته ويرى ان هذه الصناعة قد حملها بعض سكان مدن الفرات الشامية الذين التجأوا الى داخلية البلاد فراراً من جموع التتر التي تقدمت من العراق الى بلاد الشام في اوائل القرن الرابع عشر للميلاد .

جعفر الحسني

البيت الشامي

« في حوران ووادي بردى وجبل قلمون »

للمسيو ر . تومن — عدد صفحاته ٣٩ وعدد لوحاته المصورة ٣٥ مع خارطته

طبع باريز سنة ١٩٣٢

R. Thoumin - La Maison Syrienne dans la plaine hauranaise, le bassin du Barada et sur les plateaux du Qalamun. 39 pages avec 35 planches et une carte. Paris 1932.

وهذا الكتاب هو الجزء الثاني من مطبوعات المعهد الافرنسي في دمشق ضمنه المؤلف بحثاً عن دور سكان القرى في العهد الحاضر في حوران ووادي بردى وجبل قلمون ووصف تقاسيم هذه الدور ومواد بنائها في كل من هذه المناطق بوضوح يتجلى من الرسوم الجميلة التي زين بها الكتاب . وسيصبح هذا البحث وثيقة للمستقبل عن حالة البناء في هذه المناطق لان هذا النوع من البناء سيندثر قطعاً ليحل محله طرائق جديدة في البناء تجمع بين الطراز الشرقي والطراز الغربي كما هو الحال في معظم قرى لبنان .

وقد ذكر المؤلف في ص : ٢ س : ٢٥ (عمّال الورد) وصوابه (عمال الورد) وذكر ايضاً في اللوحة العاشرة (شكل ٢) مدرسة (السباعية) وصوابه المدرسة (السباهية) ٤

جعفر الحسني



اصلاح سهو

ذكرنا في الكلام على طوق الحمامة لابن حزم (م ١٢ ج ٤ ص ٣٢٥) ان المؤلف لم يشر الى اسم الطابع الأول لهذا الكتاب والحقيقة انه اشار اليه وذكر طرفاً من مقدمته وهنا لابد من شكر الطابع على عنايته في نشر هذا السفر ونرجو ان يوفق الى طبع كثير من الكتب النافعة .



الثقالة والثقلاء(١)

ما كان ينبغي أن أثقل عليكم أيها السادة بحديث هؤلاء الثقلاء، الذين ضجّت منهم الارض والسماء . ولا أن أهتم بجمع اخبارهم ولا تعجيبكم من غريب أطوارهم — لولا اني رأيت كبيراً من علماء السلف أفردهم بالذكر في مؤلف خاص سماه (كتاب الثقلاء) . وقد جمع فيه زبدة من آراء مفكري العرب في ما هي الثقالة . ومن هم الثقلاء ؟

فالكتاب صفحة من تاريخ أدبنا القومي الاخلاقي ومؤلفه كغيره من علمائنا الأقدمين الذين اهتموا بجمع أخبار فئات من الناس شاذة في بعض جوانب اخلاقها ومناحي طباعها . فهذا الجاحظ جمع لنا أخبار (البخلاء) كما جمع في كتاب آخر أخبار (اللصوص) . وابن الجوزي صنّف في أخبار (الحمقى والمغفلين) . والخطيب البغدادي وصف لنا في كتاب خاص أحوال (الطفيليين) الذين يغشون الولائم من دون دعوة .

وكل هؤلاء العلماء لم يهتموا بهذه الطبقات من الناس إحياء لذكرهم . أو تمجيداً لقدرهم . وانما كان غرضهم إعطاءنا دروساً في أخلاق السوء التي كانت عليها هذه الفئات المأفونة فنتحاماها . ونطهّر أنفسنا من أدرانها، على حد قول الشاعر :

(عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشَّـ ـرِّ لكِنْ لِتَوَقِّيهْ)
(ومن لم يعرف الخيرَ من الشَّـرِّ يقعْ فِيـهْ)

إذ لا يخفى عليكم أيها السادة أن ساحة هذا الوجود تشبه المسرح الذي تُمثَّلُ عليه الروايات . قومٌ يمثّلون وقومٌ نظّارة : يشاهدون ثم ينصرفون .

---

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ المغربي في ردهة المجمع العلمي مساء يوم الجمعة الواقع في ١٨ كانون الأول سنة ١٩٣١ .

وكذلك آحاد الناس على مسرح هذه الكائنات: يمثّل قوم وينظر آخرون اليهم . حتى اذا انقضي دورهم صعد الى المسرح من يمثّل دوره مكانهم ثم يخلفه غيره وهكذا . ولا يوجد في هذا العالم أحدٌ لم يمثل دوراً تتحدث عنه الناس مستحسنين أو مستهجنين .

والغرض من مشاهدة التمثيل سواء أكان على المسرح (التياتري) الصغير . أو على المسرح العالميّ الكبير انما هو العظة والاعتبار . يرى المرء الحسنة فيرغب فيها . ويرى السيئة فينفر منها : فالموفق هو الذي اذا نظر الى الممثلين اتعظ واعتبر . والمخذول من تمرّ به العبر . فلا يكون له حظ منها سوى النظر . حتى اذا مثّل دوره فيج مثالاً . وأضحى في الحماقة أو الثقالة آيةً ونكالا .

ومثلُ ذلك يقال في تأليف كتبِ الأدبِ والتاريخ واخبار الناس وما تضمنته الأسفار المقدسة من القصص والمواعظ والأمثال — كل هذا إنما أريد منه عرض صور الممثلين الماضين على انظار الممثلين الآتين . فيجيد كلٌّ منهم تمثيل دوره . ويتجنّبُ خطيئات غيره : فابن الجوزي الذي عرض تحت مواقع أبصارنا ما مثّله الحمقى والمغفّلون من الأدوار المضحكة إنما اراد أن يحملنا على الانتباه لأنفسنا فنطهرها من الحماقة في حركاتها وسكناتها . وهو في عمله هذا عاملٌ بآداب القرآن . لأن القرآن أرشدنا الى الاعتبار بأفعال الحمقى . وحذّرنا أن نكون مثلهم . وأن نأتي من الأعمال مآتيهم . فقال تعالى : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) اي لا تنقضوا عهودكم وتكونوا كتلك المرأة المتناهية في الحمق (وهي ريطة بنت عمرو من نساء مكة) . كانت تنهمك في غزلها هي وجواريها حتى اذا أحكمت فتله . عمدت اليه فنقضته أنكاثاً . أي خيوطاً غير مفتولة .

ولا يخفى أن الوحيَ الالآهيّ لم يقصد من ذكر قصة (ريطة) المذكورة إضحاكنا وتسليتنا . وانما قصد إرشادنا وتربيتنا .

وكذلك شأن أولئك المؤلفين . في ما قصوه علينا من أخبار الحمقى والمغفلين ومثلهم مؤلف (كتاب الثقلاء) الذي جعلناه موضوع محاضرتنا اليوم .

وقد حلل شارح القاموس كلمتي (الثقالة والثقيل) وأشار الى كتابنا هذا اي كتاب الثقلاء فقال معلقاً على قول القاموس (وثقالـــ الناس وثقلاؤهم من تكره صحبته الناس ويستثقلونه) — ما نصه (وواحد الثقلاء ثقيل يقال أنت ثقيل على جلسائك . وما أنت

الا ثقيل الظل . بارد النسيم . ويقال : مجالسة الثقيل تضني الروح . ومن أبدع ما أنشدنا في الثقيل بعض الشيوخ :

(وثقيل قال صفني قلت أيش فيك أصف)
(كل ما فيك ثقيل حلّ[1] عني وانصرف)

وقال الراغب : الثقيل في الانسان يستعمل تارةً في الذم وهو أكثر في التعارف . وتارةً في المدح نحو قول الشاعر :

(تخفّ الأرض إما زُلت عنها وتبقى ما بقيت بها ثقيلا)
(حللتَ[2] بمستقر العزّ منها فتمنع جانبيها أن يميلا)

وقد ألف في اخبار الثقلاء كتاب اسمه كلام التاج .

ونحن اليوم نستعمل كلمة الثقيل في الذم واذا أردنا المدح حرفناها وقلنا فلان (طقيل) بالتاء المفخمة كالطاء نريد انه وقور رزين .

* * *

في المكتبة الظاهرية طائفةٌ من المجاميع المخطوطة . تحتوي كلُّ مجموعة منها على عدة رسائل مختلفةٍ في أبحاثها . متنوعةٍ في موضوعاتها . وقد كنت يومًا أنقب في هذه المجاميع وأتصفح ما أودعته من الرسائل . واذا بي أمام رسالةٍ عنوانها (الثقلاء) فأول ما خطر ببالي أن الثقلاء . هم إخوان الحمقى والبخلاء .

فلا جرم أن تكون النتيجة من دراسة أحوالهم واحدة . وإذ قد طبعت المصنفات عن (الحمقى) وعن (البخلاء) . وعرفت أطوارهم . وشاعت بين الناس أخبارهم فلا يحسن أن نبخس إخوانهم (الثقلاء) حقهم . فلا نعلن أمرهم . ولا نذيع سِرّهم . فرأيت من

(١) قوله (حل عني) كذا بالحاء المهملة ولعل صوابه (خل عني) بالمعجمة على أن عامتنا اليوم يقولون — اذا استثقلوا مخاطبًا — « حلّ عنا يا » بالحاء المهملة .

(٢) قوله حللت الخ ويروى (لأنك موضع القسطاس منها) واذكر أن هذين البيتين للنابغة قالها في النعمان وقد لاموه على مخاطبته الملك بكلمة (ثقيل) حتى اضطر الى تغيير الشطر .

وفاء الذم أن أصطنع من مضمون هذا الكتاب أعني (كتاب الثقلاء) محاضرةً : ألقيها في هذه الردهة . كما كنت منذ سبع سنوات . ألقيت فيها محاضرةً عن (الحمقى والمغفلين) .

* * *

وكتاب الثقلاء أيها السادة في نحو عشرين صفحة . صغيرة القطع . قديمة الخط . كامدة اللون . قد تكون كُتبت في القرن السابع للهجرة . وهي ضمن مجموعة رسائل محفوظة في دار الكتب الظاهرية تحت رقم (١٨) في قسم المجاميع .

وفي النسخة أغلاط وتحاريف كثيرة . وقد لحقتهــا رطوبة في أوساط صفحاتها . فتلاصقتْ وانسحجت وتقشّرت . ولما شققتهــا وباعدتُ بعضها عن بعض فسد كثير من كلماتها في مكان الإلتصاق فكان أحياناً يغيب معنى الجملة . ويتبع ذلك إبهام وغموض في أصل القصة التي جاءت فيها تلك الجملة .

والثقلاء وان كان الناس يمقتونهم ويتجنبون ذكرهم بل ذكر أسمائهم أحياناً فان السلف الصالح رضي الله عنهم اهتموا بهم وتثبتوا في نقل أخبارهم الى حدّ الورع : فهم لم يذكروا لنا تلك الأخبار كيفما اتفق . وانما ذكروها بطريق الرواية والسند . كما اذا كانوا يروون أخبار أنبياء مرسلين . لاثقلاء ممقوتين . بل الأمر أعظم من ذلك فإن رسالة (الثقلاء) هذه رويت عن مؤلفها بعدة طرق : فقد وجد في أولها وآخرها مايفيد أن (الحسن بن عمار) قرأها على (اسماعيل بن جلدك) القلانسي . وأجازه بها . وأن (علي بن مظفر) قرأها عليه ايضاً مرةً على انفراد . ومرةً مع جماعة . وذلك سنة ٦٤١ للهجرة .

أما (اسماعيلُ بنُ جلدك) فروى الرسالة عن (ابي منصور بن مكارم) المؤدب سنة ٥٨٥ للهجرة . وابنُ مكارم رواها (سنة ٤٨٣ هـ) عن جماعةٍ : فيهم (عليٌّ السراج) و (الحسينُ النجار) . وهؤلاء روَوْها عن (هبة الله السمان) . وهبة الله رواها عن (الحسن الآدمي) والحسن الآدمي رواها عن مؤلفها (ابن المرزبان) سنة ٢٨ للهجرة .

أرأيتم ياسادتي مبلغ اهتمام سلفنا الصالح بالثقلاء . ومقدار ماتجشموا من الثقلة في جمع أخبارهم ؟ وتمحيص رواياتهم .

ثم أيكون هذا شأن سلفنا الصالح في العناية بهم ونحن نزهد فيهم ونعرض عنهم ولانسمع بساعة واحدة من وقتنا في استماع رواياتهم . والاستفادة من دراسة ثقالاتهم .

أما مؤلف كتاب (الثقلاء) فهو من علمائنا الثقات الاقدمين . ذكره صاحب كتاب (شذرات الذهب في اخبار من ذهب) . وشذرات الذهب مخطوط[1] من أنفس مخطوطات (المكتبة الظاهرية) .

قال مؤلفه (وفي سنة ٣٠٩ للهجرة توفي ابو بكر محمد بن خلف بن المرزبان البغدادي الأخباري صاحب التصانيف . روى عن الزبير بن بكار وطبقته . وكان صدوقاً . والمرزبان كلمة فارسية معناها (حارس الحدود.) اه : (مر) حد و (زبان) بمعنى حارس او محافظ .

وقد لاحظت في مخطوطة (الثقلاء) اموراً تدل على قدم المخطوطة واتصالها بالأولين من علمائنا .

من ذلك ان جملة (صلى الله عليه وسلم) التي تذكر عقب اسم سيدنا الرسول لاتكتب في المخطوطة الا مرموزاً اليها بحروف اربعة : الصاد (من صلى) واللام (من الله) والياء (من عليه) و(الواو) (من وسلم) هكذا (صليو) لابكلمة صلعم كما نفعل نحن اليوم .

وقد رأيت في (رسائل إخوان الصفا) رمزاً للتصلية بحروف ثلاثة فقط وهي (صلع) متصلة من دون ميم . اما (صلعم) فيظهر أنها اخترعت في حدود التسعمائة للهجرة : جاء في شرح الفية العراقي في مصطلح الحديث عند قول الناظم : (واجتنب الرمز لها والحذفا)

أي اجتنب الرمز للتصلية النبوية وحذف حرف من حروفها وانما إئت بها في النطق والكتابة كلها . ثم ذكر شارحها الشيخ زكريا الانصاري أن الشيخ (النووي) نقل اجماع من يعتد بهم على سنية الصلاة على النبي نطقاً وكتابة اذن لايكون من السنة أن يرمز اليها بحرف ما .

ثم ذكر الشيخ الانصاري أن الكاتب الذي كان أول من رمز للتصلية بحروف (صلعم) قطعت يده والعياذ بالله تعالى . ولا يخفى أن الشيخ زكريا الانصاري توفي في القرن العاشر للهجرة (٩٢٦) ه .

* * *

(١) شرعوا في طبعه بمصر وقد طبع منه الى اليوم ست مجلدات .

برجع من وصف (كتاب الثقلاء) الى وصف (الثقلاء) أنفسهم فنقول :

(الثقالة) لغة من صفات الاجسام ثم أجدُّوا لها اصطلاحاً وجعلوها من صفات الارواح .

والروح في أصل خلقتها . ومحض جوهرها ألطف شيء في الوجود ولذا يسميها بعضهم (اللطيفة الربانية) . لكن قد يعتري هذه اللطيفة حالة مرضية تجعلها غير لطيفة ولا مرضية بحيث يصبح الانسان الذي يجالسها أو يكالمها أو يشاهدها — كأنما حملت نفسه من ثقالتها جبلاً راسخ الأساس . أو كأنَّ أحد الناس ضغط على أكظامه فأخمد منه الأنفاس .

فالثقالة الممقوتة هذه تكون في روح الثقيل لا في جسمه . بل كثيراً ما يكون جسمه شختاً نحيفاً قليل الجرم . ومع هذا تشمر النفس بثقالته . وعلى العكس يكون الرجل أحياناً بادناً لحماً ضخم الجثة لكن تكون روحه خفيفة الحمل . لطيفة الظل .

وقد لاحظ علماء الأخلاق أن خفاف الروح يكونون في الغالب سماناً ضخام الاجسام فما علاقة خفة الروح والدعابة بضخامة الابدان ؟ سرٌّ ذلك ما زال مجهولا .

أما الثقالة ولماذا تكون في أرواح بعض الاشخاص دون بعض — فقد ذهبوا في تعليل ذلك (بيسكولوجيًا) كل مذهب :

فقال بعضهم : إن الثقالة عدوى واكتساب : فالثقيل يعدي الثقيل . كما أن الأجرب يعدي الأجرب . ولو صح هذا لوجب على الحكومة أن تلقي حجراً صحياً على الثقلاء . وهذا غير مستطاع .

وقال آخر : إن الثقالة ناشئةٌ عن تأثير البيئة والوسط وليس هذا بصواب ايضاً لأن الثقلاء واضدادهم اللطفاء يعيشون في بلدة واحدة وبيئة واحدة . وهواء وماء وطعام واحد ومدرسة وحكومة وعائلة واحدة . ومع هذا يكون أحدهم ثقيلاً . والآخر خفيفاً ظريفاً .

وقال آخرون : إن الثقالة وراثة فهي خُلُقٌ يرثه الثقيل من أبيه أو أحد أجداده كما تورث اللطافة وخفة الروح . وإني اعرف في طرابلس الشام (بل وفي دمشق كما أخبرت ايضاً) — أخوةً خمسةً كلهم بلغوا سن الشيخوخة وهم من أظرف الناس واخفهم روحاً . واحبهم للنكتة . ويخبرنا المعمرون من أهل طرابلس أن امهم كانت عجوزاً خفيفة الروح حلوة الكلام كثيرة المزاح والدعابة .

وربما كان هـذا القول (أي ان الثقالة وراثة كاللطافة) — قولاً صحيحاً . ولكن الاصح منه في اعتقادي أن الثقالة استعدادٌ خاص . ومزاجٌ خاص . في بعض الاشخاص فيكون هذا الانسان مستعداً لقبول هذا المرض الخلقي الخبيث . بينا ذاك الآخر مزاجه غير قابل له بالخلقة والاستعداد . وهذا كرض السرطان الذي لم يهتدِ الأطباء الى سببه وجُلُّ ما يمكنهم أن يقولوه : إنه ناشئٌ عن مزاجٍ خاص في الانسان لاعلاقة له بالارث .

هذه بيسكولوجية (الثقالة) أما بيسكولوجية (الاستثقال) اي شعور الانسان بثقالة غيره ومناشئُ هذا الشعور وأسبابه فأمره غامض جداً وذلك لتشعب هـذه الأسباب واختلاف تلك المناشئ ونضرب لكم مثلاً قاله[1] أحد (البيسكولوجيين) .

نرى أحياناً رجلاً فنستثقله ولا ندري السبب في كراهتنا له . فمنا من يستثقل الرجل السمين . ومنا من يستثقل الاشقر أو رجلاً آخر له أنف أقنى كمنقار النسر أو نحو ذلك وقد يعلل بعض هذا النفور في بعض الناس بحادثةٍ حدثت له في الصغر ثم انطبع أثرها في نفسه ولازمه حتى الكبر . مثال ذلك ان طفلاً كان يلعب ففاجأه رجل سمين وخوّفه : إما مزاحاً أو لغرض آخر . فانطبع الخوف في ذهن الطفل من كل رجل سمين وشبّ على كراهة السمان وهكذا يقال في كثير من حالات الاستثقال اه .

* * *

وتحمل الثقلاء والصبر على ثقالتهم سُنّة من سنن الدين ومما ينبغي أن يسعه صدر الحليم . ولكن الى حدّ محدود .

اما اذا تجاوزت الثقالة حدها . وزاد بردها . وطغا مدُّها . فحينئذٍ لاالوحيُ الالٓهيُّ يأمر بالصبر عليها . ولا الأنبياء عليهم السلام بلومين اذا انفضوا من حواليها . وشاهدُ ذلك ما جاء في القرآن والسنة وآداب السلف .

قال تعالى خطاباً لمحمد صلى الله عليه وسلم : (ولو كنت فظـاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) . والفظاظة هي الثقالة بعينها : فالله تعالي يقول لو كنتَ يا محمدُ فظّاً ثقيل الروح لكرهك العرب ولتفرقوا من حولك لكنك لست بفظ ولا ثقيل فلم ينفضوا بل التفوا حولك . وسمعوا قولك . وآمنوا بك . وهذا من فضل الله على الناس : إذ خلق لهم محمداً صلى

(١) رأينا هذا في مقال نشره بعض الفضلاء حديثاً .

الله عليـه وسلم غير فظٍّ ولا ثقيل الروح حتى آمنوا به . ولو خلقه ثقيلاً لما آمنوا بالطبع ولكانت لهم الحجة على الله في إرساله رسولاً ثقيلاً .

فانظروا أيها السادة ما أبشع الثقالة وأسوأ أثرها في الأمم وكيف ان غلاظة نبيٍّ من الأنبياء تصلح عذراً لأمته في أن يكفروا بدينه .

***

وقد افتتح (ابن المرزبان) كتابه (الثقلاء) بقوله : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (لما أهديت زينب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع طعاماً ودعا القوم . فجاؤا فدخلوا فجعلوا يتحدثون وجعل رسول الله يخرج ثم يرجع . وهم قعود فنزلت (فإذا طعمتم فانتشروا الآية) وقد علّق الحسن البصري رضي الله عنه على هذه الآية فقال : انظروا كيف أن الله تعالى ذمّ الثقل في القرآن . فقال : (فإذا طعمتم فانتشروا) .

ويظهر من مجموع الآثار الواردة عن السلف أن استثقال الثقيل أدبٌ من آدابهم إذ في ذلك تربيةٌ للثقيل وتنبيهٌ له الى إصلاح نفسه . وتداركِ شرّ ثقالته . وقد جرى كثيرون من السلف الصالح على هذا الادب حتى كان ابو هريرة رضي الله عنه إذا ثقُل عليه أحدٌ قال : اللهم اغفر له . وأرحنا منه .

فأبو هريرة يرى أن ثقالة الثقيل ذنب . ولذا دعا لصاحبها بالمغفرة أولاً . ثم الراحة من ثقالته ثانياً . وقال بعض الفضلاء الثقيل اذا عرف نفسه أنه ثقيل لا يكون ثقيلا . وهذا ما عناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله : (من خاف أن يكون ثقيلاً فهو خفيف . وأما من أمن الثقل فهو ثقيل) وقوله (أمن الثقل) معنـاه أن يبرر نفسه ويشهد لها بأنها ليست ثقيلة . وهذه الطأنينة لنفسه تجعله يغفل عن ردعها فتسرح وتمرح في ميادين الثقالة . وهو لاهٍ عنها . غير شاعر بثقالتها . وهـذه هي المصيبة العظمى . فسيدنا عمر رضي الله عنه نبّه الناس وحذّرهم من هذه الخطة الملعونة . وأوصاهم بان يسيئوا الظن بأنفسهم لئلا يتورّطوا في الثقالة من حيث لا يشعرون .

وكما أن الثقيل اذا اعترف بثقالته لا يكون ثقيلاً كذلك اللطيف الخفيف الروح اذا تباهى بلطافته وافتخر بخفته لا يكون لطيفاً ولا خفيفاً . وزِد على ذلك أنهم صرحوا بأن اللطيف الخفيف الروح اذا استأنس بالثقيل واستلطفه كان ثقيلاً مثله : قال المؤلف (ابن

المرزبان) نقلاً عن بعض الفضلاء : (إن الاستئناس بالثقيل آية على الثقالة : اذ كل طير انما يطير مع شكله) .

ومن علامات الثقالة الإلحاح في طلب الحاجات من الإخوان مهما اعتذروا له بعدم إمكان إجابة سؤله . وقديماً ماأوصى الحكماء بترك الإلحاح حتى قال حكيم العرب اكثم ابن صيفي (من ألحف في مسألة فقد أبرم وأثقل) .

ومن علامات الثقالة أيضاً أن يتبوأ الزائر من المجالس مكاناً ليس من العادة الجلوس فيه كوسط الحلقة مثلاً . وقد روي أن رجلاً قعد وسط حلقة سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه . ولم يكفه هذا حتى التفت الي حذيفة وقال له : ان فلاناً صديقك مات . فاغتاظ حذيفة . وقال له وانت أحق على الله أن يميتك : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يلعن الجالس وسط الحلقة .

وما كان السلف يتورعون من ذكر الثقيل بما فيه : فكان حماد ابن زيد اذا رأى (عفان) قال ما أثقلك ! !

وقال ابو نعيم سمعت سفيان الثوري يقول لزائدة بن قدامة لو كنت من البغال لكنت من بغال النقل . اي لأن بغال النقل تكون كبيرة ضخمة غير مروضة ولامهذبة بينما بغال الركوب تكون مرهفة الأعضاء لطيفة الجرم وتكون مع هذا مروضة مطبوعة على حسن السير .

وعن محمد بن عبدالرحمن قال : قال ابن طاووس (لكلام الثقيل أشد عليّ من الشيطان)

وروى مخلد أن اباعاصم كان يقول (اذا ابغضتُ الرجل لثقله أبغضت شِقي الذي يليه) اي يبغض جسمه الواقع من جهة ذلك الرجل .

بل غلا ابن السماك في ذلك حتى قال : كم من رجل خفيف الروح اذا نزل به بلاء تمنينا لو نتحمل عنه بلاءه بينما آخر من الثقلاء نحب ان يموت ونرتاح منه وأنشد :

(وثقيل أشد من ثقل المو ت ومن شدة العذاب الاليم)
(لو عصت ربّها الجحيم لما كا ن سواه عقوبة للجحيم)

وروى نصر الصائغ قال كنت عند (أسود بن سالم) فجاءه رجل من احد جانبيه فسلم عليه فلم يرد ابن سالم السلام عليه . وغمض عينيه . فدار الرجل وجاءه من الجانب

الآخر فسلم · فلم يرد عليه · فقال له : يابا محمد لمَ لاترد السلام ؟ فالتفت أبو محمد الى من حوله · وقال لهم : انظروا الى رجلٍ غمضت عيني لئلا أراه ومع هذا فهو يريد مني أن أرد عليه السلام · الى هذا الحد كانوا يتبرمون من الثقلاء حتى استجازوا عدم رد السلام عليهم مع أن رد السلام فرض . وكأن ابن سالم لما رأى الثقيل قد سلم دون أن يحافظ على آداب التسليم رأى هو أن يقابله على عمله فلا يرد عليه السلام ·

وكان السلف يتفننون في هجو الثقيل ووصفه بأساليب كلامية : فيها حسن صنعة · وفيها شفاء غيظ : قال المؤلف : حدثنا محمد بن قدامة عن ابي أسامة قال سمعت هشام ابن عروة يقول لرجل (لأنت اثقل من الزواقي) فلم يفهم ابن قدامة معنى كلمة (الزواقي) قال : فذهبت الى (الفراء) إمام النحاة فسألته ماالزواقي ؟ فلم يعرفها · فقال بعض جلسائه : إن العرب كانت تسمر بالليل سمراً يلذ لها ويطيب · فاذا سمعت زقاء الزواقي (اي صياح الديوك) شق عليها مجيء الصبح المؤذن بتفرقهم · قال ابن قدامة فأعجب الفراء بذلك ·

فالزواقي إذن هي الديوك التي تزقو أي تصيح وقت الفجر وتفرق أرباب السمر وتشتت شملهم فهم يستثقلونها اذا سمعوا صوتها ·

بل الأعجب من ذلك مارواه محمد بن سعد قال : كان في المدينة المنورة رجلٌ له ولدان لم يكن بالمدينة أثقل منهما وكان أبوهما صالحاً طيب النفس · فذكروا يوماً الثقالة في مجلسه فقال : (على رسلكم : امرأته طالق إن كانت الزوراء عند احد ابنيَّ الاجاروشة) : و (الزوراء) قصرٌ عظيم جداً بناه عثمان رضي الله عنه في المدينة · فالأب يحلف أن ذلك القصر على ضخامته ماهو الا جاروشة (أي حجر طحن) بالنسبة الى ثقالة ولديه حقاً إن ظرافة هذا الأب يخفف من ثقالة ولديه · ويجعلنا نترحم عليهما وعليه ·

وحاصل القول أن السلف رضي الله عنهم كانوا اذا اشتدت عليهم ثقالة الثقلاء فرجوا كربهم · وفشّوا وطبهم · بما يصوغونه من الأساليب البليغة · والنكت المستملحة · ولكن بعضهم كانت تفاجئه ثقالة الثقيل قبل أن يستعد لها فيدهش ويغم : فقد روى حماد بن زيد قال : حدثني شيخ من اعراب البادية قال : كان عمي رحمه الله إذا رأى ثقيلاً غشي عليه · وهذا الإغماء الذي كان يصيب ذلك الأعرابي عند رؤية الثقلاء يدل على رقة شعور وحساسية نفس اكثر من اللازم · أما ابن عائشة المغني المشهور فقد كان اذا رأى ثقيلاً

اكتفى بقوله : صنجة ميزان . وهي عياره من النحاس الأصفر كالرطل ونحوه . والأفصح في كلمة (صنجة) ان تلفظ (سنجة) بالسين لا الصاد . وهي معرب (سنكة) بالفارسية .

وابو أسامة كان إذا رأى ثقيلاً مقبلاً لا يغمى عليه بل يكتفي بقوله نغمت السماء .

وروى المؤلف عن والده أنه قال : كان بعض مشايخنا إذا رأى ثقيلاً صاح : (الحجر الحجر) ومراده بالحجر الحجر ان الثقيل في ثقالته يشبه الحجر ويحتمل أن يكون أراد إئتوني بحجر لأرشقه به واطرده عن مجلسي .

اما (وكيع) رضي الله عنه فأمره غريب : ذلك انه اذا جلس اليه احد الثقلاء غمض عينيه وقام كيلا يراه .

ووكيع هذا هو شيخ الامام الشافعي رضي الله عنه . وقد عناه الامام بقوله :

(شكوت الى وكيع سوء حفظي فأرشدني الى ترك المعاصي)
(واخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي)

وهكذا كانوا يتفننون في اساليب الكلام ليدلوا على نفرتهم من الثقيل . وبعضهم كان لا يرى شفاء غيظه منه إلا بأن يعرّفه صراحةً بأنه ثقيل . فقد روى معمر رضي الله عنه قال كنت جالساً في مجلس بصنعاء اليمن مع السماك بن الفضلي . فدخل عليه فتى يستثقله فقال لي يامعمر تعال حتى نعد ثقلاء صنعاء . فجعل يعدهم واحداً واحداً ثم عدني أنا منهم ثم عدّ الفتى بعدي . فسكت الفتى ولم يمكنه الاحتجاج .

وروى مجالد ان الشعبي كان يقول (من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء) . وقد يقال إن إبليس هو الذي شغله عن الصلاة فما ذنب الثقيل ؟ ولكن الشيخ الشعبي هكذا رأيه في المسألة . وروي أيضاً عنه أنه كان قاعداً في مجلس فأقبل رجل فلما رآه الشعبي قام منصرفاً وقال ثقيل والله .

والصحابي الجليل (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه كان يذهب في استثقال الثقلاء إلى أبعد من هذا كله : كان يقول (إن الثقيل ليدعوني أحياناً الى طعام فأقول له إني صائم . ولا اكون صائماً) يعني انه كان يترك إجابة الدعوة المسنونة في الإسلام كي لا يجالس الثقيل على طعام .

وعن ابن شبرمة قال سمعت الشعبي يقول : من النـاس من يخفُ ومنهم من يثقل حتى كأنه رحى ركبت فوق ظهري .

والامام الشعبي هذا من كبـار علماء السلف وقد تكررت الروايات عنه في استثقال الثقلاء . ومثله في ذلك (شعبة) و (شريك) و (الاعمش) فإنهم أيضاً من علماء السلف ورواة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد روى (ابن المرزبان) في كتابه (الثقلاء) الذي نحن بصدده اخباراً كثيرة مروية عن هؤلاء الأئمة الأربعة : الشعبي وشعبة وشريك والأعمش : اربعتهم من علماء السلف . وأول اسمائهم شين . الا الأعمش فشينه في آخره . وهم متماثلون في حب النكتة والميل الى الدعابة البريئة . كما أنهم رضي الله عنهم اتفقوا على استثقال الثقلاء . والتفنن في إظهار النفرة منهم .

وفي كتاب الثقلاء الكثير الطيب من أخبارهم وأقوالهم . وقد سمعتم آنفاً ماقاله (الشعبي) من أن من فاتته ركعتا الفجر فليلعن الثقلاء أما (شعبة) فقد روى مزاحم عنه قال : سألت شعبة عن رأيه في أبي بكر الهذلي فقال (دعني لا أقيءْ) اي إن مجرد ذكر الهذلي يكاد يضطره الى القيء . فكيف به لو رآه أوجالسه أو سمع كلامه ؟

وأما (شريك) ويسمى (النخعي) أيضاً : فقد روى عبدالرحمن الخوارزمي عنه قال : لقيت شريكاً فقلت حدثني بحديث كذا وكذا . فحدثني . فقلت : حديثاً آخر . فحدثني . فقلت وآخر . فقال لي باللغة الفارسية (أنت ثقيل . ولو كنت ثقيلاً بالعيان لخف الأمر وهان ولكنك ثقيل على القلب ايضاً) .

والحقُ أن الخوارزمي لو لم يكن ثقيلاً لما استوقفه في الطريق وكلفه أن يحدثه المرة بعد المرة . واذا كانت الاحاديث التي كلفه اياها من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم (وهي كذلك في الغالب) كانت ثقالته أشد وانكى . اذ كيف يليق أن تتخذ قارعة الطريق حيث العامة والغوغاء — مدرسةً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلنا إن (شريكا) هو الذي يلقب بالنخعي . فهو عربيٌ قحٌ منسوب الى قبيلة النخع إحدى قبائل مذحج العربية اليمنية القحطانية . ولا نعلم كيف تعلم اللغة الفارسية . وكان

رضي الله عنه بقصد من جميع الأقطار لتلقي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تولى قضاء الكوفة في زمن الخليفة المهدي ثم ابنه هرون الرشيد . ومات سنة ١٧٧ للهجرة فلنفرض أنه حذق الفارسية بسبب من الأسباب ولكن ما هو السبب الذي جعله يشتم الثقلاء باللغة الفارسية لا العربية ؟

هل ان شدة تعصبه للغة العربية الشريفة حملته على ان يكرمها ولا يلوثها بسب الثقلاء . ومن سبه للثقلاء بالفارسية ايضاً ما رواه ابن المرزبان قال : حدثنا احمد بن زهير قال حدثنا يحيى بن أيوب قال حدثنا بعضهم أن رجلاً كان يتكلم في مجلس شريك فأكثر من الثرثرة وهراء القول فقال له شريك بالفارسية (گران گران سخت) ومعنى ذلك بالفارسية (ثقيلٌ ثقيلٌ جداً) .

ذكرنا آنفاً أيها السادة أن هؤلاء الأئمة الاربعة (شريك وشعبة والشعبي والاعمش) كانوا أهل ظرف ونكتة وأشهرهم في هذا المعنى الأعمش . فقد روى العباس بن يزيد قال : أهدى رجلٌ الى الاعمش بطيخةً . فلما أخذ الأعمش مجلسه في الصباح حضر الرجل فقال له : (يا أبا محمد كيف كانت البطيخة) قال : طيّبة ثم عاد الرجل ثاني يوم وسأله عن البطيخة فقال طيبة ثم ثالث يوم كذلك . فصرخ الأعمش ان كففت عني وإلا تقيأتها .

فالتذكير بالاحسان من آيات الثقالة ايضاً اذ هو كالمنّ المنهي عنه شرعاً . وجاء حجاج ابن أرطاة الى الأعمش فاستأذن عليه فقال : قولوا له ابن أرطاة علَى البـاب . فقال الاعمش . (أبكيءٌ على بكيءٍ ؟) ولم يأذن له . واصل العبارة في كتاب الثقلاء هكذا (ابكي عليه ابكي عليه) ولا معنى لها ولعل الصواب ما قلته وأن يكون أصلها (ابكيءٌ على بكيءٍ) و (بكيء) فعيل من البكاءِ بالهمزة وهو قلة لبن الناقة . هذا أصل معناه في اللغة ثم نقله البلغاء الى معنى قلة الكلام عيّاً وفهاهةً فالأعمش بسبب مرضه أصبح بكيّاً اي ثقيل اللسان عسر النطق . وذاك الزائر (اي الحجاج بن أرطاة) غير فصيح ولا يحسن الكلام فهو فَدْمٌ عيّ . وأي مصابٍ أن يجتمع عيّان : لا يتفاهمان . ولا يخلصان في حديثهما الى بيان .

وعن اسماعيل بن ابي خالد عن الشعبي أنه قال : (عيادة حمقى القرّاء أشدُّ على أهل المريض من مرض مريضهم) وذلك أنهم يعودونه في غير وقت عيادة ويطيلون الجلوس .

وكانوا يريدون بالقراء ما نريده اليوم بكلمة (فقهاء) أو (طلبة) وفي مصر (مجاورون) وفي بلاد الترك (صُفته) وعكوف هؤلاء السُفط على دراسة علوم الدين تجعلهم كثيرهم من المتخصصين في فنهم : منعزلين عن الناس ذوي عقلية خاصة غير ملمين بطبيعة البيئة التي يعيشون فيها ولا بعادات أهلها ولا يعرفون شيئاً مما يدور في مجالس أنسهم واذا تكلموا فانما يتكلمون في مسائل فنونهم التي تخصصوا فيها . ولا كل أحد يفهمها أو يهتم بها . فاذا كانوا في مجلس لم يعرفوا كيف يجارون أهله في حديثهم . ولا يشاركونهم في مطارحاتهم . ولا يتفطنون الى نكاتهم . ومن أجل ذلك يستثقلهم الناس ولا يحبون مجالستهم .

على ان الشعبي نسب ثقالة طول الجلوس عند المريض الى حمق القرّاء مع أنها دأب كل ثقيل لا حمق القراء وحدهم . ألم يبلغكم خبر الأعمش مع عُوّاده ؟

مرض الأعمش مرة وعاده جماعة من الثقلاء . فأطالوا الجلوس عنده حتى ملّ وسئم ثم ما كان منه الا أن قام وتناول وسادته وخرج من الباب قائلاً : شفى الله مريضكم .

وعن عليّ بن يحيى أن المأمون قال يوماً لجلسائه : لِمَ صار الثقيل أثقل على القلب من الحمل الثقيل على الجسم ؟ فلم يجب منهم أحد وقالوا : أمير المؤمنين أعلم . فقال : لأن الحمل الثقيل يحمله كل من الروح والبدن . أما الشخص الثقيل فتنفرد بحمله الروح ولا يعاونها الجسم . فترزح المسكينة تحت عبء الثقالة من دون معين الا الله . ولا عجب ان يصدر هذا التعليل من المأمون فهو حكيم خلفاء العرب وارقهم شعوراً واكثرهم ظرفاً . وقد اتفق له ان تورّط يوماً مع مغنٍّ ثقيل فقال لجلسائه ما تعرفون في الثقيل ؟ فقال بعضهم : يقول الحكماء يا أمير المؤمنين : ان مجالسة الثقيل حمى الربع . فقال لهم المأمون : فكيف اذا كان مغنيّا .

قال المؤلف : وروينا عن ابي الحسن قال : أتى شريك بن عبد الله رجلٌ من أصحاب الحديث أي من طلاّبه الذين يقصدون المحدثين للتلقي عنهم . وكان هذا الطالب يسمى (أبا سويد) فجاء يسأل شريكاً عن أطرافٍ كانت معه . ويعني طلاب الحديث بالاطراف عباراتٍ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتصر عليها الراوي ولم يرو بقيتها فالرجل جاء يسأل شريكاً عن أطرافٍ من أحاديث لا عن أحاديث تامةٍ كاملة . وكان ذلك في يوم شديد الحر فأكثر على شريك من الكلام والثرثرة وثقل عليه جداً . وشريك

صابر وفي آخر الأمر صاح شريك : (يا جارية تعالي) فأقبلت . فقال لها : (أسبلي الستر وأخرجي الذباب وأبا سويد ايضاً .)

وطلاب الحديث عادةً يكونون شديدي الحرص في طلبه . وتحقيق ألفاظه . وضبط أسماء رواته . فاذا ظفروا بمحدث أبرموه بالسوآل وأتعبوه بالإلحاح . ولذلك كثر تضجر المحدّثين منهم كما سمعت من خبر شريك مع (أبي سويد) .

وكما روي ايضاً أن يحيى بن سعيد قال مرة لأحد هؤلاء الطلاب لأن تضربني بالسوط أحب اليَّ من أن تسألني عن حديث . وقال عبيد الله بن عمر : جئت يحيى بن سعيد يوماً فأذن لي وقال من رأيت بالباب قلت فلاناً . فصكَّ رأسه بيديه وقال . جبل جبل . ثم خرجت فرأيت الرجل مازال على الباب ولم أدر إن كان أذن له بالدخول أو لا .

والمحدث ابو أسامة اشترط في المستملي عنه أن لا يكون ثقيلاً : فقد قال سلمة بن شبيب سمعت أبا أسامة يقول إيتوني بمستملٍ خفيف على اللسان خفيف على الفوآد : إياي والثقلاء . إياي والثقلاء .

وقوله (إياي والثقلاء) أسلوب فصيح من أساليب كلام العرب . ومعناه باعدوا بيني وبينهم واحذروا أن تجعلوهم يقتربون مني . ومثله الحديث الشريف (اذا بلغ المرء الستين فاياه وايا الشوابّ) يعني اذا صار عمره ستين سنة فليحذر أن يتزوج من النساء الشابات وانما له التزوج بمن كانت عجوزاً مثله .

وهنا ملاحظة وهي أن أبا أسامة اشترط في تلميذه أن يكون خفيفاً على اللسان فهو إذن يتشاءم بالثقلاء حتى باسمائهم التي اصبحت ثقيلة بدلالتها عليهم .

وروى ابو الحسن المدائني قال : جاء رجل الى الأعمش فقال له (يا أبا محمد اكتريت حماراً بنصف درهم وأتيتك أسألك عن حديث كذا وكذا .) فأجابه الأعمش (اكترِ بالنصف الآخر حماراً وارجع حالاً .)

على أني أقول ما كان ينبغي للمحدثين أن يستثقلوا طلاب الحديث فان لتحصيله لذة تحملهم على كل هذا الإلحاح والإحراج : وقد قلت في ذلك :

(كلُّ [١] العلوم سئمتها بجديدها بالــــ رثيث)
(الا الحــديث فانه مثل اسمه أبداً حديث)

وأخشى اذا تبرم المعلمون من طلابهم أن يقابلهم طلابهم بالمثل فيستثقلوهم وينشدوهم :

(لا تمنعــنَّ العلم طالبه فسواك أيضاً عنده خبر)
(كم من رياض لا أنيس بها هجرت لأن طريقها وعر)

قال المؤلف : وأنشد ابو سعيد الاهوازيُّ يصف ثقيلاً بشعر على نسق عجيب فقال :

(لشؤم بخت ، وقضم قتٍّ [٢] والف سبتٍ وأربعاء)
(ونقل صخر ، وغيم شهر وطول هجرٍ ، على جفاء)
(وكسر ضلع ، ونتف صدغ بماء صمغٍ وموميــاء [٣])
(أهون من أن تراك عيني تمشي اختيالاً على الثراء)

والابيات ظاهرة المعنى سوى قوله : ان الف سبت والف اربعاء هي اخف [على] القلب من رؤية ذلك الثقيل ، فلعل المعنى أنهم قديماً كانوا يتعطلون عن العمل يومين في الاسبوع (الثلاثاء) و (الجمعة) فيكونون فيهما في مسرة وهناء ، فاذا جاء يوم الاربعاء بعد الثلاثاء استثقلوه أما يوم السبت بعد راحة الجمعة فاسألوا صبيان الكتاب يخبروكم عن مقدار ثقالته .

قال ودخل رجل على (ابن مصقلة) يعوده فكان من حديثه أن قال له : ياابا عبد الله مات فلان ، ثم سكت ، ثم عاد ، فقال مات فلان ، وسكت ، ثم ثالثة ، فلما اراد ان يخرج قال ياابا عبد الله ألك حاجة ، قال نعم : لاتعودني مادمت مريضاً .

وذكر الزبيدي في شرحه على القاموس ان ابن مصقلة هذا يسمى رقبة وكان من المحدثين روى عن انس بن مالك و وى له الترمذي في صحيحه .

(١) البيتان لابن الرومي واصلها هكذا :

(ولقــد سئمت مآربي فكأن طيبها خبيث)
(الا الحــديث فانه مثل اسمه ابداً حديث)

قوله الا الحديث أراد به حديث الندماء .

(٢) القتّ الفصفصة اليابسة وهو التي تسمى في مصر برسيما .

(٣) كأنه اراد بالمومياء الشمع .

وعن حماد الراوية قال : اخبرني رجل عن نفسه أنه قال للفرزدق ياابا فراس انشدني من شعرك قصيدة كذا وكذا . فأجابه الفرزدق (ياهذا إن قدرت ان لا تكون ثقيلاً فافعل) وقد أصاب الفرزدق : لأن هذا الثقيل وهو من عامة الناس يكلفه ان ينشده شعره . وهو إنشادٌ تتنافس به الخلفاء . فيحق للفرزدق ان يستثقل ذلك الرجل مذ استنشده على هذه الصورة .

وكما ابتلي الفرزدق بهذا الثقيل ابتلي زميله (الاخطل) بثقيل آخر تورط معه في غوطة دمشق .

ذلك ان الأخطل الشاعر الاموي المشهور كان يسمع بمعبد المغني الكبير ولا يعرفه فاتفق وجودهما في دمشق على باب الخليفة الاموي . فتعارفا وتآلفا وخرجا الى الغوطة ومعهما شراب وفاكهة وريحان وجلسا في احد البساتين على نهر جار . وتغريد أطيار وتناشد اشعار . واذا برجل قيل له : ان هذين هما فلان وفلان . فأحب الرجل مجالستهما وكان يسمع بشهرتهما فانسلّ اليهما . ونزل نزول العمى عليهما فصبرا صبر الكرام . وبعد سكوت عميق التفت الثقيل الى الأخطل وقال له : ياأخطل (أنظر القذى في كأسك) فحينئذ انفرج الكرب عن صدر الاخطل وشفى قلبه من الثقيل بهذين البيتين :

(وليس القذى بالعود يسقط في الإنا ولا بذباب وقصه أيسر الأمر)
(ولكن ثقيلٌ لا نودُّ اقترابه رمتنا به الأقدار من حيث لا ندري)

وروى الاصمعي عن ابن ابي طرفة (أن مجالسة الثقيل حمّى باطنة) لكن (جبريل الطبيب) الدمشقي كان يقول إننا معشر الاطباء نجد في كتبنا أن مجالسة الثقيل حمى الروح . وقيل للشعبي هل تمرض الروح قال : نعم من ظل الثقلاء . قال فمررت به يوماً فوجدته قاعداً بين ثقيلين . فقلت له كيف الروح الآن ؟ قال في النزع .

ولعل العنصر العربي بطبيعته وأصل غريزته يكره الثقالة وينفر منها . واذا رأيت عربياً ثقيلاً أو يألف الثقلاء . وبحثت عن نسبه وجدت فيه عرقاً اعجمياً .

هذا معن بن زائدة (أمير العرب المشهور) كان اذا تذاكروا بين يديه في ملذات الدنيا يقول : (ان الوقيعة في الثقلاء من الملذات) ومعنى الوقيعة فيهم غيبتهم وذكرهم بسوء .

دعونا من (معنٍ امير العرب) ودونكم ما روي عن (عليٍّ امير المؤمنين) فقد روى

(يمان بن ربيعة) أن رجلاً قال لسيدنا علي (ثبتك الله يا أمير المؤمنين) فقال (على صدرك) يعني ثبتني الله في القعود على صدرك فأقتلك أو أثقل عليك كما ثقلت عليّ بهذا الدعاء . ولعل في جو هذه الحادثة ما يمهد العذر للامام عليّ كرم الله وجهه في أن يظهر كل هذا الضجر من ذلك الرجل الذي دعا له .

وروى الامام ابن المرزبان في (كتاب الثقلاء) خبراً عن عليّ رضي الله عنه له علاقة بالثقالة وهو أغرب من الخبر السابق :

تعلمون أيها السادة أن الاشتر النخعي من أكبر قواد سيدنا علي وأشد شيعته حباً له . ومغامرة في سبيله . وهو الذي شرب العسل في طريقه الى مصر فمات . فبلغ معاوية الخبر فقال (ان لله جنوداً منها العسل) .

فقد روى المؤلف ابن المرزبان قال: حدثنا ابوالعباس عبدالله بن نصر حدثنا الحسين ابن علي حدثني محمد بن ابي الحرث حدثنا سفيان بن عيينة عن مجالد عن الشعبي قال: أخبرني عبد الله (ولعله يعني ابن عباس) أن علي بن ابي طالب عليه السلام كان يستثقل الاشتر اه .

هذا هو الخبر بسنده ومتنه . وهو محل غرابة لا يكشف سرها الا المؤرخون المدققون في أخلاق السلف .

وأبشع انواع الثقالات (الثقالة المسجلة) تلك التي يكتبها الثقيل بقلمه في مكاتباته : فقد ولد لبعض فضلاء بغداد (واسمه ابراهيم . على اسم سيدنا ابراهيم الخليل) — ولد سماه محمداً (باسم النبي صلى الله عليه وسلم) فأرسل اليه ثقيل من اهل البصرة يهنئه به فقال (بلغني انك سميت ابنك محمداً . وانت الى أعمال الانبياء . احوج منك إلى اسمائهم . وقبل هذا كان سماك ابوك إبراهيم . فما منعتك هذه التسمية من سفك الدم الحرام . وشرب أكواب المدام . واكتساب المال من الآثام . وما أدري كيف ادعو لابنك : إن دعوت له ان يشبهك فالعار والنار . وان دعوت ان لا يشبهك فالظنة والتهمة والشنار اه) يعني اذا كان الولد لا يشبه اباه كانت امه موضع تهمة والعياذ بالله تعالى .

واستثقال بعض افراد العائلة لبعضهم من اشد منغصات العائلة : كتلك الاعرابية المسكينة التي أعيتها ثقالة بعلها فهربت من بيته وقال فيها شاعر القبيلة :

(وتاركة للبيت من ثقل بعلها   كأن بعينيها قذى منه تهمل)

(تود على حسن التبعل انهـا رأت بعلها بين العمودين يحمل)

ومعنى قولها (حسن التبعل) انها وان كانت تربت على طاعة بعلهـا وحسن معاشرته كما امرها الله والرسول لكن ثقالته جعلتها تهرب منه وتتمنى ان يموت ويحمل بين عمودي النعش .

ومن هذا القبيل ماروي عن الاعمش انه استثقل جلساءه يوماً فهرب منهم الى داخل الدار . ثم لم يلبث أن عاد اليهم فقالوا له مالك عدت ؟ فقـال هربت منكم فاذا في البيت من هو اثقل . قالوا من ؟ قال : زوج بنتي .

والاعمش على جلالة قدره وحبه للنكتة يوجد في الامة العربية من هو أكبر مقاماً . وأحب للنكتة منه : ذلك هو الامام الثوري رضي الله عنه فقد سأله سائل ثقيل عن المسح على اللحية في الوضوء ؟ فقال له : خللها (اي ادخل أصابعك المبللة في خلال شعرها زيادة في التنظيف) فقال له الرجل (اتخوّف ان لا يبلغها الماء) . فقال له انقعها من اول الليل .

أما (سويد بن عبد العزيز) فانه لا يعجبه هذا من الثوري ولا يرضيه اطالة الحديث مع الملحين في السؤال . فهو ينصح ويقول : اذا ثقل عليك احد في سؤآله فألزمه عيناً عميـا وأذناً صما .

قلنـا ان أعراب البادية تغلب عليهم الرقة ولطف الحس والنفرة من الثقالة والثقلاء ولكن ما بالكم اذا كان اعرابياً وعاشقاً ايضاً كيف تكون رقته ولطافته ؟ فقد روى الاصمعي قال : اراد اعرابي ان يكلم امرأة يحبها . فنظر فاذا رجل يراقبه فامتنع من كلامها وثقل عليه الرجل فما ملك نفسه أن خاطبه بهذه الجمل التي جمعت بين خشونة السب . ونعومة العتب . فقال له : (مالك رماك الله بداء عضال . يفقدني شخصك . ويسكنك رمسك . فقد ثقلت على عاشق مسكين . لم تشبع عينه من سهادها . كما شبعت عيون الناس من رقادها)

وكان ابن مصقلة أرق الناس وأرحمهم بالثقلاء فهو لا ينتهرهم ولا يسبهم . بل يتلطف بهم ويخاطبهم بعبارات غاية في اللين والنعومة فيقول للزائر الثقيل مثلاً (ياهذا داركم بعيدة والسماء متغيمة فقم مصحوباً بالسلامة) .

وقارنوا أيها السادة بين عبارة (ابن مصقلة) المصقولة الناعمة وبين ماخاطب به منصور ابن الحجاج الثقيل فقال (اللهم اقتله : وان كان قتله يقتلني فاقتله واقتلني) .

يكفي يا سادتي إزعاجكم بأخبار الثقلاء . وقد مضى الوقت أو كاد . وأخشى ان اثقل انا عليكم ايضاً اذا زدت على ماتقدم .

بلى يمكنني أن أزيدكم . لكن زيادة لا تعدونها من التثقيل بل تعدونها من التخفيف وترويح النفس — زيادة من أحب ماتتعشقه نفوسكم . وترتاح اليه قلوبكم .

تلك الزيادة هي حبُّ النبي صلى الله عليه وسلم للمزح الحق اذ كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول الا حقاً حتى إنه كان له من الصحابة (رضي الله عنهم) من يضحكه واشهرهم في ذلك الصحابي (نُعيمان بن عمرو بن رفاعة الانصاري) ممن شهد وقعة بدر رضي الله عنه .

فمن دعابات (نعيمان) أن أعرابياً قصد النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه . فقال بعض الصحابة لنعيمان لو عقرتها فأكلناها . فاننا في شهوة الى اللحم فنحرها نعيمان لهم . وخرج الأعرابي من عند النبي صلى الله عليه وسلم فرأى راحلته معقورة فصاح (واعقراه يا محمد) فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال من فعل هذا ؟ قالوا نعيمان . فلحقه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الصحابة واذا بنعيمان قد اختبأ في دار السيدة (ضباعة بنت الزبير) فجعلوا يفتشون عليه . فأشار رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم ورفع صوته قائلاً ما رأيته يارسول الله وأشار باصبعه الى حيث كان . وكان مختبئاً في سرب تحت أغصان من جريد النخل فأخرجه صلى الله عليه وسلم من مخبأه وقال له :

— ما حملك على ماصنعت ؟

— الذين دلوك عليّ يارسول الله . يعني انهم هم الذين امروه بما فعل .

فجعل رسول الله يمسح التراب عن وجه نعيمان ويضحك . وغرم ثمن الناقة للأعرابي .

وكان نعيمان يدخل السوق فيشتري من مأكولاتها بالدين ويأتي به النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً أهدي هذا اليك . ثم إذا طالبه صاحب الهدية بثمنها جاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم . ويقول له : أدِّ هذا ثمن متاعه . فيقول النبي صلى الله عليه وسلم لنعيمان : أو لم تهده إليّ ؟ فيقول : (واللهِ إنه لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله) .

فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يكره البؤس والتباؤس . ويحب إحداث المسرة في نفوس اصحابه واهل بيته . ومن قوله في ذلك (ألهوا والعبوا فاني اكره أن يُرى في دينكم غلظة) .

ومن الطف الاحاديث النبوية والمسامرات العائلية القدسية ماروته السيدة عائشة رضي الله عنها وهو ان امرأة من أهل مكة كانت تدخل بيوت قريش وتضحك النساء وقد اشتهرت بذلك : قالت عائشة فلما هاجرنا الى المدينة ووسع الله علينا دخلت تلك المرأة عليّ فقلت لها (فلانة !! ما أقدمك ؟) قالت (قـدمت اليكن) . قلت فأين نزلت ؟ قالت على فلانة وكانت فلانة المذكورة امرأة من اهل المدينة تضحك نساءها ايضاً .

قالت عائشة وبعد قليل دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

فلانة المضحكة عندكم ؟ ؟ قلت : (نعم) . قال :

(فعلى من نزلت) ؟

قلت : نزلت على فلانة المضحكة فقال :

« الحمد لله ! إن الأرواح جنود مجندة : ماتعارف منها إئتلف . وماتنا كر اختلف » .



مخطوطات المدرسة العثمانية

« بحلب »

كانت في الشهباء مكاتب متعددة في مدارسها وزواياها الكثيرة ، الا ان ايدي الزمان قضت عليها وشتتت شملها والبقية الباقية منها الآن هي في مكتبة الأحمدية والعثمانية والشرفية التابعة للأوقاف والمولوية وهذه المكاتب الأربع لا تمنع يد لامس بالرغم عن وجود محافظين لها . ومنذ ثلاث سنوات وقعت في الأحمدية سرقة مهمة بلغ عدد المسروق منها بالإحصاء الرسمي ٩٠ كتاباً منها ما هو في النفاسة في الدرجة الأولى وكانت النتيجة بعد المحاكمة والتحقيقات الكثيرة تبرئة السارق كأن السرقة لم تكن . ولو وقع اقل من ذلك بكثير في مكاتب اوروبا لقامت القيامة لذلك الحادث وتوالى البحث والتحقيق الى ان تظهر تلك اليد الآثمة وتجازى بما تستحقه .

ومنذ سنتين ايضاً ظفرت عند بعض باعة الكتب بكتاب عليه ختم المكتبة العثمانية فابتعته ممن هو عنده بعد استئذان ادارة الأوقاف عندئذٍ اهتمت الدائرة بعض الاهتمام واحببت على اثر ذلك ان اتحرى هذه المكتبة واكتب ما فيها فباشرت ذلك وعمل فهرس لها ولكن حالت عوائق دون اتمام ما شرعت فيه والآن عدت الى ذلك واتممت كتب التفسير والحديث فأحببت ان اتحف القراء بالنخبة من هذين القسمين اذ لا يخلو ذلك من فائدة لعشاق الكتب المخطوطة النادرة ومحبي الاطلاع على نفائسها .

« كتب التفسير »

الجزء الأول من تفسير الوسيط للامام الواحدي فيه من تفسير سورة الأنعام الى قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) لاتاريخ لكتابته ويظهر انه مما كتب في القرن السابع أو الثامن .

الجزء الثاني منه فيه من سورة يونس الى آخر سورة الكهف لاتاريخ لكتابته ايضاً .

الجزء الثالث منه اوله سورة مريم وفي آخره من سورة الأحزاب الى قوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون) لم يذكر ايضاً تاريخ كتابته لكنه اقدم كتابة من الجزئين الأولين يظهر انه مما كتب في القرن السادس .

الجزء الرابع منه اوله سورة الصافات الى آخر القرآن محرر سنة ٥٧٢ بخط ابي العباس احمد بن الحسين بن حيدرة السيرافي الواسطي وهذا الجزء اقدم من سابقيه .

نغبة البيان في تفسير القرآن لأبي عبد الله العارف بالله الشيخ عمر بن محمد السهروردي البكري وعليه خطه في اوله وفي آخره في ذيل سماع الكتاب عليه نسخة تامة نفيسة جداً محررة سنة ٦١٣ وهذا التفسير والذي قبله لم يطبعا بعد .

الجزء الأول من النهر للامام ابي حيان محمد بن يوسف آخره قوله تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم رسول من ربكم) من سورة يونس بخط احمد بن محمد بن عثمان الخطيب الطوخي بمدرسة الكهارية (من مدارس مصر على ما أظن) يظهر انه مما كتب في القرن الثامن .

جزء منه فيه من سورة الأنعام قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) الى آخر سورة مريم لا تاريخ عليه غير انه على ماظهر لي مما كتب في القرن الثامن . وهو من وقف الملك المؤيد ابي النصر شيخ اوقفه وما قبله وما بعده على الجامع الذي انشأه بباب زويلة (في مصر) وعليه خط احمد بن علي العلاني .

جزء منه اوله سورة الكهف الى آخر القرآن لا تاريخ لكتابته غير انه مما كتب في القرن الثامن ظناً وعلى الورقة الأولى منه خط العلامة ابراهيم البتروني الحلبي سنة ١٠٤٧ ا

الجزء الأول من النهر ايضاً الى آخر سورة يونس بخط محمد الأشموني بخط عادي محرر سنة ١١٤٧ والثاني منه اوله سورة هود الى آخر القرآن .

تفسير الكواشي المعروف بالتلخيص لأبي العباس احمد بن يوسف الكواشي المتوفى سنة ٦٨٠ الورقة الأولى مذهبة محرر سنة ٧١٠ بخط عمر بن عبدالرحيم الكردري .

إعراب بعض آيات من القرآن العظيم لجمال الدين ابي عمرو المعروف بابن الحاجب نسخة قديمة الخط لا تاريخ في آخرها يرجع عهد كتابتها الى القرن الثامن .

إعراب آيات من القرآن العظيم لأبي عبدالله الحسين بن خالويه المتوفى سنة ٣٧١ الفاتحة

وآيات من جزء عم اسئلة القرآن لمحمد بن ابي بكر الرازي محرر سنة ١٠٥٩ قطع ربع .
ايضاً اسئلة القرآن للرازي نسخة ثانية وصل فيها الى سورة (والتين والزيتون) تنقص اوراقاً .

حواشي قطب الدين علي تفسير الكشاف الى اواخر سورة طه .
عمدة الحفاظ في تفسير اشرف الألفاظ لابن السمين احمد الحلبي محرر سنة ١٠٥٦ .
ومن هذا الكتاب نسخة ثانية في مكتبة الأحمدية بحلب وربما كان الناسخ واحداً .
أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن احمد الواحدي النيسابوري .
الزبور قطع كامل خطه حسن محرر برسم عثمان باشا وباني المدرسة العثمانية وواقف الكتب فيها بخط محمد بن عيسى الكردي .
كتاب في القراآت لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني .
حاشية السعد على الكشاف نسخة نفيسة قديمة الخط من الأول الى آخر سورة الانعام .

« نفائس كتب الحديث »

الجزء الاول من المفهم لما اشكل من تلخيص كتاب مسلم تأليف الامام ابي العباس احمد ابن عمر ابن ابراهيم القرطبي لاتاريخ لكتابته ويظهر انه مما كتب في القرن الثامن .
الجزء الثاني منه مثل الاول خطاً وحجماً وعليه خط العلامة ابراهيم بن الملا الحلبي وخط المحدث الشيخ احمد الشراباتي الحلبي .
الجزء الثالث منه مثل الاول والثاني خطاً وحجماً .
الجزء الرابع منه عليه خط الملا ايضاً اوله كتاب فضائل الصحابة الى آخر الكتاب محرر سنة ٧٢٤ بخط محمد بن عيسى بن رزيك محرر الأجزاء التي قبله .
الجزء الأول من شرح الشفا لشيخ الاسلام الشيخ عمر العرضي الحلبي المتوفى سنة ١٠٢٤ واسمه فتح الغفار قطعه كامل بخط خليل بن محمد محرر برسم نعمة الله افندي الكواكبي نقله من نسخة المصنف .

الجزء الثاني منه . والثالث منه بخط عمر بن احمد محرر سنة ١١٤١ وبه تم الكتاب ومن هذا الشرح نسخ متعددة في الاستانة ذكرت اماكنها في تاريخي (اعلام النبلاء) في

ترجمة المؤلف وهو شرح جليل اعتنى به مؤلفه وقد ذكره الشهاب الخفاجي في مقدمة شرحه للشفاء ٠

الجزء الثاني والرابع والخامس من تخريج احاديث الهداية للزيلعي ٠ومن هذا الكتاب نسخة كاملة في مكتبة الأحمدية بحلب ٠

الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار للحافظ الحازمي المتوفى سنة ٥٨٤ عليه في آخره خط الحافظ محمد بن سعيد الدبيثي وغيره من الحفاظ محرر في بغداد سنة ٦٣٢ بخط محمد بن احمد بن ابي بكر بن خليل البكري ٠ وعلى هذه النسخة وعلى نسخة مطبوعة في الهند طبعت هذا الكتاب في مطبعتي العلمية ٠

جامع الأصول للإمام بن الأثير وهو الذي جمع فيه الكتب الستة مجلد ضخم قطع كامل مذهب الصحيفة الأولى جميل الخط لاتخاله الا طبعاً وفي آخره رجال الكتب الستة لاتاريخ لكتابته ويظهر انه مما كتب في القرن العاشر في بعض بلاد العراق [1] ٠

فتح المتعال في مدح النعال للعلامة احمد بن محمد المقري المغربي التلمساني نزيل القاهرة جلد واحد نسخة المصنف كما هو مذكور في آخره وفيه سبعة رسوم لنعل النبي صلى الله عليه وسلم ملونة بالألوان البديعة وفي آخرها تقاريظ لعلماء عصره من علماء الديار المصرية آخرهم سيدي محمد بن رأس العين ٠ وهذا الكتاب طبع الآن في الهند ٠

نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض للشهاب الخفاجي في مجلد ضخم مذهب الورقة الأولى محرر سنة ١١٢٩ ٠

توثيق عرى الأيمان في تفضيل حبيب الرحمن للامام العلامة الشيخ ابراهيم بن البارزي الحموي ٠ مجلد واحد ضخم ٠ النسخة مقروءة على المؤلف سنة ٧٣٣ وهي بخط علي بن جمعة ابن ابي الحسن الشافعي الهلالي الحموي حررها سنة ٧٢٢ ٠ وهذا الكتاب نادر الوجود ولا اعلم له نسخة ثانية ٠

---

(١) في مدرسة يحيى باشا في الموصل نسخة في مجلدين ورقها حريري جلد محلى بخط حمو الكردي في الموصل خطها في غاية الجودة وقد رتب حواشيه احسن ترتيب ٠ اه مخطوطات الموصل للدكتور داود الجلبي ص ٢٣١ ٠

الكاشف في رجال الكتب الستة للحافظ شمس الدين عبدالله محمد الذهبي نسخة نفيسة جداً محررة سنة ٧٥٦ اي بعد وفاة المؤلف بقليل ومقابلته .

دلائل النبوة للحافظ البيهقي مجلد ضخم بخط مغربي محرر سنة ٨٧٤ بخط محمد بن محمد ابن عبد الله بن   بن اسماعيل الدفتري المالكي .

جزء منتخب من تهذيب الكمال للمزي اختصار عماد الدين ابي بكر بن ابي المجد الحنبلي البعلبكي الأصل المتوفى سنة ٨٠٤ ومعه كتاب الضعفاء المختصر من تهذيب الكمال .

الكواكب الدراري في شرح البخاري للعلامة الكرماني نسخة في ٣ مجلدات قطع كامل .

خلافة الأئمة الاربعة للامام احمد بن حجر الهيثمي مجلد وسط قطع وسط محرر سنة الف بخط تقي الدين بن الحاج ابي بكر الموقت بجامع الكبير بحلب حسن الخط .

شرح الامام سراج الدين عمر بن ابي الحسن علي بن الملقن الشافعي المتوفى سنة ٨٠٤ في اربع مجلدات ضخام المجلد الاول ينقص من اوله قليلاً واول ما فيه باب ما ذكر من ذهاب موسى في البحر الى الخضر عليه السلام .

والمجلدات الأربع هي بخط دقيق جداً وناسخها الحافظ الكبير الامام ابراهيم بن محمد ابن خليل سبط ابن العجمي الحلبي المعروف بالبرهان الحلبي المتوفى سنة ٨٤١ .

المجلد الأول محرر سنة ٧٨٥ والثاني سنة ٧٨٦ وعليهما خط المؤلف في عدة محلات وقد حررهما البرهان الحلبي حينما كان في مصر . وجاء في آخر المجلد الثاني ما نصه : ثم بلغ في الثاني بعد المائة قرآءة عليّ ومقابلته بأصله نفعه الله واياي . كتبه مؤلفه غفر الله له .

والمجلد الثالث والرابع حررهما الحافظ البرهان الحلبي سنة ٨٢١ في حلب في المدرسة الشرفية بهذا الخط الدقيق وفي نهاية الرابع تم الشرح .

جاء في كشف الظنون في الكلام على جامع الصحيح للامام البخاري وشروحه في ص ٣٦٦ وشرح الامام سراج الدين عمر بن علي بن الملقن الشافعي المتوفى سنة ٨٠٤ وهو شرح كبير في نحو عشرين مجلداً اوله ربنا آتنا من لدنك رحمة الآية احمد الله سبحانه وتعالى على توالي انعامه الخ قدم فيه مقدمة مهمة وذكر انه حصر المقصود في عشرة اقسام في كل حديث وسماه شواهد التوضيح قال السخاوي اعتمد فيه على شرح شيخه مغلطاي والقطب وزاد فيه

قليلاً قال ابن حجر وهو في اوائله اقعد منه في اواخره بل هو من نصفه الباقي قليل الجدوى انتهى .

وذكر الحافظ السخاوي في الضوء اللامع في ترجمة الحافظ البرهان الحلبي التي نقلناها عنه الى تاريخنا (اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (في ج ٥ ص ٢٠٧) وكتب عنه شرحه على البخاري في مجلدين بخطه الدقيق الذي لم يحسن عند المصنف لكونه كتب في عشرين مجلداً .

وجاء في ترجمته بعد ذلك واجتهد الشيخ رحمه الله تعالى في هذا الفن (فن الحديث) اجتهاداً كبيراً وكتب بخطه الحسن الكتب فمن ذلك كما تقدم شرح البخاري لابن الملقن بل فقد منه نصفه في الفتنة (فتنة تيمورلنك) فأعاد كتابته ايضاً اه .

ويستفاد من كلام الحافظ السخاوي انه كتب جميع الشرح في مجلدين وليس كذلك لما تقدم من انه كتب النصف الأول في مجلدين سنة ٧٨٥ وسنة ٧٨٦ ويحتمل انه تم كتابة الجميع في اربع مجلدات ثم فقد منه النصف الثاني في الفتنة فأتمه في مجلدين سنة ٨٢١ بالمدرسة الشرفية في حلب .

وولادة الحافظ البرهان الحلبي سنة ٧٥٣ وكتابته لهذين المجلدين اللذين يبلغان عشرة مجلدات سنة ٨٢١ فيكون عمره حين اشتغاله بكتابتهما ٦٨ سنة ومن هنا تعلم علو همة هؤلاء الرجال وحرصهم على الافادة والاستفادة وان كبر السن لم يكن مانعاً لهم من الاشتغال والتحرير .

وطريقة الامام ابن الملقن في هذا الشرح انه يذكر الحديث بتمامه ثم يشرع في الكلام عليه من عشرة وجوه وهكذا وفي الجملة فهو شرح جليل من اجل شروح البخاري يضاهي شرح العيني وابن حجر ولعله في كثير من المواضع اعظم فائدة منها ولا يؤثر فيه ما تقدم من قول الحافظ السخاوي .

وهو لعظم فائدته جدير بالطبع فعسى ان ينهض لابرازه الى عالم المطبوعات بعض ارباب المطابع في مصر فتتم الاستفادة منه .

شرح المصابيح للامام فضل الله التوربشتي مجلد واحد محرر سنة ٧١٢ .

شرح المناوي الكبير للجامع الصغير للجلال السيوطي في سبع مجلدات نسخة كاملة .

الجزء الثاني من المناوي ايضاً .

القرب في فضل العرب تأليف الحافظ الزين العراقي .

بهجة المحافل واجمل الوسائل بالتعريف برجال الشمائل تأليف الشيخ ابراهيم اللقاني .

الاصابة في اسماء الصحابة للحافظ بن حجر في مجلدين بخط محمد الداغستاني كتبهما سنة ١١٢٩ .

التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح للامام الزركشي جلد واحد محرر سنة ٨٤٨ .

الجزء الاول من سنن ابي داود الى آخر الجزء السادس من اجزاء الخطيب وعليه خط الحافظ يوسف بن عبد الهادي وسماعات كثيرة .

الاستيعاب في أسماء الأصحاب للحافظ بن عبد البر الاندلسي في اربع مجلدات بخط مغربي وعليها سماعات متعددة مكتوبة بقرطبة والأجزاء بخط ابراهيم بن يحيي بن ابراهيم حررها سنة ٥٢٣ فهي محررة بعد وفاة المؤلف بقليل ولعل هذه النسخة انفس نسخ الاستيعاب الموجودة في الدنيا .

المنهاج للامام ابي عبد الله الحسين بن الحسن الحلبي المتوفى سنة ٤٠٣ وهو من رجال ابن خلكان وهو في ثلاث مجلدات ضخام وهو شرح لحديث واحد وهو قوله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة آخر الجزء الاول «فصل: فأما الفرق بين دعاء الرجل لغيره بالحضر وبين الشفاعة له» . قال في آخره يتلوه في الجزء الثاني : الثالث عشر من شعب الايمان وهو باب التوكل على الله جل ثناؤه . وهو بخط محمد بن احمد بن سليمان المالكي محرر سنة ٧٤٥ .

والجزء الثاني ليس عليه تاريخ كتابته لكنه بخط الناسخ الأول وعلى هذا الجزء خط شيخ الاسلام الشيخ عمر العرضي الحلبي شارح الشفا للقاضي عياض .

الجزء الثالث منه وهو تتمة الكتاب عليه خط العرضي ايضاً وليس عليه تاريخ كتابته لكن الناسخ واحد . ومنه نسخة في المكتبة السلطانية بمصر ولكن مما يؤسف له ان كثيراً من اوراقه في الأجزاء الثلاثة ملتصقة بعضها ببعض لمطر كان اصاب هذه النسخة وغيرها وذلك لقلة العناية بأمر المكتبة وعدم المبالاة في امر حفظها من امثال ذلك .

واتمنى ايضاً ان يقيض الله لهذا الكتاب من يقوم بأمر طبعه لينتشر وتعم فائدته .

الحلية النبوية الشريفة وهي ورقة واحدة فيها صحيفتان فيهما نعت النبي صلى الله عليه

وسلم بخط درويش محمد المولوي بخط جميل جداً الصحيفة اليمنى ضمن سطور مكتنفة بالوان من الاحبار والدهانات العجيبة ومموهة بالذهب واليسرى شجرة ملونة كذلك ومموهة بالذهب وهي ضمن غلاف من جلد ·

كتاب فضل الخيل للحافظ شرف الدين الدمياطي المتوفى سنة٧٠٥ مجلد واحد عليه في آخر صحيفة منه خط المؤلف وسماع عليه سنة ٦٨٩ بالقاهرة وخطه حسن وهو مضبوط بالشكل وهو من نفائس هذه المكتبة ايضاً ·

وقد وفقت لطبع هذا الكتاب على هذه النسخة وعلى نسخة أخرى هي في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب محررة سنة ٧٢٩ وقد اخذت بالمصور الشمسي صحيفة من تلك وصحيفتين من هذه وطبعت معه كتاب رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد للعلامة الشيخ محمد الجشي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٨ ·

حلب : محمد راغب الطباخ



رحلة اوليا جلبي

- ٣ -

ثم سرنا الى الجنوب فكنا نجتاز تارةً أماكن صخرية وتارة مستنقعات وآجاماً الى ان وصلنا بعد ست ساعات الى قلعة المضيق(١) . وهي قلعة صغيرة

(١) اخطأ الجلبي في المدة التي ذكرها . فالبعد بين جسر الشغر وقلعة المضيق ٤٥ كيلو متراً لا تستطيع القافلة اجتيازها باقل من اثنتي عشرة ساعة . والخارج من جسر الشغر في يومنا يسير بادئ بدء في طريق السيارات المعبدة احسن تعبيد الآتية من اللاذقية والمتجهة شرقاً نحو الجبل الوسطاني فسهل الروج فجبل الزاوية فسهول اريحا وادلب وحلب وبعد ستة كيلو مترات يودعها عند مفرق بين قريتي فريكة وسللي وينحرف الى الجنوب فيمر باراضي قرية الزيادية ويلمح عن بعد على يمين العاصي قرى الكفير وفرقور والزيارة . ثم يمر بقرية قسطون التي تعد من اخصب قرى الروج واكثرها غلالاً وكان فيها حصن قال عنه ياقوت : قسطون حصن كان بالروج من اعمال حلب نزل فيه ابو علي الحسن العقيلي في سنة ٤٤٨ فاستولى عليه وخربه اه .

وبعد قسطون ينتهي سهل الروج ويدخل السائح في سهل الغاب متتبعاً الرصيف الروماني القديم وهو صنع الذين بنوا مدينة افامية ومدوه منها الى انطاكية ولا تزال احجار هذا الرصيف وامياله ماثلة للعيان في مواضع كثيرة من سهل الغاب وفي الشمال عند دركوش تغيب تارة وتظهر أخرى فتسير في سفح اعضاد جبل الزاوية ولا تفارقه وترى عليه كثيراً من جلاميد الصخور المتدحرجة بفعل العوامل الطبيعية على كر الدهور . واعضاد جبل الزاوية وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو نسبة لقرية ذكر ياقوت انها من قرى افامية واقفة كالجدار

شرقي سهل الغاب كما ان جبال النصيرية التي كان يدعوها الرومانيون برجيليوس ودعاها ابو الفداء جبل الخيط واقعة في غربيه اما المستنقعات والآجام التي اشار اليها اوليا چلبي فهي بطائح سهل الغاب الفسيح وادغاله وهذه تنقلب في فصل الشتاء الى بحيرة عظيمة تدعى بحيرة افامية تحصل من نهر العاصي الذي لا يجد متسعاً عند قرية قرقور وما بعدها ليجري براحة في زمن طغيانه ثم من الانهر والينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبال المحيطة بذلك السهل من الشرق والغرب · وبحيرة افامية ما برحت كما وصفها ابو الفداء « يحيط بها القصب والصفصاف من كل جانب وفي وسطها غابة من القصب والبردي وبها من انواع الطيور مثل الثمات مثلثة التاء والغريرات والنجع والاصواغ والاوز والطيور التي تأكل الاسماك مثل البجلط والابيضانيات وغير ذلك من طيور الماء وفي ايام الربيع ينبت فيها النيلوفر الاصفر حتى يغطي بجموعها اه ·

وقال شيخ الربوة : بحيرة افامية بحيرة كبيرة يدخلها العاصي ويخرج منها ولها سكر يصاد فيه نوع من السمك شبيه بالحيات يسمى انكليس لحمه شبيه بالألية المشوية وللناصري (لعله يعني الملك الناصر محمد بن قلاوون) فيه رغبة عظيمة يحمل في المراكب اليهم (كذا) داخل البحر ضمانه في السنة نحو ثلاثين الف درهم · وقال في موضع آخر : بحيرة فامية يشقها العاصي ولا يلتقي احدهما بالآخر وفيها من السمك الانكليس والسلور ما لا يوجد بغيرها اه ·

ومن الغريب ان جغرافيي العرب واخص بالذكر ياقوت وشيخ الربوة وابو الفداء اكتفوا بوصف بحيرة افامية ولم يذكروا اسم سهل الغاب ولا وصفوه حتى انه لم يرد في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الا مرة (طبع جامعة برنستون صحيفة ٢١٨) في حكاية « انهزم فيها السبع الى الغاب » · ولم افهم اي غاب كان يعني · لأنه ذكر هذا السهل في موضع آخر (صحيفة ٥٨) باسم مرج افامية وانه استاق منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم · اما كتبة الافرنج فقد قالوا ان سهل الغاب كان في زمن السلوقيين مجففاً يزرع ويستثمر وان استرابون اطنب بخصبه ووفرة غلاله وربما كان يربى فيه من قطعان الجواميس والخيل وان القدماء اقاموا فيه سدوداً وحفروا خنادق لمنع طغيان العاصي · ذكر السائح الافرنسي « كيليوم راي » انه شاهد منها في سنة ١٨٦٠ سداً له فتحات وفي جنوبي الغاب ضيعة

تدعى الخندق في جوارها خندق قديم كان خاصاً بتصريف المياه نحو العاصي وكانت برزية تفترق عن افامية ببحيرة تحصل من سد على النحو الذي ذكره ابو الفداء فيما ننقله عنه في وصف برزية . هذا وقد درس المهندسون في زمننا مشروع تجفيف الغاب وتنظيم طرائق ريه واعداده للحرث والزرع ولا يعلم متى يمكن البدء بالعمل . فمن عُني بهذا المشروع وكتب عنه تقريراً ضافياً المهندس ويلهلم مستشار وزارة الاشغال العامة في حكومة الاتحاد السوري الملغاة في سنة ١٢٤٤ قال ماخلاصته : بعد ان يجتاز نهر العاصي حماة يجري في واد يختلف سعةً وضيقاً بين مكان وآخر ثم يسيل في مضيق عميق الغور ينفرج فجأة في بدء سهل متسع يبدأ من قلعة شيزر وعلى بعد عشرة كيلو مترات من هذه القلعة يصبح السهل مستنقعاً ويدعى (الغاب) وهو يبدأ من قرية تل سلحب وينتهي قرب قرية قرقور وطوله ستون وعرضه عشرة كيلومترات ومساحته ٦٠٠٠٠ هكتار وأرضه تتألف من تربة عميقة ينساب العاصي فوقها محاطاً بالمستنقعات الكثيرة وهي في الضفة اليسرى أكثر منها في اليمنى . لكن هذه التربة تصبح بعد قرية قرقور مؤلفة من الحرار فيعود العاصي للجري في واد ضيق تحيط به الجلاميد العظيمة العالية . يبقى العاصي هادئاً سالكاً مجراه خلال اشهر الصيف . فاذا جاء الشتاء يرتفع مستواه فيطفو على الارضين المحيطة به وهي مساوية له في الارتفاع فيغمرها الى مسافات بعيدة ناهيك بالامطار التي تهطل هنا اي تهطال ، والسيول التي تتساقط من الجبال المجاورة والينابيع التي تنبجس من سفوحها . وتجفيف سهل الغاب واستثماره حسب الاساليب الزراعية الحديثة مشروع عظيم ينفع بلاد الشام ويدر عليها ارباحاً جزيلة لان ارضه مؤلفة من طمي الحوءات المعروف بخصبه ووفرة مواده الغذائية . ولاجل ذلك ينبغي منع فيضان العاصي عليه ثم تجفيفه باقامة مجار كثيرة للصرف ثم ريه خلال اشهر الصيف بشبكة من القنوات . ففيضان العاصي يمنع تعميق مجراه واقامة جدرانه وتخفيض السد الموجود امام قرية قرقور . ولا صعوبة في هذا العمل لولا انه كثير النفقات . ويقام سدان عظيمان من التراب على ضفتي العاصي يبعد الواحد عن الآخر ٤٠٠ — ٥٠٠ متر حتى اذا ما طغى العاصي كان للماء من سعة الارض بين السدين ما يحول دون انهدامهما . ويحفر في جانبيهما الايسر وفي قاعدتيهما خنادق او مصارف للمياه المنصبة من السهل فتوصلها الى العاصي

في نقاط مناسبة منه · وقد حسبوا كية ماء العاصي في اوائل الخريف بالامتار المكعبة وفي الثانيــة فبلغت عند خروجه من شيزر ١٨ وفي مصبه عند قرقور ٢٧ وتغذي هذه الزيادة الينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبالــ وتنبع في جوانب السهل ، واهمها نبع (باب الطاقة) في الضفة اليمنى فان قوة مائه لا تقل عن المترين المكعبين في الثانية · هذا وليست الاراضي القابلة للري محصورةً في سهل الغاب بل هنالك سهول ونجود واسعة تمتـد من قلعة شيزر على ضفتي نهر العاصي يسهل ريها فيقام لهذه الاراضي في زور (التريمسة) سد قليل العلو يسقي قناتين الواحدة لريـ ارض الضفة اليمنى والثانيــة لري الضفة اليسرى وطول كل منهما ٧٥ كيلو متراً ثم يبنى في نقاط مختلفة وعلى طول هاتين القناتين مآخذ يجري الماء منها الى قنوات ثانوية ومن هذه الى قنوات التوزيع على الحقول، فيصبح الغاب مخترقاً بشبكة من القني تسوق الماء الى مختلف مواقعه واراضيه وما فاض منها يصب في العــاصي امام قرقور · والمساحة الممكن ريها بعد اتمام هذا المشروع الكبير تقرب من تسعين الف هكتار وهي تنتج احسن الغــلال من القطن وغيره لزكاء التربة كما اسلفنا وغزارة مياه الري وجودة الاقليم اذ السهل لا يعلو عن سطح البحر اكثر من ٢٠٠ متر وجبال النصيرية تدرأ عنه الرياح الغربية اه ·

هذا والسائح يدخل بعد قسطون في سهل الغاب فيمر بضياع تدعى قليدين والعنقاوي والعمقية وحواش والحويجة والحويز وبعض سكان هـذه القرى بدو حراثون يدعون ان جدودهم جاؤا من بطائح الفرات في العراق ، ويمر بالعريمي والجماسية والشريعة والتوبني الى ان يصل الى قلعة المضيق · ويلمح في وسط سهل الغاب ضياع تكون في ايام الفيضان كالجزائر لا يوصل اليها الا بقوارب رفيعة تدعى الجروف منهــا الجيد والرصيف والقريم والخندق واهلها نصيرية · وبيوت ضياع الغاب اخصاص حقيرة تحيط بها الأدغال والمياه واهلها صفر الوجوه هزلى يتنقلون كسكان اواسط افريقية في القوارب التي ذكرناها ويعيشون على تربية الجاموس وصيد السلور الذي يرسل في فصل الشتاء لاكثر بلاد الشام الشمالية حيث يؤكل بكثرة ويصطادون الطيور المائية وعد ابو الفداء بعضها فينتفون ريشها ويلتقطون بيوضها ويزرعون الذرة البيضاء في الارض التي تنحسر عنها المياه في

من اعمال أيالة حلب بنيت قرب بحيرة تسمى باسمها فوق هضبة مشرفة على السهول والآجام المحيطة بها . وقد سميت بالمضيق لان الذي بناها كان من وزراء نورالدين الشهيد واسمه مضيق(١) . ثم غادرناها فوصلنا بعد سبع

الصيف . ونبع الطاقة من احسن اماكن صيد السلور لانه حينما يقرس الشتاء وتبرد مياه العاصي يلجأ السلور الى مياه هذا النبع الدافئة في كثرة هائلة فيسطو عليه اهالي الغاب ويصطادونه بحراب خاصة . وجبال النصيرية المطلة على سهل الغاب من علو ١٦٥٠ متراً فمادون تنحدر نحوه بميل سريع فتؤلف بقمة وعرة يدعونها (الشعرة) فيها وهاد سحيقة وعقبات كأداء تزينها الغابات الغيباء من مختلف الأشجار والأنجم وتسرح فيها النمور والدبب والذئاب وقطعان الخنازير البرية يقصدها غواة الصيد منذ القديم . وفي سفح هذه الجبال على يسار العاصي مما يتبع قضاء صهيون من اعمال حكومة اللاذقية قرى سرمانيا وبرزية وفريكة ونبول وشطحة واستركي وغيرها وسكانها نصيرية .وصف ابوالفداء برزية وقلعتها فقال : حصن برزية من جند قنسرين قلعة صغيرة في ذيل الجبل المعروف بالخيط من شرقيه مطلة على بحيرات فاميا ويتصل بها مياه البحيرات والأقصاب الى تحت برزية وليس بها كائن ساكن الا المرتبون لحفظ القلعة ويعتصم بها اهل البلاد في ايام الجفل وهي عن فامية في جهة الشمال والغرب على نحو مرحلة في الماء فان بحيرات فامية واقعة بينهما وبرزية في جهة الجنوب عن الشغر وبكاس على مرحلة قوية اه . وفي أعالي هذه الجبال المطلة على البحر من القلاع التاريخية التي ذكرت في وقائع الصليبيين والاسماعيليين ايدو وصهيون والمهيلبة (بلاطنس) وثمة قرى وضياع كثيرة منتثرة بين أودية هذه الجبال وآجامها الوعرة وفيها الحراج الغيباء والينابيع السارية والمناظر الجميلة . وبعد ان بقيت هذه القرى في السنين الخالية في منعزل لاتنالها ايدي الجيوش الا بالعناء لوعورة مسالكها وجلفة اهلها ذللت في العهد الأخير صعابها ومهدت شعابها فصارت السيارات تجول فيها وجعل في بعض قراها المرتفعة الجيدة الهواء والماء والمنظر كصلنفة أماكن للاصطياف والقصف على الطراز الحديث .

(١) قلعة المضيق هي قلعة مدينة أبامية القديمة التي كان يدعوها مؤرخو العرب تارة

باسم فامية وتارة أفامية وقد ذكرت في شعر ابي العلاء بالالف حيث قال : ولولاك لم تسلم أفامية الردى . قال عنها ياقوت في المشترك : أفامية مدينة عظيمة قديمة على نشز من الارض لها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب اه . كان اسم هذه المدينة قديماً فارناك ثم دعاها الاسكندر المكدوني بللا باسم البلدة التي ولد فيها ابوه فيليب وبعد موته دخلت في حوزة سلوقس نيكاتور مؤسس الدولة السلوقية فزاد في عمرانها وتحسينها ودعاها باسم امرأته الاميرة الفارسية اباميا وجعلها موقعاً عسكرياً مجهزاً بجميع العدد والعدد والمصانع والاصطبلات وشاد فيها مدرسة حربية للفرسان ، ولخصب سهل الغاب القريب منها ووفرة مراعيه ذخر فيها مئات من الفيلة المجلوبة من الهند وعشرات الالوف من الجياد والجواميس. وظلت أفامية في عهد السلوقيين زاهية بعظمتها وجمالها ووفرة سكانها ورفههم تحسب الاولى بين مدن الشام الشمالية بعد العاصمة انطاكية الى ان جاءها كيخسرو الثاني ملك الفرس في سنة ٥٧٣ ميلادية فنهبها وأحرقها وسبى أهلها وجاءت الزلازل فقضت على مابقي منها قائماً ولم يرتفع لها شأن بعد ذلك ولم يبق الدهر من تلك المدينة الجميلة سوى حصنها الذي كان مبنياً فوق تل قريب في غربيها دعي بعد حين باسم قلعة المضيق . ولما فتح المسلمون هذه الديار شاهدوا الفامية خراباً كما هي الآن فاكتفوا بحصنها ولم يعمروها قط وهم اذا ذكروها عنوا حصنها والقرية المبنية داخله . قال البلاذري : سار ابوعبيدة في سنة ١٧ بعد افتتاح شيزر الى فامية فتلقاه اهلها بالصلح فصالحهم على الجزية والخراج . وذكر ياقوت حادثة جرت في ايام العباسيين للمتولي عليها وكان رجلاً كردياً أغرى القرامطة في سنة ٢٩٠ باهل المعرة فقتلوهم قتلاً ذريعاً فلما انقلبت الآية وقتل رئيس القرامطة عوقب الكردي فهرب والقى بنفسه في بحيرة افامية فقال فيه احد شعراء المعرة :

توهم الحرب شطرنجاً يقلبها للقمر ينقل منه الرخ والشاها
جازت هزيمته أنهار فامية الى البحيرة حتى غط في ماها

وفي العهد العباسي ظلت تتعاور حصن افامية أيدي الامراء التابعين للفاطميين والسلجوقيين وفي الحروب الصليبية استولى عليه تنكرد برنس انطاكية وبقي بيد الصليبيين نحو نصف قرن ثم جاءه نور الدين الشهيد في سنة ٥٤٥ فاستخلصه منهم . قال ابن الأثير

في حوادث هذه السنة : وفيها سار نور الدين الشهيد الى حصن افامية وهو للفرنج ايضاً وبينه وبين حماة وشيزر مرحلة وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من احسن القلاع وامنعهما وكان من به من الفرنج يغيرون على اعمال حماة وشيزر وينهبونها فسار نور الدين اليه وحصره وملكه وحصنه بالرجال والذخائر وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنه فملكه قبل وصولهم فلما بلغهم فتحه تفرقوا اه . وفي الزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة ٥٥٢ خرب حصن افامية فيما خرب من بقية الحصون والمدن في شمالي الشام فرممه نور الدين واليه ينسب معظم مبانيه . وبعد وفاة السلطان صلاح الدين الايوبي في سنة ٥٨٩ استقر هذا الحصن ومثله حصون برزية وكفر طاب وبعرين بيد الأمير عز الدين ابراهيم بن المقدم ثم اخيه شمس الدين عبد الملك من بعده . لكن ابن صلاح الدين الملك الظاهر غازي صاحب حلب استخلصه منه ولما زالت دولة الايوبيين عن الديار الحلبية انتقل حصن افامية كغيره الى ايدي المماليك . ولا يعلم اذا كان جيش هولاكو التتري وصل اليه في ذلك العهد ونال منه . وفي سنة ٦٦٨ جاء الملك الظاهر بيبرس الى حصن افامية وجمع جيوشه فيه ثم زحف منه على انطاكية واستولى عليها وفي ايام الملك المنصور قلاوون كان حصن افامية في حوزة الأمير الثائر سنقر الأشقر . وبعد خروج الصليبيين وزوال الحاجة للدفاع لم يبق لهذا الحصن مكانة حربية بل ظل كما هو الآن عبارة عن قرية يعتصم اهلها فيها من هجمات البدو والنصيرية وهؤلاء كثيراً ما كانوا يغيرون عليها وعلى غيرها من القرى ايام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

هذا ومدينة افامية لا تزال على مافعل بها الفرس خراباً يباباً تروع الزائر بفخامة اطلالها وجمال رسومها وعظمة مساحتها البالغة مائتي هكتار . ففيها انقاض سورها القديم وكان عليه ابواب لم يبق منها الا الباب الشمالي الذي قنطرته واطلال البرجين المحيطين به ماثلة . وثمة شارع عظيم مستقيم يمتد من الشمال الى الجنوب طوله يزيد عن ١٦٠٠ متر كان على جانبه صفان متقابلان من الاعمدة الجسيمة لا تزال قواعدها او بعض اقسامها المهشمة ظاهرة . وهناك شوارع أخرى مستقيمة تتشابك في مواقع عديدة مع الشارع الاعظم . وحول هذه الشوارع تجد اينما مررت دوراً وقصوراً متهدمة وجدراناً متداعية واحجاراً مخروتة

مبعثرة وقواعد وتيجان اعمدة واعمدة طويلة ضخمة متعددة او منتصبة سطوح بعضها مستوية وسطوح الأخرى مخرمة بخطوط مقعرة وناتئة مستقيمة او حلزونية وكلها من الصخر الجيري الأشهب الذي قضمه الطحلب وفعل فيه كر الدهور . وقد كانت افامية في عهد أسامة بن منقذ على هذه الحالة اذ يقول في كتابه الاعتبار صفحة ٤٧ «وسرنا الى افامية فلقينا فارسهم وراجلهم — يعني الافرنج — في الخراب الذي لها وهو مكان لا ينصرف فيه الخيل من الحجارة والاعمدة واصول الحيطان الخراب» . قامت بعثة اثرية بلجيكية منذ خريف سنة ١٣٤٩ بحفر تلك الخرائب فكشفت آثار عديدة بانت منها شوارع المدينة وبعض مبانيها وجدرانها وكثير من تيجان الاعمدة وقواعدها المنقوشة والمخططة باشكال واغصان جميلة ونبشت البعثة مركز توزيع المياه الآتية بقناة عظيمة من شمال البلدة واظهرت الاسطوانات الحجرية الضخمة والقساطل الخزفية الصغيرة التي كانت تتألف منها قنوات الماء الموزعة على المدينة كلها باسلوب غاية في الاتقان والمتانة واطلعت على بعض الآثار الخاصة بعبادة باخوس اله الخمر وهي دائبة على العمل في خريف كل سنة وعساها تتوفق لاظهار دفائن هذه المدينة التاريخية الجميلة .

اما حصن افامية فلا يزال فوق تله الكبير العالي يشرف في الغرب على جبال النصيرية وعلى سهل الغاب ووادي العاصي وفي الشمال على جبل الزاوية وفرعه الجنوبي المسمى شحشبو وفي الجنوب والشرق على سهول ناحيتي طار العلا وخان شيخون . وكان يحيط بالتل خندق عظيم زال معظمه على انه ليس في هذا الحصن قلعة كبيرة كما في حصن شيزر وحصن الاكراد بل سور عظيم على هيئة مضلع غير منتظم تتخلله ابراج كثيرة مربعة الشكل وفي اسفل السور رصيف من الحجارة كان التل مصفحاً به كما في قلعة حلب وحمص وغيرهما وقد خرب القسم الغربي من السور كما ان المباني التي كانت تعلوه دثرت بالكلية . وفي شمالي الحصن برج جميل البناء في وجهه القبلي كتابة تحوي اسم الملك الظاهر غازي صاحب حلب تاريخها ٦٠٤ وفي قبليه باب كبير ذو قنطرة يدخل منه الى القلعة يحرسه برجان متقاربان وعلى الباب كتابة تحوي اسم الملك الناصر يوسف صاحب حلب وهو حفيد الظاهر غازي تاريخها ٦٥٤ . وهاتان الكتابتان ، وفقدان كل اثر للسلوقيين والصليبيين ، وشكل الابراج المربعة واقسامها

الداخلية والاعمدة التي حشيت في عرض جدرانهـا ، وشكل برجي الباب اللذين يؤلفان ما يسمى في كتب العرب باشورة كل ذلك يدل على أن بناء هذا الحصن عربي صرف وكذلك طراز هندسته وهو من آثار نور الدين محمود بن زنكي والأيوبيين من اعقاب صلاح الدين حكام حلب . هذا والقرية التي في داخل الحصن كبيرة يبلغ عدد سكانها نحو الفين حافلة بالدور المبنية من انقاض السور والابراج واهلها يصعدون وينزلون كل يوم الى مزارعهم ومراعيهم التي في اسفلهـا وجوارها ويشربون من الينابيع التي في سفح التل وشأنهم في الهزال واصفرار الوجوه شأن بقية قرى الغاب الا قليلا . وفي خارج الحصن على مقربة من بابه القبلي جامع صغير حسن البنـاء من عهد العثمانيين لكنه اصبح خرابًا مهجوراً وفي قربه خان خراب من آثار الوزير سنان باشا الشهير كانت تأوي اليه قوافل التجار والحجاج القادمة من انطاكية الى حماة وماوراءها . واقاموا في غربي الحصن على احد روافد العاصي سداً له فتحات يحصل بسببه بحيرة تمتلئ بالسمك فيصطادونه . وقد اتخذت قرية قلعة المضيق قاعدة لناحية الحقوها في السنين الأخيرة بقضاء المعرة تتبعها القرى التي تقدم ذكرها في بحث سهل الغاب . ولا يعرف العهد الذي تبدل فيه اسم حصن افامية وهو المصطلح عليه في عامة التواريخ القديمة فصار قلعة المضيق ولم اعلم من اين اتى اوليا چلبي برواية ان احد قواد نور الدين الشهيد كان اسمه مديق او مضيق تولى عليها مدة فسميت باسمه . ولم اعثر في كتبنـا القديمة على كلمة المضيق الا عرضاً في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي عند ذكره الموقعة التي جرت حول افامية في سنة ٣٨٧ لما حاصرها الروم وضايقوا اهلهـا وجاء جيش ابن الصمصامة والي دمشق لاستخلاصها فكسر الروم وقتل ملكهم قالـ :
وكانت الوقعة في مرج الفيح يطيف به جبل يعرف بالمضيق لايسلكه الا رجل في اثر رجل ومن جانبه بحيرة افامية ونهر المقلوب فلم يكن للروم مهرب في الهزيمة اه . فيظهر من ذلك ان سهل الغاب كان يدعى مرج افامية وقلعة المضيق حصن افامية وذيل جبل الزاوية المشرف على هذه القلعة المضيق ونهر العاصي النهر المقلوب ، ولم يشذ احد من الكتب التي اطلعت عليها عن ذلك .

ساعات الى قلعة شيزر (١) .

« للبحث صلة » وصفي زكريا

(١) بعد قلعة المضيق يجتاز السائح وادي الجفر ويتجه جنوباً فيغادر ولاية حلب ويدخل ناحية طار العلا من اعمال لواء حماة التابع لدمشق ويمر في سهول بعيدة الاطراف لا شجر فيها ولا حجر ذات تلعات متموجة وتلال بعثرت فيهما كثير من القرى والضياع ومضارب البدو فيمر من ضياع صغيرة كالجرنية وحيالين وجلة وتل ملح ويرى على يمينه على سيف الغاب العقيلبية ذات الدور البيضاء وهي كبيرة واهلها روم ارثوذكس يبلغون الالفين اشتهرت بقمحها الذي يتخذ للبذر في الديار الحموية وقرى صلبا والعونية وكفر بهود وثمة على العاصي عمورين والعشارنة والتريمسة او تل الترمسي كما قال أسامة وفي العشارنة جسر علَى العاصي يجتازه قاصدو جبال الكلبية وقراها . وفي شرقي هذه الطريق كفر نبوذا ومغير وكرناز وبريديج والشيخ حديد وجبين والزلاقيات ووراء هذه القرى كفر زيتا واللطامنة ومورك الشهيرة ببطيخها وصوران وطيبة الامام . وهكذا الى ان يهبط السائح وادي العاصي ويصل الى جسر شيزر وقلعتها بعد اجتياز ٢٧ كيلو متراً . وكل هذه القرى التي عددناها ذات تربة رملية طينية حمراء معروفة بخصبها وانباتها الزروع الصيفية والشتوية عذباً وبيوتها في الضياع تكون اكواخاً مستطيلة من القصب والقش يدعونها طامات وفي القرى قباب مخروطية او دور حجرية . ذكر ياقوت في معجمه من هذه القرى عمورين وسماها عمورية ودعاها بليدة وهي الآن ضيعة صغيرة قال : عمورية بليدة على شاطئ العاصي بين فامية وشيزر فيها آثار خراب ولها دخل وافر ولها رحى تغل مالاً اه . وذكر أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار اسماء كفر نبوذا وتل ملح وتل التلول . وقال ان تل ملح كان مكمناً للافرنج عند اغارتهم على شيزر .

وجبال النصيرية المشرفة على هذه الطريق تعد من الشعرة التي تقدم ذكرها ووصفها في سفحها من القرى الجديرة بالذكر مرداش وعناب وعين الكروم وهذه كبيرة ذات اربع ضياع اتخذت مركز ناحية وفقرو وحدادي ، وكل هذه القرى على سيف الغاب وثمة عين تدعى عين الجراص في قربها هضبة قامت عليها ضيعة تدعى قلع الشيخ ملوخ يلوح لي انها

مكان حصن الجراص الذي استخلصه ابو الحسن علي بن منقذ من الروم قبل ان يستلم منهم شيزر في سنة ٤٧٤ . قال البستاني في دائرة المعارف عن عناب التي تناوح قلعةالمضيق انها هي آنب التي حدثت حولها في سنة ٥٤٤ ه معركة هائلة بين نورالدين وريموند دوبواتية برنس انطاكية فانتصر نور الدين وهنأه القيسراني بقصيدة جاء فيها :

وعسكرك الذي استولى مسيحاً على ما بين فامية وسيح
بآنب يوم ابرزت المذاكي من النقع الغزالة في مسوح
غداة كأنما العاصي احمراراً من الدم عبرة الجفن القريح

وجاء في كتاب الدليل الازرق لمومارشة ان هذه المعركة حصلت عند ضيعة تدعى إنب في سهل الروج وفي خطط الشام للاستاذ كرد علي ج ٢ ص ٢٣ ان إنب هذه من اعمال اعزاز . على ان اوصاف القصيدة تنطبق في الغالب على عناب القريبة من افامية والعاصي بينما إنب الروج او تنب اعزاز بعيدتان عنها .

جامع التواريخ

— او —

« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة »

— ٣ —

حدثني عبيد الله بن محمد بن عبد الله الأهوازي قال حدثني ابو الفضل البلخي الفقيه قال حدثني الخليل بن احمد السجستاني قاضيها قال قدم علينا صاحب جيش خراسان من قبل نصر بن احمد ومعه خلق عظيم من الجيش فملك سجستان واكثر أصحابه الفساد في البلد وامتدت أيديهم الى النساء في الطرقات قهراً . قال فاجتمع الناس اليّ والى فلان الفقيه وقد ذكره البلخي وأنسيته انا وشكوا الحال فمضينا معهم الى صاحب الجيش فدخلت اليه انا والفقيه وجماعة من رؤساء البلد وكان المبتدئ بالخطاب الفقيه فوعظه وعرفه مايجري قال فقال له ياشيخ ماظننتك بهذا الجهل معي ثمانون الف رجل نساؤهم ببخارى فاذا قامت .... كيف يصنعون ؟ ينفذونها بسفاتج الى حرمهم ؟ لا بد لهم ان يضعوها فيمن هاهنا كيف استوى لهم هذا الامر فلا يمكنني (١) افساد قلوب الجيش بنهيهم عنه فانصرف . قال فخرجنا . فقالت لنا العامة

(١) كذا بالاصل .

ايش قال الامير قال وأعاد عليهم الفقيه الكلام بعينه فقالوا هــذا القول منه فسق وامر بالفسق ومكاشفة بمعصية الله تعالى فهل يحل لنا عندك قتاله بهذا القول؟ فقال لهم الفقيه نعم قد حل لكم قتاله قالوا : فتأذن قال : نعم . قال فبادرت العامة وانسللنا من الفتنة فلم نصل المغرب من تلك الليلة وفي البلد احد من الخراسانية . قال : لانه اجتمع من العامة من لا يضبط عدده فقتلوا خلقاً عظيماً من الخراسانية واستحر القتل فيهم ونهبت دار الامير وطلبوه ليقتلوه فافلت على فرسه ومعه كل من قدر على الهرب ومضوا على وجوههم فما جاءنا بعدهم جيش من خراسان اصلاً .

***

حدثنا محمد بن عبد الله بن محمد بن مهرويه المعروف بابن ابي علان قال حدثني ابن ابي القاسم قال كنت اكتب لعبيد الله بن الحسن بن يوسف على كور الأهواز فكتب علي بن عيسى يطالبنا بالحساب فتقدم الى ابي احمد عبيد الله بن الحسن بعمله وبالخروج للموافقة عليــه وذلك في سنة ٣٠٦ قال : فجمعت الحساب وحملت(١) جماعة(٢) لسنة ٣٠٥ بارتفـاع مال الخراج بالأهواز وكورها سوى الضياع فكان مبلغ ذلك ستة عشـر الف الف وثمانمائة الف درهم وكسر وكلها قد صح في الاستخراج ولم يبق للسلطان الا نيف واربعين(٣) الف درهم قال فكان مال الضياع يقارب هذا الا انه لم يكن في حسابنا .

(١) لعلة وحصلت وعملت . (٢) قال في مفاتيح العلوم : الموافقة والجماعة حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل . (٣) كذا بالاصل .

حدثني عبدالله بن عمر الحارثي قال عجل عليّ الشيب فغمني ذلك وفكرت في ان أخضب لحيتي فنمت فرأيت في النوم كأني أشاور طبيباً في خضاب فقال لي لاتحتاج الى خضاب ولكن أصف لك شيئاً يسوّد الشعر ويحفظ لونه ويمنع من السواد ان يبيضّ . خذ دهن النرجيل العتيق وزن خمسة دراهم ومن الاهليلج الأصفر وزن نصف درهم ومن النوشاذر وزن دانق واسحق الجميع ودفه بالدهن حتى يختلط واطلِ به الشعر فانه يسودّ . فانتبهت وقد حفظت ذلك فعملته فاسودّ شعري وتأخر الشيب عني دهراً طويلا .

* * *

وحدثني قال كنت في شبابي أتمتع بالجواري والماليك فكان العزل يثقل عليّ جداً فاشتريت جارية بدنانير كثيرة وكنت أخاف ان تحبل فيذهب ثمنها فنمت مشغول القلب بذلك فرأيت قائلاً يقول اذا أحببت ان لاتحمل المرأة فخذ نجماً واسحقه واعجنه بلبن فرس وجففه واجعله في كيمُخْت (١) وعلقه على المرأة فانها لاتحبل فقلت له ما سمعت هذا من طبيب . قال : ان أحببت ان تمتحن صحة ذلك فخذ هذا الدواء واجعله في قارورة ماء واجعلها على النار واوقد تحتها فانه لايغلي ولو مكث سنة قال وانتبهت وجربت ذلك فوجدته صحيحاً .

* * *

وحدثني ايضاً الحارثي قال حدثني ابي وكان يخدم في دار الموفق والمعتضد بعده . ان المعتضد أراد ان يشهد على نفسه العدول في كتاب صدره

(١) نوع من الجلد مأخوذ من كفل الفرس أو الحمار ومدبوغ دباغة خاصة :

(هذا ما شهد عليه العدول جميعًا ان امير المؤمنين عبد الله ابا العباس المعتضد بالله اشهدهم على نفسه في صحة منه وجواز امره) وعرضت النسخة على عبيد الله ابن سليمان فضرب عليها وقال هذا لا يحسن كتبه عن الخليفة اكتبوا (في سلامة من جسمه واصابة من رأيه) .

قال لي الحارثي استهديت من صديق لي نبيذاً فانفذ اليَّ نبيذاً حامضاً فرددته عليه وكتبت اليه الجيران : أحق بهذا من الاخوان . ووصف لنا مرة نبيذاً طريًا شربه فقال هو دواء الفهم عمل من ثمر البلاذر اي هو لا يسكر لضعف فعله .

* * *

حدثنا ابو الفتح عبد الله بن محمد البرودي الكاتب قال حدثني بعض شيوخ الكتّاب قال(١) قال ابن الفرات لابي منصور بن جبير كاتبه ايما أكفا(٢) انا او علي بن عيسى فقال الوزير اكفا واضبط قال دعني من هذا قال تؤمنني قال قد امنتك قال علي بن عيسى اذا حضر بين يدي الخليفة فاراد ان يكتب سراً له لم يحتج الى غيره وكتب هو ومحا وختم وخرط (٣) بيده وانفذ العمل وانت لا بد لك من زنجي ولوطي صاحب دواته فيطيل (٤) الامر بظهور اثنين عليه قال فضلت علينا عليًا؟ قلت لا والله ياسيدي ولكن يكون علي بن عيسى كاتبك .

* * *

(١) كتاب الوزراء لهلال ص٦٣ . (٢) الصواب أينا أكفى .
(٣) يعني : جعل في الخريطة . (٤) لعله : فيبطل . والعبارة عند هلال غير هذه .

حدثني عبد الله بن محمد بن داسه ان ابا القاسم البريدي ايام تقلده الامر بالبصرة شرب يوماً وعنده جماعة من ندمائه فافتقد قحف بلور كان معجباً به وطلبه الشرابية فلم يعرف له خبر فحلف انهم ان لم يحضروه ضربهم بالمقارع فقال له احدهم لا تعجل ولكن امر(١) باحضار كل من كان البارحة حاضراً فأمر باحضارهم فجلسوا وأنفذ الغلام الى منزل كل واحد منهم برسالة منه أنْ انفذوا القحف البلور الذي حملته اليكم البارحة فعاد احد الرسل من دار احدهم ومعه القحف فافتضح ذلك النديم وسقط محله . وهذا مضادّ لما حكي عن بعض الاكاسرة انه كان يشرب فوقعت عينه على غلام من غلمانه وقد سرق صينية ذهب مع مافيها وحملها فأمسك الملك وفاز بها الغلام فافتقدها الخزّان من الغد وجاؤا في طلبها فدعاهم وقال لاتتعبوا في طلبها فقداخذها من لا يردها ورآه من لاينمّ عليه قال فأمسكوا فلما كان بعدسنة كان الملك يشرب فدخل ذلك الغلام عليه فرأى عليه منطقة ذهب حسنة فقال له الملك سراً أهذا من ذلك فقال نعم . فقال ان كان ما عندك من تلك الدنانير التي من الصينية قد نفد فعرفني لأدفع اليك أخرى .

* * *

وحدثني قال وحدثنا ابو الحسين احمد بن الحسن بن المثنى قال لما قدم حامد بن عباس الابلة يريد الأهواز وهو وزير خرجت لتلقيه فرأيت له حراقة ملاحوها خصيان بيض وعلى سطحها شيخ يقرأ القرآن وهي مظللة مستترة .

(١) يعني : أمرْ .

فسألت عن ذلك فقالوا هذه حراقة الحرم لا يحسن ان يكون ملاحوها فحولة .

قال وقال لي ابوالحسين دخلت الى ابن الجصاص في داره ببغداد فرأيت خصياناً بيضاً مزينين .

* * *

قال حدثنا ابوالحسين قال رأيت لابي العيناء خادمين خصيين أسودين يقودانه فقيل له كيف اتخذت خصيين أسودين فقال حتى لايتهما بي ولا أتهم بهما .

* * *

وحدثني قال حدثنا ابوالحسين قال قدم ابوالعيناء البصرة في سنة نيف وثمانين بعد الغيبة الطويلة التي غاب عنها وخدمته للخلفاء والوزراء بسرمن رأى وكان ابوخليفة اذذاك عالم البصرة بالحديث والأخبار واللغة والنحو ومحمد بن جعفر بن بسام قاضيها وكان له محل من الادب واللغة والشعر كبير وكنت منقطعاً اليه ملازماً له أدرس عليه الفقه فكان اول من ائتمنني ورفع شأني . فقال لي ياابا الحسين قد قدم ابو العيناء وأحب ان أجمع بينه وبين ابي خليفة وننظر اثرهما(١) فقلت عليّ ذلك فقال مضيت ولقيت ابا العيناء وعقدت عليه وعداً للحضور عند ابن بسام وعلى ابي خليفة فاجتمعا فأخذ ابو العيناء في الرواية عن الأصمعي ومشاهداته مع المتوكل وابن ابي دؤاد وفلان

(١) لعله : آثرهما أي أفضلهما .

وفلان والشعراء قال فاسكت ابوخليفة فلم ينجرّ معه ولم يلحق به قال فاثنينا على ابي العيناء وقرظناه فقال ياأيها القاضي انا لا أنسى ما كنت أحفظه منذ اربعين سنة .

* * *

وحدثنا ايضاً قال حدثني ابو عبيد محمد بن علي الاجُرّي قال كنت عند ابي العيناء لما قدم البصرة سنة نيف وثمانين بتسبيبات له على عمالها وكان معنا أصحاب الحديث فقيل له قد دخل اليك ابن المثنى فقام وقدّر ان ابا علي الحسن بن المثنى قصده فقال له بعض الحاضرين انه احمد بن الحسن بن المثنى فجلس قبل انيقرب منه ابو الحسين ثم استدنا (كذا) اباالحسين واكرمه وسأله عن خبر ابيه .... (١) .

* * *

... فقال لي لاأدري كنت يوماً في مجلس موسى بن اسحاق القاضي بالبصرة وقد اجتاز بنا وكان أصحاب الحديث حضوراً وكان موسى لا يطلق(٢) ان يدخل مجلسه غلام أمرد ليسمع الحديث فحين رآه موسى صاح ياغلام أخرجه فقلنا له اعز الله القاضي هذا ابن اخيك ابي علي بن المثنى قال فرفعه وقدمه .

* * *

وحدثني قال حدثني ابو الحسين قال لما نشأتُ كَتَبَ ابوحازم القاضي الى ابي يقول انه قد بلغني انه قد نشأ لك فتى يطلب العلم ومن حاله وصفته .

(١) يظهر ان أواخر الحكاية قد سقطت مع أوائل حكاية أخرى . (٢) لعله لا يطيق

(قال وقرظني) فانفذه الي لأقلده القضاء قال فقال لي ابي ما تقول فقلت فانفذني فانك هو ذا ترى مانحن فيه من الإضاقة فلعلي اتسع بالارزاق (١) فان الاعمال تفنى والصيانة تبقى .

* * *

وحدثني قال حدثني بعض شيوخنا ان ابا العيناء قد قصد دار الواثق وهو الامير بالبصرة اذذاك فأجلس في الدهليز ساعة الى ان استؤذن له وجرى الحديث فقال رجل في حديث اقتضى ذلك يا باالعيناء انت صائم اليوم فقال اما في هذه الدار فنعم فكتب صاحب الخبر الى الواثق بذلك فأذن له في الحال واعتذر اليه من إجلاس البوابين له في الدهليز وانكر ذلك عليهم .

* * *

قال واجتمع ابو العيناء وابو النضير(٢) يوماً في مجلس فاستطال عليه ابو العيناء فقال له ابو علي : نحن جميعاً ضريران فماهذا التطاول فقال ولاسواء انت من عميان العصا وانا من عميان المواكب(٣) .

(تبحث صلة)

---

(١) يظهر انه سقط ما معناه : فقال ابي لا تفعل .

(٢) لعله : ابو علي البصير الذي اسمه الفضل بن جعفر .

(٣) لعله : المراكب .

آراء وافكار

— (١) —

ملاحظات لغوية

نشر لي المجمع العلمي العربي في مجلته م ١١ ص ٦٩١ — ٦٩٧ فصلاً فيه ملاحظات على طائفة من الفضلاء الذين يكتبون فيها ، وبدا له فعلّق على موضعين منه تعليقاً وجيزاً ، ثم قفّى عليه كبير كتّاب العصر الأمير شكيب أرسلان فوافق علي كل ما جاء فيه عدا كلمة واحدة استوقفته فاستفهمني عنها وتقاضاني عليها شاهداً يوثق به . وقد سمعت ماعندهما فأحبّ أن يسمعا ما عندي ، ورأيهما الموفق !

فأما ملاحظتا المجمع فأولاهما أن أديباً باحثاً ذهب في فصل كان يتحدث فيه عن الجاحظ الى أن العربَ كانوا يقولون في الفرس السابق « يلحق الغزال ويسبق الظلام » فأخذت عليه قوله يسبق الظلام ونفيتُ أن يكون لسبق الفرسِ الظلامَ مفهوم في الكلام وقلت إنما كانت العرب تقول يسبق الظليم وهو الذكر من النعام وعززت قولي ببينات من اللغة والشعر يغني الرجوع اليها عن إعادتها ، فعلق المجمع علي شطر من قولي من غير أن يلتفت الى الشواهد التي أقمتها على تأييده ونازعني في إنكاري أن يكون لسبقِ الفرسِ الظلامَ مفهومٌ ما وقال إن لذلك وجهاً وجيهاً ووثق رأيه ببيت للنابغة الذبيانيّ وهو قوله :

وإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم لم يزد عليه شيئاً

وأنا أتحاكم في هذا الذي أذهب اليه الى النص وسباقه وسياقه والى المنطق والى العرب ثم علماء الأدب فيما فهموه من هذا البيت . فأما النصُّ فانه — كما قلت أول مرة — من كلام ابن شرف القيرواني في رسالته الانتقاد ، وهو يتحدث عن مخترعات امرئ القيس

في الشعر ، وهو قوله « وكانوا يقولون في الفرس يلحق الغزال والظليم حتى قال قيد الاوابد » أي الوحوش ، وقد طبعت هذه الرسالة ثلاث طبعات : في الأوليين منها « الظليم » وفي الثالثة « الظلام » ويظهر أن الكاتب اعتمد هذه الطبعة الثالثة فقال ما قال من غير أن يتروّى في السياق والسباق ، فأية علاقة في النص بين الظلام وبين الغزال والأوابد ؟ لا شك أن التنافر في هذا من الشدة بحيث لا يمكن أن يجمع بينها المعنى الذى قصد اليه ابن شرف كيفما حاول التمحل أن يلائم أو يوائم أو يلاحم ، انما يستقيم المعنى بالظليم ... وبالظليم وحده ليس غير . وللزيادة في توكيد أن هذا اللفظ هو الثابت نذكر أن ممن تعرض له ايضاً ابن رشيق في قراضة الذهب وبعض شراح ديوان المتنبي عند قوله « أجل الظليم وربقة السرحان » وقوله « وعقلة الظبي وحتف التتفُل » فقد اشاروا جميعاً الى أن المتنبي قد احتذى امرأ القيس في « قيد الاوابد » الذي اشار اليه النص الصحيح المتقدم من كلام ابن شرف ، غير أن المتنبي أتى بالمعنى في غير اللفظ وزاد زيادة جيدة فقال « أجل الظليم » وقال « ربقة السرحان » الخ وفي هذه دلالة قاطعة على صحة ما ذهبنا الى تصحيحه وعلى أن العرب من عهد امرئ القيس الى المتنبي والى مالاادري انما كانت تذكر في تفضيل سبق الجياد الحيوان والوحش من غزال وظليم وتتفل لا الظلام وما اليه . هذا النص ومؤيداته وأما المنطق فهو يرفض كل الرفض ماذهب اليه التعليق من «وجاهة» معنى سبق الفرس للظلام ، فانه من الوهم الذي لا يتحقق له وجود في الخارج إذ كيف يسابق الفرس الظلام وفي أي فلك يدور معه ويجاريه وفي أي مضمار يجول ويباريه؟ ان هذا الذي يريده التعليق إن هو الا إحالة [1] فاسدة لم يتعلق بها حتى المغرقون في المبالغات السخيفة [1] من الشعراء المولدين .

واما بيت النابغة الذبياني فهو في وادٍ غير هذا الوادي وهو بعيد جداً ان يكون مؤيداً لهذا المعنى الذي يذهب اليه التعليق ، وندع القول فيه الى ما فهمه منه فصحاء العرب ثم الرواة وأئمة الأدب لئلا نترك مجالاً للاعتراض والرد تارة أخرى :

عن جرير بن يزيد بن جرير بن عبدالله البجلي قال — كنا عند الجنيد بن عبدالرحمن بخراسان وعنده بنو مرة وجلساؤه فتذاكروا شعر النابغة حتى أنشدوا قوله « فانك كالليل

(١) [المجمع] .....

الذي هو مدركي ... البيت » فقال شيخ من بني مرة — وما الذي رأى (يعني النابغة) في النعمان حتى يقول مثل هذا ؟ وهل كان النعمان الا على منظرة من مناظر الحيرة ؟ وقالت ذلك القيسية ايضاً فاكثرت ، فنظر الى الجنيد فقال — ياأبا خالد ! لا يهولنك قول هؤلاء الاعاريب واقسم بالله لو عاينوا من النعمان ماعاين صاحبهم لقالوا أكثر مما قال ولكنهم قالوا ماتسمع وهم آمنون . وانت ترى من إنكار الشيخ المري على النابغة قوله أنه انما فهم منه المبالغة في دعوى سعة[1] ملك النعمان على حين أنه لم يكن الا على منظرة من مناظر الحيرة فانكر عليه دعواه الكاذبة كما أنكرتها القسية ايضاً .

وقال العلامة الأديب عبد الرحيم العباسي في معاهد التنصيص يشرح البيت :

المنتأى : اسم موضوع من انتأى عنه أي بعد ، وشبهه بالليل لأنه وصفه في حال سخطه وحوله ، والمعنى : انه لا يفوت الممدوح وان أبعد في الهرب وصار الى اقصى الارض لسعة ملكه وطول يده ولأن له في جميع الآفاق مطيعاً لأمره يرد الهارب اليه .

ثم أورد اعتراضاً للاصمعي على النابغة في تشبيهه الادراك بالليل بأن الليل والنهار قد تساويا فيما يدركانه وإنما كان سبيله ان يأتي بمالا قسيم له حتى يأتي بمعنى منفرد . وقال : فلو قال قائل — ان قول النميري في ذلك أحسن منه — لوجد مساغاً الى ذلك حيث يقول :

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها ... لخلتك الا أن تصد تراني

ثم أورد العباسي في معنى بيت النابغة أشباهاً كثيرة في وصف سبق الفرس من شعر ابن جبلة وسلم الخاسر والبحتري وابن هانئ الاندلسي وأبي العرب الصقلي وكلها يدل على غير ما ذهب اليه صاحب التعليق في تفسير بيت النابغة ! !

وثانية الملاحظتين أنني صححت كتابة (عُرى) جمع (عروة) بالألف (عُرا) بناء على قاعدة البصريين في إرجاع الكلمات الى أصولها ، فخالفني المجمع وقال « بل الاصح أن تكتب بالواو (هكذا في الطبع وهو يريد بالياء) بناء على قاعدة الكوفيين كما كتبوا الضحى والخطى » انتهى . وأنا لا أعلم ما الذي يجعل قاعدة الكوفيين أرجح في نظر المجمع على حين أنها قاعدة شاذة عن المقاييس العلمية ليس لها أصل معقول تحور اليه ! وحياة اللغة إنما تستمر باصطناع المقاييس المطردة التي جرى عليها البصريون ومن نحا نحوهم في

(١) [المجمع] أو في دعوى سرعة اللحاق والإدراك .

تأصيل الأصول القياسية من فلاسفة اللغة وأهل البيان ، وشذوذ من المجمع أن يرجح الشاذ على المقيس من غير مرجح لديه ويرجع بالأصول اللغوية الى طور السذاجة قبل أن يتناولها الاستقراء العلمي ويحررها البحث الفني . على أني كنت أحب للمجمع . وهوالقائم على تهذيب اللغة في هذا العصر العتيد أن يتجاوز حتى قاعدة البصريين التي هي أنفى للغلط الكتابي الذي يضج منه العالمون والمتعلمون من قاعدة الكوفيين الجامدة البليدة الى أفق أوسع ومجال أرحب فيدعو الى كتابة الباب « كاه » بالألف حملاً للخط على اللفظ سواء كانت الألف ثالثة أوفوقها ولومنقلبة عن ياء في علم أوغيره ، لنريح ونستريح من الشكاوي المريرة من صعوبة قواعد الكتابة العربية التي لايسلم أكثرها من تنطع وبلادة وجمود . والمجمع لايجهل أن هذا الذي أريده قد مشى عليه جماعة من النحاة منذ عهد عهيد ووجهوه بأنه القياس وبأنه أنفى للغلط ، وهو تعليل صحيح يدل على سمو في الفكرة ودقة في النظرة فأنا أدعو الجماعة العاملين على إحياء العربية الى مشاركتي في هذا الرأي ونشره بين الناس في المدارس وفي الصحف فان في ذلك تخفيفاً كبيراً من عبء اللغة على المتعلمين وخيراً كثيراً .

وأما ملاحظة العلامة الأمير شكيب أرسلان (المجمع م ١٢ ؛ ص ٢٤٩) فعلى كلمة جنح بمعنى جناح في مثل وهو قولهم « ركب جنح نعامة » كنت اوردته شاهداً على ان النعام ذكره وأنثاه هوالموصوف عندالعرب بالخفة وسرعة الجري وشدةالحذر . فالأمير يعترض على استعمال الجنح ويرى أنه غير الجناح ويقول « لا أزال أحفظ أن اليازجي الكبير في مقاماته استعمل الجنح بمعنى الجناح مضافاً الى الطائر فأخذ عليه في ذلك أحمد فارس صاحب الجوائب » ثم هو يتقاضاني أن أدلي له بنص أو شاهد يوثق به على ورود جنح بمعنى جناح مضافاً الى الطائر . وجوابي له أنني نقلت هذا المثل بهذا اللفظ من كتاب حياة الحيوان[1] مع علمي بأن الوارد في القاموس المحيط وفي كتب الأمثال انما هو جناح ، وعلة ذلك أنني أعتقد أنه لافرق بين الجنح والجناح بدلالة مفاهيم عبارات اللغويين وجنوح الأدباء وعامة الناس في مصر والشام والعراق الى استعمال ذلك بمعنى هذا . فأما عبارات أهل اللغة فقد جاءت متحدة غالباً في الجنح والجناح فمن معانيهما معاً : الكنف ، والناحية ، والجانب ، فاذا أردنا جانبي الطير أو الانسان أو الجيش فلماذا يصح أن يقال جناحاه ولا يصح[2] أن

(١) طبعة مصرية . (٢) [المجمع] لان اللغة نقل .

يقال جنحاه على حين أنهما يدلان على شيءٌ واحد دلالةً واحدة وهي « الجانب » ؟ فان قيل إن الجنــاح بمعنى الجانب مجاز كما في قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » . قلنا : وكذلك قولــــ العرب « أناخ فلان عند جنح سبيل » أي جانبه ، و « بات بجنح القوم » أي كنفهم . ولا بد لكل مجاز من حقيقة ينقل عنها ، فاذا اعتبرنا حقيقة الأول هي جناح الطائر فما عسى أن تكون حقيقة الثاني ؟ لا ريب أن اتحــاد اللفظين في معانيهما المجازية دليل على اتحادهما في حقيقتهما ايضاً غير أن حقيقة الجنح أميتت لسبب من الأسباب وحقيقة الجناح استمرت في الاستعمال . وقد قالت العرب ــفي كلمات مثلها « نجح ونجاح ، وصبح وصباح ، ومسي ومساء » وغيرها ، فلماذا لا يكون الجنح كالجناح على هذا القياس[1] ؟ ولم كل هذا التحجير ومعاجم اللغة لم تدون كل مفردات اللغة ؟

واذا تحللنا من قيود الجمود على ورد ولم يرد استوقفنا إطباق أكثر أهل البلاد العربية على استعمال هذين اللفظين بمعنى واحد في حقيقة واحدة ، أفنضرب بذلك كله عرض الحائط ولا نعيره أقل اهتمام ؟ هذا اليازجي[2] الكبير قد رأى جواز استعمال هــذا اللفظ بمعنى ذاك فاستعمله ، وتلك الطبعة المصرية لحياة الحيوان تستعمله كذلك ، وهذه أبيات من الشعر العراقي[3] قرأتها في كتاب العقد المفصل ج ١ ص١٧٧ و ج٢ ص٣٤ وهي صريحة في استعمال الجنح بمعنى الجناح :

وهو للمؤمنين يخفض جنحاً   دون أدنى محله الجوزاء

***

أهونْ بأحداث الزمان وان تكن   لعظيم أبطالــــ الزمانـ تبير
قد فاجأته ــفي الرضاع وقلبهــا   فزعاً بجنح الرعب منه يطير

وقد استرأينا في هذا فاضلين كبيرين من أعيان العصر في الشعر وفي النثر فوافقاني على ما ذهبت اليه في غير تلكؤ وبعد هذا قد ذهب بهم العلامة الأمير الحأني استشهدت بقول الشاعر الحماسي :

كأنَّ بصحراء المُربط نعامةٌ   تبادرها جنح الظلام نعائم

---

(١) [المجمع] لأنه لا قياس في اللغة . (٢) [المجمع] !!!

لإثبات صحة جنح بمعنى جناح ... وليس كذلك فأنا انما استشهدت به وبما قبله وبعده لاثبات صفة سرعة الجري للنعام ذكره وانشاه ليس غير ، وأما موضوع الجنح والجناح فلم أكن بسبيله وإنما أثاره الأمير . عليه مني تحية طيبة مباركة .

بغداد : محمد بهجة الأثري

من أعضاء المجمع العلمي العربي

(المجمع) لعل القارئ بعد ان استطال كلام الفاضل الأثري يريد ان يعرف النتيجة الصحيحة من هذه الابحاث الثلاثة فنقول :

(١) ان العرب كما يصفون الفرس بانه يسبق الظليم يصفونه ايضاً بانه يسبق الظلام بدليل ما نقل عن الجاحظ وبدليل قول النابغة : (فانك كالليل الذي هو مدركي)

فهو يقول للنعمان انك تدركني وتبطش بي أني فررت كما أن من رأى اول الليل مقبلاً من جهة الشرق تخيل اليه انه اذا فرّ منه ينجو فلاجرم انه لاينجو بالفرار بل ان ظلام الليل يدركه انى سار .

(٢) الكوفيون من علماء اللغة اقوالهم مرجوحة سوى مسائل معروفة رجعت فيها آراؤهم من ذلك كتابة (عرى وضحى وخطى) بالياء وان كان أصلها واواً وكثيراً ما كانت الفصاحة في استعمال الشاذ — كفعل (استحوذ) مثلاً فان الفصيح فيه ان يقال كما قال تعالى : (استحوذ عليهم الشيطان) وان كان اصل القاعدة (استحاذ) .

(٣) ما قاله الامير شكيب من ان كلمة (جنح) لم ترد بمعنى جنح الطائر في فصيح كلام العرب ولا في معاجم اللغة المعتبرة — هو الصحيح ولا يجوز جعل (طبعات) الكتب وشعر المتأخرين وإطباق الرأي العام — براهين على صحة دعوى لغوية ما لم يؤيدها النقل الصحيح من أئمة اللغة المثبتة اقوالهم في المعاجم المشهورة .

(٤) يبقى مجمعنا العلمي متمسكاً بما قرره الاقدمون من قواعد اللغة العربية ويجد من وفاء الذمم ان ينبه الى ما وقع من الخطإ في تلك القواعد حتى اذا تيسر له تنفيذ خطته في اصلاح اللغة وتهذيب قواعدها واعلن ذلك على الملأ كان له اذ ذاك ان يغضي عن الاغلاط مهما خالفت آراء المتقدمين ما دامت موافقة لخططه وطرائقه .



نموذج من الكلمات الصليبية

قلت في مقالتي (الكلمات الايوبية) المنشورة في مجلد هذه السنة ص ١٥١ ان النويري ذكر في كتابه (نهاية الأرب) ان الشاميين اقتبسوا من الأفرنج كلمة (مفصولة) ويريدون بها الأرض التي يعطيها الأمير صاحب الاقطاع الى بعض اتباعه مقابل شيء معلوم يؤديه في السنة وان مفصولة مشتقة من الفصل . ثم نقلنا عن بعض فضلاء مصر المعاصرين ان الفصل معربة عن كلمة Vassal الافرنسية بالمعنى المذكور ثم قلت ينبغي لنا ان نتتبع هذه الكلمات الصليبية ويوشك ان نعثر منها على طائفة صالحة . وقد اتفق لنا ان كنا نصحح كتاب (الدارس في المدارس) مع بعض اخواننا من اساتذة المجمع فمر معنا في ترجمة السلطان صلاح الدين قوله بعدد أعمال السلطان في بيت المقدس (وعمل للشافعيــة المدرسة الصلاحية وكان موضع كنيسة على جسد حنة اي على قبر حنة ام مريم عليها السلام اه) فرأينا العبارة قلقة من جهتين (١) من جهة قوله ان السلطان بنى المدرسة على جسد حنة ولم تجر العادة بأن يقال هذا (٢) ان النعيمي مؤلف الدارس فسر الجسد بالقبر مذ قال (اي على قبر حنة) وهذا غير سائغ . فراجعنا تراجم صلاح الدين فاذا صاحب الفتح القسي وصاحب الروضتين يقولان ان السلطان صلاح الدين اراد ان يبني مدرسة للشافعية (فعين لها الكنيسة المعروفة بصند حنة) فلم يقولا (جسد) وانما قالا (صند) فاحدى الكلمتين محرفة عن الاخرى واحداهما وهي (جسد) لها معنى في اللغة والاخرى وهي (صند) لامعنى لها اصلاً ومع هذا رأينــا أجهل الكلمتين وانكرهما في العربية هي المقصودة والمرادة هنا : وذلك ان كلمة (صند) كلمة صليبية اخذها عرب سوريا عن الافرنج الصليبيين . وهؤلاء يقدسون السيدة حنة ام مريم عليها السلام فلا يذكرون اسمها مجرداً عن لقب التكريم بل هم كلما ذكروها قالوا (سنت حنة) (سنت حنة) ومعنى سنت (Sainte) في اللغة الافرنسية القديسة فكان رجال السياسة في العهــد الصليبي يسمعون كلمة (سنت) بمعنى القديسة منهم . ومن هؤلاء الرجال (العماد الكاتب) اكبر رجال صلاح الدين وكتابه ومؤرخي دولته وهو مؤلف كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي) وقد وصف لنا فيه كيف بنى صلاح الدين بيت المقدس . فلا غرو اذا قلنا انه كان يسمع الافرنج يقولون (سنت حنة) ولما اراد ان يذكر لنا ان صلاح الدين

بنى المدرسة الصلاحية قال انه بنـاها على (سنت حنة) بمعنى القديسة وانظر لماذا لم يقل القديسة بدل (سنت) ؟ ثم ان العرب يتلاعبون بالألفاظ الفرنجية ويجذبونها الى مناحي لغتهم واوزان كلماتهم فعربوا كلمة (سنت) الى (صند) بقلب السين صاداً والتاء دالاً . وهذا الابدال كثير في الكلمات العريقة في العروبة فما بالك في الكلمات الدخيلة الاعجمية . والحاصل ان العماد الكاتب قال (صند حنة) ونقل العماد عن مؤلف (الروضتين) وهو قريب العهد بالزمن الصليبي فقال ان السلطان بنى المدرسة على (صندحنة) وبعد نحو ثلاثمائة سنة ألف الشيخ النعيمي (المتوفى سنة ٩٢٧ هـ) كتابه (الدارس) ولخص كلام المؤرخين المذكورين وقال ان السلطان عمل للشافعية المدرسة الصلاحية وكانت موضعاً للكنيسة على (صند حنة) وقد ظن النعيمي ان معنى كلمة (صند) الافرنسية (قبر) ففسرها بقوله (اي على قبر حنة) ثم تعاور النساخ كتاب الدارس ولم يفهموا كلمة (صند) فرجحوا أن تكون محرفة عن (جسد) وهكذا كتبوها (جسد حنة) فكلمة (صند) كلمة صليبية بمعنى ان العماد الكاتب وغيره من عرب الشام في ذلك العهد اقتبسوا في كلامهم كلمة (سنت) بعد ان عرّبوها بصند . بل وجد في الكتابات العربية الباقية من آثار العرب في جزيرة صقلية (سيسليا) ما يفيد انهم كانوا يستعملون كلمة صند بمعنى القديسة ولكن يكتبونها هكذا (صنت) بالتاء لا بالدال . والاندلسيون يلفظونها بالشين فيسمون مدنهم (شنت مرية) (شنت ياقب) الخ وقال ياقوت اظنها بمعنى البلدة اوالناحية لانها تضاف الى عدة اسماء . وليس كما قال .

ويمكن ان نضم الى كلمة (صند) الصليبية كلمة أخرى مثلها وهي كلمة (كُند) بضم الكاف وسكون النون وهي لقب شرف بمعنى أمير فان كتاب العرب منذ العهد الصليبي ادخلوها الى لغتنا العربية اقتباساً من لغة الصليبيين ففي ص ١١٠ من كتاب نهاية الأرب للنويري ذكر ان الملك المنصور قلاوون كتب (او كتب كاتبه عنه) الى ملك اليمن كتاباً وصف له فيه بعض وقائع الحروب الصليبية وقد جاء في كتابه قوله (والرغبة الى الله ألاّ تشق لديناً الا اكباد أكناد . ولا تجزّ غير شعور ملوك التتر الخ) فقوله (اكناد) جمع (كُند) وكند معرب كونت (Conte) الافرنسية ومعناها أمير (راجع مجلة المجمع ص ٨٦ من هذه السنة) وتاء (كنت) او (كونت) قلبت دالا في العربية كما قلبت تاء

(سنت) دالاً ايضاً مذ قالوا (صند) . وقلب التاء دالاً لقرب مخرجيهما أمر مستفيض في كلمات اللغة مثل (أعتدت متكأ وأعدّت) و (سَبَّد شعره وسبته) و (مرَتَ الجلد ومرَدَه) و (مدّ الحبل ومتّه) الخ . أما قلب السين صاداً على نمط ماوقع في (سنت وصند) فكثير ايضاً في كتب اللغة حتى كاد بعضهم يزعم أن كل سين في كلمات اللغة العربية يجوز قلبها صاداً وبالعكس . ولكنهم لم يسلموا هذا للقائل . وانما هم قالوا بكثرته فقط .

المغربي



من نوادر المخطوطات
« في دار الكتب الظاهرية »
— ٥ —

ذيل تاريخ بغداد[1] : تصنيف محب الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٣ قال صاحب كشف الظنون : وهو ذيل عظيم على تاريخ بغداد جمع فيه فاوعى يقال انه يتم في ثلاثين مجلداً ورتبه كالطبقات . الموجود منه المجلد العاشر فقط في ٤٦٠ صفحة كبيرة أوله : ترجمة عبد المغيث بن زهير المتوفى سنة ٥٨٣ وينتهي الى ترجمة علي بن الحسين الاسكاف [رقم ٤٢ التاريخ]

ذيل طبقات الحنابلة : تأليف زين الدين عبد الرحمن بن احمد المعروف بابن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ وهو ذيل على طبقات الحنابلة لابي الحسين محمد بن محمد بن الحسين ابي يعلى الحنبلي المعروف بابن الفراء المتوفى سنة ٥١٦ وانتهى فيه الى سنة ٥١٢ وهذا الذيل وصل فيه الى سنة ٧٥٠ الموجود منه نسختان [رقم ٦٠ و ٦١ التاريخ] .

سيرة احمد بن طولون : تأليف ابي احمد عبد الله المدني البلوي وقال صاحب كشف الظنون انها لأحمد بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٣٤ . أولها الحمد لله خالق السموات والارض وما بينهما من الآيات على حكمته الشاهدات على قدرته الخ نسخة في ٢٥٠ صفحة متوسطة كتبت بخط قديم يرجع الى القرن الرابع [رقم ٢٤٢ التاريخ] .

---

(١) جاء في كشف الظنون ما نصه : قيل أول من صنف لبغداد تاريخاً احمد بن طاهر البغدادي وتلاه ابو بكر احمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ فكتب على طريقة المحدثين جمع فيه رجالها ومن ورد بها وضم اليه فوائد جمة فصار كتاباً عظيم الحجم والنفع اه . وقد طبع التاريخ للمرة الأولى بنفقة مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد وصدر منه الى الآن ١٣ مجلداً .

عيون التواريخ — تأليف صلاح الدين ابي عبدالله محمدبن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ رتبـه على السنين وانتهى فيه الى سنة ٧٦٠ ابتدأه بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم سيرة الخلفاء الراشدين وجمهور الصحابة والتابعين وتراجم رجال الحديث النبوي ومراتب رواته وطبقاتهم وتراجم الصالحين والزهاد والأعيان والشجعان والكرماء والأدباء والشعراء والمغنين وغيرهم قسمه الى حوادث ووفيات • الموجود منه سبعة مجلدات من نسخ مختلفة •

(الاول) يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم الى وفاته في ٣٢٠ صفحة متوسطة القطع كتب سنة ٨٨٨ بخط نسخ [رقم ٤٣ التاريخ] •

(الثالث) فيه تاريخ من سنة ١٣٢ الى سنة ٢١٧ في ٤٢٠ صفحة متوسطة بخط نسخ [رقم ٤٤] •

(الخامس) فيه تاريخ من سنة ١٢١ الى سنة ١٤٣ في ٢٠٠ صفحة صغيرة [رقم ٤٥]

(الخامس) (من نسخة اقدم من المتقدمة) فيه تاريخ من سنة ٧١ الى سنة ١٠٨ في ٢٠٠ صفحة كبيرة [رقم ٤٦] •

(الثاني عشر) فيه تاريخ من سنة ٣١٠ الى سنة ٣٩٠ في ٦٠٠ صفحة متوسطة [رقم ٤٨] •

حسني الكسم

مطبوعات حديثة

الضياء

« مجلة تسعى في ترقية الآداب العربية »

« في لكنؤ (الهند) »

كما ذاق كأس بأس مرير — جاء كأس من الرجا معسول

وهكذا شأننا في الخوف على لغتنا العربية والحذر من ان تضعف وتتخاذل امام زحف اللغات الاجنبية عليها وزمزمة دسائسهم حواليها فليس العجب ان تنهض العربية في تونس والجزائر ومراكش وانما العجب ان يسطع ضياؤها ويخفق لواؤها في بلاد الاعاجم : كانتشارها في امريكا بواسطة ابناء يعرب وغسان من اخواننا المهاجرين وانتشارها في جزائر جاوه بواسطة الحضارمة وكنهوضها اليوم في بلاد الهند بواسطة الغيورين من أساتذة معاهدها العلمية والدينية : فقد انشأ هؤلاء الاساتذة مجلة علمية أدبية تعليمية اجتماعية ولغة الانشاء فيها هي لغة مضر بما عهدناه من فصاحتها وناصع عروبتها (الاقليلاً) . وان القائم بانشاء تلك المجلة الاستاذ (مسعود عالم الندوي تحت إشراف الاستاذين سليمان الندوي رئيس دار المصنفين وتقي الدين الهلالي المغربي المراكشي) . وقولهم (الندوي) . نسبة الى جمعيتهم المشهورة في لكنؤ المسماة (ندوة العلماء) . وقد جاء مجمعنا العلمي ثلاثة الاجزاء الأُولى من تلك المجلة فراقنا منها أولاً (الإخلاص) الذي لحناه يترقرق خلال سطور ما يكتب فيها . ثانياً (فصاحة العبارة) العربية التي تجلى في ما يكتبه العلماء الهنود فيها . ثالثاً (المقدرة الصحافية) في جمع المواد وتبويبها وحسن إيرادها وجودة تنسيقها . ففي الجزء الأول مقالان عن النهضة العلمية في الهند من الوجهتين الدينية والدنيوية وعلاقة ذلك باللغة العربية التي ينظر اليها مسلمو الهند نظر تقديس وتعظيم . ومقال في فلسفة الأمثال . وآخر مناقشة مع

الأب (لويس شيخو) في ما كتبه عن (شعراء النصرانية) ومقال في شاعر الهند (محمد إقبال) ويظهر ان ممثلي الهند عاتبون علينا في التنويه بطاغور الهندومي والاعجاب بشعره وشاعريته وإعراضنا عن ذكر شاعرهم (محمد إقبال) وترجمة اشعاره والتحدث بأخباره . ومن ثم عزموا في مجلتهم ان يترجموا من قصائده الى العربية الفصحى ويرووا لنا الفينة بعد الفينة نتفاً من آثار قلمه وبدائع حكمه . ولم يقتصروا على تقديم شاعرهم العظيم الينا بل هم ينوهون ايضاً بشاعرتهم الهندية العظيمة (سروجني نائيدو) وقد اخبرونا ان شاعرتهم هذه قالت في شاعرهم (إقبال) في الحفلة التي أقيمت لتكريمه في لندره — انه (ملك شعراء آسيا) .

ونشروا في الجزء الثاني : مقالاً ممتعاً عن (كيفية انتشار الاسلام في الهند) و (من هو الواضع لعلم الجبر والمقابلة) و (تأثير الاسلام في الشعر العربي) (ومناهج التعليم في اللغة العربية) وفي الجزء الثالث : (نشأة اللغات) و (شغف ابي العلاء المعري بالمتنبي) و (المدرسة البادرائية بدمشق) و (احصاء المسلمين في العالم) وغير ذلك من قطع النثر والنظم القديم والحديث الهندي والعربي ويمكن ان يقال ان الهدف الذي ترمي اليه المجلة هو (١) احياء اللغة العربية بين مسلمي الهند فتقوى على مهاجمة اللغة الانكليزية . (٢) التقريب بين الأدبين العربي والهندي وتعريف أدباء الفريقين بعضهما ببعض . وهذان الغرضان لا يتمان مالم يعن بتعليم اللغة العربية في البلاد الهندية وهو امر يهتم به علماء الهند كل الاهتمام ويخشون من تقصيرهم فيه أن يضعف الاسلام وتقوى الشعوبية وقد أعرب عما قلناه كبير علماء الاصلاح في الهند (السيد سليمان الندوي) في المقدمة التي افتتح بها المجلة وكان فيها بين الرجاء واليأس: فهو يرجو نهوض اللغة العربية وآدابها بسبب كثرة مدارسها في الهند ثم يعود فيظهر القنوط مذ يرى التواء طرق تعليم تلك اللغة ويحض قومه على العناية باصلاح البرامج وحسن اختيار الاساتذة والمعلمين .

ونختم تقريظنا هذا باقتباس بعض ما قاله عن المدارس التي تعلم اللغة العربية في البلاد الهندية قال: «هذه بلادنا الهند فيها نحو ثمانين مليوناً من المسلمين وفيها نحو مليون من يفهم لغة القرآن ويعرفها وان لم تكن لهم قدرة على التكلم بها . وتقدر مدارسهم العربية بالف من صغارها وكبارها وطلبة العربية فيها نحو مئة الف او يزيدون : فان صقعاً واحداً من اصقاع الهند ويعرف ببلاد البنغال يضم بين جناحيه ستين الفاً من طلبة العلوم العربية وتلامذتها وتجد في

مدينة واحدة وهي دهلي عاصمة الهند نحو مئة مدرسة عربية بين صغيرة وكبيرة · أثراها (مدرسة جامع فتحپوري) واعمرها المدرسة الامينية · وتلتق في مدرسة واحدة وهي المدرسة العالية في (ديوبند) أكثر من ٥٠٠ طالب تدر على اكثرهم المدرسة رواتب شهرية تفي بمأكلهم وملابسهم ودع دار علومنا التي قامت بتأسيسها (ندوة العلماء) بلكنؤ فهي احدثها عمراً · ولكل منها من المزايا مالا يخفى على ذي عينين » ثم قال ان هؤلاء الطلاب على كثرتهم بكم عن التكلم باللغة العربية وعاجزون عن الكتابة والخطابة فيها اللهم الا ابحاث سمجة في الفقه والمنطق وأول من تنبه لترقية اللغة العربية مدرسة (دارالعلوم) التي اسستها ندوة العلماء فنظمت التعليم العربي (وألفت معجماً شرحت فيه الكلمات الدخيلة والمعربة التي لا غنى عنها في فهم الجرائد والمجلات العزبية)· وآثرت لتعليم الآداب العربية أساتذة من العرب مثل الاستاذ (الشيخ تقي الدين الهلال المغربي المراكشي) · والزمت طلاب العربية بالكتابة والانشاء باللغة العربية · وقد انتقل هذا الاهتمام بالعربيـة الى المدارس الأخرى كمدارس بنجاب والمدارس الانكليزية الرسمية وجوامع لاهور وإلٓه آباد ولكنؤ وپتنه وكلكة والكلية الشرقية بلاهور ومدرسة شمس الهدى (پتنه) والمدرسة العالية (كلكتا) وخاصةً (جامعة دها كه) الانكليزية · وقد ارادت جامعتنا الاسلامية في (عليكره) ان تقتفي أثر جامعة (دها كه) في العناية باللغة العربية فعسى ان تثمر مساعيها · واما (الجامعة العثمانية) بحيدر آباد فهي اكثر الجوامع إنفاقاً على فرعها العربي وعناية بمستقبل خريجيه · ثم ان الكاتب الفاضل بعد هذا الرجاء المعسول عاد فعقبه بأسف ويأس : ذلك ان اللغة الانكليزية وآدابها وصحفها تكاد تخنق العربية وتأتي على المساعي التي تبذل في تعميمها قال (فذلك ما دعانا الى اصدار مجلة عربية دعوناها الضياء) ثم دعا لها بالتوفيق ورجا من فضلاء بلاد العرب ان يمدوها بكل ما يحييها ويساعد على ثباتها ·

ومجمعنا العلمي يرحب بهذه المجلة ويباهي بجهود القائمين بها وبهذه النهضة المباركة في البلاد الهندية · المغربي



مجلة الابحاث الشرقية

الجلد الاول ١٩٣١

Bulletin d'Etudes Orientales, Tome 1 1931

هي مجلة يصدرها باللغة الافرنسية المعهد الافرنسي في دمشق عوضاً عن مجلته السابقة ·

Mélanges de la Section Scientifique des Arabisans de l'Institut d'Archéologie et d'Art Musulmans de Damas

وابحاثها كالسابقة : ابحاث علمية شرقية متنوعة يحررها اعضاء هذا المعهد بمؤازرة نخبة من علماء المشرقيات فنرحب بالمجلة الجديدة ونرجو لها دوام التوفيق ·

جعفر الحسني



هدايا كتب

مر في ص(٤٤٢) من مجلد هذه السنة أن قد انشئت في (حيدرآباد الدكن) من بلاد الهند لجنة باسم (مجلس احياء المعارف النعمانية) تعنى بنشر مصنفات أئمة المذهب الحنفي القديمة مما لم يطبع الى اليوم وقد طبع بعض تلك الكتب واهدت اللجنة منها الى مجمعنا كتابين :

(١) شرح الصدر الشهيد على كتاب النفقات للخصاف وهو الذي جمع فيه مسائل النفقة وجعلها على اقسام منها نفقة الوالد على ولده ونفقة الام على ولدها ونفقة الولد على الوالد ونفقة ذوي الأرحام الخ وقد ألحق الكتاب بذيل ذكر فيه ترجمة كل من الامام الخصاف المتوفى سنة ٢٦١ ﻫ وشارح كتابه الصدر الشهيد (المتوفى سنة ٥٣٦ ﻫ) والكتاب لطيف الحجم في نحو ٥٦ صفحة وقد طبع في مطبعة (دكن لاربوت) في حيدر آباد ·

(٢) كتاب العالم والمتعلم للإمام ابي حنيفة النعمان قال صاحب (كشف الظنون) يشتمل هذا الكتاب على العقائد والنصائح بطريق السوآل عن المتعلم والجواب عن العالم يقال رواه (ابومقاتل) عن الامام الأعظم رضي الله عنه اه ·

وأوله (ان الحمد لله حياً لايموت وحمداً لايطعم الخ وهو في نحو ٣٢ صفحة وقد طبع في المطبعة الحيدرية في (حيدر آباد) ·

وتوجد نسخة مخطوطة من (كتاب العالم والمتعلم) في دار الكتب الظاهرية كتبت حديثًا . لكن في اولها مقدمة ليست في النسخة المطبوعة المهداة الينا من لجنة الهند وقد رأينا من تمام الفائدة نشر هذه المقدمة وهذا نصها :

« قال الشيخ الامام العالم الزاهد الورع القدوة العلامة رئيس الاصحاب مجد الدين عبد الرحمن بن عمران بن احمد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن ابي جرادة قال :

أخبرنا الشيخ الامام نجم الدين ابو القاسم اسماعيل بن عبد السلام بن عبد الرحمن اللمغاني مدرس مشهد ابي حنيفة رحمة الله عليه بقراءتي عليه في مشهد ابي حنيفة بالجانب الشرقي من بغداد جبرها الله وذلك يوم السبت رابع صفر سنة ثلاث واربعين وستمائة قال أخبرنا صبح الدين ابو الحسن بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدي بسماعه من ابي العلا حامد بن ادريس جماعة من ابي المعين ميمون بن محمد المكحولي النسفي بسماعه من ابي طاهر المهدي محمد الحسيني بسماعه من ابي يعقوب بن منصور السياري بسماعه من ابي الفضل أحمد بن علي بن عمر السليماني بسماعه من ابي سعيد حاتم بن عقيل الجوهري بسماعه من الفتح حنيفة ابي علوان ومحمد ابن يزيد بسماعهما من الحسن بن صالح عن مقاتل عن الامام ابي بن نعمان بن ثابت رحمة الله عليه قال الحمد لله حيًا لا يموت الخ .

المغربي

العلوم الطبيعية

عند إخوان الصفا



إخوان الصفاء هي جمعية علمية تأسست في البصرة في القرن العاشر الميلادي ، ولم يعلم على التحقيق الزمن الذي عاشت فيه ولا اسماء الاشخاص الذين تألفت منهم . لأن الذين كانوا ينتمون الى هذه الجمعية يرمون الى معرفة الحقيقة على حسب الطاقة البشرية وان كتمان اعضاء هذه الجمعية ساق كثيرين الى الزعم أن لهم غايات سياسية . ولكن اذا تصفحنا رسائلهم القيمة التي نشروها مع كتم اسمائهم تيقنا ان الهدف الذي كانوا يرمون اليه انما هو إحصاء العلوم في ذلك الزمن .

وان اول الباحثين في هذه الجمعية هو العلامة الالماني المستشرق (ديتريسي) الذي أبان فضل هذا المجمع العلمي القديم وترجم منتخباً من كتبه ولا سيما ما يتعلق بالعلوم الطبيعية . وهو اول من نشر عن جمعية إخوان الصفا ايضاً في اللغة العربية . وفي مقدمة الكتاب الذي طبع في القاهرة عام ١٩٢٨ كلمة للدكتور طه حسين والعلامة احمد زكي باشا ، وكلاهما اشار الى ان هذه الجمعية نشأت في القرن العاشر ، ولكنهما لم يلمحا الى ماتحويه تلك الرسائل من الكنوز في العلوم الطبيعية .

والغرض من مراقبة الطبيعة عند هذه الجمعية هو التوصل الى الهدف الأسمى والغاية العليا التي هي معرفة الصانع والتقرب اليه بالكمال النفسي ، وهكذا نرى إخوان الصفاء يبدأون بالعلم الأدنى الى ان يصلوا الى العلم الأعلى وهو العلم الالآهي .

واكبر حامل لهم على البحث في العالم كله هو إدراك ماهية الانسان الذي هو ثمرة الطبيعة وتاج الخليقة ، واعتقادهم ان الانسان عالم صغير كما ان العالم انسان كبير فيقولون (ان

جميع السماوات السبع والأرضين ومابينهما جسم واحد بجميع افلاكه وان له نفساً واحدة سارية قواها في جميع أجزائها كسريان نفس الانسان الواحد في جميع أجزاء جسده) . والطبيعة عندهم تنقسم الى قسمين (الأمهات الكليات) وهي النار والهواء والماء والأرض وثلاثة هي (المولدات الجزئيات) وهي الحيوان والنبات والمعـادن . ويعبرون عن الطبيعة بقوة من قوى النفس الكلية المنبثة في جميع الأجسام ويجدون هناك اتفـاقاً في المعنى بين التعبير الشرعي للملائكة ، والتعبير الفلسفي لقوى الطبيعة وان كان هناك اختلاف في اللفظ وقوى النفس الكلية الفلكية السارية في جميع الأجسام المسماة (الطبيعة) تنقش اجناس الكائنات وتصورها .

والذي يثير اعجابنا من إخوان الصفا في مباحثهم الطبيعية هو توافق بعض نظرياتهم الطبيعية للنظريات الأوروبية الحديثة ومن اهم هذه النظريات نظرية داروين الانكليزي في النشوء والارتقاء فنجد إخوان الصفاء كانوا يرون ايضاً ان آخر مرتبة من مراتب المعادن متصلة بأول مرتبة من مراتب النبات ، وان آخر مرتبة من مراتب النبات متصلة بأول مرتبة من مراتب الحيوان وان آخر مرتبة من مراتب الحيوان متصلة بأول مرتبة من مراتب الانسان . ومراتب الانسان عندهم ايضاً ليست واحدة ، فمنهم الذين يسعون الى الكمال النفسي وهم في ارقى الدرجات . وان الأدنى في المرتبة خادم للاشرف ومسخر له فجسم النبات غذاء لجسم الحيوان لأنه دون رتبته ، والنفس الحيوانية مسخرة للنفس الحيوانية الناطقة . فنرى هنا شيئاً من نظرية تنازع البقاء ، التي كان لها شأن في الفلسفة الاوروبية في القرن الماضي ، واكبر الداعين الى هذا المذهب هو الشاعر الفيلسوف الألماني (نيتشه) على ان إخوان الصفاء لا يطمئنون الى هذا المذهب ونجد عدم اطمئنانهم في تلك القصة الخيالية المحكية على لسان الحيوانات التي تشتكي ظلم البشر .

وان في آخر كل مرتبة من المراتب جسماً خاصاً ، فاطراف المعادن مايلي التراب الجص وما يلي اليـاقوت فهو الذهب الأحمر ؛ لأن الياقوت كما يعتقده اكثر علماء الاحجار ارقى مرتبة من مراتب الأحجار . واما مرتبة النبات ما يلي المعادن فهي خضراء الدمن . وارقى انواع النبات النخل . اما رتبة الحيوانية التي تلي رتبة الانسانية فليست من جهة واحدة ، ولكن من عدة وجوه ؛ لأن رتبة الانسان لما كانت معدناً للفضل وينبوعاً للمناقب لم يستوعبها

نوع واحد من الحيوان وانما استوعبتها عدة انواع فمنها ما قارب رتبة الانسانية بصورة جسدية مثل القرد ، ومنها ما قاربه بالاخلاق النفسانية كالفرس ومنها كالطائر الانساني ايضاً ومثل الفيل في ذكائه والببغاء والهزار ونحوهما من الاطيار الكثيرة الاصوات والالحان ، ومنها النحل اللطيف الصنائع الى ما شاكل هذه الاجناس ؛ وذلك انه ما من حيوان يستخدمه الناس ويأنسون به الا ولنفسه قرب من نفس الانسان . على اننا نجد عند غير العلماء كابن خلدون والبيروني ان آخر مرتبة الحيوان المتصلة بالانسان هي القردة فقط[1] :

اما رأي إخوان الصفاء في المادة فيوافق كل الموافقة ذلك العالم الافرنسي الكبير لافوازيه Lavoisier القائل ليس في الطبيعة شيءٌ يحصل من العدم ولا شيءٌ ينعدم ، اذ يقولون : «الكون والفساد ضدان لايجتمعان في زمن واحد ؛ لأن الكون حصول الصورة في الهيولى والفساد هو انخلاعها عنه ، فاذا فسد شيءٌ منها فلا بد ان يتكون شيءٌ آخر . لأن الهيولى اذا انتزعت منها صورة البست أخرى ؛ فان كانت التي أُلبست أخرى اشرف سمي كوناً ، وان كانت ادون سمي فساداً ؛ مثال ذلك : ان يصير التراب والماء نباتاً ويصير النبات حباً وثماراً ، والثمار والحب يصيران غذاء ، والغذاء يصير دماً ولحماً وعظماً فيكون من ذلك حيوان . والفساد ان يحترق النبات فيصير رماداً ، او يموت الحيوان فيصير تراباً .

ويظنون ان علل كل ما يحدث في الطبيعة اربعة : علة فاعلة ، وعلة هيولانية ، وعلة تمامية ، فالعلة الفاعلة الطبيعة التي اشرت اليها سابقاً . واما العلة الهيولانية لها ، فهي الزئبق والكبريت . وعلى قدر اختلاف هذين الجسمين تحصل المعادن المختلفة . وقد زعم جابر ابن حيان الكيماوي ذو الشهرة الواسعة في تاريخ الكيمياء ؛ ان العناصر مركبة من جوهرين اثنين ، ذكر وأنثى ، جسد وروح ، احمر وابيض ، طائر وثابت ، ارض وماء ، كبريت وزئبق [2] . وهذا المثل يطابق كل المطابقة تقسيم العناصر على الطريقة الكهربائية الحديثة المعبر عنها بالكاثيون Kasion والانيون Aniod .

(١) راجع مقدمة ابن خلدون — بيروت ١٨٨٦ ص ٨٤ .

(٢) راجع المصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان الصوفي ، نشره ارك يحيى هولميارد باريس ١٩٢٨ ص٥٣ . ومن الذين عينوا الزمن الذي عاش فيه هذا العالم الاستاذ روسكا والدكتور كراوز في برلين .

ولإخوان الصفا آراء صائبة في كثير من حوادث الطبيعة في عصر لم يكد يعرف البحث البشري عنها الا الشيء القليل . فتجدهم يصفون المطر ، والصاعقة ، وكيفية تكون المعادن ، والمد والجزر ، والينابيع الارتوازية ، وكيفية تجمع مياه الأنهار ومسيرها الى البحر ، وكثير من التدقيقات الجيولوجية . فيقولون عن المطر انه من تصاعد البخارات ومن أحب ان يعلم صدق قولنا ويتصور كيفية وصفنا ... فلينظر الى تصعيدات المياه وتقطيرها وكيف يعمل منها أصحابها ، مثل تصعيد ماء الورد والخل المصعد وماشا كلها ، ومثل البخارات الصاعدة في بيوت الحمامات وكيفية تقطير الماء من سقوفها .

ولقد لفتت نظر الاستاذ روسكا كيفية تكون البراري لدى إخوان الصفاء حيث يجد فيها الانسان أساس النظرات الجيولوجية الحديثة [1] فتجدهم يقولون : « ان الأرض بجميع ماعليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعمران والخراب هي كرة واحدة معلقة في الهواء في مركز العالم ... فمنها مواضع براري وقفار وفلوات وخراب . ومنها مواضع الجبال والتلال والارتفاع والانخفاض ، ومنها مواضع المراعي والقرى والمدن والعمران ... وان هذه الارض تتغير وتتبدل على طول الدهر والأزمان وتصير مواضع الجبال براري وفلوات ، وتصير مواضع البراري بحاراً وغدراناً وانهاراً ، ويصير مواضع البحار جبالاً وتلالاً وسباخاً وآجاماً ورمالاً ، وتصير مواضع العمران خراباً ، ومواضع الخراب عمراناً .... وان البحار هي كالمستنقعات على وجه الارض ، فان الجبال منها كالمسنوات والبريدات لها لتفصل البحار بعضها من بعض ولئلا يكون وجه الارض كله مغطى بالماء ، وذلك انه لو لم تكن الجبال على وجه الارض وكان وجهها مستديراً ملساً لكانت مياه البحار تنبسط على وجهها فتغطيها من جميع جهاتها ... وكان وجه الارض كله بحراً واحداً ... وان الأودية كلها تبتدئ من الجبال والتلال وتمر في مسيلها وجريانها نحو البحار والآجام والغدران . وان الجبال من شدة إشراق الشمس والقمر والكواكب عليها بطول الأزمان والدهور تنشف رطوبتها وتزداد جفافاً ويبساً ، وتنقطع وتنكسر ، وتصير أحجاراً أو صخوراً أو حصى ورمالاً . ثم ان الأمطار والسيول تحط تلك الصخور

(١) راجع Isis عام ١٩١٤ وص ٣٤٥ .

والرمال الى بطون الأودية والأنهار ، ويحمل ذلك شدة جريانهـا الى البحار والغدران والآجام . وان البحار لشدة أمواجها وشدة اضطرابها وفورانها تبسط تلك الرمال والطين والحصى في قعرها سافاً على ساف بطول الزمان والدهور ، ويتلبد بعضها فوق بعض ، وينعقد وينبت في قعور البحار جبالاً وتلالاً كما تتلبـد من هبوب الرياح دعاص الرمال في البراري والقفار .... وكلما انطمت قعور البحار من هذه الجبال والتلال التي ذكرناها انها تنبت فان الماء يرتفع ويطلب الاتساع وينبسط على سواحلها نحو البراري والقفار ويغطيها الماء ، فلا يزال ذلك دأبه بطول الزمان حتى تصير مواضع البراري بحاراً ، ومواضع البحار يبساً وقفاراً ، وهكذا لا تزال الجبـال تتكسر وتصير أحجاراً وحصى ورمالاً تحطها سيول الأمطار وتحملها الى الأودية والأنهار بجريانها حتى البحار ، وتنعقد هناك كما وصفنا ، وتنخفض الجبال الشامخة وتنقص حتى تستوي مع وجه الارض ، وهكذا لا يزال ذلك الطين والرمال تنبسط في قعر البحار وتتلبد وتنبت عنها التلال والروابي والجبال ، وينضب من ذلك المكان الماء حتى تظهر تلك الجبال وتنكشف هذه التلال ، وتصير جزائر وبراري وبصير ما يبقى من الماء في وهادها وقعورها بحيرات وآجاماً وغدراناً .... فلا تزال السيول تحمل الى هناك الطين والرمال والوحول حتى تجف تلك المواضع وتنبت هناك الأشجار ... ثم يقصدها النـاس .... وتصير مواضع الزروع والنبات بلداناً وقرى يسكنها الناس » .

ويعللون حرارة بعض العيون في الشتاء والصيف على حالة واحدة بان في باطن الارض وكهوف الجبال مواضع تربتها كبريتية فتصير تلك الرطوبات التي تنصب هناك دهنية ؛ وتكون الحرارة فيها راسبة دائماً هناك وجوازها عليها ، ثم تخرج وتجري على وجه الارض وهي حارة حامية .

وقد ذكروا ايضاً كيفية حدوث البرق والرعد فقالوا انهما يحدثان من اجتماع بخارين مختلفين بالكيفية ويسمون الاول البخار الرطب والثاني البخار اليابس حتى كادوا يقولون « مثبت ومنفي » . وبما انهم يعللون كل حادثة من حوادث الطبيعـة بمقتضى الامثال التي يرونها فيتعللون مثلاً حدوث تلك (القرقعة) باجتماع البخار الرطب باليـابس كما تقرقع الأشياء الرطبة دفعة واحدة اذا احتوت عليها النار ، ولقد علموا بان البرق والرعد يحدثان

في وقت واحد ولكن البرق يصل الى الأبصار قبل الصوت الى المسامع ٠

ولقد تكلموا عن قوس قزح بانه يحدث في سمك كرة النسيم عند ترطب الهواء وان أصباغه الاربعة موافقة للكيفيات الاربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، والأركان الاربعة التي هي النار والهواء والماء والارض المعروفة في عهد قدماء اليونان ٠ ولقد ذكروا ايضاً ان علة حدوث قوس قزح لا يفهمها الا المرتاضون بالاشكال الهندسية والامور الطبيعية والنسب التأليفية ٠

ولهم نظريات في الألوان ، فان الألوان المفردة لديهم هي البياض والسواد والحمرة والصفرة والخضرة والزرقة والكدرة ٠ ولحدوث كل لون أسباب عديدة ٠ فالاشياء التي ترى بيضاء بياضها اما لأن النور محبوس فيها لغلبة الرطوبة كاللبن ، او لأن النور مولج فيها لكثرة التخلخل كالملح ، او لأن النور محبوس فيهـا كالفضة ٠ والنور يرى من وراء الاجسام الشفافة أبيض فان عرض له عارض يرى أصفر ٠٠٠ ومنهـا مايرى أصفر لأن الحرارة تسد مسامها ، كالاشياء البيضاء اذا طبخت اصفرت ٠ وعلة رؤية الاشياء حمراء شيئان : احدهما الأسباب المعفنات ، والآخر الاسباب المذوبات ، فالمعفنات لكثرة الرطوبة ، والمذوبات لكثرة الحرارة ؛ كالشمس تراها حمراء عنـد كثرة البخارات ٠ والأثمار ترى حمراء عند النضج لكثرة الرطوبة ، والخضرة والسواد يحدثان من منع النور ان يصير الى البصر خالصاً ، فالسواد يجمع الألوان والبياض يفرقه وبقية الألوان هي بين هذين الطرفين[1] ٠

لقد ذكرنا انهم يقسمون الطبيعة الى ثلاثة أقسام : معادن وحيوانات ونباتات ، ويسعون جهدهم في تقسيم كل فرع من الفروع على أسلوب خاص ، ويعتقـدون ان لكل نوع من الجواهر المعدنية بقعة مخصوصة وتربة معروفة لايتكون الا هنـاك كالذهب فانه لايتكون الا في البراري الرملية والجبال والاحجار المختلطة بالتربة اللينـة ، والكبريت

---

(١) نظرية الالوان لعبت دوراً عظيماً في اوربا ولقد كتب الشـاعر غوته شيئاً عن تاريخ علم الألوان وكنت نشرت كلمة في هذا الصدد في مجلة المعرفة (القاهرة ابريل ١٩٣٢) بمناسبة مرور مائة عام على وفاة غوته ٠

لا يتكون الا في الاراضي الندية والرطوبات الدهنية والقلقطار[1] ، والأملاح لا تنعقد الا في الارض السبخة والبقاع المشروحة والجص ، والاسفيداج لا يتكون الا في الارض الرملية المختلط ترابها بالحصى والزاجات ، والشبوب لا تتكون الا في التربة العفصة القشفة وعلى هذا القياس حكم سائر أنواع الجواهر المعدنية . ولقد ذكروا ايضاً ان لنضج المعدن لابد من مرور زمن مخصوص ؛ فالملح يحتاج الى زمن قليل ولكن الياقوت والزمرد يحتاج الى زمن كثير وكذلك الذهب ... الخ .

وعرفوا النبات : بانه كل جسم يخرج من الارض ويتغذى وينمو ، فمنها أشجار تغرس قضبانها أو عروقها ، ومنها ماهي زروع تبذر حبوبها أوقضبانها . ولحصول الافعال الحيوية في النبات اقتضى وجود قوى عديدة مثل الجاذبة والماسكة والدافعة . ويعللون كيفية امتصاص غذاء النبات بما يلي : ان القوة الجاذبة اذا امتصت نداوة الماء بعروق النبات كما يمتص الحجام الدم بالمحجمة أو كما تمص النار الدهن بالفتيلة وجذبتها انجذبت معها الأجزاء الترابية اللطيفة لشدة انجذابها . فنجد هذا التدقيق موافق كل الموافقة لرأي الاوربيين . وقد كانت نظرية الامتصاص غالبة حتى ظهور الانحلال الضغطي المعبر عنه (Osmose)

ويقسمون النباتات بطرق مختلفة : فأولاً الشجر الكامل الذي يحتوي على الأصل والعروق والقضبان والورق والثمر والصمغ ، ثم الناقص ، ثم الشجر المنتصب ، والشجر الذي ينبت على وجه الارض والذي ينبت على وجه الماء كالطحلب ، وما ينبت تحت الماء كالأرز وقصب السكر . وكذلك النجم وهو الشجر الذي يتسلق على الأخشاب كالكرم . ويقسمون ايضاً النبات على حسب المكان فيذكرون نبات البلاد الحارة ، والمعتدلة والباردة .

ويعبرون عن الحيوان بانه جسم متحرك حساس يتغذى وينمو ويحس ويتحرك حركة مكان . وان من الحيوان ماهو في أشرف المراتب مما يلي مراتب الانسان ... ومنه ماهو في أدنى رتبة مما يلي النبات . وهو كل حيوان ليس له الا حاسة اللمس كالأصداف أو كأجناس الديدان التي تتكون في الطين أو في الماء أو في الخل أو في الثلج أو في لب

---

(١) القلقطار هو تعبير يوناني معناه الزاج الأصفر وتركيبه الكيماوي كبريتات الحديد .

الثمر أو في الحب أو في لب النبات ، حتى كادوا يتكلمون عن الجراثيم . ويقسمون الحيوانات على حسب الحواس الخمس : فان منها ما له لمس فقط كالديدان المذكورة ومنها ما له لمس وذوق كالحيوانات التي تعيش في قعر البحار والمياه والمواضع المظلمة ومنها ما له لمس وذوق وشم وسمع والاكمل من له الحواس الخمس . ويقسمون الحيوانات على حسب السير ايضاً : فمنه مايتدحرج كالدودة ، ومنه ماينساب كالحية ، ومنه ما يدب كالعقرب ومنه مايعدو كالفأر ، ومنه مايطير كالطيور ... الخ . وكذلك يقسمون الحيوانات من جهة البنية .

وان أسمى غاية لديهم هي الاعتبار ومعرفة دقيق صنع الباري فيقولون : « ان اكثر الناس يتعجبون منخلقة الفيل اكثر من تعجبهم من خلقة البقة . فان الصانعالبشري يقدر على ان يصور فيلاً من الخشب اومنالحديد او من غيرها بكماله ، ولا يقدر احد منالصناع ان يصور بقة لامنالخشب ولامنالحديد » . ولقدضربوا مثلاً لفكرةالقيامة بفرخةالدجاج التي تخرج من البيضة . وانها اعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة لولاجريان العادة بذلك ، فيريدون بذلك عدم المرور (مروراً سطحياً) على كل مانشاهده من الطبيعة .

دقق عدد كبير منالباحثين الأوربيين في اخبار اخوان الصفا ومحصوا علمهم وفلسفتهم ومراميهم من كلالوجوه . ولاخوان الصفاء علاقة شديدة بالفلسفة اليونانية فهم متأثرون بآراء (الافلاطونية) الجديدة وكذلك بآراء ارسطوطاليس . ولم يعلم السبب في ذلك حتى هذا اليوم . وهناك اسئلة جمة عن اخوان الصفاء لاتزال غامضة حتى يومنا هذا .

برلين : محمد يحيى الهاشمي

الكلمة الاخيرة

— في الكلمات غير القاموسية —

« او فتاوى علماء اللغة المعاصرين في أصنافها السبعة »

[تمهيد الطريق امام المعجم العتيد]

كنت صنفت الكلمات غير القاموسية (وهي التي لم تدوّن في قواميس اللغة العربية)— الى اصناف سبعة وطلبت رأي إخواني اعضاء المجمع العلمي في أي الاصناف ينبغي قبوله وعدّه عربياً وتدوينه في المعجم العتيد وأي الاصناف لايجوز فيه ذلك . وقد افرغت طلبي في شكل استفتاء أواقتراح نشر في مجلة مجمعنا العلمي (ص ٢٩ مجلد٨) فكانت اجوبة الاعضاء ترد تباعاً حتى بلغت ١٨ جواباً نشر منها ١٣ في المجلد الثامن و ٥ في المجلد التاسع .

وقد رأيت الآن ان ارجع الى هذه الأجوبة فامخضها واستخرج منها زبدة يصح الركون اليها بحيث تكون بمثابة (قرار قطعي) واجب التنفيذ . وقد جريت في استخراج النتيجة على طريقة جمع الآراء والاصوات في كل صنف على حدة ثم المقارنة بينهـا وترجيح ما رجحته الأكثرية ايجاباً أو سلباً في كل صنف من تلك الأصناف .

وكنت وانا أتصفح اجوبة المجيبين أرى أكثرهم يجيب على السؤال نفسه بحيث يمكن اقتباس عبارته فاقتبسها بنصها بين هلالين وبعضهم يسهب ويستطرد فاضطر ان الخص جوابه بقدر مايفهم منه رأيه . وكان بعض المجيبين يقيد جوابه بشروط (اوتحفظات) وبعضهم يطلق القول اطلاقاً . وكثيراً ما ناقض بعضهم زميله وخالفه في بعض ما ذهب اليه . مثال ذلك ان بعضهم اباح استعمال فعل (خابر) للحاجة اليه وبعضهم منعه لعدم الحاجة اليه ومثله كثير في أجوبتهم .

وهذه (التحفظات) أو (الاختلافات) لو فتحتُ باب الاستفتاء فيها أو الاقتراع عليها ودعوت الاخوان للولوج فيه لطال الأمر . وبقينا في الاخذ والرد الى يوم الحشر .

على أن بعض هذه « التحفظات » ربما كان مما يوافق عليه بقية المجيبين لكنهم اهملوا التعرض له في اجوبتهم حباً بالاختصار او تجنباً للعبث . وسأشير الى هذه التحفظات في محلها .

وها انا ابدأ بتلخيص ما كنت قلته في كل صنف على حدة ثم اتبعه بعبارة المجيب (بنصها أو تلخيصها) حتى اذا استوفيت اجوبتهم في صنفٍ انتقلت الى الصنف الذي بعده . وهكذا الى آخر الاصناف السبعة .

« الصنف الأول »

كلمات عربية وردت في كلام فصحاء العرب ولم تدوّنها المعاجم . وقد مثلت لهذا الصنف بكلمة (تبدّى) بمعنى (ظهر) الواردة في شعر عمرو بن معدي كرب فهل نهمل مثل هذا الصنف من الكلمات فلا نستعمله ولا ندونه ؟ او نستعمله وندونه ؟

فاجاب الاساتذة :

١ — الرصافي « مجلد ٨ ص ٣٢ » (نستعمله ولو كره الجامدون) .

٢ — الكرملي « مجلد ٨ ص ١٠٢ » (كل لغوي يوافق على تدوينه) .

٣ — النشاشيبي « مجلد ٨ ص ٢٨٥ » (يجب ان يودع المعجم ويعد عربياً محضاً) .

٤ — الغلاييني « مجلد ٨ ص ٣٥٩ » (ما شاع على السنة الفصحاء من الكلمات « غير القاموسية » وكان له اصل في السماع — قبلناه) .

٥ — محمد الخضر « مجلد ٨ ص ٤١٠ » (نوافق في صحة استعماله) .

٦ — كامل الغزي « مجلد ٨ ص ٤٨٠ » (يجوز عندي استعماله بلا تردد) .

٧ — نقولا فياض « مجلد ٨ ص ٥٦٠ » (كيف نبخل على لغتنا بلفظٍ عربيٍ لعلة انه لم يرد في القاموس ؟) .

٨ — الزهاوي « مجلد ٨ ص ٦٨٦ » (لا يجوز التردد في قبوله) .

٩ — احمد رضا « مجلد ٩ ص ٥٨ » (أقول بصحته) .

١٠ — رشيد بقدونس « مجلد ٩ ص ١٠٣ » (يجب ان نضمه) .

١١ — قسطاكي حمصي «مجلد ٩ ص١٧٦» (أنا من أشد المتمسكين به واسبق انصاره) ٠
١٢ — عيسى المعلوف « مجلد ٩ ص ٣٥٥ » (لا بأس باستعماله) ٠
١٣ — سليمان ضاهر « مجلد ٩ ص ٤٨٤ » (يجوز استعماله) ٠
١٤ — الاسكندري « مجلد ٨ ص ١٠٤ »—(نقبله على الرأس والعين بشرط ان يرد في شعر فصيح او نثر اشتهر كنثر الأمثال) ٠

أقول : هذا الشرط او هذا التحفظ ليس فيه سوى زيادة الاستيثاق من كون كلمات هذا الصنف فصيحة ٠

١٥ — الجابري « مجلد ٨ ص ٣٦١ » — قال ما ملخصه : (ما لم يدوّن ولم يشع استعماله ليس من اللغة في شيءٍ ويستثنى من ذلك ما كان مشتقاً تقضي قاعدة الاشتقاق بجوازه وقد روي استعمال بعض العرب له) ٠

اقول : ومؤدي (التحفظ) في هذا الجواب ان تكون كلمات هذا الصنف مما تقتضيه قواعد الاشتقاق لا مما يناقض القواعد ويشذ عنها ٠

١٦ — احمد امين « مجلد ٨ ص ٣٥ » — (أُدخل منه في المعاجم مانحن في حاجة اليه فقط) ٠

أقول هذا (التحفظ) يشبه التحفظ الآتي في جواب الاستاذ النكدي ٠

١٧ — النكدي « مجلد ٨ ص ٥٩٧ »— لم يكن جوابه صريحاً في حكم كل كلمة عربية وردت في فصيح كلام العرب ٠ وانما هواقتصر على كلمة (تبدى) التي ذكرناها مثالاً وقلنا ان معناها ظهر فقال انه لاحاجة لنا بها مادام قد ورد في لغة العرب (٢٤) كلمة كلها تدل على معنى الظهور ورأيه ان لا يكون في لغتنا العربية اليوم كلمات مترادفة : فالاستاذ أحمد امين قال (نقبل من هذا الصنف مانحتاج اليه) وكأن الاستاذ النكدي يوضح لنا في جوابه معنى هذا الاحتياج فهو يقول ان لفعل (تبدى) مرادفات كثيرة فلاحاجة بنا اليه ٠

فنستنتج من قولي الاستاذين ان هــذا الصنف من الكلمات غير القاموسية نقبله اذا لم يكن له مرادف لاننا اذ ذاك نكون في حاجة اليه ٠ والا فلا ٠

١٨ — ادور مرقص « مجلد ٨ص ٧٤٠ »— لم يبحث حضرة المجيب في اصل القاعدة وانما بحث في المثال اعني كلمة (تبدّى) الواردة في شعر عمرو بن معدي كرب فماقاله

(لا أرى أن مجرد استعمال هذا الفصيح البدوي المخضرم (يعني عمرو بن معدي كرب) لفعل (تبدى) يحسب حجة لصحته ولو لزمنا ان نقرّ كل مانطق به عربي جاهلي فصيح – لوجب ان لا ننكر شيئاً من فلتات كلام القوم الكثيرة المخالفة لما عليه جمهور المحققين اه .

فنستنتج من قول المجيب انه يرفض قبول هذا الصنف ويحسبه من قبيل الفلتات أو الشواذ ما دامت المعاجم لم تذكره .

انتهى استعراض الاجوبة الثانية عشر فكان منها «١٧» جواباً وافقت على قبول هذا الصنف . وجواب واحد « ادور مرقص » رفض قبوله .

فالفتوى إذن على قبوله ، فنستعمل كلماته من دون نكير ونودعها معجمنا اللغوي العتيد من دون حرج .

«الصنف الثاني»

كلمات عربية وردت في كلام فصحاء العرب الاسلاميين الذين لا يحتج باقوالهم كفعل (أقصّ) الخبر بمعنى (قصّه) الوارد في قول المؤرخ (الطبري) وكلمتي (نخيم) و (صدفة) في قول العلامتين (اليازجي) و (محمد عبده) .

فهل تقبل كلمات هذا الصنف وتستعمل وتدون او لا ؟

فاجاب الاساتذة :

١ – الرصافي « جلد ٨ ص٣٢ » – « أوافق على جواز استعمال هذا الصنف بلا تردد » .

(٢) – النشاشيبي «جلد ٨ ص٢٨٥ » (هذا الصنف اخو الصنف الأول فيجب أن يودع المعجم ويعد عربياً محضاً) .

(٣) – كامل الغزي « جلد ٨ ص ٤٨٠ » – قال ما ملخصه : (لا أرى بأساً في استعمال (أقصّ) و(صُدفة) فان كلاً من الطبري والشيخ محمد عبده ثقة ، ولا في استعمال كلمة (نخيم) التي أقرها (اليازجي) لان القياس لا يأباها) اه . فيستنتج من كلام الأستاذ ان كلمات هذا الصنف تقبل وتعد عربية ما دام قائلوها ثقة وما دامت موافقة للقياس .

(٤ً) — نقولا فياض «جلد ٨ ص ٥٦٠» —(ان الألفاظ الشائعة الدخيلة لا بأس بها اذا لم نجد ما ينوب عنها) .

أقول : عبارة المجيب صريحة في قبول كلمات هذا الصنف وبقية الاصناف حتى الصنف السابع وهو «العامي» لكنه اشترط ان لا نجد ماينوب مناب الالفاظ الدخيلة .

(٥ً) — الزهاوي «جلد ٨ ص ٦٨٦» (لا يجوز التردد في قبوله ايضاً) .

(٦ً) — احمد رضا «جلد ٩ ص ٥٨» — قال ما ملخصه (ان ورود أمثال كلمات هذا الصنف في كلام أئمة اللغة يُنزّل منزلة التنصيص على نقلهم لها وهم لا يقدمون على استعمال ما لم يروه صحيحاً سائغاً) .

(٧ً) — قسطاكي حمصي «جلد ٩ ص ١٧٦» (انا ايضاً من أشد أنصار هذا الصنف) ثم حدد زمن الفصحاء الذين ورد هذا الصنف في كلامهم حتى يكون مقبولاً — بالقرن السادس او السابع الاسلامي .

(٨ً) — عيسى المعلوف «جلد ٩ ص ٣٥٥» قال مامعناه «التساهل في اللغة يقتضي قبول كلمات المولدين والمعاصرين فضلاً عن كلمة «فخيم» التي اقرها العلامة اليازجي .

(٩ً) — الكرملي «جلد ٨ ص ١٠٢» (كلم فصحاء العرب الاسلاميين تدون ايضاً) ثم قال ان كلمتي (فخيم) و (صدفة) الواردتين في قولي (اليازجي) و (محمد عبده) ليستا من هذا الصنف ؟ ؟

(١٠ً) — احمد امين «جلد٨ ص٣٥» (ندخل في المعاجم مانحن في حاجة اليه فقط) .

أقول : هذا الفاضل والفضلاء الخمسة الآتون شددوا في الشروط والتحفظات لكنهم بوجه الاجمال أجازوا كلمات هذا الصنف . ومايدرينا ان معظم المجيبين الاولين الذين اطلقوا ولم يقيدوا — يوافقونهم في تحفظاتهم هذه ؟

(١١) — الغلاييني «جلد ٨ ص٣٥٩» — قال اولاً ما ملخصه : (كلمات الفصحاء الاسلاميين لا نقبلها ما دامت محتملة لان تكون محرفة) ثم قال ما نصه :

واما «صُدفة» (وهي الواردة في كلام الاستاذ الامام) فأرى «ان شيوعها كاف لان يحملنا على قبولها وعدها اسماً بمعنى المصادفة كنظائرها الكثيرة اه» .

أقول : لنا ان نستنتج من مجموع جواب الأستاذ ان كلمات هذا الصنف ان وثقنا بعدم تحريفها وشاعت حتى أنسنا بها قبلناها والا فلا .

(١٢) — الاسكندري « جلد ٨ ص ١٠٤ » — قال ما ملخصه : (نقبل ماورد في كلام الفصحاء الاسلاميين الاقدمين كأبي نواس والمتنبيء لامن جاء بعدهم . الا اذا وافق القياس) والمتنبيء قتل سنة (٣٥٤هـ) .

(١٣) — الجابري « جلد ٨ ص ٣٦١ » — مزج جوابه على هذا الصنف مع جوابه على الصنف الاول الذي مر فقال ماملخصه : (مالم يدوّن ولم يشع استعماله ليس من اللغة العربية في شيء . ويستثنى من ذلك ما كان مشتقاً تقضي القاعدة بجوازه وقد روي استعمال بعض العرب له اي العرب الذين يؤمن لحنهم) .

وأطلق المجيب في هؤلاء (العرب) فلعله يريد بهم ما أراده (الاسكندري) اعني الجاهليين الاسلاميين حتى عهد المتنبيء .

(١٤) — النكدي « جلد ٨ ص ٥٩٧ » — لم يكن كلام الاستاذ النكدي ايضاً صريحاً في كلمات هذا الصنف وانما عمد الى المثال اعني كلمة (اقصّ) الواردة في كلام الطبري فقال انها محرفة ولو فرضنا عدم تحريفها لا حاجة لنا بها لوجود ما ينوب منابها وهو (قصّ) وكذا (لخيم) و (صدفة) تقوم مقامهما (فخم) و (مصادفة) .

اقول وهذا من الاستاذ النكدي مبني على رأيه في وجوب الغاء الترادف او تضيق دائرته والاقتصار من الكلمات المترادفة على افصحها . ويمكن تلخيص جوابه على كلمات هذا الصنف بانه يقبل الموثوق بصحته وما نحن في حاجة اليه منها .

(١٥) — رشيد بقدونس « جلد ٩ ص ١٠٣ » — قال ما ملخصه : (نقبله بشرط صحته وعدم وجود اخفّ منه في مادته) فعلى هذا لا يكون فعل « اقص » مقبولاً لديه وان صح نقله عن « الطبري » لانه يوجد في مادته فعل (قص) الثلاثي وهو أخف منه طبعاً .

وقد بقي ثلاثة من المجيبين رفضوا قبول هذا الصنف رفضاً باتاً وهم :

١٦ — محمد الخضر « جلد ٨ ص ٤١٠ » — قال ماملخصه : (ماورد من هذا الصنف عن العرب الاسلاميين اما محرف أو هو خطأ وقبوله فوضى في اللغة .

١٧ — سليمان ضاهر « جلد ٩ ص ٤٨٤ » (لا يجوز اقص الخبر رباعياً بمعنى قصه

ثلاثياً لعدم النص عليه في المعاجم . أقول : فيستنتج من كلامه ان ما لم تذكره المعاجم من كلمات الاسلاميين لا يجوز استعماله بخلاف الجاهليين كما مر في جوابه على الصنف الاول .

١٨ — أدوار مرقص « جلد ٨ ص ٧٤٠ » — (اذا لم يصح لنا اتخاذ فصحاء الجاهليين حجة فكيف يصح اتخاذ من بعدهم كالطبري ؟) .

انتهت الاجوبة على كلمات الصنف الثاني : فكان من المجيبين ثلاثة رفضوا قبولها و ١٥ منهم قبلوها وبعض هؤلاء اشترطوا وتحفظوا . ولا يضر هذا في قبولهم . فيصح لنا إذن أن نعلن ان الاكثرية أفتت بجواز استعمال كل كلمة وردت في كلام فصحاء العرب الاسلاميين وجواز تدوينها في معجمنا المنتظر .

« الصنف الثالث »

الكلمات العربية الاصطلاحية التي ولّدها رجال العلوم والفنون والصناعات ولا يعرفها اهل اللسان كقولهم (ميزانية) (كيفية) (كمية) (هيأة الحكمة) (انعقدت الجلسة) (تعريفة الرسوم) في نظير ذلك .

فهل تقبل كلمات هذا الصنف وتدون في المعجم او لا ؟

فأجاب الاساتذة :

١ً - الرصافي « مجلد ٨ ص ٣٢ » (ان الذي يمنع جواز استعمال هذا الصنف عليه ان يمنع اولاً : المصطلحات التي اصطلح عليها علماء الاسلام قديماً الخ) يعني والمصطلحات القديمة قبلها اسلافنا من دون نكير فالواجب علينا قبول هذه المصطلحات من دون نكير .

٢ً — احمد امين « مجلد ٨ ص ٣٥ » (ارى جواز ادخال كلمات هذا الصنف في القواميس كذلك) اي بشرط الحاجة اليه كما مر اشتراط ذلك في الصنفين الاولين .

٣ً — الاسكندري « مجلد ٨ ص ١٠٤ » (تقبل هذا الصنف بصدر رحب . . . وهو عمدتنا وملجؤنا في تنمية اللغة . . وفي رأيي انه يغنينا عن كل دخيل) لكن اشترط الأستاذ ان تجري هذه المصطلحات على قواعد الاشتقاق والمجاز والنسب المقررة في اللغة العربية .

٤ً —النشاشيبي « مجلد ٨ ص ٢٨٥ » (هذا الصنف كالصنفين الاولين يجب ان يودع المعجم ويعد عربياً محضاً) .

٥ً — محمد الخضر : « مجلد ٨ ص٠ ٤١ » (هذا الصنف لمثله تؤسس المجامع اللغوية ومعارضته إماتة للغة لكن يشترط فيه ان يجيءْ على القياس) .

٦ً — كامل الغزي « مجلد ٨ ص ٤٨٠ » — كلمات هـذا الصنف (نعتبرها عربية ونستعملها كما نستعمل الكلمات العربية . (أقول : لكن الاستاذ اشترط في الكلمات المركبة مثل (ملتزم الاعشار) و (مفتش العدلية) ان يستبدل بالمغلوط منها غيرها ان امكن .

٧ً — نقولا فياض : « مجلد ٨ ص ٥٦ » جواب الأستاذ على هذا الصنف كجوابه على الصنف الثاني فقد قال : (ان الالفاظ الشائعة الدخيلة لابأس بها اذا لم نجد ماينوب منابها) وقد قلنا هناك ان اطلاقه هذا يشمل الدخيل بجميع اصنافه حتى العامي منها لكن بشرط الحاجة اليه .

٨ً — الزهاوي « مجلد٨ ص٦٨٦» قال في هذا الصنف كما قال في اخويه: (لايجوز التردد في قبوله).

٩ً — احمد رضا « مجلد ٩ ص ٥٨ » — (هو صحيح واستعماله صحيح بلا مناقشة) .

١٠ً — قسطاكي حمصي « مجلد ٩ ص ١٧٦ » (لا أدافع فيــه لكثرة فشوه على الاقلام) .

١١ — سليمان ضاهر « مجلد ٩ ص ٤٨٤ » (يلزم الترخيص باستعماله) ثم استشهد الأستاذ بقول ابن ابي الحديد وهو (قد استعملتُ . . . الفاظ القوم من متكلمين وحكماء مع علمي بان العربية لاتجيزها مثل المحسوسات) و (الصفات الذاتية) و (الجسمانيات) ولكني استهجنت تبديل الفاظهم . وتغيير عباراتهم . فمن كلّم قوماً كلمهم باصطلاحهم اه . »)

١٢ — عيسى المعلوف « مجلد٩ ص٣٥٥ » (ما أمكن إيجاد مقابل له في القديم يكون استعماله أولى) ويعني الاستاذ بالقديم اصطلاحات العرب في عهد حضارتهم فاذا وجدنا لهم اصطلاحاً علمياً أوصناعياً أوحكومياً استعملناه وأهملنا الاصطلاح الحديث والا فلا .

١٣ — أدور مرقص « مجلد٨ ص ٧٤ » أبان الاستاذ وجه الحاجة الى قبول كلمات هذا الصنف وقد اعتبرها مما وضعه العرب وانما نحن نقلناها الى معنى مصطلح جديد . ثم قال مانصه : « ولكن ينبغي لنا ان نحرص على وضوح العلاقة بين الموضوع له والمعنى المنقول اليه وعلى اتباع الأوزان والأساليب الغالبة على لغتنا الفصحى » .

(١٤) — رشيد بقدونس « مجلد ٩ ص ١٠٣ » (ان وجدنا في اللغة العربية لفظاً افصح منه بحيث يؤدي معناه استغني عنه والا استعمل) .

(١٥) — الغلاييني « مجلد ٨ ص ٣٥٩ » (الميزانية والكيفية والكمية من الكلمات المألوفة والاخيرتان من الكلمات العلمية التي استعملها الجدود قديماً ومثل ذلك لا يجوز ان يصادم) فالمجيب يفتي بجواز استعمال المصطلحات لكنه يشترط ان لا يكون في اللغة العربية كلمات اليق منها .

(١٦) — النكدي « مجلد ٨ ص ٥٩٧ » اسهب في تحليل الكلمات التي ذكرتها مثالاً لهذا الصنف : فجعل بعضها من العربي الفصيح المقبول من دون نكير وجعل بعضها مما لا حاجة لنا به لوجود ما يسد مسده ثم قال ما نصه : (واما كلمة الرسوم « في قولهم تعريفة الرسوم » — وان كانت نسبتها اللغوية غير متصلة بين معناها الوضعي وما اصطلحت على استعمالها له الحكومة — فقد راجت واشتهرت وكلمة « الخرج » لا تسد مسدها فلا بأس من النظر فيها ثم اقرارها اه) فرأيه إذن في هذا الصنف قبوله واقراره بشرط ان يروج ويشتهر ولا يوجد في الفصيح ما يسد مسده كما هو الحال في كلمة « رسوم » .

(١٧) — الكرملي « مجلد ٨ ص ١٠٢ » يرى وجوب غربلة كلمات هذا الصنف : فما ولده السلف مثل (ماهية) قبلناه . وما ولده الخلف قبلنا منه ما نحن في حاجة اليه نحو (ميزانية) . وترفض ما سوى ذلك أمثال (هيأة المحكمة) لاستغنائنا عنه (بجماعة المحكمة) .

(١٨) — الجابري « مجلد ٨ ص ٣٦١ » جواب الأستاذ الجابري لم يكن مرتباً بحسب ترتيبنا للاصناف السبعة وانما هو اورد اجوبته بطريقة أخرى ولذلك كان استخراج الجواب من كلامه بطريق الاستنباط كما فعلنا في الصنفين الأولين وكما نفعل هنا فنقول انه ذكر من الالفاظ صنفاً عبر عنه بقوله (واما ما اتفقت عليه اهل الاقطار فهذا لا بأس باستعماله وتدوينه وإدخاله الى اللغة لان ذلك من مقتضى اتساع اللغة بامتداد الزمن وحدوث مسميات متجددة اه) فلا جرم انه يريد هذا الصنف الثالث الذي نحن في صدده اعني (الكلمات الاصطلاحية) وظاهر انه أفتى به وأباح استعماله وتدوينه .

انتهت الأجوبة الثمانية عشر على هذا الصنف وهي مجمعة تقريباً على قبوله لاشتداد الحاجة اليه في تنمية اللغة . لكن معظمهم اشترط في قبوله موافقته لاوزان اللغة فتعريفة الرسوم

يجب أن نقول فيها (تعرفة) لا (تعريفة) — وأن لا يوجد في اللغة الفصحى ما يسد مسده (فيأة الحكة) مثلاً نستغني عنها (بجماعة الحكة) . وهذه (التفغطات) لا أرى بعض المجيبين يوافق عليها ولو فتحنا باب الاقتراع بشأنها لما وصلنا الى قرار حاسم في بحثنا هذا كما اشرنا في المقدمة . لذلك نكتفي عن النظر في الفروع — بالنظر في الأصول فاذا وجدنا اكثرية المجيبين قبل الصنف اعتبرناه مقبولاً بالجملة كما وقع في الاصناف الثلاثة السابقة والا فلا .

« الصنف الرابع »

المولد اعني الكلمات التي ولدها العرب الاسلاميون من مادة عربية الأصل مثل (خابره) من (الخبر) و (تفرج) من (الفرج) و (احتار) من (الحيرة) و (تنزه) من (النزهة) الخ .

فهل يجوز استعمال هذه الكلمات وتدوينها في المعجم ؟

فأجاب الاساتذة :

(١) — الرصافي « مجلد ٨ ص ٣٢ » (اننا مضطرون الى استعمالها شئنا او لم نشأ والقياس في اللغة يؤيدنا) .

(٢) — الكرملي « مجلد ٨ ص ١٠٢ » (انا أوافق من يدونها في المعاجم) .

(٣) — النشاشيبي « مجلد ٨ ص ٢٨٥ » (الألفاظ المولدة — واللغة لغة والناس ناس يجب أن تودع المعجم العربي وتعد عربية محضة) .

قوله: (واللغة لغة والناس ناس) يشعر بانه يشترط في قبول الكلمات المولدة ان تكون مما ولده اهل العصور الاسلامية الأولى وزاد ذلك تأييداً قوله في مكان آخر من جوابه (الألفاظ المولدة في العصور السخيفة نبذها فرض) .

(٤) — الزهاوي « مجلد ٨ ص ٦٨٦ » (لامندوحة لنا من قبول كلمات هذا الصنف وقد أتت بكثرة في شعر كبار الشعراء) .

(٥) — نقولا فياض « مجلد ٨ ص ٥٦٠ » يفهم تجويز الأستاذ فياض لكلمات هذا الصنف من عموم قوله السابق : (ان الالفاظ الشائعة الدخيلة لا بأس بها اذا لم نجد

ما ينوب منابها) .

(٦) — احمد امين « مجلد ٨ ص ٣٥ » قال ماحاصله « تقبل هـذه الكلمات المولدة اذا لم نجد في اللغة ما يسد مسدها » .

(٧) — كامل الغزي « مجلد ٨ ص ٤٨٠ » (اذا لم نجد في اللغة ما يغني عن كلمات هذا الصنف فلا بأس من استعماله لانه صار في حكم المصطلح عليه) .

(٨) — ادور مرقص « مجلد ٨ ص ٧٤٠ » — (الذي أراه جواز هـذا الصنف توسيعاً على نفسنا) ثم اشترط موافقة كلماته للقياس اللغوي .

(٩) — رشيد بقدونس « مجلد ٩ ص ١٠٣ » (يقبل من هذا الصنف كل ما لا غنى لنا عنه) .

(١٠) — احمد رضا « مجلد ٩ ص ٥٨ » (لا أرى مانعاً من استعمال المولد الشائع ولكنه غير فصيح فهو كاستعمال الوحشي اللغوي : صحيح غير فصيح) .

(١١) — النكدي « مجلد ٨ ص ٥٩٧ » اشترط الأستاذ النكدي في كلمات هذا الصنف أن نكون في حاجة اليها ولذلك اجاز (تفرج) و (تنزه) للحاجة الماسة اليهما ولم يجوز (خابر) و (احتار) لعدم الحاجة اليهما بوجود مرادفاتهما اذ يرادف الأولى (راسل وفاوض وباحث) وغيرها ويرادف الثانية (حار وتحير) وغيرهما .

(١٢) — قسطاكي حمصي « مجلد ٩ ص ١٧٦ » — (هذا الصنف يجوز لنا قبول بعضه ورد بعضه) ثم قال انه يقبل (خابر) لظهور اشتقاقه من الخبر ولفشو استعماله ولكون (المخابرة) بمعنى (المزارعة) لم تبق معروفة . اما (تفرج) و (احتار) فلا حاجة لنا بهما إذ لدينا ما يسد مسدهما فالأستاذ قسطاكي إذن يقبل من كلمات هذا الصنف ما ليس له مرادف ويرفض ما له مرادف .

(١٣) — الغلاييني « مجلد ٨ ص ٣٥٩ » بحث الأستاذ في كلمات هذا الصنف بشرطين (١) ان توافق القياس و (٢) أن تشيع على السنة الكتاب الخواص : ففعلا (خابر) و (احتار) جائزان لأنهما شاعا على السنتهم . واما (تفرج) فلا يجوز لانه لم يشع ثم قال « على انه يمكن ارجاع (تفرج) الى اصل لغوي بضرب من المجاز » .

(١٤) — سليمان ضاهر « مجلد ٩ ص ٤٨٤ » بحث في الأمثلة ايضاً فاجاز (تفرج)

و (تنزه) للحاجة اليهما ولشيوع استعمالهما ولم يجوز (خابر) ولا (احتار) لعدم ورودهما في كلام الفصحاء ولعدم الحاجة اليهما : فالأستاذ المجيب يشترط في قبول كلمات هذا الصنف ان يشيع استعمالها في كلام الفصحاء وأن تكون هناك حاجة داعية الى استعمالها .

(١٥) — عيسى المعلوف « مجلد ٩ ص ٣٥٥ » (اذا كان لكلمات هذا الصنف مرادفات تؤدي معناها فالأولى العدول عنها والا استعملنا منها مايحمل على القياس) ثم قال ان لفعل (خابر) مرادفاً وهو (فاوض وكالم) ولكلمة (الشرنقة) مرادفاً ايضاً وهو (الفيلجة) فالأولى العدول اليهما .

(١٦) — الاسكندري «مجلد ٨ ص ٤٠١» (كلمات هذا الصنف لايجوز استعمالها) .

(١٧) — محمد الخضر « مجلد ٨ ص ٤١٠ » (قبول كلمات هذا الصنف يُطلق لكل احد العنان في ان يشتق الكلمة على غير قياس) ويعني بذلك انه لا يجوز استعمالها .

(١٨) — الجابري « مجلد ٨ ص ٣٦١ » الظاهر من جواب الأستاذ الجابري انه لايجوز استعمال كلمات هذا الصنف لانه اشترط في جواز الكلمة التي لم تدون في المعاجم (ان ينطق بهـا العرب الذين يؤمن لحنهم) والمفروض في كلمات هذا الصنف انها مولدة وان الذين ولدوها غير الفصحاء من الاسلاميين .

انتهت الأجوبة على هذا الصنف وقد صرح ثلاثة من اصحابها وهم الاسكندري والخضر والجابري برفضه وعدم جواز استعمال كلماته اما الباقون وهم الأكثرية فقد اجازوه ورحبوا بكلماته لما في ذلك من تنمية اللغة وتوسيع نطاق التعبير بها .

نعم لاننكر ان بعضهم اشترط في قبولها الحاجة الداعية اليها وبعضهم اشترط شيوعها على ألسنة الفصحاء وبعضهم موافقتها للقياس ولكن كل هذا لاينبغي ان يحمل على التشاؤم بها والتردد في قبولها والانتفاع بها بالجملة .

« التتمة في العدد الآتي » المغربي



القضاء عند عرب البادية (١)



فطر الأعرابي على حب العز والفخار ، تصبو نفسه الى المكارم وشريف الأعمال ، ولا يخلد الى الذل والصغار ، مهما جابهته المصاعب والأقدار . وهو لايطمح الى المعالي إلا لينال صيتاً بعيداً وشهرةً واسعة بين اقرانه وفي عشيرته . فيغار البدوي على شرفه . ويؤثر المنون على العار والهوان ، وتنهض به عزة نفسه الى الانتقام ، او طلب الحق امام القاضي البدوي . وقد يثور ثائره لأدنى امرٍ يحط بقدره ويخفض من حاله .

(ماهي الحقوق البدوية التي يستند اليها قضاتهم ؟) — هي قوانين نقلية محفوظة في البادية مرسومة لتأديب المجرمين وتهذيب الأعراب ، يعرفها ارباب القضاء ويجرون عليها ، وبها يعوضون لصاحب الحق او لأهله مافقدوه من الشرف او المال اوالحياة . ومن هذه القوانين عندهم أن الأخذ بالثأر لايعد قربة يجازى عليها المنتقم . فالانتقام عندهم من النواميس الشريفة والفرائض الضرورية المقدسة التي لا يسعهم تجنبها ولو طال عهدها فالضغينة تبقى مستورة في صدورهم كالنار تحت الرماد ، فيأتي الريح يوماً ويكشف الرماد وتظهر الثارات والأحقاد . وكثيراً مايرفض الأعراب حكم قاضيهم ليرووا ظمأهم بدم الأعادي ، ويثأروا للقتيل وينالوا الطوائل بايديهم وقد يجمع الأعرابي اولاده على سرير موته ويوصيهم أن يأخذوا الثأر من احد اعدائه ، ولا يدعو الدم يصرخ الى السماء صراخاً اليماً . فأنهم يعتقدون ان دم المقتول يصرخ دائماً في الليالي الدامسة ، ويطلب من اولاده واقاربه وعشيرته ان ينتقموا له من قاتله .

ينتظر البدوي الفرصة الموافقة لأخذ الثأر بصبر عجيب ، ويقدم على هذا الأمر بنفس

(١) محاضرة الاستاذ عبد الله رعد كان ألقاها في ردهة المجمع العلمي

هادثة وسرور عظيم ، لانه يعلم أن القضاء لا يطالبه بهذا الدم ، اذا كان دم القاتل نفسه او دم اولاده اواقربائه حتى الدرجة الخامسة . اما اذا زادت هذه القرابة على الدرجة الخامسة فيعد قتله عندئذٍ جرماً . على ان ارباب الحق الذين يعجزون عن الأخذ بالثأر لقلتهم او لضعفهم تجاه بسالة عدوهم ، فانهم يلتجؤون الى امير كبير من عشيرة أخرى يعرف بجرأة صدره ، ورباطة جأشه ، وثبات جنانه ، وهو ينتقم لهم من عدوهم . اويطلب القاتل و يلزمه بالقيام بحق الدم .

* * *

إن من يتأمل في عادة الانتقام ، أيها السادة ، يحكم لأول وهلة أنها بربرية لا يقدم عليها الا الامم المتوحشة . وهذا من الصحة على جانب كبير لولا وجود هذه السنة في البادية لغدت القفار الأعرابية دار حربٍ دائمة ، لأن المجرمين لايهابون قتل النفوس البريئة ، اذ لارادع يردعهم ، ولاسيف يمنعهم . وسنة الدم بالدم تصد الاشرار ، لذلك يندر القتل في البادية . وخوفاً من العقاب لايهدر البدوي دم المسافرين ، بل يكتفي بسلبهم ثيابهم واموالهم . ثم إن العرب يرحلون على ظهور اباعرهم طلباً للرزق الحرام من الغزوات ، فهم مع ذلك يتجنبون القتل لئلا تنزل بهم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الأخذ بالثأر . وهذه الشريعة تجعل البيداء في أمن وسلام ، يسافر فيها المرء غير خائف على نفسه وان سلبوه ماله بخلاف القفار الإفريقية حيث يُقتل قبل ان يُسلب .

* * *

(ماهو القاضي البدوي ؟) — قاضي العرب أمير من أمرائهم تسلطه القبيلة أو العشيرة على أفرادها ، لاظهار الحق من الباطل طبقاً للتقاليد البدوية ، والعوائد النقلية القديمة . على أن الأعراب قد لايرضون بقاضٍ واحد كبير يترأسهم ، بل يوكلون القضاء الى وجوه العشيرة وكهولها ، فيأتون اليهم و يعرضون دعواهم فيحكمون بينهم بحسب عاداتهم الجارية . هؤلاء الرجال لاينالون كالقُضاة الحقيقيين راتباً لقضائهم ، وانما يعملون ذلك ، كما يقولون ، لوجه الله الكريم ، والمتخاصمون يلبثون أحراراً في الخضوع لحكمهم أو رفضه ، ورفع الدعوى الى القاضي الكبير .

القاضي الكبير يرثُ الحكم عن أبيه لأن العرب مولعون بحفظ الأصل والنسب .

ولكنه لايتسلط على الأعراب الا اذا نال رضى الجميع ، بسديد رأيه ومعرفته للحقوق البدوية . ولهذا القاضي سلطة واسعة تفوق سلطة الحكام في الممالك المتمدنة والربوع العامرة . فاذا قال كلمته انقطع الحديث ، وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون . ولهم عادة حميدة تذكر بالثناء عليهم ، وهي ان قاضي العشيرة اذا رُفعتْ اليه دعوى باحد أقاربه لايحكم فيها بل يحيلها الى قاضٍ آخر غيره من القضاة المجاورين أرباب العدل والانصاف، لئلا تحوم حوله الظنون .

* * *

(كيف يجري القضاء عند العرب ؟) — اذا وقعت الخصومات بين العرب على ممتلكاتهم من الحيوانات والارضين ، هاج هائجهم ، فتستفزهم في الحال نزوة الغضب ، فينتفضون من الغيظ ، ويرتجفون من الحنق ، فينتضون السيوف ويطلقون الرصاص ، لما طبعوا عليه من حدة الأخلاق ، وحفظ الحقد والضغينة . والسرقةُ عندهم من الفضائل ، والكذب جارٍ عندهم مجرى العادة يضربون به المثل قائلين « الكذب ملح الرجال، وعيب على من يصدق » . فاذا حلّ الخصام ، وارتفعت الأصوات والشتائم ، وانتضيت السيوف وسمع أزيز الرصاص ، دخل المصلحون بين المتخاصمين ، وحملوهم على الكف عن الخصام ، وحلّ المشكل بالقَسم أو بحكم القاضي .

أما القَسم فمن أرهب الامور عند العرب وأقدسها ، ولا يقدمون عليه الا مضطرين . لأن الأعرابيّ تملك قلبه الخيالات المخيفة ، والتصورات المرعبة ، لذلك يتجنب الحلف ولو كان به صادقاً ، ويهاب اتخاذ المولى الكريم أو أحد أوليائه وأنبيائه شاهداً على صحة قوله ، ولو كان من قطاع الطرق .

والقسم عند العرب أنواع مختلفة : منه مايسمونه القسم الجاري أوالقسم الصغير ، ومنه قسم اليد ، والقسم الكبير ، ومنه القسم المُشبة ، ومنه قسم النملة والشملة .

ففي القسم الصغير يقوم الشيخ وسط الخيمة ويقول : أقسم عليك بالله وبصلاة محمد هل فعلت الامر الفلاني . فيقول والله وصلاة محمد لم أفعل .

وفي حلف اليد ، يضع الحالف يده على رأس الحالف ويقول : «أناشدك الله ، بالحوش وتنوش ، بحلاّبات الحليب ونسّافات السبب (اي الخيل) ، وبالنساء وماتجيب،

داخلْ عليك عالمال والعيال ، من الحِلّ والإِستحلال ، اليوم بين عينيك وباكر بين متنيك (أي اليوم تراني وغداً تحملني على النعش) بنبيّه عليّ وبذنه عليك ، ان اطلعتهـا تسرّك وان خبّيتها تضرّك ، اماصار كذا وكذا ؟ فيجيب : إي بالله ورسوله صار كيت وكيت . أو : لابالله ورسوله ما صار ذلك » .

ويقولون ايضاً في أقسامهم « انا حاضر بحضارك وبموقد نارك ، أماصار كذاوكذا»

ويقولون في حلف العشبة : بحق هذه العشبه الملويه والكاذب ماله ذريه .

أما قسم النملة والشملة فدونكم وصفه : حينما يكون العرب وكبارهم ملتئمين في شِقّ الرجال من الخيمة ، وقد طال الجدال بين فريقين على أرض أو فرس أوغيرذلك ، يقوم أميرالبيت ويخرج بمجلسه خارج الخيمة ، ثم ينتضي سيفاً ويخطّ به دائرة كبيرة ، ويضع فيوسط الدائرة حبةَ حنطةٍ ونملة . والحنطة تدلُّ عند العرب على أكرم ماخلق الله تعالى والنملة تمثّل الحكمة والفطنة والإِدراك . ثم يمدُّ السيف في منتصف الدائرة . عندئذ ينزع المتهم عنه سلاحه ويدخل في وسطها ويضع يده على نصاب السيف ويقسم قائلاً : « والله العظيم والسيف الكريم مافعلتُ الشرّ ولا سرقتُ ولا قتلت الخ » .

وكثيراً مايمتقع لون الرجل ، وترتخي مفاصله ، وترتجف يداه ورجلاه من الرعب ، وربما رجع عن الحلف وأقرّ بما فعل .

والحلف بالمقامات يعدُّ عند الأعراب من الأقسام العظمى . وربما أقسم البدويُّ بالله مراراً عديدةً وأبى أن يقسم بالأولياء والمزارات المقدسة كمزار النبي شعيب ، والنبي هوشع ، والشيخ عبد الله ، ونحو ذلك من المزارات المشهورة عند العرب .

على ان العرب يدعون غالب الأحيان القسم لرهبته ، ويلجأون الى القاضي البدوي . وهذا مايدعونه (بالقضوة) .

فما أجمل بيت الشَعر حينما يزين بانواع الأثاث ، ويفرش بالسجاد الفاخر ، ويعلّق على جدرانه السلاح اللامع . يجلس الامير في صدره للقضاء ، ومن حوله وجوه العشيرة . فيُسمع صوت «المهباج» يدق القهوة ، فتطبخ ويطاف بها على الحضور دفعاتٍ متوالية . وبعد شرب القهوة يقوم احد المتخاصمين وهو المدعي ، ويجلس فيوسط الخيمة بين الحاضرين ويلتفت الى القاضي ويقول : وهو عندهم بمثابة الاستدعاء يفتحون به الدعوى : « وايش

بك يا قاضينا ، يللي بحقك تراضينا ، جيتك هدّي ومشيا قدّي ، أفلح وصلْ عالنبي (فيقول الجميع الصلاة والسلام عليه) ، حظّي وحظّك يدخلان على اربعه واربعين نبي ، من الفوط والنوط والحق الردي ، وانا داخل عالمال والعيال منشي مبيّن عليّ وعليك غبي ، وانا حاططها بعيونك السود وربعك القعود ، وبالامرأة وماتجيب ونتّافات العسيب » . ثم يذكر ماجرى له بصوت جهوري بحيث يسمعه الحضور من أطراف الخيمة ، ويوردُ البراهين في ذلك ، الى ان ينتهي ويعود الى مقامه الاول فيقوم المدعى عليه ويجلس في وسط المجلس ، ويكرر المقدمة نفسها : وايش بك ياقاضينا الى آخر الديباجة التي اتينا على نصها بالفاظهم ولغتهم المستعملة في البادية . ثم يفصح عن ادلته . ولا احد يعارضه في شيءٍ . والقاضي بين كل ذلك صامت لايبدي كلة . وفي آخر ذلك يلتفت القاضي الى المتخاصمين ويقول : أفلحوا وأصلحوا خيرٌ لكم . فاذا أبيا الا إظهار الحق يقول : قدموا الرزقة .

* * *

« الرزقة » — هي اجرة يدفعها احد الخصمين للقاضي تقدر بربع قيمة مايخاصم عليه وقد يجري في هذا التقدير جدال طويل يدوم ساعات من أجل تعيين مقدار الرزقة إن نقوداً او عروضاً كفرس مثلاً أو سيف أو بعير . وربما لم يقبل بها القاضي فيرفض الحكم الى ان يستحسن ما يقدّم له .

والرزقة أنواع كثيرة ، منها مايسمونه رزقة المبطل ، ومنها رزقة الحق . فرزقة المبطل هي التي يدفعها المجرم أو المفتري للقاضي ، ورزقة الحق هي التي يدفعها صاحب الحق . واذا استأنف المحكوم عليه دعواه الى قاضٍ اكبر وحكم له بالحق . وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة يردُّها اله المحكوم عليه . لأن للمستأنف الكاسب حقًا بجميع الرزقات التي يكون قد دفعها للقضاة من قبل .

* * *

(الكفلاء) — وبعد ان يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليهما ان يقدّم كل واحد كفيلاً يتعهد أمام الشهود بدفع الرزقة اذا ابى الآخر تقديمها . فيقولون : « ترى ياشيخ فلان هذه المسألة في وجهك » . وان كان الكفيل غائبًا يقولون : « ترى ان هذه المسألة في وجه فلان » اي أنه يتعهد بدفعها أو يحمل المتخاصمين على دفعها . فيقول القاضي للكفيل :

« عنـدك الشيءْ الفلاني » فيجيب : « عندي ماتطلب ، وحق الله ورسوله اني ما أبوق » (أي لا أخون العهد) .

رأينا أن الكفيل نوعان : غائب وحاضر . فالغائب هو الذي لا يحضر مجلس القضاء حينما ترفع (الدعوى) فيختاره الحاضرون والقاضي لإنفاذ الأمر . والحاضر هوالقائم بين الحضور في أثناء الدعوى . على ان لكل منهما واجبات خاصة تختلف عن واجبات الآخر : فالغـائب مضطر الى قبول الكفالة ، والحاضر له الخيار في قبولها أو رفضها . لذلك جاء في أمثالهم : « الغائب مضطر والحاضر حر » . ولا بد للكفيل من صفاتٍ ، أخصهـا أن يكون معروفاً بين العشيرة بصدقه واقتداره على الدفع .

والذين يُحرمون حق الكفالة هم شاهدو الزور ، والجبناء الذين يشردون فيالحروب والغزوات ، هؤلاء كلهم مرذولون عندالعرب ، لا يُقبلون فيمجالس الكرام ، ولا يشربون القهوة في خيام الامراء ، ولاتقبل لهم شهادة . واذا جلس أحدهم في مجلس الشيوخ صب له الشيخ القهوة ، وبينما هو يرفع الفنجـان الى فمه ينزعه الشيخ بعنف منه ويهرق القهوة على التراب ويقول له : انت لاتستحق القهوة ولا لك مقعد بين الرجال .

* * *

(الشهود في الدعوى) — وبعد تعيين الكفيل، يتجه القاضي نحوالمدعي ويقول له : يا فلان ، اذا كان عندك شاهد لا يكذب ولا يوجد عليه اعتراض فليتقدم ويشهد . فيجيب : عندي يا قاضي العرب فلان وفلان وفلان . فيلتفت القاضي الى اكبر الحاضرين ويقول له : وأيش تقول يا شيخ عن فلان ؟ فان كان مقبولُ الشهـادة يقول : « والله انه مقبول الشهادة ، ما انا خابر عليه الذرب الذي يذربه عن الشهادة » وان كان مرفوض الشهادة يقول : « واللهِ انه غير مقبول » .

وقد تقعُ الخصومات في اختيـار الشاهد فنهم من يرفضه ومنهم من يقبله . ويطول الكلامُ بينهم الى حدٍّ يسأمُ منه الحاضرون ، الى أن يقرّ رأيهم على شاهدين . فيقفانِ ويقسمانِ القسم البدوي ، يقول كل واحدٍ على حدة : « واللهِ العظيم ، والربِّ الكريم ، وحياة العود ، والرب المعبود ، والكاذب ما له مولود ، لا غيظ شانيه ، ولا دمع راجيه ،

(إي إنه لا يحلف لاخذ ثار ولا لاجل مال) الا حق الله من رقبتي مؤدّيه ، ان هـذا الرجل قد فعل كذا وكذا)) .

وللشاهد حقٌ في طلب هدية ما اذ لا بدّ له من القَسم ، والعربُ كما أوضحت يرهبون القَسم ولو كانوا صادقين . لذلك هم يقدّمون للشاهد هديةً بدوية كسيفٍ او عباءةٍ او نحو ذلك .

والنساء في جميع العشائر لا تُقبلُ لهم شهادةٌ الا عند عشائر النصارى في الصلت والكرك ومادبا وغيرها في شرق الاردن ، وشهادتهن ثابتة قوية .

* * *

(الحكم) — وبعد ان تنتهي المحاكمة ينطق القاضي بامثال يبين فيها احكام القضاة من قبله في امورٍ جرت من عهدٍ قديم . فيروي حكايات واقعة أو خيالية يذكر فيها الحكم بمبهم الكلام ، وربما أتى بامثال حيوانات تنطبق على الامر الواقع ، حتى يدرك الحاضرون الحكم المراد قبل ان ينطقُ به . واخيراً يفوه بالحكم القاطع بقوله : ((انا من عندي ، ومن عند القضاة الذين قبلي ، ومن عند اجاويد الله مثلكم ، إن فلانًا هو المجرم ، وفلانًا هو البريء)) ويورد في ذلك الادلّة والبراهين والاسنادَ كي لا يبقى في الامر ريب . وهنا ينتهي الحكم فيقوم جمهور الحاضرين وينصرفون الى بيوتهم وهم يرددون الحكم المبرم .

* * *

(العقوبات) — والعرب يدعونهـا الحق . فمنها حق الشتائم ، وحق البيت ، وحق الوجه ، وحق الدخيـل ، وحق الدم ، وحق الطنيب ، وحق القصـير ، وحق العرض ، وغير ذلك .

وقبل ان نذكر شيئًا من هذه العقوبات عند البدو ، يجمل بنا ان نأتي على ذكر عواطف الشفقة والحلم التي تغلب عند عرب البادية مرات على حب الانتقام ، وتحملهم على الصفح . سمعنا حوادث كثيرة تدل على عفو العرب عن أعدائهم ، ودونكم النادرة الآتية :

كانت النار تضرم ذات ليلة في مضارب بني صخر ، والكلاب تنبح فتدعو المسافرين الى خيمة الشيخ واذا بشاب لطيف قد نزل عن فرسه وحيا الضيوف قائلاً : السلام عليكم . فقالوا وعليكم السلام . قال حيا الله الرجال ، قالوا حيا الله الرجل . قال الموافي يا غانمين ، قالوا

حيا الله الغانم . ثم جلس بالقرب من الشيخ وبات عند العرب اياماً طوالاً لا يسألونه فيها جهة القصد . الى ان حان وقت طغاه فيه الشيطان فاسقطه في زلة كبرى : ذلك انه رأى ابنة الشيخ فسحر بجمالها ، ولما انسدل الليل هجم على خيمتها فقتل العبد الحافظ لها وخطفها وسافر . فذاع الخبر باقل من لمح البصر ولحقه اخوتها الثلاثة . وكان كلما تقدم اليه احد يضربه برمحه فيرميه مجدلاً على الارض . أخيراً لحقه الفرسان فانهزم الى ان لقي خربوشاً (والخربوش هي الخيمة الصغيرة لها عمود واحد) وكان على باب هذا الخربوش شاب في مقتبل العمر فصاح به وقال : يا أبا رشيده انا في وجهك وفي مرقد عيالك . قال : لقيت خيراً ومرعى واماناً . ولما اقبلت العشيرة تطلب الابنة وحق الدم أرجعها الشاب وقال : « هو البيت يحمي الطريد والشريد ، وهو الوجه يدفع صدمات العدو » . فرجع القوم صامتين . وسأل الخاطف الابنة عن صاحب البيت فقالت : « سوّد الله وجهك هذا ابن عمي وخطيبي قد طلبني فوعد بما طلب ، وقد مهد الصعاب كي يتزوجني اذ قاتل اولاد عمه . » فامتقع لونه وتغيرت هيأته . على ان صاحب الخربوش اكرم مثواه في تلك الليلة ، واعدّ له خيمة العُرس وزوجه بالفتاة ، ثم صالح العرب مع الشاب وسالمهم وعاهدهم بان لا ينزلوا به ضرراً . هذه حكاية تدل على علوّ نفس وشهامة قد لا يوجد مثلها بين اصحاب التمدن ، كيف لا وقد صفح هذا البدوي عن قاتل اولاد عمه وخاطف خطيبته وصالحه مع العرب . وهل دفعه الى هذا الصفح الا سمو النفس وحبّ الذكر ؟

(عقوبات اهل القوارع والشتائم) — يعسر على البدوي احتمال أدنى شتيمة ، لأن العرب طبعوا على حب المجد والشرف ، لذلك هم يعدون الشتيمة أشد تأثيراً من حد السيف وقد تثير الشتائم الحروب في البادية ، وتحمل المشتوم بل واهل المشتوم ايضاً على الانتقام .

حكي عن عبد المهدي قاضي العوازم انه قال : ارباب الشتائم يعذبون باقسى انواع العذاب . وروي أن رجلاً من عرب العدوان رفع يده على ابيه قائلاً « اخس يا شايب » فسمع بذلك شيخ العدوان فامر بقطع لسانه . ويقال إن بدوياً بصق بوجه عدوّ له فحكم عليه ان تحلق لحيته الى نصف الذقن فقط ويبقى النصف الآخر . ومن شتم من عرب الصخور يدفع للمشتوم فرساً اوسيفاً او بعيراً او ثلاثين ريالاً . وعند بعض العشائر يضرب الشتامون بالسياط حتى يسيل منهم الدم . وبعضهم يضعون دبساً على وجه الشاتم ، ويربطونه باوتاد فيأ كله

الذباب ، او يربطونه ويوجهون عينيه الى الشمس . ويروى أن بدوياً اهان اباه اذ رفع عليه محجانةً (والمحجانة عصا صغيرة) فألزمه القاضي ان يحرث ارض ابيه مدة سنتين .

ومن احاديثهم أن قدم شيخ هرم الى قاضي البلقاء ابن قلاب وقال : « وايش بك يا عواد بن قلاب ، يا حامي النسب ، بولد لي ربيته حتى نشأ وكبر ، واليوم قد جرني بجديلتي الى خارج الخيمة وشتمني » فقال له القاضي « اذهب يا شايب ، ما صنعه ابنك بك سيصنعه به اولاده في المستقبل » وحكم على الولد بان يبني خيمةً لابيه ويدفع له خمسين نعجة ليكرم بها الضيوف . وقد صدق كلام بن قلاب ، فان اولاد الابن جرّوا اباهم الى خارج الخيمة ، ولما انتهوا به الى الموضع الذي اوقع اباه فيه قال لهم : كفاكم أيها الاولاد الاشرار الى هنا فقط جررت ابي ، وتذكر قول ابن قلاب .

ويروي أن شاعراً من بني حسن هجا ذئبة ابنة الشيخ عوده ابي تايه امير الحويطات . فلما ورد الشاعر الى مضارب الامير قال له عوده : قبحاً لهذه اللحية ياقذاف المحصنات ، لسانك يلسع كلسع الحيات . فهرب الشاعر كئيباً ولم يذق طعاماً عند الشيخ . ولما ابتعد في البرية أمر الشيخ عوده احد عبيده فلحق به في الخلاء وقتله على هجائه .

* * *

(حق البيت) — بيت شعر في البادية ، وإن كان خربوشاً ، هو رفيع الشأن عظيم الاكرام عند العرب . ومن اهان بيتاً عندهم اهان اصحابه النازلين فيه ، لا بل اهان العشيرة كلها . ومن تعدى عليه نال جزاء تعديه إهانةً وعذاباً . وهم يعدون اهانةً تكسر شرف البيت تلك التي تحصل من بدويين يتخاصمان في بيت حتى يصل بهما الخصام الى المسبّات والشتائم او رفع الاسلحة . فالبيت يطلب حقه . واذا أهين صاحب البيت في بيته ، فالبيت وصاحبه كسر شرفهما ، وصار على الشاتم حقان حق البيت وحق صاحب البيت .

وبعض الاعراب يزعمون أن من ازدرى بالبيت واحتقره ، فقد صنع ذلك ليس نحو الاحياء النازلين به فحسب ، بل تتعدى الاهانة الى أجدادهم وأمواتهم .

إهانة البيت يحاكم عليها امام القاضي . فينتصب المدعي وهو صاحب البيت في وسط الجماعة ويقول : « ويش بك ياقاضي العرب ، ياحامي النسب ، بفلان إلي كسر شرفي بقوله كيت وكيت ، واهانني في عشيرتي ، وبحضور جماعتي ، واهان ضيفي ، فودّي منك

ان يبيض الوجه » ثم ترد الشهود وتشهد على صحة مدّعاه . فينتصب القاضي ويقول : « انا من عندي ، ومن عند القضاة الذين قبلي ، فلان كسر شرف البيت وأهان صاحبه وضيفه » ثم يحكم عليه بدفع عشرين ناقةً وخمسين نعجة لصاحب البيت ، وثلاثين ريالاً لضيفه المهان . فيقول المجرم « نعم انا مستعد ، امرك يا قاضينا فوق الراس ، وبعد ذلك يقوم احد الشيوخ الحاضرين ويقول لربّ البيت « حقك على الرأس والعين ، ولكن من شأن الشيخ فلان دع له خمس نياق » فيقول « من شان خاطرك وخاطر السامعين تركت ما تريد » ثم ينتصب شيخ آخر ويقول « يا شيخ فلان اترك له من شان الجماعة ومن شان والديك كذا وكذا » فيقول « تركت ما طلبت » وهكذا الى ان يصبح المطلوب سهلاً وخفيفاً . ثم يبيضون وجه رب البيت المحكوم له وذلك بان ينشروا له راية بيضاء يطوفون بها حول الخيام وهم يقولون « راية فلان بيض الله وجهه » .

* * *

« حق الوجه » — الوجه عند العرب هو الكفيل الموكل باجراء ما يتفق عليه فريقان من فعل خير او اتقاء شر . والوجه لايخون صاحبه أبداً ولو فقد ماله وحياته . فاذا باع امرؤٌ ارضاً او فرساً او غيرهما من الأشياء يقول البائع للشاري « ترى بعتك بوجه فلان ان طلبتها ادفع كذا وكذا عقاباً على ذنبي » وكذلك الشاري يقول « ترى اشتريت بوجه فلان ، ان ارجعتها ادفع كذا وكذا عقاباً على ذنبي » . واذا تشاجر اثنان ثم تسالما يقول الواحد لصاحبه « ترى بوجه فلان تصالحنا ومن اضر قريبه لايلوم الا نفسه » . ومن اودع وديعة وخاف عليها من السرقة او من الاتلاف يقول للمؤتمن عليها « ترى فلان وجهٌ عليك » . فمن تعدى على صاحبه في مثل هذه الأحوال يجد امامه اعداء كثيرين بسبب الوجه ، لان العشيرة كلها تقوم مع الوجه يداً واحدة . والمتعدى عليه يلتجئ الى الوجه ويقول له « ياشيخ فلان ، قد صار الأمر الفلاني بوجهك ، وخصمي فلان تعدى عليّ وكسر وجهك ، فبيض وجهك ووجهي » فيجمع الوجه مجلساً مؤلفاً من القاضي البدوي والامراء المعروفين ويُرسل رسلاً ليأتوا بالمعتدي . فيقصُّ الوجه قصته على الحاضرين ، والمعتدي في اثناء ذلك راكع والعقال في رقبته دلالةً على التذلل . ثم يحكم القاضي على المعتدي بدفع ما عليه ويعاقبه بدفع عشرة خرفان للوجه .

(حق الدخيل) - الدخيل عند العرب هو الرجل المستجير الخائف من امر دهمه او سيدهمه ، فيعمد الى شيخ كبير قوي يستغيث به ويطلب حماه ، ويقول له « انا دخيلك احمني وارحمني » . ورب مستجير يأتي في الليل ويرتمي على فراش الاولاد في خيمة الشيخ ويقول بصوت متقطع حزين « انا بحضارك وموقد نارك ، انا داخل عليك من السيف والحيف ومن فلان صاحب الحق الردي » ثم يبسط له سبب اعتصامه به . فيقول له الشيخ « ابشر بالعز والهناء وعش في ديارنا فرحبا بك » ثم ينزع كوفيته من على رأسه ويضعها على رأس الدخيل ويقول « الله ورسول الله لا احد ينزع من رأسك شعرة » .

وحينما يقبل الشيخ الدخيل في منزله يرسل رسلاً الى عدو الدخيل وطالبه يقولون له « ترى فلان دخيل في بيتي احذر ان تصيبه باذى » فيجيبه الرجل « اطلب خصمي الى القضاء » فيقول صاحب الدخلة « أعطه عطوة » والعطوة في البادية هي هدنة من الزمان يمتنع فيها العدو عن الانتقام الى ما بعد المحاكمة ، وهذه المدنة تكون عند بعض العشائر اسبوعين ، وقد تمتد عند غيرها الى اكثر من ذلك ، ومعظمها شهران .

وفي أثناء المهادنة يبعث صاحب الدخلة وفوداً الى عدو دخيله ثلاث دفعات متوالية ، مستخدماً الوعد تارةً والوعيد أخرى حتى يرعوي وينثني للحق الذي يحكم به الاجاويد او القاضي ، وان ابى الا الانتقام وأخذ الثار بيده ، يجمع الشيخ فرسانه الشجعان ويقودهم الى منزل العدو فيسلبون ما يجدونه هناك من المواشي ويقودونها الى أرضٍ قاحلة لا مرعى فيها فيضطرُ حينئذٍ الى المصالحة . وان أصرَّ على عناده تموت اغنامه ويصبح فقيراً ولا يحق له ان يطالب صاحب الدخلة بشيءٍ لانها تحسب عقاباً له وهي حق الدخيل .

* * *

(حق الدم) — السنة عند العرب هي « الدم يطلب الدم » على ان من لا يقدر على أخذ ثأره يطلب الدية ، وتدعى عند الأعراب « العقلة » وقدرها ٣٣٦٣٣ قرشاً . وقاتل المرأة وخصوصاً العذراء يدفع اربعة اضعاف الدية ، لأن المرأة انسان ضعيف وقتلها جرم كبيرٌ على الرجل وإهانة مُذلةٌ له .

فاذا ذبح أعرابيٌ عدوَّه يسعى حالاً في طلب امير كبير يحتمي في ظله ويعتصم بمعقله هو وماشيته خوفاً من ان يقتل وفاقاً لسنة الانتقام العاجل التي تعطي اهل القتيل حقاً مدة

ثلاثة ايام ان يأخذوا ثأرهم بذبح القاتل واهله وهدم بيته وسلب ماشيته . فالامير المجير يلتزم أن يبذل جهد طاقته لتخليص المجرم من طائلة هذا الانتقام ، ولو كان القاتل المستجير من اعداء العشيرة ، او عدوّه ، او قاتل ابنه او احد اقربائه ، لان الشهامة الأعرابية تحتم عليه ان يحامي عن الضعيف المستجير .

اذا وصل المستجير امام الخيمة وقال لصاحبها « انا دخيلك » او تمسك باطناب الخيمة او وقف امام الخيمة فقط فقد عُدّ دخيلاً . وان قتله احد خارج الخيمة قبل ان يبلغها وكان المدى بين مكان وقوعه قتيلاً وبين الخيمة التي أتى ليستجير بصاحبها لا يتجاوز رمية عصا ، فقاتله يضطر الى دفع دية الدم وحق الدخالة .

وعند ما ينزل القاتل عن فرسه يذهب توّاً الى فراش الامير فيجلس عليه ويقول « انا دخيلك بعيالك وحلالك ، من الحظ المنكود ، والسيف المجرود ، والظالم الحقود ، والكاذب ما له مولود » فيجيبه الامير « يا هلا ، ابشر بالعز وطيب المنزل » عند ذلك لا يهتم القاتل بشيء بل يعيش بصفاء ، والسعي كله يعود على المجير . فيرسل بعثات متتالية الى اهل القتيل كي يقبلوا المصالحة ويأخذوا دية الدم . على انهم يرفضون الصلح دائماً في اول مرة ، ويطلبون الدم بالدم ، ويذكرون الدم المهدور ، الصارخ الى السماء ، الطالب الانتقام . فيعود الوفد الاول خائباً . على أن المجير لا ييأس من هذا الجواب المؤلم لأن هذه هي العادة عندهم ، فيعيد الكرّة بعد ايام مرسلاً اليهم وفداً اكبر كي يصلحوا ذات البين ويأخذوا الدية ، فيرجع ايضاً الوفد الثاني مكسور النفس . وفي غالب الاحيان يصير الصلح بعد المرة الثالثة لان العرب ترتفع بهم العواطف النبيلة اذا شاهدوا كبراء البيداء متذللين أمامهم . ولكن ان ابى اهل القتيل المصالحة بعد المرة الثالثة ، فتلك دلالة على انهم لا يريدون الا الانتقام ، ويجب على القاتل حينئذ ان يهرب في ظلمات الليل الى بلاد بعيدة ويعتصم بقبيلة شهيرة .

والذين تصيبهم سهام الانتقام هم اهل القاتل واقرباؤه الى الدرجة الخامسة اي ابو القاتل وجدّه واولاده واولاد اولاده واعمامه وابناء اعمامه . اما الاباعد من الأسرة كابن العمة وابن الخالة ونحوهما فلا يؤذى بضرر بل يقدم لاهل القاتل بعيراً يسمى عندهم « بعير النوم » ويبقى في خيمته غير خاشٍ صولة الاعداء .

(حق الطنيب) — ويدعى ايضاً حق القصير ، والطنيب تصغير الطُّنُب وهو حبل الخيمة . وعنـد العرب الطنيب هو الجار المستجير ، ويعتبر طنيباً اذا علّق بعض آلات صناعته على طُنُب من أطناب الخيمة ، ومنهم من يكتفي بالكلام فقط فيقول : « ياشيخ فلان ياأبا فلانة انا طنيبك » فيقول له « ياهلا بك » .

فمن الأعراب من يترك عشيرته وبيت ابيه فيحمل خيمته ويرفعها الى جانب شيخ عظيم ، ويكون ذلك اذا خشيَ عدوًّا لا يقدر على مقاومته أو وجد ضدّه عدداً وافراً من الاعداء لا يستطيع منازلتهم أو قدم طلباً للرزق والشغل عنده في حراثة ارضه . فما من احد إذاً يضطر الى مجاورة أمير غريب عن عشيرته ووطنه الا ان يكون ضعيفاً أو فقيراً . ويقول العارفون بعادات العرب ان الضيف يسمى عنـدهم ضيفاً مدة ثلاثة أيام وأن طال مكثه عُدّ طنيباً . وكم من قاتل مثلاً نزل بالقرب من أمير كبير في بلاد بعيدة عن وطنه فسمي باسمه وتطبع بطبائع عشيرته وقد نسي أصله ونسبه بعد طول الزمان .

ومن غريب مايجري في هذا الحق إن بعضاً من التجار ينزلون في خيام العرب أو عند الشيخ ليبيعوا بضاعتهم من ملبوس ومأكول في حماه ، فيصبح شأنهم شأن طنيب هذا الشيخ أو قصيره . ويلتزم الشيخ ان يجمع لهم ديونهم من المديونين ، واذا تعصب المديون وامتنع عن الدفع يضطر الشيخ نفسه الى الدفع كي يبيض وجهه أمام القصير . واذا سُرق شيء من القصير ، فعلى الشيخ ان يسعى باسترداده له .

* * *

(حق العرض) — البادية بلاد تعف عن المنكرات ، وهي في هذا الباب أشرف من المدن المتمصرة حيث يظهر المنكر ظهوراً جلياً على حد ما قال الشاعر الشعبي : « ما في شي اسمه عيب » . فالنساء في القفر على الجملة عفيفات يتجنبن الطرق السافلة وأبواب المحرمات . وقد تسير المرأة البدوية وحدها في البادية ترعى الابل والنعاج ، ولا يعارضهـا احد أو يتعدى عليها .

على ان جرماً من هذا النوع كثير الحدوث في البيداء ، الا وهو الخطف . وكم من شيخ بكى على ابنة له كانت سعادته في هذه الدنيا ، فغابت عن انظاره في ليلة دامسة ، وبات

هو بطوي الأيام والأوقات بالحزن والبكاء . وهم يقولون فلانة خطفت فلاناً . ولا يقولون فلان خطف فلانة .

اذا رام الشاب البدوي ان يتزوج بابنةٍ على غير إرادة أبيها واتفق معها على خطفها يتواعدان الى زمان ومكان محدودين ، فاذا ستر الليل الارض يأتي الى الابنة ويردفها وراءه على فرسه ويهرب بها الى بلد بعيدة . وربما وجدها واردةً على عين ماء أو في حقل فخطفها بعد ان يكونا قد اتفقا . ولا بد للخاطف من عقاب شديد اذا وقع .

قلتُ ان الخطف كثير في عرب البادية . وقد لا يمر شهر الا ويسمع فيه خبر كهذا بين الأعراب ، والحق في ذلك في غالب الأحيان على أهل البنت الذين يطمعون ببيع بناتهم بأثمان باهظة حين زواجهن ، فان البنت عند العرب تكون لمن يقدّم مالاً وحلالا أكثر من سواه ، لذلك يصير الزواج عندهم على غير حب ووداد .

فاذا خُطفت ابنةٌ وكان خاطفها من قبيلة قريبة ، ركب أهلها وأقاربها ليرجعوا الشرف المفقود والابنة الهاربة ، ولهم الحق بان يصنعوا ما يشاؤون في مدة ايام ثلاثة فقط يسوغ لهم فيها ان يقتلوا الخاطف ويهلكوا غنمه ، ويهدموا خيمته ، ويذبحوا فرسه ، وهم يسرفون بما تصل اليه ايديهم إسرافاً لا يستبقون لانفسهم منه شيئاً وان هم استبقوا رذلوا وأهينوا ، واذا مضت الأيام الثلاثة ولم يظفروا بالخاطف ولم يستطيعوا فيها إرجاع شرفهم المفقود ، حل بهم العار والخجل ، فيرحلون وينزلون وحدهم مؤثرين العزلة والغربة . والخاطف يتزوج بالفتاة التي خطفها آمناً لا حرج عليه .

وفيما خلا الخطف ، فمن اقدم من البدو على الفواحش بنفس راضية ، يردعه الشيخ مع وجوه العشيرة مرات عديدة ، وان هو لم يرتدع يحكمون عليه بالنفي ، ويكون دمه مطلولاً لا يطالب به وهي عادة محمودة تحمل العرب على تجنب المنكر خوفاً من العقوبات الصارمة .

ومما يخفف وطأة الفواحش في البادية خوفهم من العار والهوان ، لأن البيداء لها آذان تسمع وعيون تنظر ، فلا يخفى فيها خافٍ ، ولا يوجد فيها سرٌ مكتوم . قال احدهم ان أهل البادية كالمشرفين على رأس الجبل ، يراقبون الحركات والاشارات الخفية ، ومن وُجد جرم فظيع في بيته قد يُحرق خيمته ويُنشر رمادها في الهواء .

ولقد اتخذت العرب وسائط فعالة لمنع الفواحش ، فاذا أحسن أب بجرم ابنته يقطع رأسها ويعلقه على رمح ويطوف به في كل القبيلة قائلاً : « هكذا يعاقب المجرم » ومنهم من يئدها حيةً فيغطيها بالتراب الى ما فوق رأسها . ومنهم من يغمرها بالتراب الى رقبتها فقط ، فتأتيها الوحوش وتذيقها من العذاب أمرّه . ومنهم من يسقيها السم . ومنهم من يضع على جسمها دبساً أو عسلاً ويتركها فريسة الذباب تموت أشنع الميتات . ومنهم من يأخذها الى الفلاة فيضربها ضرباً أليماً ، ثم يربطها بأوتاد في الأرض حتى تفترسها الحيوانات الضارية . وقد سمعنا أن رجلاً ألقى إبنته في بئر عميقة . وأن غيره ربطها الى شجرة جرداء وكان وجهها الى ضياء الشمس فاحترقت وماتت من الجوع ووقدات الأشعة وأكثر الناس يذبحونها بلا شفقة بسيف حاد أو يقتلونها برصاصة في رأسها . وقرأت أن أباً ترك ابنته خارج المحلة على صخرة شاهقة في فصل الشتاء القارس ، وكانت الامطار تهطل الرعود تقصف والثلوج تسقط ، فماتت وقد جمد دمها ويبست أعضاؤها .

رحلة اوليا جلبي

- ٤ -

اما شيزر فقد قال عنها ياقوت : شيزر قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأردن(!) عليه قنطرة في وسط المدينة وتعد من جند حمص .

وقال ابو الفداء : شيزر من جند حمص ذات قلعة حصينة والعاصي يمر من شماليها (وصوابه من شرقيها) وينحدر عندها على سكر ارتفاعه يزيد على عشرة اذرع يسمونه الخرطلة وهي ذات اشجار وبساتين وفواكه كثيرة اكثرها الرمان ولها سور من لبن وثلاثة ابواب .

وقال الاصطخري : واما شيزر وحماة فانهما مدينتان صغيرتان نزهتان كثيرتا الماء والشجر والزرع .

وقال شيخ الربوه : وشيزر مدينة حصينة وبية (وبيلة أو وبيئة) تشرب اهلها وارضها من النهر العاصي ولها قلعة طولها ظاهر تسمى عرف الديك محاطة من ثلاث جهات بالعاصي اه .

قلت لم يبق في شيزر من الفواكه اثر يذكر ما عدا قليل من الرمان وحالة الازوار والبساتين ايضاً وسطى وسكر الخرطلة قد دثر اكثره وتنوسي اسمه . والبلدة ذات السور والابواب الثلاثة التي كانت في اسفل القلعة قد عفت رسومها ولم يبق منها الا بعض اسس الجدران وكسور الحجارة والاعمدة وصار مكانها قباب حقيرة بين الجسر وباب القلعة يقطنها العمال في ازوار شيزر ، والبلدة العليا التي كانت في داخل القلعة خربت وصار مكانها قرية بنيت بركام الانقاض يقطنها فلاحو الأرض العذية ، ولا يزيد عدد الجميع عن الاربعمائة جلهم من السنيين وقليلهم من النصيرية والاسماعيلية .

وخلاصة تاريخ شيزر ان فراعنة مصر عرفوها وذكروها في رقم تل العمارنة المسمارية باسم سنزار وعرفها اليونان وسموها لاريسا قيل ان لسلوكس نيكاتور فضلاً في ترميمها وتحصينها وذكرها امرؤ القيس في قوله :

تقطع اسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بسير يضج العود منه يمنه اخو الجهد لا يلوي على من تعذرا

وذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات في قوله :

قفوا ونظروا بي نحو قومي نظرة فلم يقف الحادي بنا وتغشمرا
فوا حزنًا اذ فارقونا وجاوزوا سوى قومهم اعلى حماة وشيزرا

فتح المسلمون شيزر عام ١٧ ﻫ وذلك عقب استيلائهم على حمص وحماة بقيادة ابي عبيدة ابن الجراح . ولما كانت شيزر وجارتها أفامية على الطريق الذي تسلكه اكثر القوافل والجحافل القادمة من شمالي الشام او جنوبه ولتسلطها على وادي العاصي كانت لها مكانة حربية مهمة وكانت شيزر على الأخص تعد مفتاح بلاد الشام . لذا بقيت بعد دخول المسلمين عرضة لهجمات الروم المتتابعة فكانوا يستولون عليها تارةً ويخسرونها أخرى الى ان استقرت في ايديهم نحو ٨٢ سنة حتى سنة ٤٧٤ ﻫ التي جاء فيها سديد الملك ابن الحسن علي بن منقذ الكناني . قيل انه عمد الى تل الجسر (اي جسر بني منقذ الذي يظن انه كان بعيداً عن القلعة نحو كيلو مترين للغرب) فعمره حصناً وجمع فيه عشيرته ونفر على حصن الجراص الذي ذكرنا موقعه وهو يبعد نحو ٢٥ كيلو متراً غربي وادي الغاب فأخذه بالسيف من الروم ثم نازل شيزر فتسلمها من اهلها بالأمان . وفي زمن امارة ابنه ابي العساكر سلطان لم تسترح شيزر من توالي غزوات الاسماعيلية واعراب بني كلاب والروم والصليبيين وفي كل مرة كانت تنجو من السقوط بفضل مناعتها الطبيعية وحصانة قلعتها وبسالة اصحابها بني منقذ . وظلت شيزر بيد هؤلاء الى سنة ٥٥٢ وهي السنة التي حدثت فيها زلازل هائلة اخربت كثيراً من المدن والحصون في شمالي الشام وكان اشدها كما قال ابن الأثير في حماة وشيزر فانها خربتا بالمرة . وكان بنو منقذ مجتمعين في وليمة ختان فهلكوا ولم ينج احد ممن كان منهم داخل القلعة الا امرأة أخرجت من تحت الردم . وكان أسامة

غائباً في دمشق فجاء بعد الزلزلة وعاين مافعلته بشيزر واهله فبكاهم ورثاهم بغرر القصائد . وجاءها نور الدين محمود بعد الزلازل فرممها وجددها فيما جدده من بقية الحصون واقطعها الى احد امرائه مجد الدين ابو بكر بن الداية ولما مات انتقلت لأخيه سابق الدين عثمان الذي ظل فيها وفي حصن ابي قبيس الى بعد وفاة الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب فصار من عمال ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . ولما مات سابق الدين انتقلت لابنه شهاب الدين يوسف . وفي سنة ٦٣٠ تجاهر هذا بالعصيان فجاء الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي وحاصره وأسترد شيزر وابا قبيس منه فهنأه يحيى بن خالد القيسراني بقوله :

يا ملكاً عم اهل الأرض نائله وخص احسانه الداني مع القاصي
لما رأت شيزر آيات نصرك في ارجائها القت العاصي الى العاصي

ولما جاء التتر بقيادة هولاكو هدموا اكثر القلاع التي كانت للأيوبيين ولا بد أن يكونوا نالوا ايضاً من شيزر لأنها ذكرت في جملة القلاع التي رممها الملك الظاهر بيبرس في أواخر القرن السابع . ولما جلس الملك المنصور قلاوون الصالحي ظلت شيزر كجارتها أفامية مدة سنة في يد الأمير العاصي سنقر الأشقر ثم استرجعها قلاوون منه صلحاً في سنة ٦٧٩ ورمم بعض اركانها وبقيت في حوزة اخلافه المماليك الى ان دخل العثمانيون . ولعل خراب شيزر الحالي بدأ قبيل دخولهم هذا . ومهما يكن فأن شيزر بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام كلها وزوال الحاجة للدفاع لم يبق لها كما قلنا في أفامية مكانة حربية بل ظلت كما هي الآن قرية يعتصم أهلها من البدو والنصيرية الذين كانوا يغيرون عليها ايام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

وقلعة شيزر بنيت على ظهر أكمة صخرية منتصبة على يسار العاصي شبهها العرب لنتوئها بعرف الديك . ويمر نهر العاصي من شرقي هذه الاكمة بعد ان يلتوي في منعرج ذي زاوية قائمة ويجري في وهدة عميقة . فالقلعة منفصلة عما يجاورها في شرقيها وشماليها وغربيها بفضل المنحدرات الصخرية العميقة المحيطة بها والتي تعلو بنحو ٤٩ — ٥٠ متراً . اما في الجنوب فقد كانت أكمتها متصلة بالجبل المجاور الى ان حفر القدماء فيه خندقاً عريضاً وعميقاً فصلوها به عنه وبنوا فوق الخندق برجاً كبيراً سيأتي وصفه . وفي رواية انهم كانوا عند

مهاجمة الأعداء يرون مياه العاصي من هذا الخندق بعد سد مجراه بسكر لعله سكر الخرطلة الذي نوّه به ابو الفداء فاذا مرت هذه المياه وطفت على السهل الغربي تصبح شيزر كجزيرة لا يعود بامكان العدو الاقتراب منها ·

وقلعة شيزر خراب في الجملة لم يبق منها سالماً الا طرفاها الشمالي والجنوبي ·

يدخل القاصدون من بابها الكائن في الجهة الشمالية بعد ان يجتازوا جسراً حجرياً بني فوق وادٍ ضيقٍ وعميق · وكان هذا الجسر في العصور الوسطى من الخشب وهو نقّال يرفع عند اللزوم · اما الحالي فحجري يعلو طبقتين من القناطر · ولشدة الانحدار جعل ممشاه ذا درج مرصوف ببلاط كبير وجعل على طرفيه درابزين يوشك ان يتداعى · أما مدخل القلعة فقد جعل في جوف باشورة بارزة الى الأمام بنيت بقطع ضخمة من الحجارة التي يدعوها البناؤون في دمشق (غشيمة) و (سورية) والأولى غير منحوتة الا قليلاً والثانية منسوبة للأسوار تكون نائتة في وسطها · وحشي بين هذه الحجارة قطع من الأعمدة لتشد ارتباط المداميك بعضها ببعض ·

وفي المدخل فرضة تعلوها قوس من النوع الذي يدعوه البناؤون في دمشق (قوس على الخس) · وفي جوف الفرضة باب ذو أسكفة مستقيمة وفوق القوس كتابة عربية طويلة فيها اسم الملك المنصور قلاوون الصالحي في سنة ٦٨٩ على احجار الجدار الظاهرة · وفوق الكتابة بقليل زغلولان لرمي السهام ونافذة مربعة الشكل · وفي الطابق الأعلى من القلة نافذة أخرى مربعة لا يزال يعلوها زافورتا مرمى كان مخصصاً لحراسة المدخل · وقد هدمت الباشورة حتى وصلت الى مستوى هاتين الزافورتين · وعلى يمين الباشورة قلة هرمية الشكل أقسامها العليا مهدومة ، وأقسامها السفلى راكبة على سفح عريض مبلط احدجوانبه بلتصق ويحيط بالباشورة التي تقدم ذكرها والضلع الجسم الشمالي الغربي لهذا السفح المستدق قطع وأعرض وذلك لدفع شر رماة السهام والنقابين · وتحت الباشورة ساباط معقود يدخل منه الى ساحة القلعة التي ملئت ببيوت القرية المبنية من أحجار السور المهدوم ووراء الباشورة وأطلالها سراديب معقودة متداعية كانت توصل من القلعة الى العاصي · وثمة درب ضيق بين بيوت القرية يأخذك الى قبلي القلعة فتجد فيها البرج الكبير ·

وهذا البرج في أضعف نقطة من نقاط الدفاع فوق الخندق الذي تقدم ذكره لذلك بني بعناية خاصة ، فأحجاره (غشيمة) و (سورية) وهي هنا أضخم وأدق عملاً من حجارة الباشورة ، وفي عرض جدرانه حشيت قطع كثيرة من أعمدة الروابط لتزيد انضمام الاحجار الخارجية بالداخلية . وشكل البرج منشور ذو وجوه مستطيلة وله في جهته الشمالية بروز تايل فيه المدخل ، وقد جعل هذا المدخل في مخترق زاوية معرضة للقذائف المتشابكة التي تلقى من طوابق البرج العليا ، وهذا من قواعد الهندسة العربية في المباني العسكرية . وعلى جدار البرج كتابة باسم الملك العزيز محمد صاحب حلب سنة ٦٣٣ والصاعد من درج المدخل يصل الى طابق تحته اقبية معقودة لعلها كانت صهاريج ماء او مخازن مؤنة ، وثمة درج يؤدي الى طابق ثان ثم الى السطح . وفي الطابق الاول غرفتان كبيرتان عقودهما مرتكزة على عضادات وجدرانها مثقوبة بكوى للنور وزغاليل غريبة الاشكال . ويشتمل الطابق الثاني على الاوضاع ذاتها ، اما السطح فقد هدم منه جدار الدفاع الذي كان مضرساً بشراريف عديدة اه .

قال الاثري (فان برشم) في كتابه «رحلة في الشام» الذي اعتمدنا عليه في وصف شيزر ان باشورة باب القلعة من آثار نور الدين محمود دون غيره على الرغم من ان الملك المنصور قلاوون استكتب اسمه فوق الباب اذ لم يكن له فضل في غير ترميم بعض اركانها وان القلة والسطح من آثار الملك الظاهر بيبرس ، والبرج الكبير القبلي ربما كان من آثار نورالدين محمود دون غيره لأن الكتابة التي فوق باب زبرت بعد البناء ولعل الملك العزيز محمد رمم المداميك العليا فقط . وقال ايضاً : ان الصليبيين على الرغم من مهاجمتهم شيزر مراراً لم يستطيعوا اقتحامها وإذن تكون هذه القلعة عربية بحتة من آثار مهندسي العرب دون سواهم في القرنين السادس والسابع ، وبرهاننا على ذلك تخطيط سورها ورفع الحيطان الجامعة بين ابراجها وهذه الابراج المربعة القليلة البروز وشكل بناء الباشورة والبرج الكبير المحشوة جدرانها بأعمدة الروابط واقسام البرج في الداخل وانتساق مراكز الدفاع فيه وفقدان اي قطعة مرخمة اومهندمة على الطراز الغربي اه .

قلت وهذه احدى شهادات هذا العالم الأثري الاوربي الذي اختص بدرس المباني

العربية القديمة تدل على ما كان عليه أسلافنا من البراعة في تشييد القلاع والحصون وإحكام وسائل الدفاع والحصار فيها ، مما ينبغي له علم غزير وخبرة واسعة في فنون الحرب والهندسة والبنيان . ومن اكبر دواعي الأسف ان لانعرف اسماء المهندسين العسكريين الذين خططوا قلعة شيزر وامثالها من القلاع العربية في القرن الخامس والسادس والسابع ، وصورة انشائها بهذا التأليف البديع والاتقان الغريب وان نجهل القواعد والمسميات التي كانوا يتبعونها ويتداولونها في تشييد الاسوار والابراج والثقوب والمرامي واقسامها البارزة والغائرة فيتعذر علينا تعريب ما كتبه عنها علماء الآثار من الافرنج بالحرف . ولو سمح الدهر بابقاء شيء من مؤلفاتهم التي لا بد ان يكونوا عنوا بوضعها ومنها كتاب القلاع والحصون لأسامة بن منقذ او لو عني مؤلفو كتب التراجم بهؤلاء المهندسين والبنائين وغيرهم من ارباب الصناعات الدقيقة مثل إكثارهم بترجمة الشعراء والكتاب والزهاد والمتقشفين إذن لعرفنا شيئاً من قواعدهم أو مسمياتهم فتمكنا من وصف مابنوه وصفاً علمياً هندسياً تعرف به خطوطه ومقاييسه واشكاله واوضاعه وجنس المواد والحجارة التي يتألف منها وكيفية تركيزها وترتيبها والغايات المنشودة من اختلاف الابراج والقلال والنوافذ والمرامي وكبرها وصغرها وتقويمها وتدبيرها وما كان يوضع او يعمل في ارجائها واجزائها .. الخ لا كما يذكره كتابنا الذين يهيمون في وادي الخيال فيقولون كما قال شهاب الدين محمود في وصف حصن: حصن قد تقرط بالنجوم وتقرطق بالغيوم وسما فرعه الى السماء ورسا اصله الى النجوم تخال الشمس اذا علت انها تنتقل في ابراجه ويظن من سها الى البها انها ذبالة في سراجه ... الخ ماهنالك من الاغراق الذي ليس فيه شيء مما يدل على هندسة هذا الحصن وكيفية بنائه ، وكلهم نحى هذا النحى .

هذا وقيل ان بين شيزر وقرية الزلاقيات التي تبعد عنهـا نحو اربعة كيلو مترات الى الشرق قناة قديمة متفرعة من العاصي تسير في نفق محفور في حلف الجبل الى ان تصل قرب القلعة الى فوهة يدعونها الشلقة تعلو بضعة أمتار فينحدر منها الماء كالشلال بهدير قوي .

وجاء في كتاب الاعتبار لأسامة اسم بندرقنين وانها كانت قرية عند المدينة والآن لا يعرف لها خبر ولا أثر . وجسر شيزر رمم مراراً في الماضي وبني مجدداً في سنة ١٣٤١ هـ

ويظن انه ليس هو جسر بني منقذ الذي كان حوله تل وحصن ذكرهما أسامة في مواضع عديدة وقبله جده ابو الحسن علي بن منقذ الكناني وهو باني الحصن قبل نفرته على حصن الجرّاص واستيلائه على حصن شيزر كما اسلفنا ·

قال فان برشم : بحثنا كثيراً فلم نعثر على اثر لحصن الجسر الذي يفهم من كلام أسامة انه كان في ضفة العاصي اليمنى اقيم لحماية جسر بني منقذ · ونظن ان هذا الحصن والجسر كانا في موقع يبعد عن شيزر للغرب نحو كيلو مترين حيث ترى عضادتين بارزتين من العاصي تقاومان جريانه الشديد اه · قلت ويؤيد عبارة فان برشم ما جاء في ص ٢١٨ من كتاب الاعتبار ان حصن الجسر كان كثير الصيد يذهب اليه والد أسامة وابناؤه ومعهم البزاة والفهود والكلاب يصطادون الطيور والدواب التي قدمنا ذكرها وانهم كانوا يعودون من الصيد وينزلون على بوشمير وهو نهر صغير بالقرب من الحصن · فلو كان حصن الجسر في قرب القلعة كما ظنه بعضهم لما اقتربت طيور الصيد ودوابه كما انه ليس في قرب الجسر الحالي نهر او جدول يدعى بوشمير · ويستحيل على ابي الحسن علي جد أسامة ان يبني مثل هذا الحصن في جوار القلعة لما كانت بيد الروم ثم يناوشهم منه ·

هذا والواقف فوق سطح البرج يطل على مناظر عديدة منها في الشرق الهضبة العالية التي يفصل العاصي بينها وبين اكمة عرف الديك وكانت قواد الجيوش المحاصرة لشيزر تجعل مخيمها في هذا الموقع المشرف على القلعة وتنصب فيه المنجنيقات وتضربها منه · وفي هذه الهضبة قبة فيها مسجد وضريح ينسب الى ابي عبيدة وصوابه ان ابا عبيدة لما جاء ليفتح شيزر خيّم فيه فاتخذه الناس بعد مقاماً له وبنوا هذا الضريح وذلك المسجد · قيل ان في جدار المسجد حجراً زبرت عليه كتابة تدل على ان منشئ هذا المكان هو السلطان مراد ابن السلطان سليمان العثماني الذي حكم بين سنتي ٩٨٣ — ١٠٠٣ · واذا تطلع الواقف نحو العاصي يراه خارجاً من الوهدة العميقة المحصورة بين الجبلين ليلاقي السهل الفسيح الممتد في الغرب جارياً بهدير قوي لشدة الانحدار هنا · ويتجه النظر مع العاصي ومنعرجاته التي تكثر في هذه البقعة فيرى ازوار شيزر وعلى بعد خمسة كيلو مترات قرية التريمسة وأزوارها وفي شماليها تل الطويل ولعله تل التلول الذي ذكر محرفاً في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ

وبعدهـا قرية الصفصافية وجسر الجرة . ثم بطائح الغـاب وآجامه وهي علة وخامة المرتع في هذه الربوع .

وفي السهول والتلعات الغربية الممتدة من قرب شيزر الى سفح جبال النصيرية الخضراء قرى وضيـاع عديدة تتبع حكومة اللاذقية آهلة بالنصيرية نخص بالذكر منها في السهل تل سلحب وهي كبيرة مستوبلة تحيط بها بطائح الغاب من الشرق والشمال وفي ذيل الجبل قرية دير شميل كانت من حصون الفرسان الاسبتاريين فيها دار حكومة مذ كانت قاعدة للناحية وفي شماليها حصن خراب نظن انه حصن الخريبة الذي ذكر اسامة أنه كان عليه للافرنج ديدبانًا يكشف مسلمي شيزر اذا ارادوا الاغارة على أفامية مع ملاحظة ان البعد بين هذا الحصن وشيزر ثلاثة عشر كيلو مترًا . وفي غربي دير شميل على رأس احد اذيال الجبال المرتفعة حصن آخر خراب أكبر من الاول يدعى ابا قبيس يطل على واد يجري فيه نهر ابي قبيس احد روافد الغاب وقد مر ذكر هذا الحصن في تاريخ شيزر، وهو احد قلاع الدعوة الاسماعيلية المنتشرة في هذه الجبـال منها — غير ماعددناه سابقًا — مصيـاف والكهف والعليقة والمنيقة وبكسرائيل وغيرها . وجبال النصيرية المتجهة نحو الشرق الشامخة كالجدار بين هـذه البقاع والبحر تدعى هنـا جبال الكلبية تؤلف كورة واسعة قاعدتها مصياف تتبعها قرى كثيرة مما عددناه وغيره يقطن اكثرها النصيرية واقلهـا الإسماعيلية اشتهرت بعنبها وتينها ودود حريرها وحراجها وينابيعها المتدفقة .

هذا وبعد ان انتهيت في ربيع سنة ١٣٥١ من زيارة هذه القلعة والاحاطة بما وصفته آنفًا تأملت وانا على سطح ذلك البرج في حاضر شيزر وغابرها ورحت في فضاء التفكير أجل قدر الذين انتقوا هـذا الموقع الحربي الهائل ، واتخيل المعارك الطاحنة التي كانت تدور تحت اقدامه بين الجيوش المحـاصرة والمدافعة عنه ، وأكاد أسمع قراع الرماح ووقع السيوف ورنين القسي ، وارى القتلى والجرحى ملأوا السهل فجبلت هذه التربة الحمراء بدمائهم او صبغ العاصي بها .

واتذكر الوقائع التي كانت تجري في هذه الضواحي لبني منقذ الاشاوس لاسيما لنابغتهم البطل العالم الشاعر أسامة صاحب كتاب الاعتبار وكيف كانوا شجا في حلوق

الروم والصليبيين يستبسلون رجالاً ونساءً في دفع غاراتهم وغارات البدو والاسماعيلية وغيرهم وكيف كانوا يصطادون الأحجال والأرانب في الجبل قبلي البلد وطير الماء والدراج واليحامير والغزلان على العاصي في الأزوار غربي البلد واخيراً كيف قضت عليهم الزلازل فأفنتهم وخربت هذا الحصن الهائل المرءى بجملته كما قال أسامة « متهيلاً مثل النقا المتهيل » واتصور نور الدين الشهيد في سنة ٥٥٢ والملك العزيز محمد صاحب حلب ومعه ابن عمه الملك المظفر محمود صاحب حماة في سنة ٦٣٠ والملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ والملك المنصور قلاوون في سنة ٦٨٩ يأتون كل في يومه ووراءه وزراؤه وقواده وحرسه الخاص بأبهتهم وابهتهم يعدون الى هذه القلعة ليعاينوا مافعلته الزلازل والحروب في اسوارها وابراجها ويتجولون بين اطلالها وركامها متأسفين ومحوقلين فيأمرون باحضار المهندسين والبنائين ليرمموا ويجددوا مافعلته فيها طوارئ الحدثان فتنفذ اوامرهم وتحقق رغائبهم فوراً . واتأمل بلدة شيزر السفلى ذات السور والأبواب الثلاثة والمنتزهات والبساتين والزروع والفواكه الكثيرة التي كانت فيها واسأل كيف عفت عوادي الزمان رسومها فاصبحت ضيعة صغيرة وبيلة والبلدة العليا التي كان ينزلها امراء وجنود اعزاء يعدون بالألوف كيف اصبحت الآن كالاطلال الدارسة سكانها تلائل فلاحون بينهم بيت قديم يعرف بالشيزري باعوا قريتهم وموئل سؤددهم لبعض سراة حماة فاصبحوا صعاليك مناكيد في غاية من البؤس والجهل لا سيما في معرفة ما كانت عليه هذه القلعة ومن سادوا وشادوا فيها . فسبحان محول الأحوال يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

هذا والطريق بين شيزر وحماة تبلغ نحو ٢٤ كيلو متراً والسائح بعد ان يصعد من وادي شيزر يجتاز سهولاً شاسعة ذات تربة حمراء فيمر من غربي قرية كبيرة تدعى محردة قصبة ناحية طار العلا ذات دور حجرية بيضاء اهلها من طائفتي الروم السريان يبلغون ثلاثة آلاف وهي قريبة من العاصي عرفت بجمال نسائها وسعة كرومها الممتدة عن يمينها ويسارها . وفي شرقيها قرية كبيرة أخرى تدعى حلفايا اشير في إحدى الخرائط الحديثة الى قناة ماء مندثرة تأتي اليها من حول قرية معرزاف وتسير شمالاً مجتازة العاصي الى قرية اللطامنة فمورك . والعاصي القادم من حماة بعد ان كان يتجه من الجنوب الى الشمال ينعطف نحو

الغرب بين قريتي حلفايا واللطامنة عند طاحونة الوعرة وبعد ان يجتاز من شمالي حلفايا ومحردة على مقربة منهما يتجه نحو شيزر كل ذلك في وهاد سحيقة ومنعرجات عديدة . والباحث عن العاصي ومجراه في هذه الربوع لايسعه الا ان يتسائل عن موقع دير القديس مارون ابو الطائفة المارونية الذي قيل انه كان على العاصي بين شيزر وحماة ويظهر ان الروم البيزنطيين في القرن الأول للهجرة لما خربوا هذا الدير وذبحوا رهبانه عفوا رسومه بالكلية فأصبح لا يعرف له اثر ولا خبر . هذا وبعد محردة يغادر السائح على يمينه ضياع عديدة منها تل سكين قمادة ومعزاف وقد ذكرهما — أسامة بن منقذ في كتابه . وبعد الجدل يجتاز نهر الصاروت احد روافد العاصي وعليه جسر قديم ، وهذا النهر يتألف من اودية وجداول تنحدر نحوه من اذيال جبل الكابية بين بعرين ومصياف . ثم يرى على يمينه من الضياع الشير وفي غربيها كفر عميم والتويم وام الطيور وفي جنوبيها كفر العاون وتل سكين الصاروت ويلمح في جنوب هاتين القريتين اطلال عالية لقصر قديم في قرية تيزين قيل انه كان مصيفاً للملك المظفر محمود .

ويلمح في الافق الشرقي البعيد جبال العلا يظهر منها جبل الفانات وجبل كاسون (علوه ٥٨٦ متراً) وتمتد هذه السلسلة في الشرق الجنوبي الى قلعة شميميس وبليدة سلمية التي اشتهرت بقنيها الرومانية وكرومها وبساتينها وبأنها منشأ الدعوة الاسماعيلية وموطن اهل هذه الشيعة قديماً وحديثاً عمروها بعد دثورها في آخر القرن الماضي وجعلتها الحكومة قاعدة قضاء تتبعه قرى وضياع عديدة تمتد الى سفوح جبل البلعاس سكانها من الاسماعيلية والنصيرية وقليل من السنيين والشركس . ويلمح ايضاً قرون حماة وهما جبلان متقاربان يبعدان عن حماة الى الشمال نحو عشرة كيلو مترات يدعى الكبير منهما زين العابدين (٦٣١ متراً) والصغير كفر راع (٦٤٥ متراً) وفوق الأول جامع مهجور ذو قبتين بيضاويين من آثار الملك الأشرف قيتباي في سنة ٨٨٣ وفي الجامع مقام يسمى زين العابدين (؟) تقصده النصيرية من جبال الكابية بالزيارة وحولها قريتا الهاشمية وكفر راع . وقد اشتهرت قرون حماة بالمصاف الذي وقع حولها في سنة ٥٧٠ بين صلاح الدين الأيوبي وصاحب حلب الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين محمود وابناء اعمامه الذين جاؤا من الموصل وكانت

الدائرة عليهم • هذا وبعد ان يترك السائح على يمينه قرى الشير وشيحا ومعردفتين وعلى يساره في سقي العاصي مزارع كبيرة تروى بالنواعير تدعى ازوار منها الناصرية وخطاب ومعردس وأرزة يرى امامه في وادي العاصي كازو وفي شرقيها قمحانة والظاهرية اللتان تمر منهما سكة حديد حماة — حلب وعين الباد وجبرين وهكذا الى ان يمر من جوار محطة السكة الحديدية ومقابر حماة واحيائها القريبة منها ثم يهبط وادي حماة المنخفض •

«للبحث صلة» وصفي زكريا



جامع التواريخ

— أو —

« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة »

— ٩ —

حدثني محمد بن احمد بن عثمان بن الحـارث الزيات قال حدثني ابي قال كان لي ولجماعة من التجار ببغداد على رجل من البزازين اربعة الف(١) دينار فقام للناس فاجتمعنا ففتحنا دكانه فوجدنا فيه متاعاً ثمنه اربعمائة دينار فقال ان اخترتم اخذها وابرائي من الباقي فخذوا فاني لاأرجع الى شيء غير ذلك وان اخترتم ان تؤخروني بالدين وافتح دكاني واعمل بهذه اربع مائة الدينار دفعت اليكم في كل سنة اربع مائة دينار فيأخذ كل واحد منكم منها العشر من ماله وتستوفون المال في عشر سنين فاجبناه الارجلاً يعقد يقول زيدوني على العشر ولو ديناراً واحداً في السنة فقلنـا للرجل أجبْه الى هذا فقال ان أعطيت هذا الدينار زيادة على اربعمائة الدينار في السنة مضت اربع مائة الدينار في السنة (٢) سنين وبقيت بقية دينكم بحالها . فعجبنا من ذلك وقلنا

(١) يريد آلاف .

(٢) الصواب : في التسع سنين .

اوجدنا صحة ماقلت فقال هذه اربعمائة الدينار اذا اتجرت فيها سنة وسلمت فربحي اربعمائة دينار يخرج منها اربعمائة دينار ودينار يبقى ثلاثمائة وتسعة وتسعون ديناراً فأتجر فيها في الحول الثاني فيحصل معي سبعمائة وثمانية وتسعون ديناراً يخرج منها اربعمائة دينار يبقى ثلاثمائة وسبعة وتسعون ديناراً فيحول الحول الثالث فيصير المال سبعمائة اربع وتسعون ديناراً يخرج منهـا اربعمائة دينار ودينار يبقى ثلاثمائة وخمسة وخمسون ديناراً (١) يحول الحول الرابع فيصير سبعمائة وستون ديناراً يخرج منها اربعمائة دينار ودينار ويبقى خمسمائة وثمانون ديناراً ويحول الحول الخامس سبعمائة دينار يخرج منها اربعمائة دينار ودينار يبقى ثلاثمائة خمسة وثمانون ديناراً ويحول الحول السادس فيخرج منها اربعمائة دينار ودينار يبقى ثلاث مائة تسعة وسبعون ديناراً ويحول الحول السابع فيصير سبعمائة واربعة وخمسين ديناراً يبقى ثلاثمائة وسبعة وخمسين ديناراً ثم يحول الحول الثامن فيصير مائتين وتسعين ديناراً يخرج منها ثلاثمائة دينار بقي منهـا مائتين تسعة وستين ديناراً والدين الدين ولا يمكن ان يدفع اليكم اذا كان الأصل اربعمائة ودفع اليكم (٢) اربعمائة . فاجابته على الاقتصار على الاربعمائة وفتح دكانه وعمل ورزق .

يقول المصحح (٣) قد غلط الناسخ في ايراد حجة التاجر غلطات أفسدت معناه فيصلحه الجدول الآتي :

---

(١) سيأتي التصحيح بعد انقضاء الحساب . (٢) لعله : اليهم .

(٣) [المجمع] هو الاستاذ مرجليوث .

للسنة الاولى الأصل مع الربح	٨٠٠	
يخرج	٤٠١	
يبقى		٣٩٩
للسنة الثانية الأصل مع الربح	٧٩٨	
يخرج	٤٠١	
يبقى		٣٩٧
للسنة الثالثة	٧٩٤	
يخرج	٤٠١	
يبقى		٣٩٣
للسنة الرابعة	٧٨٦	
يخرج	٤٠١	
يبقى		٣٨٥
للسنة الخامسة	٧٧٠	
يخرج	٤٠١	
يبقى		٣٦٩
للسنة السادسة	٧٣٨	
يخرج	٤٠١	
يبقى		٣٣٧
للسنة السابعة	٦٧٤	
يخرج	٤٠١	
يبقى		٢٧٣
للسنة الثامنة	٥٤٦	
يخرج	٤٠١	
يبقى		١٤٥

للسنة التاسعة	٢٩٠	
يخرج	٤٠١	
يبقى		١١١

* * *

وحدثني قال حدثني ابي فقال كل كيس يكون فيه الف درهم فتخرج منه درهماً واحداً ولا يدخله درهم آخر فان الكيس كله يذهب ان كان بتجارة فنقصان(١) ربحها وان كان بنفقة فليس يحتاج الى دليل . وانما بحفظ الاموال فضولها وينستر(٢) التاجر بربحه .

* * *

حدثني عبيد الله بن احمد بن داسه قال حدثني ابو عبد الله بن (٣) محمد ابن ابراهيم بن عبيد الله الفقيه الحنفي الارمني قال كان ابوزهير الجبائي الفقيه ورعاً حاذقاً بمذهب ابي حنيفة فدخل بغداد فبلغه أخبار ابي الحسن الكرخي رضي الله عنه في ورعه قال فلقيه فقال له يا ابا الحسن بلغني انك تأخذ من السلطان رزقاً في الفقه قال نعم قال ومثلك في عملك ودينك يفعل هذا فقال له ابو الحسن أوليس قد اخذ الحسن البصري رضي الله عنه في زمنه وفلان فعدّد خلقاً من الصالحين والفقهاء ممن أخذ من بني أمية فقال له ابو زهير : ذهابُ هذا عليك اطرفُ : بنو أمية كانت مصائبهم في اديانهم وجبايتهم الاموال سليمة لم يظلموا في العشر ولا في الخراج وكان الفقهاء يأخذون من الأموال مع

(١) لعله : فبنقصان . (٢) لعله : يتيسر يعني يصير ميسوراً .
(٣) لعله : زائد .

سلامتها وهؤلاء (١) مع سلامة اديانهم اموالهم فاسدة وجباياتهم بالظلم والغش فسكت ابو الحسن فلما كان وقت قبض جائزته لم يطالب بها وتركها ولم يقبض شيئاً من الجاري الى ان مات. قال لي عبد (٢) الله بن داسه ان زهيراً هذا هو استاذ ابي محمد بن عبدل الذي علمه الفقه على مذاهب اصحابنا وكان ابو محمد بن عبدل استاذنا نحن في الفقه وقد درست عليه وشاهدته الطويل العريض وماسمعت هذه الحكاية منه .

***

وحدثني قال لي بعض شيوخنا ان الشيخ اذا أسن صارت فيه ثلاث خصال مذمومة اذا قام عجن (٣) واذا مشا زفن (٤) واذا سعل قرن (٥) .

***

وحدثني قال حدثني عبدالله بن معاذ قال حدثني شيخ من اهل المذار قال كان لي زرع في ضيعة وكان حسناً جيداً وافراً وكنت واسع الطمع فيه فبت ليلة فرأيت في منامي كأني بنفسين يطوفان الصحارى المزدرعة ويقول احدهما للآخر اكتب : زرع فلان كر وفلان كرين قال وانا احفظ الاسماء وبلغ الكيل الى ان جاء الى قراحي فقال اكتب وزرع فلان ثلاثة اكرار فقلت له اعزك الله زرعي والله في غاية الجودة وانا اؤمل فيه عشرة واكثر فقال لصاحبه اكتب ثلاثة اكرار قال فلما كان من الغد انتبهت متعجباً وقمت وما مضت ايام حتى لحقت الغلة آفة ونجا بعض الناس واصيب بعضهم وحصد

(١) يعني : العباسيين . (٢) لعله : عبيد . (٣) يعني نهض معتمداً على الارض كفعل العاجن . (٤) يعني رقص كأنه أعرج . (٥) لعله يريد استمر .

جيراني وحصدت قال فحصل لي والله ثلاثة اكرار لا تزيد قفيزاً ولا تنقص قفيزاً قال وعرفت خبر القوم الذين كنت حفظت اسماءهم ومبلغ كيلهم فاذا كيل الجميع قد خرج على ذلك المبلغ سواء .

بلغني من جهة وثقت بها عن معز الدولة انه قال مانام بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس مقبل قط وهذا منه(١) انه رجل عجمي حسن جداً والاصل في ذلك قول امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ان النبي صلى الله عليه وسلم قال بورك لأمتي في بكورها .

* * *

حدثنا ابو احمد بن ابي الحسك الشاهد قال كان ابو عمر القاضي يجتاز بباب دارنا دائماً ذاهباً الى ضيعته المعروفة بالصالحية وانا صبي وبعد ذلك الى ان صرت حدثاً قال فسمعت اذ ذاك انه اجتاز فلما صار على شاطئ نهر عيسى رأى رجلاً في الماء وهو يصيح الغريق ولم يكن بين يدي ابي عمر الا غلام واحد قال فصعد ابو عمر بحماره على تلعة وصاح باعلى صوته ياناس ياناس دفعات فلم يجبه احد لخلو الموضع وانقطاع الطريق فنزل عن حماره وقطع عمامة كانت عليه ورمى بها الى الرجل واخذ طرفها بيده ومسك بيده الأخرى شجرة كانت هناك وقال للرجل لا خوف عليك فاجذب العمامة بكل قوة قال فما زال الرجل يجذبها ويقرب الى ان قرب من الشط حتى رقا في الشط وخر مغشياً عليه وجازت جماعة فرأوا القاضي على تلك الصورة فدعوا له وشكروه

(١) لعله سقط : بحيث .

وبادروا الى الرجل وعصروا جوفه من الماء ونجا وعاش .

* * *

حدثني عبد الله بن احمد بن بكر البصري قال كان المهربين بالبصرة له[١] نعم ومروآت و كانوا في جيراننا فحدثني شيوخنا ان فتى منهم و كان ظريفاً فركب في يوم شات شديد البرد . والماء قد جمد وليس عليه من الحشو شيء انما كان عليه قميصان وعمامة وطيلسان وخف فدخل الى قوم فعجبوا من صبره على البرد فنزع خفه فاذا هو قد طلا رجليه بالغالية وحشا منها شيئاً كثيراً بين أصابعه وفي سرته واستعمل منها شيئاً كثيراً في لحيته واخذ خرقة وطلا عليها ووضعها على رأسه ونعم عليها فحمي حمياً لم يحتج معه الى اكثر من قميصين .

* * *

قال وحدثني شيوخنا ان محمد بن سليمان بن علي الهاشمي كان في ضيعته التي يقال لها المحدثة خارج البصرة جالساً في مجلس على بستان وفي بعض زوايا البستان اجانة صيني كبيرة مملوءة غالية فدخل اليه قوم من العامة في حاجة لهم و كان احدهم خسيس الحال فلما رأى الغالية سرق منها شيئاً كثيراً اغترفه ملء كفه فوضعه على رأسه وأطبق عمامته عليه وأطال القوم الجلوس وهو معهم فلما قاموا قام معهم فلم يبصر فقال خذوا بيدي فقد عميت فاغتم محمد بن سليمان لذلك وجاء بطبيب في الحال وقال ما دهاك فلم يصدقه فامر

(١) لعله : المهربون بالبصرة لهم .

الطبيب بكشف رأسه فرأى الغالية فصب عليها الماء البارد حتى لم يبق لها أثر ثم طلاه بالصندل والماورد والكافور وأقامه في الهواء ساعة فعاد بصره الى حال الصحة وانصرف ٠

***

وحدثني قال حدثني ابو الحسن محمد بن اسحاق بن عباد النجار وهو شيخ من وجوه التمارين بالبصرة طال عمره وحدث وكتبت عنه ولم أسمع هذه الحكاية منه قال كان في جوارنا فلان فتصدق ليلة على ضرير اجتاز به وهو لايعرفه فأراد ان يفتح احد صرتين في كمه في احداهما ذهب وفي الاخرى دراهم فيعطيه درهمًا فأعطاه ديناراً وانصرف الضرير وهو لا يشك ان معه درهمًا فبكر به الى بقال يعامله فقال خذ هذا الدرهم واحسب مالك علي واعطني الباقي كذا وكذا فقال له البقال ياهذا من اين لك هذا قال أعطانيه البارحة فلان قال انه دينار فخذه فأخذه الضرير وجاء به من الغد الى الرجل وقال انك تصدقت عليّ بهذا وأظنك أردت ان تعطيني درهمًا وغلطت وما أستحل أخذه مغالطة فخذه فقال له الرجل قد وهبته لك واذا كان في رأس كل شهر فتعال اليّ أعطيك شيئًا آخر مجازاةً لامانتك وكان يجيئه في رأس كل شهر فيعطيه خمسة دراهم ٠ قال فلم أر أعجب من أمانة البقال والضرير والبقال (١) ولو كان في هذا الوقت لجرى ضد ذاك ٠

***

(١) لعله : زائد ٠

قال وقال لي ابن عباد وكان يقرأ بالسبعة فكنت أسمعه طول الليل يقرأ وكان فقيراً فاذا كان النهار خرج يتصدق(١) فاسمعه ينشد على الطريق الرقائق والزهديات لا أسمعه يتصدق بغيرهما فقلت له يوماً يا فلان انت تحفظ القرآن وأراك تتصدق بالرقائق فكيف لا تقرأ وتتصدق كما يفعل الاضرّاء فقال والله لاأعرّض القرآن للمسألة ابداً ·

* * *

حدثني ابو محمد قال حدثني السورجي شيخ كان يجاورنا مستور قال كانت لي امرأة صالحة فكنت اذا اشتريت لحماً لتطبخه لنا طبختْه وغرفتْه جميعه وجاءتني به وكنت أكولاً فكنت آكله جميعه وتجوع هي واولادها قلت لها ياهذه اذا طبخت شيئاً فاقسميه قسمين وجيئيني باحدهما ودعي الآخر لنفسك واولادك فقالت لا والله لا أفعل هذا بل أقدّمه اليك كله لتأكل أجوده فانك انت تُسأل عنه ·

* * *

أنشدني ابو الحسن بن ابي الليث لنفسه :

عصيت الهوى وأطعت العزولا وكنت كما قال فيّ الحسودُ
ومُلّكت رقك فهو المنى وبعتك للدين فيمن يزيد
لئن لم أكن أتمنى السقام لعلّي ألقاك فيمن يعود

(للبحث صلة)

---

(١) اي يطلب الصدقة ويستعمل في الاكثر في من يعطيها ·

آراء وافكار

—(١)—

كلمة مكان كلمة

« صَونة مكان شنطة (أو) — Sac-à-main »

سئلت عن كلمة عربية تقوم مقام (شنطة) وهي المحفظة الصغيرة من جلد تحملها المرأة بيدها وتضع فيها دراهمها وادوات زينتها وتسمى بالافرنسية (Sac-à-main) وفي اللغة العربية كلمات كثيرة تدل على الأوعية التي توعى فيها الاشياء . ومنها الكبير كالغرارة والجوالق والعدل والعِكم . ومنها الصغير الذي توعى فيه الثياب والامتعة اللطيفة الحجم . وهذا النوع منه ما هو خاص بامتعة المرأة وادواتها ومنه ماليس كذلك كالكيس والجراب والحقيبة والعيبة والخريطة والصوان والتخت والجُونة والسّلّة والصندوق والقمطر والكرز والخرج الى غير ذلك مما لا حاجة بنا الى شرحه وبيان ما يوضع فيه فنحن في هذه العجالة نستعرض كلمات الأوعية التي يفهم من كتب اللغة انها من أوعية النساء ثم نختار منها ما هو الأليق بالاستعمال مكان كلمة (شنطة) .

(القُفّة) أصل معناها القرعة اليابسة ثم سموا ما يتخذ من خوص النخل على شكل تلك القرعة قُفّة وتستعمله المرأة في وضع قطنها . ويريدون بقطنها القطن الذي تغزله . فليست القفّة إذن مما نحن فيه ولا سيما انها شاعت في لغة تخاطبنا بمعنى المكتل والزنبيل .

(المشيعة) بكسر الميم هو ايضاً وعاء تجعل فيه المرأة قطنها ونحوه .

(السفط) قالوا هو الذي يعبّى فيه الطيب وما اشبهه من ادوات النساء ولكنه ايضاً ليس مما يحسن ان يوضع موضع الشنطة لأن (السفط) يستعمل كثيراً في وعاء الجواهر وغيرها فهو من أوعية الصاغة والجوهرية والتجار ولم يعد مما يختص استعماله بالنساء .

(النمط) وعاء كالسفط وزاد بعضهم قوله (تجعل المرأة فيه ذخيرتها كالعِكم) وليس هذا ايضاً مما نحن فيه لأن المراد بذخيرة المرأة مؤونة بيتها لا أدوات زينتها لأنهم جعلوه كالعِكم والعِكم العدل .

(الحفش) بكسر الحاء وعاء تجعل فيه المرأة دهنها . والمراد بالدهن هنا ما كان نحو السمن والزيت او المراد به ما كان من قبيل الطيب فيكون من أوعية النساء .

(الظبية) أنثى الغزال ثم يتخذون من جلدها المكسو بالشعر جراباً يخبأون فيه الامتعة وقد جاء في الحديث الشريف (ان النبي صلى الله عليه وسلم أُهدي اليه ظبية فيها خرز فأعطى الآهل والعزب) والمراد بالآهل المتزوج . فيوشك ان تكون (الظبية) مما يستعمله النساء في وضع أشيائهن كالخرز . ومع هذا فلا يحسن ان تقوم مقام (شنطة) لأن عبارة اللغويين ليست صريحة في ان الظبية مما يستودع ادوات النساء . واذكر ان الحجاج قديماً اذا آبوا من الحج يكون معهم في جملة الهدايا أوعية صغيرة من جلد أحمر على شكل مخصوص يهدونها الى غلمان أهليهم يضعون فيها فلوسهم وكنا نسميها (ضبوة) بالضاد والواو ولعل (ضبوة) هذه محرفة عن كلمة (ظبية) المذكورة .

(المثبنة) كيس تتخذ فيه المرأة مرآتها والظاهر انه خاص بالمرآة يصونها من الصدإ والوسخ . ونحن نريد وعاء يُستودع المرآة وغيرها من ادوات زينة المرأة .

(الدُرْج) سفيط (تصغير سفط) صغير تدخر فيه المرأة طيبها ويظهر من هذا التفسير ايضاً ان الدرج خاص بالطيب .

(الطبْل) قالوا : طبل المرأة الذي فيه طيبها وحناؤها تتخذ فيه مواضع للقوارير بحواجز بينها . هذا ما قالوه في تفسير الطبل . وقولهم (بحواجز) يشعر أن هذا الوعاء كبير بحيث تكون فيه حواجز تحجز بيوته الصغيرة بعضها عن بعض . وكأنه على هيأة (الطبل) فسمي (طبلا) . وعبارة اللغويين صريحة في انه خاص الاستعمال بالنساء . ومع هذا لا أظن أن نساء اليوم يرتضين اختياره ليقوم مقام (الشنطة) أو المحفظة على أن في لفظه ابتذالاً وفي معناه اشتراكاً فانه أكثر ما يستعمل اليوم بمعنى طبل العرس او طبل الحرب .

(القشوَة) قُفَّة من خوص (أي جريد النخل) يجعل فيها مواضع للقوارير (اي صغار القناني) بحواجز بينها لعطر المرأة وقطنها وأدواتها . يقال (فلانة : اذا فتحت قشوتها

نفحت نشوتها) اي فاحت رائحتها الطيبة · وسميت (قشوة) من قشا العود اذا قشره وقشا العصا اذا أزال عنهـا لحاءها وفي حديث قيلة (ومعه عسيب نخلة مقشوّ) اي مقشور عنه خوصه · فقشوة المرأة تتخذ من عيدان أو جريد نخل مقشوّة اي مقشورة مخروتة ·

وقال الأزهري : القشوة هي شبه العتيدة المغشّاة بجلد وقال العلامة سليمان البستاني في تعليقاته على كتابه : (تعريب الالياذة) قشوة الطيب قفة من خوص تجعل المرأة فيها أدواتها وتحملها معها ، فقوله (وتحملها معها) زائد على ما قاله علماء اللغة · فلعله رأى هذه الزيادة في بعض ما لم نطلع عليه من كتب اللغة او الأدب · وقوله (تحملها معها) أي في السفر أو تحملها بيدها اذاخرجت من دارها الى زيارة صويحباتها كما يفعل نساء زماننـا · وهذا مما يجعلنا نفضّل استعمال كلمة (قشوة) على غيرها من الكلمات لتقوم مقام (شنطة) أو Sac-à-main وزدعلى ذلك ان اللغويين قالوا أن القشوة شبه العتيدة المغشّاة بجلد فتغشيتها بالجلد يجعل شبهاً بينها وبين محافظ النساء في هذا الزمان لان المحافظ من جلد عادة · ولكن لفظ (قشوة) ليس مما يستحب لديهن في ما أظن على ان (القشوة) في لغة الدماشقة يريدون بها علبة لطيفة تهيأ فيها لوازم النفساء ولوازم طفلها كالبودرة والقطن والكحل الخ · لذلك نضرب عن (القشوة) صفحاً ونعدل الى أختها وهي كلمة (العتيدة) ·

(العتيدة) طبل العرائس أعتدت اي هيأت لوضع ما تحتاج اليه العروس من طيب وأداة وبخور ومشط وغيره وقد مر الكلام على كلمة (الطبل) وانه الوعاء الذي تجعل المرأة فيه أدواتها وفي حديث ام سليم (ففتحت عتيدتها) وقد فسر ابن الأثير في نهايته كلمة (العتيدة) بقوله هي كالصندوق الصغير الذي تترك فيه المرأة مايعزّ عليها من متاعها اه ·

فالعتيدة نراها أقعد تلك الكلمات واجمعها لشروط الحسن واجدرها بالاستعمال · واذا لم تعجبهن (العتيدة) ولا اخواتها (القشوة) و(الطبل) و(الظبية) و(المثبنة) و (الدرج) فلدينا كلمة اخرى هي آخر سهم في الكنانة وهي كلمة :

(الصَّوْنة) يقولون وضعت العروس طيبها في (الصونة) · فلتصح عزيمتنا على اختيار هـذه الكلمة واستعمالها مكان (الشنطة) ولا سيما ان لفظ (الصونة) يذكّر بالصيانة حتى اذا حملتهـا احداهن في يدها وخرجت من دارها كانت نعم الصاحب لها تذكرها بالصون وتنبهها الى ما يحسن بها خارج بيتها من الأدب والحشمة عدا ما في (الصونة) من رشاقة

اللفظ وسهولته وكم من الفرق بينه وبين الشنطة . وبين (ساك آمين) الافرنسية التي نخشى ان تشيع بيننا وتغلب على السنتهن .

المغربي

مطبوعات حديثة

تهذيب تاريخ بن عساكر

« للشيخ عبد القادر بدران الدومي المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ وقف على طبعه السيد »
« احمد عبيد . الجزء السابع ص ٤٨٠ طبع في مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٥١ »

صدر هذا الجزء من هذا التاريخ المفيد وفيه صور من التراجم المطولة والمختصرة . والمؤرخ يتوخى كما يتوخى ابن الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد ان يترجم للمحدثين أو لمن نقلوا الحديث من الصحابة فمن بعدهم الى عصره وان كان لا يغفل الأدب والشعر والاخبار اذا كانت مما يغلب على مترجميه وممن ترجم لهم تراجم مطولة يستفاد من لغتها وأفكارها وأخبارها . وفيه من التراجم ترجمة الأحنف بن قيس . طارق بن زياد . طرماح بن حكيم . طلحة الخير . ابو الأسود الدؤلي . عامر الشعبي . ابو عبيدة بن الجراح . ابو الهيذام المري . العباس عم الرسول (ص) . ابو مسلم الخولاني . عبدالله بن رواحة . عبدالله بن الزبير . الى عشرات غيرهم ممن أطال المؤلف في الترجمة لهم أو اختصر . وكلهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من رجال الاسلام ممن استوطنوا دمشق أو دخلوها سائحين .

ويتألف من أحاديثهم وأخبارهم وأشعارهم وخطبهم وحكمهم وسمرهم وسيرهم كتاب في الأدب نفيس ، يعلم الفصاحة ويحيي فصحًا وشوارد جميلة في المنظوم والمنثور . وفي هذا الجزء أمور كثيرة ليس لها وجود في المتداول من كتب التراجم والسير والحوادث والآداب لاجرم انه سيتألف من مختصر ابن عساكر مجموع في هذا المعنى يغني عن المطولات المنوعة ، مما لا يتسع حال الزمان لاقتناء الناس له ، ولا لمطالعته مطالعة تدبر وتبصر . وباحياء

مثل هذه الأسفار في الحقيقة إحياء لجوانب كثيرة كانت غير متجلية تجلياً حقيقياً من مدنيتنا وتاريخنا . فالشكر للاستاذ ابن عبيد المعنى بمراجعة اصول هذا الكتاب الذي ابتلي كبعض مخطوطاتنا بجهل النساخ حتى حرفوه ومسخوا محاسنه . ومن قابل الابيات (ص٤٤٩—٤٥٧) الواردة في المتن بما صححها به مصححها الفاضل يتجلى له مقدار العناء الذي لاقاه في اثبات الصحيح من الألفاظ حتى تفهم المعاني ، واذا وقعت له مظان أخرى فتوقف فيها ، فعذره انه لم يقع على غير نسخة واحدة محرفة . ولعل الايام لاتضن على هذا السفر المحترم بايجاد نسخه المبعثرة في البلدان لتصحيح ماسقم منه بطول الايام وجهل الايدي التي تعاوته .

م . ك

رسول الوحدة

«أوالوحدات الخمس»

يقوم إخواننا مسلمو الهند في هذه الايام بنهضة دينية ثابتة القدم . متسعة النطاق . وقد جعلوا للغة العربية نصيباً مفروضاً من نهضتهم هذه كما اشرنا الى ذلك في مكان آخر من مجلد هذه السنة . ومن مساعيهم الحسنة انهم سموا يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم — (يوم النبي) ولم يقتصروا فيه على قراءة قصة المولد المشهورة التي اصبحت على تمادي الأيام ضعيفة التأثير في نفوس المسلمين بل أخذوا على أنفسهم استكتاب الفضلاء محاضرات في حياة النبي (ص) وسيرته وحقائق شريعته ثم يترجمون تلك المحاضرات الى اللغات المختلفة وينشرونها في العالم . قالوا :

ولقد كان من نتيجة المساعي التي بذلت في السنوات الثلاث الماضية أن أقيم في مئات من المدن مراكز لإشاعة (الحياة النبوية) وقد ترجمت الحياة الى (١٧) لغة وأقيم في مختلف جهات العالم خمسون الف احتفال ووزع مايزيد على سبعمائة الف كتاب في (الحياة النبوية) بين المسلمين وغير المسلمين مجاناً . وقد أرسل الاعلان الأساسي لهذه الفكرة — الى ٢٨٥ صحيفة لنشره حيث يعم من (كاليفورنيا) الى سواحل الصين اهـ .

ومن هذه المحاضرات التي ألقيت في (يوم النبي) محاضرة بليغة بعنوان (رسول الوحدة) القاها زعيم الاصلاحيين في بلاد الهند مولانا الاستاذ (سليمان الندوي) ولعله القاها باللغة

الاوردية فترجمها مولانا (احسان ساميحقي) الى اللغة العربية وقد أرسلت الى مجمعنا نسخة من هذه المحاضرة فاذا هي تتضمن ستة أبحاث في الوحدات الخمس (١) وحدة الالوهة (٢) وحدة الرسالة (٣) وحدة الكتاب السماوي (٤) وحدة الانسانية (٥) وحدة الدنيا والدين . فكان المحاضر يشرح كيف أنه صلى الله عليه وسلم علّم بهذه (الوحدات) ثم يقارن بين تعاليمه فيها وبين تعاليم الاديان الأخرى ويبين أفضلية التعليم المحمدي وفائدته للبشر وإصلاح حالهم . وفي المحاضرة فوائد تشرح لنا عقائد أديان الهند وتعاليم أنبيائهم . ويظهر من كلام مولانا سليمان الندوي أنه يعتبر سقراط وزرادشت وبودا وكونفوشيوس وامثالهم من الانبياء الصادقين الذين لم تذكر اسماؤهم في القرآن . وذكر أن فرقة من فرق الهندوس الوثنيين تعتقد بثلاثمائة وثلاثين مليون من الآلهة وهذا أكبر عدد في تعدد الآلهة كما ان عقيدة (ماني) القائلة بالالآهين أقل عدد . وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم فعلّم بالتوحيد المحض وقد أدرك المعددون خطأهم فأخذوا في إصلاحه : فقد قام في القرن الرابع عشر للميلاد المصلح (رامانندسنياسي) فدعا الى توحيد الاله وذهب الى ان مذاهب العالم كلها مستمدة من نبع واحد . وقام بعده في القرن الخامس عشر المصلح (كبير) فقضى على عبادة الأوثان وحاول ان يدمج الوثنيين بالمسلمين الموحدين . قال (وهكذا يظهر ان مذهب السيخ كان وُضع اساسه في ابتداء أمره بناء على هذه النظرية) يعني نظرية التوحيد . أما المصلح (كبير) هذا فهو رجل حائك ألّف فرقة موحدة وقد انقرضت فرقته . ولا يزال بعض كتبه التي ألّفها متداولاً في أيدي الناس وأكثرها شعر . وأما مذهب (السيخ) فصاحبه (باباناناك) البنجابي ومذهبه كان أقرب الى الاسلام منه الى الهندوسية غير ان اتباعه عادوا فابتعدوا عن الاسلام واقتربوا من الهندوسية ولهم كتاب مُقدس وعددهم نحو ثلاثة ملايين ونصف ومسكنهم البنجاب . وكلمة (سيخ) تكتب في اللغة الهندية هكذا (سيكهه) وتلفظ بكسر السين والياء وإسكان الكاف والهاء المدغمتين . وذكر المحاضر الفاضل ان الاسلام علّم بوحدة الانسانية بينما الوثنية تفرق هذه الوحدة فتجعل الانسان طبقات مختلفة طبقة خُلقت من (فم الاله) وأخرى من (يديه) وثالثة من (رجليه) وهلم جرا . وذكر المحاضر في بحث وحدة الرسالة ان الاسلام علّم بوجوب الايمان بالرسل وأبطل ما كان عليه اليهود من تكذيبهم لعيسى وما كانت عليه قريش إذ (كانت تكره

حتى استماع اسمه) اي اسم عيسى ؟ ؟ الى غير ذلك من الفوائد التي تضمنتها تلك المحاضرة النفيسة فالشكر لصاحبها ٠

المغربي

ثلاث رسائل
« في علم مصطلح الحديث »

علم مصطلح الحديث اوعلم اصول الحديث من العلوم الجليلة التي يتوقف عليها الاجتهاد او التشريع في الاسلام ومن ثم تعددت التآليف في هذا الفن وطبع منها الشيء الكثير وبقي الشيء الأكثر مدفوناً في مطامير الخفاء تنتظر ارباب الجد والحرص على نشر العلم فينشرونها من مدافنها ويثيرونها من مكامنها ٠ من ارباب الجد هؤلاء الأستاذ الشيخ راغب الطباخ عضو المجمع العلمي العربي في حلب فأنه لايألو جهداً في التنقيب عن نفائس الكتب وطبعها ونشرها ٠ من ذلك ثلاث رسائل في علم المصطلح عثر عليها في بعض المجاميع المخطوطة المحفوظة في مكتبة التكية الاخلاصية وبعد ان عارضها بثلاث رسائل من جنسها محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق طبعها في كتاب واحد تبلغ صفحاته نحو ثمانين صفحة حسنة الطبع والضبط والتصحيح والتعليق ٠

وأولى تلك الرسائل (تذكرة الطالب المعلم ٠ بمن يقال انه مخضرم) وهؤلاء المخضرمون من رواة الحديث بلغ عددهم اثنين واربعين رجلاً والخضرمة في مصطلح الحديث ان يتردد الراوي بين طبقتين من طبقات الرواة بحيث لايدري من ايتهما هو :

والرسالة الثانية (التبيين لأسماء المدلسين) والراوي المدلس هو الذي يروي الحديث ولا يسمي من حدثه به أو يوهم أنه سمعه من محدث ولا يكون ذلك المحدث حدثه به في الواقع ونفس الأمر ٠ والتدليس انواع مبسوطة ومبينة في هذه الرسالة وسواها ٠

والرسالة الثالثة (الاغتباط بمن رمي بالاختلاط) هذه الرسالة تكشف لنا عن اسماء رواة الحديث وطائفة الذين اصيبوا في آخر عمرهم بالخرف أوالعته فتقع الشبهة في الأحاديث التي رووها : هل رووها في حالة سلامتهم اوفي حال عتههم ٠ والرسائل الثلاث تأليف الحافظ

برهان الدين ابي اسحق ابراهيم بن محمد بن خليل السبط بن العجمي المحدث بالمدرسة الأشرفية بحلب المتوفى سنة ٨٤١ هـ · المغربي

المسك الأزفر

« تأليف السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي رحمه الله »

سوق العلم لا تزال كاسدة في بلادنا على الرغم من النهضة المباركة التي نراها اليوم في الشبيبة السورية لان الأكثرين انما يطلبون العلوم الفنية كالطب والصيدلة والحقوق من أجل تأمين مستقبلهم وكسب رزقهم من هذه الأبواب · ومن حصل لغةً قبل ذلك فلنيل الشهادة المدرسية التي تمكنه من دخول مدارس العلوم الفنية ·

قليلٌ اليوم من يهتم بالعلم من اجل العلم · واقل منهم من يُعنى بتدوين تراجم العلماء المحدثين مع أن تراجم العلماء الاقدمين كُتُبها أكثر من ان تُعدّ · ذلك لان جامع مثل هذه الكتب لا يبيع منها بما يستعيض به نفقة الطبع فضلاً عن الربح · وهذا من جملة براهين كساد العلم الذي لا يدرّ لصاحبه كسباً مادياً ·

سدّ السيد نعمان الاعظمي ببغداد قطعةً ولو صغيرة من الثلمة الكبيرة ، بطبعه على نفقته كتاب « المسك الأزفر » للمرحوم السيد محمود شكري الآلوسي المتضمن تراجم علماء بغداد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر · وقد أُهدي الى مكتبة المجمع العلمي الجزء الاول منه وهو مصدّرٌ بتراجم العلماء من البيت الآلوسي وهو بيتٌ اشتهر بالفضل والصلاح ، ومن هؤلاء بعضهم رقدوا في رحمة ربهم وبعضهم احياءٌ يرزقون ، ولا غرابة في هذا التصدير فالمؤلف من هذا البيت · تلا ذلك تراجم عدد ممن اشتهروا بالعلم في بغداد ، ويتخلل كلّ ترجمة شيءٌ من شعر المترجم ·

عبد الله رعد
عضو المجمع العلمي

نصوص قبري توتموزيس الثالث وامنوفيس الثاني

« للمسيو بوشير — الجزء الاول عدد صفحاته ٢٢٢ مع ٤٢ لوحة رسوم »
« طبع القاهرة سنة ١٩٣٢ »

Paul Bucher - Les textes des tombes de Thoutmosis III et d' Aménophis II . Tome premier , 222 pages et 42 planches . Le Caire 1932 .

نشرت هذه الوثائق في الجزء الستين من مجلة المعهد الافرنسي للآثار الشرقية في القاهرة وفي الجزء الاول مجموعة الهروغليفية المدونة على جدران قبري الفرعون توتموزيس الثالث والفرعون امنوفيس الثاني اللذين اكتشفهما المسيو لوري (Loret) وقد شفع هذه النصوص برسوم واضحة يمكن منهـا التثبت من صحة حل رموزها ، وموضوع هذه الوثائق ديني يتعلق بطقوس الموتى .

جعفر الحسني



الكلمة الاخيرة

في الكلمات غير القاموسية

— او فتاوى علماء اللغة المعاصرين في أصنافها السبعة —

« تمهيد الطريق أمام المعجم العتيد »

— ٢ —

« الصنف الخامس »

المعرب أو الكلمات المولدة بالتعريب وهي التي يكون أصلها أعجمياً فيستعمله العرب بعد تغييره تغييراً قليلاً أو كثيراً ويندر ان يبقوه على حالته . ومنه الخفيف على اللسان نحو كلمة (فلم) شريط السينما . ومنه الثقيل نحو كلمة (اوتوموبيل) و (برصوناليته) .

فهل هذه الكلمات المعربة مما يجوز قبوله واستعماله وتدوينه او لا ؟

فاجاب الاساتذة :

(١) — الرصافي « مجلد ٨ ص ٣٢ » (نأخذ منه ما تقرر باستعمال العامة اياه بعد صقله وتحويره إن كان فيه تنافر او ثقل او خشونة) .

(٢) — الغلاييني « مجلد ٨ص٣٥٩ » (أرى استعمال المعرّب : كالمناورة ..... واللفظ الاعجمي إن امكننا ايجاد لفظ عربي له فذاك والا عربناه) .

(٣) — نقولا فياض « مجلد ٨ ص٥٦٠ » (ان الألفاظ الشائعة الدخيلة لا بأس بها اذا لم نجد ماينوب منابها) ثم اشار باستعمال الكلمات الاعجمية الخفيفة نحو (بالون) وترجمة ما كان ثقيلاً نحو (برصوناليته) فنقول مكانها (ذاتية) ثم قال (وكما اطلب أن تدخل في اللغة ألفاظ ليست منها فاني اطلب ان تحذف الفاظ وضعت لعهد مضى الخ) .

(٤) — الاسكندري « مجلد ٨ ص ١٠٤ » القول الفصل عنده في هذا الصنف أن الكلمات الألف التي عربتها الجاهلية واهل القرون الاسلامية الثلاثة تعد عربية . وان ما سواها من الكلمات التي عربها غير هؤلاء الى زمننا الحاضر فهو عامي . واستعماله لحن . وقبوله خرق للقواعد .

(٥) — النشاشيبي « مجلد ٨ ص ٢٨٥ » (الالفاظ المعربة في الازمنة الكريمة يجب ان تودع المعجم العربي وتعد عربية محضة) وقوله (الازمنة الكريمة) يشعر بانه يشترط في قبول (المعرب) ما اشترطه الاستاذ الاسكندري اعني ان يكون مما عرب في العصر الجاهلي او العصور الاسلامية الاولى .

(٦) — محمد الخضر « مجلد ٨ ص ٤١٠ » (يجب على المجمع العلمي ان يضع الفاظاً عربية للمعاني الحديثة . . . ولا نعده مضطراً الى اباحة استعمال الكلمات الاعجمية الا اذا لم يجد في نفس اللغة العربية ما يغني غناءها) .

(٧) — الزهاوي « مجلد ٨ ص ٦٨٦ » (نقبل كل دخيل (يعني به المعرب) بعد تخفيف الثقيل منه بصقله وارجاعه الى الاوزان العربية وتبديل بعض حروفه كما تقتضيه قواعد التعريب : فنقبل اليوم الاكسجين والتلسكوب والسينما والبترول كما قبل اجدادنا قبل اليوم الاسطقس والهيولى والاسفنج والاسطرلاب) .

(٨) — احمد رضا « مجلد ٩ ص ٥٨ » (التعريب مفتوح الباب في اللغة . . والكلمة الاعجمية ان كانت خفيفة استعملت على حالتها كما استعمل العرب (لجام) الاعجمية وان كانت ثقيلة هذبت وأُرجعت الى اوزان العرب) .

(٩) — قسطاكي حمصي « مجلد ٩ ص١٧٦ » (هناك الفاظ كثيرة اعجمية لا يأباها قانون الوضع عندنا لخفة لفظها) ثم اشار على المجمع باعلان امثال هذه الالفاظ كي تستعمل وتشيع وتضم في سلك اللفظ العربي وتغتني بها اللغة العربية وهذا اذا لم يمكن وضع لفظ عربي يقوم مقامها كما وضعوا السيارة للاتوموبيل والمنطاد للبالون .

(١٠) — سليمان ضاهر « مجلد ٩ ص ٤٨٤ » (اقول بجواز استعمال ما خف لفظه على السمع مثل (فلم) و (بالون) ان اقتضت الضروزة وتعذر وضع ما يؤدي مؤداه من الفاظ اللغة العربية) .

(١١) — عيسى المعلوف « مجلد ٩ ص ٣٥٥ » أشار اولا بلزوم وضع كلمات عربية في مقابل الكلمات الاعجمية بحيث تشترك معهـا ولو ببعض الوجوه ثم قال : (واذا لم نجد مايناسب اللفظ الاعجمي وكان هذا الاعجمي خفيفاً وصيغته تناسب الصيغة العربية فلا بأس بابقائه على اصله) ·

(١٢) — الكرملي « مجلد ٨ ص ١٠٢ » خلاصة جوابه ان الكلمات الاعجمية اذا كانت ثقيلة وجب ان تفرغ في الاوزان العربية حتى تخف على اللسان اما اذا كانت خفيفة مثل (فلم) (بالون) (مناورة) وجب قبولها ولو كان في لساننا ما يقوم مقامها ثم ضرب لذلك مثلاً اجدادنا العرب فانهم كانوا يستعملون الكلمة الاعجمية مع وجود عربية تقوم مقامها ولا سيما اذا كانت العربيـة ثقيلة فالفيل كان العرب يسمونه (العيثوم) (الكلثوم) (الدغفل) (العقرطل) (ابو مزاحم) الخ لكنهم لما سمعوا الفُرس يقولون « الفيل » تركوا كلماتهم واكتفوا بكلمة (الفيل) (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) ·

(١٣) — احمد امين « مجلد ٨ ص ٣٥ » اجاب بما حاصله : ان الكلمة الاعجمية اذا كان مسماها امراً معنوياً مثل (Idéal) وجبت ترجمتها الى العربية وان كان مسماها أمراً مادياً مثل كلمة (فونوغراف) وتعذرت ترجمتها الى العربية قبلت بعد صقلها وتهذيب خشونتها · ويستفاد من كلامه انه يعتبر ما تفعله العامة في صقل الكلمات الاعجمية وتهذيبها وقد قال في هذا الصدد (هؤلاء عامتنا استثقلوا كلمة (سينماتوغراف) فسموها (سينما) وكذلك يفعلون في كثير من الكلمات) ·

(١٤) — النكدي « مجلد ٨ ص ٥٩٧ » (اللغة مجموع الفاظ يعبر بهـا عن المعاني فهل يعقل ان نقف عاجزين أمام بعض المستحدثات الجديدة والمعـاني العصرية : لا نعرف لها اسماً · ولا نوجد لها لفظاً · ونمنع الناس ان يستعملوا اللفظ الاجنبي لها ؟ !) كلا لا يعقل بل يجب ان نقبل المعرب· ثم يفهم من فحوى بقية كلامه انه يشترط لقبول الكلمة المعربة ان لا يوجد في اللغة العربية ما ينوب منابها ·

(١٥) — كامل الغزي « مجلد ٨ ص ٤٨٠ » قال ما ملخصه : ان كان للفظ الاعجمي مرادف في لغتنا العربية استعملنـا المرادف والا استعملنا اللفظ الاعجمي بصيغته الاعجمية

ان كان خفيفاً نحو (كيلو · سنتيم · فرنك) وان كان ثقيلاً حولناه الى صيغة عربية فنقول (طن) في (طونولاته) و (تنبيل) في (اوتوموبيل) هذا اذا لم نترجم (طن) بقنطار و (اتوموبيل) بسيارة ·

(١٦) — الجابري « مجلد ٨ ص ٣٦١ » اطال في الجواب عن الكلمات المعربة بما يدل على قبوله بل تعصبه لها ودفاعه عنها كلها حتى الثقيل منها الذي عربه المعاصرون ومما قاله في هذا الصدد (فاسماء المخترعات الحديثة مثل التلغراف والتلفون والاوتوموبيل ليس قلبها الى اسماء أخرى قائلين (برق · هاتف · سيارة) إلاّ من التعصب البارد بل يكون من قبيل اغتصاب ما ليس لنا ··· على ان دخول تلك الاسماء في لغتنا لا يمس كيانها ولا شرفها مهما كثرت بل تزداد لغتنا رونقاً بموافقتها للغات اصحاب تلك المخترعات الخ) ·

(١٧) — ادور مرقص « مجلد ٨ ص ٧٤٠ » اطنب في اظهار حرصه على سلامة اللغة العربية وذهب الى ان قبول الكلمات الاعجمية يفسد اللغة تدريجاً فهو يرى وجوب الاستغناء عنها مطلقاً خفيفة او ثقيلة ما دام في لغتنا متسع فاذا لم نجد متسعاً واحتجنا الى لفظ اعجمي (فلا بأس ان ننقله والاحسن ان لا ننقله الا معرباً اي مهذباً حسب الاوزان العربية) فيفهم من هذا تجويزه للمعرب بشرط حاجتنا اليه وبشرط طبعه بالطابع العربي ·

(١٨) — رشيد بقدونس « مجلد ٩ ص ١٠٣ » (تردّ كل كلمة أعجمية لم يستعملها العرب · وليس لنا ان نقيس أنفسنا على اجدادنا الذين عربوا كلمات اعجمية : فالجاهلية لم يعربوا عن قصد ··· والاسلاميون ما لبثوا (بعد ما عربوا كلمات اعجمية) ان استبدلوا بها أخرى عربية محضة) ثم وصف الطريقة التي يجب ان نسلكها في تدوين الاصطلاحات العربية القديمة لنستغني بها عن الاصطلاحات الاعجمية الحديثة وان الواجب علينا اليوم ان نترجم الى لغتنا ما استجد من الاصطلاحات ثم قال : (واذا عجزنا عن ترجمتها فاني اذهب الى أبعد من ذلك فاخترع كلمة مهملة من احرف عربية ثلاثية او رباعية او خماسية او سداسية موافقة للأوزان العربية وأضعها لذلك المعنى وانشرها ولا استعمل كلمةً اجنبية مهما كانت قيمتها اه) ·

انتهت الاجوبة عن صنف الكلمات المعربة · وهذا الصنف هو بيت القصيد من الاقتراح · وقد كانت اكثرية الآراء في جانب قبول تلك الكلمات ·

ومن مواضع العجب في اجوبة الاساتذة أن احدهم وهو (العلامة الجابري) أفرط في التفاؤل بالكلمات الاعجمية : فهو يستحسن بل يرى من الحق ان نستعمل كلمة (تلغراف لا برق) (وتلفون لا هاتف) (واوتوموبيل لا سيارة) بينما (الاستاذ بقدونس) يفرط كل الافراط بالتشاؤم بالكلمات الاعجمية حتى ما كان خفيفاً منها فكلمة (فلم) مثلاً يخترع كلمة جديدة ولو بان يقلب كلمة (فلم) فيقول (ملف) وهو لفظ مهمل في اللغة العربية لتدل على شريط السينما ولا يقول (فلم) . وبين الاستاذين ستة عشر استاذاً توسطوا فاجازوا المعرب بالشروط المعتبرة عند معظم علماء اللغة المتقدمين .

* * *

« الصنف السادس »

أساليب او تراكيب ذات معان اعجمية الاصل وقد تسربت الى لغتنا العربية مترجمة عن اللغات الاجنبية ولا عهد للعرب الاقدمين بها وهذا كقولهم (ذر الرماد في العيون) (عاش ستة عشر ربيعاً) (وضع المسألة على بساط البحث) (ساد الامن في البلاد) في نظير ذلك . فهل امثال هذه التراكيب يقبل في لغتنا ويستعمل ويدوّن او لا ؟

فاجاب الاساتذة :

(١ً) — احمد امين « مجلد ٨ ص٣٥ » (أوافق كل الموافقة على ادخال هذا الصنف في لغتنا) .

(٢ً) — رشيد بقدونس « مجلد ٩ ص ١٠٣ » (هذا الصنف يقبل) .

(٣ً) — احمد رضا « مجلد ٩ ص٥٨ » (لاغبار على تلك الاساليب ولا بأس في استعمالها)

(٤ً) — الرصافي « مجلد ٨ ص ٣٢ » (هب مفردات اللغة موقوفة على السماع ولكن من ذا الذي ادعى ان التراكيب بما فيها من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية موقوفة هي ايضاً على السماع ؟)

(٥ً) — الزهاوي « مجلد ٨ ص ٦٨٦ » (لا احسب في هذا الصنف ما يدفع الى الاستفتاء عنه والا اغلقنا باب المجاز والتشبيه وهما من محاسن اللغة) .

(٦ً) — الغلاييني « مجلد ٨ ص ٣٥٩ » (ما لا يضر بأساليب العربية من الاساليب

والتراكيب الاعجمية جاز استعماله) .

(٧) — سليمان ضاهر « مجلد ٩ ص ٤٨٤ » (لا مجال للتردد في جواز استعمال هذه التراكيب والأساليب الأعجمية اذا كانت جارية مجرى التراكيب والاساليب العربية) .

(٨) — نقولا فياض « مجلد ٨ ص ٥٦٠ » لم يُجِب على هذا الصنف بخصوصه لكن يعلم قبوله له من جوابه على الكلمات (الاصطلاحية والمولدة والمعربة) فانه أجازها كلها . وهو بالطبع يجيز الاساليب الافرنجية ومثله في ذوقه الانشائي لابد ان يشترط موافقة تلك الاساليب للأذواق السليمة ولقواعد اللغة القويمة كما اشترط غيره .

(٩) — الجابري « مجلد ٨ ص ٣٦١ » لم يتعرض الأستاذ لهذا الصنف ايضاً ولعله رآه واضحاً لا يحتاج الى جواب ولا سيما ان الأستاذ أجاز تعريب الكلمات الاعجمية وفتح لها الباب على مصراعيه فكيف لا يسمح للاساليب الافرنجية بالدخول . وهي أحق منها بالترحيب والقبول ؟

(١٠) — النكدي « مجلد ٨ ص ٥٩٧ » (ليس في العرب من ينكر تعبيراً او تركيباً لا يخالف المناحي العربية والا لامتنع المجاز والكناية والاستعارة) فالأستاذ النكدي يشترط ما اشترط المجيبون الاولون من وجوب موافقة الاساليب الافرنجية للاساليب العربية . وزاد تلك الموافقة ايضاحاً وبياناً المجيبون التالون :

(١١) — الكرملي « مجلد ٨ ص ١٠٢ » قال ما مخوله : ارحب بالاساليب التي تضمنت «خواطر افرنجية » كالأمثلة المذكورة بشرط ان يكون تركيبها عربياً لا خلل فيه . والا بان تقدم فيه المضاف اليه على المضاف مثلاً كما في اللغتين الفارسية والانكليزية فهذا اكرهه ولا أوافق عليه .

(١٢) — النشاشيبي « مجلد ٨ ص ٢٨٥ » لم يُجِب الأستاذ النشاشيبي على هذا الصنف بخصومه وانما قال (فرض علينا اليوم نبذ كل تركيب غير عربي يلتبس فيه معنى الكاتب ولكل لسان أسلوب ، والتسامح في هذا الشأن هو الهلاك) فهو قد اشترط في قبول الاسلوب الافرنجي ما اشترطه الاستاذ الكرملي من كونه مطابقاً في التركيب للقواعد العربية كي يسلم المعنى من اللبس .

(١٣) — الاسكندري « مجلد ٨ ص ١٠٤ » وجواب هذا الاستاذ ايضاً بتلخص الاشتراط فيه بما قلناه في جواب الأستاذين السابقين الكرملي والنشاشيبي .

(١٤) — قسطاكي حمصي « مجلد ٩ ص ١٧٦ » لا غبار على أساليب هذا الصنف ما لم تكن عامية مبتذلة . وهذا الابتذال الذي اشار اليه الاستاذ المجيب أوضحه المجيبون التالون بالأمثلة والشواهد :

(١٥) — محمد الخضر « مجلد ٨ ص ٤١٠ » (لا نعلم وجهاً للنفور من استعمال هذا الصنف ما دام التركيب موافقاً للنُظُم المألوفة في علم النحو ... الا ان يكون شيئاً تنبو عنه الاذواق السليمة) وماتنبو عنه الاذواق السليمة هو العامي المبتذل الذي حذر منه الاستاذ حمصي .

(١٦) — كامل الغزي « مجلد ٨ ص ٤٨٠ » هذه التراكيب والاساليب وما ماثلها لا ارتاب في جواز استعمالها ... لان المركبات الاسنادية لا يتوقف استعمالها على النقل عن العرب كالمفردات ... على شرط ان تكون مما افاضته قريحة سليمة لاسقيمة يقول صاحبها (هذه عصارة عقلي) وربما قال (عصارة دماغي) اه .

(١٧) — عيسى المعلوف « مجلد ٩ ص ٣٥٥ » (اذا كان لهذه الاساليب المترجمة مايقابلها في اللغة العربية الفصحى فالاولى استعمالها وان لم يكن في لغتنا مايقابلها وكانت قريبة من اذواقنا قبلناها ايضاً) ثم مثَّل الاستاذ للاساليب الافرنجية التي لاتلائم اذواقنا بقول (فكتور هيكو) : (اجراس كثيرة تقرع كلها كأنها أتون من الموسيقى) وبقول الآخر (جليد المرآة) يريد زجاجها وبقول (وشنطن ايرفن) في مطالع يقرأ الكتب ويثني اطراف اوراقها ليرجع اليها عند اللزوم قال : (إن كتبه كلها آذان كلاب) ويقول الانكليز في وصف الرجل الذي يعكف على مطالعة الكتب « هو دودة كتب » وبقولهم في وصف أزرار الازهار في براعمها « نامت في سريرها الشتائي » فالاستاذ المعلوف يرى عدم قبول هذه الاساليب المترجمة لانها بعيدة عن الاذواق العربية .

(١٨) — ادور مرقص « مجلد ٨ ص ٧٤٠ » (هذا الصنف مرجعه الى المجاز وباب المجاز لاحرج علينا في التوسع فيه بعد المحافظة على وضوحه وملابسته لمعيشة الناطقين به وعاداتهم واذواقهم) ثم قال : ان من المجازات الافرنجية ما لا تنكره اذواقنا فالواجب

قبوله ومنها ما تنكره اذواقنا فالواجب رفضه • ثم مثل للواجب الرفض بقولهم :
(طلب فلان يد فلان) ونحن نقول (خطبها) وقولهم (قذف آخر خرطوشة لديه) ونحن نقول (رمى آخر سهم في كنانتــه) وقولهم (ضحك ضحكة صفراء) ونحن نقول (تكلف الضحك) اهـ •

فالاساتذة « الخضر والغزي والمعلوف ومرقص » جعلوا الاساس في قبول هــذا الصنف ان يكون ملائماً لاذواقنا العربيــة وكل منهم مثل لغير الملائم بأمثلة ان لم تلائم ذوقه هو ربما لاءمت ذوق غيره • على ان تحكيم الذوق الخاص وتمييز الملائم من غير الملائم — امر من الصعوبة بمكان : وذلك لاختلاف الاذواق والمشارب ولتباين استعداد الناس في « الحس اللغوي » وهذا هو في الحقيقة مبعث تشتتنا وتفرقنا ووهن عزائمنا دون الاصلاح الواجب للغتنا • وأرى ان التندي بالاساتذة فاذكر بعض ما لا يلائم ذوقي من الاساليب الاعجمية المترجمة :

« تعذيب الضمير • ومعذب الضمير • وضميري يعذبني » « بكى بكاءً مراً » (هناك البكا وصرير الاسنان) (واقول انا في دوري) (المسـألة الفلانية قيد البحث) (اعتنق فلان الدين الفلاني) (مبارك هو الرب) (يحرق البخور امام فلان) (فلان ضحى فلاناً على مذبح اغراضه) (يشتغل في حقل الوطنية) (صب عليــه جام غضبه) • وفي آخر كتاب تلقيته من الامير شكيب يقول :

قولهم « العمل الذي عمله فلان ضد فلان» او « لم يزل يحرك ضده » او « كان دائماً يشتغل ضده » لم اجد هذا التركيب في الكتب القديمة افلا يكون ركيكاً ؟

انتهت الاجوبة على الصنف السادس وهي متفقة على قبوله بل ذهب بعض الاساتذه الى ان قبوله يكاد يكون مدركاً بالبداهة وما كان ينبغي ذكره بين الاصناف المبحوث عنها • غير ان بعضهم لاحظ مالاحظناه من وجوب الاحتياط والتحفظ في قبول الاساليب المترجمة فاشترط ان لا يكون في لغتنا الفصحى ما يقابلها وان لاتكون مخالفة في تركيبها لقواعدنا وان لا تكون نابية عن اذواقنا •

والحاصل ان هذا الصنف مقبول • مع شيء من التحفظ المعقول •

* * *

« الصنف السابع »

العامي : وهو الكلمات التي تدور على افواه العامة ولا يستعملها الفصحاء بل يتحاشون النطق بهــا : مثل (بَدّي اذهب)(جيب الكتاب) (تعربش على الشجرة) (تحركش بفلان) ·

فهل يجوز استعمال كلمات هذا الصنف وتدوينها في المعجم او لا ؟

فأجاب الاساتذة :

(١) — قسطاكي حمصي — حلب « مجلد٩ ص ١٧٦ » (هــذا الصنف مرذول مردود)·

(٢) — احمد رضا — جبل عامل « مجلد ٩ ص ٥٨ » هذا الصنف لا يصح استعماله وهو هتك لحرمة اللغة)·

(٣) — ادور مرقص « مجلد ٨ ص ٧٤٠ » (لا اظن اديباً عربياً يخالف في خطر استعمال الكلمات العامية) ·

(٤) — النشاشيبي « مجلد٨ ص ٢٨٥» (الالفاظ المولدة في العصور السخيفة والالفاظ العامية نبذها فرض) ·

(٥) — الغلاييني « مجلد ٨ ص ٣٥٩ » (لا ارى احداً يغــار على لغته يقول بجواز استعمال هذا الصنف) ·

(٦) — محمد الخضر « مجلد ٨ ص ٤١٠ » (الكلمات العــامية من امراض اللغة التي يجب ان نحمي السنتنا واقلامنا من ان تحوم حولها) ·

(٧) — الاسكندري « مجلد ٨ ص ١٠٤ » (الكلمات المولدة التي لا يستعملها احد من الفصحاء لا يجوز استعمالها) ·

(٨) — الكدي « مجلد ٨ ص ٥٩٧ » أجاب بما يفيد شدة احتقاره للعــامي وانه ما كان ينبغي ذكره في الاقتراح وانما ندعه لاولئك الذين يريدون إماتة لغتهم باحيــاء عاميها ·

(٩) — احمد امين « مجلد٨ ص٣٥ » لم يطلق القول في رفض العامي اطلاقاً كما فعل

من اجاب قبله وانما هو قسم الكلمات العامية الى مايصح الانتفاع به في الاستعمال مثل كلمتي (جَزْمة) و(عَرَبة) والى مالا يصح مثل « ماعليهش » وقال ان هذا القسم الاخير يرفض رفضاً باتاً وقد حذا حذوه في هذا التقسيم الاساتذة التالون :

(١٠) — الجابري « مجلد ٨ ص ٣٦١ » (واما الألفاظ العامية فالمحرف والمصحف منها والمشتق على غير قاعدة الاشتقاق العربي — لاينبغي أن يرتضى) .

(١١) — كامل الغزي « مجلد ٨ ص ٤٨٠ » قال ماحاصله (اللفظ العامي المجهول الاصل او الذي اصله اعجمي : ان كان له مرادف في اللغة أُهمل والا استعمل . واما اللفظ العامي المحرف عن اصلٍ عربي فانه يهمل ويستبدل به اصله العربي) .

(١٢) — عيسى المعلوف « مجلد ٩ ص ٣٥٥ » العامي الفصيح من اصله ووضعه يبقى على حالته . وغيره يرد الى اصله اوبوضع له مايناسبه) عبارته هذه تزداد وضوحاً وتفسيراً بعبارته الاخرى الواردة في مقدمة الجواب وهي (اعتنيت بجمع اللغة العامية . . . ورددت ماامكن رده الى اصله ووضعت لما ليس له كلمة عامية فصيحة مايقابله من الفصحى اه) فرأيه اذن في الكلمة العامية ان تصحح ويقوّم اعوجاجها . وان تعذر ذلك استبدل بها كلمة فصيحة .

(١٣) — سليمان ضاهر « مجلد ٩ ص ٤٨٤ » (هذا الصنف ممنوع البتة الا اذ كان له اصل فصيح يمكن ارجاعه اليه) .

(١٤) — نقولا فياض « مجلد ٨ ص ٥٦٠ » لم يصرح برأيه بخصوص هذا الصنف وانما قال (ان الالفاظ الشائعة الدخيلة لابأس بها اذا لم نجد ماينوب منابها) وقوله هذا عممناه فجعلناه يشمل الصنفين السابقين (المولد) و (المعرب) وكذلك هو يشمل بظاهره الكلمات العامية فهي مقبولة عنده اذا لم يكن في اللغة ماينوب منابها واذ ذاك نكون في احاجة اليها .

(١٥) — الكرملي « مجلد ٨ ص ١٠٢ » ان الكلمات العامية تختلف في رأيه اختلاف الادوية وعلينا ان نصنفها ونميز بينها كما يفعل الصيدلي في ادويته قال: (فالسام من الالفاظ هو العامي القبيح الذي يكون له مقابل فصيح — والمضر هو العامي المبتذل — والنافع هو العامي المولد الذي لاغنى لنا عنه ولاسيما اذا كان لمعناه علاقة بالعلوم — والمغذي هو

العامي الفصيح الجامع لشروط الفصاحة والبلاغة اه) . فيفهم من هذا انه يقبل العامي بشرط ان لا يكون له مقابل فصيح وأن لا يكون مبتذلاً . أما العامي المبتذل أو الذي له مقابل فصيح فلا يجوز قبوله ولا تدوينه . واما العامي الفصيح فهو نعم المغذي والمنمي للغتنا .

(١٦)— رشيد بقدونس « مجلد ٩ ص ١٠٣ » (في هذا الصنف تفصيل اجاد فيه من اجاب قبلي) وقد عنى الاستاذ بهم من ميز بين الكلمات العامية : فقبل بعضاً ورفض بعضاً .

هذا وقد بقي من المجيبين استاذان : (الزهاوي) و (الرصافي) وفي جوابهما نغمة لم نسمعها من غيرهما .

(١٧) — الزهاوي « مجلد ٨ ص ٦٨٦ » واما هـذا الصنف السابع فلا وجه لجعله صنفاً على حدة يستغنى عنه في يوم صوت الجهل فيه اقوى من صوت العلم) اه .

ولم افهم ماأراده بعبارته الاخيرة : هل اراد احتقار العامي كما احتقره الاستاذ النكدي وانه اذا اراد الاعراب عن رأيه في احتقاره قام الجاهلون فرفعوا اصواتهم بالانتصار له — أو أنه على العكس يراه موضعاً للاهتمام والدرس وانه اذا اراد التصريح بقبوله قام الجاهلون فرفعوا عقيرتهم بالزراية عليه وانتقاصه وبناء على الفرض الثاني يكون رأي الزهاوي في العامي كرأي الرصافي فاسمع ماقال :

(١٨)— الرصافي « مجلد ٨ ص ٣٢ » (الكلام على هذا الصنف لم يحن حينه بعد فلذا أمر به ساكتاً بلا جواب) ثم قفى على ذلك بقوله (ان مسألة اللغة العامية من اهم مسائلنا الحاضرة التي تستحق النظر والدرس والا فان الاعراض عنها ليس من الصواب .

* * *

انتهت الاجوبة على الصنف السابع اعني الكلمات العامية وبانتهائها انتهاء الاجوبة على الاصناف السبعة التي يتألف منها الاقتراح . وخلاصة ماأجابوا به على الكلمات العامية ان واحداً منهم وهو (الاستاذ الرصافي) توقف عن الحكم عليها وأعرب عن حسن الظن بها . وآخر وهو (الاستاذ الزهاوي) جمجم القول في ذلك وهو في الراجح يريد ماأراده رصيفه وابن بلده . وثمانية منهم ميزوا بين هذه الكلمات العامية فقبلوا بعضاً ورفضوا بعضاً . والباقون وهم ثمانية أطلقوا القول في رذلها ومقتها وعدم قبول شفاعة فيها .

* * *

والفتوى الصريحة والقول الفصل في الاصناف السبعة :

ان العامي[1] لايجوز استعماله في اللغة التي يخاطب بها الخواص ولا تدوينه باعتبار انه لفظ عربي . أما سائر الاصناف فتقبل وتستعمل وتدوّن بشيء من التحفظ والاحتياط في الصنف الثالث (وهو الكلمات الاصطلاحية) والصنف الرابع (وهو الكلمات المولدة) والصنف الخامس (وهوالكلمات المعربة) . فيحسن في هذه الاصناف الثلاثة استعمال مايقوم مقامها من اللغة الفصحى إن أمكن وإلا استعملت من دون نكير .

« المغربي »

---

(١) مثال هذا العامي الذى دوّن باعتبار انه عاميّ وقد استعمل في لغة الخواص ـ كلمة (مُصان) اسم مفعول من أصان وصوابه مصون من صان . وصاحب التاج دوّن كلمة (مصان) لكن لا باعتبار انها فصيحة بل عامية وهذه هي عبارته وعبارة القاموس (صانه صوناً فهو مصون حفظه ولا يقال أصانه فهو مصان وهي لغة العامة . وكذا قولهم منصان فانها منكرة اه . هذا مثال تدوينها مع التنبيه عليها . أما ذكرها في لغة الخواص فكقول شيخنا في مطلع قصيدة زفافية وجّه فيها باسماء سور القرآن :

(تبارك فاطرُ القمر المُصان برب النـاس والسبع المثاني)

شعوب سورية
وآثارها القديمة [1]



عنيت الامم منذ القديم بالفنون الجميلة وخاصةً منهـا الصنائع وكان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها وكان الملوك والعظماء يجمعون آثار مشاهير فناني العالم ويتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر ودام هذا حالهم حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الاقدمين لمؤلفه (Winckelmann) الألماني وهو اول من وضع أسس هذا العلم الحديث علم الآثار القـديمة ومنذ ذلك اليوم أصبحت المجموعات الأثرية مكتبةً يرجع اليهـا بعد ما كانت من جملة المتاع تزين بها القصور .

لم يقتصر التجدد في عصرنا هذا على العلوم والفنون فقط بل تعداه الى التاريخ ونهج المشتغلون به نهجاً جديداً . فقد كان التاريخ فيما مضى كتاب أدب يجمع بين الاخبار والفكاهات ويدس فيه حوادث ما أنزل الله بها من سلطان رغبةً في تأييد مبدإ او خدمة حاكم حتى أصبح الكثيرون يشكون بصحة ماورد في أكثر هذه الكتب ولطالما قرأنا روايتين أوأكثر لحـادث واحد تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً حتى أصبح التاريخ القديم في ارتباك عظيم .

ان مؤرخي العرب هم اول من أدرك وبال هذا المنهج العقيم لما عانوه من المشاق في استنتاج الحقائق من المصادر التي دونها الأقدمون وحضوا الكتاب على أمانة النقل حرصاً

(١) المحاضرة التي القاها الامير جعفر الحسني في ردهة المجمع العلمي في ٩ شباط سنة ١٩٢٩ .

على الفائدة ولإدراك الغاية التي وضع التاريخ من أجلها ، فليس هو مضماراً تتبارى فيه قرائح الشعراء أو تخدم بواسطته الاهواء . ولذلك نرى مؤرخي العرب مثل الطبري وابي الفرج وابن الأثير وابن خلدون وابن عساكر وغيرهم قد نهجوا منهجاً جديداً في تدوين الحوادث والأخبار حتى أصبحت مصنفاتهم من مفاخر الحضارة العربية لما امتازوا به من الضبط والدقة والصدق في إيراد الأخبار وياحبذا لو اتصلت سلسلة تلك التواريخ العربية حتى يومنا هذا . وقد توسع علماء الغرب بالضبط والدقة منذ ظهور الطباعة وانتشارها في العالم حتى انه لا يُقدم احدهم على سرد حادث دون ان يؤيده بادلة راهنة او الإشارة الى المصادر والمآخذ مع تعيين الصفحة والسطر واذا لم يتوصل الى معرفة أمر أقر بعجزه بكل صراحة دون ان يرى بذلك مايحط من قدره ولا يستنكره عليه احد . ولما لم يجد علماء التاريخ في التآليف القديمة مابفي بحاجتهم وضاقت بهم سبل الهداية لمعرفة الماضي عمد بعضهم الى بطن الارض يستنطقون دفائنها ويستضيئون بقبس كنوزها . وأطلق على هذه الفئة اسم علماء الآثار لانهم يعتمدون على الآثار دون سواها .

ان علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ ومن اصعبها مراساً اذ يحتاج صاحبه الى انتباه قوي وذوق سليم فان هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها بل الصعوبة كل الصعوبة في حل رموزها وفهم كنهها واستجواب تلك الشهود الصامتة واستنتاج الحقائق منها وقد قال Volney ما ترجمته « ان مهمتنا أصعب من مهمة علماء الطبيعيات لأننا لا نشتغل مثلهم باجرام ملموسة أو بحوادث واضحة للحواس بل نعمل كهيئة تحقيق لديها حوادث أدبية غائبة وربما كانت مختلقة نقلها الينا بعض شهود عيان أو اتصلت بهم أخبارها من الرواة ويتكلم هؤلاء المحدثون لغات مختلفة قد تلاشت فيتطلب منا تعلمها وهي العثرة الاولى في بدء الامر وقد نخطئ بترجمتها . ثم يجب علينا البحث عن الحوادث أو الوقائع المبعثرة التي تؤيدها وتكون هذه غالباً محرفة بتناقلها من فم الى فم ويتطلب منا بعده مقابلة هذه الروايات والتثبت من أخلاق محدثيها وصدق تحقيقهم ويكون التناقض في بعض الحوادث واضحاً فينشأ عنه صعوبات لا مخرج منها اﻫ) .

وقد أصبح النظر اليوم في أبحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم من الواجب على كل مؤرخ ومحقق كما يستنير بها كل لغوي ومفسر . فكم معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا

العلم . وكم من حوادث جاءت في كتب السلف بل وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها وشك بعضهم في صحتها ولولا علم الآثار الذي أماط عنها اللثام وأظهرها للعيان ملموسة محسوسة لقالوا عنها أساطير الاولين . أليس أشور والكلدان ومصر وفارس ويونان شهود عدل على جهود الذين اكتشفوا آثار تلك البلاد وبعثوا ذكرهم بعد ان كانوا نسياً منسياً الوفاً من السنين ..

لم يدون الأقدمون غير النذر اليسير الذي وصلهم من أخبار الشعوب القديمة وأغفلوا ذكر اكثر الأمم البائدة التي ذهبت أخبارهم بزوال أصحابها ولو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظاً ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف . وبفضل هذا العلم نعرف اليوم أكثر أخبار هذه الامم كما نعرف حوادث الامم في القرون الوسطى . وقد توصلوا الى معرفة ما كان عليه الانسان قبل عشرات الالوف من السنين يوم كانت الارض وطاءه وأديم السماء غطاءه يقتات بالنبات ويفترس الوحوش مع اننا نجهل اليوم ونحن في القرن العشرين كثيراً من عقائد بعض الشعوب المعاصرة وعاداتها ممن تقطن مجاهل إفريقية وسواها من القارات الخمس ، ومن الانصاف ان لا ننكر فضل من نقلوا الينا أخبار السلف لان هذا الشيء اليسير هو الذي أثار في فئة من الناس حب الاستطلاع فدفعهم في هذا السبيل . وكانت هذه النصوص على علاتها نوراً يستضاء به ومرجعاً يستأنس به . وعلماء الآثار أصدق الناس في هذه الروايات وان كان لا ينكرون وقوعها فهم لايجزمون بصحتها الامتى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها . ولأبحاث علماء الآثار ميزة جديرة بالاعتبار فهي في أكثر الأحايين تكون منزهة عن الأغراض والغايات والأهواء . وقد يخطئ الأثري في استنتاجه ولكنه لا يتعمد تشويه الحقائق لان همه الوحيد ان يحيي الماضي البعيد ويجعل المعاصرين كأنهم يعيشون في ذلك العصر وذلك المحيط . ومن منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفاً أو معبداً أو أطلالاً قديمة . وكيف يمكنه ان ينكر الحقيقة ولسان حال هاته الأمم البائدة تقول :

ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

لقى هذا العلم الحديث اقبالاً عظيماً في بلاد الغرب فعنيت حكوماتها به وأرصدت للمشتغلين به أموالاً طائلة ، وأنشأت له المدارس والمجامع العلمية أسوة ببقية العلوم وقد

أبدت هذه الفئة فئة الاثريين رغم قلة عددها نشاطاً عظيماً ووضعت في مدة قصيرة كثيراً من المؤلفات القيمة المفيدة وأحيت كثيراً من اللغات القديمة المندرسة وحلت رموزها . وقد نال الشام قسطٌ وافر من هذه الأبحاث فهي اول بقعة اتجهت نحوها الانظار وخصوصاً فلسطين لمكانة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الأطول وأهمها الشعب الاسرائيلي وعلاقة الامم الغربية بكتابهم المقدس . فقد أوفدت اكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار سورية واول بعثة رسمية وطئت بلاد الشام هي البعثة الافرنسية التي رافقت الحملة الافرنسية في سنة ١٨٦٠ .

يقسم التاريخ القديم في سورية كما في غيرها من البلدان الى عهدين واضحين الاول عهد ما قبل التاريخ والثاني العهد التاريخي .

فالعهد الاول هو عصر الظران اوالطور الحجري وينقسم الى قسمين احدهما حقبة الحجر المنحوت (Paléolithique) والآخر حقبة الحجر المصقول (Néolithique) وهو احدث من القسم الاول وتختلف مدة هذا العهد بحسب الامكنة . وليس هذا العهد تاريخ حياة البشرية بل هي مرحلة من تقدم الجماعات الفكري والمادي وقد اختلف العلماء بتحديد اقدم تاريخ لهذا العهد فمنهم من يقول من (١٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠) سنة ومنهم من يقول من (٦ الى ٨٠٠٠) سنة . تعتمد الفئة الأولى على تكوين طبقات الارض والهواء وتعتمد الثانية على نظريات دينية تأييداً لما جاء في التوراة عن تاريخ الخليقة فلا يمكننا ان نهمل نظريات علم طبقات الارض وقد ثبت ان طبقة الارض كانت منذ مئات الوف من السنين صالحة لحياة البشر كما انه لا يمكننا الا التسليم بما جاء في الكتب المنزلة . (وهنا يبدأ دور علم الآثار عسى ان يوفق بين النظريتين والعلم لا ينافي الدين .)

لقد ثبت حتى الآن ان الانسان لم يكن منتشراً في اكثر انحاء الارض كما هو اليوم لأنها لم تكن جميعها صالحة لسكنى الانسان الاول فكان يكسو الجليد المرتفعات وتغمر المياه السهول ما خلا بعض السواحل والهضاب في القارّات الخمس حيث أوى اليها الانسان . منها سيبريا والقفقاس وجزيرة العرب فكانت تمتاز هذه الاصقاع عن غيرها باعتدال هوائها وخصب ارضها ووفرة دواجنها وكانت سيبريا والقفقاس مأهولتين بجماعات الآريين وجزيرة العرب بجماعات الساميين ودام هذا الحال حتى طرأ على الارض بعض

الطواريء الجوية فتقدم الجليد من شمال اوروبا حتى جنوبها فاشتد البرد وكثرت الامطار وارتفعت المياه فغمر الطوفان معظم السهول فهلك خلق كثير من البشر فتفرق من بقي من هذه الجماعات فراراً من الموت تلتمس ارضاً تقيها من الخطر فنزح قسم من سكان سيبريا والقفقاس نحو الجنوب فوصل جماعات منهم الى سورية وكانت سهول سورية يومئذ مغمورة بالماء الا قليلاً منها وبقيت سورية زمناً طويلاً مأهولة بجماعات الآريين ثم حدث في اثناء اقامتهم بعض الزلازل وتقلص في القشرة الارضية . فجاءت هذه النقمة نعمة على سورية اذ انشقت الجبال وانفتحت الوديان فتسربت منها المياه للبحار واتخذت الأنهر لها مجاري ثابتة فجفت الارض واصبحت سورية قابلة للسكنى .

وقد وصلتنا اخبار هؤلاء القوم من آثارهم التي خلفوها لنا في الكهوف التي سكنوها ومما اودعوه من مصنوعاتهم قبور موتاهم . وثبت أن اشكال ذلك الانسان الصياد لا تختلف عن انسان اليوم وهذا يبطل ما علق في بعض الاذهان من أن الانسان القديم يفوقنا بكبر جسده مع انه كان معتدل القامة يسكن الكهوف الطبيعية ويلبس الجلود ويقتات من النبات والصيد فبقي زمناً طويلاً يجهل المعادن . واحتياجاته محدودة جداً لا تتعدى قطع الظران والصوان التي تشبه رؤوس الحراب والسكاكين والمناشير والفؤوس كان يستعملها للدفاع عن نفسه وللصيد ثم تدرج في الرقي فتغلب على الحجر فصار يصقله ثم استخدم العظم فنقشه ثم اكتشف صنع الخزف وهو اول ابتكار صناعي عرفه الانسان . وتشبه قبور هؤلاء القوم وصناعاتهم صناعات معاصريهم او اسلافهم في غيرها من البلدان في القارات الخمس وهذا ما يؤيد هجرة الانسان وتنقل هؤلاء الجماعات عقب الطواريء التي فاجئت الارض وغيرت اوضاعها الجغرافية . وقد حلت في جزيرة العرب طواريء طبيعية عقب التي حلت في سورية بزمن طويل فاسى اهلها الشدائد من جدب الارض وقلة الامطار فنزحت جماعات الساميين نحو الشمال لأنه المنقذ الوحيد لهم اذ البحار تكتنفها من جهاتها الثلاث فسلكوا سواحل خليج فارس حتى نزلوا العراق . ثم توغلوا في شمال سورية ثم في جنوبها حتى وصلوا الى بلاد الحبشة . وقد تغلبت جماعات الساميين في برهة الفي سنة على جميع سكان تلك البلاد حتى اصبحت سامية اللغة كما عرفها التاريخ . ونشأ من مزيج هذين العنصرين عهد جديد يمتاز برقيه ومدنيته . وتفرق هذا المزيج

بطول الزمن الى شيم وشعوب عرفنا منهم منذ الالف الثالثة قبل الميلاد الآشوريين والبابليين في العراق والكنعانيين في فلسطين والاراميين في سورية الداخلية والفينيقيين في سواحل لبنان والعرب في جزيرة العرب فاصبح لكل منهم حضارة ولغة يتنازعون بينهم السيادة رغم انهم يمتون جميعاً الى أرومة واصل واحد .

وما هجرة بني اسرائيل من صحراء التيه الى فلسطين وغزوات العرب في صدر الاسلام للبلاد الدانية والقاصية سوى مثال قريب العهد لتلك الموجات البشرية التي غشيت البلاد . ولم ينس هؤلاء الشعوب رغم تقادم العهد على استيطانهم هذه البلاد أنهم دخلاء . فيؤكد المؤرخون الاقدمون أن الفينيقيين جاؤا من جزيرة العرب وروى (هردوتس) Herodote المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد أنهم انحدروا اليها من سواحل البحر الاحمر ويقول استرابون (Strabon) إن أصلهم من خليج فارس كما كانوا يدعون . وكذلك يتذكر الكنعانيون نزوحهم من مدينة اور من بلاد أشور في سني الالفين قبل الميلاد . وان تكن هذه الشواهد حديثة العهد بالنسبة للحوادث التي سردناها غير انها تشير بوضوح الى اتصال أخبار السلف بالخلف والشعوب السامية اكثر الشعوب تمسكاً بانسابها وحفظ أخبارها ، وقد برهن العلم الحديث على فائدة هذه الروايات لاستنتاج الحقائق منها وهكذا وصل الينا غيرها من الأخبار . أذكر منها روايتي الطوفان وسيل العرم . فقد عثروا في خرائب نيبور من بلاد أشور على وثيقة تاريخها من نحو (٢٢٠٠) سنة قبل الميلاد اي قبل هجرة ابراهيم عليه السلام بمئتي سنة وفيها وصف لطوفان اتصل بهم خبره وخلاصته : انه كان « انكي » (Enki) آله الماء وزوجته نينلا (Ninella) يحكمان البشر والسعادة سائدة في العالم والانسان بمأمن من الموت والأمراض والآفات فنقم انكي (Enki) على عباده لمخالفتهم تعاليمه وعزم على إبادتهم بطوفان فدعى احد عباده الصالحين واسمه اوتو (Uttu) وأسرّ اليه بالأمر وطلب منه ان ينجو بنفسه على سفينة وهكذا كان الأمر فهلك جميع البشر الا صاحبه أوتو (Uttu) فتناسل منه البشر ثانية ولكنه حرم البشر السعادة التي كانوا يتمتعون بها من قبل وقدر على الانسان ان يسعى ليعيش وعرضه للامراض واخطار الفناء . وهكذا خرج الانسان بذنبه من النعيم الى الجحيم ، وماأشبه هذه الرواية بطوفان سيدنا نوح . وقد اتصل بسكان جزيرة العرب حادث آخر وهو سيل العرم وليس

هذا السيل الا احدى الكوارث الآنفة الذكر لأنه لا يُعقل ان يكون في بلاد سبأ سدٌ يجمع هذا المقدار من الماء وخصوصاً مياه جزيرة العرب قليلة شحيحة · والأرجح ان العوامل التي دحرت الانسان القديم من الشمال الى الجنوب هي نفسها التي أرغمت جماعات جزيرة العرب على ان يهجروا بلادهم الى الشمال · وما سيل العرم الا طوفان حصل لما اشتدت حرارة الهواء في العصور القديمة فأذابت الثلوج المتراكمة منذ ألوف السنين في قمم جبال جزيرة العرب ومرتفعاتها فهكذا كان سيل العرم في بلاد سبأٍ فتفرق سكانها في كل البلاد أيدي سبا ·

وقد دامت هذه الحوادث التي استعرضناها في اسطر عشرات الالوف من السنين كان يتدرج الانسان خلالها نحو الرقي وساعده على ذلك استقرار حالة الارض الطبيعية في الالف العاشرة فثابر على خطة الابتكار والعمل اتباعاً لسنة تنازع البقاء فتوفرت لديه المعدات وجعل لنفسه مسكناً ونسج ملابسه واستخدم الحيوان واستثمر الارض أصبح صانعاً وفناناً وفلاحاً بعد ان كان الوفاً من السنين متشرداً صياداً فانتقل في آخر العهد الحجري من البداوة الى الحضارة فصار قسم منهم يتعهد الارض وقسم يعتني بتربية المواشي وهكذا تكون صنفان من البشر بدو وحضر · رعاة ينتقلون بمواشيهم من بقعة الى بقعة ارتياداً للماء وانتجاعاً للكلأ وفلاحون يقيمون بمزارعهم يعملون في الارض ويستغلونها ·

وقد ابقت لنا جماعات عصور قبل التاريخ كثيراً من آثارهم في سورية وجدت في الكهوف التي كانو يأوون اليها او في قبور موتاهم ويمكن منها تتبع رقي الانسان وتدرجه في الحضارة · وليست هذه الآثار تماثيل ونقوشاً او اواني نفيسة · بل هي شظايا من الظران والصوان المنحوت والمصقول او عظام حيوانات زينتها ايدي الصانع او خزف بسيط وقبور تلك الشعوب البائدة وهذه الآثار كانت صنعتها تحسن كلما اقترب الانسان من العهد التاريخي · ورغم قلة المشتغلين من العلماء بعصر قبل التاريخ في سورية فقد اهتدوا الى اماكن عديدة وجد فيها من آثار ذاك الانسان في عدلون · ونهر ابراهيم · وانطلياس · ونهر بيروت · وطرابلس · ونبع نهر الكلب والمعاملتين · وتبنه · والبقيعة · وتعناك · ومجدو · والكرمل · واذرعات · وجرش · وعمان · والكرك · ووادي موسى ·

والقدس . وفي الفلاة الممتدة من جيرود حتى دير الزور وفي كثير من الاماكن في سورية الشمالية .

وطال امد العهد الحجري في سورية اكثر منه في مصر والعراق ولهذين القطرين فضل كبير في تحضير جماعات سورية والعالم اجمع . فقد شيدا بين سنة (٤٠٠٠ و ٣٠٠٠) قبل الميلاد عمراناً عظيم الشأن بينما كانت سورية وبقية العالم تتخبط في ظلمات الجهل والامية وقد ارتقت سورية الى مصافهما في الالف الثالثة قبل الميلاد لما تقوى عليها العراق وحمل اليها معارفه ومكتشفاته واهمها المعادن والكتابة . والعصر التاريخي ينتهي في كل امة من يوم وقوف اهلها على الكتابة لتسجيل اخبارهم وتدوين وقائع عصرهم . وقد دفعت سورية ثمناً باهظاً لحصولها على حضارة مجاوريها وهذا الثمن هو حرمانها استقلال جماعاتها . فمنذ ذلك التاريخ وسورية تنتقل من يد مسيطر الى آخر حتى يومنا هذا . وكأن موقع سورية الجغرافي وخصب ارضها وكثرة غاباتها هو سبب بلائها فهي حلقة الاتصال بين الغرب والشرق ومنفذ لكليهما . فمنها كانت تستورد مصر والعراق مايعوزهما من الخشب لبناء دورهم وصنع عماراتهم البحرية .

وكانت سورية في أكثر ادوارها التاريخية ساحة حرب يتنازعها العراق ومصر ويطمع بها الحثيون واليونان والفرس والرومان كما جاءها العرب والترك من بعد . وقد ترك كل من هذه الشعوب اثراً من حضاراتهم وعوائدهم . ولا يمكن معرفة تاريخ سورية الا بالرجوع الى وثائق تلك الشعوب ورقمها وقد امتزج تاريخ سورية بتاريخ هذه الشعوب ولايمكن عزله عنه لعلاقته بحوادث الامم التي كانت تدين لسلطانها . ولذلك نرى في سورية مدنية ظاهرها مزيج من مجموع حضارات مختلفة يتعذر لأول وهلة تمييز بعضها عن بعض وتتبع سير تطورها . ومع ان هذا الدور يدعى بالعهد التاريخي فهو بالحقيقة اعقد مما سبقه من الادوار على كثرة المصادر والوثائق . وقد اصبح في سورية من جراء هذه التجزئة والمنازعات السياسية دويلات مختلفة بلغاتها وعوائدها وعقائدها اهمهم الكنعانيون والاراميون والعموريون والفينيقيون وكثير غيرهم من طوائف حدود سورية الشرقية والجنوبية . وقد خضعت هذه الدويلات لسلطة الآشوريين والبابليين والمصريين والحثيين وفارس واليونان والرومان . وكانت دمشق أقوى ممالك الاراميين . ويتعذر على المؤرخ ان يسرد حوادث

كل من هذه الأدوار لو لم يسعفه الأثري ويرشده في هذا المسلك الوعر .

وحوالى سنة (٢٠٠٠ ق . م .) كان هؤلاء الساميون بلغوا درجة من الحضارة لا يستهان بها . معظمها مستمد من مصر وبابل . وقد شغف الفينيقيون بحب البحر ومهروا بعلم الملاحة حتى سيطروا على البحار والأسواق التجارية في جميع سواحل البحر المتوسط فحملوا سلعهم وتعاليم الحضارة الشرقيــة الى اقصى بلاد افريقيا الشمالية واسبانية وجنوبي فرنسا وجزر صقلية وقبرص وكريت وقداستوطن هذهالبلاد جماعات منالفينيقيين وأسسوا فيها حكومات كان لها شأن عظيم في التاريخ .

ولم يبق لنا الزمن الا النذر اليسير من آثار شعوب سورية السامية في العصور القديمة لأن اسلافنا كانوا يبنون بيوتهم وهياكلهم من الطوب المجفف بالشمس كما هو الحال حتى اليوم في بعض المدن والقرى السورية ولا يخفى ان هذا النوع من البنــاء لا يعمر طويلاً فتنهار البيوت برمتها فيعمد أصحابهــا الى بناء غيرها على أنقاضها وجرى النـاس على هذا الأسلوب من البناء قروناً متوالية تكونت منها تلال اصطناعية وهذه التلال تُعد بالمئات في سورية : كتل أريحا في فلسطين وتل الصالحية في الغوطة وتل الدرخبية في وادي العجم وتل النبي مندو وتل المشرفة بجوار حمص وتل جرابلس على الفرات وقد حفظت لنا الأيام في بطن هذه التلال والقبور كثيراً من الآثار التاريخية المهمة ، وقد عثر المنقبون على كثير من تواريخ الأسر والرسائل والصكوك والحسابات والمذكرات وغيرها من الرقم ووجدوا ايضاً كثيراً منالأثاث والأواني الجميلة المزخرفة والرسومالمنقوشة . واما البنايات الأثرية القديمة مثل بعلبك وجرش وتدمر وغيرها فهي من العهد الروماني فقط ولكنها شيدت على أنقاض هياكل ومدن أقدم منها عهداً .

ولقد تبين من الحفريات التي أجريت في سورية ومن الآثار التي اكتشفت فيها — ان آثارها تختلف عما وجد فى البلاد المجاورة لها ولا يرجى ان نعثر في هذه البلاد على آثار تُثير بجسامتها إعجاب العــامة قبل الخاصة كما هو شأن آثار مصر وأشور والفرس . والسذاجة فيالصناعات تغلب علىالسوريين منذ القديم ،هذا ناشيء عنطبائعهم ومعتقداتهم فالسوري فيجميعأدواره التاريخية يميل الىالساذج وهذا يظهر في صناعاته وفلسفته الدينية وتجلى في هذهالبساطة مواهب السوري الفنية فقدجمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع

وأبدع . ونقل الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في سورية بالنسبة الى ماوجد في غيرها من البلدان المجاورة . وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع السوري وذوقه السليم وهو ذومكانة بين أقرانه من فناني بقية الشعوب . وليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في البلاد بل لانها لم تتصل الينا لاسباب وعوامل شتى . اولاً : لأن اكثر تربة سورية رطبة لاتحفظ مايودع فيها . وثانياً : لأن السوريين قلما يودعون مدافن موتاهم نفائسهم كما هو شأن المصريين وغيرهم من الأمم القديمة بل يكتفون بالاشياء البسيطة كقوارير الشبه أوالخزف وشيء من أدوات الزينة من الفضة أو النحاس أو الذهب أو قطع سلاح واذا أضفنا الى خلو القبور من الأعلاق ماقد كتبه اشمو نزار ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نباشي القبور ناصحاً لهم بان لايهتكوا حرمته مؤكداً أن لاذهب في قبره ولا فضة — تدركون سر ندرتها بين أيدينا فاذا كان هذا حال ملوكهم فما بالكم بالرعية . وخلو القبور منها هو حجة لسورية لا عليها ودليل على سمو عقيدة سكانها ونضج فكرتهم منذ القديم . لأن السوري كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بان الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالاكرام الذي يبالغ به غيرهم من الشعوب ومع هذا فقد انتشرت في سورية عادة وضع بعض الاشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية واقتباس عادات الغالب لأن سورية كانت في أكثر أدوار تاريخها خاضعة لسلطان أجنبي كما ذكرنا آنفاً .

سورية مهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر وهذه الديانات لم تكن ابنة ساعتها بل هنالك عوامل مهدت لها السبل مدة قرون عديدة قبل ظهورها ويهم العالم أن يعرف تطورها قبل نشوئها وهذا ما يزيد في مكانة آثار سورية ويجعل اقبال العلماء عليها اكثر من سواها لعلاقتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر . وقد أدركت جمعية الامم هذا الامر واحتاطت له خوفاً من المزاحمة او استئثار دولة بهذه الآثار دون سواها . ولذلك اشترطت في المادة الرابعة عشرة من صك الانتداب ان يكون النظام الذي سيوضع لحماية العاديات مستمداً روحه مما يدعو الى التنشيط اكثر منه الى التثبيط كما انها اشترطت على الحكومة المنتدبة عند منحها إجازات بالحفران لاتتصرف بشكل يرمي الى حرمان علماء أي شعب كان من تلك الاجازات دون أسباب موجبة .

* * *

آثار سورية — ان معظم البنايات الاثرية التي نعرفها اليوم ويؤمها الزائرون من جميع أنحاء العالم مثل بعلبك وتدمر وجرش وبصرى الشام ومادبا هي حديثة العهد بالنسبة لقدم حضارة سورية ويغلب عليها تأثير الفن اليوناني والروماني والبيزنطي وقدثبتت هذه البنايات على طوارئ الايام لان بناءها من الحجر الصلب المنحوت بخلاف البنايات التي قبلها فقد درست لانها كانت من الطوب المجفف وهذه البنايات هي معابد وهياكل ومدن لها شهرة عالمية لانها بالحقيقة احدى معجزات الفن المعماري وهي في غنى عن كل وصف وقد برع السوريون بالبناء وكانت روما تستدعيهم لتشييد بناياتها العامة .

وفي سورية بقايا بنايات أثرية لها أهمية تاريخيــة عظيمة منها منبج من أقضية حلب وقد أطلق عليها اليونان اسم (Hierapolis) نسبة لأيراه (Aera) المعبود الأشوري وجاء اسمها (Mappigu) في الوثائق الاشورية وفي هذه البلدة أقدم معبد سوري وكانت هذه المدينة مقدسة يقصدها الحجاج من جميع انحاء سورية وقد كتب لوسيانوس المؤرخ الاشوري الاصل كتاباً في هذا المعبد وطقوسه الدينية وشعائره وحكاية بنائه وأسبابها ونسب بناءه الى (Stratonice) زوج ملك أشور . كما انه عقد في كتابه فصلاً في قدم مدينة جبيل الواقعة على طريق بيروت — طرابلس ووصف عبادة اهلهـا لأدونيس آله الانتاج وقد أبدت الحفريات الأخيرة قدم هذه المدينــة فقد عثروا فيها على معبد قديم وجدوا تحت بلاطته عدداً من الاواني والادوات زبرعلى بعضها اسم الفرعون (Mycerenus) من السلالة الرابعة وباني احد اهرام مصر الكبيرة بين سنة (٢٩٠٠ و٢٧٥٠) قبل الميلاد واسم الفرعون (Ounas) من السلالة الخامسة واسم (Pepi II) الثاني من السلالة السادسة ووجدوا ايضاً غيرها من الادوات المصرية أحدث عهداً من الاولى وهـذا يؤيد علاقة مصر بالفينيقيين قديماً وكان المصريون يطلقون اسم (Keben) على مدينة جبيل حتى في عهد السلالة الثانية عشرة وذُكرت بهذا الاسم في الرقم المصرية منذ سنة (٣٠٠٠) قبل الميلاد وكان المصريون يستوردون من جبيل الخشب اللبناني لصنع سفنهم وربما كانوا يصنعونها في نفس مدينة جبيل وقد أطلق المصريون اسم (Kebenit) على اسطولهم الفخم نسبةً الى (Keben) وهي جبيل كما ذكرنا . وقدعثروا ايضاً على بعض مدافن ملوك جبيل وأمرائها منهم أحرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقد نقشت على جوانبه

صورة الملك يتناول القرابين من أتباعه وبعض الشعائر الدينية وهو قائم على اربعة اسود ومما يزيد في شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التي زبرت عليه وهي أقدم كتابة أبجدية عرفت حتى اليوم وهذه ترجمتها «عمل هذا الإران (اي التابوت) إفسبعل بن أحرام ملك جبيل لابيه كي يكون مقره الأبدي فاذا ناصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداء لجبيل وأخرج هذا التابوت من تحت البلاط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه ويعم الخراب جبيلاً فيما اذا محا هذه الكتابة ......) وآثار جبيل هي أهم ماعثر عليه حتى اليوم في سورية من الوجهتين الفنية والعملية ويحق لمتحف بيروت أن يفاخر بها .

ومن اعجب ما ذكره لسيانوس المؤرخ عن عبادة اهل جبيل لأدونيس أنهم كانوا يزعمون ان أدونيس هذا خرج للصيد في جبال لبنان فوثب عليه خنزير وافترسه عند نبع نهر ابراهيم حيث نرى الى الآن نقوشاً ورسوماً تشير الى هذا الحادث وقد اطلقوا على هذا النهر اسم أدونيس تخليداً لذكر معبودهم . ولكن موت أدونيس لم يكن ابدياً بل كان يموت في فصل الخريف من كل سنة ويبعث في ربيعها وكانوا يقيمون في ربيع كل سنة مأتماً عليه تلبس نساؤهم ثياب الحداد ويجلن في شوارع جبيل باكيات يضربن صدورهن ويشققن جيوبهن حزناً عليه ولكن في اليوم الثاني ينقلب الترح فرحاً اذ يُبعث أدونيس ويرتفع الى السماء فتقام في المدينة معالم الزينة والسرور فيحلق النساء شعور رؤوسهن ومن لا تقدم على هذه التضحية تكفر عن سيئتها بإباحة جمالها لكل طالب طول هذا اليوم ويخصص ريع هذا العمل الشائن لأعمال البر والتقوى ولم يكن هذا العمل الفظيع يستنكر عندهم بل اللواتي يقدمن عليه ينلن حظوة كبيرة لدى مواطنيهم . وكان الفينيقيون يعدون اعمال العهارة والفجور اعمال تيمن يتقربون بها الى اربابهم . وقد عثر المنقبون على عدد من الكهوف التي كانت تجري بها مثل هذه المخازي في بلاد فينيقية . ومن الاعمال التي كانت تقشعر لها الجلود عادة تقديم الضحايا البشرية فكان كل منهم يقدم ابنه البكر ضحية لاربابهم ليحصل على بركتهم او دفعاً لخطر داهم وهذه العادة الفظيعة قديمة جداً في سورية وقد دامت حتى العهد الروماني . وبنو اسرائيل هم اول من استفظع هذا الامر وحرموه واستعاضوا عنه بالختان وهو فداء الكل بالجزء .

وفي دمشق اثر لا يقل مكانة عن غيره وهو الهيكل بالأمس او جامع بني أمية اليوم .

ونرى كثيراً من الكنائس والجوامع شيدت على انقاض هياكل ومعابد قديمة . وتبدأ أقدم معلوماتنا عن هذا الهيكل من القرن العاشر قبل الميلاد الى العهد الذي تلاشت فيه الوثنية من هذه البلاد وكان يعبد فيه الآله (Hadad) او (Ramman) ورفيقته (Atargatis) . وحداد هذا عند الاراميين بمنزلة (Jupiter) و (Zeus) عند اليونان والرومان وقد ورد ذكر هذا المعبد مرتين في التوراة في حديثه عن شفاء نعمان وكانت شهرة هيكل دمشق عاصمة مملكة ارام عظيمة جداً حتى ان اخاز (Achaz) ملك بني اسرائيل لما جاء الى دمشق للسلام على (Tiglat Pileser) ملك اشور دهش من معبدها واخذ مقياس مذبحها لكي يبني مثله في بيت المقدس وهيكل دمشق هو في سورية الوحيد الذي احتفظ بهندسته القديمة رغم الطواريء التي نزلت به والايدي التي تعاقبت عليه وتقسم جميع المعابد السامية السورية الى قسمين: الحرم وهو مختص بالكهنة ولا يقصد الا في ايام الزيارات والقسم الخارجي وهو مباح للعوام . ونرى هذين القسمين واضحين حتى اليوم في هيكل دمشق والحرم هو المسجد الآن والقسم الخارجي هو السور الذي يحيط به ونرى احد ابوابه عند مدخل باب البريد واقدم آثار الهيكل جدران المسجد الخارجية الغربية والشمالية وهي على طراز بناء الجدر المصرية القديمة وقد تحول هذا الهيكل الى كنيسة في عهد (Théodose) في سنة (٣٧٩ — ٣٩٥) للميلاد وبقي كذلك حتى الفتح الاسلامي .

وقد كشفت الحفريات آثار قيمة في تل النبي مندو وهي قديش القديمة احد حصون الحثيين وثبت هذا الحصن طويلاً أمام هجمات المصريين حتى استولى عليه الفرعون سيتي الاول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ودك حصونه وقد خلد انتصاره بنصب محفوظ في متحفنا نقش عليه رسم الفرعون يتناول القرابين من اربابه وارباب الحثيين المغلوبين . وقد عثر الكونت (De Mesnil) منذ سنوات على مدينة قطنا القديمة في تل المشرفة قرب حمص وهذه المدينة كانت زاهرة في القديم فعثر فيها على قبور ملوكها ووجد فيها آثار لها شأن تاريخي عظيم يرجع معظمها الى النصف الاول من الالف الثانية قبل الميلاد . وفي شمال سورية كثير من المدن التي سكنها الحثيون زمناً طويلاً وسيكون لآثار هذا الشعب المجهول مكانة عظيمة متى حلت رموز رقمه وفهمت لغته .

لا يمكننا في ساعة واحدة الا التلميح الى آثار سورية اذ كل أثر منها يستغرق ساعات . وقد سبقنا الغربيون وكتبوا المجلدات عنها فاليهم يرجع الفضل بكشف هذا الماضي المجيد . وآثار سورية هي أحق بعناية أبنائها فتعود علينا بفوائد مادية وأدبية لا تقدر .

جعفر الحسني

حول كتاب

الفكر السامي

«وصدور جزءيه الثالث والرابع»

مصنف هذا الكتاب هو العلامة سيدي محمد الحجوي الثعالبي وزير معارف المغرب الأقصى ومدرس العلوم العالية في جامع القرويين بفاس وأحد أعضاء مجمعنا العلمي . وقد كنا قرظنا الجزءين الأول والثاني من هذا الكتاب في مجلد السنة التاسعة (ص٥٠٦) وقلنا ان المصنف بنى كتابه على اربعة أرباع أو أجزاء :

(١) طور طفولة الفقه الاسلامي من بعثة النبي (ص) الى حين وفاته .

(٢) طور شبابه من عهد الخلفاء الراشدين الى آخر القرن الثاني .

(٣) طور كهولته الى آخر القرن الرابع .

(٤) طور شيخوخته وهرمه الى يوم الناس هذا .

وطريقة المؤلف في تأليفه انه يترجم للعلماء والفقهاء من أية فرقة كانوا بعد ان يأتي على مقدمة يذكر فيها نموذجاً من تاريخ فرقتهم ومختلف مقالاتهم ثم يستخرج من ثنايا التراجم تدرّج الفقه وتطوّره وتولّد احكامه وتشعّب مسائله مشيراً الى العجيب من أخبار الفقهاء ورجال الفرق قارناً كل خبر بما يلائمه من المواعظ والعبر . وما يجب من الانتباه والحذر .

على هذا جرى في الربعين اوالجزءين الأولين . وعليه جرى في الجزءين الأخيرين (الثالث والرابع) . فالثالث في ١٥٦ صفحة وهو يتضمن وصف كهولة الفقه فيالقرنين الثالث والرابع والعوارض التي طرأت عليه فيهما . والمصنف — مع كونه مالكي المذهب — لم يتقيد بمذهبه ولا بعلماء فقهه بل عم القول وأفاض في الكلام على جميع رجال المذاهب والفرق

الاسلامية كما قلنا . فكان كتابه اشبه بمعلمة فقهية يصح الرجوع اليها في كل ما يتعلق بهذا الموضوع ومن ثم كان خليقاً باقبال الفضلاء عليه والاستضاءة بنوره . وقد انتقد المصنف في هذا الجزء بعض فقهاء المذاهب الذين يرون نصوص أئمتهم أجدر بالاعتبار والأخذ من نصوص الشارع ! ! ! ولعل الأئمة رضي الله عنهم كانوا يحذرون أمثال هذا الغلو فكرهوا ان يكتب عنهم شيء من أقوالهم لأنه اذا كتب ومرت عليه السنون تحجّر وتقدّس . ومما ذكره في هذا الجزء ان تدخل الخلفاء بين الدين والفلسفة أضرهما معاً . ولو بقيت العلوم الدينية تسير في طريقها من دون ان تصطدم بالفلسفة لأزهرت الفلسفة وأثمرت الثمرات التي اجتنتها أوربا . ومثل ذلك (القيـاس) فان الفقهاء لو لم يقاوموه ويشنعوا على أنصاره لأفادجداً في الترقيات العصرية . ومن مباحثه الممتعة : هل ان نصوص الشريعة وافية بما يلزم للبشر من الأحكام ؟ وهذا البحث والذي قبله وغيرهما من المباحث الكثيرة من أقوى العوامل في نشاط العقول وجعل الفقه الاسلامي مثمراً . لكن المصنف احياناً تغلب عليه طبيعة البيئة فيرى آراء لا تقوى على التمحيص مثل ما في ص ٣٥ من استدلاله برؤيا رآها على أن لله في كل مسألة حكماً شرعياً . وله في الصوفية والتصوف وكل ما له علاقة بهذا الموضوع كلام ونقول ممتعة جداً لعشاق هذا الفن . ومن فوائده انه كان في الاندلس في القرن الرابع للهجرة شورى وتراتيب دستورية حبذا لو دامت وعرف المسلمون كيف ينتفعون بها . وفي هذا الجزء كثير من الابحاث التي لها علاقة بترقيات العصر غير ماذكرنا وإن الاشارة اليها تخرجنا عن مسمى (التقريظ) الى مسمى (التلخيص) وقال المصنف في آخر هذا الجزء ان العلماء الى آخر القرن الرابع يسمّون (المتقدمين) وعلماء القرون التالية هم الذين يطلق عليهم اسم (المتأخرين) .

وفي الجزء الرابع سرد تراجم هؤلاء المتأخرين الى عصرنا هذا على طريقته في الاستطراد والاستنتاج الممتع : فوصف الحالة السياسية التي أدت الى انحطاط علم الفقه في المشرق والمغرب . وحرق الاسبانيين لنفائس مخطوطات الاندلس . وان ملك الموحدين (ابا يوسف يعقوب) لما رأى غلبة كتب الفروع على فقهاء زمانه وحيلولتها دون الاجتهاد حرقها وأمر بتصنيف كتب أحاديث الأحكام قال : وكان الفقهاء يعتمدون في ترجيح الأحكام الشرعية على الرؤى ومثل ذلك اعتمادهم على حساب الجمل كما فعل (ابن كمال باشا)

مذ أفق السلطان سليماً بمحاربة الغوري أخذاً من القرآن بطريقة ذلك الحساب . وبمناسبة كلامه على اصلاح الازهر في العهد الأخير وصف المؤلف جامع القرويين في فاس وهو احد المدرسين فيه . وانه كان سعى في اصلاحه بمساعدة المستشرق الكبير الموسيو (مرشي) لكن تدخل ذوي الأغراض حال دون ذلك الإصلاح وعطل تنفيذ مواد نظامه . بيد أنه اذا لم ينجح سعيه للإصلاح في ذلك المعهد العالي فقد نجح في المدارس الابتدائية والثانوية — ووصف لنا المؤلف فتنة الخلاف التي جرت بين العلماء والعامة في مسألة : (هل ان الكفار يعرفون الله ؟ ؟) وذلك في اوائل القرن الخامس للهجرة — ووصف لنا الوسائل التي ساعدت على انتشار الاسلام في صحراء افريقية وسودانها — وانه كان من عادة الأندلسيين إيذاء الفلاسفة وتضييق الخناق عليهم وذكر ان الإختصار في المصنفات الدينية استدعى إطالة الكلام في شرحها فضلت الافهام بين هذا الشرح وذاك الإختصار — وذكر ان الفقيه المحدث الورع سيدي رضوان الجنوي أبوه من (جنوه) وقد أسلم لبعض الاسباب (راجعها في ص١٠٣) ثم جاء المغرب فتزوج بيهودية مسلمة ومن بين هذين الأبوين ولد سيدي رضوان الذي قال فيه الامام القصار (رضوان الرجل الصالح لو أدركه ابو نعيم لجعله في الحلية) وكانت وفاة سيدي رضوان سنة ٩٩١ هـ قال المؤلف : ومن فتاوى (محمد المرغني) المتوفى سنة (١٠٩٠ هـ) (أنه لا حرمة للجبانات التي تكون في داخل المدن بل يجوز نبشها وذلك لأن المدن حبس (أي وقف) على الأحياء) قال : ويعتقدون في المغرب ان قراءة تفسير البيضاوي تسبب موت السلطان ولذلك كانوا يحتالون على من يريد قراءته بشتى الوسائل — وذكر أنه يوجد من تاريخ ابن عساكر في خزانة المواسين بمراكش سبعة وعشرون جزءاً كباراً من تجزئة نيف وثلاثين جزء — وترجم المؤلف نفسه ترجمة استغرقت نحو خمس عشرة صفحة ضمنها فوائد شتى .

وختم الكتاب بكلام عام مهد السبيل فيه الى طرائق إصلاح الفقه الاسلامي فحقق موضوع الاجتهاد والتقليد والإختصار في وضع المصنفات الفقهية ووصف صعوبة فهم مسائل كتب الفقه المختصرة حتى أدى ذلك الى فشو الأمية في العامة وذكر من أصول فقه المالكي اصلاً لاعهد لنا به في المشرق سماه (العمل الفاسي) وخلاصته ان يحكم القاضي بما حكم به القضاة الذين كانوا قبله — وبحث في تتبع الرخص وتوحيد المذاهب ولزوم

وضع كتاب في الفقه على نمط المجلة العثمانية يتضمن من الأحكام الشرعيـة ما يلجم بحاجة أبناء هذا العصر — ونصح بالخضوع لناموس تطور الزمان وتأثيره في تطوير الاحكام وذكر أمثلة توضح ما اراد من هذا التطور والتطوير . ومن هذه الأمثلة التصوير الشمسي والفرق بينه وبين نحت التماثيل وذكر محاورة في هذا الموضوع جرت له مذ كان في تونس مع رئيس وزرائها (ولعله يعني به خليل بوحاجب) — وتساءل هل الاسباب متيسرة لمن أراد الاجتهاد في زماننا ؟ وهنا بحث في ماطبع من الكتب المساعدة على الاجتهاد — الى غير ذلك من الابحاث الجليلة المرتبطة جد الارتباط بمصالح المسلمين في هذا العصر مما ينبغي دراسته والتأمل فيه وخاصة لمن يهمه نجاح الاصلاح الديني الاسلامي العملي لا النظري .

ومن طريف صنع المؤلف في خاتمة كتابه هذا أنه أتى على ذكر الانتقادات التي وجهها اليه علماء بلاده ثم عقب على كل نقد برده « تمثيلاً للحالة الفقهية والمناولات القلمية في افريقية الشمالية بالوقت الحاضر » وقد تجلى هـذه المباحث الانتقادية مسألة خلاف علي ومعاوية رضي الله عنهما . وتفضيل المذهب الحنفي على غيره والسبب في ذلك مرونته وصلاحيته للتطور الكوني — وذكر لنا مسألة (لافتوى بمنع شيء اذا كانت هناك حاجة داعية الى إباحته) ومن هذا القبيل (عملية السيكورتاه في الأموال) وحاجة المسلمين اليها وان الجمود وعدم تجويز مثل هذا أضر بالمسلمين وجرأ الكماليين على ما فعلوا .

ويلي ذلك تقاريظ الكتاب وهي كثيرة ثم فهرست مفصل ثم الخطأ والصواب وما أكثر الخطأ في مطبوعات إخواننا المغاربة لكن اذا كان الخطأ في مطبوعاتهم كثيراً فان الصواب في آرائهم ومضامين مصنفاتهم اكثر لعمري .

المغربي

رحلة اوليا جلبي

— ٥ —

ثم وصلنا الى حماة (١) — وبعد ان ذكر الجلبي نبذة من تاريخها شرع بوصف حالتها في زمن مروره قال :

(١) حماة من امهات مدن الداخل في الشام تعلو عن سطح البحر ٣٠٨ امتار ، وهي في وهدة سحيقة من وادي العاصي ولذا كانت حارة ورطبة ، تمر منها سكة حديد رياق — حلب « طولها ١٨٩ كيلو متراً » وطريق السيارات المعبدة الممتدة بين دمشق وحلب «طولها ٤١٤ كيلو متراً » وتبعد حماة عن حمص ٤٥ وعن حلب في سكة الحديد ١٤٣ كيلو متراً ·

وقد وردت حماة في التوراة مراراً باسم حمث الكبرى تمييزاً لها عن حمث الصغرى في قيليقية وذلك تنويهاً بذكرى حماثي من ابناء كنعان الذي ينسب بناؤها اليه · وكانت على ماقيل الحد الشمالي للارض الموعود باعطائها لبني اسرائيل · وخلاصة تاريخ حماة ان الحثيين سكنوها قديماً فيما سكنوا من مدن الشام الشمالية بدليل المعثور على بعض كتاباتهم فيها وقد قاست كما قاسته تلك المدن من توالي غارات فراعنة مصر وملوك آشور ودفاع الحثيين واستبسالهم في معارك طاحنة دامت قبل الميلاد عدة قرون الى ان انقرضوا وخلفهم الآراميون ثم الاسرائيليون ثم اليونانيون السلوقيون وقد سماها احد ملوكهم انتيوخس ايفانوس الرابع ايفانيا وظلت معروفة بهذا الاسم في دولة السلوقيين ولما زالت رجع الناس الى استعمال اسمها القديم ثم جاء الرومانيون ·

لا جرم ان بلاد الشام الشمالية في عهد اليونان والرومان تقدمت في العمران وكان نصيب حماة ان فتحت القنوات في براريها الشرقية ونصبت النواعير على العاصي فازدهرت الزراعة وانتشرت القرى العامرة في شرقي سلمية وحول الأندرين · على ان حماة

كانت في ذلك العهد تابعةً لحمص لسبق هذه تلك في المكانة والحضارة . ولما كان الفتح الاسلامي جاءها ابو عبيدة في سنة ١٧ فصالح اهلهــا على الجزية لرؤوسهم والخراج على ارضهم وجعل كنيستهم العظمى جامعاً وهو الآن الجامع الكبير وسيأتي وصفه . وجعل الخلفاء الراشدون حماة من اعمال جند حمص للسبب الذي تقدم ذكره . ومن الاحداث التي حصلت فيها في اواخر القرن الاول فيخلافة عبد الملك بن مروان ارسال قيصرالروم يوستنيانوس قائدين اسمها موريق وموريقان جاءا وخربا دير القديس مارون الذي كان على العاصي بين شيزر وحماة وقتلا رهبانه البالغين خمسمائة وشتتا شمل اتباع هذا القديس .

ولما انتقلت الخلافة من يد الأمويين الى العباسيين في سنة ١٣٢ من القرن الثاني اورث انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد فتوراً في الشام لأنهــا اصبحت بعيدةً عن نظر الخلفاء الذين قل اكتراثهم بها يحكمها العمال حسب اهوائهم فكان ذلك مدرجةً لانحطاط شأنها وفي القرن الثاني وفي النصف الاول من الثالث اشتركت حماة مع حمص في الفتن والحروب الاهلية التي كانت تحدث تارةً من تأجج نار العصبيات بين القيسيين واليمانيين وتارةً من الوثوب بالعمال ومجيء جيوش الخلفاء لتأديب المتوثبين . وفي النصف الثاني من القرن الثالث ظهرت بوادر الضعف في العباسيين وصار المتغلبة من اولئك العمال ينزعون الى الاستبداد في الامر وكان اولهم عامل مصر احمد بن طولون فقد نزع ربقة الخلافة واستولى على الشام فأخذ حماة فيما اخذه وعقبه ابنه خمارويه وحفيده جيش . وفي سنة ٢٩٠ جاء القرامطة بقيادة صاحب الشامة وخربوا حماة والمعرة وسلمية وقتلوا اهلها حتى النساء والاطفال فجاءهم في السنة التالية جيش الخليفة المكتفي من بغداد وجرت الوقعة الفاصلة في قرية تمنع (التمانعة قرب خان شيخون وشرقي طريق السيارات بين حماة وحلب) وكانت الدائرة على القرامطة . وفي اواخر القرن الثالث زالت دولة بني طولون على يد الخليفتين المعتضد والمكتفي اللذين لم يتوانيا عن القضاء على كل خارجي فظهرت بعدها دولة الاخشيد محمد بن طغج في مصر والشام ورأت البلاد مارأته من اقتتاله مع عامل الخليفة ابن رائق ومع سيف الدولة بن حمدان وبعد زوال الاخشيديين في منتصف القرن الرابع دخلت حماة في حوزة سيف الدولة بن حمدان واعقابه من بعده وتبعت حلب . وجاء الفاطميون اذ ذاك ينازعون العباسيين

الخلافة ورأت البلاد البلاء العميم من دوام الحروب بين الحمدانيين ثم المرداسيين وغيرهم من عمال العباسيين وبين جيوش الفاطميين . وكان الروم ينتهزون فرصة تطاحن المسلمين بعضهم مع بعض فيغيرون من حين الى آخر على شمالي الشام ويصلون الى حماة وحمص وما حولها فيعيثون وينهبون ويسبون ويعودون .

ولما زالت امارة الحمدانيين في اوئل القرن الخامس وتقسمت القبائل العربية بلاد الشام تبعت حماة صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب فبقيت في يده وبيد اعقابه الى ان زالوا وفي العقد الثالث من ذلك القرن تبعت حمص في عهد بعض عمالها ممن كانوا يخطبون للفاطميين وفي آخر القرن الخامس جاء السلجوقيون فاقطعها السلطان ملكشاه لعامله في حلب قسيم الدولة آق سنقر وهو ابو عماد الدين زنكي فتبعت حلب . وفي غرة القرن السادس ألحقت بحمص في عهد عاملها قيرجة خان بن قراجة السلجوقي ثم ضمت الى دمشق في عهد الاتابك طغتكين واعقابه من بعده ثم عادت الى حلب في عهد عماد الدين زنكي الذي استخلصها من الاتابكيين واورثها ابنه نور الدين محموداً ومن هذا الى ابنه الملك الصالح اسماعيل . وخربت حماة في هذا القرن بالزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة ٥٥٢ فرممها نور الدين وبنى اسوارها وقلعتها وبنى فيها الجامع والمستشفى المعروفين باسمه . وفي العقد الأخير من القرن السادس استخلص صلاح الدين الايوبي حماة فولى عليها خاله شهاب الدين الحارمي وبعد موته اقطعها لابن اخيه تقي الدين عمر فتملكها هذا واعقابه المعروفون بالبيت التقوي خلال ١٦٨ سنة وانتهى ملكهم بخلع الملك الافضل بن الملك المؤيد ابي الفداء . ولم يكن لابناء البيت التقوي من الملكية الا الاسم والابهة وكانوا فعلاً تحت إمرة ابناء عمهم صلاح الدين والسلاطين المماليك الذين خلفوهم . على ان حماة نالت في عهدهم حظاً موفوراً من العمران وبعد زوال دولتهم ومجيء هولاكو في القرن السابع وتيمورلنك في اوائل القرن التاسع وتخريبهما قلعتها واسوارها ونيلهما منها — انحطشأن حماة وتضاءل عمرانها وظلت في عهد المماليك يديرها عمالهم فتسعد وتشقى تبعاً لصلاح هؤلاء او فسادهم . وفي القرن العاشر دخلت في ملك العثمانيين وصار يتولاها المتسلمون والباشات الذين يوظفهم ولاة طرابلس او دمشق حسبما تكون حماة مرتبطة بهذه اوبتلك فنالها في العهد العثماني ما نال القطر الشامي كله من الاهمال

وسوء التدبير الى ان حسنت الحالة في الجملة في اواخر القرن الماضي فجعلت حماة متصرفية ألحقت بها اذ ذاك أقضية حمص وجبل الكلبية ثم تبعتها سلمية في مطلع القرن الحالي .

ومما يستحق الذكر ان الصليبيين حاولوا الاستيلاء على حماة مرتين ففشلوا بعد ان كاد الأمر يتم لهم . الأولى فيسنة ٥١١ فيعهد واليها شهاب الدين محمود فانهم انتهزوا فرصة خسوف القمر فوصلوا الىارباض حماة وحاصروها والثانية فيسنة ٥٧٢ انتهزوا فرصة غياب صلاح الدين في مصر ومرض عاملها خاله شهاب الدين الحارمي فحاصروها ، لكنهم في المرتين اجبروا على الرجوع . على انهم عند ضعف المسلمين وتنازع ملوكهم كانوا — ونخص بالذكر الداوية اي الفرسان الهيكليين المرابطين فيحصن الاكراد — لا يتوانون عن الاغارة على حماه فينالون من ضواحيها ويغرمون احياناً ملوكها وعمالها بمبالغ طائلة ويرجعون .

هذا وقد حاولت ان اجد وصف حماة في القرون الماضية لانظر كيف كان عمرانها في ادوار متعاقبة فلم اعثر على اقدم من وصف القرن الثالث أنقله عن ياقوت . قال : وذكر احمد بن الطيب فيما ذكره من البقاع التي شاهدها في مسيره مع المعتضد من بغداد الى الطواحين (؟) فقال بعد ذكره حمص « وحماة قرية عليها سور حجارة وفيها بناء بالحجارة واسع والعاصي يجري امامها ويسقي بساتينها وبدير نواعيرها » وكان قوله هذا في سنة ٢٧١ فسماها قرية اه . قال احمد الصابوني الحموي في كتابه تاريخ حماة المطبوع في سنة ١٣٣٢ ماخلاصته ان احمد بن الطيب سمى حماة قرية وليست هي قرية كما قال ولكن من يشاهد بغداد فيزمن المعتضد لا يستغرب منه تسميته حماة قرية لأن العباسيين لما اخذوا الخلافة لم يكن لهم عناية الا باعمار بغداد والعراق فاهملوا شأن البلاد الشامية ومنها حماة ولتوالي هذا الاهمال والفتن خربت الكور والقرى التي كانت حماة تستقي منها موارد ثروتها مثل كورة البلعاس والاندرين ولطمين وصوران وبعرين وغيرها حتى صارت حماة تسمى قرية في نظر احمد بن الطيب اه . وقال الاصطخري في اواسط القرن الرابع مايدل على صغر حماه إذ ذاك ومضارعتها شيزر : واما شيزر وحماة فانهما مدينتان صغيرتان نزهتان كثيرتا الماء والشجر والزرع .

ومر ابن جبير في القرن السادس بعد ان مضى على الزلزلة سنة ٥٥٢ التي خربت حماة

بالمرة نحو ربع قرن ، وكانت نشطت من عثرتها بفضل الدولتين النورية والصلاحية لكنها لم ترق كثيراً عيني ذلك الاندلسي المبتهجة بمرأى غرناطة وقرطبة والحمراء فلم تعجبه أفنيتها الضيقة ومبانيها المزدحمة ولم ينشرح الا لحسن العاصي وجمال البساتين . وهاك ماقاله :
« حماة مدينة شهيرة في البلدان قديمة الصحبة للزمان غير فسيحة الفناء ولا رائقة البناء ، أقطارها مضمومة وديارها مركومة ، لا يهش البصر اليها عند الاطلال عليها ، كأنها تكن بهجتها وتخفيها فتجد حسنها كامناً فيها ، حتى اذا جست خلالها ونقرت ظلالها أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع في تدفقه أساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرفيه بساتين تتهدل أغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه ، ينسرب في ظلالها ، وينساب على سمت اعتدالها ، وباحد شطيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتاً عدة يخترق الماء من احد دواليبه جميع نواحيها فلا يجد المغتسل اثر اذى فيها ، وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقاناً تجتلي منها منظراً ترتاح النفس اليه وتتقيد الأبصار لديه ، وبازاء ممر النهر بجوفي المدينة قلعة حلبية الوضع وان كانت دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها فلاتخاف الصدى ولا تتهيب مرام العدى . وموضع هذه المدينة في وهدة[1] من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطل[2] والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قد تولى نحتها الزمان وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان والمدينة السفلى[3] تحت القلعة متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه وكلتا المدينتين صغيرتان وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العالي الجبلي ويطيف بها وبالمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لان جانبها المتصل بالنهر لايحتاج الى سور وعلى النهر جسر كبير[4] معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها[5] وربضها كبير فيه خانات والديار وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى ان يفرغ لدخول المدينة وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات اه .

ولم ينبه ذكر حماة بعد خموله وتسعد الا في عهد أبنـاء تقي الدين عمر بن ايوب

فانهم لما آل اليهم ملك حماة وضواحيها عمروها بالأبنية الفخمة والقصور الفخمة والأسواق الحافلة والأسوار المحكمة يدلنا على ذلك ماذكره ياقوت في أوائل القرن السابع قال : حماة مدينة كبيرة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جداً فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي عليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي فتسقي بساتينها وتصب الى بركة جامعها ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل لانه منحط عن المدينة ويسمون السور السوق الاعلى . وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجيبة في حصنها وإتقان عمارتها وحفر خنادقها نحو مائة ذراع واكثر وهي مدينة قديمة جاهلية ذكرها امرؤالقيس في شعره (أوردناه في بحث شيزر) الا انها لم تكن قديماً مثل ما هي اليوم بسلطان مفرد بل كانت من عمل حمص اه . ويدلنا على تلك العناية ايضاً ماذكره ابن بطوطة في القرن الثامن : حماة احدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات ويشقها العاصي ولها ربض يسمى بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان . وبحماة الفواكه الكثيرة منها المشمش اللوزي الشهير اه .

وقد فسر الصابوني في تاريخ حماة ماذكره ابن جبير وياقوت فقال : كانت حماة قسمين قسم في محلة باب الجسر وقسم في المدينة وبالنظر لارتفاع المدينة عن باب الجسر كانت تسمى القسم الاعلى وسوقها السوق الأعلى وكذا جامعها كان يسمى الجامع الأعلى وكانت مسورة بسور من الحجر الابيض عظيم يمتد الى تل العريضة وله أبواب عديدة منها باب النصر وباب المغار وباب النهر وباب العميان وباب الغربي وباب القبلي . وكان لمحلة باب الجسر سور يحيط بها من جهة والعاصي يحيط بها من الجهة الاخرى وعلى العاصي الجسر الكبير له باب من جهة الشمال الغربي وباب آخر في مبدإه من جهة القبلة ولسورها أبواب منها باب تدمر وباب النقفي وباب حمص . وقال شرحاً لما ذكره جبير وأشرنا اليه برقم (١) الوهدة المكان المنخفض فان حماة في وادٍ عميق كانت أرضه مساوية لارض النهر ولكثرة الزلازل وتراكم التراب ارتفعت الارض عن النهر . وعن الرقم (٢) انه تل العريضة . و (٣) محلة باب الجسر و (٤) جسر محلة باب الجسر و (٥) كان في محلة الدهشة في بستان يسمى

الاتون حوانيت وخانات ينزل فيها المسافر اذا جاء ليلاً وأبواب السور مغلقة ويسمى مثل هذا ربضاً . وكان بنيان محلة المدينة أوسع وأسواقها أحفل من أسواق محلة باب الجسر وكان بين القسمين طريق مما وراء القلعة من البستان الذي يسمى الآن بستان الخضر . ثم امتد العمران لجهة الحاضر فحدثت محلات عديدة كما امتد البنيان في زمن نورالدين الشهيد حتى باب حمص جانب رحى المسرودة . اما مكان السوق فقد كان مرتفعاً من الشمال ومنخفضاً في الجنوب وكان فيه مقابر واذا طغى العاصي فاض على هذا القسم المنخفض وملأه . فلما ضاقت البلد بالسكان مشى الناس بالبنيان الى موضع السوق فبنوا البيوت والحوانيت ولما ولي الملك المنصور حماة بنى هذا السوق وكان يعرف بسوق المنصورية .

قلت وكان ينتظر من الملك المؤيد ابي الفداء ان يصف لنا عاصمة ملكه حماة في كتابه « تقويم البلدان » وصفاً كافياً يطلعنا به على الرقي والعمران اللذين نالتها في عهده وعهد اجداده التقويين الايوبيين في القرنين السابع والثامن ولكنه رحمه الله لم يشذ عن الايجاز الذي سار عليه في وصف بقية البلدان فاكتفى بقوله : حماة من الشام بين حمص وقنسرين وحماة مدينة أزلية ولها ذكر في كتب الاسرائيليين وهي من انزه البلاد الشامية والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة وفي داخلها الأرحية على الماء وبها نواعير على العاصي تسقي اكثر بساتينها ويدخل منها الماء الى كثير من دورها قال الهروي في كتابه المعروف بالزيادات : وحماة بلدة قديمة مذكورة في التوراة وهي وشيزر مختصتان بكثرة النواعير دون غيرهما من بلاد الشام اه .

وقال شيخ الربوة في القرن الثامن ايضاً : حماة حماها الله بها سلطان ملك (لعله يعني الملك المؤيد ابا الفداء) ونائب مستقل وهي مدينة حسنة خصبة كثيرة الخير والأرزاق يحوطها النهر العاصي ويأتيها جارياً من بين جانبيها ويجمع بين الجانبين قنطرة وعلى العاصي نواعير كبيرة التي لم ير في الآفاق مثلهن يحملن من العاصي أنهاراً من الماء يسقون به البساتين والاماكن وهي كثيرة الثمار وبها المشمش الكافوري اللوزي الذي لم ير في سائر الآفاق مثله ومن اعمالها الكبار بعرين وتسمى بارين وهي قلعة منيعة وسلمية وهي على سيف البرية (بناها عبدالله بن صالح وعلي بن عبدالله بن عباس رضي الله عنهم) ولها قناة كبيرة

تحمل من سلمية الى حماة تسقي بساتينها واراضيهـا وهو نهر مليح • وقال ايضاً عن حماة في فصل اعياد النصارى ومواسمهم : وفي عيـد الفصح تبطل اهل حماة مدة ستة ايام اولها يوم الخميس الكبير وهو خميس العهد وآخرها يوم الثلاث ثالث الفصح وتنتقش فيه النساء وتلبس فيه الكساوي الفاخرة ويصبغون فيه البيض ويعملون الأقراص والكعك ، المسلمون اكثر من النصارى • ويرد الى حماة اهل سائر البلاد المجاورة لها مثل حمص وشيزر وسلمية وكفرطاب وابو قبيس ومصياف والمعرة وتيزين والبـاب وبزاعة والفوعة وحلب ويطلعون جميعاً الى العاصي ويضرب لهم اهل حماة على شطوطه خياماً ويركبون في المراكب بالمغاني ويرقصون في المراكب النساء والرجال على الشطوط حتى تتهتك الخلائق ويمضي لهم ستة ايام لا يرى في الوجود مثلها وكذلك يبطلون اول يوم صوم النصارى ويقولون قد طلعوا يلتقون الراهب ويبطلون ايضاً يوم نزول الشمس برج الحمل ولم أر هذا في مدينة غيرها • وفي ليلة عيد الميلاد يوقد اهل حماة كبيرهم وصغيرهم وجليلهم وحقيرهم وجندهم واميرهم من القنـاديل فوق الاسطحة ومن القنب والشيح شيئاً عظيماً ويوقدون من البارود والنفط انواعاً شتى وكذلك في عيد الختان ويسمونه الميلادة الصغيرة وربما يوقدون فيها اكثر من الكبيرة اهـ •

قلت وقناة سلمية التي ذكرها شيخ الربوة كانت تصل الى حماة وتسقي الارض الفسيحة العذبة الممتدة في شماليها وقد درست وتنوسي خبرها اما الزوارق فقد بقي منها اثر ضئيل كان قاصدو النزهة من الحمويين يركبونها من جسر المراكب الذي صار يدعى جسر السرايا حيث العـاصي زائد العمق في الجملة ويذهبون الى مكان في شرقي البلدة يدعى البشريات فيـه ناعورتان كبيرتان تسقي البساتين نسبةً الى دفين بجانبها يسمى الشيخ بشر • ولم يبق في حماة من الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة الا النـادر وفقد منها المشمش اللوزي الذي ما زال موجوداً في دمشق والقطر المصري ومعروفاً بالحموي وليس في بساتين حماه وازوارها الا الزروع المسقوية من الحبوب والبقول الواسعة الغلال وقليل من الاشجار غير المطعمة وما ذلك الا من اهمال سراة حماه ملاكي هذه البساتين وانصرافهم لزيادة عدد ما يقتنونه من القرى العذبة دون العناية باتقان العمل •

وفي القرن التاسع في دولة المماليك وفي القرن العاشر في زمن عثمانيين كسدت

اضاعة العلوم الدنيوية فلم ينشأ احد من الرحالين أو الجغرافيين ينبئنا عما كان عليه اذ ذاك عمران حماة وغيرها من مدن الشام مما تقدم معنا ذكره أو تأخر ، أو انه نشأ ولم نعثر على ما كتبوه . وكذلك لم ينشأ في القرن الحادي عشر سوى سائحنا أوليا چلبي الذي وصف حماة على قدر ماوعاه فهمه . على ان المعروف من التواريخ ان حماة بعد زوال دولة الايوبيين التقويين والخراب الذي أصابها من هولاكو وتيمورلنك واستمرار فوضى الأحكام في عهد المماليك ودثور سلمية وغيرها من القرى الشرقية التي لا حياة لحماة الا بها وفصل المعرة عنها أفل نجم حظها، وفي عهد العثمانيين دام هذا الأفول لتوالي جور المتسلمين الذين كان يرسلهم الولاة من طرابلس أو دمشق وفتن الأجناد وعسفهم حتى هاجر كثير من الحمويين على ماروواه المحبي الى بقية مدن الشام الاكثر اطمئناناً فخلت حماة من رجالها وانحط شأنها كثيراً . وفي القرن الماضي ولاسيما في عهده الأخير دأبت الأسر الكبيرة التي أوجدتها أحداث ذلك العهد على استصفاء العقارات في المدينة والمزدرعات في القرى بشتى الوسائل حتى لم يبق منها لاسيما في البرية من الارضين المملوكة لاهلها الا ما ندر . وأصبح الحمويون من جراء ذلك فريقين متباينين، العظامي الذي يسير نخوراً لسعة املاكه ووفرة أرزاقه تدر عليه وهو مستريح ريعاً ينفقه في نعمه ورفهه ، والعصامي وهم السوقة والفلاحون الذين يكدون مدى العمر للحصول على كفاف العيش والأجور التي حقت عليهم لأولئك العظاميين . والشحناء من جراء هذا التباين مستحكمة الحلقات بين هذين الفريقين .

ومنذ نصف قرن توافد رحالة الافرنج على حماه فأعجبهم جمالها الطبيعي ومنظرها الأثري واستغربوا انسياب عاصيها وشدو نواعيرها وأزياء أهلها وأطوارهم فكتب بعضهم ومنهم ايزامبر وشوقة في سنة ١٨٨٢ وفان برشم في سنة ١٨٩٨ وموريس باريس في سنة ١٩١٤ وومونمارشة سنة ١٩٣٢ ماأوحته اليه قريحته الغربية . وخلاصة ما كتبوه بما يكادون يتفقون في مآله ان حماه اختبأت في مخفض العاصي ومنعرجاته لا يتميزها القادم من بعيد الا من قرونها وانها احتضنت العاصي بجسورها وأغمست فيه دورها وقصورها وأطنبوا بنضرة رياضها وزهو أشجارها وأزهارها وروعة عاصيها وانسيابه الهادي ووصفوا نواعيرها معجبين بشكلها وعظمتها ودورانها وشدوها المطرب وصعوبة اعتياد الغريب له في لياليه الاولى وانتثار الماء منهن

وانصبابه في القناطر الممتدة الى الأحياء والبساتين وتمثلوا العصور الوسطى عند رؤيتهم مباني حماه الأثرية المركومة التي لم يخالطها حتى الآن بناء حديث وأسواقها المعقودة ودكاكينها المزدحمة بالقرويين والبدو وعند نظرهم الى أطوار سكان حماه وأزيائهم المتنوعة الألوان والأشكال وشكوا فقدان الفنادق والمطاعم وحرمان أسباب الرفه الجالبة للسياح وان حماه بلدة منكمشة ، بعيدة عن الاتصال بحضارة الغرب ، قليلة الترحاب بالأجانب وأهلها متعصبون والحياة الاجتماعية فيها لاسيما عند أسرها الكبيرة التي بيدها الملك كله تذكر عهد الإقطاع وان من المباني الأثرية التي تستحق الزيارة في حماه قصور بني العظم وبني الكيلاني والجامع الكبير والجامع النوري وجامع الحيات والقلعة ... الخ .

ومما قاله احدهم وهو مونمارشة صاحب « الدليل الازرق » : وحماه مثل أكثر مدن الشام لا يحتاج المتجول فيها ركوب المركبة فضياع الوقت يكاد لا يذكر ناهيك ان الماشي يتملى أكثر بمشاهدة الطرق . فالأحياء المبنية في ضفة العاصي اليسرى أكثر امتداداً واستمتاعاً منها في ضفته اليمنى . واذا غادر السائح جسر السراي يسير شمالاً في شارع عريض يوازي العاصي (يعني شارع ابي الفداء) فيمر من تحت قناة ناعورة كبيرة ثم يصل الى القصر العربي الفخم الذي بناه اسعد باشا العظم حاكم حماه في سنة ١٧٤٢ م وقد اتخذ الآن مدرسة اهلية دعيت دار التعليم والتربية . وهذا القصر اصغر واقل بهاء من قصر بيت العظم في دمشق ، له فناآن احدهما علوي والثاني سفلي ، وفي العلوي قاعة ذات قباب امامها صف من الاعمدة ، ونجارة الخشب فيها ودهانه ووشيه من طراز القرن الثامن عشر وفي جنب القاعة غرفة فيها رسوم جميلة احدها يمثل مدينة حلب بمنظرها العام . واجمل ما في هذا القصر موقعه ، فان الواقف في فنائه العلوي يشرف على مشاهد جميلة في ضفتي العاصي وعلى احياء حماه التي في ضفته اليمنى (يعني الحاضر) . وبعد الخروج من القصر يسير السائح شمالاً فيمر من قرب ناعورتين عظيمتين جداً ثم من تحت ساباط الى ان يصل الى جسر على العاصي في قربه ثلاث نواعير ، ويشاهد على ضفة العاصي اليمنى قصراً ذا قبة لآل الكيلاني ذوي الوجاهة في حماه والواقف على هذا الجسر تقر عينه بمناظر الحدائق الجميلة وصوت النواعير المطرب وثمة في الضفة اليسرى حمام عربي قديم واذا

رجع السائح في الطريق الصاعدة من الجسر يزور الجامع النوري (وبعد ان وصف هذا الجامع قال) ثم يصل الى التل الذي كانت تعلوه القلعة المندرسة والواقف في ذروة هذا التل يتمتع بمشاهدة حماة كلها وفي جنوبي هـذا التل جامع صغير له قبة مضلعة تدعى قبة الحسنين (فيها مقام يقال انه موضع رأس الحسين حينما مروا به من كربلاء الى دمشق) وفي الجامع كتابة تذكر ان نور الدين محمود جدده بعد فنائه عقيب الزلزلة الهائلة التي حدثت في سنة ١١٥٧ م • ثم يصل الي الجامع الكبير (وبعد ان وصف هـذا الجامع وضريح الملك المظفر قال: واذا استأنف السائح السير في ذلك الطريق وعرج نحو اليمين بواجه العاصي ويرى ناعورة المحمدية الكبرى (في باب النهر) المبنية في القرن الرابع عشر وهي تسقي الجامع الكبير • فاذا اجتاز الجسر (يعني جسر باب الجسر) وعليه طاحونة قديمة يلاقي وسط الحدائق جامع الحيات (وبعد ان وصف هذا الجامع وضريح ابي الفداء قال: وبناء هذا الجامع خالٍ من الاتقان الصناعي لكن منظره من الجسر المجاور له وخياله المنعكس على مياه العاصي الذي تحيط به الحدائق يجعل له منظراً من أروع مناظر حماة • • ويعود السائح من جامع الحيات الى المدينة بعد ان يمر من سفح تل القلعة ويجتاز ساحة خالية وسيعة تمتد امامه (كان تقام في هذه الساحة سوق عامة كل يوم خميس وقد شادوا حديثاً في وسطها بناء جميل لمدرسة التجهيز الاميرية) ثم ينفذ الى اسواق حماة التي لاتختلف كثيراً بحركتها وجلبتها عن اسواق دمشق وحماة وتفوق تلك بأنها لا تزال محتفظة بوضعها وبنائها الاثريين اهـ •

«للبحث صلة» وصفي زكريا

جامع التواريخ

— أو —

« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة »

— ٥ —

حدثني محمد بن احمد بن عثمان الزيات قال حدثني ابو بكر بن حوري : شيخ كان من اهل خامية من اعمال النهروان قد اقام ببغداد سنين . وكان مشهوراً بصحبة ابي عبد الله بن ابي عوف قال : كنت الزم ابن ابي عوف سنين لجوار بيننا ومودّة لا اسأله حاجة : لأنها لم تكن تعرض لي وكنت اتخفف بين يديه في حوائج ينفذني فيها . وكان رسمي في كل ليلة أجيئه بعد العتمة وقد صلى ودخل منزله فحين يراني يمد رجله في حجري فأغمزها وأحادثه فيسألني عن الاخبار والحوادث ببغداد . وكنت اسأل عنها واتطلبها من كل موضع واجيئه بها واخبره بخبر من قدم البلد ومن سافر عنه ومن مات ومن ولد ومن خاصم ومن ورث ومن يرجف به الناس واخبار الجيران وبكل غث وسمين الى ان ينعس فاذا نعس قبض رجله فقمت الى بيتي وقد مضى ثلث الليل او بعضه او أقل(١) على هذا سنين . فلما كان ذات يوم جاءني سقطي كان يعاملني فقال قد دفعت الي شيء إن تم علي افتقرت فقلت ماهو ؟

(١) قد سقط : وجرى الأمر .

فقال رجل كنت ادامله فاجتمع لي عليه الف دينار فطالبته فرهنني عقد جوهر قوّم بالف دينار الى ان يفتكه بعد شهور أو أبيعه . وأذن لي في ذلك فلما كان امس وجه (موءنس الفحل صاحب الشرطة) من كبس دكاني وفتح صندوقي واخذ العقد وقد استتر الرجل . فقلت له لا تفكر في هذا فاني اخاطب (ابا عبد الله بن ابي عوف) فيلزمه ردّه صاغراً . قال وانا مدلّ بابن ابي عوف لمكاني منه . ومكنته من المعتضد . فلما كان تلك الليلة جئته فمدّ رجله في حجري على الرسم . وحادثته وعرفته الأخبار وقلت له في جملتها أمر السقطي مع موءنس ثم قلت هذا الرجل جاري ومعاملي وأوجب الناس حقاً عليّ ولا بد والله من تفضلك ياسيدي واعتناء(١) في امره والزام موءنس رد العقد . فقال ما انا وهذا ؟ أعادي صاحب شرطة الخليفة ؟ وكيف استجرأتَ أن تعرّضني لمثل هذا وتسألني فيه ؟ كأني بك وقد قلت ابن ابي عوف صديقي الزمه رد هذا . ولم تشفق على جاهي وكأنّ صلاح حال السقطي أحب اليك من صيانة جاهي ما انا عافاك الله وهذا ولا اليه ؟ قال فورد عليّ من هذا اعظم مورد . وقلت في نفسي : هذا الرجل قد خدمته كذا وكذا سنة هذه الخدمة التي لم تخدمها العبيد على(٢) ما سألته قط حاجة ولا احتجت اليه في شيء ولا له عليّ رزق ولا إفضال يلقاني في حاجة قد سألته فيها بمثل هذا . شهد الله لا دخلت له داراً بعدها ابداً . وامسكت وجلست لا اتكلم ثم قمت قبل الوقت الذي كنت اقوم فيه . وعدت الى منزلي منكسراً

(١) لعله : واعتنائك . (٢) قد سقط : اني .

مغموماً . فلما كان من الغد بكرت لئلا يجيئني الرجل بسبب حاجته فافتضح عنده . ولم ادخل بيتي الى وقت المغرب ثم جئت فصليت وطرحت (١) واعتقدت انني لا امضي اليه . فلما صليت العتمة جاءني خادم لابن ابي عوف فقال الشيخ يقرأ عليك السلام ويقول لِمَ تأخرت الليلة ؟ إن كنت معافى فتعال وان كنت متشكياً جئناك فاستحييت وقلت امضي الليلة ثم انقطع . فحين دخلت اليه ورآني مدّ رجله في حجري . فأخذتها وغمزتها على الرسم فقال ايش عندك من الأخبار ؟ فاقبلت أحدّثه بحديث غثّ متكلّف متصنع . فلم يزل يصبر على ذلك ساعة ثم قبض رجله فقمت فقال يابابكر انظر ايش تحت المصلى واذا برقعة في قرطاس فاخذتها وتقدمت الى الشمعة واذا فيها « يا مؤنس جسرت على قصد دكان رجل تاجر يُعرف بفلان وفتحت صندوقه واخذت منه عقد جوهر قيمته الف دينار وانا في الدنيا ؟ والله لولا انها اول غلطة غلطتها ما جرى في ذلك مناظرة . اركب بنفسك الى دكان الرجل حتى تردّ العقد في الصندوق بيدك ظاهراً » فقلت لأبي عبد الله ايش هذا يا سيدي ؟ فقال خطّ المعتضد الى مؤنس بما أردته : مثلت بين وجدك وعتبك مع وزن(٢) الحال مع مؤنس كما هي — وبين رضاك وقضا حقك وايحاش مؤنس فاخترتك عليه فأخذت خط امير المؤمنين بما تراه . فامض وأوصله اليه فانه يفعل ما امره به . فقبلت رأسه وشكرته وانصرفت وانا من الفرح لا اعقل . وجئت الى الرجل واخذت بيده ومضينا

(١) يريد : طرحت نفسي على سرير . (٢) لعله : بقاء .

الى مؤنس وسلمت التوقيع اليه . فحين قرأه اسودّ وجهه وارتعد حتى سقطت الرقعة من يده ثم قال « يا هذا الله بيني وبينك . هذا شيءٌ ما علمت به وتموّه عليّ فألاّ تظلمتم اليّ فان لم أنصفكم فالى الوزير . ما هذا ? بلّغتم الامر الى امير المؤمنين من اول وهلة » قال وانشطت (١) فقلت « بعلمك جرى والعقد معك» قال : فأحضر العقد وقال : خذوا الالف دينار التي عليه الساعة واكتبوا على الرجل بطلان ما ادعاه : فقلت لا نفعل . فقال خذوا ألف وخمس مائة دينار . فقلت والله لو اعطيتنا الف الف دينار ما رضينا او تركب بنفسك الى الدكان والعقد معك فترده الى الصندوق ولا نكذب انفسنا او ترد التوقيع . فقال أسرجوا لي قال : فركب والله في موكبه حتى وقف على دكان الرجل ورد العقد بيده الى الصندوق . فجاءنا صاحبه من ذلك اليوم ودفع ألف الدينار وارتجعه .

***

حدثني عبد الله بن احمد بن داسه قال حدثني ابو احمد بن ابي الحسك الشاهد قال حدثني بمصر ابو طاهر محمد بن احمد بن عبد الله بن نصر القاضي وهو قاضيها يومئذ قال حدثني شيخ كان في جوارنا ببغداد بدرب الرواسين من باب الشام قال كان ابو عبد الله بن ابي داود (٢) ينزل بباب الشام وهو صغير الحال فكنا نعرف احواله فباع يوماً منديلاً كان له بسبعة دراهم لتعذر القوت عليه قال فاجتاز في طريقه وهو عطشان فرأى شارباً فعدل الى

(١) لعله : واستشطت أو ونشطت . (٢) الصواب : دؤاد .

الموضع ودعاه واستسقاه فكسر الشارب شفة كوز كان معه وملأه ودفعه اليه فقال له ابن ابي داود (١) لم فعلت ذلك فقال قد شرب في هذا الموضع قبلك من لم ارض لك ان تجعل شفتك في موضع شفته فكسرت الموضع من الكوز لتشرب من موضع ماوقعت عليه شفة غير شفتك قال فشرب الماء ثم دفع اليه السبعة دراهم التي لم يكن يملك غيرها .

* * *

حدثني ابو الحسين احمد بن الحسن بن المثنى قال كانت امي قد رأت ليلة القدر فدعت الله بدعاء كثير فلما كان من الغد قال لها ابي هل دعوت الله لي فقالت شغلني الدعاء لاولادك عن الدعاء لك قال فكنا نرى ان ما أفاء الله تعالى علينا من نعمةٍ بعد ذلك انما كان بدعائها .

* * *

حدثني ابو الفضل الشيرازي الكاتب محمد بن عبيد الله بن المرزبان قال حدثني شيخ من شيوخ النخاسين الجلة ببغداد قال كنت أعامل اباالهيجاء عبد الله بن حمدان في الرقيق فكان يشتري مني ولا يبيع شيئاً يشتريه بوجه إما ان يهبه او يعتقه فجاءني يوماً الى حجرتي ولم تكن عادته جرت بذلك فوجدته وهو مستعجل يريد الخروج الى القصر لقتال أعراب بلغه انهم عاثوا في الطريق وكان يليه فقال بعني الساعة جارية فعرضت عليه عدة جوار فاختار مولّدة منهن وحملها في عماريته على بغل فلما كان بعد شهور اقل من سنة جاءني بها رجل من الجند يريد بيعها فقلت لها أليس كان الأمير ابو الهيجاء اشتراك

(١) الصواب : دؤاد

مني فقالت بلى ولكني وهبني لهذا قال فلم ابعها حتى كاتبته وعرفته خبرها لئلا تكون قد هربت او وقع بها حيلة فلما اعلمني انه وهبها شرعت في بيعها في الحال فتعذر واقامت عندي اياماً فسألتها عن اخبار ابي الهيجاء وامره في داره فاخبرتني باشياء من ذلك فكان من طريف ما اخبرتني به ان قالت اخرجني من عندك في العمارية وسرنا يومنا وليلتنا الى قريب من انتصاف الليل فكدني السير واتلفني ثم حط العمارية في الصحراء ثم ضربت له خيم لاصحابه فصرنا في عسكر واشعلت النيران ونصب له سرير مخلع(١) في خيمة له واستدعاني فجئت وهو على فراشه فلاعبني ثم نزع ... وجلس مني مجلس الرجل ... فوقعت صيحة عظيمة فنهض عني ولم يكن ... وضرب يده الى تحت الفراش واذا سيف مجرد فاخذه وخرج بلاسراويل وصاح انا ابو الهيجاء وسألهم عن سبب الصيحة فقالوا سبع أطاف بالخيم فخرج يعدو ومعه خلق من غلمانه واصحابه وأهاجوا السبع وطلبوه وناصبوه الحرب وناصبهم وانا اسمع الصياح وزئير الاسد وقد تلفت فزعاً ثم يأتيه هو من بين الجماعة فقتله فحمل رأسه وجاءني وهو في يده فلما رأيته صحت فرمى بالرأس وغسل يده ثم جاءني فطرحني واذا ... قائم كما كان في وقت نهوضه ما تغير ثم ... ثم نهضت فما رأيت قلباً أثبت من قلبه ...

***

حدثني عبدالله بن احمد بن داسه قال حدثني ابوسهل بن زياد العطار قال

(١) كذا بالاصل ولعل معناه وثير .

كان باسكاف(١) شاعر به (٢) طريفة فهجا عاملها وبلغه ذلك فامسك عنه فلما كان وقت الغلة ركب العامل الى البيدر وقسمه وحمل غلة الشاعر اصلاً فجاء الشاعر اليه يشكو ويداريه فقال ياهذا ليست بيننا معاملة انت هجوتنا بالشعر ونحن هجوناك بالشعير وقد استوت الحال بيننا وبينك .

***

حدثني محمد بن عدي بن حر وجماعة من البصريين قالوا لما نشأ لأبي الحسين محمد بن عبيد بن نصرويه مع فضله ورُجْلته (رجوليته) ومحلّه المشهور من الدهاء والغيل(٣) والعلم والعقل — ابنه الباقي الآن وأُخبر ابو الحسين رحمه الله بتأخره غمه ذلك قال وكان ابو الحسين يوماً جالساً اذ جاء ابنه هذا يسعى اليه كأنه في مهم ثم نتف طاقة شعر كانت على اذن ابي الحسين وسعى فآلمه ذلك وغمه بلوغ تخلف الصبي الى هذا الحد ورثينا لما جرى قال لنا خلف النار الرماد .

***

وحدثني ابو الحسين بن محمد الجبائي قال لما سعى ابو طاهر الحسين بن الحسن عامل البصرة علي ابي الحسين بن نصرويه حتى نكب النكبة الثانية التي ألزمه فيها الوزير العباس بن الحسين ما ألزمه من المال راسل اباطاهر فقال له اعلم ان الصياد الفاره لايذبح شباشه(٤) وانا كنت لك في هذا البلد مع التجار

(١) مكان في نواحي النهروان . (٢) لعله محرف عن مثل به دعابة ظريفة .

(٣) يريد الاغتيال كما تدل عليه الحكاية الآتية . (٤) أظن هذه الكلمة عبرانية معناها المغرر . قد وصفه الدكتور خليل سعادة في قاموسه ببطة أليفة توضع في المعابر الموصلة الى بركة لاستخراج البط البري ووقوعه في الشرك .

والناس مثل شباش الصياد فما انما ظن الناس انك عادلاً(١) وكنت تأخذ من تريد من الأوساط والأصاغر ولا ينكشف امرك وقدصرت بماعاملتني مثل الصياد الذي ذبح شباشه فليس عزمه بعدها ان يصطاد وستعلم انك لا تنتفع بنفسك ولا بالبلد بعدي ثم عدل الى السعاية عليه مع ابي الفضل العباس ابن الحسين الوزير فما خرج من البصرة حتى قبض(٢) ونكبه وقلد البصرة اباالقاسم علي بن الحسين بن ابراهيم بن أخت ابي الفرج محمد بن العباس ابن فسانجس وألزم مالاً ثقيلاً لم ينهض به وتلف ابوطاهر في المطالبة والضرب ومات في الحبس وانسحق هو واهله الى آخر دهرهم وكل ذلك تدبير ابي الحسين وترتيبه المكاره عليهم ·

* * *

حدثني محمد بن هليل بن عبد الله قال حدثنا القاضي احمد بن سيار قال حدثني رجل من الصوفية قال كنت اصحب شيخاً من الصوفية انا وجماعة في سفر فحدثني حديث التوكل والارزاق وضعف النفس فيهما وقوتها فقال ذلك الشيخ عليّ وعليّ لاذقت مأكولاً او يُبعث اليّ بجامة فالوذج حارّ ولاآكل الا بعد ان يحلف عليّ قال وكنا نمشي في الصحراء فقالت له الجماعة : الآخر جاهل ومشا ومشينا وانتهينا الى قرية ومضى عليه يومان وليلتان لم يطعم فيهن شيئاً ففارقته الجماعة غيري فانه طرح نفسه في مسجد في القرية مستسلماً للموت ضعفاً فاقمت عليه فلما كان في ليلة اليوم الرابع وقدانتصف الليل وكاد ان يتلف

(١) لعله : فانما ظن الناس انك عادل · (٢) قد سقط : عليه ·

الشيخ فاذا بباب المسجد قدفتح واذا جارية سوداء ومعها طبق مغطى فلما رأتنا قالت انتم غرباء اومن أهل القرية؟ فقلنا غرباء فكشفت الطبق فاذا بجام فالوذج يفور لحرارته فقالت كلوا فقلت له كل فقال لا افعل فقلت له والله لتأكلن لأبر قسمه فقال لا افعل قال فشالت الجارية يدها فصفعته صفعة عظيمة وقالت والله لئن لم تأكل لاصفعنك هكذا الى ان تأكل قال فقال كل معي فأكلنا حتى نظفنا الجام وجاءت الجارية تمضي فقلنا لها مكانك خبرينا بخبرك وخبر هذا الجام فقالت نعم انا جارية رجل هو رئيس هذه القرية وهو رجل احمق حديد فطلب منا منذ ساعة فالوذجاً فقمنا لنصلحه وهو شتاء وبرد فالى ان تخرج الحوائج من البيت وتشعل النار ويعقد الفالوذج تأخر عنه فطلبه فقلنا نعم وطلبه ثانياً ولم نكن فرغنا منه وطلبه الثالثة فحرد وحلف بالطلاق لا يأكله ولا احد من داره ولا احد من اهل القرية ولا أكله الا رجل غريب فحملناه في الجام وخرجنا نطلب في المساجد رجلاً غريباً فلم نجد الى ان انتهينا الى هذا المسجد فوجدنا كما ولو لم يأكله هذا الشيخ لقتلته ضرباً الى ان يأكل لئلا تطلق ستي من زوجها قال فقال الشيخ كيف ترى اذا اراد ان يرزق.

(للبحث صلة)

آراء وافكار

—(١)—

الزبور الشريف

ذكرنا في مقالنا « خزانة الكتب الخالدية » في بيت المقدس المنشورة بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق [1] ان من جملة مخطوطاتها الزبور الشريف وانه منقول عن نسخة بمقام سيدنا داود عليه السلام في بيت المقدس وقد انيح لنا اخيراً الاطلاع على النسخة الأصلية المذكورة في خزانة كتب السيد حسن صدقي الدجاني فأحببنا ان نأتي على وصفها فنقول :

كتبت هذه النسخة بخط جميل وهي بالقطع الكبير وقد جاء في آخرها مايلي بالحرف :

« قد استراح من طيّ تيهاء زبير زبر الأولين واستباح في حيّ فرهاء حبير حبر الأولين القلم الذي اقدم تامًا في كتب الكتاب المنير والمترجم من كتاب الله القدير المنزل على سيدنا داود بن ايشا بن عوبد بن باعر المنتمي نسبه الشريف الى ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله تعالى عليهم اجمعين · على يد اضعف العباد الطالب سبيل الرشاد البائس الفقير المعترف على النقصان والتقصير ملتمساً شفاعة من انزل عليه الزبور يوم يبعث من في القبور من الله العزيز الغفور الحاج محمد بن يحيى بن محمد المرعشي الملقب بشاطر زاده غفر الله له ولوالديه وجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات برحمتك ياارحم الراحمين · في اليوم الثاني من شهر رمضان المكرم لسنة احدى وخمسين ومائة والف من هجرة من له العز والشأن في المحروسة القسطنطينية دار السلطنة العليه » اه ·

وقد ذكر فيها نسب سيدنا داود كما ياتي « هو داود عليه الصلوة والسلام ابن ايشا بهمزة مكسورة فمثناة تحتية ساكنة فشين معجمة مقصورة ابن عوبد بعين مهملة وبعد الواو موحدة وزن جعفر ابن باعر بباء موحدة وعين مهملة مفتوحة بينهما الف وآخره راء ابن سلمون بن

---

(١) م ٤ ص ٤١٣

يخشون بن عمنيا ذاب بن رام بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليهم السلام . كذا في العرائس للثعلبي والذي في فتح الباري هو داود عليه السلام بن ايشا بن عوبد بن باعر بن سلمون بن يارب بن رام بن فارض بن يهوذا بن يعقوب عليهم السلام ودأبه صلى الله تعالى عليه وسلم ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر اذا لاقى قال العلماء رحمهم الله تعالى لما استشهد طالوت اعطت بنو اسرائيل داود عليه السلام خزائن طالوت وملكوه على انفسهم وذلك بعد قتل جالوت بسبع سنين ولم تجتمع بنو اسرائيل على ملك الا داود عليه السلام . قال اهل التاريخ وكان عمره عليه السلام مائة سنة ملكه منها اربعون سنة وقيل ولي وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة قيل وبين خروج بني اسرائيل مع موسى عليه السلام من مصر وبين اول ملك داود عليه السلام ستمائة وستون سنة وحليته : كان داود عليه السلام أحمر الوجه سبط الرأس ابيض الجسم طويل اللحية فيها جعودة حسن الصوت والخلق طاهر القلب دعاؤه الذي دعا عليه السلام به قوله : اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذي يبلغني حبك اللهم اجعل حبك احب الي من نفسي واهلي ومن الماء البارد . هكذا نقل من وسائل المبرات . وكتب بهامش الصفحة الاولى منها مانصه :

« من تفسير اسماعيل حقي » — وآتينا داود زبوراً وهو الكتاب مأخوذ من الزبر وهو الكتابة قال القرطبي : كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الاحكام وانما هي حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله عز وجل . وكان داود يبرز الى البرية ويقرأ الزبور فيقوم معه علماء بني اسرائيل خلفه ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس وتجيء الدواب التي في الجبال اذا سمعت صوت داود فيقمن بين يديه تعجباً لما يسمعن من صوته وتجيء الطير حتى يظللن على داود في خلائق لا يحصيهن الا الله يرفرفن على رأسه وتجيء السباع حتى تحيط بالدواب والوحش لما يسمعن . (كتبه الفقير حسن انيس الدجاني الخلوتي خادم سيدنا داود عليه صلاة الملك المعبود) .

* * *

هذا وصف مختصر للزبور الشريف الذي يسميه اليهود والنصارى بـ « المزامير » ولكن تلك المزامير لاتطابق نصوصها مافي الزبور الشريف وهذه بعض سوره .

السورة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم · يابني اسرائيل اذكروا نعمتي عليكم وعلى آبائكم الأقدمين · وحملتكم في البر والبحر · ورزقتكم من الطيبات وانا العزيز الحكيم ·

السورة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم · ياداود قل لبني اسرائيل لاتكثروا الصلوة في الثياب الحرام ولتكن ثيابكم طاهرة من حلها · يا عبدي كيف تعصيني وأنا أنزل عليك في كل يوم رزقاً جديداً ولكن غركم حلمي عنكم تعاليت وتقدست ان اقاس بالمخلوقين · يا داود قد جعلت هذه الكتب التي انزلتها على رسلي ليزجروا بها عبادي ويحذروهم ويخوفوهم ويبشروهم بما اعددت للمحسنين منهم دعوا العجلة وملاحاة الرجال تسلم اديانكم ودنياكم واعمالكم ·

السورة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم · يابني اسرائيل البسوا لكل حين لباسه وعليكم بالتقوى · واكثروا من الدعاء فاني احب من يدعوني بنية خالصة · فاذا فعلتم ذلك كانت جنتي لكم مفتوحة · ياداود ان النساء قد ملكتم نواصيهن بالامانة فاحسنوا اليهن وادبوهن · ولاتقتروا عليهن اذا كان لكم سعة · فاني انا الله الرزاق ذو الخزائن الواسعة الخ ·

سورة من نصف الزبور

بسم الله الرحمن الرحيم · يا داود قل للأفاك الكاذب الفتاك الذي يُسأل في عبادي ولم يتذكر آلائي ولم يعتبر بامثالي وأحكامي التي انزلتها على رسلي ·

وعزتي وجلالي اني عليم غير معلّم واني خبير غير مخبّر فقل لمن كان في تمرده وعصيانه الم تعلم ان بطشي شديد فبئس الورد ترد وبئس المنقلب تنقلب ·

سورة من آخر الزبور

بسم الله الرحمن الرحيم · ياابن آدم اكثر من الزاد فان الطريق بعيد واجود القيام لله فأن البحر عميق وخفف الحمل فأن الصراط دقيق · واخلص العمل فان الناقد بصير وأخر نومك الى القبر وفراشك الى الميزان وشهواتك الى الجنة وراحتك الى الآخرة ولذتك

الى الحور العين وكن لي اكن لك وتقربوا الي بالاستهانة بالدنيا وتباعدوا من الدنيا لبغض الفجار وحب الابرار فان الله لا يضيع أجر المحسنين .

نسخة أخرى من الزبور

جاء في مجلة العرفان الغراء التي تصدر بصيدا «م ٨ ص ٤٩١» ان في مكتبة الحرم المكي بمكة المكرمة نسخة من الزبور الذي ترجمه الامام علي بن ابي طالب — كما ذكر الفخر الرازي — منسوخة في ٦ ربيع الاول سنة ١٢٧٧ بقلم عبد اللطيف بن عبد اللطيف الدوبي الزمزمي في ١٤٨ سورة و ١١٧ صفحة بقطع الثمن ومن آياته :

ياداود مر بني اسرائيل لاينهروا المسكين ولا يضربوا اليتيم وليقوموا الى دجى الليل بقلوب خائفة واعين باكية .

استدراك على نسب أسرة الدجاني

كنت ذكرت في مقالي المشار اليه بأول الكلام[1] ان أسرة الدجاني يتصل نسبها بسيدنا داود عليه السلام وهو خطأ ساقني اليه اشتهار هذه الاسرة الكبيرة ببيت المقدس باسم «الداودي» بحكم قيامها على خدمة مقام سيدنا داود الى الآن . لذلك رأيت ان أشير الى هذا الخطأ غير المقصود واعتذر عنه وأقول ان هذه الأسرة قد تحدرت من الشيخ الصالح الزاهد صاحب الاوقاف المشهورة احمد الدجاني دفين تربة مامن الله ببيت المقدس ومن مشاهير رجالاتها يحيى بن درويش بن سليمان بن محمد المترجم له في سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمرادي «ج ٤ ص ٢٢٨» .

كما ان والده درويش وجده سليمان ومحمد المذكورين قد ترجم لهم المحبي في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر «ج ٢ ص ١٥٦ و ج ٢ ص ٢١١ و ج ٣ ص ٣٥٦» .

وقد نعت المحبي سليمان المذكور بالداودي المقدسي مما نستدل منه على ان نسبتهم الى الدجاني والداودي كانت جارية في الماضي كما هي جارية في الحال .

عبد الله مخلص

---

(١) مجلة المجمع م ٤ ص ٤١٣ .

منصور البهوتي

ترجم المحبي في خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر [١] لشيخ الحنابلة بمصر في زمانه منصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن بن احمد بن علي بن ادريس البهوتي المتوفى سنة ١٠٥١ هـ ١٦٤١ م ووفاه حقه .

وقد اقتنيتُ اخيراً نسخة مخطوطة من كتاب شرح المنتهى لمنصور المذكور كُتبتْ حديثاً ختمها ناسخها بترجمة المؤلف نقلاً عن محمد السفاريني [٢] الذي يظهر ان المحبي نقل عنه ايضاً .

وتمتاز ترجمة السفاريني بانه استقصى فيها تاريخ مولده بعد مدة واضافه اليها وذكر بعض من أخذ عنه من العلماء الذين اغفلهم المحبي مثل محمد ابي المواهب ومحمد الخلوتي وياسين اللبدي وعبد الحق ابن عمه ويوسف الكرمي .

وشرح المنتهى هو على « منتهى الارادات » للتقي الفتوحي وللشارح حاشية عليه ايضاً . وقد طبع هذا الشرح بهامش كتاب كشاف القناع عن متن الاقناع للمؤلف نفسه في المطبعة الشرفية بمصر سنة ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م .

والغريب ان يذكر في طرة الكتاب المطبوع ان كشاف القناع عن متن الاقناع هو لشيخ مشايخ الاسلام واوحد الكبراء الفخام صاحب الافتاء والتدريس العلامة الشيخ منصور بن ادريس الحنبلي وان شرح المنتهى هو لشيخ الاسلام وقدوة الأنام وخاتمة المحققين وبقية المدققين الشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي كأنهما لمؤلفين مختلفين في حين انهما لرجل واحد هو منصور بن ادريس المذكور .

وفي نسخة مخطوطة بخزانة كتبي من الكشاف جاء اسمه في الطرة كشاف القناع

---

(١) خلاصة الأثر جزء ٤ صفحة ٤٢٦ .

(٢) هو محمد بن احمد بن سالم ابن سليمان السفاريني النابلسي الحنبلي المترجم له في سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمرادي « ج ٤ ص ٣١ » وفيها انه توفي سنة ١١٨٨ هـ ١٧٧٤ م .

لشرح الاقناع بينا المؤلف بذكره في مقدمته باسم « كشاف القناع عن الاقناع » وهذه هي ترجمة السفاريني التي نقلها عنه ناسخ الكتاب :

« اقول الشيخ منصور المذكور احد اعلام علماء المذهب المتأخرين كان كثير العبادة غزير الافادة والاستفادة وصل اليه الحنابلة من الديار الشامية والنواحي النجدية والاراضي المقدسية والضواحي البعلية وتمثلوا بين يديه وضربت الابل اباطها اليه وعقدت عليه الخناصر وقال من حظي بنظره هل من مفاخر فاخذ عنه الشيخ يوسف البهوتي والشيخ عبد الرحمن البهوتي وسيدنا الشيخ محمد ابو المواهب والشيخ محمد الخلوتي والشيخ محمد المرادي[1] والشيخ ياسين اللبدي والشيخ عبد الحق ابن عمه والشيخ يوسف الكرمي ومحمد بن ابي السرور في آخرين .

وشرح الاقناع في ثلاث مجلدات ضخام وكذلك المنتهى وشرح المفردات وزاد المستقنع وهو احسن شروحه وله حاشية على الاقناع وحاشية على المنتهى .

وكان سخياً جواداً له مكارم دارة وبشاشة سارة وكان في كل ليلة جمعة يصنع ضيافة ويجمع جماعة المقادسة[2] في داره ومن مرض منهم عاده واخذه الى داره ومرّضه احسن تمريض الى ان يشفى وكان الناس يأتون بالصدقات فيفرقها في المجلس ولا يأخذ منها شيئاً .

وكانت وفاته رضي الله عنه ضحى يوم الجمعة عاشر ربيع الثاني سنة احدى وخمسين والف بمصر المحروسة ودفن بتربة المجاورين رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين .

والى الآن لم اعلم تاريخ مولده رضوان الله عليه قال الفقير الشيخ محمد السفاريني لخصت هذه الكلمات من ترجمة في تراجم متأخري الاصحاب التي جمعتها والله يختم بالصالحات والله سبحانه وتعالى اعلم .

ثم رأيت سنة ١١٥٨ ابن ام اخته الشيخ محمد الخلوتي ذكر في كتاب الحجر انه سأله عن مولده فأخبره انه سنة الف فكان عمره احدى وخمسين سنة رضي الله عنه[3] .

عبد الله مخلص

(١) في خلاصة الأثر المرداري . (٢) في الأصل المقاسدة وهي من غلط الناسخ .

(٣) لم يذكر المرادي في ترجمة السفاريني مجموعه هذا المتعلق بالتراجم .

واثلة بن الأسقع

ذكر رئيسنا الأجل في مقالته «التدوين في الاسلام[1]» ان واثلة بن الاسقع احد اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين سمعوا منه مات في بيت المقدس وانه كان يشهد المغازي فيمر بدمشق وحمص .

والذي في كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني[2] انه آخر من مات بدمشق من الصحابة .

وذكر السائح الهروي في كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات[3] ان قبره قبلي الباب الصغير وكذلك قال ياقوت الحموي[4] :

وزاد أكمل الدين ابن مفلح الذي ملك نسخة الاشارات المخطوطة بحاشيتها ان لواثلة مسجداً بدمشق داخل باب الشاغور قرب تربة الشنباشي يعرف به .

واكمل الدين هذا هو محمد بن ابراهيم بن عمر بن ابراهيم بن محمد بن مفلح الدمشقي المتوفى سنة ١٠١١ هـ ١٦٠٣ م

عبد الله مخلص



(١) مجلة المجمع العلمي العربي م ١٠ ص ٤١٠ .
(٢) الاصابة ج ٦ ص ٣١٠ .
(٣) من مخطوطات الخزانة التيمورية في القاهرة .
(٤) معجم البلدان طبع ليبسك ج ٢ ص ٥٩٥ وطبع مصر ج ٤ ص ٧٩

نوادر المخطوطات
« في دار الكتب الظاهرية »
- ٦ -

(الرسالة الجامعة في الفلسفة) : تأليف الحكيم مَسْلمة بن احمد المعروف بالمجريطي القرطبي الاندلسي المتوفى سنة ٣٩٥ ﻫ وهي على نمط رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا . أولها : الحمد لله الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى الخ نسخة في ٥٠٠ صفحة متوسطة القطع بخط عبد الرزاق الحموي سنة ١٠٠١ [رقم ١٥٩ قسم التصوف] .

(مفرح النفس)[1] : تأليف شرف الدين محمد بن عمر بن ابي الفتوح البغدادي المعروف بابن المزة من أطباء القرن السابع أوله : اما بعد حمد الله تعالى خالق الداء والدواء والمنقذ من الأعراض والادواء بمفرحات النجاة والشفاء الخ . قال مؤلفه (اني لما طالعت أكثر الكتب الطبية لم اجد فيها ما يشفي القلب من ذكر الأمور المفرحة للنفس والموجبة للذاتها وراحتها وسرورها . ثم ان الشيخ الرئيس ابن سينا صنف كتاباً في الأدوية القلبية ولم يستوعب اجناسها بل اقتصر على جنس واحد منها ثم جعله حاوياً لا كثر المفرحات للنفس وجعل لكل حاسةٍ باباً الخ) نسخة في ٦٦ صفحة صغيرة كتبت بخط نسخ [رقم ٣٢ قسم الطب] .

(العمل بالاسطرلاب) : تأليف علي بن عيسى (كذا) ولم يرد ذكره في كشف الظنون والذي يظهر انه لابراهيم بن حبيب الفزاري اوله : قال الشيخ الفاضل ...... وهنا كشط ظاهر وكتب مكانه علي بن عيسى بخط جديد . ثم خطبة الكتاب التي أولها الحمد لله خير ما استفتح به واستنجح ببركته وصلى الله على الصفوة من بريته وسلم وكرم وشرف وعظم الخ . وهذا الكتاب يتضمن من أبواب العمل بالاسطرلاب ما لا بد منه ولا غنى عنه وهو في تسعين باباً في ١١٤ صفحة صغيرة كتبت بخط قديم يرجع الى القرن الخامس مضبوط بالحركات [رقم : ١ الفلك] .

حسني الكسم

(١) وذكر صاحب كشف الظنون انه لمجد الدين عبد الوهاب بن احمد الدمشقي المتوفى سنة ٦٩٤ ﻫ .

مطبوعات حديثة

--- () ---

آراء ابن خلدون الاقتصادية

Les idées économiques d'Ibn Khaldoun

« كتاب بالفرنسية في ٢١٥ صفحة من القطع المتوسط تأليف السيد صبحي »
« المحمصاني الدكتور في الحقوق »

بحث عدد من المستشرقين عن ابن خلدون ومؤلفاته وفلسفته وأعجبوا بمقدمة تاريخه خاصةً فترجموها الى لغاتهم او لخصوها . وألف الدكتور طه حسين كتابا بالفرنسية في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ثم اتى اليوم الدكتور صبحي المحمصاني ، فذكر آراء فيلسوفنا الكبير في شؤون اقتصادية مهمة ، كحاجات البشر وامتلاك العقارات ، وقانون العرض والطلب والعمل ، وتوزيع الاعمال ، وتصنيف وسائل الارتزاق والكسب ، وفضائل التجارة الخارجية ، والضرائب والسكان وتأثير البيئة في إقدام الناس على العمل ، وحرية التبادل ووظيفة الدولة في الشؤون الاقتصادية ، والنقود الاسلامية وغيرها . وقد ذكر المؤلف البيئة التي عاش ابن خلدون فيها ، كما ذكر حياته ومؤلفاته ، وقواعد الاقتصاد في الاسلام ، وآراء من تقدموا ابن خلدون في الشؤون الاقتصادية كالفارابي وابن سينا والغزالي وابي الفضل الدمشقي . فجاء الكتاب مفيداً سواء لطلاب الفائدة من العرب أم الاجانب الذين يودون الوقوف على الأعمال العقلية لرجالنا الاقدمين . ومع ذلك وجدت في تضاعيف الكتاب بعض هنات لا يصح السكوت عليها كقوله في الصفحة ٥٥ ان الخراج ايام عمر (رض) كان غير عادل وهو كلام لا يصدقه احد من العلماء وكقوله في الصفحة التاسعة ان الخراج كان يبلغ ايام العباسيين ثلث الغلة الزراعية أو نصفها . فهذا القول يجب ان لا يكتفى به على

علاته لأن الخراج في الخلافات العربية القديمة ماكان يزيد على عشر المحاصيل حتى يبلغ ثلثها أو نصفها الا في حالات شاذة والشذوذ لايقاس عليه (أنظر م ٧ ص ١٠٧ — ١٠٩ من هذه المجلة وانظر مقالنا في العدد التالي) .

وكقوله في الصفحة ٤٣ ان انشاء ابن خلدون ضعيف ومغلق اجمالاً وان جمله تكون متداعية في تركيبها احياناً وان بعض تعابيره مغلوطة الخ . فهذا القول إن كان يقصد به اللغة دل على ضعف السيد صبحي المحمصاني بها لا على ضعف ابن خلدون ، لأن كل من يتذوق جودة الإنشاء في الموضوعات المختلفة التي كتب فيها ابن خلدون يحكم بانه من أئمة الكتاب الذين لا يشق لهم غبار . اما اذا كان يقصد بهذا القول العلوم التي حوتها مقدمة ابن خلدون فان لكل من يبتكر في عصر كذلك العصر كبوات يجب على علماء اليوم ان يغتفروها .

وبعد نشكر للمؤلف الفاضل هديته الثمينة وحبذا لو ترجم كتابه الى العربية .

مصطفى الشهابي

قصص جديدة للاطفال

« بابا عبد الله والدرويش . ابو صير وابو قير . علي بابا . عبد الله البري »

« وعبد الله البحري . الملك عجيب . خسروشاه »

بقلم كامل كيلاني

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

ان اشد نواحي الادب العربي قفراً ما كان منها خاصاً بالنشء الصغير . فقد يكاد يكون هذا القسم خلواً من الكتب الصالحة لاحتقار الادباء له وانصرافهم الى ماهو اسمى وادعى للشهرة . بينما الحقيقة هي ان التأليف في هذا النوع من الأدب اصعب من التأليف في غيره لما يستلزمه من لغة وأسلوب انشاء خاص وسعة معرفة في فن التربية وعلم النفس . وقد شاء الاستاذ السيد كامل الكيلاني ان يتم من هذا النقص فاخرج عدة قصص جديدة

للاطفال اطلعنا على ست منها وهي التي جعلنا اسماءها عنوان هذه الكلمة فالفيناها كاملة الصفات الصورية ولكنها تحتاج الى عناية خاصة من حيث الموضوع فهي معتدلة القد ، متقنة الطبع ، جيدة الورق ، جميلة الرسوم ، سهلة العبارة فصيحة الألفاظ مشكلة الحروف تستقيم بقراءتها لغة القارئ فتنطبع الألفاظ في ذاكرته صحيحة خلافاً للقصص والكتب المدرسية غير المشكولة فانها من عوامل افساد اللغة لأن القارئ المبتدئ يحفظ الفاظها معوجة فيتعذر عليه تقويمها في المستقبل .

اما من حيث الموضوع فانها مقتبسة من كتاب الف ليلة وليلة ولا يخفى ما في بعض موضوعات قصص هذا الكتاب من الحوادث المخيفة القائمة على الوهم والخيال التي تلذ قراءتها للصغير ولا تحمد عقبى تأثيرها في نفسه لانها تنطبع في حافظته كأنها حقائق محسوسة وتتمثل له في احلامه وفي خلوته ، لاسيما في الظلمة فينشأ شديد الخوف والتخيل سريع الانفعال وهل من احد يجهل مضار ما كان يتلى على الصغار من قصص الجان والعفاريت وما كانوا يخوفون بلفظه كالبعبع وغيره ؟ فعسى ان يعمد المؤلف فيما سيخرجه للنشء العربي من القصص المفيدة الى اختيار الموضوعات التي تتمثل فيها البطولة والشجاعة والجرأة والشهامة والكرم والاباء والفضيلة بمظاهرها الحقيقية . فانها تربي في نفسه سجايا رفيعة فيضاعف بعمله هذا خدمته للغة وبنيها .

اسعد الحكيم

القرآن

« بالحروف اللاتينية . مكتبة حلمي في استانبول وانقرة ١٩٣٢ »

ليس بالغريب بعد ان الف الاتراك الحروف اللاتينية وهجروا الحروف العربية هجراً لم يبق من سابق صلتهم بها عيناً ولا أثراً ان يعمدوا الى القرآن فيكتبوه بالحروف اللاتينية لتتسنى لشعبهم المتدين قراءته دون ان يكون له مسوغ لتعلم الحروف العربية أو الاتصال بها .

وقد اطلعنا على نسخة من القرآن الكريم الذي عنيت مكتبة حلمي بطبعه ونشره

بالحروف اللاتينية في السنة الحاضرة بمعرفة لجنة علمية من ذوي الكفاءة فالفيناها لاتختلف من حيث الحجم والشكل الخارجي المذهب ورسوم السجدات والاحزاب والفواصل عن النسخ القرآنية العربية • وقد اصطلح في كتابته على جملة من الحروف المركبة والاشارات تضمن قراءته بالمخارج الصوتية العربية مع مراعاة الوقف والمد وغيره • مما يدل على ان الروح الاسلامي لم يزل يرفرف تحت سماء الحكم التركي الجديد •

اسعد الحكيم



الطب العربي وتأثيره في مدنية اوربا

« تأليف الدكتور زكي علي • طبيب بمستشفى القصر العيني »

« مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣١ »

رسالة صغيرة ضمنها المؤلف كلمة عامة في نشوء الحضارة الاسلامية ومصادر الطب العربي ، وتراجم بعض من اشتهر به كابن سينا والرازي وغيرهما • وما كان لانتقال العلوم الطبية العربية الى اوربا من التأثير في نشوء مدنيتها الحديثة • وذلك بصورة اجمالية موجزة • وقد ختم المؤلف رسالته بذكر المصادر التي استقى منها هذا الموضوع وليس فيها ذكر لأطروحة الدكتور السيد يوسف حريز « تأثير الطب العربي في نشوء الطب الفرنسي » التي اشرنا اليها في محاضرتنا « الطب عند العرب » التي نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي في مجلدها السادس ص٤٤٥ سنة ١٩٢٦ مما يدل على ان المؤلف لم يطلع عليها ولما كان في هذه الأطروحة أسانيد قيمة تدعم فكرة المؤلف رأينا من الواجب التنويه بها اتماماً للفائدة المتوخاة من هذا البحث •

اسعد الحكيم



مجموعة الرقم العربية

« طبعت باشراف أن . كومب . وج . سوفاجه وج . فييت . الجزء الثاني »
« عدد صفحاته ٢٧٦ طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٢ »

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. Publié sous la direction de M. M. Et. Combe, J. Sauvaget et G. Wiet. Tome II, 276 pages. Le Caire 1932

هذه المجموعة هي من مطبوعات المعهد الافرنسي للآثار الاسلامية في القاهرة ، اشترك بجمعها نخبة من علماء المشرقيات والمحققين وقد ضم هذا الجزء ٤٠٠ كتابة رتبت بحسب قدمها وتاريخها من سنة ٢٤٣ هـ الى سنة ٢٨٥ هـ . واكثر هذه الرقم شواهد قبور وقد ترجمت جميع هذه النصوص الى الافرنسية بدون تعليق . وقد عثرت على بعض اغلاط لا ادري ان كانت في اصل المتن أو هي خطأ طرأ على قراءتها . وعلى كل حال فقد رأيت من المفيد الاشارة اليها : فقد جاء في الشهادات الآتية :

الشاهدة رقم ٤٠٦ ص : ٥ وس : ٤ (ورحم عليه) وصوابه (وترحم عليه) كما ورد في الشاهدة رقم ٤٠٩ .

الشاهدة رقم ٤١١ ص : ٩ وس : ٤ (المور) وصوابه (الميزان) .

الشاهدة رقم ٤٩٣ ص : ٦٧ وس : ١ (هذا ما تشهد به لحجاجة) وصوابه (هــذا ما نشهد به لحجاجة) .

الشاهدة رقم ٥٠٧ ص : ٧٢ وس : ١ (رم) ضبطها (رُم) .

الشاهدة رقم ٦٣١ ص : ١٦٢ وس : ٤ (اخذه منها تعبا ظاهرا) وصوابه (أخذه منها نقياً طاهراً) وفي س : ٨ (فالأسماء) وصوابه (فالاسا)

الشاهدة رقم ٦٥٠ ص : ١٧٦ س : ٢ (وتحزم العباد بدلة الفناء) وصوابه (ويحرم العباد بذلة الفناء) .

الشاهدة رقم ٦٥٣ ص : ١٧٨ س : ٢ (ثقل الله بها ميزانه) يراد به ميزان والدهــا لاميزان الله كما جاءت الترجمة الافرنسية .

وفي س : ٣ (وجعلها نوراً بين يديه رحمة الله ٠٠٠) وصوابه (وجعلها نوراً بين يديه ورحمة الله ٠٠٠

وبعد فقد اسدى القائمون بهذا العمل خدمة جليلة للتاريخ الاسلامي وللغة العربية ، ومتى نجز أصبح من اعظم ماقام به علماء المشرقيات نحو أبناء البلاد العربية فبارك الله بهمة القائمين به ووفقهم لاتمامه .

جعفر الحسني



اثنا عشر كوكبا(1)

أيها السادة !

اقترح بعض الفضلاء أن ألقي على الرجال المحاضرة التي كنت ألقيتها في الاسبوع الماضي على السيدات في هذه الردهة بعنوان (اثنا عشر كوكبا) . ولقد وافق هذا الاقتراح رغبتنا اذ اننا نحب أن يطلع السادة الرجال على نموذج من المحاضرات التي نلقيها على السيدات . فيكون في ذلك زيادة اطمئنان الى المحاضرات النسائية . وإقبال عليها .

وقد اعتدت أن أراعي في المحاضرات النسائية حالة نسائنا في ملكة اللغة العربية ودرجة مقدرتهن على فهم اساليبها . فأفرغ المحاضرات لهن في قوالب سهلة الألفاظ عليهن قريبة التناول من أذهانهن . فأرجو أن لا تؤاخذوني فيما ترون من لين العبارة . والزيادة او التكرار في توضيح الاشارة . وهذه هي المحاضرة :

***

محاضرتي اليوم أيتها السيدات تاريخية . والتاريخ الذي هو العلم بأخبار الماضين من الذ العلوم وانفعها للبشر : لاننا اذا تعلمنا التاريخ وتأملنا كيف كان يعمل الناس الذين عاشوا قبلنا استحسنا من اعمالهم اشياء فنقلدهم فيها واستقبحنا اشياء فنتركها ونعرض عنها . على أن من قرأ تاريخ الازمان الماضية كان كأنه عاش في تلك الازمان كلها على حد قول الشاعر:

(ومن درى أخبار من قبله أضاف أعماراً الى عمره)

وكتب التاريخ مختلفة في طرائقها . وكيفية تأليف أجزائها : وأشهر طرائقها أن

(1) هي المحاضرة التي القاها الأستاذ «المغربي» على النساء ثم على الرجال سنة ١٩٢٣م

يذكر المؤرخ الأزمان الماضية سنةً وراء سنة . وكلما ذكر سنةً ذكر الحوادث التي جرت فيها : مثل موت فلان الملك . وقيام آخر مكانه . ومثل انه حصل حرب بين الملك الفلاني والملك الفلاني . ومات فلان وفلان من عظماء الرجال . وحصلت مجاعة او طاعون مات بهما كثيرون من البشر . وظهر في السماء نجم (ابو ذنب) فذعر له الناس الخ . ثم يقول المؤرخ . ودخلت السنة التي بعد تلك فجرى فيها من الحوادث كيت وكيت ولا يزال يسرد السنين واحدة وراء واحدة حتى يكمل تاريخه .

ومن كتب التاريخ ما يسمى (التراجم) و (الطبقات) وهو ان يذكر المؤرخ تراجم مشاهير الناس الماضين . ويسرد اخبارهم . وما فيه فائدة من احوالهم من دون تخصيص زمان ولا مكان مثل تاريخ ابن خلكان ومن المؤرخين من يخصص الزمان : فيذكر الذين عاشوا مثلاً في القرن الثامن للهجرة او التاسع او العاشر . كتاريخ نجم الدين الغزي الذي سماه (الكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة) ولم يطبع بعد وهو من مخطوطات دار كتب المجمع العلمي .

ومن المؤرخين من يخصص المكان . فيذكر في تاريخه علماء بغداد او الحجاز او اليمن مثلاً ولا يذكر سواهم مثل تاريخ (تاج المفرق في علماء المشرق) للبلوي . ومنهم من يخصص الطبقة والصنف فيذكر علماء الحنفية وحدهم او الشافعية . او الحنابلة . او الاطباء . او العميان . كما فعل الصلاح الصفدي في كتابه (نكت الهميان) وكتاريخ طبقات الاتقياء لابن حبان . وهو مما أهداه الامير سعيد الجزائري الى مكتبة المجمع . ومن هذا القبيل كتاب (الدر المنثور في تراجم ربات الخدور) الذي ألفته السيدة (زينب فواز) العاملية الأصل المصرية الموطن والوفاة . وتاريخها المذكور طبع منذ ثلاثين سنة . وهو مجلد ضخم عدد صفحاته (٥٥٠)صفحة تضمنت ترجمة نحو(٥٠٠) سيدة من جميع أجناس النساء شرقيات وغربيات . معاصرات . وقديمات .

* * *

ندع هذه التواريخ جانباً ونرجع الى تاريخ (نجم الدين الغزي) الذي سماه (الكواكب السائرة)وهو الذي حكى لنا فيه أخبار المشاهير الذين عاشوا في القرن العاشر اي منذ (٤٠٠ سنة) . وانما سماه (الكواكب) لأن كل واحد من المشاهير الذين ذكرهم في كتابه

يشبه كوكب السماء . في الرفعة والنور والبهاء . نقلب بين ورقات هذا الكتاب لنرى هل يوجد بين كواكبه الرجال كواكب من النساء ؟ نقّبنا وبحثنا فوجدنا بين أولئك الكواكب (اثني عشر كوكبًا) او اثنتي عشرة امرأة فاضلة عالمة : (ثنتان) في مصر و (خمس) في حلب و (خمس) في دمشق . هذه الكواكب من النساء هن اللواتي أريد ان اسرد تراجمهن . واذكر ما يحسن من أخبارهن . ولهذا سميت محاضرتي (اثنى عشر كوكبا) وكواكب الناس ككواكب السماء : مختلفة الأقدار . متفاوتة في الأنوار . لذلك ترون الكلام على بعض النساء قليلاً . وعلى بعضهن كثيرا .

* * *

(الكوكب الأول) (أم الهنا) المصرية . بنت القاضي (ناصر الدين البدراني) كانت شيخة مباركة صالحة . ولها رواية في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعنى ذلك انها كانت تتلقى حديث رسول الله عن شيوخها حتى اذا أتقنت هذه الأحاديث حفظاً وفهماً سمح لها شيوخها أن ترويها للناس وتعلمهم إياها . وكانت وفاة هذه الشيخة سنة (٩١١) للهجرة .

(الكوكب الثاني) (فرح) المصرية . بنت الامير الكبير الدوادار يشبك . و (الدوادار) لقب من ألقاب الامراء في زمن ملوك مصر الجراكسة . أما أمها فهي بنت الملك المؤيد (شيخ) واسمها (خوند بدرية) . وكانت (فرح) من العابدات التاليات للقرآن العظيم . كثيرة الصدقات على الارامل واليتامى والمنقطعين . ولما أحسّت بدنو اجلها أوصت بشيء كثير من أثاث قصرها . واعتقت جميع مماليكها . وكانت وفاتها سنة (٩٢٧) .

(الكوكب الثالث) (فاطمة بنت الحنبلي) الحلبية . تلقت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيخ المحدث (برهان الدين) وزارت بيت المقدس وحجت مرتين . وزهدت في الدنيا . ولبست العباءة التي يلبسها الزهاد ثم حجت مرة ثالثة فماتت بمكة سنة (٩٢٥) .

(الكوكب الرابع) (خديجة بنت البيلوني) الحلبية . كانت شيخة صالحة

فقيهة . أجاز لها الشيخ الكمال (ابن الناسخ الطرابلسي) رواية حديث البخاري . وكان أهلها شافعية . فلما تزوجت برجل حنفي المذهب تحنفت مراعاة لزوجها . لأن زوجها كان يمس يدها أحياناً فينتقض وضوءها : كما هو حكم مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه . وهي رضي الله عنها ما كانت تتعصب لمذهب دون مذهب كما يفعل بعض الشيوخ . بل كانت تعلم انه لا فرق بين المذاهب . ولا يضر أن يدع المسلم مذهبه ويتبع مذهباً آخر من المذاهب الاربعة . إذ أن كلهم على هدى وسداد . ولما صارت حنفية حفظت عن ظهر قلبها كتاباً في المذهب الحنفي . وماتت سنة (٩٣٠) .

(الكوكب الخامس) (بتوران) الحلبية بنت قاضي القضاة (محمد اثير الدين) ابن الشحنة . وبيت الشحنة في حلب بيت علم قديم ومنهم بل أشهرهم ركن الدين ابن الشحنة قاضي الحنفية في حلب وهو صاحب التصانيف المشهورة وقد توفي سنة (٨١٥) وبتوران الشحنية عاشت بعده بنحو مئة سنة وكانت خيرة صالحة . حجت مرتين . وكلمة (بتوران) تركية ولعلها هي وتوران وبوران من اصل واحد فتحول احداهما الى الأخرى تخفيفاً . ودرست بتوران العلوم . ولها نثر ونظم . وكانت كثيرة الانفاق على الفقراء والمساكين . حتى إنها لما احست بالموت حمدت الله إذ لم يكن في صندوقها درهم ولا دينار . يعني انها حمدته مذ وفقها الى إنفاق جميع مالها في سبل الخير ومواساة المعوزين . ومن أخبارها انها استأجرت وقفاً على مدة تسعين سنة . وكان الذي آجرها الوقف فقيراً . فلما علمت بحاله أعادت اليه وقفه من دون ان تسترد منه المال الذي اعطته اياه . بل سامحته به . وكان مضى من مدة الإجارة زمن قليل . ولما مات اخوها محب الدين الشحنة في الشام رثته فقالت :

(دعوا دمعي بيوم البين يجري فقد ذهب الأسى بجميل صبري)
(وكيف تصبري وأخي رهين بأرض الشام في ظلمات قبر)

وكانت ولادة (بتوران) سنة (٨٦١) ووفاتها سنة (٩٣١) فتكون عاشت نحو سبع وسبعين سنة .

(الكوكب السادس) (باي خاتون) الحلبية : قرأت على عمها شيخ الاسلام

(زين الدين ابن الشماع) كتاب الاحياء للغزالي ، وكتاب المنهاج للنووي ، وكان عمها (زين الدين) يزورها كثيراً ، ومات ورأسه في حجرها ، ومن أخبارها انها تصدقت بمائتي مثقال ذهب وكانت ترقي للريح الاحمر فيبرأ المريض باذن الله تعالى ، وكانت وفاتها سنة (٩٤٢) ودفنت بجوار عمها (الشيخ زين الدين المذكور) .

(الكوكب السابع) (فاطمة بنت قرتيان) الحلبيــة الشيخة الفاضلة الصالحة كانت رئيسة للزاويتين : (الزاوية العادلية) و(الزاوية الدجاجية) وكانت حسنة الخط : كتبت كتباً كثيرة ، ولها عبــارة فصيحة ، وقد غلب عليها التقشف والتعفف وملازمة الصلوات حتى في حالة المرض ، واخبرت عن نفسها قالت : اخذت العلم عن زوجي الشيخ كمال الدين الأردبيلي ، وكان زوجها هذا متقناً لستة وثلاثين علماً ، وعند موتها أوصتهم ان يدفنوا معها سجادة صلاتها .

وكانت ولادتها سنة (٨٧٨) ووفاتها سنة (٩٦٦) فتكون عاشت ثماني وثمانين سنة . وذكر المؤرخ (ابن الحنبلي) انه شهد جنازتها وحمل بنعشها .

* * *

فرغنا من الكلام على سبعة كواكب: مصريتين وخمس حلبيات . فلننتقل الى الكلام على الكواكب الخمسة الدمشقيات :

(الكوكب الثامن) (أمة الخالق) أم الخير الدمشقية ، تلقت العلم عن (الجمال الحنبلي) ، وأجازها الشرف ابن الكويك ، وبموتها نزلــــ اهل الأرض درجة في رواية البخاري ، وكانت ولادتها سنة (٨١١) ووفاتها (٩٠٢) فتكون عاشت إحدى وتسعين سنة .

(الكوكب التاسع) (خديجة بنت نصرالله) الدمشقية الصالحية كان للناس فيها اعتقاد عظيم ، وعلى الخصوص الأتراك العثمانيون الذين كانوا قريبي عهد بالاستيلاء على بلاد الشام وبلاد مصر اي نحو عشرين سنة ، حتى ان الوزير الاعظم (اياس باشا) ارسل اليهــا من الاستانة مبلغاً من المال لتعمير دارها ، وكانت دارها من أوقاف الزاوية الداوودية ، وكان اذا شاورها احد الناس في أمر ما تقول له : إصبر حتى أبيّت لك النية

في هــذه الليلة . ثم تصبح فتشير عليه أن يفعل كذا او يترك كذا . وكان غالب ما تشير به يتحقق . لكنّ ابن عمها (الشيخ زين الدين بن نصر الله) كان ينكر عليها ذلك . ويقول لها : (هذا من فعل الكهان ولا استحسن لك يا ابنة عمي ان تشتغلي بهذه الأمور) ولعمري ان الحقّ مع ابن عمها : لأن الغيب لا يعلمه الا الله . وديننا الاسلامي نهــانا ان نصدق الكهان الذين يدّعون معرفة المغيّبات . لأجل سلب المال من المغفّلين والمغفّلات . ثم لما عزمت الشيخة خديجة على الحج وقفت بيتها على جامع الحنابلة واعتقت جاريتها . وكانت الشيخة رحمها الله مقعدة : لا تقدر على الطواف حولــ الكعبة فحملوها في شُقدُف . وطافوا بها . ولما رجعت من الحج ماتت في الطريق في المكان المسمى (هدية) : وهو أحد منازل الحج الشامي . وكانت وفاتها سنة (٩٤٦) .

(الكوكب العاشر) (خديجة بنت محمد) الدمشقية من بني الغزي المشهورين وهي الشيخة الصالحة الفاضلة الفقيهة . تلقت العلم عن ابن عمها (شيخ الاسلام رضي الدين الغزي) وسمعت البخاريـ والفقه على ابنه (شيخ الاسلام بدر الدين الغزي) وماتت سنة (٩٣٥) ولم يكن لها قريب الا الشيخ رضي الدين الغزي فأثبت نسبها وورثها .

(الكوكب الحادي عشر) (دمشقية من بني الغزي ايضاً وهي (زينب بنت الشيخ رضي الدين الغزي) المذكور . وأخوها بدر الدين الغزي وابن اخيها نجم الدين الغزي . مؤلف كتاب (الكواكب السائرة) .

وبيت الغزي في دمشق بيت علم قديم . وكان نساؤهم يجارين رجالهم في الفتوى والتأليف والتصنيف : يحكى أن الفتوى كانت تصدر من دارهم وعليها تواقيع عدة : الأب وزوجته وابنه الأكبر وابنته وكنته الخ .

ويحكى ان (نجم الدين الغزي) درس في الجامع الأموي وهو دون البلوغ . فكان اذا جلس للتدريس في شهر رمضان وضع قلة الماء على الكرسي بجانب الكُراس وكلما جفّ ريقه وعطش تنــاول القلة وشرب لأن صومه نفل . اما نشره العلم بين الناس فهو آكد واجبٌ من صيامه .

وكانت عمته (الشيخة زينب الغزية) من فضليات النساء علماً وديناً وصلاحاً تخرّجت

على والدها (الشيخ رضي الدين) ثم على اخيها (الشيخ بدر الدين) وكتبت لأخيها كتباً بخطها • ومدحته بقصيدة عرّضت فيها بخصومه وحساده فقالت :

(انما العالم الذي جمع العلم واكتمل)
(قام فيه بحقه يُتبع العلم بالعمل)
(سهر الليل كله بنشاطٍ بلا كسل)
(فهو في الله دأبه أبدَ الدهر لم يزل)
(حازَ علماً بخشيةٍ وبدنياه ما اشتغل)
(حاسديه ! تعجبوا ليس ذا الفضل بالحيل)
(ذاك مولاه خصّه بكمالٍ من الأزل)
(من يرم مشبهاً له في الورى عقله اختبل)
(أو بلوغاً لفضله فله قطُّ ما وصل)
(فهو شيخي وسيدي وبه النفع لي حصل)

ذكر هذه الابيات ابن اخيها (نجم الدين) في تاريخه (الكواكب السائرة) ثم قال: (ولقد أجادت فيما شادت) • ولها غير ذلك من الاشعار في الوعظ وغيره في غاية الرقة والسلاسة • قال ابن اخيها : (وكانت من أعاجيب العصر • وافاريد الدهر) • وكانت ولادتها سنة (٩١٠) ووفاتها سنة (٩٨٠) فتكون عاشت سبعين سنة •

* * *

(الكوكب الثاني عشر) وهو تتمة الكواكب وأفضلها وأتمها نوراً واشراقاً فهو بينها كالشمس بين النجوم • أو كسيدنا يوسف عليه السلام بين اخوته : الأحدَ عشر الذين رآهم في المنام • فقال لأبيه يعقوب عليه السلام (إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) •

هذا الكوكب هو (عائشة الباعونية) الدمشقية • أعلم نساء القرن العاشر الذي عاشت فيه • بل ربما لم يقم في الاسلام بعد كبار الصحابيات والتابعيات من يشبهها في العلم والفضل • والتفنن في النظم والنثر • والاجادة في التصنيف والتأليف • كانت

كالشيخ عبد الغني النابلسي : في الجمع بين علوم الدين . وعلوم الادب . وعلوم التصوف . وقد قال بعضهم ان الباعونية في نساء الخلف كالخنساء الشاعرة رضي الله عنها في نساء السلف .

(نسب الباعونية) هي عائشة بنت القاضي (يوسف بن احمد بن ناصر الدين) . وكنيتها ام عبد الوهاب . وشهرة بيتها (الباعوني) نسبة الى (باعونة) وهي قرية من قرى عجلون .

(نشأتها وشيوخها) قالت هي تخبر عن أول نشأتها « وكان مما أنعم الله عليّ انني بحمده تعالى لم ازل اتقلب في اطوار الايجاد . في رفاهية لطائف البر الجواد . الى ان خرجت الى هذا العالم المشحون بمظاهر تجلياته . الطافح بعجائب قدرته وبدائع آياته . المشوبة موارده بالاقذار والاكدار . الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار دار ممر لابقاء لها الى دارالقرار . فرباني اللطف الرباني في مشهد النعمة والسلامة . وغذاني بلبان مدد التوفيق لسلوك سبيل الاستقامة . وفي بلوغ درجة التمييز . أهلني الحق لقراءة كتابه العزيز . ومنّ عليّ بحفظه على التمام . ولي من العمر ثمانية أعوام . ثم لم ازل في كنف ملاطفات اللطيف . حتى بلغت درجة التكليف » . اه

ويفهم من كلام (الغزي) ان اهلها أخذوها الى مصر القاهرة للتحصيل فنالت من العلم نصيبًا وافراً . واجازهـا شيوخها بالافتاء والتدريس ثم عادت الى وطنها دمشق الشام . وتلقت علم الفقه والنحو والعروض عن عدة علماء منهم الشيخ (اسماعيل الحوراني) . وقال الغزي انها تنسكت على يد السيد الجليل الشيخ (اسماعيل الخوارزمي) . ولا أحسب الا ان شيخيها المذكورين (اسماعيل الحوراني) و(اسماعيل الخوارزمي) واحد وقد تحرف احد الاسمين الى الآخر . وبعد الشيخ اسماعيل لازمت خليفته الشيخ يحيى الارموي . وتلقى عنها العلم طائفة من العلماء الاعلام .

(ماقالوه في نعتها) قال الغزي في الكواكب السائرة : (هي الشيخة الاريبة العالمة العاملة الصوفية أحد افراد الدهر . ونوادر الزمان . فضلاً وعلماً وادباً وشعرا . وديانة وصيانة .

وقالت (زينب فواز) في تاريخها (الدر المنثور) : (كان على وجهها من الجمال لمحة جملها الأدب . وحلتهـا بلاغة العرب . فجملتها بغية الطالبين . ومنية الراغبين) ووصفها الشيخ عبد الغني النابلسي فقال : (فاضلة الزمان . وخليفة الأدب في كل مكان) . وقال غيره (ربة الفضل والادب . وصاحبة الشرف والنسب) .

« موءلفاتها »

(١) « الفتح الخفي » — وهو يشتمل على كلمات لدنية . ومعانٍ سنية .
(٢) « الملامح الشريفة والآثار المنيفة » — وهو يشتمل على انشادات صوفية . ومعارف ذوقية .
(٣) « درر الغائص في بحر المعجزات والخصائص » — هي قصيدة رائية .
(٤) « كتاب الاشارات الخفية في المنازل العلية » — وهي أرجوزة اختصرت فيها كتاب « منازل السائرين » للشيخ الهروي .
(٥) « أرجوزة » — لخصت فيهـا كتاب « القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع » للسخاوي .
(٦) « المورد الأهنا في المولد الاسنى » — وهو مطبوع وتوجد منه نسخة بخط يد المؤلفة الباعونية في خزانة كتب أحمد باشا تيمور في القاهرة .
(٧) « فيض الفضل » — وهو ديوان شعرها . وتوجد منه نسخة ايضاً في خزانة تيمور باشا .
(٨) « الفتح المبين في مدح الامين » — وهو شرح لها على بديعيتهـا المشهورة التي مطلعها :

(في حسن مطلع أقمار بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم)

والشرح في مجلد لطيف نحو مئة صفحة . أوله : الحمد لله محلي جياد الافهام بعقود مدح الشفيع . ومحلي سلامة الأذواق بمكرر ذكره الرفيع الخ . وقد فرغتْ من تصنيفه سنة (٩١٩) .

ولا يخفى ان السيدة الباعونية كانت صوفية متنسكة . وطماه التصوف — وهم شيوخ

الطريق — اذا ذكروا الحب والمحبوب . والمشموم والمشروب . فانما يريدون بذلك جميعه معاني تتعلق بحب الله تعالى . فالله محبوبهم . وبه وجدهم وهيامهم . واشهر الصوفية الذين أطلقوا هـذه الالفاظ على هذه المعاني في مناجاتهم الالآهية الشيخ عمر بن الفارض . فالسيدة عائشة الباعونية انما ارادت بكلمة العشاق في قولها (اصبحت في زمرة العشاق كالعلم) عشاق الحضرة الالآهية .

* * *

نرجع الى بديعية الباعونية فنذكر لكم منها أبياتاً على سبيل الانموذج :

(الجناس المذيل والتام) .

(اقول والدمع جار جارح مقلي والجار جار بعذل فيه متهم)

(الجناس المركب).

(ياسعد ان أبصرت عيناك كاظمة وجئت سلعاً فسل عن اهلها القدم)

(الجناس المصحف والمطلق) .

(فثم أقمارُ تِمٍّ طالعين على طوبلع حيّهم وانزل بحيهم)

(الجناس المخالف) :

(أحبـةٌ لم يزالوا منتهى أملي وإن هموا بالتنائي أوجبوا ألمي)

(النزاهة) :

(عن ذمّ مثلك تبياني أنزّهه إذ أنتَ عنديَ معدودٌ من النِعَمِ)

(الغلوّ) :

(وذكره كاد — لولا سُنَّة سبقت — إذا تكرر يُحيي باليَ الرمم)

(التفريق) :

(قالوا هوالغيثُ قلتُ الغيثُ آونةً يهمي وغيثُ نداه لا يزال همي)

(تشبيه شيئين بشيئين) :

(كأنهم في عجاج النقع حين بدوا بدورُ تمٍّ بدت في حندس الظلم)

(العَقْد[1]) :

(حسبي بحبك أن المرء يُحشر مع أحبابه . فهنـاني غير منحسم)

وعدد أبيات هذه البديعيــة نحو (١٣٠) بيتاً . وقد أجادت في معظمها وربما فاقت غيرها من أصحاب البديعيات في كثير من الأبيات . وقد تكفل ببيان إجادتها وتفوقهـا على غيرها الشيخ عبد الغني النابلسي في شرح بديعيته الذي سماه « نفحات الأزهار على نسمات الاسحار » وهو مطبوع .

وقالت الباعونية في مقدمة شرح بديعيتها الذي سمته (الفتح المبين) ما نصه :

وبعد فهذه قصيدةٌ صادرة عن ذات قناع . شاهدةٌ بسلامة الطبـاع . منقحة بحسنِ البيان . مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان . سافرةٌ عن وجوه البـديع . ساميةٌ بمدح الحبيب الشفيع . مطلقة من قيود تسميــة الأنواع . مشرقةٌ في أفق الإبداع . موسومةٌ بين القصائد النبويات . بمقتضى الإلهام الذي هو عمدة اهل الاشـارات (بالفتح المبين . في مدح الأمين) الخ الخ .

ولم أُرد أيها السيدات ان أستقصي الدلائل على مقدرتها في صناعتي النظم والنثر وانما أردتُ الإلماع الى ان المرأة يمكنها ان تتعلم وتنال من العلم حظاً وافراً تنتفع به . وتنفع الناس . كما كان من السيدة الباعونية .

والذي يساعد النساء المسلمات على التحصيل والتفوّق في العلم انقطاعهن في البيوت . فانهن بدل ان يقضين أوقاتهن في البطالة والزينة ولهو الحديث يمكنهن بسبب هذا الانقطاع أن يقضينهـا في المطالعة والدرس والتحصيل . فالبيت بالنسبة الى المرأة المسلمة كالمدرسة الداخلية التي يمكث فيها التلميذ ليلاً ونهاراً . فلا يعرض له مايلهيه ويشغله عن الدرس والتحصيل . وهكذا السيدة الباعونية عرفت كيف تستفيد من العُزلة والانقطاع في الخدر . فضربت بسهم وافر من العلم وحسن الذكر .

***

(١) العقد هو أن يضمن الشـاعر شعره آيةً أو حديثاً أو حكمة وقد عقدت في هذا البيت حديث (يحشر المرء مع من أحب) .

« شعرها »

وشعر الباعونية رشيق الاسلوب . سهل الألفاظ . لاغموض فيه ولاتعقيد . ومنه قولها تصف دمشق :

(نزّه الطرف في دمشقَ ففيها كلما تشتهي وما تختار)
(هي في الارض جنةٌ فتأمل كيف تجري من تحتها الانهار)
(كم سما في ربوعها كلُّ قصرٍ أشرقت في سمائه الأقمار)
(وتناغيك بينها صادحات خَرِست عند نطقها الأوتار)
(كلُّها روضةٌ وماء زلال وقصور سكانها أبرار)

ومن شعرها البيتان المشهوران . قالوا انهــا نظمتها في جسر الشريعة لما بناه الملك الظاهر برقوق وهما :

(بنى سلطاننا برقوق جسراً بأمر والانام له مطيعــة)
(مجازاً في الحقيقــة للبرايا وأمراً بالمرور على الشريعة)

لكن هنا اشكال تاريخي : وهو ان الملك (برقوق) بنى هذا الجسر سنة ٧٨٢ ه وجعل طوله ١٢٠ ذراعاً وانتفع الناس به كما ذكر ذلك صاحب تاريخ (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) اما عائشة الباعونية فقد توفيت سنة (٩٢٢) اي بعد بناء الجسر بمائة واربعين سنة فلا يعقل انهــا كانت حية حين بنائه . فلعل الجسر تهدم واعاد خلفاء برقوق بناءه في زمنها فقالت البيتين ناسبة البناء الى برقوق لأنه اول من بنى .

ومن تشبيهاتها البديعة قولها في تشبيه خال في عنق مليح .

(كأنما[1] الخال تحت القرط في عنقٍ بدا لنا من محيا جَلّ من خلقا)
(نجمٌ غدا بعمود الصبح مستتراً خلف الثريا بقرب الشمس فاحترقا)

ومن شعرها :

(وصيرت بدر التم مذغاب مؤنسي أنيسي وقلت البدر منه قريب)

(١) رأينا حين إلقاء هذه المحاضرة على السيدات ان لانذكر لهن هذين البيتين ومابعدهما من أشعار الحب والغزل لكننا ذكرناها للرجال .

(لحجبه عني الغمام بذيله فوا عجباً حتى الغمام رقيب)

ومن شعرها بلسان رجال التصوف قولها :

(حبيبي انت من قلبي قريب وعن سرّي جمالك لا يغيب)
(لبستَ الحسن في حال التجلّي فشاهدتُ الجمال ولا رقيب)
(وأبْدَيْتَ الوصال فلا صدودٌ ولا هجر ولا شيءٌ يريب)
(وُطفت عليَّ في حان التصابي بكأسٍ عيش شاربه يطيب)
(تنـادمني وتسقيني مُدامي وتحضرني لديك فلا أغيب)
(وتذكرني وتشهدني جمـالاً تقدّس أن يكون له ضريب)
(فلا خوفٌ وانت أمان قلبي ولا سُقم وانت ليَ الطبيب)
(ولا حزنٌ وانت سرور سرّي ولا سؤلـــ وانت لي الحبيب)

واكرر القول بان شعرها هذا وما فيه من كلمات الحب والجمال والوصال والكاس والمدام — كله لم ترد به الباعونية الا الحب الالهي . ويفهم هذا المعنى جيداً من قولها في الشعر الغنائي :

(يا محبوبي يا مطلوبي . يامقصودي ياموجودي . كن لي كن لي . واجبر كسري وأغن فقري . بالتداني والوصال) .

(حبك تيّم . فيك المغرم . ولي هيّم . لا بل أعدم . عقلي عقلي . قـد حيرني قد شهّرني . وأضناني بالدلال) الخ .

فاسمعوا كيف قالت (اجبر كسري وأغن فقري) فهل يكون هذا الخطاب الا للرّب سبحانه وتعالى الذي هو وحده يجبر الكسر . ويغني الفقر .

« البقية تأتي » المغربي



العشر والخراج

« في الخلافات العربية »



أقرأ أحياناً لبعض المؤرخين والكتاب جملاً يشيرون فيها الى ثقل الخراج والضرائب الزراعية كافةً في الشرع الاسلامي ، ايام الخلافات العربية القديمة . فهذا ينقل ان المنصور العباسي جعل خراج الحنطة والشعير في السواد (العراق) مقاسمة، وان ابنه المهدي جعل المقاسمة بالنصف في الارض التي تسقى سيحاً ، وبالثلث في الارض التي تسقى بالدوالي وبالربع في الأرض التي تسقى بالدواليب . ويستعظم الكاتب هذا المقدار ويسكت عن خراج المحاصيل الأخرى وعن الاعشار وعن اساس ضريبة الخراج والأعشار في الاسلام حتى يظن القارئ ان الخلفاء السابقين كانوا ظلمةً يرهقون الرعية اجمالاً .

وذاك ينقل عن الاصطخري انخراج الجريب في شيراز حنطة اوشعيراً ١٩٠ درهماً دون تمعن في هذا الخلط الذي خلطه هـذا المؤرخ كما سنثبته بالأرقام . وذلك ينقل عن ابن حوقل ان القائد جوهر جبى خراج مصر سبعة دنانير على الفدان وهو يستكثر ذلك لكنه لايذكر لنا هل دامت هذه الجباية اكثر من سنة الخ .

ولما كانت هذه القضية ذات مكانة تتعلق بأساس العدل في الشرع الاسلامي ، وفي الخلافات الاسلامية الأولى ، جئت بهذه المقالة الموجزة مثبتاً ان العرب كانوا في الجملة عادلين في وضع الضريبة الزراعية على اشكالها ، وانهم كانوا أعدل من بعض الدول المتمدينة .

ولنراجع في هذا الصدد كتاب الخراج لأبي يوسف ، وكتاب الخراج لابن آدم القرشي ، نجد ان المسلمين عندما فتحوا الفتوح في صدر الاسلام ودوخوا الممالك وملكوا

بلاد الأكاسرة والقياصرة اقروا الاكارين على ارضهم حتى في البلاد التي فتحوها عنوة كسواد العراق مثلاً فان الشرع وقواعد الحرب في تلك الأيام كانت تبيح لهم الاستيلاء على بلاد العدو التي يظهرون عليها ، ومع هذا عفت نفوسهم عن ذلك ولم يروا فيه حكمة ، فابقوا الناس قائمين على استغلال ارضهم ، على ان يدفعوا شيئاً كالخراج .

اما الارض التي صالح اصحابها ، فمن البديهي انها لبثت لهم ولم يلزموا الا بخراجها او بما صولحوا عليه . وأما الارض التي هجرها اصحابها لسبب من الاسباب والارض الموات فهذه وزعت على المسلمين فصاروا يدفعون عشر غلاتها الى بيت المال (وهي الصدقة او الزكاة) اذا كانت الزروع والأشجار تسقى سيحاً ونصف العشر اذا كانت تسقى بالتعب ، وكل ذلك اذا كانت غلتها فوق خمسة اوسق من الحبوب او الثمار ، اما التي غلتها دون ذلك فلا يؤخذ عنها شيء . والوسق في صدر الاسلام كما حققه المستشرق زمبور (Zambaur) في معلمة الاسلام ١٣٧ كيلو غراماً تقريباً . فكأن الشرع ترك للفلاح وأسرته ٦٨٥ كيلو غراماً اي مؤنة سنة بلا ضريبة او كأنه استثناه من الضريبة مادامت غلاته من ارضه الصغيرة دون خمسة اوسق وهو منتهى العدل ، ولا أظن ان حكومة من حكومات هذه الأيام بلغ بها البر بالفقراء هذا المبلغ حتى حكومة البلاشفة اي حكومة الصعاليك كما يسميها بعضهم .

ومن المعلوم ان الحجاز واليمن وكل جزيرة العرب كانت تدفع العشر وليس عليها خراج ، وان كل ارض أسلم عليها أهلها فهي ارض عشر ايضاً ، وانه اذا أقطع مسلم ارض الخراج فللامام ان يصير عليه خراجاً اوعشراً اوعشراً ونصفاً او عشرين لكن كثيراً من الأمثال كانت تدل على ان العشر هوما كان يفرض في الغالب . ولما كانت الارض تتحول في انحاء الممالك الاسلامية بمرور الزمن الى ايدي المسلمين لأسباب شتى صارت ارض العشر تزداد كما صارت ارض الخراج تنقص . والعشر كما لايخفى ضريبة لابأس بها ، خصوصاً في الاعداء والجنوس حيث الأمطار تتفاوت مقاديرها بين سنة وسنة ، وحيث يجوز ان يمحل اقليم بكامله مرة في كل بضع سنوات . وليس استيفاء عشرة في المائة او خمسة في المائة من المحصول ضريبة كبيرة في تلك الايام ، ولا يتأتى للمنصف ان يجد هذه الضريبة ثقيلة الوطأة على الاكارين واصحاب الارضين .

هـذا في أرض العشر اما أرض الخراج فهي تحتاج الى قليل من الإيضاح . ولنتخذ سواد العراق مثلاً فان عمر بن الخطاب (رض) وضع على الجريب قفيزاً ودرهماً . وقال بعضهم انه وضع على جريب الحنطة اربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين . فالجريب مساحته ٣٦٠٠ ذراع مربع اي ٩١٩ متراً مربعاً تقريباً وهومايسميه الترك دونماً . ويبذر في جريب من الأرض المسقوية الجيدة كأرض السواد ١٨ كيلو غراماً من الحنطة تغل نحو ١٥٠ كيلو غراماً ثمنها اليوم على هبوط اسعار الحبوب ٥٢٥ قرشاً سورياً اي ٨٤ قرشاً مصرياً ذهبياً .

وجاء في مجلة الإسلام ان الدينار ٢٥، ٤ غرام من الذهب (اي بوزن خمسين قرشاً مصرياً ذهبياً) وان وزن الدرهم على أصح تحقيق ٢،٩٧ غرام من الفضة وان نسبة قيمة الفضة الى قيمة الذهب في صدر الإسلام كنسبة واحد الى اربعة عشر ، فيكون الدينار مساوياً لعشرين درهماً تماماً . وعلى هذا تكون قيمة الدرهم قرشين ونصفاً من القروش المصرية الذهبية يمكن ان يشترى بها اليوم ٥، ٤ كيلوغرام من الحنطة . فاذا فرضنا مع كثير من المحققين ان قيمة النقود في تلك الأيام كانت ثلاثة أمثالها في أيامنا هذه أمكن شراء ١٣،٥ كيلو غرام من الحنطة بدرهم .

أما القفيز في صدر الإسلام فهو يعادل ٢٧،٥ ليتر اي ٢١ كيلو غراماً ونيفاً (وزن الليتر من الحنطة المتوسطة الجودة ٠،٧٧ كيلوغرام) . فاذا أضفنا وزن القفيز من الحنطة وهو ٢١ كيلو غراماً الى ما كان يمكن ابتياعه بدرهم وهو ١٣،٥ كيلو غرام بلغ المجموع ٣٤،٥ كيلو غرام واذا نسبنا هذا المقدار (وهو الخراج اي قفيز ودرهم) الى محصول الجريب وهو ١٥٠ كيلو غراماً من الحنطة بلغ الخراج ٢٣ في المئة من غلة الحنطة في الجريب .

هذا ما حققناه نحن . أما اذا حسبنا مع الماوردي ان ثمن القفيز من الحنطة كان ثلاثة دراهم يكون الدرهم ثمن سبعة كيلوغرامات من الحنطة . ويكون الخراج ٢١ + ٧ = ٢٨ كيلو غراماً اي دون ١٩ في المائة من غلة الجريب . والدرهم سبعة اعشار المثقال لكنه جاء في كتاب الخراج لأبي يوسف (ص ٣١) ان الدرهم أيام عمر (رض) كان كبيراً بوزن المثقال فعلى هذا يكون الدينار عند ذاك ١٤ درهماً ويكون الدرهم ٣،٥٨ قرش

مصري ذهباً يمكن أن يشترى بها اليوم ٣،٦ كيلوغرامات من الحنطة وفي تلك الأيام ثلاثة أمثالها أي ١٩ كيلوغراماً . ويكون مجموع الخراج من قفيز ودرهم ٤٠ كيلوغراماً أي ٢٦،٦ في المائة من المحصول .

واذا حسبنا الحساب نفسه لغلة جريب من الشعير ، او لمحصول جريب من الكرم وهو يغل الفاً الى الفي كيلو غرام من العنب ، او لمحصول جريب من النخل ومتوسط ما يحويه عشرون نخلة تحمل واحدتها مائة كيلو غرام من البلح ، او لجريب من الخضر الخ . نجد ان الخراج يختلف بين ٢٠ و ٣٠ في المائة من محاصيل هذه الأنواع النباتية .

وبعد فمهما تكن نسبة الخراج الى الغلة في الجريب ، فهذا الخراج ما كان ثقيلاً على فلاحي السواد للأسباب الآتيـة خاصةً ، وهي كون الخراج كان مقطوعاً عن سنة كاملة على حين أن الأقاليم الحـارة ، كالسواد في العراق وكالغور في الشام ، اعتادت زرع نوعين نباتيين في سنة واحدة وهذا متيسر في كل أرض حارة غزيرة المياه كثيرة الدمال فالجريب من الحنطة مثلاً كان خراجه قفيزاً من الحنطة ودرهماً في السنة لكن الفلاح كان يستغله في كثير من الأحايين ذرة او سمسماً او خضراً بعد حصاد الحنطة في السنة نفسها وما كان يدفع خراجاً عن تلك الزروع الصيفية التي تعقب الحنطة لأن الامام عمر نهى عن ذلك وجعل الخراج على جريب الحنطة في سنة كاملة مهما استغل الأكار ذلك الجريب في تلك السنة .

والجريب من النخل ايضاً كان خراجه ثمانية دراهم لكنه كان بالامكان زرع زروع سنوية شتى تحت النخل دون ان يجعل عليها لبيت المال شيءٌ وهكذا .

فيتضح من ذلك ان الخراج في صدر الاسلام ما كان ثقيلاً في السواد البتـة ، وانه ما كان يزيد على عشر غلات الأرض الا قليلاً في الجملة . وقد جاء في كتاب الخراج لأبي يوسف (ص ٤٤) ان عمر (رض) سأل عثمان بن حنيف (وكان انتدبه للنظر في خراج السواد) : « انظر لا تكون حملت الأرض ما لا تطيق فقال عثمان حملت الأرض امراً هي له محتملة ولو شئت لأضعفت ارضي » يريد بذلك انه كان في وسعه مضاعفة خراج ارضه الخاصة دون ان يرهقها بثقل تلك الضريبة .

وجاء في (ص ٤٩) ان عبد الملك بن مروان جعل في الجزيرة والشام والموصل على

كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل الفي اصل مما بعد ديناراً . وعلى كل مائة شجرة مما قرب من الزيتون ديناراً وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً . وكان غاية البعد مسيرة اليوم واليومين واكثر من ذلك. فالجريب من الأعذاء في الشام يبذر فيه ١٣ كيلو غراماً (١) ويستغل منه ٧٠ كيلو غراماً فتكون غلة مائة الجريب ٧٠٠٠ كيلو غرام . ولما كان بالامكان شراء ١٣٢٥ كيلوغرام من الحنطة بدرهم كامر ذكره وكان الدينار ٢٠ درهماً في الفوط عادل ذلك الدينار ٢٧٠ كيلو غراماً من الحنطة اي نحو ٤ في المائة من غلة مائة الجريب . واذا فرضنا ان الفلاح استغل نصف هذه المساحة وترك نصفها ترتاح ما زادت هذه الضريبة على ٨ في المائة من الغلة اي اقل من العشر . وكل ذلك حول المدن والبلدان ، اما على الأرض البعيدة فلم يجعل الخليفة المشار اليه الا نصف تلك الضريبة .

والف الأصل من الكرم تغرس في اربعة اجربة تقريباً وتغل ٤٠٠٠ — ٨٠٠٠ كيلو غرام من العنب . فالدينار اليوم يمكن ان يبتاع به ١٥٧ كيلو غراماً من العنب . فاذا فرضنا انه كان يمكن شراء ثلاثة امثالها في تلك الأيام اي ٤٧١ كيلوغراماً وفرضنا ان معدل غلة الف الأصل من الكرم ٦٠٠٠ كيلوغرام بلغت ضريبة الدينار ٨ في المائة من منتوج الكرم في القريب من الأرض و٤ في المائة في البعيد منها .

ويلخص ذلك بأن الضريبة الزراعية في بلاد الشام والموصل والجزيرة سواء اكانت عشور الغلات او كانت مقطوعة كما في ايام عبد الملك بن مروان فانها كانت عادلة في الجملة .

ولبث العشر والخراج في الممالك الاسلامية على ماذكرنا الى ايام المنصور العباسي . ومن البديهي ان الحروب والفتن ايام الأمويين جعلت الخراج في السواد خاصة فاحشاً على كل ارض يضطر اصحابها الى تركها بلا زراعة في سنة من السنين . لكن هذا الحال شاذة لاتتخذ دليلاً على ثقل الخراج في ذاته . ولو ان العباسيين عندما اتخذوا بغداد عاصمة لهم ووجهوا نظارهم الى السواد ووطدوا فيه الأمن وكروا انهاره الكبيرة وعطفوا على اكرته

(١) جميع ارقامنا في هذه المقالة متوسطة ومن البديهي ان مقدار البذار في المساحة الواحدة يختلف بمختلف كور الشام (انظر ص ٣٤١ من كتاب الزراعة العملية الحديثة) .

قلت لو انهم ابقوا الخراج عند ذلك على حاله اي بالمساحة على كل ارض مستغلة بدلاً من جعله بالمقاسمة لكانوا في عملهم اعدل . والمنصور هو الذي جعل خراج السواد بالمقاسمة . ويظهر ان المقاسمة كانت بالنصف ايام المهدي في الارض التي تسقى سيحًا اي بلا تعب وبالثلث في الأرض التي تسقى بالدوالي وبالربع في التي تسقى بالدواليب . اما النخل والاشجار السائرة فلبث خراجها بالمساحة كما كان في صدر الاسلام . ويظهر ان المأمون انزل النصف الى خمسين فيما تسقى سيحًا .

فهذا الخراج هو ما يستثقله الكتاب والمؤرخون خاصةً وهو في الحقيقة ثقيل لكنه لم يدم طويلاً عدا ان له مبررات لا يجوز ان يضرب بها عرض الحائط وهي ان بيت المال كان ينفق وحده على حفر الأنهار واصلاحها وصنع المسنيات (الأسداد) وسد البثوق ، وكان ايضًا يشاطر الأكارين نفقات كري الأنهار العظام . ثم يجب ان لاننسى ان مالك الأرض هو الإمام ، وان الفلاحين كانوا يعدون شركاء في استغلال الأرض ، ولذلك كان الناس لا ينكرون على بيت المال استيفاءه نصف الغلة او ثلثها او ربعها من غير المسلمين الذين أُبقوا في ارضهم في السواد ، على حين انهم ممن غُلبوا على بلادهم . افلسنا نرى اليوم اصحاب الأرض المسقوية يستوفون ربع الغلة وثلثهــا حتى نصفها من الفلاحين الذين يقومون بجميع نفقات استغلال الأرض وتثميرهــا . ومن البديهي أن صاحب الأرض هو الذي يعطي بيت المال ضريبة الأرض في جملة حصته المذكورة . ومع ذلك نعرف كثيراً من الكور تُرفع فيها الضريبة من مجموع الغلة ثم يتقاسم صاحب الارض والفلاح الباقي على ثلث وثلثين .

هذه هي المعلومات التي يركن اليها في كتب الخراج وكتب التاريخ اما ما جاء به بعض المؤرخين من الخلط فشيءٌ كثير . ويجب على الكتّاب والمؤلفين ان يمحصوها قبل اتخاذها دليلاً على ظلم الخلافات العربية للرعية مثال ذلك ما جاء في الصفحة ١٥٧ من المسالك والممالك للأصطخري (طبعة ليدن سنة ١٨٧٠) وهو ان خراج الجريب حنطة أو شعيراً في شيراز من بلاد فارس كان ١٩٠ درهمًا وان الجريب هناك كبير يساوي ثلاثة اجربة وثلثين من الجريب الصغير (الجريب الصغير ستون ذراعًا في ستين ذراعًا من ذراع الملك وهو الذي تناوله بحثنا) فاذا كان الدرهم الذي ذكره الأصطخري هو الذي عرفناه اي الذي

كل عشرين واحداً منه في الفرط تساوي ديناراً تكون المائة والتسعون درهماً كافية لشراء ٢٥٦٥ كيلو غراماً من الحنطة في تلك الأيام (١٣٫٥ كيلو غرام بدرهم) على حين ان ثلاثة الاجربة وثلثي الجريب تنتج ٥٥٠ كيلو غراماً (غلة الجريب ١٥٠ كيلوغراماً في الأرض المسقوية) فتكون النتيجة على رأي الأصطخري ان الخراج في شيراز يفوق اربعة أمثال ما تغله الأرض فأي عقل يقبل هذا القول . اما اذا كان الدرهم الذي ذكره الأصطخري شيئاً لا نعرفه وكانت قيمته أدنى بكثير من قيمة الدرهم المعروف فعندئذ يزول العجب لكنه يجب في هذه الحال ان لا يتخذ قول الأصطخري حجة على ظلم العرب للأكارين .

ومثاله ايضاً ما نقل عن ابن الأثير من ان خراج الفدان في المغرب ايام عباس بن ابراهيم بن الأغلب بلغ ١٨ ديناراً واستعظم الكتّاب هذا المبلغ لكنهم لم يفكر احدهم بما يمكن ان تكون مساحة الفدان . فهي اذا كانت فداناً مصرياً أو فداناً خطاطاً دمشقياً كان كلام ابن الأثير خلطاً لا يعول عليه البتة لأن الثمانية عشر ديناراً في تلك الأيام تفوق ثمن مجموع غلة الفدان اضعافاً . اما اذا كان الفدان كما في اعذاء الشام اليوم أي أكثر من مائة جريب غالباً لا يبقى عندئذ وجه للانتقاد .

والخلاصة ان العرب في إبان مجدهم الزاهر ما كانوا يستوفون من الفلاحين ضرائب كبيرة اجمالاً . واذا ظلم بعض العمال الرعية أحياناً لحاجة الى المال في حرب عدو او اخماد فتنة ، او اذا عاقب بعض الخلفاء سكان احدى الكور بمضاعفة الخراج لمهمل شائن اتوه فليس من العدل في شيء ان نتخذ ذلك ذريعة للطعن في الخلافات الاسلامية العربية في الجملة . ثم ليُنعم القارئ النظر في قروض الدول الأوربية الكبرى من رعاياها ومن بعضها بعضاً افلا يجد ان كثيراً من المال المقرض يذهب هدراً أو يذهب قسم كبير من فائدته على الأقل بنتيجة الحروب والازمات الاقتصادية فأي فرق من حيث النتيجة بين هذه الخسارة التي يخسرها الشعب وبين مضاعفة الخراج لأسباب قاهرة . وليبحث عن الضرائب التي تستوفيها تلك الدول من رعاياها ولا سيما الضرائب المتصاعدة افلا يجدها اثقل مما كانت تستوفيه الدول العربية . وبعد فحبذا الانصاف في التاريخ ووُقينا شر الشعوبية والحمراء .

مصطفى الشهابي

تاريخ سورية المجوفة

لمعة تاريخية منه في أدبائها وعلمائها

بقلم مؤلفه عيسى اسكندر المعلوف عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

تمهيد

سبقت لي كلمة في وصف (تاريخ سورية المجوفة) الذي وضعته بتطويل ولا يزال مخطوطاً وذلك في هذه المجلة في المجلد السادس والصفحة ٢٨٩ — ٢٩٤ في سنة ١٩٢٦ م ونقلت منه قطعة مختصرة في تحليل الاعلام ونشرت اشياء منه في مجلة المقتطف والمقتبس والعرفان والآثار وجريدة البشير وغيرها من الصحف ايضاً كامثلة تدل عليه وتعرّفه للمطالعين ووعدت بانتخاب غير ذلك لهذه المجلة فهاك الآن لمعة عن أدباء سورية المجوفة وعلمائها أقتطفها من مباحثه المطولة فأقول :

أدباء سورية المجوفة وعلماؤها

نشأ في هذه البقعة عدد كبير من العلماء الاعلام قديماً وحديثاً . ممن استاللتُ تراجمهم من كتب كثيرة مخطوطة ومطبوعة بحسب ما وصلت اليه يد البحث والتنقيب على قلة المصادر وتبعثر الكتب المخطوطة في المكاتب الشرقية والغربية ، وصعوبة الحصول على ماضنّ به مقتنوها أو حفظوه لهم فلم آلُ جهداً في التتبع والاستعلام حتى حصلت على ما ربما يروي الغليل من تلك الآثار التي تناولت بلدان وادي التيم ووادي بردى الغربي وبلاد بعلبك والبقاع الى ما يحيط بها من الأماكن . فاقتصر الآن على علماء بلاد بعلبك فقط .

ادباء بعلبك

كانت هذه المدينة المشهورة بآثارها القديمة العجيبة مظهراً من مظاهر العظمة وميداناً للعبادات القديمة والأساطير الغريبة فنبغ فيها المتفننون من بنائين ونقاشين ومصورين ورياضيين وفلكيين ومهندسين ومخترعين ومؤلفين كما تشهد بذلك أعمالهم الباقية وأبنيتهم الشامخة ونقوشهم الرائعة وهندستهم الفائقة وتآليفهم الشائقة .

وكانت بعلبك فوق ذلك ولاسيما في ايام العرب دار علم وحديث ومباءة للعلماء يرحلون اليها في طلب المعارف وتحقيق الدروس فقصدها كثير منهم حصلوا فيها ما حصلوا بالدرس على علمائها ونبغ من ابنائها وما يجاورهم كثير ممن تشهد لهم آثار اقلامهم الى اليوم .

فروى المؤرخون ومنهم الحافظ ابن عساكر المشهور في تاريخ دمشق المطول[1] عن جماعات نشأوا فيها وتخرج عليهم من قصدهم من الطلاب . وذكر غيره كثيراً ممن رحل الى بعلبك ومنهم الشيخ محمد بن مالك الاندلسي مؤلف الألفية في النحو الذي سكن بعلبك وقرأ عليه فيها جماعة .

(فمن المهندسين) كالنيكوس البعلبكي الذي كان في القرن السابع للميلاد وهو مخترع (النار اليونانية) وهي كرات خزفية رمانية الشكل او صنوبرية محشوة بالنفط والكبريت والقطران وأشباهها من المواد المشتعلة والمنفجرة تشعل بفتيل داخل فيها فتنفجر وتدك الابنية والحصون وكان اول استعمالها في مهاجمة معاوية بن ابي سفيان الأموي للقسطنطينية فردته تلك النيران عن فتحها وفي متحف مجمعنا العلمي في دمشق كثير منها .

وقسطا بن لوقا البعلبكي اليوناني المسيحي المشهور بالهندسة والرياضيات والفلسفة والفلك

---

(١) طبع من هذا التاريخ الذي هذبه المرحوم الشيخ عبد القادر بدران خمسة مجلدات قبل الحرب وطوي نشر الباقي الى ان قام بهذا العمل صديقنا الأستاذ احمد افندي عبيد الدمشقي صاحب مكتبة العرب فنشر المجلدين السادس والسابع بضبط وجودة طبع وحواش .

ومما طبع من مؤلفات قسطا (كتاب الفلاحة اليونانية) تعريبه طبع بمصر سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) في ١٤٩ صفحة . وكتاب (في رفع الأثقال) صححه البارون كره دي فو وطبعه في باريس سنة ١٨٩٤ .

والموسيقى والطب وبمعرفة اللغات الكثيرة وبالبراعة في الترجمة وبجودة القريحة وطلاوة الانشاء . وهو معاصر ليعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف الاسلام . ذكره ابوالفرج الملطي بقوله : «فلوقلت حقاً انه أفضل من صنّف كتاباً لما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من اختصار الألفاظ وجمع المعاني» توفي سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) في بلاد ارمينية ومؤلفاته أكثر من مائة بين تأليف وترجمة وتصحيح من رسائل ومجلدات في جميع الفنون والعلوم منها (كتاب الفردوس في التاريخ) و(مراتب قرآءة الكتب الطبية) و (آداب الفلاسفة) و (والفرق بين النفس والروح) و (ترجمة ديوفنطس في الجبر والمقابلة) و (شكوك كتاب اقليدس[1]) وغيرها . قال عبيدالله بن جبرائيل بن بختيشوع الطبيب النسطوري المشهور : « إن قسطا اجتذبه سنحاريب الى ارمينية واقام فيها فاقترح عليه ابوالغطريف البطريق من اهل الفضل تصنيف كتب كثيرة في اصناف العلوم فوضعها » .

ومن متأخري مهندسيها ابوبكر بن البصيص البعلبكي الذي ذكره صالح بن يحيى البحتري في (تاريخ بيروت) انه استقدم سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) لبناء جسر الدامور وله اعمال في بلاد طرابلس وجسر نهر الكلب القديم كان من بنائه .

« ومن شعرائها » : عماد الدين ابوالفضل حسان بن سلطان بن رافع اليونيني (نسبة الى قرية يونين من اعمال بعلبك) الفقيه الذي انشد :

لقد منعتني عن سليمى ثلاثة   اذا ما استعار الجو ثوباً من الهجر
ضياء محيّاها وجرس حليها   ونفحة نشر دونه عبق العطر
هب أن المحيّا قنّعته ببرقع   وحلت حلاها كيف تفعل بالنشر

وحسان بن ابان الذي كان في زمن المتوكل على الله العباسي في القرن الثالث للهجرة والتاسع للميلاد ومن شعره قوله :

اكتسب مالاً تعيش به   ليس عيش المرء من نسبهْ
عربيٌّ لا يسار له   صقلبيُّ القدر في عربهْ

(١) نشرت بعض رسائله في اوربة والشرق ووقفت على كثير من المخطوط منها وفي خزانتي ردُّ قسطا على ابن المنجم ورسالة هذا اليه وردّ حنين بن اسحق على ابن المنجم ورسالة هذا اليه .

وترام خاضعين له ما بدا يختالـــ في نشبه
أمرا فيهم وكلهمُ باسط كفًا الى سببه
طمعًا في نيل فضته ليس الا ذاك أو ذهبه
وأديب قد رثيت له ما له عيب سوى أدبه
جاءهم فاستدفعوه كما يُتّقى ذو الداء من جربه
دع لذي جهل تمادَيهُ في الذي يدنيه من عطبه
وتوقَّ ما يُساء به ان جبن الكلب في كَلَبه

والحسن بن جعفر بن حمزة ابومحمد الأنصاري البعلبكي المعروف بابن بريك قيل انه من وُلد النعمان بن بشير · وكان يتهم بالرفض توفي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ومن شعره قوله في أبيات :

قابل البلوى اذا حلّت بصبر ومسرّه
فلعلّ الله أن يوليك بعد العسر يسره
كم عهدنا نكبة حلّت فولت بعد فتره

وقوله من قصيدة :

كأن صروف الدهر لم تلق منزلاً تحلُّ به غيري فحلّت بجانبي
فاصبحت من وشك الفراق وبينهم من السمّ اخفى من دبيبٍ بحاجبي
سميري اذا ما الليل ارخى جرانه لما بي من وجدٍ مسير الكواكب
فمالي والدهر الخؤون كأنما جنيت لمجازاتيّ ببعد الأقارب
فليت الليالي اذ ولعنّ ببيننا جعلن الردى مقرونة بالمعاطب
ابى الدهر الا شتّ شمل وفرقة وروعة مصحوب بغيبة صاحب
واني لذو صبر على كل نكبةٍ وقد هذّبتني للأمور تجاربي
وذلك طبعي قبل ان يصدع النوى فمذ صدعت سدّت عليّ مذاهبي

وبهاء الدين العاملي صاحب الكشكول والمخلاة ولد في بعلبك سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) وتوفي بالمصلّى من قرى البحرين سنة ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) وله موشحات واشعار بليغة منها

المجلد الثاني عشر ١٤٤،١٤٣ الجزء ١١ و١٢

مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تشرين الثاني — كانون الاول سنة ١٩٣٢ م

الموافق رجب وشعبان سنة ١٣٥١ هـ

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي	{	في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
الدفع مقدماً		وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكا

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الخامسة الى كل سنة منها	
〃	٣٠٠	〃 السادسة الى الحادية عشرة	〃
في الخارج	٦٠	〃 الاولى الى الخامسة	〃
〃	٣٥٠	〃 السادسة الى الحادية عشرة	〃

ما ارسله الى والده الشيخ الحسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمذاني او الى غيره من أدباء عصره ، فمن قوله لوالده :

بقزوين جسمي وروحي ثوت بارض الهراة وسكانها
فهذا تغرب عن أهله وتلك اقامت بأوطانها

وقوله في الموت :

ان هذا الموت يكرهه كل من يمشي على الغبرا
وبعين العقل لو نظروا لرأوه الراحة الكبرى

والأمير موسى الحرفوشي امير بعلبك ابًا عن جد[1] توفي سنة ١٠١٦ ﻫ (١٦٠٧ م) بدمشق وهو الملقب (الحرّان) لمواقعه الحارة فانه حاصر خمسة باشوات مع جيشهم في بعلبك وضواحيها وهو وحده فقاتلهم ولم ينالوا منه شيئًا ومن شعره قوله لما فتح غزيرًا في لبنان :

غزير طور ونار الحرب موقدة وانت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ولا تخف ما حبال القوم حيات

ومن نظمه قوله مفتخرًا :

كأن رأس جيوش الضدّ ليس له علم بأن بلادي موطن الأسد
ومن مهابة سيفي في القلوب غدت أم العدوّ لغير الموت لم تلد
فليرقبوا صدمةً مني معوّدةً أن لا تقرّ لها الأعداء في البلد
ألست نجل عليّ وهو من عرفوا منه المخافة في الأحشاء والكبد
وانني انا موسى منه قد ورثت كفي سيوفًا تذيب الأرض في الجلد

وامير شعراء الحرافشة هو الامير محمد بن علي الحرفوشي الحريري العاملي الدمشقي توفي سنة ١٠٥٩ ﻫ (١٦٤٩ م) وله مصنفات كثيرة رأيت اكثرها في دمشق منها (اللآلي الدرية في شرح الاجرومية) في مجلدين و (شرح التهذيب في النحو) ، و (نهج النجاة في ما اختلف فيه النحاة) قال البديعي في ذكرى حبيب « انه كتاب لم ينسج على منواله يعرب

(١) وضعت تاريخًا مطولاً للأمراء الحرافشة ومشاهيرهم وانسابهم وقد نشرت منه أمثلة في مجلة العرفان (في صيدا) واستنسخت ما قيل عنهم في مكاتب اوربة وذلك لأن أجدادي كانوا مقرّبين منهم ونافذي الكلمة لديهم ·

عن غزارة فضله » و (طرائف النظام ولطائف الانسجام) في محاسن الاشعار وغيرها وله الشعر الذي قال فيه البديعي انه : « الشعر الذي ديباجة الفاظه مصقولة . وحلاوة معانيه معسولة » وقال المحبي : وكان في الشعر مكثراً محسناً في جميع مقاصده » فمن شعره قوله في الخال وله فيه مقاطيع بليغة كثيرة :

قال لي من غدا امام أولي الفضـ ل ورب المباحث الفلسفية
ان عندي برهان حق على نفي الهيولى والصورة الجسمية
قلت : ماهو (؟) فقال شامة حبي قد غدت وهي نقطة جوهرية

وقوله من قصيدة في مدح الأمير محمد المحكي وأبدع في وصف السيف والجواد بقوله :

فدارك حيث صادفت اعتزازاً واهلك ذو الحفيظة والوداد
ولا تصحب سوى عضب نحيل تعشّق متنه ضرب الهوادي
صقيل الصفح رقّ وكاد لولا الـ جفين يسيل من طرف النجاد
تخال به وليس به غديراً ترقرق او سعيراً ذا اتقاد
وتحسبه اذا ما استل برقاً تألق في الدجى غبّ العهاد
والا ظهر سرحوب سليل الفحول من المطهمة الجياد
يرى عاراً مسابقة النعامى ويأنف نعله مسّ الصلاد
فلو وطئ القطا ما ارتعن منه نياماً وانتبهن من الرقاد
بدا كالخيزرانة من نحول من الادلاج في مجل البوادي
يمرّ على الغدير به غليل فيهجره لفرط الاجتهاد
تساوى عنده حزن وسهل وآكام مروّعة ووادي

ومن متأخري شعراء بعلبك في القرن الثاني عشر للهجرة ابوالحسن علي بن محمد الشمعة من بيت علم وفضل فمن شعره قوله في كتاب (التحفة الظريفة) للسيد حسن بن عثمان الحكيم الذي جمعه سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) :

ابدى لنا الحسن الشريف لطائفاً قد صاغها لذوي النهى مجموعا
كل المفرّق من محاسن عصره اضحى لدى (مجموعه) مجموعا

وقوله مضمناً :

لما بفكري مرّ طيف خياله | واردتُ انظر وجنة لم تلثم
كادت تسيل لطافة لكنه | «من عادة الكافور امساك الدم»

وقوله مشطراً لبعضهم :

«أحمامة الوادي بشرقيّ الغضا» | قد طاب مغناك ولذّ لمسمعي
ورميتِ في قلبي تباريح الجوى | «ان كنت مسعدة الكئيب فرجعي»
«إنّا تقاسمنا الغضا فغصونه» | لك معهد يسقى بسحّ الأدمع
وظلاله لي موطن وزهوره | «في راحتيكِ وجمره في أضلعي»

ومنهم من نبغ في هذا العصر مثل شاعر القطرين خليل بك المطران . والشيخ علي النقي زغيب والمرحوم عساف الكفوري وغيرهم .

زحلة : عيسى اسكندر المعلوف

التدوين في الاسلام



كتب سيدي عبد الحي الكتاني احد اعضاء مجمعنا في المغرب الأقصى مقالاً في موضوع التدوين والتصنيف في الاسلام نشره في (مجلة المغرب) فرأينا ان ننشر خلاصته في ما يلي :

ابتدأ التدوين في الاسلام بعد الهجرة فكان للنبي صلى الله عليه وسلم كتب في الصدقات والزكوات وكتابه الى أهل اليمن بانواع الفقه وكتبه الى الملوك وأمراء الأطراف وقد أمر صلى الله عليه وسلم أن يقيدوا له في ديوانٍ من أسلم قال وهو اصل الديوان العمري الذي صار فيما بعد أقنوماً يرجع اليه في معرفة انساب القوم وسوابقهم في الاسلام .

وجمع ابو بكر وعمر وعثمان القرآن في مصحف . وجعل عمر تابوتاً لجمع صكوكه الرسمية ومعاهداته الأممية . وكتب ابن عباس الفتاوى التي كان يُسأل عنها . ودوّن ابن زيد في الفرائض والمناسك . وغير هؤلاء كثيرون من الصحابة والتابعين : منهم عبيد بن شرية الذي دوّن كتاب الأمثال و كتاب الملوك وأخبار الماضين بطلب من معاوية رضي الله عنه ودوّن (علاقة بن كريم الكلابي) في عهد يزيد بن معاوية (كتاب الأمثال) في نحو خمسين ورقة . و كتاب مثله لصحار العبدي . ولأبي مخنف الأزدي من اصحاب علي رضي الله عنه كتب : في (الردة) و (فتوح الشام) و (فتوح العراق) و (الجمل) و (صفين) و (النهروان) و (الخوارج) ومقتل علي ومقتل محمد بن ابي بكر ومقتل الأشتر ومقتل عثمان ومقتل الحسين و(الشورى) و(وفاة معاوية وولاية يزيد) و(وقعة الحرة) و(حصار ابن الزبير) و(المختار بن ابي عبيد) و (مرج راهط وبيعة مروان ومقتل الضحاك بن قيس) و(مصعب وولاية العراق) و(مقتل عبد الله بن الزبير) و(مقتل سعيد بن العاص) و(حديث حمراء)

و(مقتل ابن الاشعث) و(بلال الخارجي) و(حديث الأزارقة) وغير ذلك من حوادث ذلك العصر وقد سرد في الفهرست أسماء عدة كتب صنفها السلف في تفسير القرآن ونزوله وأحكامه . وقال ياقوت (كان خالد بن يزيد يقول كنت معتنياً بالكتب وما أنا من العلماء ولا من الجهال) ومن تصانيفه (السر البديع في الرمز المنيع) في الكيمياء و(كتاب الفردوس) وغيرها . ويظهر ان ابا بكر رضي الله عنه اول من بدأ في التدوين بدليل ما في كتاب (التعريف) لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن اسحق الأموي في ترجمة ابي بكر قال (كان عمر قاضيه . وعثمان كاتبه . وسعد مولى مصاحفه) والمراد بالمصاحف عندهم الكتب فهذا يدل على أن ابا بكر كان لديه كتب كثيرة تحتاج الى قيم يلي أمرها لكثرتها . ثم مازالت تزداد الى زمن عمر الذي كان له صندوق اوقادوس يجمع فيه عهوده مع الأمم كما في خطط المقريزي (جزء٢ ص٧٤) . وامر الديوان الذي دونه عمر باسماء الناس ومراتبهم معروف . الى ان كان زمن عثمان فبالغ الناس في الوراقة وتجويد الكتابة والاعتناء بزخرفة الكتب . وفي كتاب (البيان والتحصيل) لابن رشد (قال ابن القاسم : وأخرج الينا مالك مصحفاً لجده فحدثنا انه كتب على عهد عثمان بن عفان فوجدنا حليته فضة وأغشيته من كسوة الكعبة) فدل ذلك على حالة الوراقة يومئذ وعلمهم بكيفية تحليل الفضة وتحلية الكتب بها وجعل الأغشية لها حتى من كسوة الكعبة . وفيه ايضاً (قال مالك كان قاض في زمن عثمان رضي الله عنه (أو في زمن ابنه أبان[1]) رفعت اليه كتب تقادم أمرها والتبس الشأن فيها فأخذها (ذلك القاضي او أبان نفسه) وأحرقها بالنار . فقيل لمالك أفحسن ذلك ؟ قال نعم (إني لأراه حسناً) وكانت هذه الكتب في الخصومات التي تقادم عهدها حتى التبس أمرها على الحكام وكان غرضه من إحراقها ان يستأنف اصحابها خصوماتهم فتسجل من دون ان يقع فيها التباس . فيستدل بهذا على ان الناس في ذلك العهد (عهد[1] أبان بن عثمان رضي الله عنه) بلغ بهم الأمر ان يضبطوا سجلات المرافعات

(١) [المجمع] ثم ذكر كاتب المقال حكاية يستدل منها ان (أبان بن عثمان) هذا ليس هو ابن عثمان بن عفان ثالث الخلفاء بل هو احد فقهاء الأندلس . فحرق سجلات المرافعات والحجج والخصومات كانت في عهد ذلك الفقيه الأندلسي لكنه على كل حال كان في عهد متقدم قبل الامام مالك رضي الله عنه .

والخصومات والحجج امام المحاكم الشرعية . وفي حسن المحاضرة ان المفضل بن فضالة اول قضاة مصر الذين طولوا كتابة الأحكام والمرافعات والوصايا والديون في السجلات وكانت قبله تكتب باختصار . اما اول من أمر بكتابة نسخة عن الكتاب قبل تبييضه فهو زياد ابن ابي سفيان فقد أملى على كاتبه كتاباً الى معاوية بخصوص عمران بن الفضل البرجمي فلما وصل الكتاب الى معاوية كتب الى زياد (كتبت في كتابك عمران بن الفضل) ولم تذكر له ما يتصل به (كأنه يعني قوله البرجمي) فسأل زياد كاتبه فقال انت أمليته فقال حديث نفس فلا تكتبوا كتاباً من بعد الآن الا جعلتم له نسخة فكان اول من وضع النسخ . وكانت لمعاوية مكتبة ولها خدمة وأعوان يتعاونون على احضارها له وقراءتها عليه يجلس لذلك في أوقات معينة لايتخطاها وجاء بعده حفيده خالد فكبرت مكتبته بالكتب العربية والمعربة وجعله بعض الباحثين اول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الاسلام والحال ان الفضل في ذلك لأبي بكر ثم لعمر ثم لمعاوية قبل ان يكون لخالد . فمعاوية هو الذي بنى لحفيده خالد الأساس ونجر له هذا المقياس :

ولما ظفر طارق بن زياد في الاندلس بما ظفر به من الكتب القديمة التي تتضمن الطلسمات وعمل الصنعة (الكيميا) واصباغ اليواقيت ومنافع الاشجار والاحجار وغير ذلك من العلوم والصنائع والحكم ارسلها الى خليفة دمشق الوليد بن عبد الملك وذلك سنة ٩٢ للهجرة ولولا علمه بعناية الوليد بجمع الكتب ما وجهها اليه من المغرب الى المشرق . وفي آخر القرن الأول كان لعمر بن عبد العزيز خزانة كتب وقد عثر فيها على (كتاب ابن اعين) في الطب فأخرجه الى الناس ليستفيدوا . وكتب عمر الى سالم بن عبد الله بن عمر ان يرسل اليه رسائل عمر وسيرته وقضاياه وهذا يدل على ان عمر رضي الله عنه جمع رسائل وترك آثاراً مكتوبة مدونة . ولما راجع عمر بن عبدالعزيز سليمان بن عبدالملك في مسألة إرثية قال سليمان ياغلام اذهب فأتني بسجل عبد الملك الذي كتب في ذلك (اي في مسألة الارث) . وكتب عمر بن العزيز رسالة في الرد على نفاة القدر وهي مقدار كراسة متوسطة . وقال معمر كنا نرى اننا قد اكثرنا عن الزهري (يعني في الأخذ عنه) حتى قتل الوليد بن يزيد فاذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه ويقال انها من علم الزهري (اي من الروايات المأخوذة عنه) .

وكان ابن شهاب الزهري يجلس وكتبه حوله مشتغلاً بها حتى عن زوجته ففارت وقالت والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر . وكان الزهري يقول : (إياك وغلول الكتب قيل له وما غلول الكتب) قال حبسها عن اصحابها اهـ . واصل معنى الغلول في اللغة السرقة من الغنائم قبل قسمتها بين الغانمين . ولما سعى الساعون بالزهري ضربوه بالسياط وعلقوا كتبه في عنقه .

وكُتُب عبد الحميد الكاتب التي كان ينشؤها مشهورة في جودتها وكبر حجمها حتى ان الكتاب الذي كتبه الى ابي مسلم الخراساني على لسان (مروان) كان يحمل على جمل من كبر حجمه فمها كانت رقوقه غلاظاً فهو في حجم مجلد على الأقل .

وقولهم ان جمع الكتب في خزائن لم يعهد قبل الرشيد والمأمون — فيه نظر لما ذكرناه من الحوادث الثابتة . وقد نقل القاضي عياض عن مالك انه قال : (كانت عندي صناديق كتب لو بقيت لكانت أحب اليّ من اهلي ومالي) وروي انه قال : كتبت بيدي مئة الف حديث وقال بعض اصحابه دخلنا منزل مالك بعد دفنه فاذا فيه سبعة صناديق كتب من حديث ابن شهاب وصناديق أخرى من كتب اهل المدينة فجعل الناس يقرؤون ويدعون وعن امام الحرمين أن مالكاً أملى في مذهبه نحواً من مئة وخمسين مجلداً في الأحكام الشرعية وفي تنوير الأبصار للحصكفي ان محمد بن الحسن المتوفى سنة ١٨٩ هـ صنف في العلوم الشرعية ٩٩٩ كتاباً .

انتهى تلخيص مقال سيدي الكتاني وظاهر انه لم يرد من مقاله ان الأمة الاسلامية فاقت غيرها من الأمم في جمع خزائن الكتب لأن هذا أمر معروف وانما اراد أن يثبت ان عناية المسلمين بالكتابة والتدوين وجمع الكتب ابتدأ منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم خلافاً لمن قال انه ابتدأ في القرن الثاني للهجرة .

المغربي

رحلة اوليا جلبي

« في البلاد العربية »

- ٦ -

وبعد ان استلم السلطان سليم حماة بالامان جعلت سنجقاً تابعاً لايالة طرابلس الشام ، ويبلغ عدد جندها حين السفر مما هو في بطانة اميراوائها ومن الجبجية الذين يقدمهم ارباب التيمار والزعامة نحو الفين(١) وفيها مشائخ المذاهب الاسلامية الاربعة (!) ونقيب أشراف ووجهاء وأعيان وكتخدا يري وسردار

(١) كانت الدولة تتخلى عن حقها في العشر والرسوم الاخرى الى اصحاب الخاص والزعامة والتيمار أو توقفه على جهة من الجهات الخيرية وفاقاً لطريقة الاقطاع التي كانت جارية في القرون الوسطى . وتقسيم الأراضي الى خاص وزعامة وتيمار كان باعتبار حاصلاتها المقيدة مثال ذلك ان الارض التي غلاتها اكثر من مئة الف اقجة (الاقجة ضرب من العملة تعادل ثلث البارة) يطلق عليها خاصاً وتحال على الوزراء والامراء وغيرهم من بطانة السلطان ومقربيه والتي غلاتها من عشرين الف اقجة الى مائة الف اقجة يطلق عليها زعامة وتحال على دفتردار الخزينة في الايالة ورئيس الالاي في اللواء وقواد القلاع ومن كان في منزلتهم والتي غلاتها من ثلاثة آلاف اقجة الى عشرين الف اقجة يطلق عليها تيمار وتحال على المستحقين من الجنود وكان كل من صاحب الخاص والزعامة مكلفاً بان يجهز وقت الحرب عن كل خمسة آلاف اقجة جندياً بعدته الكاملة وصاحب التيمار مكلف بان يجهز عن كل ثلاثة آلاف اقجة جندياً واحداً . واستمرت هذه القاعدة التي كانت سائرة في البدء سيراً حسناً الى سنة الف من الهجرة ثم شابها سوء الاستعمال الى ان الغيت سنة ١٢٥٥ .

انكشارية (١) وجري باشي (رئيس جند) ويوزباشي (رئيس مئة) ودزدار قلعة ومحاسب ويجبي قاضيها من نواحيها في كل سنة ستة أكياس ويجبي اميرلوائها ثلاثين كيساً . وفي حماة قلعة بنيت فوق تل صناعي على شاطىء العاصي لكن اكثر أبراجها وأسوارها منهدمة (٢) . وفي حماة كثير من القصور

(١) كانت رتب قواد جند الانكشارية تبدأ بآغا الانكشارية ثم برئيس السكبان ثم بكتخدا القول وهو معاون الاغا الكبير او رئيس اركان حربه ثم بكتخدا بري وهو وكيل كتخدا القول وصلة الوصل بين الاغا الكبير وجميع جند الانكشارية يبلغ اوامر الاغا بمعرفة الكتاب الى الدزدارين اي محافظي القلاع والسرداريين اي قواد الجند .

(٢) قال الصابوني : بنيت قلعة حماة على صورة قلعة حلب فوق تل صناعي عال فقد كانت على هيأة من الاتقان غريبة ينظر الداخل الى باب لها مشمخر بحجارة عظيمة على خمسة جسور مرتفعة فوق الخندق ثم يدخل الى منعطفات الابراج فيرى البلد من النوافذ المفتوحة للحراسة الواسعة من الداخل والضيقة من الخارج ومن فوقها النوافذ الواسعة التي سدت بشبك من الحديد عظيم وبعد اجتياز المدخل بنايات عظيمة من دار الحكومة ومحل الذخائر وبيوت السكن يحيط بها سور عظيم مرتفع وفي مقابلته جامع ابي الفداء وجامع للقلعة ذي منارة شامخة ومنه الى الجهة القبلية بمسافة واسعة حمام كبيرة جداً وفي طرفها الشرقي المطل على طريق باب الجسر بئر واسعة فيها ماء عذب جداً يأتي من مكان خفي من نهر العاصي ولها طريق تحت الارض يصل الى العاصي من جهة الشمال ماراً من تحت بستان الدوالك متصلاً ببعض البيوت وكانت مرصوفة بالحجر الاملس من اسفل الخندق الى حيطان السور لئلا يصعد اليها العدو وللقلعة خندق دائر حولها عميق جداً وكان العاصي مرتفعاً عنه ولهذا الخندق طريق الى الماء من المكان المسمى الآن جسر الهوا في مدخل محلة باب الجسر كانوا اذا ارادوا الحصار يفتحون منه ماء العاصي فيمتلىء الخندق . وقد أشار الى ذلك ابن جبير وياقوت اه . قلت وقد ظلت هذه القلعة على هذا المنوال الى ان جاء هولاكو طاغية التتر في سنة ٦٥٨ هـ فخربها واحرق مافيها من الذخائر والعتاد ثم اعاد ملوك حماة الايوبيون ترميمها الى ان قضى

الفخمة ذات الحدائق الغناء والأحواض والمياه الدافقة وأشهرها قصر محمد باشا الارناوط وهو مبني على شاطيء العاصي وفيه ثلاثمائة غرفة (١) وقاعات عديدة وحمامات وحدائق ولم أر مثل هذا القصر الا في دمشق وقد أولموا فيه لمولانا مرتضى باشا وليمة يعجز اللسان عن وصفها (١) . واشتهر ايضاً

عليها تيمورلنك في سنة ٨٠٣ القضاء الاخير وامست من ذلك الحين ليس فيها الا بعض بيوت وجدران قائمة وسجن للحكومة وانقاض الى بعد مرور اوليا چلبي في القرن الحادي عشر . وفي القرنين الماضيين جردت الاطلال ونقضت الاحجار واستعملت في بناء قصور الكيلانيين والعظميين وغيرها فأضحى سطح التل قاعاً صفصفاً ليس فيه من تراث الاقدمين الا بعض كسور الاحجار وأسس جدران من الآجر الى ان جاءت منذ سنتين بعثة أثرية دانيماركية وشرعت تحفر فيه فكشفت حتى الآن من آثار العرب عدداً غير يسير من الأواني الخزفية وقطع الفسيفساء والقنابل اليدوية الخزفية التي كان يستعملها العرب في حروبهم وغير ذلك وهي دائبة في ربيع كل عام على الحفر وتأمل ان تصل بعد آثار العرب الى آثار البيزنطيين والحثيين .

(١) ذكر جرجي يني مؤلف تاريخ سورية في اسم باني هذا القصر مراراً في فصل طرابلس فما قاله ان محمد باشا الارناؤطي ولي ايالة طرابلس في سنة ١٠٥٠ هـ وانه بنى على نهر رشعين قصراً وكلف الرعايا اموالاً ثم عزل واعيد ثلاث مرات وذلك من شدة جوره وعسفه وكان في كل مرة يعاد بعد مدة وجيزة وفي المرة الرابعة ارسل الى حماة واستقر بها اهـ . قيل ان هذا الباشا اعقب في حماة وانه لايزال من اعقابه بعض نساء وانه على الرغم من عسفه كان ولوعاً ببناء القصور والمساجد والحمامات فقد بنى في حماة القصر الذي ذكره الچلبي وبالغ في عدد غرفه ويظن انه هو دار الحكومة التي احترقت في حادثة حماة في سنة ١٣٤٤ هـ ويظهر من وصف الچلبي ان البناء الملاصق للدار المذكورة الذي كانت فيه مدرسة التجهيز ودور بعض السراة المجاورة كانت كلها من مشتملات هذا القصر الفخم . ومحمد باشا بنى ايضاً في حماة جامعاً قرب جسر السرايا يسمى جامع المدفن لأنه دفن فيه

في حماة قصر الشيخ ابراهيم افندي بن الشيخ عبد القادر الكيلاني(١) . اما جوامعها فكثيرة منها جامع ابو عبيدة بن الجراح فاتح حماة وهو في السوق الأعلى قيل انه كان في الأصل كنيسة قديمة وانه بني بمال الخراج الذي أداه اهل حمص وقد زبرت على رخامة فيه النفقات التي صرفت في انشائه والصقت على احد جدرانه (٢) . وهناك جامع قاسم باشا المعروف بكوزلجه وهو اول

وعلى قبره تاريخ وفاته في سنة ١٠٦٨ وكان وقف له عقاراً كثيراً ومن الذين اتصلوا بخدمته وخدمة ابنه علي باشا شاعر حموي اسمه حسن الدفتري المعروف بابن قبلق .

(١) الشيخ ابراهيم الكيلاني جد بني الكيلاني في حماة وهو على ماقيل ابن شرف الدين ابن احمد بن علي الهاشمي ولد في سنة ١٠٤١ وتوفي في بغداد في سنة ١٠٦٨ كان ذا ثروة ومكانة عظيمتين احتجنها بتصوفه ومشيخته بنى قصره الذي ذكره الجلبي من انقاض قلعة حماة وبنى في جانبه جامعاً ولا يزال هـذا القصر عامراً باعقاب المترجم وهم يؤلفون اسرة كبيرة لبعض افرادها حظ وافر من سعة الملك ووفور الثروة والوجاهة في حماة وضواحيها . والقصر على شاطئ العاصي الأيمن في محلة تدعى جسر بيت الشيخ يقصده السياح لرؤية ما فيه من محاسن البناء العربي كالقصور والقاعات .

(٢) في حماة جوامع ومساجد كثيرة نخص بالذكر منها (الجامع الكبير) الذي ذكره الجلبي وهو في محلة المدينة وجد من عهد ابي عبيدة وكان يسمى الجامع الأعلى قيل انه جدد في خلافة المهدي من خراج حمص على ما نقش على رخامة فيه ثم جاء المظفر عمر فزاد فيه وبنى مدرسة بجواره ثم جاء ابراهيم الهاشمي فانشأ منارته الشمالية سنة ٨٢٥ كما زبر ذلك على رخامة فوق بابها وبنى ايضاً الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق ورواق الجامع ايضاً بناه سنة ٨٣٢ وفي غربي فناء هذا الجامع قبة صغيرة تدعى بيت المال او الخزنة تشبه قبة جامع بني أمية في دمشق بنيت على ثمانية اعمدة ذات تيجان يونانية ويحتها بحرة صغيرة وعلى الأعمدة كتابة عربية قديمة وله حرم واسع جداً وفي جانبه الغربي ضريح المظفر وابنه وليس في حماة جامع مثله في اتساعه وعظمته وله في جهة القبلة منارة مقطوعة الرأس بابها

من الحجر الأسود وكان لهذا الجامع اوقاف كثيرة اندرست ولم يبق الا القليل ·

وصف الاثري هرزفيلد هذا الجامع فقال : ان اصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى غريبة الشكل وله ثلاثة أفنية مختلفة السعة وثماني دعائم وخمس قباب ومن كل ناحية خمسة عقود او اقبية ويظهر ان الحائط الغربي كان حائط رواق الكنيسة والحائط الجنوبي من العهد السابق للنصرانية كما هو الحال في جامع دمشق كان معبداً ثم بيعة ثم جامعاً · والى جهة الشرق قامت منارة قديمة منفردة وهي مربعة الزوايا زينت عليها كتابة كوفية ربما كانت من القرن الخامس · وتحيط بصحن الجامع الجميل أروقة معقودة وهناك سدة بمحرابين أمام الحرم وسدة أخرى لها حوض ماء ومحراب منفرد في الرواق الشمالي وخزنة قائمة على ثمانية أعمدة قديمة وفي الرواق الشرقي تربة ومصلى ولها نوافذ صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك ومن الرواق الغربي يصل الانسان الى قبة الملك المظفر محمود وله تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش وهناك منارة ثانية قامت في الخارج وسط الرواق الشمالي ؛ يستدل من كتابته وشكله انه من عهد المماليك وفي جامع حماة تجلت خاصية من هندستها تجلياً غريباً وذلك ان ظاهر الحيطان مزين بنقوش رسمت بالوان تشبه الفسيفساء لمراوحتهم في صفها بين حجر الحَرّي الأسود والحجر الكاسي الأبيض · ومن جوامع حماة (جامع الحيات) في باب الجسر كان متسعاً وقد هدم من جهة الغرب فذهب نصفه وعدا عليه الجوار فأخذوا من ارضه الشرقية ربعه · بناه ابو الفداء وعمل لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على شكل افاعي ملتفة ولهذا سمي جامع الحيات وعمل فيه خزانة كتب كبيرة كان فيها سبعة آلاف مجلد فذهبت فيما ذهب منه ونقش حرمه بالذهب والفسيفساء والرخام الملون في جدرانه وارضه وعمل له من الغرب شباكين كما في جهة الشرق غير انهما هدما وادخلا في البستان المجاور له · وعلى يمين مدخل الجامع الذي ينزل اليه بدرج غرفة فيها ضريح الملك المؤيد ابي الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ اصلحها بعد دثورها منذ سنتين العالم المصري احمد زكي باشا · وبنى رجل ايضاً حموي متوسط الحال يدعي الانتساب الى السلطان بدر الدين حسن اخي ابي الفداء منارة جميلة في جانب الضريح مكان المنارة القديمة المندثرة · و (جامع السلطان) في محلة الدباغة بناه السلطان حسن

من حكم حماة من العثمانيين بعد فتح السلطان سليم(١) . وأشهر تكاياها « تكية عبد القادر الكيلاني » وهي عامرة ومزخرفة وذات ايراد جزيل وتعج بالدراويش(٢) . وأسواق حماة وان لم تكن عامرة بقدر أسواق حلب لكنها حافلة بجميع أنواع البضائع القيمة ويكثر فيها الصياغون والحلاقون . وحر حماة شديد لوقوعها في وسط الاقليم الرابع وتهب من بريتها ريح سموم

شقيق ابي الفداء على هيأة جامع الحيات ومشتملاته و(الجامع النوري) في محلة باب الناعورة بناه نور الدين الشهيد في سنة ٥٥٨ بعد الزلزال الكبير الذي هدمت فيه حماة واوقف له اوقافاً كثيرة لم يبق منها اثر وكان له باب شاهق من الغرب درس وباب آخر من الشرق باق حتى اليوم وبين هذين البابين تاريخ بناء الجامع محفور بخط جميل وحروف ضخمة . وصفه هرزفيلد فقال : هذا الجامع على الشاطئ الأيسر من العاصي في ارض منحدرة وعلى بناء تحتي عال . بني هذا الجامع على عهد نور الدين وعلى ما دخله من الترميمات الكثيرة تشاهد فيه الى اليوم اجزاء مهمة من البناء القديم ولا سيما الحرم الطويل الذي عقوده حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع وكذلك القباب الثلاث من الرواق الشمالي المختلفة الأشكال . والأبنية القتبانية من الجهتين الشرقية والشمالية والحائط الخارجي الشمالي من الجامع . وربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء والسوداء قديم العهد ايضاً . وفي هذا الجامع بقايا منبر جميل عمل من الخشب يرد الى زمن نور الدين ثم محراب زين اجمل زينة فيه اعمدة من الرخام المجزع من عهد الملك المظفر محمود (٦٢٦— ٦٤٢) وفي مكان آخر من الشرق محراب ذو اعمدة من المرمر زبر في تيجانها اسم ابي الفداء .

(١) هذا الجامع لم يعرفه احد ممن سألتهم في حماة ولا سمع بهذا الاسم . فمن أين أتى الچلبي بذلك .

(٢) نفى الصابوني وجود التكايا الآن في حماة . اما التكية الكيلانية فقد أسماها زاوية وقال أنها من بناء بني الكيلاني القاطنين في حماة منذ القرن السابع . والذي علمته ان الايراد الذي ذكره الچلبي اندثر والدراويش لم يعد لهم أثر .

لذلك يكثر السمر في اهلها ويقل الجمال في نسائها (كذا) . ويلبس الرجال جبباً وغنابير ملونة تكون في موسريهم من الحرير ومتوسطيهم من القطن أو الصوف وتلبس النساء في أرجلهن أحذية طويلة الساق ويلتحفن بملاآت بيضاء .

ويصنع فيها شراشف ومناشف ومناديل حريرية . ولكثرة الشبان الذين يتجندون تكثر الفروسية بين اهلها ويصنع فيها سروج ولجم جميلة متقنة . اما قمحها فيماثل القمح الحوراني في الجودة . وكذا الأمر في شعيرها وقطانيها . وتكثر في حماة الخيول الاصيلة . اما حماماتها فكثيرة وعلى غاية من الحسن واتقان الخدمة أخص بالذكر حمام (١) محمد باشا الارناوءد الذي لم أر في ديار الروم مايماثله في الإبداع الا ان يكون حمام محمد كراي في بغجه سراي عاصمة بلاد القريم .

وفي حماة نواعير عظيمة منصوبة على نهر العاصي يسمع القادمون الى هذه البلدة أنينها من مسافات بعيدة . وهي دواليب مؤلفة من اخشاب واعمدة ومسامير حديدية على غاية من الطول والضخامة . وتنصب المياه من هذه النواعير في قناطر تذهب بها الى قصور البلدة ودورها وحماماتها ومساجدها وخاناتها . ولكل ناعورة اوقاف ذات ايراد وخدم ونجارون مهيأون لخدمتها . واذا اقترب الزائر الغريب منها تكاد آذانه تصم من شدة الضجة . والاغرب

(١) هو حمام الباشا الذي كان في جانب جامع المدفن . والحمام والجامع من بناء محمد باشا الارناؤط الذي مر ذكره . وقد اندرس هذا الحمام منذ قرن في جملة المعالم الكثيرة التي اندرست في حماة ويبعث وهي عامرة للعجارين كدار الفرح في محلة باب الجسر كانت وقفاً للأفراح فمن أراد ان يتزوج مثلا يأخذ مفتاحها من متوليها ثلاثة ايام ذكره الصابوني .

من كل ذلك روئية غلمان حماة المتشردين يتعلقون باطراف الناعورة ويدورون بدورانها حتى اذا علت بهم القوا بانفسهم الى العاصي فيغوصون فيه ويسبحون . وفي حماة مئات من الحدائق والبساتين التي تروى من هذه النواعير . ولا يخلو كل بستان من ناعورتين او ثلاث على ان أعظم ناعورة بينها هي ناعورة المحمدية التي سارت بذكرها الركبان (١) . وفي حماة قبران لعالمين من الترك احدهما المولى حامد جلبي الشهير بطاشكوبري زاده والثاني المولى ابراهيم جلبي الآذري وكلاهما مدفون بجوار التكية الكيلانية وتاريخ وفاة الجلبي الآذري سنة ٩٩٣ هـ (٢) .

(١) نواعير حماة كثيرة وهي من صنع الرومانيين والعرب وكان منها في زمن ابي الفداء ٣٢ ناعورة . اما الآن فهي أقل من ذلك أكبرها ناعورة المحمدية التي ذكرها الجلبي وهي في باب النهر أنشئت في أيام المعز الاشرف السيفي كافل حماة في سنة ٧٦٣ لسقي الجامع الاعلى ومنها ناعورة المأمورية قرب جسر السرايا أنشئت هي وقناتها باسم الحاج بلباك كافل حماة في سنة ٨٥٧ تسقي جهة السوق . وقد اقتبس الصليبيون فيما اقتبسوه من بلاد الشام صنع النواعير ايضاً فأوجدوا في ألمانيا في واد صغير في فرانكوني على مقربة من بايروث نواعير كالتي في حماة لاتزال دائرة . ذكره سوبرنهايم في المعلمة الاسلامية .

(٢) قيل انه كان في جوار الزاوية الكيلانية مقبرة للكيلانيين درست وبني في محلها دور ولعل هذين القبرين اللذين ذكرهما الجلبي كانا فيها . اما حامد جلبي فلم اعثر على ترجمته ولعله كان قاضياً في حماة ورث القضاء والعلم عن ابيه اوجده عصام الدين ابي الخير احمد بن مصطفى الشهير بطاشكوبري زاده مؤلف كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية وكتاب موضوعات العلوم وغيرهما وكان عصام الدين من اعظم علماء الترك العثمانيين افضل من الف منهم ونظم باللغة العربية توفي في سنة ٩٦٨ . وآذري جلبي كان على ماقاله شمس الدين سامي مؤلف قاموس الاعلام — من الفضلاء المبرزين في عهد السلطان سليم الاول

كان عالماً شاعراً لطيف المعشر سلك مسلك القضـاء وما زال يتنقل في قضاء مدن شتى في الاناضول حتى كانت خاتمة مطافه حماة توفي فيها سنة ٩٩٣ ودفن في خارجها وله ديوان شعر تركي سماه « نقش خيال » .

قلت ويبلغ عدد سكان حماة الآن اربعين الفاً تسعة اعشارهم من المسلمين واكثر البقية من الروم الارثوذكس واقلها من السريان القدماء والسريان الكاثوليك والبرتستانت وحماة مابرحت قاعدة لمتصرفية كان يتبعها اقضية حـماة وحمص وسلمية ومصياف ثم فصلت عنهـا حمص وجعلت متصرفية والحقت مصياف بحكومة اللاذقيـة ولم يبق لحماة سوى قضاءها المركزي وقضاء سلمية يتبع الاول نواحي حماة وطارالعلا والحميري والحمراء ويتبع الثاني نواحي علي كاسون ومعرشحور وعقيربات وسلمية . وحماة بلدة زراعية اكثر منها صناعية وجل علائق سكانها مع الفلاحين والبدو فاذا جادت السماء والامطار واقبلت المواسم حسنت حالتهم وان شحت حصل الجدب وعم الضيق . اما صناعاتها فهي البياض ومنسوجات الحرير وقد كان لها في الماضي القريب مكانة كبرى وكان المرتزقون منهـا في حماة — ومثلها في حمص ودمشق وحلب وطرابلس — يعدون بالالوف ذكر في (سالنامة ولاية سورية) لعام ١٣٠٥ هـ انه كان في حماة ٥٠٠ نول يشتغل بها ٨٠٠ عامل يصنعون في كل عام ٣٠٠٠٠ من عدة الحمامات كالمناشف والفوط و ٣٦٠٠٠ ثوب من البياض و ١٠٠٠٠ شرشف فراش مما كان يبلغ ثمنه ٧٠٠٠٠ ذهب عثماني اهـ . بدأ هذا الوارد يتضاءل منذ اليوم الذي كثر فيه اقبال الشرقيين على استعمال الثياب والفرش الافرنجية وزادت ضؤولته بعد الحرب العامة على اثر فصل بلاد الشام من الاقطار المجاورة التي تروج فيها هـذه المصنوعات واخصها بر الاناضول والقطر المصري وتزييد رسوم المكس عليها الى ان بطل استعمالها في الاناضول وتعذر تصديرها الى مصر فماتت هذه الصناعة او كادت وساء حال مرتزقيها .

وتصدر حماة للخارج أعتاق الخيول العربية وانواع الحبوب والسمن الحديدي الفاخر المشهور والصوف والجلد . وفيهـا كثير من الجوامع والكنائس والمدارس الميرية . احداها مدرسة تجهيز والمدارس الخاصة كدار العلم والتربية التي تقيم في قصر بني العظم

الاثري وفيها الصيارف والاطباء والصيدليات والمحامون وتجار السلع المختلفة ومن هذه السلع ما هو خاص بالبدو . ويكثر في اهل حماة القرع وامراض العيون لكثرة العجاج وشدة الحرارة والرطوبة في الصيف وقلة العناية بالصحة . وابهج الفصول في حماة الربيع - تزدان فيه حقولها وحدائقها وازوارها بحللها السندسية ويقصد الحمويون آنئذ المتنزهات والمقاصف المشرفة على تلك المرتبعات فيضربون الخيام ويقضون فيها اياماً واسابيع ويجلب البدو الذين يكثر وجودهم في براري حماة — اللبن الخاثر الجيد ومشتقات الحليب كاللباء والزبد والكشأة وجميعه مما تباهي حماة بوفرته وجودته . واردأ الفصول فيها الصيف والخريف فانهما شديدة وطأتها . وقد انجبت حماة في العصور الغابرة علماء وأدباء كثيرين ذكروا في كتب التراجم ومابرح اهلها في الجملة ذوي شغف بالدراسة وبينهم الآن لاسيما في الطبقة الوسطى عدد غير يسير من حملة الشهادات المتوسطة والعالية في مختلف المسالك . هذا وينقص حماة لتحسين جمالها الطبيعي تغيير شكلها الموروث منذ قرون وذلك بتنظيم شوارعها وتنظيفها وتشييد المباني على الطراز الحديث وايجاد الفنادق والمطاعم والمسارح التي تجذب اليها الغرباء والسائحين وجلب الماء القراح ونور الكهرباء واصلاح بساتينها واعادة الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة : الى آخر ما هنالك من وسائل العمران التي قصرت فيه عن بقية مدن الشام .

« للبحث صلة »　　　　وصفي زكريا

كتب الادب القديمة والحديثة

– ٤ –

وقال في ص ٦٧ — لم تخلف انامله · والصواب لم تخلف ·

وفي ص ٦٨ — بعدن عداة زور · والصواب عدات ·

وفي ص ٦٩ — باوصال الحسين · والصواب فأوصال ·

وفي ص ٧٠ — واعلم لقد خشيت صدر اخ · والظاهر ولقد خشنت اي اوغرت ·

وفي ص ٧١ — ان الضيف يخسر ما رأى · والظاهر مخبر ·

وفي ص ٧٢ — من المشترين الغدر · والصواب من المشتوين القد ·

وفي ص ٧٢ — اي يأخذون العهد الخ · والصواب ان هذا نثر وليس بشعر ·

وفيها امرأة عبد الصمد · وسياق القول يقضي بان تكون أم عبد الصمد ·

وفي ص ٧٣ — شعار المولدين · والصواب اشعار ·

وفيها · لا ازرها · والصواب لا ازورها ·

وفي ص ٧٤ — بقول عبد الصمد · والصواب يقول ·

وفيها · عمرو بن فرخ الرجعي والمعروف الرخجي ·

وفيها · وايضاً لقبح مسبته · والصواب واتقاه ·

وفي ص ٧٥ — لقيب اعرابياً · والصواب لقيت ·

وفيها · ضخم ضجر عضوب · والصواب ضخم حضجر غضوب ·

وفيها · نابض اوقار · والصواب اوتار ·

وفيها · له في الغيبة بعد الغيبة عند الخليفة · والظاهر في الفينة بعد الفينة ·

وفي ص ٧٦ — وما ادي · والصواب وما ادري ·

وفيها • فمن تيك لم اصبر • والأولى فديتك لم اصبر •

وفي ص ٧٧ — على عتب الضمير • والصواب غيب •

وفيها • لى ان جرى • والصواب الى ان جرى •

وفيها • فبدل منا بشهد بمغيب • والصواب فبدل منها مشهد بمغيب •

وفيها • الى شر يومها قد هم م والى عارضها قد لمع • والظاهر الى شؤبوبها قد لمع والى عارضها قد همع •

وفيها • بالوعيد قد اروى • والصواب اورى •

وفيها • داهية نار • والظاهر نآد •

وفي ص ٧٨ — سهلت لك الوعود • والصواب الوعور •

وفيها • من ركن ململ • والأولى ركن يلملم وهو جبل على مرحلتين من مكة •

وفيها • موضع السيف من عاتقه فنعفو عن قتله • • والظاهر من عنقه فيمنعني من قتله ابقائي • •

وفي ص ٧٩ — الحقد داء ردي • • والصواب داء دوي •

وفيها • جعلت المي كطرق السبك • والصواب كطرف • •

وفيها • قيس بن الكشوح • وفي امالي القالي ابن مكشوح •

وفيها • تمثل به على • • راى عبد الرحمن • والصواب لما رأى •

وفي ص ٨٠ — الا تبقي الحياء • ورواية البيت الا تقى الحياء كما في امالي القالي •

وفي ص ٨١ — طاط من اشرافه • والصواب طأطي •

وفي ص ٨٣ — الى العلا • • • • حاورا • والصواب الى العلى • • حاروا

وفيها • يعول اثنا عشر • • والصواب اثني عشر •

وفي ص ٨٤ — انما طيب الثناء • والأولى طيبك الثناء •

وفي ص ٨٥ — وموته موته لا موته الداني • والأولى وموته خزيه • •

وفيها • اخذ هذا البيت الراضي • والصواب الرضي •

وفيها • اليث الشرى • والصواب أليث الشرى وروي هذا البيت • هكذا بنفسي ثرى ضاجعت •

وفيها . يذكر بخدمة سلفها . والأولى يذكره بحرمة .
وفي ص ٨٧ — يطيح هو الصابي . والصواب هوى . .
وفي ص ٨٨ — قطعت الياء من ديمومة . والصواب اليك من . .
وفيها . دمع السموع باثر . . والصواب دمع المودع نحو . .
وفيها . مادمت انت ان تقوم . والصواب اسقاط ان .
وفي ص ٨٩ — كايشرف غيرهم . والصواب كما يشرف .
وفيها . قطع متن الشعراء . . والصواب متن الشعر .
وفي ص ٩٠ — اعطاك سَورة . والصواب سُورة .
وفيها . امرو ابن هند عضبة . والصواب غضبة .
وفيها . وحقر المشارك ؛ والأولى وحقد .
وفي ص ٩١ — في حياتك لي عظاة . والصواب عظات .
وفيها . تستقل ملك العباد . والصواب بملك . .
وفي ص ٩٢ — بالسطان الانفس خائفة والصواب بالسلطان الانفس جائعة .
وفي ص ٩٣ — صوالح صدغيها . والصواب صوالج .
وفي ص ٩٥ — يضيق بالضرر وسمه . والصواب ويسمه .
وفيها . لِحياه رعدة . والصواب لحَياه .
وفيها . ياأصحاب الجدود . . . المطروزة . والصواب ياأصحاب البرود . . . المطرزة .
وفي ص ٩٦ — ويقل شبا . والصواب ويفل . .
وفيها . وان قلبًا لم ينصحه . وفي الاصل لم ينضجه .
وفيها . اسفرت الخلوة عن وجهة والصواب عن وجهه .
وفي ص ٩٧ — خُلِعت خجلة . والاولى خَلعت .
وفي ص ٩٧ — صار بحرًا مروجه في اليدين . والصواب صار مجرى بروجه كما في الديوان .
وفيها . تجاريا الى مدد . والصواب الى امد .
وفي ص ٩٩ — عزني فيها لئيم وسامني . والاولى وساءني .

وفي ص ١٠٠ — ولما احتفل القائد . والصواب القائل .

وفيها . بلاد حل بها الشباب تمائمي . والصواب بلاد بها حل ...

وفي ص ١٠١ — ذكر ان سكرته تعطي . والصواب ان غول سكرته يغطي .

وفيها . مقدار فضيلته في . والظاهر في قوله .

وفي ص ٢ ١ — فاستهلت مدامعي شوقي . والظاهر لشوقي .

وفي ص ١٠٣ — باردات النوائب . قال في الذيل النوائب هنا بمعنى الانياب ولم اجدها بهذا المعنى ولعلها الانايب اصلها انابيب جمع انياب .

وفي ص ١٠٤ — فاهتاج معتز . والاولى فاجتاح .

وفيها كأن ببغداد . والصواب كأن بغداد ... وبذلك يستقيم الوزن .

وفي ص ١٠٤ — شوق الى وجه وليس بصحيح الوزن . والاولى الى وجهه .

وفي ص ٥ ١ — تخذتكم دُرعا . والصواب دِرعا .

وفيها . فيها منقوشه . والصواب منقوشة .

وفي ص ١٠٦ — امتطى بالجوزاء . والصواب الجوزاء .

وفيها . موثوقة بالوثاقة . والأولى موصوفة او موسومة ..

وفيها . فهمي حمى . والصواب فهي ...

وفيها . قبل الخط مجرى . والصواب قبل الخطو نحوها مجرى .

وفي ص ١٠٧ — شرا فته ... شرافات . والصواب شرفاته ... وشرفاته .

وفي ص ١٠٨ — يقضي زمامه . والصواب ذمامه .

وفيها . قوى الاستقلال والاضطباع . وقال في الذيل الاضطباع النهوض . والصواب اضطبع الشيء ادخله تحت ضبعيه اي عضديه وربما كان الاصل والاضطلاع .

وفي ص ٩ ١ — ولا بليت عذرا . والصواب ولا أبليت .

وفيها . ولولا النعمة بالزيارة نعمة لم تزل ... وصواب العبارة . وله . احق النعم بالزيادة نعمة لم تزل ...

وفيها . عادية احكامها ... والصواب غادية لانها تقابل رائحة في الجملة الآتية .

وفيها . قبض الله من الأمير . والصواب فيض ...

وفيها · الق عصا التيار · والصواب التسيار ·

وفي ص ١١٠ — فانسى به حادث الكلم · والصواب وآسى به ·

وفيهـا · اذا تغذيت ··· بالغذاء · والصواب تغديت · بالغداء وبه تحصل المجانسة من قوله اراغ داني ·

وفيها · آذى قفاه ما ذاق فاه · والظاهر اذا قفاه اذاق فاه

وفيها · من مجبهن زحام · والظاهر من جمهن ·

وفيها · فرعى الله طويل حياة · والصواب فدعا الله طويلا يرجى ·

وفيها · وافاه بعد تأبين بشر · والصواب بعد يأس بشير وحيئنذ يصح المعنى ·

وفيها · بدا بين ايدينا عمودا · والصواب عمود اوترى بين ايدينا عموداً ·

وفي ص ١١٢ — خرراسه · والصواب حز اوجذ ·

وفيها · قد كسى الباطن ··· والأولى حذف قد ·

وفيها · وضفر من بنات · والصواب وصفر ·

وفيها · واظهرها عواري · والصواب عوار ·

وفيها · وامستنفج · والصواب وليست ·

وفيها · لكل ساري · والصواب سار ·

وفي ص ١١٣ — ويزوغ عنه · والصواب ويروغ عنه ·

وفيها · فبعد الترك · والظاهر فبعض الشوك ·

وفي ص ١١٤ — جم الزلال · والصواب جم الزلازل ·

وفيها : اذا سئلوا جادت سيوف اكفهم عرائك احداث الزمان الجلائل

وهو ملفق من بيتين وهما :

اذا سئلوا جاءت سيوب اكفهم تطاير جمـات التلاع السوائل

خليقون سروا ان تُلمين اكفهم عرائك احداث الزمان الجلائل

وفي ص ١١٦ — من هجنه الرد · والصواب من هجنة ·

وفي ص ١١٧ — في الذيل · المتخمط هنا الثائر الهائج · والمتخمط القهار الغلاب الذي له جلبة من شدة غضبه ولم ارها بمعنى الثائر ·

وفيها . ببيتين اهلنا والاولى يحلن .
وفيها . برياك يغذو ربنا بلداً قفرا . والاولى برياك تعروري بنا . . .
وفيها . الرتاج الاغلاق . والصواب هو الباب العظيم او المغلق عليه باب صغير .
وفي ص ١١٨ — تلهب جمر الفرقد . والصواب الغرقد وهو شجر عظام .
وفيها . تذود النفوس الضاريات والاولى الصاديات .
وفيها . في الذيل مرجحنة متاوجة . والاولى ثقيلة واسعة مائلة من ثقلها .
وفي ص ١١٩ — كقول الطرماح في النور . والصواب في الثور .
وفيها . عتباً بحبكم . طال بحبكم . والصواب بحبكم في الموضعين .
وفي ص ١٢٠ — بوصل متى تطالبه والصواب متى تطالبه .
وفي ص ١٢٢ — وليس ذا حين الزيادة . والصواب حين الزيارة .
وفيها . ما قلت للطيف الملم الا ابتعد . والبيت في الديوان هكذا :

ما قلت للطيف المسلم لا تعـد تغشى ولا كفكفت حامل كابي

وفيها . فلم يدر ثغر مادها وجيد . وفي الديوان فلم يدر نحر .
وفي ص ١٢٣ —

أني أهتدي في ظل اخضر مغدق حتى نيم بالعناء وسادـي

وصوابه : انى اهتدى في ظل اخضر مغدف حتى نيم بالعراء وسادـي

وفي ص ١٢٤ — ممنوناً ولا نزقا . والصواب ولا نزقا .
وفيها . كمن يعي بحجته وسط النداء . والصواب يعيا . . . وسط الندي .
وفيها . مالي ومالك شبه حين اذكره . والأولى انشده .
وفي ص ١٢٥ — دون الخير من شر . والصواب من ستر .
وفي ص ١٢٦ — كالشراب الرقراق . والصواب كالسراب .
وفي ص ١٢٧ — كسوة من اعز ادرع . والصواب اغر اروع .
وفيها . برد المضاع . والصواب برد الصناع .
وفي ص ١٢٨ — على عقوق الثروة . والصواب على حقوق .
وفيها . في اخس رتان . والظاهر زمان .

وفي ص ١٢٩ — موكل بحب الاجل . والصواب الآجل .

وفي ص ١٣٠ — لبسته الخالدة . والصواب الخالدة .

وفي ص ١٣٢ — والظافر به عزيمة . والأولى والظفر به .

وفيها . سفائح جهله . والظاهر سفاتج .

وفي ص ١٣٣ — لايحل الفاقة ولايحل خناقة . والصواب لايحل انفاقه ولايحل خناقه

وفي ص١٣٣ — عوانها اذا الوحوش . والصواب عنوانها .

وفي ص ١٣٦ — لا يقع الا في البذر . وفي رسائل البديع الا في الندر .

وفي ص ١٣٧ — الا قفص اللفظ . وفي الرسائل الاقنص اللفظ .

وفي ص ١٣٨ — ويفل حجيج خصمه بس كتاب حكمه . والظاهر بسكتات حكمه .

وفي ص ١٣٩ — ومن اللغات اذا تعهد المهمل . والصواب اذا تعد وبه يستقيم الوزن .

وفيها . كل أيمة نضيرة . والظاهر خطيرة .

وفيها . وتحنو على الرقة والتخفي ... وسياق القول يقتضي ان يقال على الرقة له والتخفي به ...

وفيها . ولم يختلط به قلب معاب . والظاهر ثلب معاب .

وفي ص ١٤١ — في التعزية قررت عيناً أفديك . والظاهر اسقاط قررت عيناً .

وفيها . توجب انه ملك لايحقق اعطاء ولا يحصل . والأولى توجب انه ماق لايحقق وعطاء لا يحصل ...

وفيها . قتيل فهل فيكم له اليؤم ثائر . والصواب اليوم ثائر .

وفي ص ١٤٢ — ويتزرن على العواتك . قال في الذيل العواتك جمع عاتكة وهي المحمرة من الطيب والمراد هنا الارداف . والصواب العوانك جمع عانك وهي الرملة المنعقدة المرتفعة وهي كذلك في امالي القالي .

وفيها . ويتهادين على الدوانك وقال في الذيل الدوانك جمع دونك وهو الوادي . والصواب الدوانك جمع دِرْنِك وهي الطنافس .

وفيها . وعن الحيـاء حور . وقال في الذيل حور مترددات . والصواب وعن الخنا نور جمع نؤور وهي النفور من الريبة .

وفي ص ١٤٣ — هو داء تداوي به النفوس . والصواب تدوى به .

وفيها . وحمى مضطرم . والصواب وجمر مضطرم .

وفي ص ١٤٤ — وقد ذكرت ابصار قلوب ابنائها والظاهر كسرت .

وفي ص ١٤٥ — وليس بخافي . والصواب بخاف .

وفي ص ١٤٦ — يجني بها ثمر الانام . والصواب الاثام .

وفي ص ١٤٧ — لقد جمعتنا ظرفاً . والصواب جمعتها .

وفيها . قال اللبحتري . والصواب البحتري .

وفي ص ١٤٨ — نطاقها مجرب وازارها محصب . والصواب نطاقها مجدب وازارها مخصب .

وفيها . واستوفى ماء الحسن . والظاهر اقسام الحسن .

وفيها . صورة تجلي الأبصار . والأولى تجلو .

وفيها . كان خده سكران من خمرة فمه . والسجع يقتضي . خمرة طرفه .

وفي ص ١٥٠ — وتشوك رغفران خطه . والظاهر تشوك زعفرانه .

وفيها . فارقنا خشفاً . والصواب خشفاً .

وفيها . والاظفار حما . والظاهر حمى .

وفي ص ١٥٣ — ويخد خذ . والصواب خد .

وفي ص ١٥٤ — وزري ملكي . والظاهر وزي ملكي .

وفي ص ١٥٧ — أتحت سروره . وفي الديوان أبحت .

وفي ص ١٥٨ — وللماء ما دارت عليه القوانس . وقال في الذيل القوانس اعالي الرؤس . وفي الصحاح القونس أعلى البيضة من الحديد . وبعد ذلك فرواية البيت هكذا :

(وللماء ما دارت عليه القلانس)

وفيها . وحكى الذباب بها فليس ببارح . والرواية وخلا الذباب .

وفي ص ١٦٠ — يعادوني قطع . والصواب يعاودني قطع .

« للبحث صلة » سليم الجندي



جامع التواريخ

— أو —

« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة »

— ٦ —

وحدثني قال حدثني القاضي احمد بن سيار قال حدثني شيخ من التجار بعمان قال كنت بالابلة أريد الخروج الى البحر فرأيت سائلاً بباب الجامع فصيح اللسان مليح المسألة فرققت له واعطيته دراهم صالحة وخطفت في الوقت الى عمان فاقمت بها شهوراً ثم قُضي لي ان مضيت الى الصين فدخلتها سالمًا فاذا انا يومًا اطوف فاذا الرجل بعينه قائمًا في السوق يتصدق فتأملته فعرفته فقلت له ويحك سائلاً بالابلة وسائلاً بالصين فقال قد دخلت الى هذا البلد ثلاث دفعات وهذه الرابعة لطلب المعيشة فلا اجدها الا من الكدية فارجع الى الابلة ثم ارجع الى هاهنا قال فعجبت من شدة حرمانه .

* * *

وحدثني قال حدثني قاضي القضاة ابو محمد بن معروف رضي الله عنه قال حدثني بعض اهل بغداد عن ابي عبد الله بن ابي عوف انه قال ضاق صدري في وقت من الأوقات ضيقًا شديدًا لا اعرف سببه فتقدمت الى من

حمل لي طعاماً كثيراً وفاكهة وعدة من جوارٍ الى بستانٍ لي على نهر عيسى وامرت (١) غلماني واصحابي ان لا يجيئني احد منهم بخبر يشغل قلبي ولو ذهب مالي كله ولا يكاتبوني وعملت على ان أقيم في البستان بقية اسبوعي أتفرج مع أولئك الجواري قال وركبت حماري وقد تقدمني كلما أمرت بحمله فلما قربت من البستان استقبلني فيج (١) معه كتب فقلت له من أين وردت فقال من الرقة فتابعت نفسي ان أقف على كتبه وأخبار الرقة وأسعارها فقلت له تعرفني فقال نعم فقلت انت قريب من بستان لي فتعال معي حتى اهب لك دنانير وأغير حالك وأطعمك وتستريح الليلة في البستان وتدخل بغداد غداً فقال نعم ومشى معي راجعاً حتى دخل البستان فأمرت من فيه ان يدخله حماماً فيه ويغير ثيابه ببعض ثياب غلماني ويطعمه فابتدروا معه في ذلك وتقدمت (٢) الى غلام لي فاره فسرق كتبه وجاءني بها ففتحتها وقرأت جميع مافيها وعرفت من أسرار (٣) التجار الذين يعاملوني شيئاً كثيراً وتفرجت (٤) بذلك ووجدت جميع الكتب محشوة الى التجار بان يتمسكوا بما في ايديهم من الزيت ولا يبيعوا منه شيئاً فانه قد غلا عندهم وعزّ ويوصونهم بحفظ مافي أيديهم فأنفذت الى وكلائي في الحال فاستدعيتهم فجاؤا فقلت لهم خذوا من فلان الناقد وفلان الناقد كلما عندهم من العين والورق الساعة ولا ينقضي اليوم اويبتاعون (٥) كلما يقدرون عليه من الزيت واكتبوا اليّ عند انقضاء النهار بالصورة فمضوا فلما

---

(١) ناقل البريد . (٢) بالاصل : وفقدت . (٣) بالاصل : اسار بحذف الجار .
(٤) لعله : وفرحت . (٥) لعله : ولا ينقضي اليوم أو تبتاعوا الخ .

كان العشاء جاءني خبرهم بانهم قد ابتاعوا زيتاً بثلاثة آلاف دينار فكتبت اليهم بقبض الوف دنانير أخر وبشري كلما يقدرون عليه من الزيت وأصبحنا ودفعت الى الفيج ثلاثة دنانير وقلت له ان أقمت عندي دفعت اليك ثلاثة دنانير أخرى فقال أفعل وجاءتني رقعة أصحابي بانهم ابتاعوا زيتاً باربعة آلاف دينار وانه قد تحرك سعره لطلبهم إياه فكتبت بان يبتاعوا كلما يقدرون عليه وان كان قد زاد وشاغلت الرسول اليوم الثالث ودفعت اليه في اليومين ستة دنانير وأقام ثلاثة ايام وابتاع أصحابي باربعة (١) آلاف دينار أخرى وجاؤني عشياً فقالوا كان ماابتعناه اليوم زائداً على ماقبله في كل عشرة نصف درهم ولم يبق في السوق شيء يفكر فيه فصرفت الرسول واقمت في بستاني اياماً ثم عدت الى داري وقد قرأ التجار الكتب وعرفوا خبر الزيت بالرقة فجاؤني يقرعون ويبذلون في الزيت زيادة اثنين في العشرة فلم أبع فبذلوا زيادة ثلاثة في العشرة فلم أبع ومضى على ذلك نحو من شهر فجاؤني يطلبون زيادة خمسة وستة فلم أفعل فجاؤا بعد ايام فبذلوا الواحد الواحد فقلت في نفسي ترك هذا خطأ فبعته بعشرين الف دينار فنظرت فلم يكن لضيق صدري وانفرادي في البستان ذلك اليوم سبب الا ما أحبه الله تعالى ان يوصل الي ربح عشرة آلاف دينار .

* * *

وحدثني قال حدثني صائغ كان يخدم في خزانة الامير معز الدولة يعرف بطاهر قال كنت أشرب يوماً في منزلي وعندي جماعة من إخواني

(١) الصواب : ثلاثة كما يظهر .

فانقطع بنا النبيذ فخرجت احتال لهم شيئاً من ذلك فلقيني ركابي فقال الامير يطلبك فقلت قل انك لم تجدني قال لا افعل فقلت خذ مني ديناراً وقل انك لم تجدني قال لأفعل قال وانا معه اذ جاء ركابي آخر فبذلت لهما دينارين فأبيا وجاء الثالث فمضيت وحملت معي غلاماً كان لي فحين دخلت الى الامير قال لي امض فانظر مايقول لك علي المغني في الخزانة فافعله فجئت الى الخزانة فقلت لعلي ايش تريد فاخرج الي مناطق كثيرة ذهباً موكدة (١) بلاسيوف مما أخذه معز الدولة من تركة اخته (٢) وكانت الاخت تشدها في اوساط الجواري وتلبسهن القراطق والخفاتين وتلك المناطق فوقها ويخدمونها (٣) كذلك فلما حصلت لمعز الدولة لم يستحسنها فامر بكسرها وصياغتها مراكب وسيوفاً ومناطق اعجمية فقال لي اجلس واقلعها حتى ننظر كم يجتمع منها ويصاغ قلت ليس معي آلتي التي تستعمل فقال انفذ من يحضرها فأنفدت غلامي فأحضر بعض الآلة فما زلت اقلع واغتفل المغني واسرق واجعل ذلك في كمي وتحت عمامتي وارمي الى غلامي فاذا حصل معه شيء قلت له هات المبرد (٤) هذا قد كلّ فامض وجئني بغيره او هات الآلة الفلانية فيمضي وحصل (٥) ماقد سرقناه ويجيء بالآلة واسرق واعطيه واطلب آلة أخرى على هذا الى ان جاء المساء فجمع علي المغني تلك المناطق واخذ الوعد علي في الحضور في غد

(١) بالاصل : مولدة . (٢) بالاصل : أخيه .
(٣) الصواب يخدمنها . (٤) لعله سقط : الفلاني او الآخر .
(٥) لعله : ويحصل اي يضع في البيت .

ومعي الصناع وشريكي الموسوم (١) معي بالخدمة في الخزانة فانصرفت فوزنت ماقد حصل عندي وكان اربع مائة وثمانين مثقالاً فقلت اقبالي هذا حملت اليه كرهاً حتى اخذته بعد ان بذلت ان اعطي دينار بن جملاً ولا امضي وحدثتهم (٢) بالقصة فلما كان من الغد حضر الصناع وشريكي وجلسنا نفكك الباقي واحضرنا شيئاً آخر فما استوى لنا ان نسرق الامائة وستين مثقالاً قاسمته عليها وعجبت من رزقي في ذلك .

* * *

حدثني ابو الحسن ثابت بن ابراهيم بن هارون (٣) الحراني الصابئ الطبيب قال حدثني ابي قال كنت بين يدي الموفق يوماً فقال لي يا ابراهيم انا اشتهي شهوة منذ سنتين وهو ذا استقبح ان أطلبها وقد عنّ لي الساعة مواضعتك على طلبها قال قلت يأمر امير المؤمنين قال ويحك انا والله منذ سنين كثيرة اشتهي كبود الدجاج وقوانصها مطبجة وأستقبح ان أطلبها فيظن صاحب المائدة ان نفسي قد تابعته شحاً به عليهم لان رسمهم جار بان يرتفقون (٤) بأخذه وبيعه وأريد اذا قدمت المائدة وجلستَ معي للأكل ان تشتهي ذلك عليّ وتشير به من طريق الطب لاتقدم اليهم باتخاذ شيء منه بشيء يسير فيصير ذلك القدر رسماً في كل يوم لا يؤثّر عليهم قدره ويبيعون هم الباقي فانه كثير واكون قد قضيت شهوتي قال فعجبت من كرمه وفرط حيائه من خدمه

(١) لعله : المرسوم . (٢) لعله : ولم أحدث أحداً . (٣) الصواب : زهرون راجع عيون الانباء ١ : ٢٢٧ (٤) الصواب : يرتفقوا والضمير للمستخدمين في المطبخ .

حتى يلفق الحيلة في الوصول الى شهوته من غير ايحاشهم اوتعرض لذمهم وقدمت المائدة فجلس يأكل عليها وحده وجلست مع الندماء آكل على مائدة بين يديه فلما اكل بعض اكله قلت له لِمَ لا يأمر امير المؤمنين الناصر بان يُتخذ له شيء يسير في زبديات من كبود الدجاج المسمن وقوانصه بالبيض والمري فيطحن (١) بعضه فيولع منه بالشيء اليسير فان في ذلك كذا وكذا واخذت اصف ما حضرني في الوقت ونحن ايضاً نشتهي ان نأكل منه فقال يصلح لنا من غد كذا وكذا زبدية مطحن(٢) وكذا وكذا زبدية من كبود الدجاج المسمنة وقوانصها فاصلحوا ذلك وصار رسماً جارياً ولم يفطن احدمنهم بماجرى .

* * *

حدثني عبيد الله بن احمد بن بكير قال حدثني ابو جعفر الضبي الفقيه الحنفي وقد شاهدته انا وكان من شيوخ التجار المستورين فقيهاً يحضر مجلس ابي للخلاف ويناظر ولم اسمع منه هذه الحكاية قال حدثني شيخ من التجار بسيراف قال كان عندنا نفسان يمشيان في طريق فرأيا صرة فيها دراهم ملقاة في الطريق فقال احدهما للآخر خذها واحفظها لصاحبها فقال الرجل لا افعل فقال لكني آخذها واحفظها فان وجدت صاحبها رددتها عليه قال فأخذها ومشى فاذا برجل يصيح فقالا له مالك فقال صرّة صفتها كذا وكذا فيها دراهم لي سقطت مني الساعة فقال الذي هي معه خذها فانها هذه فسلمها اليه ثم قال لصاحبه أليس لو كان الناس كلهم على مذهبك في ان لا يحفظوا على

(١) لعله : فيطجن . (٢) لعله : مطجن .

الناس لضاعت اموالهم فقال له الآخر أليس لو كان الناس كلهم على مذهبي ماضاعت الصرة ولكانت تبقى في الطريق مكانها حتى يرجع صاحبها فيأخذها .

* * *

حدثني ابو الحسين علي بن النظيف المتكلم على مذهب ابي هاشم قال كنت مجتازاً بناحية وردان ممايلي سجستان ومكران وقد كان يسكنها الخليفة من الخوارج وهي بلدهم ودارهم فانتهيت الى قرية لهم وانا عليل فرأيت قراح بطيخ فابتعت واحدة فأكلتها فحممت في الحال ونمت يومي وبقية ليلتي (١) في قراح البطيخ ما عرض لي احد بشيء وكنت قبل ذلك قد دخلت القرية فرأيت شيخاً خياطاً في مسجد فسلمت اليه رزمة ثيابي وقلت له تحفظها لي فقال دعها في المحراب فتركتها ومضيت الى القراح فلما أفقت من الغد عدت الى المسجد فوجدته مفتوحاً ولم أر الخياط ووجدت الرزمة نشرها في المحراب فقلت ماأجهل هذا الخياط ترك ثيابي وحدها وخرج ولم أشك في انه قد حملها بالليل الى بيته وردها من الغد الى المسجد انتظاراً لي فجلست افتحها وأخرج شيئاً شيئاً فاذا بالخياط فقلت له كيف خليت (٢) فقال أفتقدت منها شيئاً ؟ قلت لا فقال ما سؤالك قلت أحببت ان أعلم (٣) قال تركتها البارحة في موضعها ومضيت الى بيتي فأقبلت أخاصمه وهو يضحك وقال أنتم

(١) لعله : بقية يومي وليلتي . (٢) لعله سقط : هذه الثياب .
(٣) قد سقط شيء معناه : حقيقة الامر .

قد تعودتم اخلاق الارذال ونشأتم في بلاد الكفر التي فيها السرق والخيانة وهذا لا نعرفه هاهنا لو بقيت ثيابك مكانهــا الى ان تبلى ما أخذها احد غيرك ولو مضيت الى المشرق والمغرب ثم عدت لوجدتهــا مكانها فانا نحن لا نعرف لصاً ولا فساداً ولا شيئاً مما عندكم ولكن ربما لحقك في السنين الطويلة شيء من هذا فتعلم انه من جهة غريب قد اجتاز بنا فنركب وراءه ولا يفوتنــا فندركه فنقتله اما نتأول عليه بكفره وسعيه في الارض بالفساد أو نقطعه كما يقطع السراق عنــدنا من المرافق فلا ترى شيئاً من هذا قال وسألت عن سيرة أهل البلد بعد ذلك فاذا الامر كما ذكره واذاهم لايغلقون ابوابهم بالليل وليس لاكثرهم أبواب انما هي شرائح (١) ترد الكلاب والوحوش .

« للبحث صلة »



(١) الشريحة بالمهملة نوع من الستائر قال في الفرج بعد الشدة (١ : ١٢٥) رأيت شريحة مشوشة ففتحتها ودخلت ودورتها كما كانت أو هي الشريجة بالمعجمة وهي باب من قصب يعمل للدكاكين .

آراء وافكار

— (١) —

« دَرْ »

كلمة فارسية معناها (باب) وفي اللغة العربية (القديمة والحديثة) عدة كلمات مبدوءة بكلمة (در) مما يدل على أن أصلها اعجمي . من ذلك :

❊ دَرْبان ❊ استعملها العرب بمعنى (البوّاب) اي حافظ الباب وحارسه وجمعوها على (درابنة) وانشد الجوهري للمثقب العبدي يصف ناقته (كدكان الدرابنة المطّين) .

(دَرْبَند) كلمة (بند) من مصدر (بندن) الفارسي ومعناه الربط ومنه البند والبنود لضفائر المرأة ولحمائل السيف والرايات . ومعنى (دربند) الباب المربوط اي المغلق الموثق فالدربند الباب الذي لا يمكن النفوذ منه بسبب غَلَقه ثم سمي (الغَلَق) نفسه (دربند) والعامة تسمي غلق الدكان (درونْد) بقلب الباء واواً . والعرب يسمون مضيق الجبل (دربند) وهو من الفارسية بالطبع لأن مضايق الجبال يكون فيها غَلَق او سد من العمد أو الأخشاب أو سد من الخفراء والحراس ومنه مدينة (دربند شروان) ويسميها جغرافيو العرب (باب الأبواب) وهي مدينة على بحر قزبين وراء جبال القفقاس مما يلي بلاد الروس منسوبة الى (كسرى انوشروان) وكأنها سميت (دربند) لحصانتها أو لما أقيم فيها من الحراس والجنود ومتين الاغلاق .

❊ درب ❊ يطلقها المولدون على الطريق السالك ومنه قول ابن الوردي :

(لا تقل قد ذهبت أربابه   كل من سار على الدرب وصل)

وأما هي في كلام فصحاء العرب فيراد بها (الباب الكبير) و (المضيق في الجبل) وقد سميت المضايق الواقعة على حدود بلاد الروم لجهة الشام والعراق (دروب) وهي الثغور

ايضاً يُدخل منها الى بلاد الاسلام ويُخرج ويقال أدرب الجند اذا سلكوا تلك الدروب واجتازوها . وتسميتها بذلك قديمة ومنه قول امرئ القيس :

(بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصرا)

فالدرب كلمة فصيحة ولعل فعل (دربه يدربه تدريباً) جاء من الدرب اذ أن التدريب في الاصل ان يعود المرء سلوك الدروب ثم عم كل عمل آخر وسمعت بعض الاساتذة يلفت نظر تلميذه وهو يمتحنه الى كلمة (الدرب) في شعر امرئ القيس ويلومه على كونه لم يزيفها ولم ينتقدها من جهة انها كلمة عامية مبتذلة وقال الأستاذ كان على امرئ القيس ان يقول (بكى صاحبي لما رأى النهج دونه) فان (النهج) افصح من (الدرب) . ولا أرى الأستاذ على صواب فيما قال : (اولاً) لأن الدرب ان كانت ابتذلت في زماننا فانها لم تكن مبتذلة في الجاهلية . ولكلمات اللغة تاريخ واطوار و (ثانياً) إن امرأ القيس لم يرد (بالدرب) مايريده عامتنا من معنى الطريق أو الزقاق وانما أراد الثغور والمضايق المعهودة الواقعة بين بلاد الروم والعرب . فكلمة (الدرب) أو (الدروب) اصبحت اسماً علماً لا يجوز لامرئ القيس ولا لغيره ان يبدل بها كلمة (نهج) و (مناهج) . و(درب) اعجمية كما قال صاحب المصباح فتكون محوتة من كلمة (دربند) السابقة فان (البـاب الكبير) و (المضيق في الجبل) و (مدخل بلاد الروم) — كلها أبواب ذات اغلاق وسدود وحراس لا يمكن النفوذ منها . « راجع كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) لمؤلفه السيد ادي شير الكلداني » .

☆درويش☆ معروف معناه وهو مركب من (در) بمعنى باب و (ويش) بمعنى أمام قدام فمعنى الدرويش في الأصل انه فقير يقف على الأبواب لسؤال الصدقة أو على باب الله يسأل العفو والمغفرة .

☆ درباس ☆ هو في لغتنا الدارجة اسم لحديدة تعترض خلف الباب فلا يعود يمكن فتحه . والدرباس في فصيح اللغة العربية اسم للأسد وأنشد في (العباب) لرؤبة بن العجاج (كأنه ليس عرين درباس) ومن المستبعد أن يكون اسم (درباس) بمعنى الباب مأخوذاً من معنى الأسد العربي والأقرب أن يكون أعجمي الأصل من (در) بمعنى باب و (باس) محرف (باص) من مصدر (باصمق) التركي بمعنى الشد والتضييق والكبس والعصر . ولاجرم أن حديدة الدرباس يُشد بها على الباب فلا يُفتح .

﴿درابزين﴾ يراد بها اليوم أخشاب بشكل خاص توضع حاجزاً على الدرج او حول السطوح وهي مركبة من (در) بمعنى باب و(بزين) بمعنى تحت كذا في (كتاب الالفاظ الفارسية المعربة) ومعنى (تخت) في الفارسية (خشب) فيكون معنى (درابزين) باب خشب فلعله كان يطلق في اول استعماله على حاجز خشبي يوضع على الأبواب ثم توسعوا في اطلاقه على المعنى الذي نستعمله فيه اليوم .

﴿درفة﴾ يطلقها عامتنا اليوم على غَلَق الباب والشباك فهل هي محرفة عن (دربة) تأنيث درب أو مركبة من (در) بمعنى باب وكلمة أخرى مبدوءة بفاء ؟ وقد صرح صاحب التاج ان (درفة) عامية فقد قال (ودرفة الباب مصراعه واكل باب درفتان هكذا يستعمله العوام) اه .

﴿درسعادت﴾ اسم للقسطنطينية في عهد الاتراك العثمانيين ومعناها باب السعادة . قال شمس الدين سامي وقولهم (درعليه) غلط اه . يريد ان قولهم (درسعادت) يفهم منه معنى (باب السعادة) . اما (درعليه) فلا يصح ان يفهم منه (باب العلية) إذ لا معنى له لكن يقال ان (درعلية) مختصرة مثلاً من (درسعادت عليه) اي باب السعادة العلية .

المغربي

كتاب تذكرة النوادر

« من المخطوطات العربية »

عنّ لجلالة السلطان (مير عثمان علي خان) صاحب حيدر اباد خاطر شريف في نشر العلم فأصدر أمره بتأليف كتاب يحتوي على صفوة المخطوطات العربية النادرة فتلقت جمعية دائرة المعارف أمره بالارتياح ورشحت لهذا العمل (الأستاذ هاشم الندوي) فرحل في نواحي الهند منقباً في بطون الخزائن فظفر بنصيب وافر مما اراده وسعى اليه واودعه كتاباً سماه (تذكرة النوادر) وهو على شكل بديع : يذكر اسم الكتاب برقمه الخاص ثم اسم المؤلف وتاريخ وفاته وذكر شيء من مناقبه . ثم يذكر مزية الكتاب وتاريخ كتابته والخزانة التي عثر عليه فيها . وقد قدم كتب السلف على الخلف . ورتبه على العلوم بحسب خطورة أمرها فابتدأ بالقرآن ثم بالحديث الخ . وأول كتاب ذكره هو كتاب (إعراب القرآن لأبي عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ ه) وآخر كتاب ختم به كتاب (الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية) للشيخ عبد الكريم الجيلي .

انتهى ملخصاً من مقال نشر في مجلة (الضياء) الهندية جزئها الخامس بقلم الأستاذ تقي الدين الهلالي وقد ختم الكاتب مقاله ببيان رأيه في الكتاب : من ذلك انه كان على المؤلف ان يذكر حجم كل كتاب وعدد اجزائه ليعرف الأمر من يريد استنساخه وليعرف ان كان الكتاب مطولاً أو متوسطاً أو مختصراً . وقال أن من رأيه ان يضرب الصفح عن ذكر ما لاقيمة له من مصنفات المتأخرين — وقال قد فات مصنف الكتاب ذكر كتب نادرة في اقطار العالم الاسلامي ولا سيما المغربين الأدنى والأقصى .

(المجمع) لم يعجبنا نقد الأستاذ (الهلالي) للأستاذ (الندوي) فيما يتعلق باهماله نوادر الكتب في الأقطار الاسلامية . فان هذا غير مستطاع وان استطاعه المؤلف فانه يعوزه مراجعات ومراسلات ونفقات وغيرذلك مما يثبط الهمم عن إنجاز المشروعات وانما كل ما نريده من الأستاذ الندوي ان ينشر لنا أخبار المخطوطات الهندية . واما الأقطار

لا ُخرى فلها علماء ينقبون عنها أو عليهم أن ينقبوا ثم ينشروا خبرها فالشكر للفاضل الندوي •

***

وفي مجلة (الضياء) ايضاً أن (حكومة الأيالات المتحدة) في الهند نشرت تقريراً عن المطبوعات التي طبعت في السنة الأخيرة (في الهند بالطبع) وقد جاء فيه ذكر الكتب والصحف التي نشرت في مختلف اللغات فكانت الكتب الهندية (٢٠٥٨) والأوردية (٥٦٠) والانكليزية (٣٠١) والسنسكريتية (١٣٠) وغير ذلك من البنغالية والكجراتية والفارسية التي لم ينشر فيها الا تسعة كتب فقط اما لغة القرآن العربية فقد كسدت سوقها هذه الديار على ما يظهر والصحف التي نشرت باللغة الهندية (٣٥٣) والأوردية (٢٢٥) والانكليزية (٨٤) •



من نوادر المخطوطات
« في دار الكتب الظاهرية »
— ٧ —

(ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض) : تأليف ابي العباس احمد بن محمد التلمساني المعروف بالمقري المتوفى سنة ١٠٤١ هـ في القاهرة وهو صاحب نفح الطيب . أوله : الحمد لله الذي اعلى مراتب العلماء الاعلام الخ . نسخة في ٦٤٤ صفحة كبيرة بخط محمد الخضري [رقم ٨٣٠ التاريخ]

(غريب القرآن) — تأليف عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ أوله : برحمة الله نفتتح كتابنا هذا ونذكر اسماء الله الحسنى وصفاته الخ . وهو مرتب على سور القرآن . نسخة في ٢٩٠ صفحة صغير تنتهي الى سورة اذا الشمس كورت . كتب بخط نسخ ومضبوط بالشكل يرجع الى القرن السادس [رقم ٣٣ اللغة] .

(صفوة الصفوة) : تأليف جمال الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن ابي الحسن المعروف بابن الجوزي البغدادي المولود سنة ٥٠٨ المتوفى ٥٩٧ ببغداد . اختصرها من كتاب حلية الأولياء لابي نعيم فبدأ بالحرمين الشريفين ثم عاد الى بغداد فجعلها مركزاً فذكر ما كان في شرقها من البلاد ولما انتهى منها ذكر ما كان في غربها من البلاد وختم الكتاب بعباد الجن مرتبة على الطبقات . الموجود منها نسخة في اربع مجلدات ملفقة من خطوط مختلفة ومن نسخ مختلفة ومن هذه المجلدات تتألف نسخة فيها اكثر الكتاب أوله : الحمد لله الذي يعلم ماظهر وما خفي وما تكدر وما صفى الخ [رقم ٦٧ — ٧٠ التاريخ] .

(طبقات الحنابلة) : (١) تأليف ابي الحسين محمد بن محمد بن الحسين ابي يعلى الحنبلي الفراء الشهير سنة ٥١٦ . أوله : الحمد لله العلي العظيم السميع البصير ذي الفضل الواسع

(١) اختصار شمس الدين بن عبد الله محمد بن عبد القادر النابلسي المتوفى سنة ٧٩٧ هـ طبع بمعرفة السيد احمد عبيد سنة ١٣٥٠ هـ .

والمنن التوابع والنعم السوابغ الخ . ورتبها على ترتيب الطبقات الأولى والثانية على حروف المعجم وما بعدهما على تقديم العمر والوفاة انتهى فيهـا الى سنة ٥٦٥ هـ . نسخة في ٦٤٠ صفحة كبيرة كتبت بخط نسخ سنة ٨٣٥ هـ [رقم ٥٩ التاريخ] .

(المفاضلة بين الصحابة رضي الله عنهم) تأليف محمد علي بن محمـد بن سعيد المعروف بابن حزم الأندلسي صاحب الملل والنحل وغيرها من المؤلفات المتوفى سنة ٤٥٦ وهي رسالة في ٨٠ صفحة صغيرة كتبت بخط نسخ سنة ٧٥٥ هـ [رقم ٤٥ الآداب المنثورة] .

(ثمار المقاصد في ذكر المساجد) تأليف يوسف بن حسن بن عبـد الهادي الحنبلي الدمشقي المتوفى سنة ٩٠٩ نسخة في ٢١٠ صفحات صغيرة بخط المؤلف [رقم ٨٧ الآداب] .

(سفر السعادة وسفير الافادة) تأليف ابي الحسن علي بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ . أوله : باسم الله الذي باسمه تفتتح الاوائل الخ . الموجود منه جزآن في مجلد واحد عدد صفحاته ٣٢٠ بخط عبد الملك بن يوسف سنة ٦٣٧ [رقم ١٤ الآداب] .

(شرح مقصورة ابن دريد المشهورة) تأليف ابي عبد الله محمد بن احمد بن هشام اللخمي المتوفى سنة ٥٥٧ نسخـة في ٢٨٠ صفحة صغيرة كتبت بخط نسخ سنة ١٠٣٠ [رقم ٢٦ الآداب] .

حسني الكسم

رحلة الى القاهرة

«١٣٤٩ هـ و ١٩٣١ م»[1]

اذا ركبت قطار السكة الحجازية في محطة القنوات بدمشق فانطلق بك صاخباً ينساب بين حدائق الغوطة الغناء تحت باسقات الادواح وبين قصيرات الجنبات وطويلات الأنجم وخلال مخضرات البقول على انواعها ، سيراً مع ثني بردى وسواقيه التي لاتحصى ، وقد آذنت تباشير الربيع بتفتق البراعم والعيون عن افانين الزهر وتخضل الورق ، وبدت عن يمينك بلاس وداريا وغيرهما من القرى فذكرتك بقول الصنوبري :

ونعم الدار داريا ففيها ... صفا لي العيش [illegible]
ولي في باب جيرون ظباء ... اعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها ... فلست اريد غير دمشق دنيا

ثم طلع بك الجبل المانع وهو يلهث تعباً فاستقبلتك اللجاة بحرتها السوداء ، فطواها على عجل الى حوران حيث تذكر قول جرير في صفاتها :

هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم ... عند الصفاة التي شرقي حورانا
هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً ... عيش بها طال ما احلولى وما لانا

حتى اذا بلغ بك وادي اليرموك فانحدر فيه قلقاً حذراً يتئد في سيره ، وانت تذكر روعة التاريخ في وقعة ذلك الوادي الشهير ، وتمتع ناظريك بأزهاره الفتانة التي تنبتها الطبيعة على انواع واصناف لاتعد ، ثم استقبلك نهر الأردن وبدت امامك بحيرة طبريا فقف هنالك واذكر دمشق وقل مع اليزيدي :

---

(١) محاضرة القاها الأمير مصطفى الشهابي في ردهة المجمع العلمي العربي في ٦ تشرين الثاني «نوفمبر» سنة ١٩٣١ .

ما ذا بقلبي من دوام الخفق اذا رأيت لمعان البرق
من قبل الأردن او دمشق لأن من اهوى بذاك الأفق
ذاك الذي يملك مني رقي ولست ابغي ماحييت عتقي

وتبدو لك بعد قليل بيوت بيسان واشجارها وهي تنظر من عل الى غور الأردن كأنها تدفع عنه صروف الدهر . ومن العجيب انك لاتشاهد حولها كرمًا مع ان خمورها كانت مضرب الأمثال فيامضى . ولاازال اذكر البيت الذي قاله عبدالرحمن بن سيحان بن أرطاة في سبيئة بيسان اي خمرها وهو :

سبيئة من قرى بيروت صافية عذراء اوسبئت من ارض بيسان

وليس في مرج ابن عامر ما يلفت نظرك سوى كثرة الصهيونيين فيه ، وفي السهول التي تقطعها في اليوم الثاني الواقعة جنوبي حيفا الا طول كرم وقلقيلة ورملة لدّ فانها حمت نفسها منهم ولا يزال يصح فيها قول كثير :

حموا منزل الأملاك من مرج راهط ورملة لدّ ان تباح سهولها

وكأني بك ذاكر قبيل الغروب وقد بلغ بك القطار غزة قول الامام الشافعي فيها :

واني لمشتاق الى ارض غزة وان خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله ارضًا لو ظفرت بتربها كحلت به من شدةالشوق اجفاني

ومتى ارخى الليل سدوله رأيت القطار يضرب بمن فيه صحراء التيه دون ان يتيه ، لأن السكة امامه ممدودة تتلوى كالأرقط وهو كما قال حافظ : حديد ينساب فوق حديد ، فلا خوف في دخوله التيه ، ان يضل كما ضل قوم موسى او يجازف مجازفة المتنبي في قوله :

ضربت بها التيه ضرب القما ر اما لهـذا واما لذا

واذا ماجزت قناة السويس في القنطرة وركبت قطار مصر فانطلق بك في دساكر القطر ومستغلاته ، فلاتطمع بان تمتع نظرك في الليل البهيم الا بمصابيح البلدان والمدن التي يمر بها القطار حثيثًا ، او يقف بها هنيهة وقفة القلق الذي لم يبلغ الغاية في سيره ، حتى اذا بدت لك مصابيح القاهرة المشرقة حق عليك ان تحيي مصر بصرخة شبيهة بالتي خرجت من فؤاد الشاعر الياس فياض :

سلام على مصر ولو عشت ادهراً لما كنت الا طول عمري مسلما
على موطن لو خير المرء موطناً من الارض لم يختر ابر واكرما
سرت في اهاليه عذوبة نيله وسال فما ان تعرف الماء منهما

ولا تعجبن بعد خروجك من المحطة ليلاً لوفرة الأنوار المتألقة في ساحتها ، وفي شارع الملكة نازلي الطويل البديع ، ولا لروعة تمثال نهضة مصر الذي يجب ان تحييه تحية من يعشق الحرية اينما كانت ، فكيف في عاصمة الفاطميين والأيوبيين ، ولا لازدحام السيارات والعجلات وضخامة الابنية ، وكثرة المارة ، ونظافة ارض الشوارع المصقولة صقلاً ، فأنت في مدينة اوربية في عظمتها ، شرقية في روعتها ، وهذا المزيج هو مما يستخفك ويستهويك ، فلست في الاسكندرية ولا في بورسعيد حيث رطانات الاجانب بمختلف الألسن الأعجمية ، تجعلك تتمنى ان تُصم اذناك الى حين ، وحيث يظهر هؤلاء امامك بمظاهر تود معها لو كان لك عينا المعري ريثما تنسل من بينهم بسرعة الكهرباء ٠

انك اينما سرت في القاهرة تجد شوارع نظيفة واسعة ، وابنية كبيرة شاهقة ، وحدائق مزدانة باجمل اشجار البلاد الحارة ، وتجد ايضاً جوامع قديمة وحديثة ، وقصوراً مبنية على الطراز العربي تأخذ نقوشها وزخارفها وتطاريزها بمجامع القلوب ٠ فحدائق الأزبكية والنباتات ، والقناطر الخيرية والحيوانات ، والأسماك والمعادي وغيرها وهي كُثُر ، ثم جوامع السلطان حسن والرفاعي وابن طولون وسيدنا الحسين والأزهر ومحمد علي وعشرات غيرها من آيات الفن المنبثة في انحاء المدينة كلها ، تحملك على الاعتقاد بأن القاهرة هي اروع مدينة لا في الشرق العربي وحده بل في الشرق الأدنى بلا جدال ٠ واجمل من المدينة سكانها فأنك لا ترتطم فيها بعدد كبير من صلفاء الأجانب ، بل الجمهور الذي تقع عليه عينك احد اثنين مصري اسمر بشوش مرح محتفظ بطربوشه القصير ، او مصرية سمراء كحلاء هيفاء في الغالب لفاء في الأقل ، تختال في الحرير الأسود سافرة الوجه او مسبلة عليه نقاباً أرق من دين صاحب البيت الآتي في الخمرة وهو ابو نواس ٠

عتقت في الدن حتى هي في رقة ديني

نعم لقد رقت النقب على وجه السيدات المصريات حتى طار نصفها لدى نصفهن ، واوشك النصف الثاني ان يلحق بأخيه ، وصرت ترى السيدة المصرية تجلس بجانب الرجل في

مجالس الأدب ، وابهاء المحاضرات والحدائق والمسارح وغيرها دون ان يعد ذلك منها خروجاً على المألوف من العادات . وولدت المدنية الاوربية هذه الحال تدريجياً فالمرأة المصرية أسلم فيها عاقبة من المرأة التركية التي حملوها قسراً على أخبث ما في السفور من أمور مستقبحة . ومن المعروف ان القرويات في مصر كالقرويات في الشام لا يتخذن النقاب على أوجههن . وأنت اذا أردت شبهاً لصور المصريات في المتاحف وعلى الستائر ، بقدودهن الهيف ، وعيونهن السود التي يشبهونها بفاقة الاوزة ، وما أوجدته الطبيعة في الأهداب من كثافة وكحل ، وفي الحواجب من استقامة وقصر ، الى غير ذلك من الصفات التي تلفت نظرك في صور المرأة المصرية القديمة ، فانك واجد هذا الشبه في فتيات القرى المصرية لا فتيات المدن .

ومتى رحت تبحث في القاهرة عن كل ما يجب عليك ان تراه وتدرس بامعان كل ما يحتاج الى درس حق عليك ان تسلخ فيها اشهراً بل سنوات . ولو جشمت نفسك التأليف في ذلك لما خرجت بسفر بل بأسفار . وبعد فماذا تراني محدثك عما شاهدته فيها خلال أيام معدودات ، أأذكر دار الآثار المصرية ، وفيها تتجلى عظمة المصريين الأقدمين فيما خلفوه من هياكل وتماثيل ونصب مصنوعة من الحجر الصلد ، واثاث ورياش وحلي مذهبة ، قرأتم عنها فيما كتب عن توت عنخ آمون خاصة الى غير ذلك مما يجعل تلك الدار لا تقل في عظمتها وغناها عما شاهدناه في اكبر المتاحف الأوربية . أم أذكر دار الآثار العربية وهي ان لم تستثر دهشتك من حيث عظمة ما فيها من مخلفات الأجداد فتذهلك بما تحويه من دقيق النقش والوشي والزخرف واعادت الى نفسك ذكرى روعة الممالك العربية في إبانها . أم أتحدث عن اهرام الجيزة وسقارة وابوصير وغيرها . اواكتفي بهرم خوفو الأكبر في الجيزة وهو من اقدم ما بنته يد الانسان ، رسا اصله على ٢٣٣ متراً من الأرض ، وعلا جرمه فوقها حتى بلغ ١٤٧ متراً . وهنالك يربض ابو الهول الجبار الذي هزأ بالدهر كالهرم ، وصارع احداثه مثله ، حتى ناجاه امير الشعراء بقوله :

ابا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض اقصى العمر
فيا لدة الدهر لا الدهر شب ولا انت جاوزت حد الصغر

ومتى ذكر ابو الهول وجب ان يتصور الانسان اسداً رابضاً من حجر طوله ٥٧ متراً

وعلوه ٢٠ متراً وله رأس آدمي تبلغ أذنه ١٠٣٧ متر ويبلغ فمه ٢٠٣٢ متر ولو وقف رجل على فرع أذنه ومد يده لما بلغت قمة رأسه · ام انتقل بك طفراً الى مصر الجديدة حيث ترى الآيات البينات في بناء المدن الحديثة ، من قصور شاهقة ، وشوارع نظيفة واسعة ، وحدائق هي بهجة للناظرين · ولو شاهدت اجمل الأحياء في المدن الأوربية لما تركت في نفسك اثراً يفوق الأثر الذي تطبعه فيها رؤية مصر الجديدة · اما اسير بك الى حي الزيتون والمطرية وواحة عين شمس فنتذكر هنالك قول امير الشعراء في قصيدته « المطرية تتكلم » ·

لولا حلى زيتوني النضر ما ... اقسم بالزيتون ربّ العباد

الواحة الزهراء ذات الغنى ... تربي التي ما مثلها في البلاد

تريك بالصبح وجنح الدجى ... بدور حسن وشموس اتقاد

وبين الزيتون وواحة عين شمس ترى بيت الامام محمد عبده رحمه الله وقد اوشك يتداعى فتنقبض لذلك نفسك وتود لو ان الحكومة المصرية على غناها رممته وجعلته بيتاً من بيوت الأمة يحج اليه ابناء الشرق العربي كافةً · وكنت ادليت بهذا الرأي الى معالي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاستصوبه ·

أم نصعد الى القلعة التي كان أمر ببنائها السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب على أحد منحدرات المقطم ، فنحظى بمنظر لا تقع العين على اجمل منه لبيوت القاهرة الجميلة ، وجوامعها البارزة ، ومآذنها الشاهقة ، وقبابها الكروية ، وجنانها الفردوسية ، ونيلها الهادي ، تنساب مياهه بجلال وعظمة · وهنالك ندخل قصر محمد علي الكبير فنتذكر أيامه الغر ، وايقاعه بظلام المماليك ، واستئصاله شأفتهم · وندخل الجامع الذي بناه ذلك الرجل العظيم ، وأتمه الخديوي سعيد باشا على طراز جامع نور عثمانية في فروق ، بقبته البيزنطية العظيمة ومآذنه الرشيقة العالية ، فنحيي فيه ضريح مؤسس النهضة الحديثة باحترام وخشوع · أم نمتطي السيارة فنطلقها شمالاً الى شبرا فالقناطر الخيرية حيث نشاهد ذلك السد العظيم الذي بدأ به محمد علي ، فأقامه في وجه النيل وأتمه بعده خلفاؤه ، وحيث تقع العين في الجزيرة التي ولدتها الترع على حديقة غناء من اجمل حدائق العالم تتسابق فيها بالجمال اشجار الفصيلة الصنوبرية ، وهن ملوك دوحة النبات واشجار الفصيلة النخلية وهن أمراؤها ، دع أنواع السنط والجميز ومختلف الأزهار · واعجب لأرض الحديقة كيف

اوجدوا فيهـا تلك المنعطفات والمنحدرات والتلال الصنعية وكيف زينوها بتزاويق الزهر وتعـاريجه . فاذا ما اضفت الى خضرة الحديقة وزرقة النيل حمرة وجوه الحسان المرحات فانت اذن في الجنة التي فضلها أمير الشعراء على جنة الخلد عند ماهتف بسينيته المشهورة في الأندلس :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه بالخلد نفسي

أم نيم الجنوب في القطار الى حلوان بلدة عبـد العزيز بن مروان ، فنعيد الى الخاطر ماكان بنى الأمير فيها من دور وقصور وما زرع من بساتين وكروم ، ثم نزور حمامهـا الكبريتي الشهير فترى بنـاء عربيًا ضخماً بنته الحكومة يحتوي على عشرات من الغرف والمقاصير النظيفة فيها مغاطس تملأ بالمياه الكبريتية أو الميـاه العادية وقاذفات للبخار أو للهواء الحار . وكأني أراك أمام هذه الوسائل الحديثة ذاكراً حالة حماماتنا الكبريتية في طبريا والحمة وضمير والسخنة وتدمر وغيرها ، وهي كما اوجدتها الطبيعة لم تعمل بها يد انسان، ولم ينفق فيها دانق واحد .

أم ترانا نترك الجد الى حين فنقلت بضع ليالـــ في شارع عماد الدين ، وما عهدنا عماد الدين الكاتب الذي جعله صلاح الدين في خاصته ، اخا لهو وطرب بل عهدناه على حد وصف الجاحظ لأمثاله « الف تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلف تبيين » . ولو لم يكن كذلك لما الف «خريدة القصر وجريدة العصر» في عشر مجلدات ، والبرق الشامي وهو سبع مجلدات في التـاريخ ، وديوان شعر وديوان رسائل وغيرها . فاذا صحت نسبة الشارع المذكور اليه « ولست اعلم عماداً للدين غيره تصح فيه هذه النسبة » كان من عبث الدهر وهزله ان تجتمع انواع الملاهي في شارعه حتى صار يعرف بها وصارت تعرف به . فهنالك تشاهد يوسف وهبي اشهر ممثل انجبته مصر ومسرحه يعرف بالجد سواء من حيث التمثيل أم من حيث الآداب التي يشترط على المتفرجين ان يتحلوا بها . فانت لاتجد هنالك اخلافًا بالمواعيد أو قهقهة أومسامرة أوشرب ماء أو تدخين تبغ اثناء قيام الممثلين بعملهم . ومتى فرغ الممثلون من تمثيل احد الفصول جعلوا لك بينه وبين اخيه وقتًا تدخل فيـه بهواً واسعًا فتأكل وتشرب وتدخن وتطلق للسانك العنان . ويكاد يكون مسرح فاطمة رشدي متحليًا بالصفات المذكورة . وهو يمتاز بصاحبته التي تحلت برشاقة القد وجمالــ

الصورة وجودة التمثيل ، فكانت أشهر ممثلات مصر على الاطلاق . ولقد أبدعت في رواية مجنون ليلى تلك الرواية التي تعد من فرائد شوقي شاعر العرب الأكبر ، كما أبدع رفيقها احمد علام . ولا شك ان التمثيل العربي في مصر لم يبلغ بعد مستوى التمثيل في دار الأوبرا الملكية حيث تمثل فرق اجنبية غالباً ، وهو لا يزال بعيداً عما شاهدناه من الروايات في اوربة . ولكن القصور على ما أرى ليس في غواة التمثيل المصريين ، ولا في مؤلفي الروايات التمثيلية بل في ضيق ذات يدهم جميعاً . فلو مدتهم الحكومة بالمال الكافي لبرهن كل منهم على انه اخو عبقر في عمله ، ولنهضوا بالتمثيل العربي الى المستوى الذي نتوق اليه .

وفي ذلك الشارع تسمع صوت عبدالوهاب يزينه تفنن صاحب الصوت بالغناء وانتقاؤه قصائد شوقي المتينة الحوك والجميلة المعنى ، ولو أعطيت ام كلثوم صناعة عبد الوهاب ثم لو انتقت على الأقل قصائدها الغزليـة من نظم فحول الشعراء المتقدمين أو المتأخرين لبلغت سدرة المنتهى ، ولتضاعف تأثير صوتها العذب الذي ما حاكاه صوت رجل أو امرأة في البلاد العربية على ما نعلم . ولا شك أن لحوك القصائد ومعانيها تأثيراً كبيراً في نفس المستمعين فشتان من حيث السبك والمعنى ما بين قولك :

متى يا جميل المحيا أرى رضاك ويذهب عنا الغضب
واني محب كما قد عهدت ولكن حبك شيء عجب

وبين قول الثاني :

ليلى تردد في سمعي وفي خلدي كما تردد في الأيك الأغاريد
اغير ليلاي نادوا ام بها هتفوا فداء ليلى الليالي الخرد الغيد

والقصيدتان أصبحتا أشهر من نار على علم ، الاولى تنشدها ام كلثوم والثانية عبدالوهاب . واما من حيث الفن فلا يزال ينقصنا الشيء الكثير من التنويع والتشكيل والمفاجآت فقد مللنا من الانغام المحزنة وما فيها من نواح وعويل . ولست اقصد بذلك تقليد الفرنجة بانغام باردة كالتي اخذ بعضهم يلحنونهـا في هـذه الأيام ليست بشرقية ولا غربية وهي جديرة بثقب طبلة الأذن تجاً وسماجة . وبعد هذا ماذا تراك ملاقياً في شارع عماد الدين ؟ انك ملاق فيه ممثلين للروايات الهزلية ودوراً للروايات السينمية وفرقاً للرقص والخلاعة مما يجعل عماد الدين الكاتب رحمه الله يتمنى لو كان سمي بأي اسم آخر او لو انه من الذين احبوا

تخليد اسمه تخلدوه في غير هذا الشارع ·

ولنعد بعد هذه الجولات الليلية الى حياة الجد في النهار ، ولنزر على عجل ما يتاح لنا زيارته ركضاً في ايامنا المعدودات · ولنبدأ بدار الكتب المصرية فهنالك يلقاك مديرها العالم اسعد بك برادة بوجهه البشوش ويعرفك ببعض مساعديه ، وكل منهم استاذ فاضل بحاث عن الكتب ، نقار خلال سطورها ، يدرك منها بالعين المجردة مالا يراه غيره بالمجهر · ولله ماحوته تلك الدار من نفائس الرقوق والمصاحف القديمة وغالي المخطوطات والكتب فانها ثروة في البلاد اي ثروة ، واعجب لجهود الذين يطبعون الكتب الادبية في مطابعة تلك الدار فيخرجونها في تلك الحلل القشيبة التي اكتسى بها كتاب الأغاني وكتاب الأصنام وديوان مهيار الديلمي وعيون الأخبار للدينوري ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وأشباهها ·

وهل يجوز ان نعود من مصر دون ان نزور رجال الأدب والصحافة فيها ولا سيما الشاميين منهم وهم في ذلك البلد قوة يحسب لها الف حساب · خدموا اللغة العربية بجهودهم وأناروا الأذهان بمنتوجات عقولهم ، ومابرحوا الى اليوم قابضين على أم الصحف اما مالكين لها أو كتاباً فيها[1] · وبأي يجب ان نبدأ ، وأي صحيفة أحق بالاكبار من المقتطف شيخة مجلاتنا العلمية ورأسهن ، وأي ذكرى في عالم الصحافة العربية أحق بالتخليد من ذكرى العلامة الفقيد الدكتور يعقوب صروف وهو من لم يجاره احد قبل مماته ولا بعده بسلاسة لغته العلمية وصحتها ، وسلسلة الأبحاث فيها ، حتى أصبح جميع الكتاب الذين يقام لقولهم وزن يجزمون بان العلوم الطبيعيـة خاصة لم تكتب بقلم أصلح من قلم الدكتور يعقوب · ولئن حالت الأقدار دون رؤية الفقيد فقد متعتك بخليفتـه فؤاد صروف وهو يبدو لك شاباً في رزانة الشيوخ وحنكة أصحاب السياسة والادارة ، ليس له بساطة العلماء واسترسالهم في الأحاديث ، وان كان منهم بل تراه يزن كلامه كما يزن بعينيه مخاطبه · وقد دل حتى اليوم على انه جدير بأن يقوم بحمل المقتطف الثقيل خير قيام ·

ونجد في تلك الدار دار المقتطف والمقطم ذلك الشيخ الجليل والسياسي الاقتصادي

(١) من البديهي اننا لم نتعرض للمذهب السياسي الذي دان به كلُّ رجل من رجال الادب والصحافة الذين تناولناهم في بحثنا هذا ·

المحنك الدكتور فارس نمر الذي له علينا حق المواطن على ابن بلدته (حاصبيا) وحق الصحافي القديم الذي مابرحت صحيفته تسير على وتيرة واحدة منذ نصف قرن تقريباً. وهنالك ايضاً خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم ولولبها الذي يسيرها بحكمته المعروفة على الخطة التي رسمت لها .

واذا ماانتقلنا الى دار « الاهرام » وهي أقدم الصحف اليومية الحاضرة ، دهشنا لعظمة ذلك البناء ، وظننا نفسنا في احدى دور الصحف الاوربية الكبرى . وهنالك وجدنا شخصيتين بارزتين مشهورتين في عالم الادب والصحافة اولاهما شخصية الاستاذ داود بركات رئيس تحرير « الاهرام » بل قلبها الخفاق وسر الحياة فيها ، وهو يشجيك بدهائه وفرط ذكائه ووفرة نكاته التي يأخذ بعضها برقاب بعض . ولم اجد اقدر منه على القيام باعمال مختلفة في آن واحد . فقد كان في مكتبه يقص علينا من نكاته العذبة ، وينظر في قصيدة بعث بها احد الشعراء ، ويصحح عدة اخبار قبل نشرها ، ويتلقى وصفاً لأحدى الحفلات ، كل ذلك في آن واحد وبسرعة البرق، وبدون ان يمل احد او يهضم حق احد ، حتى قلت لنفسي اذا كانت قوة المرء على تدوير دولاب الأعمال الصحافية تقاس بعدد الأحصنة فأن مافي دماغ الاستاذ بركات من قوة يساوي الف حصان على الأقل ...

أما الشخصية الثانية في «الاهرام» فهي شخصية الكاتب الفذ والوطني الصادق الوطنية الأستاذ اسعد داغر وقد وجدناه على ماعرفناه منذ اثنتي عشرة سنة في دمشق لم يبدل ادنى شيء في مبدأه ومشربه . وأما دار « الهلال » فلم تعد داراً لمجلة الهلال وحدها كما تركها المؤرخ الشهير الذي خدم قراء العربية اجل خدمة المرحوم جرجي زيدان صاحب تاريخ التمدن الاسلامي وتاريخ آداب اللغة العربية وتاريخ العرب قبل الاسلام وروايات زيدان التاريخية الخ بل قام ابناؤه الأفذاذ من بعده بعمل كبير فأصدروا مجلات « المصور» و« كل شيء » و « الحياة المصورة » و « الفكاهة » بالعربية وليزيماج (Les images) بالفرنسية حتى صرنا نجد في تلك المجلات رسوماً جميلة للحوادث السياسية والاجتماعية وللكائنات الغريبة مما لا عهد لقراء العربية به من قبل . وقد فقدت الهلال بعد مؤسسها مادتها التاريخية لكنها اعتاضت بها مقالات أدبية لعدد من ادباء اليوم كما ازدادت رونقاً وبهاء بما ذكرنا فصارت مجلة طبقة من الشعب اكثر عدداً من التي كانت تقرأوها فيما مضى

ذلك انه اذا شدا المرء شيئاً من مبادئ العلوم في مدارس التجهيز ودور المعلمين والمدارس الأهلية والأجنبية لذت له قراءة مجلات دار الهلال واستفاد مما فيها من معلومات ومتع نظره بصورها وتفكه بما حوته من نكات مستملحة واحاديث لذيذة . أما اذا حملته على قراءة المقتطف بما فيها من مواد علمية جافة فسرعان ما يمل منها لأن تلك المجلة ليست لمثله بل هي لمن زادت معارفهم على معارفه . ولما كان عدد خريجي مدارس التجهيز وخريجي المدارس العاليـة محدوداً اذا قيس بسواد المتعلمين كان قراء مجلات دارالهلال اكبر عدداً من قراء المقتطف . وانت ترى ان كلاً من مجموعة دار الهلال ومجلة المقتطف ضرورية لقرائها .

ـ ومن الشاميين الأماس الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة «الشورى» المعروفة ببلائها في سبيل القضية العربيـة ومن الأدباء الذين يعمل واحدهم عمل الجماعة صديقنا الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلتي « الزهراء » و « الفتح » الذي صحح وطبع «ادب الكاتب» لابن قتيبة و « البيان والتبيين » للجاحظ و «خزانة الأدب» للبغدادي . وقد بدأ اخيراً بمعجم لسان العرب فطبع جزءه الأول وهو مثابر على تنقيح اجزائه السائرة وطبعها . وله على الاشتغال باللغة وآدابها همة لا تحاكيها الا همة الجبابرة .

ومنهم شاعر دمشق الاكبر خير الدين الزركلي صاحب قاموس الأعلام في تراجم اشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهليـة والاسلام والعصر الحاضر وهو سفر ثمين في ثلاثة اجزاء . ومن الغريب ان عيني لم تكد تقع على عينه حتى تذكرت قصيدته التي يحن بها الى الشام حنين الثكلى الموجع الى فقيدها تلك القصيدة التي بكيت عند ما تلوتها منذ بضع سنوات ومطلعها :

العين بعـد فراقها الوطنا لا ساكناً ألفت ولا سكنا

وهو يختمها بقوله :

ان الغريب معذب ابداً ان حل لم ينعم وان ظعنا
لو مثلوا لي موطني وثناً لهممت أعبد ذلك الوثنا

رده الله الى دمشق ليسمعنا صداحه الفتان في بردى والربوة والنيربين ودمر وجيرون والغوطة فكلها له مشتاقة .

ومن الذين لهم شخصيتان بارزتان الأولى علمية والثانية سياسية العلامة الدكتور شهبندر فقد ألفيت جميع العلماء المصريين والشاميين يحترمون فيه غزارة المادة العلمية ولا اظن احداً غيره جمع هاتين الشخصيتين نحلى بهما الا العلامة الأمير شكيب ارسلان وهو الذي لا يضاهيه احد بين كتاب العربية بكثرة منتوجات قلمه ، حتى ان الانسان ليحار كيف يجد الأمير متسعاً من الوقت لكل ما تخطه انامله ، ويسيل به دماغه على القراطيس .

اما الآنسة التي اختارت لنفسها اسم «مي» (ولله ماأعذبه اسماً) فهي كبيرة أديبات العربية في يومنا هذا بلامنازع . زرتهـا مع صديقي العلامة امين باشا المعلوف صاحب معجم الحيوان بعدان تلطفت واجتمعت بي مع رهط من العلماء والادباء في فندق «كونتننتال» فاذا بي في دارها كأني في هيكل الأدب الأسمى وقدس النبوغ والعبقرية . واذا باحاديثها تنم على أدق مانلمسه مشاعر الانسان وقد خيل لي انني في حضرة احدى سيدات الملأ الاعلى اللواتي كنت أقرأ عنهن في كتب كبار الأدباء الفرنسيين . وماكدنا نودعها ونخرج حتى ابتدرني الصديق الأمين قائلاً : «انها ذئيفة» فقلت صدقت ياباشا وماذا أخافك منها قال حدة ذكائها ووفرة معلوماتها الأدبية ، قلت اما انا فرط احساسها لدقائق الحديث حتى كدت أرى نفسي غير قادر على مجاراتها فيه .

ومن الكتاب الشاميين الذين يكتبون في الصحف المصرية الاستاذ سامي السراج والاستاذ توفيق اليـازجي وهما من فحول الكتاب الصحفيين ولهم في الجرائد المصرية تأثير أي تأثير ومنهم الكاتب نجيب شاهين والكاتب حنا خباز وكلاهما مجيد وقد اشتهر الدكتور شخاشيري بما يكتبه في المقتطف من الفصول الطبية الطلية . كما اشتهر الاستاذ نسيم صيبعة بمقالاته السياسية والاقتصادية عن الشام . ولم أر من يعالج قضية البلاد بمثل قلمه وخبرته وحفظه للوقائع والحوادث .

وهناك ترى خليل مطران شاعر القطرين بل شاعر الحياة والحقيقة والخيال معاً الذي قال فيه أخي الشهيد عارف الشهابي في تذكرته منذ ٢٤ سنة « نعم ان شعره شعر المستقبل الذي ستزدهر فيه آداب اللغة العربية . ولقد كسر الشاعر قيود التكلف وهدم صروح التقليد واندفع بعامل الشعور والاحساس فهتف بماهتف وكان هتافه شعراً . ولولم يكن من فضائل ديوان الخليل سوى خلوه من الهجو والمديح (عدا قصيدة أو قصيدتين) لكفى» انتهى .

هذه صورة صغيرة للصحافة الشامية في مصر لمن حظينا بمشاهدتهم من ارباب الاقلام الشاميين فيها . ولكثير ممن لم نسعد بالتعرف بهم فضل كبير كالعلامة الجليل صاحب المنار والاستاذ اسكندر مكاريوس صاحب اللطائف المصورة وهي منتشرة في الشام والأستاذ المعروف اسعد خليل داغر والكاتب الفذ نقولا الحداد والاستاذ يوسف اليان سركيس صاحب معجم المطبوعات العربية والعصرية وغيرهم . اما الصحافة المصرية فهيهات ان نتمكن في ايامنا المعدودة من ابداء رأي فيها وفي رجالها الافذاذ . وكيف وقد صار لدى اخواننا المصريين جرائد ومجلات لا تقل قيمتها عن قيمة امثالها في الغرب وذلك بغزارة مادتها وتنوع حوادثها واخصاء كتابها بمختلف الموضوعات ووفرة النسخ التي تطبعها، مثالها جريدة السياسة والسياسة الاسبوعية والبلاغ والبلاغ الاسبوعي والجهاد والفلاح والضياء والكوكب وغيرها وهي كثر . وصار يكتب فيها ادباء وكتاب ذاع صيتهم واستفاضت شهرتهم امثال العقاد والمازني وهيكل وعوض وذياب ولطفي جمعة وعبدالرازق ومنصور فهمي وعنان وغيرهم . وقد كنت اتمنى ان اجتمع خاصةً بالعقاد الشاعر الرقيق والأديب الكبير والوطني الصادق الوطنية فاذكره بقوله :

يا نديم الخلوات   اقبل الليل فهات

فاذا به في خلوة ما كان ليرقبها ولا اتمناها له احد في العالم العربي . واذا به سجين في قضية سياسية وكأني به في محبسه يردد قوله :

ايه يادهر هات ماشئت وانظر   عزمات الرجال كيف تكون
ما تعسفت في بلائك الا   هان بالصبر منه ما لا يهون

ولقد ذكرني سجنه بابياته البديعة في هذا الكون الأحمق :

ياشمس ما ضرك لو لم تشرقي   ياروض ماضرك لو لم تعبق
ياقلب ماضرك لو لم تخفق   سيان في هذا الوجود الأحمق
من كان مخلوقاً ومن لم يخلق

وهل يجوز ان نعود الى الشام قبل ان نزور الجامعة المصرية ونشاهد أبنيتها وحدائقها الجميلة في الجيزة وهنالك يلقانا من اساتذتها المعلمان الشهيران احمد امين وعبدالوهاب عزام ويجمعنا في اليوم الثاني برهط من الرجال الافاضل الذين تتألف منهم لجنة التأليف والترجمة

والنشر فاذا بكل منهم عالم أخصائي في فرع من العلوم واذا بهم يبسطون لنا على منصة كبيرة نحو اربعين كتاباً عربياً ألفوها أوصححوها وطبعوها طبعاً غاية في الدقة والنفاسة ·

وكيف نغادر القطر قبل ان نجتمع ببعض العلماء المصريين الذين تربطنا بهم رابطة العمل في موضوعات متقاربة والفضل في تعريفنا بهم يعود للصديقين الكريمين امين باشا المعلوف والدكتور عبد الرحمن شهبندر فقد مهدا لنا السبيل لرؤية العلامة المحقق الدكتور احمد عيسى صاحب معجم اسماء النبات وكتاب التهذيب في أصول التعريب وكتب ورسالات شتى في ابحاث طبية خاصة · والعالم المجد الذي يناقرني من حين الى آخر وأناقره الدكتور محمد شرف صاحب معجم العلوم الطبية والطبيعية وهو أول معجم كبير في بابه يستحق المؤلف على ابرازه للعالم العربي كل ثناء · والدكتور الأديب الدمث الأخلاق احمد زكي ابو شادي الذي نقرأ اشعاره وابحاثه في ديوانه وفي المقتطف والذي اجاد في ترجمة «العاصفة» خاصة وهو من غواة احد فنوننا الزراعية اي تربية النحل وله فيه كتاب ومجلة وله اليه دعوة ونداء · والشيخ الجليل العلامة احمد زكي باشا صاحب دار العروبة (وحق على كل عربي يدخل مصر ان يزورها) الذي له على اللغة العربية وآدابها اكرم يد بما جمع ورسم من شتيت مخطوطاتها وصحح وطبع من غالي دررها القديمة · وهو ما فتئ منذ عشرات من السنين يناضل عنها وعن ابنائها بقلم العالم الناضج ·

وممن اجتمعنا بهم المحامي القدير والقانوني الكبير محمد علي باشا وزير الاوقاف السابق الذي له على العالم العربي يد المدافع عن العراق مدافعة البطل الغيور وله الرأي الصائب في ايجاد معلمة (موسوعة) يتوفر عليها علماء الشرق العربي كافة · ومنهم الأديب المعروف السيد علي عبد الرازق صاحب كتاب «الاسلام وأصول الحكم» وهو الكتاب الذي ترك في العالم الاسلامي دوياً لأن صاحبه توخى فيه اثبات أن لاخلافة في الدين الاسلامي · ومنهم الأديب العراقي الكبير الشيخ كاظم الدجيلي وكذا الدكتور احمد قدري قنصل العراق العام في مصر وكان رفيقنا في باريز ايام الدراسة وكنا نسميه قنصل العرب لما كان له من العطف على جميع التلامذة العرب · ومنهم طلعت باشا حرب مدير بنك مصر ومؤسس نهضة مصر الاقتصادية وهو الرجل الكبير الذي قرن العلم الى العمل فأوجد للمصريين قوة كبيرة من المال المشترك كان الأجانب يمصون ثروة البلاد بمثلها · واذا شئت ان تعلم

مبلغ ثقة المصريين بهذا المصرف وبيطله الذي صار بعد من رجال التاريخ الحاضر فسله عن مقدار الأمانات اي الودائع التي سلمه الأهلون اياها ينبئك انها كانت دون الثمانين من آلاف الجنيهات في السنة الأولى من تأسيس المصرف اما اليوم فانها بلغت تسعة ملايين من تلك الجنيهات وهو مبلغ كبير . وقد تمكن المصرف من تأسيس شركات وطنية مهمة لحلج الأقطان والغزل والنسج والنقل والملاحة وصيد الأسماك والطباعة وغيرها وأسس فروعاً له في انحاء القطر المصري وفي بيروت ودمشق ، وبنى داراً بديعة للتمثيل العربي في حديقة الأزبكية ، كما بنى لنفسه بناء في شارع عماد الدين جاء آية من آيات الفن . واذا شئت ان تعرف كيف توصف القصور وزخارفها فاقرأ وصف هذا البناء الرائع بقلم الاديب الكبير الشيخ عبد العزيز البشري في عدد ٦ حزيران « يونيو » سنة ١٩٢٧ من جريدة السياسة الغراء .

وحق علينا ونحن ما برحنا منذ عشرين سنة نعالج الشؤون الزراعية والاقتصادية ان لا نعود الى دمشق قبل ان نزور المعرض الزراعي الصناعي الذي أقيم في السنة الحاضرة في أرض الجمعية الزراعية الملكية في الجزيرة وقبل ان نلقي نظرة على مدرسة الزراعة العليا في الجيزة وعلى مؤسسات وزارة الزراعة المهمة . ولقد يممت لبلوغ هذه الغاية معالي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاذا استقباله لي يدل على وفرة أدبه وشدة عطفه واذا به ممن زاروا الشام في الأيام الخالية ، ومن النادر ان يزورها مصري كريم دون ان تترك في نفسه اثراً جميلاً .

وتقدم الوزير المشار اليه الى السيد حلمي احد مفتشي الوزارة بان يكون دليلنا غير مكره فكان مثالاً للرجل الوديع من جهة وللمهندس الزراعي الخبير ببلاده من جهة ثانية فاما المعرض الزراعي الصناعي فقد تجلت فيه جهود المصريين حكومة وشعباً في سبيل الانتاج الزراعي والصناعي فكان اجمل صورة لذلك الشعب الشيخ الفتى والنائم المستيقظ فهنالك اجود مجموعة للأقطان في دار الجمعية الملكية الزراعية ، وهنالك مصنوعات ادارة السجون من مفروشات ومناشف ومنسوجات حريرية وصابون وسجاد واحذية وكراسي ومماسح الخ كلها متقنة الصنع ، ومصنوعات المدارس الصناعية في انحاء القطر من نسج حريرية وآلات زراعية وأثاث ورياش ، ومنتوجات المدارس الزراعية ومعروضات أقسام وزارة

الزراعة كقسم الحشرات وقسم النباتات وقسم الأقطان وقسم البساتين وغيرها . وهنالك اجود محاصيل القطر الزراعية على انواعها من حبوب وفواكه وخضر ونباتات صناعية وهنالك ايضاً مصنوعات الشركات التي أسسها بنك مصر والغرف المختصة بمديرية الصحة والاسعاف وهي جديرة بأن تسمى مدرسة لحفظ الصحة . واذا اضفنا الى ذلك معروضات معامل الجلود والتبغ والصناعات الصغيرة المختلفة نكون قد اوجزنا في كلمتين ما احتجنا في زيارته الى اربعة ايام وما نحتاج في درسه الى شهر على الأقل وليس الخبر كالمعاينة .

ومما لا شك فيه ان اخواننا المصريين لم يلحقوا الشاميين بالصناعات الوطنية الحديثة وليس لديهم اليوم امثال ما لدينا من معامل الدباغة والجوخ و « الكريب » وسائر النسج الحريرية و « التريكو » والجوارب وقمصان الكتان وسراويله وانواع الحلويات وعود الكبريت والسمنت وغيرها مما لا أثر فيه لرؤوس المال الأجنبية لكنه ليس ثمة ما يمنعهم من اللحاق بنا ومن تخطينا بمراحل ولا شك ان السبّاق في هذا المضمار سيكون بنك مصر بمعامله . ومن البديهي ان مصر كالشام لا يمكن ان يكون فيها صناعات كبيرة لخلوها من الفحم الحجري والحديد لكن في وسعها ان تنسج كل ما يلزم لسكانها من الألبسة القديمة والحديثة وان تصنع كل ما قلنا انه يصنع اليوم في الشام فتستغني عن دفع ملايين من الجنيهات سنوياً الى البلاد الأجنبية .

وأما مدرسة الجيزة الزراعية العليا فهي لا تقل بمخابرها ومعداتها ووسائل التعليم فيها عما خبرناه في المدارس الأوربية الشبيهة بها . ومن بواعث السرور ان جميع الدروس تلقى فيها باللغة العربية دون غيرها . وكذا في مدارس الزراعة المتوسطة الوائمة في مشتهر والمنيا و منهور وفي مدارس التجهيز كافة . وقد اخذت العربية تحل محل الانكليزية والفرنسية في سائر المدارس العليا كالطب والحقوق والهندسة وغيرها .

***

وبعد هذه صورة جد صغيرة لما شاهدته في رحلتي القصيرة الى القاهرة . ونحن اذا رحنا نلخصها في بضعة اسطر حملنا على النتيجة الآتية وهي ان تلك المدينة الرائعة اصبحت اليوم رأس مدن الشرق العربي بعمرانها وبروعة آثارها الشرقية وان فيها نهضة علمية تتجلى في جماعة المجمع المصري للثقافة العلمية وفي عديد من الأخصائيين بمختلف العلوم ، ونهضة

أدبية واسعة النطاق تسطع في جماعة دار الكتب المصرية ورجال لجنة التأليف والترجمة ونوابغ الشعراء وفحول الادباء من أساتذة ومؤلفين ، ونهضة وطنية وسياسية لم نتعرض لها ولكنكم تلمسونها كل يوم فيما تقرأونه في الصحف المصرية ، ونهضة صحافية كبيرة لاعهد لمصر بمثلها من قبل وهي قائمة بجهود عدد لا يستهان به من حملة الأقلام المصريين والشاميين ، ونهضة مالية واقتصادية لها في حياة القطر المصري الشأن الأكبر ومبعثها بنك مصر خاصة . فاذا اضفتم الى ذلك ان القاهرة عاصمة بلاد غنية يبلغ عدد سكانها ١٥ مليونًا من الناطقين بالضاد ادركتم الأسباب التي تجعل مصر زعيمة الشرق العربي بلا منازع .

مصطفى الشهابي



اثنا عشر كوكبا

- ٢ -

(الحالة السياسية في زمن الباعونية)

قبل ان نصف أسفار الباعونية الى مصر ثم الى حلب ثم موتها نذكر مجملاً من الحالة السياسية في بلاد الشام ومصر إذ ربما كان لسفراتها علاقة بهذه الحال كما يأتي :

كان المُلك في مصر والشام (لصلاح الدين) الايوبي واولاده واولاد اخيه الملك (العادل) الذي نحن الآن في مدرسته (العادلية) ونلقي هذه المحاضرة بجانب ضريحه . وتسمى دولتهم (الدولة الايوبية) . ثم قام بالمُلك بعدهم مماليكهم الشراكسة واشهرهم الملك (الظاهر بيبرس) المدفون في المدرسة الظاهرية امام العادلية حيث دار الكتب العربية . ومنهم الملك (المنصور قلاوون) وابنه (الاشرف خليل) و (الظاهر برقوق) الذي بنى جسر الشريعة .

ومنهم الملك (قانصوه الغوري) وهو آخرهم . وقد استقام الملك في بني ايوب ومماليكهم الشراكسة نحو اربعة قرون : القرن السادس للهجرة والسابع والثامن والتاسع ولم يستهل القرن العاشر حتى كانت دولتهم قد هرمت وتطرق اليها الخلل والفساد وعلى العكس الدولة التركية العثمانية التي كانت تتكون يومئذ في بلاد الاناضول وتشتد وتتسع رقعة مملكتها بالتدريج .

وكان السلطان سليم العثماني معاصراً لآخر ملوك الجراكسة (قانصوه الغوري) . وفي زمن هذين السلطانين كانت عائشة الباعونية حية وقد ملأ ذكر علمها وفضلها مصر والشام .

حارب السلطان سليم ملكَ العجم (اسماعيل شاه) وكاد يتغلب عليه ويستولي على بلاده لولا ان (قانصوه الغوري) سلطان مصر كان يساعد ملك العجم ويمده سراً . فشعر

م : ٦

السلطان سليم بذلك وعلم أن الاستيلاء على بلاد العجم لا يتيسر له مالم يستول على مملكة (قانصوه الغوري) التي تعترض طريقه الى بلاد العجم فرجع الى الاستانة وجهز جيشاً عرمرماً زحف به على بلاد الشام حيث يترصده عدوه الألد قانصوه الغوري وجرت بينهما معركة (مرج دابق) بقرب حلب فوقع قانصوه الغوري تحت سنابك الخيل قتيلاً . وتمزقت عساكره شذر مذر واستولى السلطان سليم على بلاد الشام ومصر من يومئذ . وذلك سنة (٩٢٢) وهي السنة التي ماتت فيها عائشة الباعونية .

(أسفار الباعونية ووفاتها)

«وهل لوفاتها علاقة بالحالة السياسية المذكورة»

مر معنا ان (الباعونية) ارسلها أهلوها في صباها الى مصر والشام لطلب العلم فنبغت هناك . وهذه اول سفرة من سفراتها وبعدها عادت فاستقرت في وطنها دمشق الشام .

وفي سنة (٩١٩) (اي قبل وفاتها بثلاث سنين) سافرت الى القاهرة . وفي الطريق أصيبت بمؤلفاتها وقصائدها التي كانت تحملها معها . ولا نعلم كيف أصيبت بها : فاما ان يكون أصابها مطر أتلفها أو أغارت على القافلة عصابة من اللصوص فكانت كتب الباعونية في جملة مانهبوا وسلبوا . لكن لماذا سافرت الباعونية الى مصر في وقت تكاد تشب نار الحرب بين السلطان سليم وبين قانصوه الغوري ؟ ؟

يفهم من كلام المؤرخ (الغزي) انها ذهبت الى مصر «لقضاء مأرب لها يتعلق بولدها» . وما هو هذا المأرب ياترى ؟؟

ليس امامنا سوى طريق التكهن في معرفة هذا المأرب : فاما أن ولدها كان تاجراً وله مشاكل مع عملائه في مصر فذهبت معه اليها لتساعده بجاهها عند ولاة الأمور . أو هو موظف في الحكومة وقد نسبوا اليه قصوراً أو تقصيراً فذهبت به لتثبت أهليته . أو تبرأ ساحته .

وما يدرينا ان يكون ابنها قد كلف الخدمة العسكرية فذهبت الى (قانصوه الغوري) ملك مصر تطلب منه ان يعفي ابن الشيخة من هذه الخدمة الشاقة التي لا يحسنها وقد يتعرض الى الهلاك بسببها وهي في حاجة اليه يخدمها . ويكفيها مؤونة العمل خارج بيتها ؟ كل ذلك مما يدخل تحت الامكان .

وكان مصاحباً لها في سفرها الى مصر (ابو الثناء محمود الحلبي رئيس ديوان الانشاء

في الحكومة المصرية) فلما وصلوا جميعاً الى القاهرة أنزلها ابو الثناء في داره . واكرمها واكرم ولدها . وكانت هي من قبل مدحته بقصيدة مطلعها :

(روى البحر اخبار العطا عن نداكو ونشر الصبا عن مستطاب ثناكو)

ثم ان (ابا الثناء) قدمها الى شيخ الادب والادباء في الديار المصرية وهو (السيد الشريف عبدالرحيم العباسي) وعرفه بها فأعجب بها السيد المذكور وبعث اليها بقصيدة من بديع نظمه فاجابته بقصيدة مطلعها :

(وافت تترجم عن حبر هو البحر بديعة زانها مع حسنها الخفرُ)

ثم ارسل اليها ابو الثناء قصيدة أخرى قال في مطلعها :

(ليهنك مجدٌ طارفٌ وتليدُ يَعُضُدك آباءٌ به وجدود)

الى ان يقول مخاطباً لها :

(فياروضة العلم التي بان فضلها وليس من الفضل السري مديد)

(فمنثور ما تبديه قد ضاع نشره ومنظومه فوق النحور عقود)

(وورق المعاني فوق دوح بيانها له ببديع السجع فيه نشيد)

(اذا ماتغنى مطرباً عندليبها تميل قلوبٌ لذةً وتميد)

فأجابته الباعونية تقول :

(تساميتَ مرمىً للحاق بعيدُ وحسبك ما ابدعت فهو شهيدُ)

(حصلتَ على الغايات مجداً وسؤدداً وفضلاً مبيناً ليس فيه جحودُ)

(واصبحت في روض العلوم مفكهاً تجولُ وتجني ما تشا وتفيد)

(وكم بوجيز اللفظ أشرعتَ منهلاً يطيب به للظامئين ورود)

(موارد آداب صفا سلسبيلها وحام عليها مُهتدٍ ورشيد)

ثم رجعت الباعونية من مصر الى دمشق الشام وبقيت الى سنة (٩٢٢) .

في هذه السنة نشبت معركة (مرج دابق) بين السلطان سليم وقانصوه الغوري كما ذكرنا وقد سافرت الباعونية الى حلب في تلك السنة .

قال المؤرخ (ابن الحنبلي) : «جاءت الباعونية الى حلب سنة (٩٢٢) وكان في حلب يومئذ (السلطان الغوري) وكان لها عنده مصلحة تريد قضاءها . فاجتمع بها من وراء حجاب

كلٌّ من (البدر السيوفي) وتلميذه (الشمس السفيري) وغيرهما، ثم عادت الى دمشق وتوفيت في السنة المذكورة» . انتهى ماقاله المؤرخ ابن الحنبلي . ولم نجد طريقاً الى حلّ الطلاسم عن سفرتها الى حلب في هذا الوقت العصيب سوى طريق التكهن ايضاً فنقول :

اجتمعت الباعونية وهي في حلب مع (البدر السيوفي) وغيره من الأعيان وكأنها كاشفتهم في المصلحة التي قال عنها ابن الحنبلي : إنها انما جاءت الى حلب من أجل قضائها .

وما هي هذه المصلحة ياترى في وقت ينتظر فيه السلطان الغوري قدوم عدوه السلطان سليم ؟ ثم جاء سليم وحارب الغوري وقتله كما مر ؟ ربما كانت مصلحة الباعونيـة في هذه السفرة الى حلب تتعلق بولدها ايضاً ؟؟ .

لعل الآباء والأمهات كانوا في ذلك الوقت — وقت اشتباك الحرب في وجل شديد على اولادهم . وفلذات اكبادهم . كما خافوا عليهم في عصرنا الحاضر أي منذ بضع سنين حينما كانت الحرب ناشبة بين الترك ودول الحلفاء . وكان جمال باشا يسلك الشبان فيجندهم بالقهر .

فكم آباء وأمهات ماتوا حسرةً على اولادهم بهذا السبب . فهل يا ترى وقع شيء من هذا القبيل للباعونية ؟ فان المؤرخ (الغزي) قال انها رجعت من حلب الى دمشق وتوفيت وذلك في نفس السنة التي قُتل فيها الغوري في مرج دابق . أعني سنة (٩٢٢) . هكذا قالوا عن وفاة الباعونية لكنهم لم يذكروا لنا سنة ولادتها . لنعلم كم عاشت من العمر .

(اين قبر الباعونية)

ماتت الباعونية في بلدها دمشق . وذلك منذ اربعمائة سنة : فاين قبرها يا تُرى .

الفصل ربيع . والهواء عليل . والبرية برّاقة . وجداول الماء خرارة . والأشجار مزينة بالأزهار . والأغصان ترقص على غناء الأطيار . ونزهة الصباح تنفي عن النفس الهموم والأكدار . نذهب الى النزهة في ضواحي دمشق ميممين الجسر الأبيض ومن هناك نسلك طريق الشيخ محيي الدين الجديد مشياً على الأقدام . نصل الى نصف الطريق . نجد على يميننا زقاقاً الى البساتين . نسلك هذا الزقاق ويسمى (زقاق طاحونة الأحمر) . نمر بالطاحونة المذكورة عن يميننا . ثم بساقية ماء عن شمالنا . ثم نقف أمام باب بستان . فيقال لنا أن اسمه (بستان الباعونية) واصحابه بيت الشلبي . فتخطر ببالنـا للحال شيختنا

(الباعونية) التي قرأنا تاريخها وسمعنا اخبارها فنقول في انفسنا : ياترى هل سمي هذا البستان بستان (الباعونية) نسبة الى شيختنا المذكورة ؟ ؟

ثم نمشي قليلاً حذاء سياج البستان فنصل الى عمارة قديمة كالمدرسة الصغيرة مبنية بالحجر المنحوت وطول واجهتها نحو ١٢ ذراعاً ولها ثلاث نوافذ مسدودة بالحجر · وقد كتبت على واجهتها بحروف خط واضح جميل هذه العبارة ؟

(هذا مقام حضرة السيدة الباعونية رضي الله عنها) · فلا يبقى عندنا شك أن في هذا البناء قبر (شيختنا الباعونية) إذ أيّةُ باعونية غيرها لها مثل شهرتها في دمشق ·

ثم نمشي قليلاً حذاء سياج البستان المتصل بالمدرسة فنجد في اسفل الدك حجارة منحوتة وآثار بناء · وطول هذا السياج نحو اربعين ذراعاً ولا نزال نمشي حتى نصل الى طرفه أو زاويته · فنجد أثراً يلفت النظر ويستدعي الانتباه هذا الأثر هو بقية عضادة كعضادة البوابة الكبيرة مركبة من ثلاثة احجار ضخمة وهي في ضخامتها ولونها تشبه احجار هذه المدرسة العادلية · فمن يرها يقل انها بقية بوابة بناء كان مشيداً هناك بجانب قبر الباعونية ·

شيء آخر أهم : قد طُرح على الأرض بجانب العضادة حجرٌ آخر كبير طوله ذراعان وعرضه ذراع عليه كتابة بحروف نافرة منحوتة في الحجر · وهي واضحة تمام الوضوح ومقروءة كلها سوى بعض كلمات · ويظهر من نقص الكلام أن الحجر كان طويلاً فكسر من جهة رأسه نحو ثلثه وبقي ثلثاه · والكتابة التي على طول الحجر تتركب من خمسة اسطار يقرأ الباقي منها بعد انكسار الحجر هكذا :

السطر (١) ······ رحمه ربه القدير نسل الدولة كافور الحر الحسامي ·

السطر (٢) ······ خانكاه على طائفة من الصوفية المجردين باسم سكناهم ·

السطر (٣) ······ المسلمين ومنه جميع المزرعة والكرم الذين بارض ·

السطر (٤) ······ فمن بدله بعد ما سمعه · فانما إثمه على الذين يبدلونه ·

السطر (٥) ······ من شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ·

وخلاصة ما يفهم من هذه الكتابة أن كافور الحسامي بنى خانكاه (اي زاوية) باسم الصوفية لتكون مسكناً لهم وانه وقف عليها مزرعة وكرماً وذلك في شهر رجب سنة ٩٢٣ ي بعد وفاة عائشة الباعونية بسنة واحدة ·

ولكن لا يوجد في هذه الكتابة ذكر لعائشة الباعونية . وانما تاريخها موافق فقط لتاريخ وفاة الباعونية . فلعل احد اهل الخير شيد هذه الزاوية على قبرها وأسكنها الصوفية يقرأون القرآن ويذكرون الله ويهدون ثواب ذلك اليها .

وبينما نحن واقفون هناك نسائل الديار . ونستنطق الأحجار . اذا جماعة من اهل الجوار الساكنين في تلك المحلة احدقوا بنا نساء ورجالاً وكان بينهم امرأة ذات إزار ونقاب فقالت لنا ان البستان المدفونة فيه (الباعونية) ملك بيت الشلبي وان امها هي من بيت الشلبي وقد عاشت امها نحو سبعين سنة . قالت وقد أخبرتني أمي انه كان يوجد في هـذا البناء المشيد بجانب قبر الباعونية فرن وقف يخبزون فيه صفيحة وشعيبيات ويفرقونها على المارين من الفقراء والمساكين مجاناً من دون ثمن ثم أخبرنا بعض الرجال المسنين مؤكداً قول المرأة الشلبية وقال انه سمع خبر الصفيحة من رجل مسن وهو سمعه من رجل مسن آخر رأى الفرن بعيني رأسه .

ولعل في هذا الخبر مبالغة وأن الفرن انما كان يخبز الصفيحة والشعيبيات في بعض أيام السنة (كأيام رمضان والمولد النبوي) لا في كل يوم من أيام السنة .

وبعـد أن نشاهد القبر من واجهته البرانية نتوق أن ننظر اليه والى حالته الجوانية . فيقال لنا ان الدخول اليه يكون من باب بستان الشلبي . فنرجع الى البستان وندخل اليه من بابه ثم نمشي فيه بين زريعة البصل والفول والسلق حتى نبلغ البناء الذي فيه القبر . فننزل اليه نزولاً لأن ارض البستان أعلا من أرضه . فنرى في وسط المكان قبراً متناسب الشكل وهو من الحجر النحيت . وعلى طول القبر حجر واحد بشكل جمَّالون [1] واحجار القبر متزعزعة متخلخلة ولولا ان هذا الجمَّالون الضخم قد أمسكها وحفظها والا كانت سرقت كما سرقت الأحجار الأخرى . وليس على القبر ولا في الجدران كتابة أو نقوش وليس للبناء سقف . ويظهر انه كان له سقف بدليل وجود قنطرتين من حجر كانتا تحملان السقف وما زالتا قائمتين الى اليوم . ويزعم بعض بيت الشلبي أن اجداده بنوا السقف المرة بعد المرة لكنهم كانوا كلما بنوه يصبحون فيجدونه قد تهدم وتفرقت احجاره . يعني بأعجوبة

(١) الجمَّالون في اصطلاح الناس حجر مستطيل محدّب على شكل سنام الجمل ولعله من هنا سمي جمَّالون أو جملون .

سماوية . وتزور القبر معنا سيدة أفرنسية[1] فإذ ترى أنه لا سقف فوق قبر الباعونية وتسمع من ابن الشلبي أن اجداده كلما بنوه طار . وتعقّبت منه الآثار تسمع ذلك فتقول مازحة : يظهر إن السيدة الباعونية لا تريد أن يسترها عن ربها ستار . ولا يحول بينها وبين السماء سقفٌ ولا أحجار .

هذا هو قبر (الباعونية) : نراه فلا نملك نفوسنا من رهبة الموت . وجلال الذكرى . نذكر المرأة التي اذا عُدّ العلماء المؤلفون كانت واحداً منهم . واذا عُدّ الشعراء المتأدبون كانت في طليعتهم . واذا ذُكر الزهاد المتنسكون كانت لها المنزلة العظمى بينهم .

ان كانت الباعونية ماتت فان ذكرها لم يمت . وان غاب عنا جسمها . فلم يغب عنا فضلها وعلمها .

ان كانت الشجرة يبست وتحطمت وأصبحت تراباً فإن أثمار الشجرة مازالت غضة طرية بعد مرور أربعمائة سنة عليها . وكم امرأة من النساء ذات جاهٍ وعظمة ومالٍ وجمال ماتت ونُسي ذكرها اما الباعونية فانها ما زالت حية الى اليوم بفضلها . وثمرات عقلها .

اذكرن أيتها السيدات (عائشة الباعونية) . وزرن قبرها . وقصّوا على بناتكن أخبارها . وروّينهن أشعارها . ثم لعلكن تأخذكن الغيرة عليها فترممن مزارها . وتحفظن من السرقة أحجارها .

ولعمري ايتها السيدات ! إن (الباعونية) تستحق منكن اكثر من هذه العناية : لأنها رفعت قدركن في الحياة . فأحيوا ذكرها ولا تضيعوا كرامتها بعد الممات[2] .

المغربي

---

(١) هي مادام (مريم هري) الكاتبة القصصية المشهورة وقد أقامت في سورية وفلسطين وحوران اياماً ولها كتابات وروايات قصصية عن أهل هذه البلاد .

(٢) بلغني أن طائفةً من السيدات خرجن من ردهة المحاضرة وذهبن تواً الى قبر عائشة الباعونية لزيارتها وإهداء الفواتح الى روحها .

رحلة اوليا جلبي

« في البلاد العربية »

- ٧ -

ويجدر بنا بعد اجتياز حماة ان نصف ما في براريها الشرقية من الأماكن القديمة نخص بالذكر منها سلمية وقصر ابن وردان وخربة الأندرين .

فسلمية قرية كبيرة او بليدة في شرقي حماة الى الجنوب بينهما طريق غير معبدة بعدُ طولها ٣٢ كيلو متراً ويسير قاصدها بعد ان يخرج من حاضر حماة في نجد فيه تلعات متموجة وأودية احدها يدعى العميق تنحدر مياهها في الشتاء نحو العاصي وليس بينها ذو ينابيع واشجار قليلة سوى وادي عين القصارين ووادي الكافات . والسائر يرى على يمينه في غربي العاصي جبل تقسيس « علوه ٦٨٥ متراً » وفي سفحه في منخفض العاصي تختفي قرى الجاجية وسريحين وجنان والجرنية وتقسيس وبينها أزوار تروى بالنواعير . ويرى على يساره سلسلة آكام وهضاب من اعضاد جبل العلا بينها وبين الطريق من الضياع الصغيرة التي يملكها سراة حماة ام جرن وصماخ ومباركات وغيرها . وتربة هذه الأرضين تميل الى الاصفرار والبياض كلما ذهبت مشرقاً . ومن غريب امر آكام جبل العلا المؤلفة من الحرات السوداء ، الموحشة لتجردها عن الاشجار والأنجم بل كل اخضرار - أن امتدت في بعض منحدراتها وسفوحها الوعرة سلاسل من الأحجار من صنع الأقدمين مما يحمل على الظن بأنهم كانوا يملأون اجوافها بالغراس والكروم . ترى ، هل ضاقت هذه السهول الشاسعة في القرون الخالية بسكانها حتى اضطروا للتعلق باذيال الجبال وكيف كان يتم لهم ذلك وهذه البقاع الفقيرة بالامطار لا سبيل لنمو الغراس والكروم الاعذاء فيها ؟ هذا

وبعد ان يجتاز السائر قرية الكافات يشاهد عن بعد قلعة شميميس تطل من وراء الآكام المحيطة بها ثم بقرية تل الدرة واهل هاتين القريتين اسماعيلية وبضعة طواحين في جنوبها مرج القريم وبعين ماء كبيرة تدعى عين الزرقاء الى ان يدخل في سهل افيح مترامي الأطراف جثمت فيه سلمية .

وسلمية قاعدة قضاء من اعمال لواء حماة يقطنها زهاء ثمانية آلاف من الاسماعيلية بينهم عدد ضئيل من الغرباء السنيين هم موظفون أوباعة . وفي قضائها اربع نواح : معرشحور وكاسون وعقيربات وسلمية ، يتبع كلاً منها قرى وضياع عديدة تمتد شرقاً الى سفوح جبل البلعاس حيث ينتهي العمران وشمالاً الى ما بعد محطة كوكب على سكة حديد حماة — حلب ، يقطن أكثرها الاسماعيلية والنصيرية واقلها البدو والشركس . وهواء سلمية جاف جيد وتشتد فعل الرياح الغربية فيها لوقوعهـا في السهل فتثير العجاج وتحول دون نمو اثمار الاشجار ويستخرج ماؤها من الآبار وهو قريب الغور ووسط في عذوبته وقد يصل البرد في الشتاء الى درجة الصفر كما ان حر الصيف قد يبلغ الأربعين على ان جفاف الهواء يخفف وطأتها فلا يشعر بها كما في حماة وكمية الأمطار السنوية قليـلة لا تنيف عن الاربعمائة ميليمتر في معظم السنين . ولذا لاتخصب تربتها الرملية الكلسية الصفراء الا اذا جادها الغيث بكثرة ولا تنمو الزروع الصيفية وكذا الكروم في مستهل حياتهـا الا اذا رويت . وقد اشتهرت سلمية بسعة كرومها وبساتينها واراضيها الاعذاء واجل غلالها التي تصدرها الى بندري حمص وحماة على السواء الحنطة والشعير والقزح والبصل وصنف من العنب يدعى البياضي يتأخر نضجه حتى انتهاء الخريف . وقد تمت في السنين الأخيرة زراعة القطن المصري والاميركي واتسعت . وهي تصدر عدداً غير يسير من اطايب الخيول العربيـة . ويرجع الفضل في عمران سلمية الى القنى القديمة البيزنطية والعربية الممتدة فيها وفي ضواحيها كخبوط الشباك مما لا نظير له في بلاد الشام الا قليلاً في اقضية منبج ودوما والقطيفة . وهذه القنى من العجائب الشاهدة بمقدرة الأقدمين في نقر الصخر الصلد ورسوخهم في علم استنباط المياه وجرها . يحتفر اهل سلمية هـذه القنى وقد برعوا في تتبع آثارها وفتح اسرابها وآبارها ويسيلونها . ويوشك اذا دامت هذه العناية ان تصبح كورة سلمية غوطةً مصغرةً ويعود

اليها مجدها الغابر الذي ذكره جغرافيو العرب ونعتوه بكثرة المياه والشجر ووفرة الخصب والرخاء .

قال اليعقوبي من رجال القرن الثالث في كتاب البلدان : وسلمية وهي مدينة في البرية وكان عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابتناها واجرى اليها انهراً واستنبط ارضها حتى زرع فيها الزعفران واهلها من ولد عبدالله بن صالح الهاشمي ومواليهم واخلاط من الناس تجار وزراعين . وقال ياقوت : سلمية بليدة في ناحية البرية من اعمال حماة بينهما مسيرة يومين (كذا) وكانت تعد من اعمال حمص، اتخذها صالح بن علي بن عبد الله بن عباس منزلاً وبنى هو وولده فيها الأبنية ونزلوها وبها المحاريب السبعة (!) يقال تحتها قبور التابعين ، وفي طريقها الى حمص قبر النعمان بن بشير وينسب اليها بعض اهل العلم اه . وكان يرجى من ابي الفداء — وسلمية كانت على مقربة من عاصمته — ان يصفها بتفصيل ولكنه رحمه الله اكتفى بقوله : سلمية من اعمال حمص ، بلدة نزهة ومياهها قنى ولها بساتين كثيرة ، قال ابن حوقل وسلمية الغالب على سكانها بنو هاشم وهي على طرف البادية خصبة ، قال في العزيزي ومدينة سلمية على ضفة البرية كثيرة المياه والشجر رخية خصبة اه .

واسم سلمية قديماً (Salamias) — وان لم نعثر على تاريخها في العصور القديمة — الا انها كانت ولاسيما في عهد الروم البيزنطيين عامرةً بدليل العثور على كثير من الآثار والعاديات فيها وضواحيها ينبشها الاهلون من المباني والمدافن القديمة ويبيعونها من غواتها باثمان جيدة . وتاريخها في عهد المسلمين غامض لم يذكره المؤرخون الا الفينة بعد الفينة وعرضاً . والمفهوم من أقوال الجغرافيين التي نقلناها ان سلمية خربت عقيب الفتح الاسلامي لوقوعها في طرف البادية والا فما معنى قولهم « ابتناها عبد الله بن صالح وأجرى اليها أنهراً » وقولهم « وبنى هو وولده فيها الابنية ونزلوها » وما معنى وجود كثير من الأحجار والانقاض البيزنطية في تضاعيف مبانيها العربية القديمة . واذا حسبنا ان هذه هي المرة الاولى التي خربت وعمرت فيها سلمية يثبت معنا ان عمرانها هذا دام وازدهر خلال ثلاثة قرون في عهد سكانها بني عبد الله بن صالح الهاشمي الذين ذكرهم الجغرافيون . واول

ماورد اسمها في التواريخ كان في حديث المعركة التي نشبت في مرج الأخرم الذي صار اسمه في يومنا مرج القريم غربي سلمية بين عبد الله بن علي العباسي اول قائد وعامل عباسي في الشام وزياد بن عبد الله الأموي قائد جيش قنسرين الذي انتقض على العباسيين وكانت الدائرة على زياد فثبتت أقدام العباسيين وقضى على آمال الأمويين في الشام ·
ويظهر ان بني هاشم الذين أخفقوا مراراً في الوصول الى كرسي الخلافة في عهد الأمويين ثم العباسيين ظلوا في موطنهم سلمية يحاولون ويبثون دعايتهم السياسية · وكان أخصهم في ذلك محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكتوم بن اسماعيل · واسماعيل هذا هو الذي تعتقد الاسماعيلية ان الامامة انتقلت اليه من أبيه جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب · وكان محمد الحبيب يرسل من سلمية الدعاة والمبشرين لمبدإه · وقد استعان اذ ذاك بعبدالله بن ميمون القداح وكان هذا من بقايا مجوس الفرس الساعين لهدم كيان العرب والاسلام تحت ستار الدعوة الاسماعيلية يشتغل بها في اصفهان والأهواز والبصرة فوافى سلمية ملبياً طلب محمد الحبيب وأقام فيها الى مماته مشتغلاً بالدعوة وذلك في منتصف القرن الثالث · ويظهر ان القداح جر وراءه جمعاً من هؤلاء الدعاة فصارت سلمية من ذلك الحين مركزاً لهم ولشيعتهم · منهم ابو عبد الله الشهير بالشيعي نشأ في سلمية وذهب الى المغرب ووفق الى إزالة دولة الأغالبة ثم لحقه عبيد الله محمد وكان ممن نشأ في سلمية ايضاً تلقب بالمهدي وادعى انه من نسل فاطمة وتوصل الى تأسيس الدولة الفاطمية التي انتقلت بعد حين الى مصر ونازعت العباسيين الخلافة · وفي سنة ٢٩٠ جاء القرامطة ويظهر انهم كانوا حانقين على بني هاشم يقصدون استئصالهم فقتكوا بهم وباهل سلمية كما فتكوا في حماة والمعرة · قال ابن الأثير في حوادث هذه السنة : ثم سار القرمطي الى سلمية فمنعه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم الأمان ففتحوا له بابها فبدأ فيها من بني هاشم وكانوا جماعة فقتلهم أجمعين ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب ثم خرج منها وليس بها عين تطرف وسار فيما حولها من القرى يسبي ويقتل ويخيف السبيل اه · ولم يذكر ابن الاثير ان كان القرمطي خرب سلمية أم اكتفى بتقتيل سكانها وإخلائها ولم يذكر متى وكيف عاد العمران والسكان · وهل كانت حينما جاءها سيف الدولة بن حمدان في سنة

٣٤٤ آهلة أم خالية . ففي تلك السنة جرت في المروج الممتده شمالي سلمية بين سيف الدولة وأعراب البادية من بني عامر بن صعصعة وعقيل وقشير والعجلان وقد كانوا ثاروا عليه فلحقهم الى تلك المروج وفتك بهم فامتدحه المتنبي بقصيدة جاء فيها :

فاقبلها المروج مسومات ضوامر لا هزال ولا شيار

تثير على سلمية مسبطراً تناكر تحته دون الشعار

وسكتت التواريخ عن بيان شيعة السكان الذين عمروا سلمية للمرة الثانية بعد حادثة القرامطة أكانوا من الاسماعيلية أم من غيرهم . لأنه لم يرد لهم ذكر مع ساكني قلاع الدعوة اتباع راشد الدين سنان وخلفائه الذين كانوا يجندون الفدائيين لاغتيال ملوك المسلمين وأمرائهم . وعادت التواريخ لذكرها في عهد الأيوبيين ابناء صلاح الدين . قيل ان الملك المعظم عيسى صاحب دمشق جاء في سنة ٦١٩ فحاصر ابن اخته الملك الناصر قليج أرسلان صاحب حماه لاخلاف هذا بوعده في دفع مال مشروط عليه فنهبت جنوده اذ ذاك سلمية لانها من توابع حماه . ولما جاء الملك الكامل صاحب مصر في سنة ٦٢٦ ليخلع الملك الناصر ويجلس مكانه أخاه الملك المظفر حاصر حماه بعث بجيش سلم قيادته الى الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الذي سيرد ذكره في بحث حمص . ولما تم له ما أراد انتزع سلمية من المظفر وسلمها الى شيركوه فانسلخت سلمية من ذلك الحين عن حماه وظلت علة الشحناء بين أبناء الاعمام ملوك حمص وحماه لاسيما بعد أن عمر شيركوه في سنة ٦٢٧ قلعة شميميس وقطع ماء القناة التي كانت تجري من سلمية الى بساتين حماه . ولما جاء التتار بقيادة هولاكو في سنة ٦٥٨ وغازان في سنة ٦٩٩ نالوا من سلمية كغيرها من مدن الشام فانحط شأنها لكنها لم تخرب على ما يظهر بالكلية ويهجرها أهلها للمرة الثالثة الا في منتصف القرن الثامن في عهد المماليك حينما اختلت ادارتهم وازدادت فتن أعراب البادية ووثب بعضهم على بعض . قال في خطط الشام في حوادث سنة ٧٤٨ : « وفي هذه السنة اقتتل سيف الدين ابن فضل امير العرب وأتباعه مع احمد فياض من الأمراء في جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف ونهبت أمواله وكانت هذه الحروب ضربة قاضية على بادية حماه فطفق البدو ينهبون القرى ويغيرون على حماه والمعرة ففر الفلاحون ودرست القرى اه .

وظل هذا الخراب مستمراً خمسة قرون يضرب البدو في ارجائها ويرعون انعامهم بين اطلالها لقاء اتاوات يؤدونها للحكومة العثمانية التي عدت سلمية وما حولها لواء اتبعته كحماه وحمص بايالة طرابلس الشام وما هو بلواء حقيقي. قال كاتب چلبي في جغرافيته «جهان نما» المطبوعة في الاستانة في سنة ١١٤٢ : ولواء سلمية هو في ايامنا في حوزة امراء عشيرة الموالي يأخذونه من آل عثمان اه. وظل اسماعيلية الجبال الغربية في تلك القرون يرنون نحو الشرق في لهفة وحسرة ويترقبون الفرصة ليعودوا ويعمروا سلمية احياء لمنشأ شيعتهم وتوسعاً في الأرضين وتخلصاً من مثل المذبحة التي ذاقوها من النصيرية في مصياف في سنة ١٨٠٧ م على ما ذكره بروكهارت سائح تلك الايام. ولما استتب الأمن والنظام في الجملة في العقد الأخير من القرن الماضي جاء نفر منهم الى سلمية قبيل سنة ١٢٨٠ او عقيبها واعتصموا بادئ ذي بدء في الحصن الذي هدم وبني مكانه دار للحكومة وشرعوا يزرعون حوله ويدرأون عن انفسهم عيث البادية ومازالوا يزدادون بانسلال ابناء جلدتهم من جهات مصياف والقدموس والخوابي وعكار ويمتدون الى الشرق يعمرون القرى الخربة حتى كثر عددهم. ولما استقر امرهم جعلت الحكومة سلمية في غرة قرننا الحالي قاعدة ناحية دعتها (مجيد آباد) ثم جعلتها بعد حين قاعدة قضاء دعي باسمها واتبعته بلواء حماه. وقد زاد عدد الاسماعيلية في السنين الأخيرة في سلمية وغيرها من القرى الآهلة بهم واخصها تل التوت وبري الشرقي والغربي ومفقر الشرقي والغربي وجدوعة وعقارب وسعن وسعين وذلك بانضمام ذويهم النازحين من مواطنهم في جبال النصيرية لأنهم وجدوا الرخاء والخصب في السهول الشرقيـة الواسعة والعزة التي نالها السلميون من السلطة الافرنسية لقاء تفانيهم في خدمتها خلال ثورة الشام في سنة ١٣٤٥ اهـ في اكثر منها في قراهم الغربية الجبلية الضيقة.

ويفترق الاسماعيلية من حيث المذهب الى حجاوية وسويدانية يعتقد الأولون بالوهية آغا خان الزعيم الهندي المعروف في نوادي انكلترة وفرنسا ببذخه وترفه ويؤدون له الزكاة والثانون لا يشاطرون اولئك ذلك الغلو. وكل سكان سلمية وقراها القدماء وسكان القرى المجاورة لقلعة الخوابي من الفريق الأول بينما القدموسيون والمصيافيون من الثاني. والنفور من جراء هذا التباين سائد بين المختلفين. ويفترق الاسماعيلية ايضاً بحسب الطبقات

الى عامة وخاصة ، فمن خاصتهم المشايخ ذوو الزعامة الروحية بينهم من هو مولى بجباية اموال الزكاة وايصالها الى الهند . والأمراء ذوو الزعامة الزمنية ، وهذه الامارة مختصة بافراد قلائل يتوارثونها على انها ما برحت مجهولة الارومة والسلسلة . ويغلب على الاسماعيلية طول القامة وعرض الهامة وصحة الجسم ويمتاز نبلاؤهم بزرقة العيون وشقرة الشعور والجمال في نسائهم غير يسير . وهم في الجملة ذوو حالات غريبة في تقيتهم وجفوتهم اهل السنة وقسوة عريكتهم وبينهم عصبية قوية ينقادون الى مشايخهم وأمرائهم ويتضامنون في الدفاع عند الطوارئ لذا ترى قراهم ومزارعهم في أمن من عيث البادية وجشع سراة الحضر . والجهل سائد في جميعهم وعدد متعلميهم قليل جداً أنشئت في السنين الأخيرة بمساعي بعضهم حركة اصلاح نحو الرجوع الى المبادئ الاسلامية لا يعلم مداها .

هذا واكثر دور سلمية قباب مخروطية الشكل من اللبن والتراب كما هو الحال في القرى الممتدة شرقي حمص وحماه وحلب . على انها صارت تبدل بها من عهد قريب دور حجرية جلها من الطراز القروي البسيط لغلبة السذاجة على اصحابها .

« للبحث صلة » وصفي زكريا

حفلة تأبين

« حافظ بك ابراهيم »

أقام المجمع العلمي العربي يوم ٥ تشرين الاول سنة ١٩٣٢ حفلة تأبين لحافظ ابراهيم بك شاعر النيل أحد أعضائه الراحلين تحت رعاية صاحب الدولة حقي بك العظم حضرها جمهور غفير من جميع الطبقات الرسمية والعلمية والشعبية فافتتح الحفلة الاستاذ الشيخ عبد الله المجد شيخ قراء دمشق بآيات من الذكر الحكيم ، ثم وقف صاحب الدولة حقي بك العظم فألقى خطاباً ، وجاء بعده الاستاذ فارس بك الخوري أحد أعضاء المجمع وألقى خطاباً ، ثم جاء الاستاذ محمد بك كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي فذكر حياة حافظ ، وجاء بعده الاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي أحد أعضاء المجمع وألقى خطاباً ، ثم وقف الاستاذ شفيق بك جبري فألقى قصيدة ، وختم الحفلة سعادة محمد سري بك قنصل المملكة المصرية جواباً على الخطباء ، واليكم صوراً مما قيل في تأبين فقيد اللغة والشعر رحمه الله .

***

❊ خطاب صاحب الدولة حقي بك العظم ❊

« رئيس مجلس الوزراء في الجمهورية السورية »

سادتي

ليس شاعر النيل حافظ ابراهيم بالرجل الذي يحتاج أن يعرف اليكم . أن لجميعة الآداب به عظيمة جداً على العرب والعربية . لأن أدبه من الأدب الذي يرفع مستوى اللغة والأخلاق والاجتماع . يستظهر الناس شعره ونثره ويتلى بإعجاب في الأندية والمجالس منذ نحو أربعين سنة .

اني اذا ذكرت حافظاً أذكر عظيماً من أكبر خدام لغتي الذين أعادوا اليها بهاءها بقرائحهم الوقادة وملكاتهم الواسعة . هو ممن أحيوا شعرنا فأحيوا شعورنا . وهل الشعر العالي الا الشعور العالي .

أذكر صديقاً باراً عاشرته وجاورته سنين طويلة . وما شهدته ، ويشهد الله في عامة أدوار حياته الا مولعاً بخدمة مصر بل بخدمة العربية وأدبها القومي بل خدمة كل قطر يتكلم أهله العربية . ومن منا ينسى قوله من قصيدة تحت عنوان « الامتان تتصافحان » ألقاها في حفلة بمصر اذ قال :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب

فسبحان من أنزل الحكمة والبلاغة على لسانه وقلمه وسبحانه أن قضى بفراقنا . والموت مصير كل حي .

ولكن مثل حافظ ياسادتي لايموت لانه حي بشعره وأثره في الأرواح على وجه الدهر . تذكره الأجيال بعد الأجيال وينعم أدلها بمايقتبسون من عبقة كلامه . فهو زين الشعراء الخالدين . وما أقلهم حتى في عدة أعصار وأمصار .

حافظ بدل أسلوب الشعر العربي بديباجته المتينة وسبكه الرائع وما تخلل قوله من الحكم والعبر والدعوة الى إصلاح النفوس والمجتمع . وما شعره الا الشعر الذي ينفع الأمم ويرقي عقول أفرادها وقل ان داناه فيه احد .

* * *

أحسن المجمع العلمي العربي باقامة هذه الحفلة لحافظ لأنه أبان عن عواطفنا نحن السوريين نحو شاعر النيل بل نحو مصر المحبوبة التي صرفت فيها شطراً من حياتي فأكرمت وفادتي في أشد أيام المحن . يوم كنت متطوعاً صغيراً في خدمة سورية ومقاتلة الظلم والاستبداد .

ان الروابط الكثيرة التي تربطنا معاشر أهل هذه الديار بمصر تدعونا الى ان نشاطرها شعورها في كل حين . فاذا فقدت مصر رجلاً من رجالها عددناه هنا كأنه منا . واذا أصابتها سعادة فرحنا لسعادتها . وكذلك نحن يوم تحزن وتألم .

واني لأرجو لمصر ولرجال مصر حياة طيبة سعيدة لمكان الثقافة التي تدين بها الشعوب العربية بما لعلماء القطر الشقيق وأدبائه وشعرائه . وأسأله تعالى أن يخلق لمصر ولغير مصر عشرات من فقيدنا العزيز يدعون الناس الى مكارم الأخلاق . ويلطفون من شعورهم وعواطفهم ، ويصلحون من مجتمعهم وعاداتهم . يعملون على كل ما فيه نهضتهم على نحو ما فعل ويفعل شعراء الغرب لعهدنا . فان الغربيين اليوم على نحو ما كان عليه أجدادنا في الدهر السالف اذا نبغ فيهم نابغة اغتبطوا وسعدوا بنبوغه ، واذا فقدوه عدّوا فقده خسارة دونها كل خسارة .

قال حافظ لاحد أصدقائه منذ سنين وفي هذه الدار : اذا أنا متّ لا تدمع عليّ عين احد لأني لا اخلف ورائي اماً ولا اباً ولا زوجاً ولا ولداً . فاجابه صديقه . انت اذا مت يا حافظ تبكي عليك عيون العرب كلها وكفى بهم أسرة كبيرة . وكذلك كان فانا لله وانا اليه راجعون .

وقال حافظ في آخر قصيدة له القاها في بيروت — وهو كما تعلم حبيب الشاميين عامة ولطالما نوه بهم وعطف عليهم في شعره الرائق .

وقد وقفت على الستين اسألها   أسوفت ام أعدت حرّاً كفاني

وكان ان قدر الله فرحل عنا في الستين وبضعة اشهر رحمه الله عدد اياديه البيضاء على هذا الشرق العربي ولا حول ولا قوة الا بالله .

***

خطاب الأستاذ فارس بك الخوري

هذه هي المرة الثانية التي نجتمع بها في هذا المكان لتكريم هذا الرجل الخالد والعلم الشاهق بين اعلام الشعر والأدب العربي .

اعتاد الناس ان يحتفلوا بالغزاة والفاتحين ويقيموا لهم المواسم والاعياد تذكاراً لفتوحهم وتقديراً لما جلبوا لقومهم من المغانم والخيرات . وفي هذا العصر صارت ثروة الأمة الأدبية أعز عليها وأغلى لديها من الثروة المادية ، وأصبحت الاحتفالات لتكريم رجال العلم والأدب أكثر رواجاً وأوسع انتشاراً وأجلب للرضى والارتياح العام من مثلها لابطال الفتح ومغاوير القتال . ولا غرو ان فتوح العلوم والفنون ابقى على الدهر من فتوح السيوف والنيران فقد زال أشيل وهكتور وبقي هومر كما زال سيف الدولة ودولته وبقي المتنبي على القرون والأدهار .

المرة الاولى منذ اربعين شهراً في ١٧ حزيران سنة ١٩٢٩ اجتمعنا في دار المجمع هذه للاحتفاء بشاعر النيل المحبوب حافظ ابراهيم عند زيارته الاولى والأخيرة لمدينة دمشق وكثيرون من شهدوا تلك الحفلة الشائقة التي أسرع اليها أماثل هذه المدينة ووفود المدن الأخرى ليرحبوا بالزائر العزيز فحظوا برؤيته وكان ملء قلوبهم حباً ووقاراً وملء صدورهم تبجيلاً واحتراماً .

وما زلنا نذكر وقفته الوقورة على منبر هذا المجمع يشكر المحفل الغفير الذي اشترك بتكريمه وأولياء الأمر الذين عرفوا كيف يكرمون وسام الإستحقاق السوري بتعليقه على صدره .

لم يكن في دمشق ولا غيرها من البلاد العربية من يجهل مكانة حافظ فقد سبقه الينا من شعره الرائق رسل كرام جاءتنا عنه بالنبإ اليقين . وانما وجدنا بعد ان أسعدنا الحظ بمجالسته انه لا يقتصر على السيادة بين الشعراء والكتاب بل هو جليس لا يشق له غبار

وسمير لا يسار معه في مضمار ، محدث واسع الرواية وظريف حاضر النكتة ومتكلم نقي العبارة يستهوي جلاسه ويمسك على السامع أنفاسه . يجول في كل حديث جولة العالم المعتمد على علمه والأديب الواثق من نفسه .

في تلك الزورة القصيرة مكن حافظ لذاته في قلوب الدمشقيين حباً صميماً واعجاباً عظيماً وترك لنا واحدة من الذكريات الطيبة التي ما زال الدهر بها ضنينا .

وهذه هي المرة الثانية التي يقوم بها المجمع العلمي لتكريم حافظ ميتاً بعد أن اكرمه حياً . فجع به الأدب العربي بمنظومه ومنثوره فانهد له ركن من اركانه الراسخة وتداعى له صرح من صروحه الباذخة وفقد مجمعنا العلمي به عضواً من أنجب اعضائه وأضاع بصرعه ابا من أبر آبائه .

الأمة العربية اليوم ليست فقيرة بشعرائها فانهم يعجزون العد وتعيا باسمائهم الحوافظ . وخزائن الأدب العربي ليست بحاجة لديوان من الشعر يضاف اليها فان فيها من الدواوين ما يجمع اكداساً .

ما أكثر الشعراء في سوريا والعراق . انك لا تكاد تقرأ صحيفة أو مجلة الا تراها مزينة بقصيدة لشاعر معروف أو مجهول . ولا يحدث في البلاد حدث كبير أو صغير الا تتسابق قرائح هذا الجيش من الشعراء لتدبيج القصائد الجيدة في وصفه وتفصيله وبينما كان الذين يقرضون الشعر في الجيل الماضي نزراً يسيراً صاروا اليوم جماً غفيراً .

بعد ان وضعت قواعد الصرف والاعراب وتعينت أوزان الشعر بالتفاعيل وصار علم العروض في متناول الجميع لم يعد نظم الشعر سليقة لا يملكها الا من منّ الله عليه بها كما كان امره عند العرب قبل الاسلام وفي صدره . بل أصبح صناعة يستطيعها كل من تعلمها ومارسها فيأتي بالكلام الموزون المقفى ويستعين بمحفوظاته ومطالعاته ليستعير المعاني ويصوغها في قالب خاص منطبق على شرائط الوزن والقافية فيعد نفسه انه قال الشعر ويجد من ينعته به وينظمه في سلك الشعراء .

بيد أن الشاعرية ليست بهذه السهولة التي يتخيلها فيها دارس علم العروض فالمركب وعر والسلم بعيد المدى وليس كل من نظم القصائد شاعراً كما أشار الى ذلك حافظ بقوله :

قالوا صدقت فكان الصدق ماقالوا ما كل منتسب للقول قوال

والشعراء لا يخلدون بكثرة ماينظمون بل يخلدون بما يمازجون به من قريضهم طباع الناس وأساليب التفكير الرجيحة ويعالجون الأدواء الاجتماعية ويحللون العواطف النفسية باوصاف منطبقة على الحقائق الواقعة التي يشعر بها الخلق في أطوارهم المعاشية . وأنت ترى أن الشعر الذي يثير فيك الاعجاب هو ما تجده مؤتلفاً مع ماعندك من الشعور وموافقاً لما في نفسك من فكر عميق لا تقدر على تصويره بالكلام أو مثيراً فيك عزة كامنة أو مذكراً اياك بخلق ترضاه فان كان ذلك من طباعك وسجاياك اعتززت به وافتخرت وان لم يكن تمنيت لو كان لك منه نصيب . وهذا مطلب صعب المرتقى كما وصفه أحدهم :

الشعر صعب وطويل سلمه اذا ارتقى فيه الذي لايعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

وهذا الذي جعل أكثر العلماء المتقدمين وأشهر الأدباء الأولين مثل ابن خلدون وابن المقفع يتجانفون عن ركوبه ويتحامون النزول في مضماره . وعند ما سئل ابن المقفع لماذا لا تنظم الشعر قال : ما يرضيني لا يلبيني وما يلبيني لا يرضيني . فلو حذا حذوه الذين لم يخصهم الله بسجية الشعر وتركوا أمثال هذا العمل لأمثال حافظ من النابغين لخلت خزانة شعرنا من توافه الكلام . أن حافظاً لم يكن مكثاراً في نظمه فكان لا يقول القصيدة الا اذا دعاه اليها داع واجب التلبية فكانت قصائده متباعدة الآجال تطلع على الناس مثل ورد الربيع بنضارتها ومثل فيض النيل بجزالتها فلا تكاد تصدر عنه الا تتخطفها العيون والآذان وتحتويها العقول والأذهان .

قصائده الشرد السائرا ت لايختصصن من الأرض دارا
اذا هن فارقن مقوله وثبن الجبال وخضن البحارا

وكم من شاعر كالسموأل احرز مكانة في الصف الأول بين الشعراء بقصيدة واحدة وشاعر بقي في غيابة الخمول وله مئات أو الوف من القصائد .

كثيرون من الشعراء سئموا الحياة وتكاليفها أو اناخ عليهم الدهر فتمنوا الموت ليخلصوا من آلام الحياة ولكن قليلون منهم وصفوا هذه الأمنية بمثل ما وصفها حافظ :

سلام على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر انساً ومغنما
أضرت به الأولى فهام بأختها وان ساءت الأخرى فويلاه منهما

فهي رياح الموت نكباء واطفئي سراج حياتي قبل أن يتحطما
فما عصمتني في زماني فضائلي ولكن رأيت الموت للحر أعصما
فيا قلب لا تجزع اذا عضك الأسى فانك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعي فلا سيل دمع تسكبين ولا دما
ويا يد ما كلفتك البسط مرة لذي منة أولى الجميل وانعما
فلله ما أحلاك في انمل الردى وان كنت أحلى في الطروس وأكرما
ويا قدمي ما سرت بي لمذلة ولم ترتقي الا الى العز سلما
فلا تبطئي سيراً الى الموت واعلمي بان كريم القوم من مات مكرما
ويا قبر لا تبخل برد تحية على صاحب وافى علينا وسلما

وهذا كلام يحلي مرارة الموت ويحرض النفس على اقتحام غمرته بالطمأنينة والحبور ·

وقع احتلال مصر منذ خمسين سنة فرافق حافظاً منذ كان صبياً الى أن أدركته المنية فقضى نحبه وفي نفسه غصة على حال قومه وبلاده اظهرها في كل قصيدة من قصائده · وقد جرت في زمانه جميع الحوادث الخطيرة التي صاحبت هذا الاحتلال وكانت سبباً لتوليد الروح الوطني وانبعاث الأماني القومية في ذلك القطر الشقيق ويسّرت مجالاً فسيحاً لشعراء وادي النيل ليثيروا باشعارهم النعرة الوطنية ويسكبوا على بزورها النامية قطرات الري والانعاش ويربوا في الناشئة المصرية هاتيك الروح الوثابة التي هي أساس نهضة الأقوام وعليها يتوقف استقلال الشعوب ·

نجد قصائد حافظ ملأى بنقد الحياة الاجتماعية في مصر خاصة وفي بلاد العرب عامة وفيها من الجرأة والصراحة بذكر الحقائق المؤلمة ما نبه القوم الى مواطن الضعف في نظامهم الاجتماعي وعدم كفاءته للثبات في هذا الكفاح العمراني الذي أوجبه تزاحم الشعوب الحديثة · فهبوا الى الدرس وتلافي النقائص الموجودة واصلاح الفاسد من مرافق حضارتهم وكان هذا التحريض عاملاً قوياً لتلك النهضة الجريئة التي دشنت مصر عهدها وسبقت بها غيرها من الأقطار الشرقية فكانت لها قائداً ودليلاً ·

انظروا الى مثال من مصارحته قومه منذ ثلاثين سنة بذكرهم بتقصيرهم في سباق الحياة ويحرضهم على النهوض ·

وهل في مصر مفخرة سوى الالقاب والرتب
وذي ارث يكاثرنا بمال غير مكتسب
وفي الرومي موعظة لشعب جد في اللعب
أروني بينكم رجلاً ركيناً واضع الحسب
أروني نصف مخترع أروني ربع محتسب
أروني نادياً حفلاً باهل الفضل والأدب
وماذا في مدارسكم من التعليم والكتب
وماذا في معابدكم من التبيان والخطب
وماذا في صحائفكم سوى التمويه والكذب
فهبوا من مراقدكم فان الوقت من ذهب
وهذي أمة اليابان جازت دارة الشهب
فهامت بالعلى شغفاً وهمنا بابنة العنب

فهو قد صدق قومه حين كاشفهم بحقيقة حالهم والصديق من صدق لا من صدق ٠ رحم الله حافظاً ونفع قومه العرب بأدبه العالي وأخلاقه السامية ٠ وانظر الى قوله يصف حال مصر وحاله مع المحتلين ٠

فقد غدت مصر في حال اذا ذكرت جادت جفوني لهـا باللؤلؤ الرطب
كأنني عند ذكريه ما ألم بها قرم تردد بين الموت والهرب
اذا نطقت فقاع السجن متكأي وان سكت فان النفس لم تطب

وهذا عين ما يشعر به ولا يستطيع وصفه بمثل هذه الديباجة الرائعة كل من رأى في قومه ضيماً فهو يتردد بين الاقدام لدفعه فيسحقه كيد الظالمين أو السكوت على الأذى أو الاغماض على القذى فيبقى حليف الغصة وصريع الهموم ٠

بماذا يرثى حافظ وهو أمير الرثاء وها هي مراثيه للأفذاذ الذين خلدهم بآيات رثائه المثل الأعلى في الاعجاز والابداع ٠ حتى ان أمير الشعراء تمنى هذه الأمنية في مطلع قصيدته التي رثى بها حافظاً حيث قال :

قد كنت أوثر ان تقول رثائي يا منصف الموتى من الاحياء

ولست أجد للقول في رثاء حافظ وأصدق عليه وأحق به مما قاله هو نفسه في رثاء الشاعر الكبير محمود سامي باشا البارودي :

لبيك يا مؤنس الموتى وموحشنا يا فارس الشعر والابداع والجود
لبيك يا شاعراً ضن الزمان به على النهى والقوافي والأناشيد
تجري السلاسة في اثناء منطقه تحت الفصاحة جرى الماء في العود
في كل بيت له ماء يرف به يغار من ذكره ماء العناقيد
لو حنطوك بشعر أنت قائله غنيت عن نفحات المسك والعود
لو أنصفوا أودعوه جوف لؤلؤة من كان حكمته لا جوف أخدود
وكفنوه بدرج من صحائفه أو واضح من قميص الصبح مقدود
وأنزلوه بأفق من مطالعه فوق الكواكب لا تحت الجلاميد
وناشدوا الشمس ان تنعي مناقبه للشرق والغرب والأمصار والبيد

———

﴿ حياة حافظ ابراهيم ﴾

« للاستاذ محمد بك كرد علي »

ولد حافظ ابراهيم في اليوم الرابع من شهر شباط سنة ١٨٧١ في مدينة الاسكندرية وكان والده مدير شرطة جرجا . فنشأ نشأة ابناء الموظفين ليصبح كأبيه موظفاً . وبعد ان انجز دروسه الابتدائية والثانوية في المدارس الاميرية . دخل المدرسة الحربية وخرج منها برتبة ملازم ثان في المدفعية فأرسل الى السودان في خدمة الجيش المصري .

وفي السودان تجلى استعداده للشعر ، وكان ينظمه وهو يافع للتسلية والتحلية . وعرف بين اقرانه بشدة عارضته ، وقوة حجته ، فكانوا ينتدبونه اذا حزبهم حازب للدفاع عنهم في المحاكم العسكرية ، فيربح القضايا ببلاغته وحضور ذهنه . ولذلك عدوه الصدر المقدم فيهم على صغر سنه ، لما أوتيه من خفة الروح ، وجميل النادرة ، ولعطفه على لداته ، ولما خص به من الفصاحة التي لم يكتب مثلها لاحدهم .

ووقعت في السودان مؤامرة اوشبه مؤامرة في الجيش ، فكان حافظ في جملة من اتهموا بتدبيرها ، لانه كان كبش الكتيبة ، فسرّح مع من سرح من الخدمة ، وعاد الى مسقط رأسه ، آسفاً للظلم الذي ناله فأضاع مستقبله ، فرحاً بانقاذه من عيش قاسى فيه الامرّين في بلاد الزنوج من غطرسة بعض ضباط البريطانيين ، وبرئ بعد حين مما اتهم به بتوسط كبير من أحبابه ، ومنح رتبة رئيس ، ثم دخل الشرطة سلك أبيه فعزفت نفسه عنها ، ولم يلبث ان غادرها لعدم ملاءمتها لنوازع نفسه .

ولقد اورثته التربية العسكرية مضاء وحزماً وسلطاناً على النفوس ، وكان مما خص به جهارة الصوت ، كأنه قائد يأمر جنده وقت التعبية والمصاف ، وكأنه الآمر الاكبر يملي ارادته على مأموريه ، ولكن بلطف شاعر ، لا بعنف آمر . واجتمعت له رفاعة الصوت الى جمال الالقاء ، فكان تأثيره عظيماً في يوم الحفل اذا انشد . وظل حافظ منذ خرج من

الخدمة في سنة ١٩٠١ الى ان عين رئيساً للقسم الادبي في دار الكتب المصرية سنة ١٩١١ يتوفر على حرس حقل الادب يزرعه ويجنيه ، ومجبراه مطالعة (كليلة ودمنة) و (العقد الفريد) و(الاغاني) يقرأوها ثم يقرأوها ثم يقرأوها ، حتى هضم مافيها وتمثله وتصفح دواوين الشعر واختار بيتاً فذاً لكل شاعر أصاب معنىً شريفاً .

وساعده الطالع فاتصل منذ كان في السودان بصلة النسبة الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وكان شكا اليه بالمراسلة بثه وحزنه ، ومايلقاه من جور الدهر ، ولما عاد الى مصر التقى مفتي الديار المصرية في روعه من جميل حكمته ، ومحكم تجاربه مااستعدت به نفس الشاعر الى الانتقال الى طور آخر في الشعر يجرده من اوضاعه القديمة ، ويكسوه ثوباً قشيباً ، ويكسره على المطالب الوطنية العالية ، يضرب فيه على العرق الحساس في الناس ، وكانت نفوسهم سئمت مارأت من ابتذال الشعر في الغزل والمديح وماإليهما ، وهي الى بضاعة جديدة أشوق ما كانت منها الى أطمار بالية .

وكان الرعيل الصالح الذي يلتف حول الاستاذ الامام صفوة أئمة الثقافة العالية في عصره وكلهم ممن بلغ في العلم والأدب أطوريه كحفني بك ناصيف والشيخ سيد المرصفي من رجال الأدب القديم ، ومحمود سامي باشا البارودي واسماعيل باشا صبري من مجددي الشعر الحديث ، وابراهيم بك المويلحي وابنه محمد بك المويلحي من الكتاب المجودين الى عشرات أمثالهم من الأدباء والعلماء والقضاة والاجتماعيين والسياسيين أمثال قاسم بك امين واحمد فتحي زغلول باشا وسعد زغلول باشا وحسن عاصم باشا واحمد حشمت باشا واحمد تيمور باشا في نفر من أساتيذ المدارس العالية ولاسيما جماعة دار العلوم . وكلهم كما قال حافظ في الاستاذ المفتي (يعرف سر الكلام ومقدار كد الافهام) هؤلاء كانوا لحافظ عشراء ومعلمين وموحين ومنشطين ، وهم من قادة الأفكار في الأمة المصرية ، اما ناشئتها المنورة فما ينقضي عجبها من شعر حافظ كلما رأته موضع إعجاب أولئك الاعلام .

وبدأت شهرة حافظ تعظم بين المصريين لان نفسه كانت تألم للظلم حلّ به أم بغيره ، يحس مطالب الشعب ، لأنه يعيش بين ظهريه ، ويستمع لشكواه وبلواه ، وما فتئ منذ تطوع في خدمته ، ينطق بمايفرج عنه كربته ، ويدعوه الى النهوض ، ويشحذ منه العزائم ، يربده عن اطراح سفساف الأمور ، والتذرع بما يبقي عليه ثروته ، ويعيد اليه مجده ،

ليستوي شعباً فاضلاً في المدينة الفاضلة . وكان من يشعر شعور حافظ من الشعراء قبل نبوغه قد يقع لأحدهم البيتان والثلاثة فيمعنى الاصلاح أوالشكوى . اما الشاعر المجدد فأنشأ ينشيء القصائد تلو القصائد .

وكان العقد الذي مضى بين خروجه من الخدمة الى ان عاد اليها (١٩٠١ — ١٩١١) من أخصب ايام شاعرنا انطلاق يتفنن في النظم على وجوه جديدة في أبواب الاجتماع والسياسة ، ومصر بل كل مصر لاتعدم الحين بعد الحين نهزة حوادث تفتق لسان الابكم بالكلام ، فكيف برب البلاغة والفصاحة ، يضاف ذلك الى ما في تلك البيئة الغنية من العظات، ومالذلك البلد الطيب الذاهب بفضل السبق بين الاقطار العربية من الموقع الجغرافي المتوسط بين المشرق والمغرب .

عبر كلها الليالي ولكن اين من يفتح الكتاب ويقرا

وكانت الأمة المصرية في تلك الحقبة من الزمن تشتد في بلوغ هدفها الاسمى في الاستقلال ، وتقوى كل يوم في بنيها الدعوة الى الوطنية والقومية ، وكان عهد استمتاعها بحريتها في القول والعمل على صورة ماعهدت مثلها في تاريخها ، فكان للشاعر من مطالب أمته موضوع جذاب متسع الاطراف ، اتساع أفق الشاعر الذي توفر على الزهد في موضوعات الشعر القديم، خصوصاً وهو بمأمن ممايعبث بالحرية المدنية والوجدانية ينعم بنعمة حرية القلم واللسان .

وما اقترب مترجمنا من ارباب المقامات العالية الا بالقدر الذي لا يجرح فيه نفسه ، مجتزئاً بما يغنيه عن الفناء فيمن هواهم في الحقيقة الاحتفاظ بسلطانهم ، ولا يرضون عن الشعراء والكتاب الا اذا باعوا منهم الاستقلال الفكري بشيء من حطام الدنيا ومظاهرها الخلابة . ومن كانت الأمة تصفق له، وعلى رأسها اولئك السادة يناضلون عنه ، لتفرسهم فيه الخير، يستوي عنده رضا الكبراء وغضبهم . فحافظ اذاً هو وليد النهضة الاخيرة ولسانها الجريء ، ارتبطت مصلحته بمصلحة الأمة منذ عاهد ربة الشعر على الوفاء لها ، فاصبح شاعر مصر الاجتماعي والوطني غير مدافع ، لاينتج الا للادب ، ولغة العرب .

سئل المرحوم اسمعيل صبري باشا شيخ شعراء مصر عن الثلاثة المبرزين من شعراء القطر (شوقي وحافظ ومطران) فقال (شوقي ينظم ، وحافظ يبني، ومطران يبتدع) هذا حكمه

عليهم وهم في الكهولة ، فاي حكم يصدر ياترى وهم في سن الكمال ، يبدعون هذا الابداع ويعيدون بصنيعهم الى شعرنا ما كان له من اشراق الجزالة في القرن الرابع بالبحتري والرضي وابي الطيب وابي تمام .

نعم ان حافظاً في الشعر بناء واي بناء ، ماعهد عصرنا شاعراً يصقل شعره كصقله قبل ان يخرجه للناس ، ولا كاتباً يطيل النظر في كلامه إطالته ، ولا اديباً اروى منه للاشعار والاخبار ، يسقط على مناجم الأدب فيستخرج منها كنوزها الدفينة . هو بناء مُقدّر يتعذر على احذق النقاد ان يتبين الخلل في تضاعيف نسجه ، يصور فيه حالة عصره وروح اهله وعشيرته ، ويسرهم وعسرهم ، وما ديوان شعره على اختصاره الا صورة ظاهرة للوقائع التي شغلت قلوب اهل جيله وقبيله . وليس في ايقاع ما يوقع على قيثارته من قوافيه وضروبه الا ما يفعل في الارواح ، فتترنح له الاشباح غير متمهلة ، يشدو به وينوح ، ويطرب ويعجب ، ويهز به اوتار القلوب .

ما استفاضت شهرة حافظ الاسيره بشعره مع حاجة العصر ، فأثر به هذا التأثير القليل النظير ، واحتظى به هذه الحظوة عند العرب كافة . بيد انه حاول ان تكون له مثل هذه المنزلة في النثر فكتب كتاب ليالي سطيح وعرّب البؤساء لهوغو وخرج بهما بعد اكراه السليقة مستقيمين له كما أراد لا كما يُراد . اخطأهما التوفيق الذي كان يتوقعه من نشرهما ، وجاءت عليهما مسحة من التعمل ، وهذا ماعافه الناس بعد ان ابتلوا قروناً بقراءة دواوين المتكلفين من الناثرين والناظمين . اما كتابه الموجز في علم الاقتصاد الذي نقله الى العربية مع صديقه خليل مطران بك فكان من اجمل مانقله الناقلون في العهد الاخير .

واذا كان حافظ قد تخطاه الحظ في منثوره على الجملة ، فذلك لأن من الموضوعات ماتشتد حاجته الى سلاسة في التقرير وسلامة فن التعبير ، اكثر من رصف الألفاظ واحكام الجمل . فمن ثم كان حافظ في نثره نحاتاً باهراً لا بناء ماهراً ، ما كتب له على متانته في أجزاء بنائه ان يورث النفوس روعة اذا نظر اليه بمجموعه . والروعة في المبنى تنبعث من روح الباني ولا تتأتى بتعمل واجهاد ، والبلاغة في الاسلوب اكثر ما هي في القوالب وما تعطيه من المعاني .

ولئن عصى بيان حافظ على التبريز في النثر ، فقد كان مطواعاً له اذا حدث وحاضر ،

كان يسحر الطبقات المختلفة بما يورد عليهم من احاديثه ومروياته ، ويسقيهم من معين محفوظه الذي لا ينضب ، اعذب ماظفر به من كلام القدماء والمحدثين ، وكان بحضور ذهنه ، وغريب بديهته ، على مايندر في الادباء مثله ، يتنادر بكل ذلك بحسب المجالس التي يصير اليها ، رصيناً في الفاظه ومعانيه ، بارعاً في مختاراته ، يردفها ابداً بما يوائمها من حاضر الوقت ، يطرب بها نفس الفرح والمكتئب ، ويود جليسه لو طال مكثه في حضرته يتغنى كالبلبل الغريد ، وقل جداً في كبار الكتاب والشعراء من حيز لهم بيان اللسان كحافظ ، اللهم الا ان كان مايروى من احاديث اناتول فرانس كاتب فرنسا الاكبر الذي سارت بقصصه وافاكيهه الركبان ، واعجبت بمجالسه الرجال والنسوان .

اطلع حافظ على شعر الافرنج بقدر ماواتته ملكته من اللغة الافرنجية ، اطل منها على ادبهم اطلال متالسة . اما وقوفه على شعر العرب فهناك الامتاع ، وهناك الابداع . وفي الحق انا لانعرف في هذا العصر اديباً عربياً جزل قسطه من جيد المحفوظ كما جزل قسط حافظ من استظهار ادب العرب ، ولاغرو فهو حافظ الادب ، ولكل اسم من مسماه نصيب .

كان حافظ يتبسط في احاديثه مع جلسائه ، يلقي على مسامعهم من كل صنف في ساعة ماتجمد حافظة غيره عن ايراده في ايام . يلعب بالعقول والقلوب حتى ينسي سامعيه كل مهم لهم . هو جد طروب ، جد لعوب ، لايحزن الالفقد حبيب ، ولذلك تراه قد جود من وراء الغاية في رثاء من رثاهم من معاصريه ، وهو لايتكلف الندب لانه خلق ممن يحب ويُحب . وقل ان تنقبض نفسه الا اذا حلت بامته كارثة فيكون في طليعة من يواسيها ، ولا تتهيأ له اسباب القول الا يوم تعرض للقوم كبريات المسائل فتستدعي اشتراكه بطبيعة الحال . وكان لكلامه ابداً موقع من القبول في القلوب ، لانه مؤمن حق الايمان بما يقول .

كان رحمه الله في الغاية من حسن الوفاء مع كل من عرفه ، يمثل منذ وعى على نفسه الاخلاق الفاضلة والتعاليم السامية ، وتتجلى فيه البطولة وقوة الارادة . ماعهدت فيه كزازة اليد ، ولا خطر بباله جمع المال ، فكان طول حياته كاسباً واهباً ، يسخو سخاء الاغنياء ، وهو في الواقع بائس مقتر عليه ، وربما اخرج من جيبه كل ما يملك من الدراهم فنزل عنه لطالب عطائه لا سيما اذا كان من المتأدبين ، يعطي وهو مغتبط لتلبية الطالب ،

وقيامه بالواجب ، وان اضطرته الحال بعد ساعة الى ان يقترض ديناراً ليطعم به .
كان حافظ لا يعرف الرياء والمصانعة والدس ، كذلك كان وهو يشكو بؤسه ، وكذلك كان وهو عامل من عمال المعارف موسع عليه في الجملة ، وضعف جسمه فكان في اعوامه الاخيرة لا يعمل الا مضطراً ساعة من نهار ، اما فكره ففي شغل شاغل ابداً بايجاد اللفظ الانيق للمعنى البديع . وآضت به الحال بأخرة ان لا يختلف الى مقر عمله الا يوم قبض الراتب ثم يعود ادراجه . وكان لا يتأنق في لباسه ولكنه يتأنق كثيراً في طعامه وشرابه وتدخينه .

هذا ياسادتي حافظ وهذه سيرته وسيره وادبه . لاجرم انه رجل حس عال ، عاش في ألم وأمل . ألمه لما أصاب قومه من الانحطاط ، وأمله ان يرى العرب يقالون من جدهم العاثر ويستعيدون مجدهم الغابر ، وما اصطنع الشعر الافتنة بجماله ، فكان صناعة له استخدمها في أفضل المروآت ، وأنبل الغايات . هو غريب في بابه ، منقطع القرين بين أترابه . ما تهنأ الحياة كثيراً ، وما عرف سعادة البيوت ، وعطف البنين ، عاش للمجتمع ، وشقي ليسعد الناس وما خلف الا هذا الشعر الخالد ، الذي تفنى الايام ولا تبلى جدته ، وما أجدرنا أن نخاطبه وقد هدأ ذاك العصب الحساس ، وسكت ذاك الجرس الفاتن ، وهو رهين حفرته بقول أستاذه اسماعيل صبري في راحة القبر :

ان سئمت الحياة فارجع الى الار ض تنم آمناً من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ م التي خلفتك للأتعاب
لا تخف فالمات ليس بماح منك الا ما تشتكي من عذاب
كل ميت باق وان خالف العذ وان ما أنص في غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فان ما ت فقد عاد سالماً للتراب

﴿ حافظ ابراهيم واللغة العربية ﴾

« للاستاذ المغربي »

ليس إحتفال مجمعنا العلمي بتأبين (حافظ) وإكبارنا الفجيعة فيه لأنه كان صديقاً لنا : إذ ما كل صديق نحتفل بتأبينه — ولا لكونه شاعراً من شعراء أربعةٍ أو خمسةٍ تعقدُ البلاد العربيـة عليهم الخناصر — ولا لكونه كان نديماً ظريفاً . ولا أخبارياً محدِّثاً — بل ولا لكونه من أعضاء مجمعنا العلمي: إذ لم يأخذ المجمع على نفسه أن يحتفل بكل واحدٍ من أعضائه .

الفجيعة في حافظ أيهـا السادة هي فجيعة اللغة العربيـة فيه ولم ينشأ المجمع العلمي الا لخدمة هذه اللغة . والحرص على إرضائها: فاذا بكت اللغة بكى المجمع . واذا صاحت اللغة : واثكلاه واوحيداه صاح المجمع صياحها : واثكلاه واوحيده ! وهذه لغة الضاد في موت (حافظ) أقامت مأتماً عاماً شمل بلاد العرب كلها : من طنجة الى السليمانية : تبكي في مأتمها هذا حافظاً وتندبه .

(أبنان[1] يبكيه . وتبكي الضادُ من حلب الى الفيحـا الى صنعاء)

وان اجتماعنا هذا أيهـا السادة صورةٌ مصغرة للمأتم الكبير الذي أقامته اللغة لتأبين حافظ . وأقوالنا في هذه الحفلة انما هي صدى ندبها وعويلها :

(لقد[2] رزئت أمُّ اللغات وحيدها فان لم تكنه فالأب البرّ والجدا)

(مشت تتلوّى خلف نعشك كلما دعا باسمها الداعي أجدّ لها وجدا)

(فلما بلغتَ القبرَ خرّت لوجهها تضجّ وتشكو من تباريحها الجهدا)

حافظٌ أيها السادة هو الشاعرُ الشاعر . وهو فوق ذلك لُغويٌّ وأخباري .

---

(١) من مرثية احمد شوقي في حافظ .

(٢) من مرثية احمد محرم في حافظ .

أما كونه شاعراً فأمر لا يجهله أحد . ومن يجهل أن « حافظاً » كان اذا قال شعراً لا يلبث أن تتناقله الأفواه . وتتلمظ بحلاوته الشفاه ؟

شعرُ حافظ يمتزج بالعاطفة فيولّد فيها رقة الشعور . ويمتزج بالنفس فيولّد فيها ذوق اللغة . ويمتزج باللسان . فيغرس فيه ملكة الفصاحة .

مدارسة كتب الأدب . واستظهارُ الفصيح من نوادر اللغـة لا يمنح النفسَ واللسان ملكة الفصاحة بقدر ما يمنحها شعرٌ كشعر حافظ : نقيُّ اللفظ منسجمُ الأسلوب مشرق الديباجة . يُعبر عن خوالج النفس الوطنية الثائرة فيحفزها نحو مطامحها العظمى . ويُنير أمامها الطريق الى مثلها الأعلى .

شعر حافظ كالمصباح يمشي نورُه بين أيدي أبناء أمته . فيهديهم الطريق . لا بعيداً عنهم يمشي وحده . ويتركهم في ظلمات لا يبصرون .

شعرٌ مثل شعر « حافظ » يحيي لغتنا . ويحقق قوميتنا . ويثبّت أقدامنا في أوطاننا .

كان (حافظٌ) رحمه الله يقول الشعر لخدمة أمته . لا لخدمةِ شهرته .

وإن فتىً عربياً أو فتاة عربية يحفظ من شعر حافظ قصيدة (غادة اليابان) أو قصيدة :

(خرج الغواني يحتجـ ـن وبت أرقب جمعهنه)

فتستفيد منها ملكةً في اللغة الفصحى . وحميةً في حبّ الوطن . أكثر من مئة قصيدةٍ غامضةِ المعنى . أعجميةِ الأسلوب .

ولولا أني أتكلم عن (حافظٍ) من ناحيته اللغوية لسردتُ لكم شواهد تؤيد ما ذكرت . على أن أحداً منكم قلما يجهل ذلك من أمره . ومعظمكم يستظهر الكثير الطيب من شعره .

* * *

نحن معشر العرب أصبحنا منذ سنين نهاجم في عقائدنا وفي تقاليدنا وسائر أوضاع اجتماعنا .

ولم تخلُ لغتنا المحبوبة من هذه المهاجمة العنيفة أيضاً : لم تخلُ من تنينٍ هائلٍ يواثبها . ويحاول القضاء عليها . ذلك التنينُ هو فكرةٌ مشؤومة ترمي الى إحياء اللغة العامية وإماتة اللغة الفصحى .

ها هي اللغـة العربية في حدود سنة (١٩٠٠) أي منذ ثلاثين سنة تقف على ضفاف النيل . شاحبة اللون . مرتجفة الأعضاء والهةً ذاهلة : تندب نفسها . وتشكو مصابها :

(يا ويح أهليَ أبلى تحت أعينهم على الفراش ولا يدرون مادائي)

داؤها أيها السادة هو ما خامر نفوس أبنـائها من زهدهم فيها . وانصرافهم عنهـا الى غيرها من اللغات الأجنبية . والى نصرة الفكرة المشؤومة : فكرة إحياء اللغة العامية . تلك الفكرة الممثلة في أحد دهاة الانكليز (المستروبلور) .

هبط (المستروبلور) مصر في ذلك الحين . وقام بدعاية واسعة النطاق للغة العامية المصرية . وخطب في الموضوع وكتب . وحاور وناظر . وألف كتاباً نشـره على المصريين . يدعوهم الى فكرته . ويقنعهم بصحة نظريته .

ومما يؤسف له أيها السادة أن يجد (ويلور) أنصاراً له من الشعوبيين . شايعوه على رأيه . وأقاموا ضجةً في القطر المصري اهتزت لها البلاد العربية قاطبة . وكادت تكون لويلور ولأشياعه الغلبة لولم تصدمهم نهضةُ حُماة اللغةالفصحى .وفي طليعتهم فقيدنابالأمس (حافظ ابراهيم) فيرفع صوته في وسط تلك الضجة . منشداً قصيدته الخالدة . على لسان اللغة الفصحى : تخاطب أبناءها وتسألهم أغاثتها . فتقول :

(أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ينادي بوأدي في ربيع حياتي)
(ولو تزجرون الطير يوماً علمتمو بما تحته من فرقةٍ وشتات)

ثم تلوم الصحف على خوضها في هذا الموضوع فتقول :

(أرى كل يوم في الجرائد مزلقاً من القبر يدنيني بغير أناة)
(وأسمع للكتاب في مصر ضجةً فأعلم أن الصائحين نُعاتي)

ثم تحضهم على الأخذ بالحزم في دفع الضرر عنها :

(فياويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم اذا عزَّ الدواء أُساتي)
(فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي)

ثم ذكرتهم بجدودهم أبطال الجزيرة الذين كانوا يغارون عليها :

(سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً يعزُّ عليها أن تلين قنـاتي)
(حفظن ودادي في البلى وحفظته لهنَّ بقلبٍ دائم الحسرات)

وعاتبتهم على ميلهم الى اللغة العامية الممزوجة بالألفاظ الافرنجيه .

(أيهجرني قومي عفا الله عنهمو الى لغـةٍ لم تتصل برواةِ)

(سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى لعابُ الأفاعي في مَسيل فرات)
(فجاءت كثوب ضم سبعين رقعةً مشكلة الألوان مختلفات)

وعادت اللغة الفصحى الى وصف مزاياها والتساؤل لماذا عقَّها بنوها · وهي لم تقصر في خدمة دينهم وحضارتهم · فقالت :

(وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً وما ضقتُ عن آيٍ به وعظاتِ)
(فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ وتنسيق أسماء لمخترعات)
(أنا البحرُ في أحشائه الدرّ كامنٌ فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي)

ثم عيرت أبناءها بالغربيين الذين عزّوا لما عزّت لغاتهم فقالت :

(أرى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً وكم عزّ أقوامٌ بعزِّ لغاتِ)
(أتوا أهلهم بالمعجزات تفنّناً فياليتكم تأتون بالكلماتِ)

ثم ختمت شكواها بتقديم إنذارٍ مخيف الى الكتّاب الحسني الظن بلغات الافرنج وآداب الافرنج · فقالت :

(الى معشر الكتّاب والجمع حافلٌ بسطت رجائي بعد بسطِ شكاتي)
(فإما حياةٌ تبعثُ الميتَ في البلى وتُنبتُ في تلك الرموس رُفاتي)
(وإما مماتٌ لا قيامة بعده مماتٌ لعمريــه لم يُقس بمماتِ)

كانت هذه القصيدة من شعر (حافظ) من أمضى الأسلحة التي شُهرت في وجه (المستر ويلمور) فأخفقت دعوته · وطويت رايته · ونكص على عقبيه الى بلاده ·

وكأن أمير الشعراء (احمد شوقي بك) يُشير الى هذا الموقف المحمود الذي وقفه (حافظ) في وجه دعوة (ويلمور) فقال في رثائه له :

(يا حافظَ الفصحى وحارسَ مجدها وإمام من نَجلت من البلغاء)
(ما زلتَ تهتفُ بالفصيح وفضله حتى حميتَ أمانة القدماء)

وكما حنقَ (حافظ) على (ويلمور) حنق أيضاً على المستر (بلنت) الانكليزي الذي اشتهر في الدفاع عن القضية المصرية ضدّ قومه الانكليز : فان هذا المستر كان يرفع من شأن القصص العربية السخيفة العبارة ويقول عن قصة (بني هلال) انها نوع من القصص المسمى (إپيك) وانها إلياذةٌ عربيةٌ صغيرة ·

فما كان قوله هذا لِيَسُرَّ (حافظاً) بل كان يحسبه خدعةً ودعوةً الى اللغة العامية ·

***

ثم إن فوز (حافظ) في هذه المعارك نشّطه الى متابعة العمل في نصرة اللغة · فاستمرّ يُحيي فصيحها · ويَنثر الدرّ من كلمها الى آخر نسمةٍ من حياته · بل كان في مجالسه · وبين طلاب الأدب المطيفين به — كأنه (استاذٌ سيّار) يصحح أغلاطهم · ويرشدهم الى الفصيح من القول · والصحيح من الأساليب :

قال الدكتور (زكي مبارك) ما ملخصه :

استنشدني (حافظٌ) يوماً شيئاً من شعري فأنشدته قولي :

(يا من يَعِزُّ علينا أن نجازيهم   صدًّا بصدٍّ وإغضاءً باغضاء)

ونطقتُ (يعِزّ) بكسر العين فقال (حافظٌ) يظهر يا مبارك أنه يحسن أن تقول (يَعَزّ) بفتح العين لأن (يَعزّ) هنا بمعنى (يَشقّ) لا بمعنى (صار عزيزاً) حتى تكسر العين ومع هذا أرجوك أن تراجع القاموس · قال فراجعته فوجدته يقول بجواز الوجهين: الكسر كما قلت أنا · والفتح كما قال حافظ · قال الدكتور : ومع هذا فقد استفدتُ من حافظٍ فائدتين : (١) اللطف في تصحيح أغلاطِ الإخوان · و (٢) الشعور بقيمة الدقةِ في نطق كلمات اللغة : إذ كان من رأي حافظٍ أن نخصّ (يَعَزّ) المفتوح العين لمعنى يشقّ والمكسور العين لمعنى صار عزيزاً ·

***

ولا يخفى عليكم أيها السادة أن المجامع العلمية اللغوية إذا كانت إنما أُنشئت لغرض حماية لغة الوطن — فأن (حافظ ابراهيم) عضو من أعضاء مجامعنا اللغوية بفطرته · وبنابل من غيرته على لغته ·

قال الدكتور (حسين هيكل) « إن لحافظ ميلاً شديداً الى أن يظهر اللغة العربية في كمال قوتها · وأنها تضاهي أحدث اللغات صقلاً وحياة · وهو يهزأ بالمزاعم التي كانت توجه اليها من أنها لغة قديمة عاجزة عن ان تجاري الحياة الحديثة اه) ·

وقال الشيخ عبد العزيز البشري في مرآته :

(ولا ننس لحافظٍ يداً جليلةً على اللغة العربية : فلقد طالما استخرج من تجاليد اللغةِ

صيغًا طريفةً بليغةً أدت كثيراً من المعاني التي تحرك في أنفس الناس • وبعي أداؤها على الاقلام) •

* * *

أما مقدرة (حافظ) اللغوية العملية فتجلى لنا في الالفاظ الفصيحة التي كان يودعها قصائده ومصنفاته • وقد شهد له بهذه المقدرة (الشيخ ابراهيم اليازجي) : فقد كان يستجيد ذوق حافظ في اللغة • واختيار فصيح كلماتها •

وقال الشيخ عبد العزيز البشري ايضاً :

« إن (حافظاً) لا يرى جلال الشعر وبهاءه في التعلق بدقائق المعاني : لأن هذه المعاني تقع للدهماء والعامة • وانما جلال الشعر وبهاؤه في إشراق الديباجة • ونصاعة القول » •

وقال خليل بك مطران :

« لحافظ غرام باللفظ لا يقلُّ عن الغرام بالمعنى : وهو يؤثر البيت الذي جاد لفظه على البيت الذي جاد معناه • فاذا فاته الابتكار في تصور المعنى • لا يفوته الابتكار في تصويره باجزل الألفاظ • وأبلغ الأساليب » •

إذن يمكننا القول بان (حافظاً) كان لغوياً من الوجهة العملية التطبيقية كما كان لغوياً من الوجهة العاطفية القومية •

* * *

وكثيرون من نقاد الأدب المعاصرين حمدوا الله على ان كان أسلوب (حافظ) في شعره • غير أسلوبه في نثره : فقد كان رحمه الله يتأنق في شعره مع مراعاة السهولة والسلاسة • أما في نثره فأمره على العكس : كان يتأنق فيه وينصب نفسه في انتقاء كلماته • لكنه لم يوفق الى جعله سهلاً سلساً • فلم يعد نثره مقبولاً الا لدى الخاصة وجهابذة الأدب •

على أن بعضهم مهّد لحافظ طريق العذر : كالدكتور لطفي جمعة فانه قال :

« ان (حافظاً) على كلٍ قد أحسن الى قراء العربية وكتابها : وذلك لأنه أنعش أسلوب الكتابة • وحفز الهمم للبحث عن الألفاظ الجزلة • وأثر في كتابة الصحف أثراً نافعاً » •

ثم إن عناية (حافظ) باستعمال غريب اللغة كان على أشده في ترجمة (البؤساء) فلم يُرض ذلك أنصار الأدب الحديث . وإنما أرضى أنصار الأدب القديم كالشيخ محمد عبده فانه رحمه الله كان يُعجَب بكتابة حافظ وما تضمنته من الألفاظ الجزلة وكان يقول : « ان كان بؤس حافظ هو الذي أدى الى استخراج كتاب (البؤساء) فندعو الله أن يزيده بؤساً حتى يزيدنا من هذا الأدب الجميل » .

* * *

ولا غرو أن يرحب مجمعنا العلمي بنثر (حافظ) كما رحب به الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . لأننا معشر أعضاء المجمع أول ما يهمنا من الآثار الأدبية ان تكون لغتها صحيحةً . وأن تستوعب من روائع كلمات اللغة ما كاد يميته الجهل . ويطمس عليه شيطان الشعوبية .

واللغات أيها السادة ! كما تنمو باضافة كلمات أجنبية اليها تنمو باحياء القديم الفصيح من كلماتها .

وقد تفطّن (حافظ) الى هذا فأودع مصنفاته الكثير الطيب من تلك الكلمات .

فكتابه (الاقتصاد السياسي) ألّفه أو ترجمه (مع صديقه خليل بك مطران) ليثقف الطلاب على هذا العلم . ويقرر لهم قواعده . لكنه أودعه من (الألفاظ الكتابية) ما جعله كتاب أدب ولغة . أكثر مما هو كتاب علم واقتصاد .

وكذلك شأنه في كتابه (سطيح) الذي نقد فيه أحوال المصريين وأفرغ حوادثه في قالب قصة نسب روايتها الى من سماه (سطيحاً) . فالكتاب إذن رواية قصصية وكان ينبغي ان تستجمع شرائط القصة وليس من شرائطها أن تكون بهذه الأساليب الفخمة . وأن تحتوي هذا القدر من الألفاظ الجزلة .

وهذا كتابه (البؤساء) الذي نقل فيه الى العربية بؤساء (ڤيكتور هيكو) . وڤيكتور هيكو جعل أبطال بؤسائه من طبقات مختلفة . وجعل كل بطل منهم يتكلم باللهجة التي اعتاد نها طبقته . فالسوقي العامي مثلاً لا يتكلم بلغة العالم الأديب . ولا العكس . وطريقة (هيكو) هذه مطابقة للمبدإ الذي قرّره أديب العرب الأكبر (الجاحظ) في كتابه الحيوان : من أن الواجب في نقل عبارات السوقة وألفاظ العامة أن تُروى كما هي

أي مغلوطة المحونة والا ذهب رونقها وضعف تأثيرها .

وشاعرنا (حافظ) رحمه الله كان كلفه بفصيح اللغة وجزل ألفاظها يحمله على أن يترجم كلام السوقة من أبطال البؤساء بعبارة فخمة الألفاظ لا ينطق بها عادة الا الفصحاء .

فالبناء الذي يبني رصيف الشارع اذا أراد أن يتكلم هل ينطق بكلمات (تياسن ثم تياسر) و (ركب المحجة) و (ما أخلقك يا فلان بكذا) . هكذا (حافظ) ترجم لنا كلام البناء الافرنسي .

ووصف لنا فرساً بأنه (سحير . عطلب . أهنع . أدك . مفتوح اللبان) و (فلان لبث معلقاً بخيط من الأجل تحت شقي مقص الفناء) .

وكذلك استعمل كلمة (أفجر) بمعنى أدركه الفجر و (بسل) بمعنى حرام و (انتعل أديم الأرض) أي سار بلا حذاء . و (تنابل تنابل) بمعنى جماعات جماعات . الى غير ذلك مما حمله ولوعه به على استعماله في غير مواطنه . مواطن هذه الكلمات كتب الأدب و (المقامات) . لا القصص والروايات . فحافظ بهذا الاعتبار خليق لغوياً كاتباً . بل كاتباً مقاماتياً قديماً . لا كاتباً روائياً حديثاً .

أما هو في الشعر فعلى العكس : اذ كان لا يستعمل غريب اللغة بكثرة تدل على شرهه وحرصه . فمن ثم لم يكن لغوياً في شعره . كما كان لغوياً في نثره .

ولكن هذا الشره الى غريب اللغة في النثر إن كان ساء أقواماً فإنه لم يكن ليسوء مجمعنا العلمي الذي يحرص على أن تحيى اللغة العربية بإحياء الفصيح من كلماتها . والقديم الرائع من تعابيرها .

لذلك كانت فجيعة المجامع اللغوية بحافظ من جهة لغته ونثره . تعادل بل تفوق فجيعة الأمة العربية به من جهة نظمه وشعره .

* * *

وصفنا لكم أيها السادة (حافظاً) العضو في مجامع اللغة والأدب أما (حافظ) العضو في مجالس الأنس والطرب فاليكم طرفاً مما يتسع له المقام :

يظهر أن أهل (حافظ) تنبأوا يوم ولادته بأن سيكون مولودهم كثير الحفظ لأخبار العرب وأشعارهم ومستملح نوادرهم فسموه (حافظاً) .

روى أصدقاء (حافظ) أنه كان يعمل على وضع مصنف في الرقص من شعر العرب : يختار فيه لكل شاعر بيتاً من أروع أبياته وقد جمع مواد ذلك الكتاب ، حتى بلغ نصفه ، فاختار لبعض الشعراء مثلاً قوله :

(ولا بدّ لي من جهلةٍ في وصاله فهل من كريم أودع الحلم عنده)

واختار لغيره غيره وهكذا .

وان اتساع (حافظٍ) في حفظ بليغ أشعار العرب على هذه الصورة أثر فيه ذوقاً في اللغة العربية ، فكان أنقى الشعراء المعاصرين عبارة ، وأصحهم تركيباً ، وأكثرهم تدقيقاً في اختيارِ الفصيح الرائع من الألفاظ .

وليس هذا فقط بل إن حفظه لأخبار العرب جعله نديماً ظريفاً : غير مملول المجلس ، ولا مأجوم الحديث .

وقد استحسن الدكتور (زكي مبارك) ان نطلق على (حافظٍ) ومن كان على شاكلته من حفّاظ أخبار العرب — كلمة (محدّث) قال : وهو الذي يسميه الافرنسيون (Causeur) وأنا لا أوافق الدكتور على ما قال : لأن لقب (المحدث) غلب في لغة الاسلام على راوي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وان في آدابنا العربية كلمة أخرى أحق بالقبول وأجدر وهي كلمة (أخباري) نسبة الى التبحر في الأخبار ، والاتساع في الرواية .

وقد كان (الجاحظ) أكبر (أخباري) قام في الاسلام ، وبعده المسعودي والمحسّن التنوخي صاحب نشوار المحاضرة وغيرهم كثيرون .

وسمّى (الجاحظ) هذا العلم (علم الخبر) وأثر عنه أنه قال (علم الخبرِ هو علم الملوك) ، وعلى هذا يمكننا أن نقول : إن حافظاً كان أكبر المعاصرين في (علم الملوك) عندنا ، كما كان (أناتول فرانس) أكبر أستاذ في هذا العلم عند الافرنسيين .

وكان (حافظ) رحمه الله يعرف من نفسه التفوّق في هذا العلم : استأذن يوماً على المغفور له (سعد زغلول) وكتب اليه هذين البيتين :

(قل للرئيس جزاه الله صالحة بأن شاعره بالباب ينتظر)

(إن شاء حدّثه أو شاء أتحفه بكلّ نادرةٍ تُروى وتُبتكر)

وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظٍ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه

في زيارته الأخيرة لبلدهم — أنه أبرع أخباريٍّ وأظرفُ نديم عرفوه في حياتهم .

ولولا وقارُ (مأتم التأبين) لروينا لحضراتكم شيئاً من مُلحه الأدبية مما يدلُّ على شدّة ذكائه . وقوة حفظه .

* * *

على أنني مهما أغفلتُ ذكر خبرٍ من أخبار حفظه . لا أحب أن يفوتني ذكر خبرٍ مستغربٍ اتفق له مرة في نسيانه :

ذلك أنّ (حافظاً) يحفظ أخبار الأولين والآخرين ويروي ما يحفظه بكل دقةٍ وتثبُّت . ولكنه مع هذا ذَهِلَ مرةً عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي اسماعيل ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ثم صار قصراً لآل لطف الله — فروى لنا (حافظ) أن هذا القصر أصبح (بستان حيوان) . وذلك قوله من قصيدة[1] وصف فيها ذلك القصر :

(كنت بالأمس جَنّة الحوريا قصـ ـر فأصبحت جَنّة الحيوان)

مع أنّ الذي تحوّل الى (جنة حيوان) انما هو (قصر الجيزة) لا (قصر الجزيرة) .

ولعمري إنّ نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراته . وطالما لمحهما في غدواته وروحاته — أمرٌ مستغربٌ جداً نرويه في غرائب أخباره بعد مماته . كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياته .

وهذا النسيان من (حافظٍ) يُشبه ما روي عن الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده أنه استأذن يوماً على بعض إخوانه . فسأله الحاجب عن اسمه . فأطرق يتذكر .

رحم الله (الشيخ عبده) ورحم (حافظاً) . وهل ترون الزمان . أيها الإخوان . يُخلِف علينا مثلهما في العلماء والشعراء ؟ إنْ فعل نكن حقاً من السعداء .



(١) هذه القصيدة منشورة في ديوان حافظ المطبوع سنة (١٩٠٧) ولم أجدها في ديوانه الذي طبع سنة (١٩٢٢) .

قصيدة الاستاذ شفيق بك جبري

ستون عاماً على كره تعانيها ... هدأت عنها ولم تهدأ لياليها
ما زلت منها على يأس تغالبه ... حتى طواك على الأشجان طاويها
فاطرح شدائدها عن كاهل هدمت ... من جانبيه ولم تهدم عواديها
ياوقفة لك في افيائها انحدرت ... عنك العواطف مغنيها ومشجيها(١)
ناجيت فيها صباً ولت نواعمه ... بدلت شيخوخة منه تناجيها
فتوة ملئت بؤساً نضارتها ... وكبرة أفعمت سقماً حواشيها
أهبت بالموت من سقم ومن شجن ... كأنما الموت آمال تناغيها
فتم دنيناً فلا جسم تراوحه ... تلك الشجون ولا نفس تغاديها

* * *

غنت قوافيك بالاحزان مائجة ... تكاد تنطق عن بؤس اغانيها
على قريضك من أناتها أثر ... اراه يفصح عن اقصى مراميها
مافي اغاريدها ان ناح ناعمها ... الا تهاويل من شكوى تزجيها
تجهمتك الليالي في تصرفها ... ففاض شعرك في الافاق تأويها
فما تمليت في يوم مضاحكها ... ولا تملت الا في مباكيها
أمعنت في طلب الدنيا فما ابتسمت ... لك الحياة ولا هشت امانيها
سعت بك القدم المشؤم طالعها ... فلم تؤد الى نجح مساعيها
على نعالك من تربتها دفع ... من نافئ السم لم تنشف جواريها

---

(١) اشارة الى قوله رحمه الله :

وقد وقفت على الستين اسألها ... أسوفت أم اعدت حر اكفاني

حتى وددت لوان النفس عاد بها ... من قبل أن تسأم الاشجان باريها
أو كان في مسبح الحيتان مطرحها ... أو في مسارح من هلك مآويها
المانوية لم تعتق مذاهبها ... على قوافيك رسم من اماليها
لله شعرك كم هاجت هوائجه ... بفيقة في حواشي النفس تفنيها
قذفت منه على السودان طائفة ... صورت بلواك تصويراً يجليها
لو لحنوا البؤس في شعر نردده ... لكان بؤسك ألحانا نغنيها
ودعت دنياك توديعاً ترقرقه ... شكوى يذوب على الآلام شاكيها
فما لعينيك في لألائها انس ... وانما الأنس في أدجى دياجيها
كأنما قبرك المأنوس متسع ... لعيشك المر من جلى تقاسيها
العبقرية ما زالت معذبة ... في الشرق ما جمدت يوماً مآقيها

* * *

لكن نفسك لم تصرع جوانبها ... ظلماء من خيبة الآمال تبريها
هزأت بالعمر لم تعبأ بغمته ... وعشتها عيشة طلقاً نواحيها
داويت بالكأس آلام الحياة وهل ... بغير اشراقها قلب يداويها
لقيتها ضرة الاحزان زاكية ... غراسها مستطابات مجانيها
الكاس والطاس والصهباء ماثلة ... في شعرك الطلق تزهي في مزاهيها
شتت شمل الليالي في تناولها ... على رخيم من الأنغام تحييها
لئن نظرت الى الدنيا وبهجتها ... بمقلة ما رأت الا مساويها
لقد خلعت على الأحزان مشرقة ... من الحبور طوت من شجو شاجيها
وما الحياة اذا اسودت جوانبها ... وما الليالي اذا لم يصف صافيها
خير من العمر ممدوداً سرادقه ... على الأسى لحظة تحلو ثوانيها
لله مجلسك المحشوك كم طربت ... فيه القلوب وكم بشت بواكيها
فقد تكون حزين البال متعبه ... وقد تراك ضحوك العين ساجيها
تلك الأحاديث قد ذقنا حلاوتها ... في كل نادرة سحر يحليها

تزداد حسناً اذا ازدادت روايتها رقيقة سكبت من روح راويها

* * *

لكن روحك ان جدت وان هرلت لم تنس مصر ولم تهمل مغانيها
غنت بوادي الحمى في فجر نهضته وخاضت النهضة الحمراء واديها
قد كنت بلبلها الغريد هيجه غولٌ على مصر محتل روابيها
أحببت مصر وسارت في محبتها قصائد من عباب النيل ترويها
يجول فيها هوى الفسطاط مزدحماً على فؤادٍ عناه خطب أهليها
أيقظت منها غفاة في مضاجعهم والشعر يوقظ في الأقوام غافيها
كم أمة رسفت في القيد أطلقها من القيود فلم تملك نواصيها
أمضك الجرح في احشاء عترتها فكنت في شعرك الريان آسيها
اردتها حرة لا النير يثقلها اذا تهادت ولا الأصفاد توهيها
فما تخوفت الا لعب لاعبها ولا تخشيت الا لهو لاهيها
فكم بكيت على مصر وحاضرها وكم حنوت على مصر وباقيها
جادت لها عينك الريا محاجرها باللؤلؤ الرطب من حالٍ تعانيها
اذا سكت فلم تأمن هوادتها وان نطقت فلم تأمن منافيها
آسيتها يوم دنشواي وروعته يايوم دنشواي ما أبقى الأذى فيها
جلد وشنق وفي الامرين مهزلة تلك الجنايات باسم العدل جانيها
كشفت عنها غطاء كان يسترها حتى تمثل للعينين قاسيها
ضحوا بشعب بديلاً من قتيلهم تلك الجراحات لم تضمد دواميها
ويح الحضارة كم راقت ظواهرها هذي العيون وكم ساءت خوافيها
في طيها الموت خفاق سبائبه مكشوفة عن ضحاياه محاييها
ذئب تلفف في جلد الشياة وهل يخفي الذئاب طلاء في مغاطيها
خير من العلم جهل لا يشنعه عسف الشعوب وهزء من اضاحيها

* * *

ماكان شعرك الا وحي عاطفة ظل الجزيرة والاهرام موحيها
عليه من مصر الحمراء منزعة محبوكة الوشي مرصوص مبانيها
لئن جفت مصر ارض الشام واطرحت هوى العروبة كم انبت جافيها
صافحت جلق لم تنقض مواثقها على البعاد ولم تنكث اواخيها
فان بكتك على جرح تعالجه فقد رأتك على الاهرام تبكيها



خطاب قنصل مصر

« في حفلة تأبين حافظ »

ألقى سعادة قنصل مصر في بيروت في الحفلة التأبينية لشاعر النيل المرحوم حافظ بك ابراهيم الخطاب الآتي :

دولة رئيس الوزراء — سادتي

ليس هذا يوم مصر فقد قامت مصر بقسطها من واجب التأبين واحياء ذكرى الراحل العظيم ولم يبق فيها صغير ولا كبير الا اشترك بقلبه أو لسانه في تمجيد شاعر النيل بل شاعر الشرق المغفور له حافظ بك ابراهيم . وانما اليوم يومكم . يوم سوريا الخالدة ورجالها الأمجاد ، يوم حماة العربية لتمجيد ذكرى شاعر العربية . وعلم النهضة الفكرية . وحامل لواء الشعر في البلاد العربية ... اليوم يومكم فليس لي ان اطيل الكلام بينكم وقد وفى خطباؤكم المقام حقه فأجادوا وأبدعوا . وانما وقفت لاعبر لكم عن خالص شكري وتقديري لشعوركم واغتباطي لما تظهره سوريا دائماً نحو شقيقتها مصر من العطف والود والاخلاص . ويزيد اغتباطي وسروري ان هذه المظاهرة لا تبدو في ناحية واحدة من نواحي الحياة بل تبدو في جميع الظروف والمناسبات فلا تمر فرصة أدبية كانت أو عملية

اقتصادية أو تجارية ، اجتماعية أو سياسية لا تظهر فيها تلك العواطف بأجلى وضوح . . .
ولا شك ان هذا الود المتبادل هو أكبر عامل من عوامل التقارب بين البلادين كما ان مثل مانحن مجتمعون له اليوم لداثره الفعال في زيادة الروابط الروحية والنفسية بين الشعبين الشقيقين شعب سوريا وشعب مصر . . . عاشا صديقين تؤلف بين قلبيهما عواطف الولاء والحب والإخلاص .

ولا يفوتني ان اسدي اجمل الشكر لحضرات رئيس واعضاء المجمع العلمي الذين يكرمون في الراحل الكبير لا ابن مصر فقط ولا شاعرها الفذ بل يكرمون فيه فقيد اللغة العربية وفقيد الشرق باجمعه كما واني أشكر حضرة صاحب الدولة حقي بك العظم رئيس الوزارة السورية على تعطفه بوضع هذه الحفلة التاريخية تحت رعايته السامية .

قراران في تأليف

« المجمع العلمي العربي »

(١)

قرار (١٣٥)

بوضع القانون الأساسي للمجمع العلمي العربي والمكتبة الوطنية في دولة سورية

ان رئيس مجلس الوزراء

بناء على القرار رقم ٢٩٨٠ بتاريخ ٥ كانون الأول سنة ١٩٢٤ القاضي بتأسيس دولة سورية

وبناء على قرار تعيينه رقم ١٨١٢ بتاريخ ١٤ شباط سنة ١٩٢٨ ٠

وبناء على قرار صلاحيته رقم ١٨٢٤ بتاريخ ١٥ شباط سنة ١٩٢٨ ٠

وبناء على القرار رقم ٢٨٣ بتاريخ ١٥ آذار سنة ١٩٢٦ القاضي بوضع نظام الجامعة السورية وفصل المجمع العلمي العربي عنها ٠

وبناء على اقتراح وزير المعارف ٠

« يقرر »

المادة الاولى المجمع العلمي العربي جمعية علماء غايتها ومهمتها حفظ اللغة العربية وترقيتها والتدقيق في البحث عن تاريخ سورية وتاريخ اللغة العربية ٠

المادة الثانية مركز المجمع العلمي العربي في دمشق ويمكن ان يكون له شعبة في حلب واعضاء مراسلون في البلاد المشمولة بالانتداب والبلاد الأجنبية ٠

المادة الثالثة يشرف المجمع العلمي العربي على دور الآثار في دولة سورية من الوجهة العلمية ٠

المادة الرابعة يربط المجمع العلمي العربي ادارةً بوزارة المعارف ٠

ان وزير المعارف مكلف بدرس الأمور المتعلقة بالمجمع العلمي ولاسيما الأمور التي يجب ان تعرض على رئيس الدولة أو المفوض السامي (فمن هذه الأمور) .

(١) يهيء الوزير جميع قرارات رئيس الدولة المتعلقة بنظام المجمع أو تعيين رئيسه واعضائه . وهذه القرارات تعرض على المفوض السامي للمصادقة عليها .

(٢) يدقق في مطالب رئيس المجمع العلمي بشأن الاعانات ويرسلها الى رئيس الدولة مشفوعة بملحوظاته .

المادة الخامسة يدير المجمع العلمي رئيس ينتخب بالتصويت السري لمدة ثلاث سنوات من بين الأعضاء وبناء على اقتراح زملائه يجوز تجديد انتخاب الرئيس .

المادة السادسة يساعد رئيس المجمع العلمي مجلس مؤلف من جميع الأعضاء .

أعضاء المجمع العلمي عشرون .

وعندما يتوفى أحد الأعضاء أو يقدم استقالته ينتخب مجلس المجمع خلفه ولا يصبح هذا التعيين مبرماً الا بعد موافقة رئيس الدولة وتصديق من المفوض السامي .

يجتمع مجلس المجمع العلمي مرة في السنة بجلسة اعتيادية بناء على دعوة الرئيس الذي يمكنه ان يدعوه ايضاً للاجتماع في جلسة غير اعتيادية .

وعدا ذلك فانه يساعد الرئيس عضوان اداريان دائمان ينتخبهما المجمع ضمن الشروط نفسها التي ينتخب بها الرئيس .

المادة السابعة يدرس المجمع العلمي جميع المسائل المتعلقة بالمجمع ليقدمها الى وزارة المعارف فمن هذه المسائل تهيئة الموازنة والنظام الداخلي وبرنامج مباحث التاريخ والالسنة والنشر والمطبوعات التي يجب القيام بها وادارة المكتبة الوطنية في دولة سورية الخ . . .

يبدي المجمع العلمي امانيه ومطاليبه المتعلقة بالحفر أو بالمباحث الأثرية التي تظهر له ضرورة القيام بها وبالتمثيل والاشتراك في المؤتمرات العلمية الدولية .

المادة الثامنة تحدد فيما بعد بقرار خاص الشروط التي يجب بموجبها على المؤلفين والناشرين وأصحاب المطابع والمكاتب أن يقدموا الى المكتبة الوطنية ثلاث نسخ من كل كتاب أو صحيفة أو جريدة أو مجلة مطبوعة في دولة سورية أو من تأليف وطني سوري ومعدة للبيع في دولة سورية .

المادة التاسعة يتمتع المجمع العلمي بالشخصية المعنوية وله زيادة على ذلك استقلال في ميزانيته وتتكون واردات موازنة المجمع العلمي من محصول العطايا والاعانات التي تجود بها دولة سورية ·

أما النفقات فانها تشمل ما يأتي :

راتب الرئيس والعضوين الاداريين ·

راتب موظفي الادارة والخدمة الذين يدخل في عدادهم موظفو المكتبة ·

التعويضات الخاصة التي تعطى بعد قرار وزاري الى الأعضاء للأبحاث والمحاضرات التي يكلفهم بها المجمع ·

حفظ المفروشات والأماكن والأجرة والتنوير والتدفئة وفرش الأماكن المعينة للمجمع ولشعبه وللمكتبة الوطنية ·

نفقات نشر الكتب والمخطوطات القديمة مع اعمال المجمع · نفقات المراسلات والاشتراك والنشريات ·

نفقات اشتراك وتمثيل المجمع العلمي في المؤتمرات الدولية العلمية وذلك بعد موافقة وزير المعارف وقرار رئيس الدولة ·

ايجاد جوائز لمكافأة اعمال اللغة والتاريخ وتاريخ اللغة والآثار ·

شراء كتب مطبوعة ومخطوطة للمكتبة الوطنية · والعناية بتجليدها وحفظها ووضع فهرس عام للمكتبة ·

ينفذ تنظيم هذه الموازنة التي يصدقها رئيس الدولة بناء على اقتراح وزير المعارف طبقاً لقواعد المحاسبة العامة ·

يقوم رئيس محاسبة وزارة المعارف بدون راتب اضافي بوظيفة محاسب المجمع العلمي العربي

أحكام التطبيق

المادة العاشرة ان جميع موافقات رئيس الدولة المنوه بها في هذا النص تصدر بصورة قرار ·

المادة الحادية عشرة ان الرئيس والعضوين الاداريين الدائمين الموجودين الآن في وظائفهم يبقون على رأس وظائفهم مدة ثلاث سنوات اعتباراً من نشر هذا القرار ·

المادة الثانية عشرة تلغى أحكام النصوص النظامية المتعلقة بادارة المجمع العلمي المخالفة لهذا القرار وعلى الأخص القرار رقم ١٣٢ المؤرخ في ١٥ حزيران سنة ١٩٢٣ .

المادة الثالثة عشرة ان وزير المعارف ووزير المالية مكلفان بتنفيذ هذا القرار الذي يطبق اعتباراً من يوم نشره للأعمال الادارية ومن ابتداء كانون الثاني سنة ١٩٢٨ من الوجهة المالية .

دمشق : في ٨ أيار سنة ١٩٢٨ .

وزير المعارف	شوهد مندوب المفوض السامي	رئيس مجلس الوزراء
محمد كرد علي	دبايله ديلوج	محمد تاج الدين الحسني

شوهد وصدق في ٨ أيار سنة ١٩٢٨ تحت رقم (٦٧٠)

المفوض السامي (بونسو)

– ٢ –

قرار رقم (١٤٠٩)

ان رئيس مجلس الوزراء بدولة سورية

بناء على قرار تأسيسها تاريخ ٥ كانون الاول سنة ١٩٢٤ رقم ٢٩٨٠

وعلى قرار تعيينه رقم ١٨١٣ بتاريخ ١٤ شباط سنة ١٩٢٨

وعلى قرار صلاحيته رقم ١٨٢٤ بتاريخ ١٥ شباط سنة ١٩٢٨

وعلى القرار رقم ٢٨٣ القاضي بوضع نظام الجامعة السورية

وعلى القرار رقم ١٣٥ تاريخ ٨ أيار سنة ١٩٢٨ القاضي بوضع نظام المجمع العلمي

وعلى القرار رقم ١١٣ القاضي بوضع ملاك التعليم العالي . وحيث ان التقلب في ادارات المعاهد العلمية الكبرى يحول دون رقيها .

وبناء على اقتراح وزير المعارف

« يقرر »

المادة الاولى تبدل المادة الثالثة من القرار رقم ٢٨٣ تاريخ ١٥ آذار سنة ١٩٢٦ بالأحكام الآتية :

المادة (٣) يدير الجامعة السورية رئيس يعين بقرار من رئيس الدولة بناء على اقتراح وزير المعارف وينتخب من أساتذة التعليم العالي ولايجوز ان يجمع بين وظائف أخرى ذات راتب يدفع من موازنة الدولة أو موازنة ملحقة بها .

المادة الثانية تبدل المادة التاسعة من القرار رقم ٢٨٣ تاريخ ١٥ آذار سنة ١٩٢٦ بالأحكام الآتية :

المادة (٩) يدير كلاً من معهدي الطب والحقوق رئيس ينتدبه رئيس الدولة بقرار الى مدة خمس سنوات بناء على اقتراح وزير المعارف .

ينتخب رئيس لكل معهد حتماً من بين المرشحين الذين يقترحهم مجلس المعهد ذي العلاقة من جهة ومجلس الجامعة من جهة أخرى . وكل من هذين المجلسين ينظم بهذا الشأن لائحة تحتوي على ثلاثة أسماء مرشحين من بين الاساتذة القائمين على رأس العمل في المعهدين ومن الممكن تجديد مهمة رئيس المعهد .

المادة الثالثة يعين رئيس المجمع العلمي بقرار من رئيس الدولة بناء على اقتراح وزير المعارف الى مدة خمس سنوات . وينتخب من لائحة تحتوي ثلاثة أعضاء في المجمع بهيئتها المجمع المذكور باجتماع عام . ومن الممكن تجديد مدة رئيس المجمع العلمي .

المادة الرابعة يمكن انهاء مهمة رئيسي المعهدين ورئيس المجمع العلمي العربي بناء على اقتراح وزير المعارف بموجب قرار من رئيس الدولة تبين فيه الاسباب الموجبة .

كل رئيس معهد أو رئيس مجمع علمي يعزل من مهمته لا يمكن ان يكون فيما بعد موضوع انتخاب رئيس الدولة الا بعد مضي خمس سنوات .

المادة الخامسة يتقاضى رئيس الجامعة السورية ورئيس المجمع العلمي الراتب المنصوص عليه بالقرار رقم ١١٣ ويتقاضيان ايضاً باسم نفقات تمثيل تعويضاً شهرياً قدره خمسون ليرة سورية لبنانية .

ويتقاضى رئيسا معهدي الحقوق والطب عدا الراتب الخاص بكرسيهما المنصوص عليه بالقرار رقم ١١٣ تعويضاً شهرياً قدره خمسون ليرة سورية لبنانية .

المادة السادسة تلغي أحكام القرارات رقم ٢٨٣ و١٣٥ و١١٣ فيما هو مخالف لهذا القرار .

المادة السابعة وزيرا المعارف والمالية مكلفان كل بما يخصه بتنفيذ هذا القرار ٠

دمشق : في ايلول سنة ١٩٢٩

وزير المعارف وزير المالية شوهد – المندوب رئيس مجلس الوزراء
محمد كردعلي محمدجميل الالشي (بروير) محمد تاج الدين الحسني

شوهد وصدق بتاريخ ٧ ايلول سنة ١٩٢٩ تحت رقم (١٢١٤)

عن المفوض السامي
التوقيع (تيترو)

قرار رقم ٢٣٧٦

ان رئيس مجلس الوزراء

بناء على القرار رقم ٢٩٨٠ بتاريخ ٥ كانون الاول سنة ١٩٢٤ القاضي بتأسيس دولة سورية

وبناء على قرار تعيينه رقم ١٨١٢ في ١٤ شباط ١٩٢٨ ٠

وعلى قرار صلاحيته رقم ١٨١٤ في ١٥ شباط سنة ١٩٢٨ ٠

وبناء على قرار رقم ١٣٥ القاضي بوضع نظام المجمع العلمي ٠ وبناء على اقتراح وزير المعارف وبعد استطلاع وزير العدلية ٠

« يقرر »

المادة الاولى عندما ينتهي طبع كل مطبوع سواء اكان هذا المطبوع يصدر في وقت معين ام لا وكل قطعة موسيقية وكل رسم مصور الخ – على صاحب المطبعة أن يودع المكتبة الوطنية في الدولة السورية نسختين منها والا كان عرضة لجزاء يتراوح بين ١٠ و ٥٠ ليرة ورقاً وتحتوي وثيقة الايداع على اسم صاحب المطبعة وعنوانه واسم المطبوع وعدد نسخه ويعطى بالنسختين وصل مرقم مؤرخ ٠ يستثنى من ذلك اوراق الانتخاب ٠ رسائل وبطاقات الدعوات وبيانات العنوان وعنوان الفواتير والاسهم المالية والعهود والاذاعات التجارية والصناعية ٠

المادة الثانية يجري الايداع الاجباري المنصوص عليه في المادة السابقة ٠

اما رأساً في المكتبة الوطنية (المجمع العلمي) بدمشق .
واما رأساً في مصلحة المعارف بحلب .
واما بموجب كتاب مضمون باسم محافظ المكتبة الوطنية (المجمع العلمي) بدمشق .
عند ما يجري الايداع رأساً يعطى الوصول فوراً وعندما يرسل بواسطة البريد يعطى الوصول بالطريقة نفسها .
وعلى كل الأحوال يوضع رقم الوصول بالحبر على النسختين المودعتين بجانب اسم صاحب المطبعة يستعمل سجل خاص حسب تتابع الأيام مرقم من (١) الى (ن) في المكتبة الوطنية وسجل آخر في مصلحة المعارف بحلب لتسجيل الايداعات .
المادة الثالثة تجري التعقيبات من قبل النيابة العامة في المركز الموجودة فيه المطبعة المخالف صاحبها وهذه التعقيبات تجري اما من قبل النيابة العامة مباشرة واما بناء على طلب رئيس المجمع العلمي أو رئيس مصلحة المعارف بحلب .
الماده الرابعة تلغى جميع الأحكام المخالفة لهذا القرار وأحكام القوانين السابقة التي تتعلق بايداع نسخة واحدة من بعض المؤلفات الى مصلحة المعارف .
المادة الخامسة وزيرا المعارف والعدلية مكلفان كل بما يخصه بتنفيذ هذا القرار .
دمشق : في ٢٦ آب سنة ١٩٣٠

وزير المعارف	شوهد وزير العدلية	رئيس مجلس الوزراء
التوقيع (محمد كرد علي)	التوقيع (صبحي النيال)	التوقيع (محمد تاج الدين الحسني)

شوهد وصدق بتاريخ ٦ ايلول سنة ١٩٣٠ تحت رقم ٨٨٧٦
المندوب
التوقيع (برويير)

رياسة المجمع العلمي العربي

انتهت مدة رياسة المجمع العلمي العربي فكتب معالي وزير المعارف مظهر باشا رسلان الى رياسة المجمع كتابا بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩٣٢ هذا نصه :

« نرجو ان تأمروا بجمع اعضاء المجمع العلمي لانتخاب رئيس له بحسب الاصول وتفضلوا باعلامنا النتيجة وقبول فائق الاحترام سيدي . »

فانتخب المجمع ثلاثة من أعضائه عملاً بقرار رقم ١٤٠٩ وهم الاساتذة محمد بك كرد علي والدكتور اسعد الحكيم والامير مصطفى الشهابي فاختارت وزارة المعارف الرئيس الاول وكتبت الى المجمع بتاريخ ٢٧ آب سنة ١٩٣٢ الكتاب الآتي :

« لمعالي رئيس المجمع العلمي العربي الافخم

هيأنا مرسوماً بتجديد انتخاب معاليكم لرياسة المجمع العلمي العربي وسنرسله اليكم متى صدق فنأمل أن يستمر المجمع في رياستكم الجديدة في سبيل التقدم والترقي وان يزداد ازدهاراً وتفضلوا بقبول فائق الاحترام سيدي » .

وهذه صورة المرسوم العالي الوارد بتجديد تعيين الرئيس

« ان رئيس الجمهورية السورية

بناءً على الدستور المنشور في ١٤ أيار سنة ١٩٣٠

وبناءً على القرار رقم ١٣٥ بتاريخ ٨ أيار ٩٢٨ القاضي بوضع نظام المجمع العلمي

وبناءً على القرار رقم ١٤٠٩ بتاريخ ايلول ٩٢٩ القاضي بوضع نظام تعيين رؤساء المعاهد

وبناءً على قرار المجمع العلمي بتاريخ ٢٤ آب سنة ١٩٣٢

وبناءً على اقتراح وزير المعارف

« يرسم مايلي »

المادة ١ — يجدد تعيين الاستاذ محمد بك كرد علي رئيساً للمجمع العلمي العربي لمدة

خمس سنوات اعتباراً من ١٦ حزيران سنة ١٩٣٢

المادة ٢ — يذاع هذا المرسوم ويبلغ الى من يجب .

دمشق في ربيع الآخر سنة ١٣٥١ هـ وفي آب سنة ١٩٣٢ م

١٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥١ هـ و١٣ ايلول سنة ١٩٣٢ م

صدر عن رئيس الجمهورية	التوقيع : محمد علي العابد
وزير المعارف	رئيس مجلس الوزراء
التوقيع : مظهر رسلان	التوقيع : حقي العظم

آراء وافكار



« جامع أو جامعة القرويين »

ان فاخر المشرق بالأزهر وقدم الازهر فان المغرب الأوسط جدير بان يباهي بجامع الزيتونة . والمغرب الأقصى بجامع او جامعة القرويين . وان هذا الأخير أسبق زمناً من رفيقيه بل ربما كان أقدم مدرسة جامعة في العالم .

أسست جامعة القرويين امرأة وهي فاطمة أم البنين سنة ٢٤٥ هـ ومازالت تلك الجامعة منذ ذلك التاريخ الى الآن تهدى الى مختلف الأقطار في الشرق والغرب حظاً من ثمار رجالها الذين خدموا العلم بنشاط واخلاص ونثروا في كل جهة بزور الفنون المختلفة سواء منها ما يتعلق بالدين أو الدنيا . وما كان تعصب هؤلاء الرجال لدينهم بالذي يمنعهم ان يفتحوا صدورهم لقبول كل شيء ودرس كل ما من شأنه ترقية الفكر واصلاح الضمير . ولنسرد على سبيل المثال طائفة من هؤلاء الرجال :

(١) عبد الله بن حجاج صاحب الأرجوزة في الجبر والمقابلة (توفي سنة ٦٠١ هـ) .

(٢) الإمام ابن البنا الفلكي المهندس الفيلسوف (نيف و ٧٢٠ هـ) .

(٣) احمد بن شعيب الجزنائي الطبيب الأديب (٧٤٩ هـ) .

(٤) محمد بن عمر الفلكي (٧٩٤ هـ) .

(٥) ابو زيد الجاديري الفلكي الشهير (٨١٨ هـ) .

(٦) عبد الله اليفرني اليحسوبي الكبير (٨٥٦ هـ) .

(٧) ابو عمران بن المقدة موسى الدلتاني (٩١١ هـ) .

(٨) ابو العباس احمد المطرفي المعدل (١٠٠١ هـ) .

(٩) ابو زيد البعقيلي الفلكي (١٠٠٦ هـ) ٠
(١٠) محمد بن ابي القاسم بن القاضي الرياضي (١٠٤٠ هـ) ٠
(١١) ابو الحسن بن عبد الواحد صاحب المؤلفات في الطب والتشريح والفلك (١٠٥٢ هـ) ٠
(١٢) عبد الوهاب بن ابي حامد الميقاتي المهندس (١٠٧٩ هـ) ٠
(١٣) محمد بن سليمان الروواني مخترع كرة الدوائر الفلكية الشهيرة به المتوفى بالشام (١٠٩٥ هـ) ٠
(١٤) ابو زيد عبد الرحمن الفاسي اسيوطي زمانه الذي قيل فيه أنه أعرف بكل فن من اهل كل فن مؤلف كتاب الأقنوم ومخطط الخرائط الجغرافية والفلكية الخالدة (١٠٩٦ هـ) ٠

هذه طائفة ممن اشتهر بعلوم الدنيا اما علماء الدين فانهم يفوقون الحصر ٠ وكانت جامعة القرويين على اختلاف الاعصار مثابة لطلاب الاقطار يفدون اليها رغبة في التزود من معينهـا والكرع من ينابيع رجالها فقد قبلت عديداً من طلبة مصر وافريقية والاندلس وانكلترا وروما وغيرها وقد قال بعض علماء الروسية (ان أقدم كلية في العالم ليس في اوربا كما كان يظهر بل في افريقية في مدينة فاس عاصمة بلاد المغرب سابقاً اذ تحقق بالشواهد التاريخية ان هذه المدرسة كانت تدعى (كلية قيروان) وقد أسست في القرن التاسع للميلاد (أي الثالث للهجرة) وعليه فهي ليست فقط أقدم كليات العالم بل هي الكلية الوحيدة التي كانت تتلقى فيها الطلبة العلوم السامية في تلك الأزمنة وقت ان لم تكن سكان باريس واكسفورد وباردو وبولونيا يعرفون من الكليات الا الاسم ولذلك كانت الطلبة تتوارد على (كلية قيروان) من انحاء اوربا وانكلترا فضلاً عن بلاد العرب الواسعة للانخراط في سلك طلابها وتلقي العلوم السامية باللغة العربية مع الطلبة الافريقيين والمصريين والاندلسيين وغيرهم ومن جملة من تلقى علومه في هذه الكلية من الأوربيين البابا (سلفستر) وهو اول من ادخل الى اوربا الأرقام العربية وطريقة الأعداد المألوفة بعد أن اتقنها جيداً في هذه الكلية كما يظهر من رسالته الى الامبراطور (أتون) مساعده التي أتى فيها على ذكر الصفر بقوله : إني اشبهك بالرقم الأخير من الاعداد البسيطة العشرية التي تزداد قيمته بوضع اعداد

أخرى عن يساره اهـ . وقول هذا الكاتب الروسي ان اسم تلك الكلية (كلية قيروان) تغيير في الترجمة وصوابه (كلية القرويين) وقد رأى القاري من اسماء العلماء السابقين انهم كانوا بحوراً في علوم الدنيا كالطب والفلك والهندسة وهذا في القرن الثالث عشر الذي يعد بحق عصر الاسفاف في الافكار والانحطاط في الهمم وقد أشار الى ذلك كثيرون ممن تعرضوا للمغرب في كتاباتهم من الأوربيين أمثال الموسيو (بونه مورو) مؤلف كتاب الاسلام والنصرانية في افريقية . ومن العلماء المعاصرين الذين تلقوا العلوم الحديثة في جامعة القرويين .

(١) — الطبيب سيدي عبدالسلام العلمي وله مصنف في البواسير ومصنف آخر سماه (ضوء النبراس . في حل الفاظ الانطاكي بلغة فاس) وقد ذكر في آخر هذا الكتاب انه شرع في وضع معجم للمصطلحات الطبية الجديدة ومقابلتها بالمفردات العربية واللهجة المغربية ولا نعلم ان كان أتمه او حالت المنية دون الاتمام .

(٢) — ابو عبد الله الأغزاوي المهندس .

(٣) — سيدي ادريس البلغيثي الفلكي .

(٤) — السيد محمد الايراني الموسيقي البارع الذي استمر يدرس الموسيقى بظهر صومعة القرويين الى آخر العقد الثالث من هذا القرن .

ولسنا ننكر ان في هـذه الجامعة فوضى تحتاج الى إصلاح ونظاميتين ولعل هذا في جملة الاسباب التي دعت جلالة السلطان مولاي الحسن الى إيفاد البعثات العلمية رغبة في الاستفادة من العلوم الحديثة وتطبيق برنامج ثابت في جامعة القرويين تنال من ورائه الفائدة المبتغاة ان شاء الله . انتهى ملخصاً من مقال لسيدي محمد علال الفاسي نشره في (مجلة المغرب) .

«المغربي»

—((☆ ✿ ☆))—

« الفهرس العام »

(لما في هذا المجلد من المواد والموضوعات مرتباً على حروف الهجاء)

حرف الهمزة (الف)

حرف الباء

حرف التاء

صفحة

حرف الواو

حرف الهاء

صفحة

—((**))—

فهرست الاعلام

«اي اسماء كتاب المقالات المنشورة في هذا المجلد مرتبة على حروف المعجم»

حرف الالف

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف السين

حرف الشين

حرف العين

حرف الفاء

حرف الكاف

حرف الميم

حرف الواو

جدول الخطأ والصواب

ورد في اجزاء هذا المجلد اغلاط مطبعية نبهنا اليها فيما يلي :

جاء في ص ٢٣ س ١ اهو صوابها هو · وفيها س ٢ للغة صوابها اللغة · وص ٢٦ س ٤ بوغه صوابها نبوغه · وص ٣٩ س ٦ لظ ية صوابها لظبية · وص ٤٩ س ٥ من ا صوابها من أن · وص ٥٨ س ١٣ الحـ بة صوابها الحسبة · وص ٦٦ س ١١ يكـ ن صوابها يكون · وص ٧٢ س ٩ زهرةالجريس صوابها زهرة الجُلجُل · وص ٨٧ س ٦ comte صوابها conte · وفيها س ١٠ مقـ مة صوابها مقامة · وص ٩٥ س ٢٣ بلاد صوابها ببلاد · وص ١١٣ س ١٨ بعدم صوابها بعدها · وص ١٢٥ س ٦ ويتذ قون صوابها ويتذوقون · وص ١٥١ س ٢ فسل صوابها فصل · وفيها س ٧ والفسل صوابها والفصل · وص ١٥٤ س ٢٠ فظا صوابها لفظاً · وص ١٥٧ س ٨ يقذفا صوابها يقذفها وص ١٥٩ س ٥ الاستكره صوابها الاستكراه · وص ١٧٨ س ١٤ التفـ حية صوابها التفاحية · وص ١٨١ س ٢٢ بالنقظ صوابها بالنقط · وص ١٩٢ س ٨ — ١١ صوابها واواً · وص ١٩٥ س ٦ و لاخر صوابها والآخر · وص ٢٣٠ س ١٣ القطلب صوابها البقس · وص ٢٤٥ س ١٠ عاملة صوابها معاملة · وفيها س ١٣ بعدي صوابها لبعدي · وص ٢٤٧ س ١٩ يترضى صوابها فيترضى · وص ٢٥٩ س ٧ وقي صوابها وفي · وص ٢٦٢ س ١٢ ؤ صوابها في · وص ٢٩٥ س ١٤ ـويا صوابها قويا · وص ٣٠٠ س ٢٢ المهـ د صوابها الممدود · وص ٣٠٣ س ٨ نزله صوابها منزله · وص ٣٠٤ س ٧ حلقه صوابها خلقه · وص ٣٢٧ س ١٢ خا ـدة صوابها خامدة · وص ٣٨٤ س ٢٠ المفاخرة صوابها المعاصرة · وص ٣٩١ س ١ الأشار صوابها لأشار · وص ٣٩٩ س ١٠ الطلب صوابها الحلب · وص ٤٠١ س ٢ وعاؤها صوابها وعاءها · وص ٤٠٩ س ٨ (١) صوابها ١٠ · وص ٤١٨ س ٢ عرب صوابها تركان · وفيها س ٣ سراة التركان صوابها سراتهم · وفيها س ٥ في زهاء صوابها وزهاء · وفيها س ١٥ (١٣٥) صوابها ١٣٥١ · وص ٤٤٤ س ٤ قي صوابها في · وص ٤٤٦ س ٦ وضمه صوابها وضمنه · وص ٤٤٨ س ١٥ (٤) صوابها (٠) وص ٤٥٤ س ١ رجع صوابها نرجع · وص ٤٦١ س ٢٠ تم صوابها ثم · وص ٤٦٤ س ١٩ و وى صوابها

وروى • وص ٤٧٤ س ١١ ينقص صوابها ينقص • وص ٤٧٩ س ٢٢ وربما صوابها وبما • وص ٤٨٠ س ١٢ الحرار صوابها الحرى • وفيها س ١٨ طمى الحرات صوابها العلمي الحرّي • وفيها س ٢٠ تعميق صوابها بتعميق • وص ٤٨٥ س ١ متعددة صوابها متمددة • وفيها س ١ مقعرة وناتئة صوابها مقعرة أوناتئة • وص ٥١٧ العنوان محمد يحيى الاثري صوابها محمد يحيى الهاشمي • وص ٥٢٣ س ٢٠ تحتاج صوابها تحتاج • وص ٥٢٦ س ١٧ المترادفة صوابها المترادفة • وص ٥٥٠ س ٢٢ (٤٩ — ٥٠ صوابها ٤٠ — ٥٠ • وص ٥٥٣ س ٣ البيان صوابها البنيان • وص ٥٥٦ س ٦ (٦٣) صوابها ٦٣٠ • وفيها س ٧ (٦٨٩) صوابها ٦٧٩ • وص ٥٥٩ س ١٣ اربعم صوابها اربع • وص ٥٦٧ س ١٠ قلت الصواب فقلت • وص ٥٧٢ س ٨ التي تعاو ته الصواب التي تعاورته • وص ٥٨٦ س ٢٠ لكمات الصواب اكملت • وفيها س ٢١ — احاجة الصواب حاجة • وص ٥٩٥ س ١١ أصبح الصواب فأصبح • وص ٥٩٧ س ٠ يحفى الصواب يخفى • وص ٦١٠ س ٨ الداوية اي الفرسان الهيكليين — الصواب الاسبتار اي فرسان مستشفى ماريوحنا • وص ٦١٣ س ١٦ الزيادات صوابها الزيارات • وص ٦١٥ س ٢٤ له صوابها عليه • وص ٦١٦ س ١٨ يتمثل صوابها يمثل • وص ٦١٩ س ١٨ منكسر ا — صوابها منكسراً • وص ٦٢٨ س ٢ في فج صوابها في فتح • وص ٦٥٦ س ٨ حمسين صوابها خمسين • وص ٦٥٧ س ٤ جرب صوابها جريب • وفيها س ١١ نياتيين صوابها نباتيين • وص ٦٧٤ س ١٤ في امم صوابها اسم • وص ٦٧٥ س ١٤ كالقصور صوابها كالعقود • وص ٦٧٦ س ٢١ رجل ايضاً صوابها ايضاً رجل • وص ٦٧٨ س ٢ غنابير صوابها غنابيز وص ٧٠٠ س ٦ د بة صوابها دربة • وص ٧٠٢ س ١ — لأخرى صوابها الأخرى • وفيها س ٩ هذه صوابها في هذه • وص ٧٠٨ س ١٥ توت غنغ صوابها عنخ • وص ٧١٦ س ١ مصر لمن صوابها مصر ولمن • وص ٧٢٣ س ٦ نخمه صوابها نقمه وفيها س ١٠ محاطباً صوابها مخاطباً • وص ٧٢٥ سطر ٢٥ ي صوابها أي • وصفحة ٧٢٨ سطر ١٢ الحرات السوداء صوابها حجارة الحرار السود • وصفحة ٧٣٢ سطر ١ جرت في صوابها جرت معركة في • وصفحة ٧٤٩ سطر ١٤ نخاظبه صوابها نخاطبه • وصفحة ٧٥٢ سطر ١ ياويج صوابها ياويح • وصفحة ٧٥٦ سطر ١١ الفصيج صوابها الفصيح •